

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورتي
الفاتحة والبقرة

الدكتور محمد سيد طنطاوي
مفتي جمهورية مصر العربية

المجلد الأول



دار المعارف
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

راجعة

د. عبد الرحمن العَدَوِي
الأستاذ بكلية أصول الدين

تصميم الغلاف

أبو بكر الواحي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَبَّنَا اقْبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾

صدق الله العظيم

في هذا المجلد

صفحة		
١١	● تفسير سورة الفاتحة
٢٧	● تفسير سورة البقرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا هو، وحده لا شريك له، أله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله رحمة للعالمين، وأنزل عليه كتابًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه الذين آمنوا به وعزروه ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه، أولئك هم المفلحون.

وبعد: فإن القرآن الكريم هو كتاب الله الذي أنزله على قلب نبيه محمد - ﷺ -، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ولينقذهم من الكفر والظلم والفجور. ﴿كتاب أنزلناه إليك لتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾^(١). وقد أنزل الله - تعالى - هذا القرآن على قلب نبيه ﷺ، لمقاصد عالية، وحكم سامية، وأغراض شريفة...

من أهمها أن يكون هذا القرآن هداية للإنس وللجن في كل زمان ومكان إلى الصراط المستقيم، وإلى السعادة التي تصبو إليها النفوس، وتتطلع إليها الأفتدة والقلوب... وقد أودع - تعالى - في هذا الكتاب من العقائد السليمة، والعبادات القويمة، والأحكام الجليلة، والآداب الفاضلة، والعظات البليغة، والتوجيهات الحكيمة... ما به قوام الملة الكاملة، والأمة الفاضلة، والجماعة الراشدة، والفرد السليم في عقيدته وسلوكه وفي كل شأنه.

فكان هذا الكتاب أفضل الكتب السماوية، وأوفاهما بحاجة البشرية، وأجمعها للخير، وأبقاها على الدهر، وأعمها وأتمها وأصحها في هدايته الناس إلى ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم.

(١) سورة إبراهيم: الآية ١.

قال - تعالى - : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾^(١).

وقال تعالى : ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ، وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٢) .
وقال - تعالى - ﴿قُلْ أَوْحَى إِلَىَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ ، فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا . يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾^(٣) .

كذلك من أهم المقاصد التي من أجلها أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ هذا القرآن ، أن يكون هذا القرآن معجزة ناطقة في فم الدنيا بصدقه فيما يبلغه عن ربه .

ولقد جاء النبي - ﷺ - إلى الناس فدعاهم إلى وحدانية الله ، وإلى مكارم الأخلاق ، وقال لهم : معجزتي الدالة على صدقي هذا القرآن ، فإن كنتم في شك من ذلك فأتوا بمثله فعجزوا ، فأرخصي لهم العنان وتحداهم بأن يأتوا بعشر سور من مثله فما استطاعوا ، فزاد في إرخاء العنان لهم - وهم أرباب البلاغة والبيان - وتحداهم بأن يأتوا بسورة واحدة من مثله ، فأخرسوا وانقلبوا صاغرين . فثبت أن هذا القرآن من عند الله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا .

قال الله تعالى - : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾^(٤) .

كذلك من أهم المقاصد التي من أجلها أنزل الله هذا القرآن على قلب نبيه - ﷺ - ، أن يتقرب الناس به إلى خالفهم عن طريق تلاوته ، وحفظه ، وتدبره ، والعمل بتشريعاته وآدابه وتوجيهاته . . .

ولقد تكلم الإمام القرطبي بإسهاب في مقدمة تفسيره عن فضائل القرآن ، والترغيب فيه ، وفضل طالبه ، وقارته ، ومستمعه ، والعامل به ، وكيفيه تلاوته . . . فقال ما ملخصه :

اعلم أن هذا الباب واسع كبير . ألف فيه العلماء كتبًا كثيرة ، نذكر من ذلك نكتنا تدل على فضله ، وما أعد الله لأهله إذا أخلصوا الطلب لوجهه ، وعملوا به . فأول ذلك أن يستشعر المؤمن من فضل القرآن أنه كلام رب العالمين . كلام من ليس كمثله شيء

(١) سورة الإسراء . الآية ٩ .
(٢) سورة المائدة : الآيات ١٥ ، ١٦ .
(٣) سورة الجن : الآيات ١ ، ٢ .
(٤) سورة البقرة : الآيات ٢٣ ، ٢٤ .

ومن الآثار التي جاءت في هذا الباب ما أخرجه الترمذى عن أبى سعيد قال : قال رسول الله - ﷺ - يقول الله تعالى : « من شغله القرآن وذكرى عن مسألتي ، أعطيته أفضل ما أعطى السائلين . . . » .

وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إن هذا القرآن مادبة الله ، فتعلموا من مادبته ما استطعتم . . . » .

وروى البخارى عن عثمان بن عفان عن النبى ﷺ قال : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » ، وروى مسلم عن أبى موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجة^(١) ريحها طيب وطعمها طيب . ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو . ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر . ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة لا ريح لها وطعمها مر » .

وروى مسلم عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه - أى يقرؤه بصعوبة - وهو عليه شاق له أجران » .
وروى الترمذى عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله بكل حرف حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها . لا أقول آلم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »^(٢) .

هذا جانب من الأحاديث الشريفة التى أوردها القرطبي ، وهو يتحدث عن فضائل القرآن ، والترغيب فيه . . . الخ .

ولقد حذر النبى ﷺ : أمته تحذيراً شديداً من نسيان القرآن ، فقد روى الشيخان عن أبى موسى عن النبى ﷺ قال : « تعاهدوا القرآن ؛ فوالذى نفسى بيده لهو أشد تفصيلاً - أى : تفلتاً - من الإبل فى عَقْلِها » .

وروى الترمذى وأبو داود عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : « عرضت على ذنوب أمتى فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيتها رجل ثم نسيها » .

هذه أهم المقاصد والحكم التى من أجلها أنزل الله - تعالى - القرآن على نبيه ﷺ : أن

(١) الأترجة : ثمرة حلوة الطعم ، طيبة الرائحة ، جميلة اللون ، تشبه النضاحة .

(٢) تفسير القرطبي : ح ١ ص ٤ وما بعدها :

يكون هداية للناس، وأن يكون معجزة خالدة باقية شاهدة بصدق الرسول - ﷺ - : فيما يبلغه عن ربه، وأن يتقرب الناس بقراءته والعمل به إلى خالفهم - عز وجل - ولقد تكفل الله - تعالى - بحفظ هذا القرآن، وصانه من التحريف والتبديل، والتغيير والمعارضة. قال - تعالى - : ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾^(١).

وكان من مظاهر عنايته - سبحانه - بكتابه، أن جعله محفوظاً في كل العصور بالتواتر الصادق القاطع، يرويه الخلف عن السلف بالكيفية المروية عن رسول الله - ﷺ -، وأن وفق له في كل عصر حفاظاً متقنين جمعوه في صدورهم، وعمروا به ليلهم ونهارهم... وأن قيض له رجالاً قضوا معظم أيام حياتهم في خدمته ودراسة علومه، فمنهم من كتب في إعجازه وبلاغته، ومنهم من كتب في قصصه وأخباره، ومنهم من كتب في أسباب نزوله، ومنهم من كتب في قراءاته ورسمه، ومنهم من كتب في محكمه ومتشابهه، ومنهم من كتب في ناسحه ومنسوخه، ومنهم من كتب في مكيه ومدنيه، ومنهم من كتب في غريب ألفاظه... إلى غير ذلك من ألوان علومه.

وكثير منهم كتبوا في تفسيره. وتوضيح معانيه ومقاصده وألفاظه، وذلك لأن سعادة الأفراد والأمم لا تنأى إلا عن طريق الاسترشاد بتعاليم القرآن وتوجيهاته، وهذا الاسترشاد لا يتحقق إلا عن طريق الكشف والبيان، لما تدل عليه ألفاظ القرآن. وهو ما يسمى بعلم التفسير. فتفسير القرآن هو المفتاح الذي يكشف عن تلك الهدايات السامية، والتوجيهات النافعة، والعظات الشافية والكنوز الثمينة التي احتواها هذا الكتاب الكريم.

ويدون تفسير القرآن، تفسيراً علمياً سليماً مستنيراً لا يمكن الوصول إلى ما اشتمل عليه هذا الكتاب من هدايات وتوجيهات، مهما قرأه القارئون وردد ألفاظه المرددون.

قال إياس بن معاوية : مثل الذين يقرءون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره، كمثل قوم جاءهم كتاب من مليكهم ليلاً، وليس عندهم مصباح، فتداخلتهم روعة ولا يدرون ما في الكتاب. ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرأوا ما في الكتاب^(٢).

ولقد أفاض الإمام ابن كثير في بيان هذا المعنى «وفي بيان أحسن طرق التفسير فقال : «فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله، وتفسير ذلك، وطلبه من مظانه، وتعلم ذلك وتعليمه...»

فإن قال قائل : فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب : أن أصح الطرق في ذلك أن يفسر

(٢) تفسير القرطبي - ج ١ ص ٢٦.

(١) سورة الحجر. الآية ٩.

القرآن بالقرآن فما أجمل في مكان فإنه قد بسط في موضع آخر، فإن أعيانك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له وقد قال رسول الله ﷺ : « ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه »، يعنى السنة

والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجده فمن السنة فإن لم تجده فمن أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبرائهم كالخلفاء الراشدين، والأئمة المهتدين المهديين . . . قال عبد الله بن مسعود : والذي لا إله غيره، ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت. ولو أعلم أحدًا أعلم بكتاب الله منى تناله المطايا لأتيته». وقال : كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن».

وقال أبو عبد الرحمن السلمى : «حدثنا الذين كانوا يقرئونا أنهم كانوا يستقرئون من النبي - ﷺ - وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً»

فإذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر، وسعيد ابن جبير. وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصرى وغيرهم^(١).

هذا، وأنت إذا سرحت طرفك في المكتبة الإسلامية ترى العشرات من كتب التفسير، منها القديم والحديث، وترى منها الكبير والوسيط والوجيز، وترى منها ما يغلب عليه طابع التفسير بالمأثور، وترى ما يغلب عليه طابع التفسير بالرأى، وترى منها ما تغلب عليه الصبغة الفقهية، أو البلاغية، أو الفلسفية، أو الصوفية، أو العلمية، أو الاجتماعية، أو الطائفية . . . أو غير ذلك من الاتجاهات والميول التي تختلف باختلاف أفكار الكاتبين وثقافتهم ومذاهبهم . . .

وترى منها المحرر أو شبه المحرر من الخرافات، والأقوال السقيمة، والقصص الباطلة . . . كما ترى منها ما هو محشو بذلك.

ولقد انتفعت كثيراً بما كتبه الكاتبون عن كتاب الله - تعالى -، وهأنذا - أخى القارئ - أقدم لك تفسيراً وسيطاً لسورتى الفاتحة والبقرة، وقد بذلت فيه أقصى جهدى ليكون تفسيراً علمياً محققاً، محرراً من الأقوال الضعيفة، والشبه الباطلة، والمعاني السقيمة . .

(١) تفسير ابن كثير - ج ١ ص ٤ وما بعدها - بتصرف وتلخيص -.

وستلاحظ خلال قراءتك له أنني كثيراً ما أبدأ بشرح الألفاظ القرآنية شرحاً لغوياً مناسباً ثم أبين المراد منها - إذا كان الأمر يقتضى ذلك - .

ثم أذكر سبب النزول للآية أو الآيات - إذا وجد وكان مقبولاً - .

ثم أذكر المعنى الإجمالى للآية أو الجملة، عارضاً^(١) ما اشتملت عليه من وجوه البلاغ والبيان، والعظات والآداب والأحكام... ، مدعماً ذلك بما يؤيد المعنى من آيات أخرى، ومن الأحاديث النبوية، ومن أقوال السلف الصالح.

وقد تجنبت التوسع فى وجوه الإعراب، واكتفيت بالرأى أو الآراء الراجحة إذا تعددت

الأقوال...

وذلك لأننى توخيت فيما كتبت إبراز ما اشتمل عليه القرآن الكريم من هدايات جامعة، وأحكام سامية، وتشريعات جلية، وآداب فاضلة، وعظات بليغة، وأخبار صادقة، وتوجيهات نافعة، وأساليب بليغة، وألفاظ فصيحة...

والله أسأل أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا، وأنس نفوسنا، وبهجة أفئدتنا، وأن يعيننا ويوفقنا لإنمام ما بدأناه من خدمة كتابه، وأن يجعل أعمالنا وأقوالنا خالصة لوجهه، ونافعة لعباده.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه الراجى عفو ربه

محمد سيد طنطاوى

مفتى الديار المصرية

(١) عرض الشيء: أظهره وأبرزه. المعجم الوسيط - ج ٢ ص ٥٩٣.

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ①

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ③

مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤

أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑦

سورة الفاتحة هي السورة الوحيدة التي أمر الإسلام أتباعه أن يقرأوها في كل صلاة. وفي جميع الركعات، وفي كل الأوقات، ولهذا أصبح حفظها ميسوراً لكل مؤمن. وهذه السورة على صغر حجمها، وقلة آياتها، قد اشتملت بوجه إجمالي على مقاصد الدين من توحيد، وتعبد، وأحكام، ووعد ووعيد.

ونرى من الخير قبل أن نبدأ في تفسيرها بالتفصيل، أن نعهد لذلك بالكلام عما يأتي:

أولاً: متى نزلت سورة الفاتحة؟

للإجابة على هذا السؤال نقول: إن الرأي الراجح بين المحققين من العلماء أنها نزلت بمكة، بل هي من أوائل ما نزل من القرآن بمكة.

وقيل: إنها مدنية. وقيل: إنها نزلت مرتين مرة بمكة حين فرضت الصلاة ومرة بالمدينة حين حولت القبلة.

قال القرطبي: الأول أصح لقوله - تعالى - في سورة الحجر: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾ وسورة الحجر مكية بالإجماع. ولا خلاف في أن فرض الصلاة كان بمكة، وما حفظ أنه كان في الإسلام قط صلاة بغير ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ «يدل على ذلك قوله

ﷺ : « لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب ». وهذا خبر عن الحكم لا عن الابتداء^(١).
ثانيًا : عدد آياتها : وهي سبع آيات لقوله - تعالى - : ﴿ ولقد آتيناك سبعًا من المثاني والقرآن العظيم ﴾ . قال العلماء : السبع المثاني هي الفاتحة .

وقال ابن كثير : هي سبع آيات بلا خلاف . وقال عمرو بن عبيد : هي ثمان آيات لأنه جعل ﴿ إياك نعبد ﴾ آية . وقال حسين الجعفي : هي ست آيات وهذان القولان شاذان^(٢) .
ثالثًا : اسمائها : لسورة الفاتحة أسماء كثيرة من أشهرها :

١ - « الفاتحة أو فاتحة الكتاب ، وسميت بذلك لأنه تفتح قراءة القرآن بها لفظًا . وتفتح بها الكتابة في المصحف خطأ ، وتفتح بها الصلوات ، وإن لم تكن هي أول ما نزل من القرآن . وقد اشتهرت بهذا الاسم في أيام النبوة .

وقد أصبح هذا الاسم علمًا بالغلبة لتلك الطائفة من الآيات التي مبدؤها ﴿ الحمد لله ﴾ . . ونهايتها . . ﴿ ولا الضالين ﴾ .

٢ - « أم القرآن أو الكتاب » وسميت بذلك لاشتغالها إجمالاً على المقاصد التي ذكرت فيه تفصيلاً ، أو لاشتغالها على ما فيه من الثناء على الله بما هو أهله ، والتعبد بأمره ونهيه ، وبيان وعده ووعيده ، أو على جملة معانيه من الحكم النظرية ، والأحكام العملية التي هي سلوك الصراط المستقيم ، والاطلاع على معارج السعداء ومنازل الأشقياء .

قال ابن جرير : « والعرب تسمى كل أمر جامع أمًا ، وكل مقدم له توابع تتبعه « أمًا » فتقول للجلدة التي تجمع الدماغ : « أم الرأس » . وتسمى لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها « أمًا »^(٣) .

٣ - « السبع المثاني » جمع مثنى كفعلى اسم مكان . أو مثنى - بالتشديد - من الثنية على غير قياس . وسميت بذلك لأنها سبع آيات في الصلاة ، أي تكرر فيها ؛ أخرج الإمام أحمد ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ أنه قال : « هي أم القرآن ، وهي السبع المثاني ، وهي القرآن العظيم »^(٤) .

٤ - وتسمى - أيضًا - سورة « الحمد » . ٥ - و« الكثر » . ٦ - و« الواقعة » .

(١) تفسير القرطبي . ج ١ ص ١١٥ طبعه دار الكاتب العربي .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٨ طبعه عيسى الحلبي .

(٣) تفسير ابن جرير ج ١ ص ١٠٧ طبعه دار المعارف .

(٤) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٩ .

- ٧- و«الشفاء»، لحديث. هي الشفاء من كل داء.
 ٨- و«الكافية» لأنها تكفي عن سواها ولا يكفى سواها عنها.
 ٩- و«الأساس».
 ١٠- و«الرقية».

هذا، وقد ذكر القرطبي للفاتحة اثني عشر اسماً، كما ذكر السيوطي لها في كتابه «الإتقان» خمسة وعشرين اسماً.

رابعاً: فضلها: ورد في فضل سورة الفاتحة أحاديث كثيرة منها:

ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي سعيد بن المعلى - رضى الله عنه - قال: كنت أصلي في المسجد، فدعاني النبي ﷺ فلم أجبه فقلت: يا رسول الله، إني كنت أصلي. فقال: ألم يقل الله: ﴿استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم﴾.

ثم قال لى: «لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد». ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج، قلت: يا رسول الله. ألم تقل: لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن. قال: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته^(١).

وروى مسلم والنسائي، عن ابن عباس، قال:

بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضاً من فوقه - أى: صوتاً - فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم. فسلم وقال: أبشر بنورين قد أوتيتهما، ولم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لم تقرأ بحرف منها إلا أعطيته^(٢).

وروى مسلم عن أبي هريرة - رضى الله عنه - عن النبي ﷺ قال:

«من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج (ثلاثاً): غير تمام» فقيل لأبي هريرة: إنا نكون وراء الإمام؟ فقال: اقرأها في نفسك؛ فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله - تعالى -: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدى نصفين، ولعبدى ما سأل»، فإذا قال العبد: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾. قال الله: حمدنى عبدى، وإذا قال: ﴿الرحمن الرحيم﴾. قال الله تعالى: أننى على عبدى. وإذا قال: ﴿مالك يوم الدين﴾ قال الله: مجئنى عبدى. فإذا قال: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾. قال الله: هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل. فإذا قال:

(١) صحيح البخارى. كتاب التفسير. باب ما جاء في فاتحة الكتاب ج ٦ ص ٢١

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها ج ٢ ص ١٩٨.

﴿اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾. قال الله: «هذا لعبدى ولعبدى ما سأل»^(١).

وأخرج الإمام أحمد في مسنده، عن عبد الله بن جابر، أن رسول الله - ﷺ - قال له: ألا أخبرك بأخبر سورة في القرآن؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: اقرأ: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ حتى تحتمها^(٢).

تلك هي بعض الأحاديث التي وردت في فضل هذه السورة الكريمة. وقد ذكر العلماء أنه يسن للمسلم قبل القراءة أن يستعذ بالله من الشيطان الرجيم، استجابة لقوله - تعالى - ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾^(٣). ومعنى «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»: ألتجئ إلى الله وأتحصن به، واستجير بجنابه من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني أو دنياي.

قال ابن كثير: «والشيطان في لغة العرب كل متمرّد من الجن والإنس والدواب وكل شيء. وهو مشتق من شطن إذا بعد، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، وبعيد بفسقة عن كل خير. وقيل: مشتق من شاط لأنه مخلوق من نار. والأول أصح إذ عليه يدل كلام العرب، فهم: يقولون تشيطن فلان إذا فعل أفعال الشيطان، ولو كان من شاط. لقالوا: تشيط، فالشيطان مشتق من البعد على الصحيح»^(٤).

والرجيم: فعيل بمعنى مفعول أى أنه مرجوم مطرود من رحمة الله ومن كل خير، وقيل: رجيم بمعنى راجم لأنه يرمج الناس بالوساوس والشكوك.

قال بعض العلماء: «وإنما خصت القراءة بطلب الاستعاذة مع أنه قد أمر بها على وجه العموم في جميع الشئون، لأن القرآن مصدر الهداية والشيطان مصدر الضلال، فهو يقف للإنسان بالمرصاد في هذا الشأن على وجه خاص، فيثير أمامه ألواناً من الشكوك فيما يقرأ، وفيما يفيد من قراءته، وفيما يقصد بها، فيفوت عليه الانتفاع بهدى الله وآياته، فعلمنا الله أن نتقى ذلك كله بهذه الاستعاذة التي هي في الواقع عنوان صدق، وتعبير حق، عن امتلاء قلب المؤمن بمعنى اللجوء إلى الله، وقوة عزيمته في طرد الوسوس والشكوك، واستقبال الهداية بقلب طاهر،

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة جـ ٢ ص ٩.

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٠.

(٣) سورة النحل الآية ٩٨.

(٤) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٤.

وعقل واع، وإيمان ثابت»^(١).

قال القرطبي : وقد أجمع العلماء على أن التعوذ ليس من القرآن ولا آية منه، وهو قول القارئ : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم^(٢).

والآن وبعد هذا التمهيد الموجز الذي تكلمنا فيه عن نزول سورة الفاتحة، وعن عدد آياتها، وعن أشهر أسمائها، وعن بعض الأحاديث التي وردت في فضلها نحب أن نبدأ في تفسير السورة الكريمة فنقول - وبالله التوفيق - :

«بسم الله الرحمن الرحيم»

الاسم : اللفظ الذي يدل على ذات أو معنى. وقد اختلف النحويون في اشتقاقه على وجهين، فقال البصريون : هو مشتق من السمو، وهو العلو والرفعة، فقيل : اسم، لأن صاحبه بمنزلة المرتفع به.

وقال الكوفيون : إنه مشتق من السمة وهي العلامة، لأن الاسم علامة لمن وضع له، فأصل اسم على هذا «وسم».

ويرى المحققون أن رأى البصريين أرجح، لأنه يقال في تصغير «اسم» سُمي، وفي جمعه أسماء، والتصغير والجمع يردان الأشياء إلى أصولها. ولو كان أصله وسم - كما قال الكوفيون - لقيل في جمعه : أوسام، وفي تصغيره وسيم.

ولفظ الجلالة وهو «الله» علم على ذات الخالق - عز وجل - تفرد به - سبحانه - ولا يطلق على غيره، ولا يشاركه فيه أحد.

قال القرطبي : قوله «الله» هذا الاسم أكبر أسمائه - سبحانه - وأجمعها حتى قال بعض العلماء : إنه اسم الله الأعظم ولم يتسم به غيره، ولذلك لم يثن ولم يجمع : فالله اسم للموجود الحق الجامع لصفات الإلهية، المنعوت بنعوت الربوبية، المنفرد بالوجود الحقيقي، لا إله إلا هو - سبحانه -^(٣)

و«الرحمن الرحيم» صفتان مشتقتان من الرحمة. والرحمة في أصل اللغة : رقة في القلب تقتضى الإحسان، وهذا المعنى لا يليق أن يكون وصفاً لله - تعالى -، ولذا فسرها بعض العلماء بإرادة الإحسان. وفسرها آخرون بالإحسان نفسه.

(١) تفسير القرآن الكريم ص ١٦ لفضيلة الإمام الأكبر المرحوم محمود شلتوت.

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٨٦.

(٣) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٠٢.

والموافق لمذهب السلف أن يقال : هي صفة قائمة بذاته - تعالى - لا نعرف حقيقتها، وإنما نعرف أثرها الذي هو الإحسان.

وقد كثرت أقوال المفسرين في العلاقة بين هاتين الصفتين، فبعضهم يرى أن ﴿الرحمن﴾ هو المنعم على جميع الخلق. وأن ﴿الرحيم﴾ هو المنعم على المؤمنين خاصة. ويرى آخرون أن ﴿الرحمن﴾ هو المنعم بجلالته، وأن ﴿الرحيم﴾ هو المنعم بدقائقها.

ويرى فريق ثالث أن الوصفين بمعنى واحد وأن الثاني منها تأكيد للأول. والذي يراه المحققون من العلماء أن الصفتين ليستا بمعنى واحد، بل روعى في كل منهما معنى لم يراع في الآخر، فالرحمن بمعنى عظيم الرحمة، لأن فعلاً صيغة مبالغة في كثرة الشيء وعظمته، ويلزم منه الدوام كغضبان وسكران. والرحيم بمعنى دائم الرحمة، لأن صيغته فعيل تستعمل في الصفات الدائمة ككريم وظريف. فكأنه قيل : العظيم الرحمة الدائمة^(١).

أو أن ﴿الرحمن﴾ صفة ذاتية هي مبدأ الرحمة والإحسان. ﴿والرحيم﴾ صفة فعل تدل على وصول الرحمة والإحسان وتعديها إلى المنعم عليه.

ولعل مما يؤيد ذلك أن لفظ الرحمن لم يذكر في القرآن إلا مجرى عليه الصفات كما هو الشأن في أسماء الذات. قال - تعالى - : ﴿الرحمن علم القرآن﴾ و﴿الرحمن على العرش استوى﴾، ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾، وهكذا...

أما لفظ الرحيم فقد كثر في القرآن استعماله وصفاً فعلياً، وجاء في الغالب بأسلوب التعدية والتعلق بالمنعم عليه. قال - تعالى - ﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ - ﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾، ﴿أنه كان بكم رحيماً﴾ الخ.

قال بعض العلماء وهذا الرأي في نظرنا هو أقوى الآراء، فإن تخصيص أحد الوصفين بدقائق النعم أو ببعض المنعم عليهم لا دليل عليه، كما أنه ليس مستساغاً أن يقال في القرآن : إن كلمة ذكرت بعد أخرى لمجرد تأكيد المعنى المستفاد منها^(٢).

والجار والمجرور «بسم» متعلق بمحذوف تقديره ابتدئ.

والمعنى : ابتدئ قراءتي متبركاً ومتميماً باسم الله الذي هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، والذي رحمته وسعت كل شيء، وأتبراً بما كان يفعله المشركون والضالون، من ابتدائهم قراءتهم وأفعالهم باسم اللات أو باسم العزى أو باسم غيرهما من الآلهة الباطلة.

(١) تفسير سورة الفاتحة لفضيلة المرحوم الشيخ محمد الحضر حسين. مجلة لواء الإسلام العدد الأول من

السنة الأولى ص ٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم ص ٢٤ لفضيلة المرحوم الشيخ محمود شتلوت.

هذا وقد أجمع العلماء على أن البسملة جزء آية من سورة النمل في قوله - تعالى - ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثم اختلفوا بعد ذلك في كونها آية مستقلة أنزلت للفصل بين السور مرة واحدة، أو هي آية من سورة الفاتحة ومن كل سورة ألخ .

فبعضهم يرى أن البسملة آية من الفاتحة ومن كل سورة، ومن حججهم أن السلف قد أثبتوها في المصحف مع الأمر بتجريد القرآن عما ليس منه، ولذا لم يكتبوا « آمين » . فثبت بهذا أن البسملة جزء من الفاتحة ومن كل سورة .

وبهذا الرأي قال ابن عباس وابن عمر وأبو هريرة وسعيد بن جبير والشافعي، وأحمد في أحد قوليهِ .

ويرى آخرون أن البسملة ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور، وقالوا : إنها آية فذة^(١) . من القرآن أنزلت للفصل والتبرك للابتداء بها، ومن حججهم أنها لو كانت آية من الفاتحة ومن كل سورة، لما اختلف الناس في ذلك، ولما اضطربت أقوالهم في كونها آية من كل سورة أو من الفاتحة فقط .

وكما وقع الخلاف بين العلماء في كونها آية مستقلة أو آية من كل سورة، فقد وقع الخلاف بينهم - أيضاً - في وجوب قراءتها في الصلاة، وفي الجهر بها أو الإسرار إذا قرئت . وتحقيق القول في ذلك مرجعه إلى كتب الفقه، وإلى كتب التفسير التي عنيت بتفسير آيات الأحكام .

﴿الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم﴾

﴿الحمد﴾ هو الثناء باللسان على الجميل الصادر عن اختيار من نعمة أو غيرها .

﴿رب العالمين﴾ أى : مالكهم، إذ الرب مصدر « ربه يربه » إذا تعاهده بالترية حتى يبلغ به شيئاً فشيئاً درجة الكمال . وهو اسم من أسماء الله - تعالى - ولا يطلق على غيره إلا مقيداً فيقال : رب الدار، ورب الضيعة أى : صاحبها ومالكها .

والعالمين : جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله - تعالى -

قال القرطبي : « وهو مأخوذ من العلم والعلامة لأنه يدل على مولده » وقيل : المراد بالعالمين أولو العلم من الإنس والجن والملائكة .

(١) فذة : مفردة مستقلة .

وقد افتتحت سورة الفاتحة بهذه الجملة الكريمة ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ لأنه سبحانه أول كل شيء وآخر كل شيء، ولكي يعلمنا - سبحانه - أن نبدأ كتبنا وخطبنا بالحمد والتناء عليه، حتى نبدأ ونحن في صلة بالله تكشف عن النفوس أغشيتها، وتجلو عن القلوب أصداءها.

والمعنى - كما قال ابن جرير - «الشكر خالصاً لله - جل ثناؤه - دون سائر ما يعبد من دونه، ودون كل ما برأ من خلقه بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد. ولا يحيط بعددها غيره أحد، في تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق، وغذاهم به من نعيم العيش، عن غير استحقاق لهم عليه، ومع ما نبههم عليه ودعاهم إليه، من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم. لربنا الحمد على ذلك كله أولاً وآخرًا^(١)».

فالآية الكريمة قد قررت بصراحة ووضوح ثبوت التناء المطلق الذي لا يجدد الله - تعالى - وانه ليس لأحد أن ينازعه إياه - سبحانه - هو رب العالمين.

وجملة ﴿الحمد لله﴾ مفيدة لقصر الحمد عليه - سبحانه - نحو قولهم: «الكرم في العرب». كما أن ال في «الحمد» للاستغراق. أي: أن جميع أجناس الحمد ثابتة لله رب العالمين. وإنما كان الحمد مقصوراً في الحقيقة على الله، لأن كل ما يستحق أن يقابل بالتناء فهو صادر عنه ومرجعه إليه، إذ هو الخالق لكل شيء، وما يقدم إلى بعض الناس من حمد جزاء إحسانهم، فهو في الحقيقة حمد لله، لأنه - سبحانه - هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم عليه.

ولم تفتح السورة بصيغة الأمر بأن يقال: احمدا الله، وإنما افتتحت بصيغة الخبر ﴿الحمد لله﴾، لأن الأمر يقتضى التكليف: والتكليف قد تنفر منه النفوس أحياناً، فأراد - سبحانه - وهو يبادئهم بشرعة جديدة وتكاليف لم يعهدوها، أن يؤنس نفوسهم، ويؤلف قلوبهم، فساق لهم الخطاب بصيغة الخبر، ترفقا بهم، حتى يديموا الإصغاء لما سيلقيه عليهم من تكاليف. وقد تكلم بعض المفسرين عن الحكمة في ابتداء السورة الكريمة بقوله - تعالى - ﴿الحمد لله﴾، دون قوله - تعالى -: المدح لله، أو: الشكر لله. فقال:

اعلم أن المدح أعم من الحمد، والحمد أعم من الشكر. أما بيان أن المدح أعم من الحمد فلأن المدح يحصل للعاقل وغير العاقل، ألا ترى أنه كما يحسن مدح الرجل العاقل على أنواع فضائله، فكذلك قد يمدح اللؤلؤ لحسن شكله. أما الحمد فإنه لا يحصل إلا للفاعل المختار على ما يصدر منه من الإنعام والإحسان، فثبت أن المدح أعم من الحمد.

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ١٣٥ طبعة دار المعارف.

وأما بيان أن الحمد أعم من الشكر، فلأن الحمد عبارة عن تعظيم الفاعل لأجل ما صدر عنه من الإنعام. سواء أكان ذلك الإنعام واصلاً إليك أم إلى غيرك. وأما الشكر فهو عبارة عن تعظيمه لأجل إنعام وصل إليك، فثبت بما ذكرنا أن المدح أعم من الحمد، وأن الحمد أعم من الشكر.

إذا عرفت هذا فنقول: وإنما لم يقل: المدح لله، لأننا بينا أن المدح كما يحصل للفاعل المختار فقد يحصل لغيره. وأما الحمد فإنه لا يحصل إلا للفاعل المختار. فكان قوله «الحمد لله» تصريحاً بأن المؤثر في وجود هذا العالم فاعل مختار خلقه بالقدره والمشيئة... وإنما لم يقل: الشكر لله، لأننا بينا أن الشكر عبارة عن تعظيمه بسبب إنعام صدر منه ووصل إليك، وهذا يشعر بأن العبد إذا ذكر تعظيمه بسبب ما وصل إليه من النعمة. فحينئذ يكون المطلوب الأصلي له وصول النعمة إليه. وهذه درجة حقيرة. فأما إذا قال «الحمد لله»، فهذا يدل على أن العبد حمده لأجل كونه مستحقاً للحمد لا لخصوص أنه - سبحانه - أوصل النعمة إليه، فيكون الإخلاص أكمل، واستغراق القلب في مشاهدة نور الحق أتم، وانقطاعه عما سوى الحق أقوى وأثبت^(١).

وقد أجرى - سبحانه - على لفظ الجلالة نعت الربوبية للعالمين، ليكون كالاستدلال على استحقاقه - تعالى - للحمد وحده، وفي ذلك إشعار لعباده بأنهم مكرمون من ربهم، إذ الأمر بغير توجيه فيه إيماء إلى إهمال عقولهم، أما إذا كان موجهاً ومعللاً فإنه يكون فيه إشعار لهم برعاية ناحية العقل فيهم، وفي تلك الرعاية تشريف وتكريم لهم.

فكأنه - سبحانه - يقول لهم: اجعلوا حمدكم وثناءكم لى وحدى. لأنى أنا رب العالمين. وأنا الذى تعهدتكم برعايتى وعنايتى وتربيتى منذ تكونتكم من الطين حتى استوتيم عقلاء مفكرين.

وقد أتبع - سبحانه - هذا الوصف وهو «رب العالمين»، بوصف آخر هو «الرحمن الرحيم» لحكم سامية من أبرزها: أن وصفه - تعالى - «برب العالمين» أى: مالكهم، قد يثير فى النفوس شيئاً من الخوف أو الرهبة، فإن المرئى قد يكون خشناً جباراً متعتاً، وذلك مما يחדش من جميل التربية، وينقص من فضل التعهد.

لذا قرن - سبحانه - كونه مريباً، بكونه الرحمن الرحيم، لينفى بذلك هذا الاحتمال، وليفهم عباده بأن ربوبيته لهم مصدرها عموم رحمته وشمول إحسانه، فهم برحمته يوجدون، وبرحمته يتصرفون ويرزقون، وبرحمته يعيشون ويسألون.

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٤ ص ٣ طبعة المطبعة الشرقية سنة ١٣٣٤ هـ.

ولا شك أن في هذا الإفهام تحريضاً لهم على حمده وعبادته بقلوب مطمئنة، ونفوس مبتهجة، ودعوة لهم إلى أن يقيموا حياتهم على الرحمة والإحسان، لا على الجبروت والطغيان، فالراحمون يرحمهم الرحمن.

﴿مالك يوم الدين﴾

بعد أن بين - سبحانه - لعباده موجبات حمده، وأنه الجدير وحده بالحمد، لأنه المربي الرحيم، والمنعم الكريم، أتبع ذلك ببيان أنه - سبحانه - ﴿مالك يوم الدين﴾. والمالك وصف من الملك - بكسر الميم - بمعنى حيازة الشيء مع القدرة على التصرف فيه. واليوم في العرف: ما يكون من طلوع الشمس إلى غروبها، وليس هذا مراداً هنا، وإنما المراد مطلق الزمن وهو يوم القيامة.

والدين: الجزاء والحساب، يقال: دنته بما صنع، أي: جازيته على صنيعه، ومنه قولهم: كما تدين تدان. أي: كما تفعل تجازي، وفي الحديث (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت) أي: حاسب نفسه: والمعنى: أنه - تعالى - يتصرف في أمور يوم الدين من حساب وثواب وعقاب، تصرف المالك فيما يملك، كما قال - تعالى - ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله﴾.

وهناك قراءة أخرى للآية وهي ﴿ملك يوم الدين﴾ من الملك - بضم الميم - وعليها يكون المعنى: أنه - تعالى - هو المدبر لأمر يوم الدين، وأن له على ذلك اليوم هيمنة الملوك وسيطرتهم، فكل شيء في ذلك اليوم يجري بأمره، وكل تصرف فيه ينفذ باسمه، كما قال - تعالى - ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾.

قال الإمام ابن كثير: «وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه، لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رب العالمين، وذلك عام في الدنيا والآخرة. وإنما أضيف إلى يوم الدين، لأنه لا يدعى أحد هنالك شيئاً، ولا يتكلم أحد إلا بإذنه، كما قال - تعالى - ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً﴾.

والمالك في الحقيقة هو الله، قال - تعالى - ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام﴾ وفي الصحيحين عن أبي هريرة، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «يقبض الله الأرض، ويطوى السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون، أين المتكبرون» ثم قال: وأما تسمية غيره في الدنيا بملك فعلى سبيل المجاز كما قال - تعالى - ﴿إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً﴾^(١).

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٥.

وفي هذه الأوصاف التي أجريت على الله تعالى، من كونه ربا للعالمين وملكا للأمر كله يوم الجزاء، بعد الدلالة على اختصاص الحمد به في قوله: ﴿الحمد لله﴾ في كل ذلك دليل على أن من كانت هذه صفاته لم يكن أحد أحق منه للحمد والشناء عليه، بل لا يستحق ذلك على الحقيقة سواه، فإن ترتب الحكم على الوصف مشعر بعليته له^(١).

والمتدبر لهذه الآية الكريمة يراها خير وسيلة لتربية الإنسان وغرس الإيمان العميق في قلبه، لأنه إذا آمن بأن هناك يوما يظهر فيه إحسان المحسن وإساءة المسيء، وأن زمام الحكم في ذلك اليوم لله الواحد القهار، فإنه في هذه الحالة سيقوى عنده خلق المراقبة لخالفه، ويجتهد في السير على الطريق المستقيم

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

كانت الآيات الثلاث التي تقدمت هذه الآية تقريراً للحقيقة في جانب الربوبية وعظمتها وعموم سلطانتها وسعة رحمتها تقريراً جمع أمور الدنيا والآخرة ثم جاءت هذه الآية لتقرر أن الذي يجدر بنا أن نعبد وأن نستعين به إنما هو الله الذي تجلت أوصافه، ووضحت عظمته، وثبتت هيئته على هذا الكون

ولفظ «إيا» ضمير منفصل، و«الكاف» الملحقة به للخطاب.

والعبارة تفيد أن الطاعة البالغة حد النهاية في الخضوع والخشوع والتعظيم، والعبادة الصحيحة تنأت للمسلم بتحقيق أمرين: إخلاصها لله، وموافقتها لما جاء به النبي ﷺ. قال ابن جرير: «لأن العبودية عند جميع العرب أصلها الذلة، وأنها تسمى الطريق المذل الذي وطئته الأقدام، وذلتته السابلة معبداً»^(٢).

والاستعانة: طلب المعونة، من أجل الأقدار على الشيء والتمكن من فعله. والمعنى: لك ياربنا وحدك نخشع ونذل ونستكين، فقد توليتنا برعايتك وغمرتنا برحمتك، فنحن نخضعك بطلب الإعانة على طاعتك وعلى أمورنا كلها، ولا تتوجه بهذا الطلب إلى أحد سواك، فأنت المستحق للعبادة، وأنت القدير على كل شيء، والعليم ببواطن الأمور وظواهرها، لا تخفى عليك طوية، ولا تتوارى عنك نية.

وقدم - سبحانه - المعبود على العبادة فقال: ﴿إياك نعبد﴾، لإفادة قصر العبادة عليه، وهو ما يقتضيه التوحيد الخالص.

(١) «فتح البيان» ج ١ ص ٢٩. الشيخ صديق حسن خان.

(٢) تفسير ابن جرير ج ١ ص ١٩١.

وقال: ﴿نعبد﴾ بنون الجماعة ولم يقل أعبد، ليدل على أن العبادة أحسن ما تكون في جماعة المؤمنين، وللإشعار بأن المؤمنين المخلصين يكونون في اتحادهم وإخائهم بحيث يقوم كل واحد منهم في الحديث عن شئونهم الظاهرة وغير الظاهرة مقام جميعهم، فهم كما قال النبي ﷺ: «المؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم».

وقدمت العبادة على الاستعانة، لكون الأولى وسيلة إلى الثانية. وتقديم الوسائل سبب في تحصيل المطالب، وليدل على أنهم لا يستقلون بإقامة العبادات، بل إن عون الله هو الذي ييسر لهم أداءها.

ولم يذكر المستعان عليه من الأعمال، ليشمل الطلب كل ما توجه إليه نفس الإنسان من الأعمال الصالحة.

وجاءت الآية الكريمة بأسلوب الخطاب على طريقة الالتفات، تلوننا لنظم الكلام من أسلوب إلى أسلوب. وقد وضع هذا المعنى صاحب الكشاف فقال: «فإن قلت: لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟ قلت: هذا يسمى الالتفات في علم البيان. وهو قد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم... وذلك على عادة العرب في افتنائهم في الكلام وتصرفهم فيه. لأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد: وقد تختص مواضعه بفوائد. ومما اختص به هذا الموضع: أنه لما ذكر الحقيق بالحمد، وأجرى عليه تلك الصفات العظام، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن، حقيق بالثناء وغاية للخضوع والاستعانة في المهمات، فخطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات فقيل: إياك يا من هذه صفاته نخصك بالعبادة والاستعانة، ولا نعبد غيرك ولا نستعينه...»^(١).

هذا، وقد جاءت في فضل هذه الآية الكريمة آثار متعددة، ومن ذلك قول بعض العلماء: الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ فالأول تبرؤ من الشرك، والثاني تبرؤ من الحول والقوة والتفويض إلى الله^(٢).

ثم بين - سبحانه - أن أفضل شيء يطلبه العبد من ربه، إنما هو هدايته إلى الطريق الذي يوصل إلى أسمى الغايات، وأعظم المقاصد، فقال - تعالى -:

﴿اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم. غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾،

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ١٣ طبعة بيروت.

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٥ طبعة الحلبي.

والهداية : هي الإرشاد والدلالة بلطف على ما يوصل إلى البغية، وتُسند الهداية إلى الله وإلى النبي وإلى القرآن، وقد يراد منها الإيصال إلى ما فيه خير، وهي بهذا المعنى لا تضاف إلى الله - تعالى - .

قال أبو حيان في البحر ما ملخصه : وقد تأق بمعنى التبيين كما في قوله - تعالى - ﴿وأما ثمود فهديناهم﴾ أى بينا لهم طريق الخير. أو بمعنى الإلهام كما في قوله تعالى. ﴿قال : فمن ربكما يا موسى؟ قال : ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى﴾. قال المفسرون معناه : ألهم الحيوانات كلها إلى منافعها، أو بمعنى الدعاء كما في قوله. تعالى : ﴿ولكل قوم هاد﴾ أى : داع. والأصل فى هدى أن يصل إلى ثانى معموليه باللام كما فى قوله. تعالى. ﴿إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم﴾ أو يلى كما فى قوله تعالى : ﴿وانك لتهدى إلى صراط مستقيم﴾ ثم يتسع فيه فيعدى إليه بنفسه ومنه : ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾^(١).

والصراط : الجادة والطريق، من سَـرَط الشيء إذا ابتلعه، وسمى الطريق بذلك لأنه يتلعب المارين فيه، وتبدل سينه صاد على لغة قريش.

والمستقيم : المعتدل الذى لا اعوجاج فيه.

وأنعمت عليهم : النعمة لين العيش وخفضه، ونعم الله كثيرة لا تحصى
﴿غير المغضوب عليهم﴾ الغضب هيجان النفس وثورتها، عند الميل إلى الانتقام، وهو ضد الرضا. وإذا أسند إلى الله فسر بمعنى إرادة الانتقام أو بمعنى الانتقام نفسه.
والموافق لمذهب السلف أن يقال : هو صفة له - تعالى - لائقة بجلاله لا نعلم حقيقتها مجردة عن اللوازم البشرية وإنما نعرف أثرها وهو الانتقام من العصاة، وإنزال العقوبة بهم.
والمعنى : اهدنا يا ربنا إلى طريقك المستقيم، الذى يوصلنا إلى سعادة الدنيا والآخرة، ويجعلنا مع الذين أنعمت عليهم من خلقك، وجنبنا يا مولانا طريق الذين غضبت عليهم من الأمم السابقة أو الأجيال اللاحقة بسبب سوء أعمالهم وطريق الذين هاموا فى الضلالات، فأنحرفوا عن القصد، وحق عليهم العذاب.

وفى هذا الدعاء أسمى ألوان الأدب، لأن هذا الدعاء قد تضرع به المؤمنون إلى خالقهم بعد أن اعترفوا له - سبحانه - قبل ذلك بأنه هو المستحق لجميع المحامد، وأنه هو رب العالمين، والمتصرف فى أحوالهم يوم الدين.

قال الإمام ابن كثير : وهذا أكمل أحوال السائل. أن يمدح مسئوله ثم يسأل حاجته وحاجة

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ ١ ص ٢٥.

إخوانه المؤمنين بقوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ لأنه أنجح للحاجة، وأنجح للإجابة، ولهذا أرشدنا الله إليه لأنه الأكمل^(١).

وقد تكلم المفسرون كلاماً كثيراً عن المراد بالصراط المستقيم الذى جعل الله طلب الهداية إليه في هذا السورة أول دعوة علمها لعباده. والذى نراه: أن أجمع الأقوال في ذلك أن المراد بالصراط المستقيم، هو ما جاء به الإسلام من عقائد وآداب وأحكام، توصل الناس متى اتبعوها إلى سعادة الدنيا والآخرة، فإن طريق السلام هو الطريق الذى ختم الله به الرسالات السماوية، وجعل القرآن دستوره الشامل، ووكّل إلى النبي ﷺ أمر تبليغه وبيانه.

وقد ورد في الأحاديث النبوية ما يؤيد هذا القول، ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده، عن النّوّاس بن سميان، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تعوجوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال له: ويحك لا تفتح، فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم».

والمراد بقوله - تعالى - ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ أى: ثبتنا عليه، واجعلنا من المداومين على السير في سبيله، فإن العبد مفتقر إلى الله في كل وقت لكى يثبت على الهداية، ويزيده منها، ويعينه عليها. وقد أمر سبحانه المؤمنين أن يقولوا: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾.

وجملة ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ بدل من الصراط المستقيم.

ولم يقل: اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم مستغنياً عن ذكر الصراط المستقيم، ليدل أن صراط هؤلاء المنعم عليهم هو الصراط المستقيم.

وقال: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ ولم يقل صراط الأنبياء أو الصالحين، ليدل على أن الدين في ذاته نعمة عظيمة، ويكفى للدلالة على عظمتها إسنادها إليه - تعالى - في قوله: ﴿أنعمت عليهم﴾ لأن المراد بالإنعام هنا - على الراجح - الإنعام الديني. فالمنعم عليهم هم من عرفوا الحق فتمسكوا به، وعرفوا الخير فعملوا به.

قال بعض العلماء: (وإنما اختار في البيان أن يضيف الصراط إلى المنعم عليهم لمعينين:

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٦.

أولهما : هو إبراز نفسية المحب المخلص، وأنه يكون شديد الاحتياط دقيق التحرى عن الطريق الموصل إلى ساحة الرضا في ثقة تملأ نفسه، وتنعّم قلبه، ولا يجد في مثل هذا المقام ما يملأ نفسه ثقة إلا أن يبين الطريق، بأنه الطريق الذى وصل بالسير عليه من قبله الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون.

وثانيهما : أن من خواطر المؤمل في نعيم ربه أن يكون تمام أنسه في رفقة من الناس صالحين، وصحب منهم محسنين^(١).

وقوله - تعالى - ﴿غير المغضوب عليهم﴾ بدل من ﴿الذين أنعمت عليهم﴾ وأتى في وصف الإنعام بالفعل المسند إلى الله - تعالى - فقال : ﴿أنعمت عليهم﴾ وفي وصف الغضب باسم المفعول فقال : ﴿غير المغضوب عليهم﴾ وفي ذلك تعليم لأدب جميل، وهو أن الإنسان يجمل به أن يسند أفعال الإحسان إلى الله، ويتحامى أن يسند إليه أفعال العقاب والابتلاء، وإن كان كل من الإحسان والعقاب صادراً منه، ومن شواهد هذا قوله - تعالى - حكاية عن مؤمنى الجن ﴿وأنا لا ندرى أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً﴾^(٢).

وحرف (لا) في قوله ﴿ولا الضالين﴾ جىء به لتأكيد معنى النفي المستفاد من كلمة غير. والمراد بالمغضوب عليهم اليهود. وبالضالين النصارى. وقد ورد هذا التفسير عن النبي ﷺ في حديث رواه الإمام أحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه.

ومن المفسرين من قال بأن المراد بالمغضوب عليهم من فسدت إرادتهم حيث علموا الحق ولكنهم تركوه عناداً وجحوداً، وأن المراد بالضالين من فقدوا العلم فهم تائهون في الضلالات دون أن يهتدوا إلى طريق قويم.

وقدم المغضوب عليهم على الضالين، لأن معنى المغضوب عليهم كالضد لمعنى المنعم عليهم، ولأن المقابلة بينهما أوضح منها بين المنعم عليهم والضالين، فكان جديراً بأن يوضع في مقابلته قبل الضالين.

قال العلماء : ويستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها (أمين) ومعناه اللهم استجب وليس هذا اللفظ من القرآن بدليل أنه لم يثبت في المصاحف والدليل على استحباب التأمين ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى عن وائل بن حجر قال : سمعت النبي ﷺ قرأ ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ فقال : (أمين) مد بها صوته.

(١) تفسير سورة الفاتحة لفضيلة الأستاذ الشيخ حامد محسن بمجلة الأزهر السنة ٢٢ العدد ١٣ ص ٨٨٥

(٢) تفسير سورة الفاتحة لفضيلة الإمام الأكبر المرحوم محمد الخضر حسين بمجلة لواء الإسلام العدد الأول

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمن الإمام فأمنوا، فإن من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر الله له ما تقدم من ذنبه».

هذا، وقد أفاض العلماء في الحديث عما اشتملت عليه سورة الفاتحة من آداب وعقائد وعبادات وأحكام، ومن ذلك قول ابن كثير.

اشتملت هذه السورة الكريمة، وهي سبع آيات - على حمد الله وتمجيده والثناء عليه بذكر أسمائه الحسنی المستلزمة لصفاته العليا، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين، وعلى إرشاد عبده إلى سؤاله والتضرع إليه والتبري من حوهم وقوتهم، إلى إخلاص العبادة له وتوحيده بالألوهية، وتنزيهه عن أن يكون له شريك أو نظير، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم، وهو الدين القويم وتثبيتهم عليه، واشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة ليكونوا مع أهلها يوم القيامة، والتحذير من مسالك الباطل لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة، وهم المغضوب عليهم والضالون^(١).

وقال بعض العلماء: سورة الفاتحة مشتملة على أربعة أنواع من العلوم هي مناط الدين. أحدها: علم الأصول وإليه الإشارة بقوله ﴿الحمد لله رب العالمين: الرحمن الرحيم﴾، ومعرفة النبوات وإليه الإشارة بقوله: ﴿أنعمت عليهم﴾ ومعرفة المعاد وإليه الإشارة بقوله ﴿مالك يوم الدين﴾.

وثانيها: علم الفروع وأعظمه العبادات وإليه الإشارة بقوله ﴿إياك نعبد﴾.

وثالثها: علم الأخلاق، وإليه الإشارة بقوله ﴿وإياك نستعين. اهدنا الصراط المستقيم﴾.

ورابعها: علم القصص والأخبار عن الأمم السابقة السعداء منهم والأشقياء، وهو المراد بقوله ﴿صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٠.

سورة البقرة

سورة البقرة أطول سورة في القرآن الكريم، فقد استغرقت جزءين ونصف جزء تقريباً من ثلاثين جزءاً قسم إليها القرآن. وتبلغ آياتها ستاً وثمانين ومائتي آية. وقيل سبع وثمانون ومائتا آية.

وسميت بذلك لأنها انفردت بذكر قصة البقرة التي كلف قوم موسى بذبحها بعد أن قتل فيهم قتيل ولم يعرفوا قاتله.

وهي مدنية بإجماع الآراء، وقد ابتدأ نزولها بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، وقد نزل معظمها في السنوات الأولى من الهجرة، واستمر نزولها إلى قبيل وفاة النبي ﷺ بفترة قليلة. وكانت آخر آية من القرآن نزولاً منها، هي قوله - تعالى - :

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

مناسبتها لسورة الفاتحة : هناك مناسبة ظاهرة بين السورتين، لأن سورة الفاتحة قد اشتملت على أحكام الألوهية والعبودية وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم اشتمالاً إجمالياً، فجاءت سورة البقرة ففصلت تلك المقاصد، ووضحت ما اشتملت عليه سورة الفاتحة من هدايات وتوجيهات.

فضلها : وقد ورد في فضل سورة البقرة أحاديث متعددة، وآثار متنوعة منها ما جاء في مسند أحمد وصحيح مسلم والترمذى والنسائى عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، فإن البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان.

وروى ابن حبان في صحيحه عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ (إن لكل شيء سنام وإن سنام القرآن البقرة، وإن من قرأها في بيته لم يدخله الشيطان ثلاث ليال، ومن قرأها في بيته نهاراً لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام).

وروى الترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبي هريرة قال : (بعث النبي ﷺ بعثاً، وهم ذوو عدد فاستقرأ كل واحد منهم عما معه من القرآن، فأتى على رجل من أحدثهم سناً فقال : ما معك يا فلان؟ فقال : معى كذا وكذا وسورة البقرة. فقال : أمعك سورة البقرة؟ قال : نعم. قلل. اذهب فأنت أميرهم. فقال رجل من أشرافهم : والله ما منعنى أن أتعلم سورة البقرة إلا أنى خشيت ألا أقوم بها. فقال رسول الله ﷺ اقرأوا القرآن وتعلموه، فإن مثل القرآن

لمن تعلمه فقراه وقام به كمثل جراب أوكى أى أغلق - على مسك .
قال القرطبي : وهذه السورة فضلها عظيم، وثوابها جسيم، ويقال لها فسطاط القرآن،
وذلك لعظمتها وبهائتها وكثرة أحكامها ومواعظها^(١).

مقاصدها : عندما نفتح كتاب الله فنطالع فيه سورة البقرة بتدبر وعناية، نراها في مطلعها
تنوه بشأن القرآن الكريم، وتصرح بأنه حق لا ريب فيه، وتبين لنا أن الناس أمام هدايته على
ثلاثة أقسام :

قسم آمن به وانتفع بهداياته فكانت عاقبته السعادة والفلاح .
﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ .

وقسم جحد واستكبر واستحب العمى على الهدى، فأصبح لا يرجى منه خير ولا إيمان،
فكانت عاقبته الحرمان والخسران .

﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾ .

ثم فصلت السورة الحديث عن قسم ثالث هو شر ما تتبلى به الأمم وهم المنافقون الذين
يظهرون خلاف ما يظنون . وقد تحدثت السورة عنهم في ثلاث عشرة آية، كشفت فيها عن
خداعهم، وجبنهم، ومرض قلوبهم، وبينت ما أعدده الله لهم من سوء المصير، ثم زادت في
فضيحتهم وهتك سرائرهم فضربت مثلين لحيرتهم واضطرابهم، قال - تعالى - :

﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا
وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ .

إلى أن يقول : ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير﴾ .

ثم وجهت السورة نداء إلى الناس جميعاً دعوتهم فيه إلى عبادة الله وحده وأقامت لهم الأدلة
الساطعة على صدق هذه القضية، وتحدثتهم - إن كانوا في ريب من القرآن - أن يأتوا بسورة من
مثله . وبينت لهم أنهم لن يستطيعوا ذلك لا في الحاضر ولا في المستقبل .

ثم ختم الربع الأول منها ببشارة الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأن لهم جنات تجري من
تحتها الأنهار، جمعت لذائد المادة والروح، وهم فيها خالدون . ثم قررت السورة الكريمة أن الله
-تعالى- لا يمتنع عن ضرب الأمثال بما يوضح ويبين دون نظر إلى قيمة الممثل به في ذاته أو عند

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٥٢ .

الناس، كما قررت أن المؤمنين يقابلون هذه الأمثال بالإيمان والإذعان، أما الكافرون فيقابلونها بالاستهزاء والإنكار.

وقد وبخت السورة بعد ذلك أولئك الكافرين على كفرهم، مع وضوح الدلائل على وحدانية الله في أنفسهم وفي الآفاق فقالت:

﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم، ثم يحييكم، ثم إليه ترجعون. هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم﴾.

ثم ذكرت السورة بعد ذلك جانباً من قصة آدم، وقد حدثتنا فيه عن خلافة آدم فى الأرض، وعما كان من الملائكة من استفسار بشأنه - وعن سكن آدم وزوجه الجنة، ثم عن خروجها منها بسبب أكلهما من الشجرة المحرمة.

﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال: إني أعلم ما لا تعلمون﴾. الخ الآيات الكريمة.

هذا، وقد عرفنا قبل ذلك أن سورة البقرة نزلت بالمدينة بعد أن هاجر المسلمون إليها، وأصبحت لهم بها دولة فتية، وكان يجاورهم فيها عدد كبير من اليهود الذين كان أحبارهم يبشرون. بمبعث النبي ﷺ. فأخذت السورة الكريمة تتحدث عنهم - فى أكثر من مائة آية - حديثاً طويلاً متشعباً..

فراها فى أواخر الربع الثانى توجه إليهم نداء محبباً إلى نفوسهم، ندعوهم فيه إلى الوفاء بعهودهم، وإلى الإيمان بنبي الله محمد ﷺ فتقول:

﴿يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم، وأوفوا بعهدى أوفى بعهدكم وإياى فارهبون. وأمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به، ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً وإياى فاتقون﴾.

ثم تذكرهم فى الربع الثالث بنعم الله عليهم، ويموقفهم الجحودى من هذه النعم، تذكرهم بنعمة تفضيلهم على عالمى زمانهم، وبنعمة إنجائهم من عدوهم، وبنعمة فرق البحر بهم، وبنعمة عفو الله عنهم مع تكاثر ذنوبهم، وبنعمة بعثهم من بعد موتهم، وبنعمة تظليلهم بالغمام، وبنعمة إنزال المن والسلوى عليهم. الخ.

ولقد كان موقف بنى إسرائيل من هذه النعم يمثل الجحود والعناد والبطر، فكانت نتيجة ذلك أن .

﴿ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وباءوا بغضب من الله﴾ .

ثم تحدثت السورة بعد ذلك حديثاً مستفيضاً عن رذائلهم وقبائحهم ودعواهم الباطلة، والعقوبات التي حلت بهم جزاء كفرهم وجحودهم .

فنزاهها في الربع الرابع تذكر لنا تنطعهم في الدين وإلحافهم في المسألة عندما قال لهم نبيهم موسى : ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ . ثم تذكر قسوة قلوبهم فتقول على سبيل التوبيخ لهم :

﴿ثم تست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء . وإن منها لما يهبط من خشية الله، وما الله بغافل عما تعملون﴾ .

ونزاهها في الربع الخامس تحدثنا عن تحريفهم للكلم عن مواضعه عن تعمد وإصرار، وتتوعدهم على ذلك بسوء المصير :

﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾ .

ثم تحدثنا عن قولهم الباطل : ﴿لن نؤمن النار إلا أياماً معدودة﴾ .

وترد عليهم بما يبطل حججهم، وعن نقضهم لعهودهم ومواثيقهم مع الله ومع الناس ومع أنفسهم، وعن عدائهم لرسول الله، وعن جحودهم للحق بدافع الحسد والعناد فتقول :

﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين . بشيا اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً، أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين﴾ .

ثم نراها في الربع السادس تحكى لنا نماذج من مزاعمهم الباطلة، ومن ذلك زعمهم أن الجنة خالصة لهم من دون الناس، ثم ترد عليهم بما يخرس ألسنتهم، وبصور جبنهم وحرصهم المشين على أية حياة حتى لو كانت ملطخة بالذل والهوان .

استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى ذلك بأسلوبه البليغ فيقول :

﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم

صادقين. ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ولتجدنهم أحرص الناس على حياة، ومن الذين أشركوا، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة، وما هو بمزحرجه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون ﴿١٠٠﴾.

ثم تسوق لنا نماذج من سوء أدبهم مع الله، وعداوتهم للملائكة؛ ونبذهم كتاب الله، واتباعهم للسحر والأوهام.

ثم نراها في الربع السابع تقص علينا بعض الصور من المجادلات الدينية، والمخاصمات الكلامية، التي استعملوها مع النبي ﷺ لحرب الدعوة الإسلامية، كجدهم في قضية النسخ، وفي كون الجنة لن يدخلها إلا من كان هودا أو نصارى، وفي كون القرآن ليس معجزة - في زعمهم - وإنما هم يريدون معجزة كونية. الخ.

وقد رد القرآن عليهم بما يزهق باطلهم، ويزيد المؤمنين إيماناً على إيمانهم.

وكما ابتدأ القرآن الحديث معهم ابتداء محبياً إلى نفوسهم ﴿يا بني إسرائيل﴾، فقد اختتمه - أيضاً - بالنداء نفسه، لكي يستحثهم على الإيمان فقال:

﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين. واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً، ولا يقبل منها عدل، ولا تنفعها شفاعة، ولا هم ينصرون﴾.

ثم أخذت السورة بعد ذلك في الربع الثامن منها تحدثنا عن الكلمات التي اختبر الله بها نبيه إبراهيم، وعن قصة بناء البيت الحرام، وعن تلك الدعوات الخاشعات التي كان إبراهيم وإسماعيل يتضرعان بها إلى خالقهما وهما يقومان بهذا العمل الجليل.

﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، وأرنا مناسكنا، وتب علينا، إنك أنت التواب الرحيم﴾.

ثم أخذت تقيم الحجج الباهرة، والأدلة الساطعة على أن إبراهيم ما كان يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً، وعلى أن يعقوب قد وصى ذريته من بعده أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً.

ثم ختمت تلك المحاورات والمجادلات التي أبطلت بها دعاوى أهل الكتاب الباطلة، ببيان سنة من سنن الله في خلقه، هذه السنة تلتخص في بيان أن كل إنسان سيجازى بحسب عمله يوم القيامة، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وأن اتكال اليهود - أو غيرهم - على أنهم من نسل الأنبياء أو الصالحين دون أن يعملوا بعملهم لن ينفعهم شيئاً. فقال - تعالى -:

﴿تلك أمة قد خلت، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم، ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾.

ثم عادت السورة في الربع التاسع منها إلى الحديث عن الشبهات التي أثارها اليهود عند تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، وقد رد القرآن عليهم بما يدحض هذه الشبهات، ويهوى باليهود ومن حذا حذوهم في مكان سحيق، قال - تعالى - :

﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، قل الله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ إلى أن يقول: ﴿ومن حيث خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ، لَثَلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ، إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي، وَلَأَنْتُمْ نَعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد فصلت الحديث عن بني إسرائيل تفصيلاً يحمل المسلمين على العظة والاعتبار، ويعرفهم طبيعة أولئك القوم الذين خسروا أنفسهم حتى يأخذوا حذرهم منهم، وينفروا من التشبه بهم.

أما المقدار الباقي من السورة الكريمة - وهو أكثر من نصفها بقليل - فعندما نراجعه بتفكير وتدبر، نراه زاخراً بالتشريعات الحكيمة، والآداب العالية، والتوجيهات السامية.

نرى السورة الكريمة في هذا المقدار منها تحدثنا في الربع العاشر منها عن بغض شعائر الله التي تتعلق بالحج، وعن الأدلة على وحدانية الله.

﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم. إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾.

ثم بعد أن تصور لنا بأسلوب بليغ مؤثر حسرة المشركين يوم القيامة وهم يتبادلون التهم، ويتبرأ بعضهم من بعض، بعد كل ذلك توجه نداء عاماً إلى الناس، تأمرهم فيه أن يقيدوا أنفسهم بما أحل الله.. وأن يتعدوا عن محارمه فتقول:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ. إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

فإذا ما وصلنا إلى الربع الحادي عشر منها، رأيناها تسوق لنا في مطلع آية جامعة لألوان البر، وأمهاات المسائل الاعتقادية والعملية وهي قوله - تعالى - :

﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين﴾. إلخ.

ثم أتبع ذلك بالحديث عن القصاص، وعن الوصية، وعن الصيام وحكمته، وعن الدعاء وآدابه، ونهت المسلمين في ختامها عن مقارفة الحرام في شتى صورته وألوانه فقالت:

﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام، لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾.

وفي مطلع الربع الثاني عشر حكى بعض الأسئلة التي كان المسلمون يوجهونها إلى النبي ﷺ، وأجاب عنها بطريقة حكيمة تدعوهم إلى التدبر والاعتاظ، ثم حضت المسلمين على الجهاد في سبيل الله، ونهتهم عن البغى والاعتداء. استمع إلى القرآن وهو يحرض المؤمنين على القتال ويرسم لهم حدوده وآدابه فيقول:

﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين. واقتلواهم حيث ثقتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم، والفتنة أشد من القتل، ولا تقاتلواهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه، فإن قاتلوكم فاقتلواهم. كذلك جزاء الكافرين. فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم. وقاتلواهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾.

ثم فصلت السورة الحديث عن الحج، فتحدثت عن جانب من آدابه وأحكامه، وحضت المسلمين على الإكثار من ذكر الله، وأن يتجنبوا التفاخر بالأحساب والأنساب، وأن يرددوا في دعائهم قوله - تعالى -:

﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾.

وفي الربع الثالث عشر نراها تبين لنا ألوان الناس في هذه الحياة، وأن منهم من يسعى في الإفساد وإهلاك الحرث والنسل، فإذا ما نصح أخذته العزة بالإثم، وتمادى في طغيانه وإفساده، وأن منهم من يبيع نفسه عن طواعية واختيار ابتغاء مرضاة الله.

﴿ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله، والله رءوف بالعباد﴾.

ثم تبين لنا بأن الناس جميعاً كانوا أمة واحدة، وأن هذه الحياة مليئة بالمصائب والمحن والفتن، وأن العاقل هو الذى يقابل كل ذلك بإيمان عميق، وصبر جميل، حتى يفوز برضى الله يوم القيامة، ويظفر بنصره في الحياة الدنيا.

﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه: متى نصر الله؟ ألا إن نصر الله قريب﴾.

ثم تحدثنا السورة الكريمة في الربعين الرابع عشر والخامس عشر حديثاً جامعاً عن النكاح

وما يتعلق به من أحكام، فحدثنا عن الإيلاء وعن الطلاق. وعن الرضاع، وعن العدة، وعن الخطبة، وعن غير ذلك مما يتعلق بهذا الشأن، ثم ختمت حديثها بهذه الآية الكريمة: ﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾.

ثم عادت السورة في الربع السادس عشر منها إلى الحديث عن الملائكة من بني إسرائيل: ﴿الذين قالوا لنبينا لهم: ابعث لنا ملكًا نقاتل في سبيل الله﴾.

فساقت لنا قصتهم بأسلوب زاخر بالعظات والعبر، التي من أهمها أن الدين هو أساس العزة والمنعة، وأن الشدائد من شأنها أن تصهر النفوس فتجعلها تتجه إلى معالي الأمور، وأن الأمير يجب أن يكون له من قوة العقل وقوة الجسم وسعة العلم، وكمال التجربة - ما يقود به أمته إلى صالح الأمور، وأن العاقل هو الذي يسلك الوسائل السليمة لبلوغ غايته الشريفة، ثم يفوض الأمور بعد ذلك إلى الله.

وفي الربع السابع عشر منها أفاضت في الحديث عن مظاهر قدرة الله ووحدانيته، وأقامت على ذلك من الأدلة ما يشفي الصدور، ويطمئن القلوب، ويزيد المؤمنين إيمانًا، استمع إلى آية الكرسي وهي تصور عظمة الله وقدرته فنقول

﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، له ما في السموات، وما في الأرض، من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض، ولا يؤوده حفظها وهو العلي العظيم﴾.

وبعد هذا الحديث عن مظاهر قدرة الله ساقت السورة في أواخرها أمطًا من التوجيهات التي تسعد المجتمع، وتنزع الأحقاد من قلوب الأفراد، فقد حضت المسلمين في جملة من آياتها على الإنفاق والإحسان، وضربت لذلك أروع الأمثال ونهتهم عن المن والأذى، وصرحت بأن الكلمة الطيبة للسائل خير من العطاء الذي تتبعه الإساءة.

﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى، والله غني حليم﴾.

ثم بعد أن عقدت مقارنه مؤثرة بين من ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله، وبين من ينفقونها رياء الناس، بعد كل ذلك مدحت الفقراء الذين يتعففون عن السؤال، ولا يلجأون إليه إلا عند الضرورة القصوى فقالت:

﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء، وما تنفقوا من خير فلأنفسكم، وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله، وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون. للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربًا في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، تعرفهم

بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً، وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم».

ثم حذرت السورة بعد ذلك المؤمنين من التعامل بالربا، ووصفت آكليه بصفات تنفر منها القلوب، وتعافها النفوس، ووجهت إلى المؤمنين نداء أمرتهم فيه بتقوى الله، وأندرتهم بحرب من الله لهم إن لم يتوبوا عن التعامل بالربا فقالت:

﴿يأياها الذين آمنوا الله اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين. فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله، وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون».

ثم تحدثت بعد ذلك عن الديون والرهون، فصاغت للمؤمنين دستوراً هو أدق الدساتير المدنية في حفظ الحقوق وضبطها وتوثيقها بمختلف الوسائل، ثم ختمت السورة حديثها الجامع عن العقائد والشرائع والآداب والمعاملات، بذلك الدعاء الخاشع:

﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا، أنت مولانا، فانصرنا على القوم الكافرين».

تلك هي سورة البقرة، رأيت وحدتها في كثرتها؟ أعرفت اتجاه خطوطها في لوحاتها؟ رأيت كيف التحمت لبناتها وارتفعت سماؤها بغير عمد تسندها؟ رأيت كيف ينادى كل عضو فيها بأنه قد أخذ مكانه المقسوم وفقاً لخط جامع مرسوم، رسمه مربى النفوس ومزكيها، ومنور العقول وهاديا ومرشد الأرواح وحاديا. فتالله لو أن هذه السورة رتب بعد تمام نزولها، لكان جمع أشنتها على هذه الصورة معجزة، فكيف وكل نجم منها كان يوضع في رتبته من فور نزوله، وكان يحفظ لغيره مكانه انتظاراً لحلوله. وهكذا كان ما ينزل منها معروف الرتبة، محدد الموقع قبل أن ينزل.

لعمري لئن كانت للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات، وفي أساليب ترتيبه معجزات، وفي نبوءاته الصادقة معجزات، وفي تشريعاته الخالدة معجزات، وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات لعمري إنه في ترتيب آياته على هذا الوجه هو معجزة المعجزات^(١).

وبعد: فهذا عرض سريع لأهم مقاصد سورة البقرة، قدمناه بين يديها لنعطى القارئ الكريم صورة متميزة عنها. ومن هذا العرض نرى أنها بجانب احتوائها على أصول العقائد، وعلى كثير من أدلة التوحيد، قد وجهت عنايتها إلى أمرين اقتضتهما حالة المسلمين، بعد أن

(١) من كتاب «النبأ العظيم» ص ٢٠٨ لفضيلة الدكتور محمد عبد الله دراز.

أصبحت لهم دولة بالمدينة يجاورهم فيها عدد كبير من اليهود. أما الأمر الأول فهو توجيه الدعوة إلى بني إسرائيل، ومناقشتهم فيما كانوا يثيرونه حول الرسالة الإسلامية من مؤامرات. وإماطة اللثام عن تاريخهم المظلم، وأخلاقهم الرذولة حتى يحذرهم المسلمون.

وأما الأمر الثاني فهو التشريع للدولة الإسلامية الفتية، وقد رأينا أن سورة البقرة في النصف الثاني منها قد تحدثت عن تلك الجوانب التشريعية حديثاً مفصلاً منوعاً تناول أحكام القصاص، والوصية، والصيام والاعتكاف والحج، والعمرة، والقتال، والنكاح، والإنفاق في سبيل الله. والمعاملات المالية. إلى غير ذلك من التشريعات التي سبق الحديث عنها. والآن فلنبدأ في تفسير السورة الكريمة فنقول - وبالله التوفيق - :

تفسير سورة البقرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 الم ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى
 لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ
 وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ
 إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَيَا لَأَخِرَةَ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾
 أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ
 هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

سورة البقرة من السور التي ابتدئت ببعض حروف التهجى .
 وقد وردت هذه الفواتح تارة مفردة بحرف واحد، وتارة مركبة من حرفين أو ثلاثة أو أربعة
 أو خمسة .

فالسور التي بدأت بحرف واحد ثلاثة وهى سور ص، ق، ن .
 والسور التي بدأت بحرفين تسعة وهى : طه، يس، طس، ﴿وحم﴾ فى ست سور هى :
 غافر، فصلت، الزحرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف .
 والسور التي بدأت بثلاثة أحرف ثلاث عشرة سورة وهى : ﴿الم﴾ فى ست سور : البقرة،
 وآل عمران، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة و ﴿الر﴾ فى خمس سور هى : يونس، هود،
 يوسف، الحجر، إبراهيم و ﴿طسم﴾ فى سورتين هما : الشعراء، القصص .
 وهناك سورتان بدتتا بأربعة أحرف وهما . الرعد، ﴿المر﴾، والأعراف، ﴿المص﴾،
 وسورتان - أيضًا - بدتتا بخمسة أحرف وهما : مريم ﴿كهيعص﴾، والشورى ﴿حم عسق﴾ .

فيكون مجموع السور التي افتتحت بالحروف المقطعة تسعا وعشرين سورة. هذا، وقد وقع خلاف بين العلماء في المعنى المقصود بتلك الحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض السور القرآنية، ويمكن إجمال خلافهم في رأيين رئيسين:

الرأى الأول يرى أصحابه: أن المعنى المقصود منها غير معروف، فهى من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه.

وإلى هذا الرأى ذهب ابن عباس - فى إحدى رواياته - كما ذهب إليه الشعبى، وسفيان الثورى، وغيرهم من العلماء، فقد أخرج ابن المنذر وغيره عن الشعبى أنه سئل عن فواتح السور فقال: إن لكل كتاب سرًا، وإن سر هذا القرآن فى فواتح السور. ويروى عن ابن عباس أنه قال: عجزت العلماء عن إدراكها. وعن على - رضى الله عنه - أنه قال: «إن لكل كتاب صفة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجى». وفى رواية أخرى عن الشعبى أنه قال: «سر الله فلا تطلبوه».

ومن الاعتراضات التى وجهت إلى هذا الرأى، أنه إذا كان الخطاب بهذه الفواتح غير مفهوم للناس، لأنه من المتشابه، فإنه يترتب على ذلك أنه كالخطاب بالمهمل، أو مثله كمثل المتكلم بلغة أعجمية مع أناس عرب لا يفهمونها..

وقد أجيّب عن ذلك بأن هذه الألفاظ لم ينتف الإفهام عنها عند كل الناس، فالرسول ﷺ كان يفهم المراد منها، وكذلك بعض أصحابه المقربين - ولكن الذى ننفيه أن يكون الناس جميعاً فاهمين لمعنى هذه الحروف المقطعة فى أوائل بعض السور.

وهناك مناقشات أخرى للعلماء حول هذا الرأى يضيق المجال عن ذكرها أما الرأى الثانى فىرى أصحابه: أن المعنى المقصود منها معلوم، وأنها ليست من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه.

وأصحاب هذا الرأى قد اختلفوا فيما بينهم فى تعيين هذا المعنى المقصود على أقوال كثيرة، من أهمها ما يأتى:

١ - أن هذه الحروف أسماء للسور، بدليل قول النبى ﷺ (من قرأ حم السجدة حفظ إلى أن يصبح) وبدليل اشتهاى بعض السور بالتسمية بها كسورة ﴿ص﴾ وسورة ﴿يس﴾. ولا يخلو هذا القول من الضعف، لأن كثيراً من السور قد افتتحت بلفظ واحد من هذه الفواتح، والغرض من التسمية رفع الاشتباه.

٢ - وقيل إن هذه الحروف قد جاءت هكذا فاصلة للدلالة على انقضاء سورة وابتداء أخرى.

٣ - وقيل : إنها حروف مقطعة، بعضها من أسماء الله - تعالى - وبعضها من صفاته، فمثلاً ﴿ألم﴾ أصلها : أنا الله أعلم.

٤ - وقيل : إنها اسم الله الأعظم. إلى غير ذلك من الأقوال التي لا تخلو من مقال، والتي أوصلها السيوطي في «الآيتقان» إلى أكثر من عشرين قولاً.

٥ - ولعل أقرب الآراء إلى الصواب أن يقال : إن هذه الحروف المقطعة قد وردت في افتتاح بعض السور للإشعار بأن هذا القرآن الذي تحدى الله به المشركين هو من جنس الكلام المركب من هذه الحروف التي يعرفونها، ويقدرّون على تأليف الكلام منها، فإذا عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله، فذلك لبلوغه في الفصاحة والحكمة مرتبة يقف فصحاؤهم وبلغاؤهم دونها بمراحل شاسعة، وفضلاً عن ذلك فإن تصدير السور بمثل هذه الحروف المقطعة يجذب أنظار المعرضين عن استماع القرآن حين يتلى عليهم إلى الإنصات والتدبر، لأنه يطرق أسماعهم في أول التلاوة ألفاظ غير مألوفة في مجارى كلامهم، وذلك مما يلفت أنظارهم ليتبينوا ما يراد منها، فيستمعوا حكماً وحججاً قد تكون سبباً في هدايتهم واستجابتهم للحق.

هذه خلاصة لأراء العلماء في الحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض السور القرآنية، ومن أراد مزيداً لذلك فليرجع - مثلاً - إلى كتاب «الآيتقان» للسيوطي، وإلى كتاب «البرهان» للزرکشي، وإلى تفسير الألوسي.

ثم قال - تعالى - : ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾.

﴿ذلك﴾ اسم إشارة واللام للبعد حقيقة في الحسن، مجازاً في الرتبة، والكاف للخطاب، والمشار إليه - على الراجح - الكتاب الموعود به ﷺ في قوله - تعالى - ﴿إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً﴾.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : أخبرني عن تأليف ﴿ذلك الكتاب﴾ مع ﴿ألم﴾ قلت : إن جعلت ﴿ألم﴾ اسماً للسورة ففي التأليف وجه. أن يكون ﴿ألم﴾ مبتدأ و ﴿ذلك﴾ مبتدأ ثانياً، و ﴿الكتاب﴾ خبره. والجملة خير المبتدأ الأول.

ومعناه أن ذلك الكتاب هو الكتاب الكامل، كان ما عداه من الكتب في مقابلته ناقص، وأنه الذي يستأهل أن يسمى كتاباً، كما تقول : هو الرجل، أى : الكامل في الرجولية، الجامع لما يكون في الرجال من مرضيات الخصال.

وإن جعلت ﴿الم﴾ بمنزلة الصوت، كان «ذلك» مبتدأ خبره «الكتاب»، أى: ذلك الكتاب المنزل هو الكتاب الكامل^(١)... اهـ ملخصاً.

وقيل: المشار إليه ﴿الم﴾ على أنه اسم للسورة والمراد المسمى.

و﴿الكتاب﴾ مصدر كتب كالكتب، وأصل الكتب ضم أديم إلى أديم بالخياطة. واستعمل عرفاً في ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط، وأريد به هنا المنظوم عبارة قبل أن تنظم حروفه التى يتألف منها فى الخط، تسمية للشئ باسم ما يؤول إليه.

و(الريب) فى الأصل مصدر رابه الأمر إذا حصل عنده فيه ريبة، وحقيقة الريبة، قلق النفس واضطرابها، ثم استعمل فى معنى الشك مطلقاً. وقال ابن الأثير: الريب هو الشك مع التهمة.

و(هدى). مصدر هداه هدى وهداية وهدية - بكسرها - فهدى، ومعناه الدلالة الموصلة إلى البغية، وضده الضلال.

و(المتقون) جمع متق، اسم فاعل من اتقى وأصله لوتقى - بوزن افتعل - من وقى الشئ وقاية، أى: صانه وحفظه مما يضره ويؤذيه.

والمعنى: ذلك الكتاب الكامل، وهو القرآن الكريم، ليس محلاً لأن يرتاب عاقل أو منصف فى أنه منزل من عند الله، وأنه هداية وإرشاد للمتقين الذين يجتنبون كل مكروه من قول أو فعل، حتى يصونوا أنفسهم عما يضرها ويؤذيها.

وكانت الإشارة بصيغة البعيد، لأنه سامى المنزلة أينما توجهت إليه، فإن نظرت إليه من ناحية تراكيبه فهو معجز للبلغاء، وإن نظرت إليه من ناحية معانيه فهو فوق مدارك الحكماء، وإن نظرت إليه من ناحية قصصه وتاريخه فهو أصدق محدث عن الماضين، وأدق محدد لتاريخ السابقين، فلا جرم أن كانت الإشارة فى الآية باستعمال اسم الإشارة للبعيد لإظهار رفعة شأن هذا القرآن، وقد شاع فى كلام البلغاء تمثيل الأمر الشريف بالشئ المرفوع فى عزة المنال، لأن الشئ النفيس عزيز على أهله، فمن العادة أن يجعلوه فى مكان مرتفع بعيد عن الأيدي.

وصحت الإشارة إلى الكتاب وهو لم ينزل كله بعد، لأن الإشارة إلى بعضه كالإشارة إلى الكل حيث كان بصدد الإنزال، فهو حاضر فى الأذهان، فشبّه بالحاضر فى العيان.

ونفى عنه الريب على سبيل الاستغراق مع وقوع الريب فيه من المشركين حيث وصفوه بأنه

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٣.

أساطير الأولين، لأنه لروعة حكمته، و سطوع حجته، لا يرتاب ذو عقل متدبر في كونه وحيًا سماويًا، ومصدر هداية وإصلاح.

فالجملة الكريمة تنفى الريب في القرآن عن شأنهم أن يتدبروه، ويقبلوا على النظر فيه بروية، ومن ارتاب في القرآن فلأنه لم يقبل عليه بأذن واعية، أو بصيرة نافذة، أو قلب سليم. وقدّم جملة ﴿لا ريب فيه﴾ على جملة ﴿هدى للمتقين﴾ لأنه أراد أن ينفي عن ساحة كونه كتابًا هاديًا غبار الريب، وغيوم الشكوك، حتى يستقر في النفوس وصفه، وتطمئن القلوب لآثاره ومقاصده وهداياته.

وفصل جملة ﴿لا ريب فيه﴾ عما قبلها لكمال الاتصال، حيث كانت جملة ﴿ذلك الكتاب﴾ مفيدة لكماله، وجملة ﴿لا ريب فيه﴾ مفيدة لنفى الريب عنه.

والمراد بكونه ﴿هدى للمتقين﴾ مع أنه هداية لهم ولغيرهم، لأنهم هم المتفعون به دون سواهم.

قال تعالى: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى، أولئك ينادون من مكان بعيد﴾.

ومعنى كونه هدى لهم أنه يزيدهم هدى على ما لديهم من الهدى كما قال - تعالى - :
﴿والذين اهتموا باقتناء الهدى وآتاهم تقواهم﴾.

ويصح أن يكون المعنى : هدى للناس الذين صاروا متقين بهذه الهداية، كما أقول : هديت مهتديا، أو كتبت مكتوبا، على معنى أنى هديت شخصا صار مهديا بهذه الهداية، وكتبت خطابا صار مكتوبا بهذه الكتابة، وهو أسلوب عربي صحيح. كما ورد في حديث «من قتل قتيلا فله سلبه».

قال صاحب الكشاف : ومحل ﴿هدى للمتقين﴾ الرفع، لأنه خبر مبتدأ محذوف، أو خير مع ﴿لا ريب فيه﴾ لـ «ذلك»... والذي هو أرسخ عرقا في البلاغة أن يضرب عن هذه المحال صفحا، وأن يقال : إن قوله ﴿الم﴾ جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة برأسها.

و﴿ذلك الكتاب﴾ جملة ثانية. و﴿لا ريب فيه﴾ ثالثة. و﴿هدى للمتقين﴾ رابعة. وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة وموجب حسن النظم، حيث جرى بها متناسقة هكذا من غير نسق، وذلك لمجيئها متأخية أخذًا بعضها بعنق بعض. فالثانية متحدة بالأولى معتقة لها، وهلم جراً إلى الثالثة والرابعة : بيان ذلك أنه نبه أولا على أنه الكلام المتحدى به، ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال. فكان تقريراً لجهة التحدى، وشدا من أعضاده ثم نفى عنه أن يتشبث به من طرف الريب، فكان شهادة وتسجيلا بكماله. لأنه لا كمال أكمل من الحق

واليقين. ولا نقص أنقص مما للباطل والشبه.

وقيل لبعض العلماء: فيم لذتك؟ فقال: في حجة تتبختر انضاحاً، وفي شبهة تتضاءل انفضاحاً. ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين، فقرر بذلك كونه يقيناً لا يحوم الشك حوله، وحقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ثم لم تخل كل واحدة من الأربع - بعد أن رتب هذا الترتيب الأنيق - من نكتة ذات جزالة. ففي الأولى الحذف والرمز إلى الغرض بالطف وجه وأرشفه. وفي الثانية ما في التعريف من الفخامة، وفي الثالثة ما في تقديم الريب على الظرف، وفي الرابعة الحذف^(١)...

ثم فصل القرآن بعد ذلك أوصاف المتقين، ومدحهم بجملة من المناقب الحميدة، فقال: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ أى: يصدقون بما غاب عن حواسهم، كالصانع وصفاته، وكاليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وثواب وعقاب.

والإيمان لغة التصديق والإذعان، وهو إفعال من الأمن. وشرعاً التصديق بما علم بالضرورة أنه من الدين، كالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر... الخ، وعدى ﴿يؤمنون﴾ بالباء لتضمينه معنى أقر واعترف.

والغيب: مصدر غاب يغيب، وكثيراً ما يستعمل بمعنى الغائب، وهو الظاهر من هذه الآية الكريمة. ومعناه: ما لا تدركه الحواس، ولا يعلم ببداهة العقل.

قال بعض العلماء: وخص بالذكر الإيمان بالغيب دون غيره من متعلقات الإيمان، لأن الإيمان بالغيب هو الأصل في اعتقاد إمكان ما تحبر به الرسل عن وجود الله والعالم العلوى، فإذا آمن به المرء تصدى لسماع دعوة الرسول وللنظر فيما يبلغه عن الله - تعالى - فسهل عليه إدراك الأدلة، وأما من يعتقد أنه ليس من وراء عالم الماديات عالم آخر، فقد راض نفسه على الإعراض عن الدعوة، كما هو حال الماديين الذين يقولون: «ما يهلكنا إلا الدهر»^(٢):

والإيمان بالغيب: يستلزم التصديق به على وجه الجزم، وهو لا يحصل إلا عن دليل. ولا شك أن قيام البراهين على صدق من أخبر بالغيب يجعل المؤمن بهذا الغيب مصدقاً عن دليل، فنحن لا نحتاج في الإيمان بالملائكة والكتب السماوية السابقة، والرسل الذين أرسلوا من قبل، والبعث وما فيه من ثواب وعقاب، لا نحتاج في الإيمان بكل ذلك إلى دليل زائد على الأدلة التي قامت على صدق نبينا محمد ﷺ.

والإيمان بالغيب دليل على اتساع العقول، وسلامة القلوب، إذ أن معنى الإيمان بالغيب هو

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٦.

(٢) تفسير التحرير والتنوير ج ١ ص ١١٨ للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور.

أن عقولهم قد سلم إدراكها، وتفشعت عنها غشاواتها، وامتد نظرها في الكائنات فأدركت أن لها مبدعاً حكيمًا وخالقًا قديرًا، جعلها تسير بنظام محكم، فهذه كواكب تظهر وتغيب، وسماء مرفوعة بغير عمد، وأرض راسية لا تميد ولا تضطرب... ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾ فكان من ذلك لتلك العقول براهين قاطعة على وجود خالق مدبر، وحكيم قدير، ومبدع لا تأخذه سنة ولا نوم.

والإيمان بالغيب الذي أخبر به الصادق المصدوق ﷺ يقوى ويعظم كلما قوى الإيمان في القلوب، واستولى الصفاء على النفوس، وقد مدح النبي ﷺ المؤمنين بالغيب في أحاديث متعددة، منها ما جاء عن خالد بن دريك، عن ابن محيريز قال: قلت لابن جمعة: حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ قال: نعم أحدثك حديثاً تغدينا مع رسول الله ﷺ ومعنا أبو عبيدة بن الجراح فقال: يا رسول الله، هل أحد خير منا؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك. قال: نعم، قوم من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني.

قال ابن كثير: فقد مدحهم على ذلك وذكر أنهم أعظم أجراً من هذه الحيشة لا مطلقاً^(١). وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن منده وأبو نعيم عن بديلة بنت أسلم قالت: صليت الظهر أو العصر في مسجد بنى حارثة، واستقبلنا مسجد إيلياء فصلينا سجدتين، ثم جاء من يخبرنا بأن رسول الله ﷺ قد استقبل البيت، فتحول الرجال مكان النساء، والنساء مكان الرجال، فصلينا السجدتين الباقيتين ونحن مستقبلون البيت الحرام، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «أولئك قوم آمنوا بالغيب»^(٢).

تلك أول صفة نتيجة التقوى وهي الإيمان بالغيب، أما الصفة الثانية التي مدح الله بها المتقين فهي قوله - تعالى - :

﴿ويقيمون الصلاة﴾.

الصلاة في اللغة الدعاء، من صلى يصلى إذا دعا، واستعملها الشارع في العبادة ذات الركوع والسجود لاشتمالها على الدعاء، والإقامة في الأصل: الدوام والثبات، من قولك: قام الحق أى: ظهر وثبت.

ومعنى ﴿يقيمون الصلاة﴾: يؤدونها في أوقاتها المقدرة لها، مع تعديل أركانها، وإيقاعها مستوفية لواجباتها وسنتها وآدابها وخشوعها، فإن الصلاة المقامة بحق هي تلك التي يصحبها

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤١.

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٢.

الإخلاص، واستحضار جلال الله في الركوع والسجود، وهي التي ترتب عليها الآثار العظيمة من تزكية النفس، وعفائها، وتركها لكل الشرور والآثام، كما قال - تعالى - : ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾.

وقدم الإيمان بالغيب على إقامة الصلاة تعظيمًا لعمل القلب، واعتدادًا بشرطية الإيمان في صحة أعمال الجوارح.

وقدم إقامة الصلاة على الإنفاق، لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولأنها تتكرر في اليوم خمس مرات، ولأنها صلة بين العبد وربّه، والإنفاق صلته بالناس، ولأن مشروعيتها كانت سابقة على مشروعية الزكاة.

أما الصفة الثالثة التي مدح الله بها المتقين فهي قوله - تعالى - :
﴿وما رزقناهم ينفقون﴾.

أى : وما أعطيناهم وملكناهم يتصدقون في وجوه الخير، ويمدون أيديهم بالإحسان إلى الفقير والمسكين.

والرزق عند جمهور العلماء ما صلح للانتفاع به حلالاً كان أو حراماً، خلافاً للمعتزلة الذين يرون أن الحرام ليس برزق. والإنفاق : إخراج المال وإنفاده وصرفه، يقال : نفق - كفرح ونصر - نفد وفنى أو قلّ. وأنفق ماله أنفذه، وأصل المادة يدل على الخروج والذهاب، ومنه : نافق فلان، والنافقاء، والنفق. وقال «ينفقون» ولم يقل أنفقوا، ليشعر بأن الإنفاق منهم يتجدد بين وقت وآخر. ولم يحدد وجوه الإنفاق بل تركها مطلقة لتشمل الفرض والواجب وغيرهما من وجوه الإحسان.

وإيراد «من» في قوله تعالى - ﴿وما رزقناهم﴾ للإشارة إلى أن مواظبتهم على إنفاق أموالهم بين الحين والحين، كفيل بتوصيلهم إلى زمرة المهتمدين المفلحين، وللإشعار بأنهم ينفقون بعض أموالهم مبتعدين عن الإسراف والتبذير حتى لا يتركوا ورثتهم عالة يتكفون وجوه الناس.

هذا، وقد عنى القرآن الكريم عناية فائقة بالحض على الإنفاق في وجوه الخير، ومدح الذين يفعلون ذلك مدحاً عظيماً في عشرات الآيات، وذلك لأن الأمة التي يكثر فيها المنفقون لأموالهم في وجوه الخير، لا بد أن تعز كلمتها، وتسلم من كوارث شتى، كالجهل، والفقير، والمرض. فيبذل المال تسد حاجات البؤساء، وتشاد معاهد التعليم، وتقام وسائل حفظ الصحة، وتنمو المحبة والمودة بين الأغنياء والفقراء.

قال تعالى : ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾ .

ثم أضاف القرآن إلى صفات المتقين وصفاً رابعاً فقال :

﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾ .

والمراد بقوله - تعالى - ﴿بما أنزل إليك﴾ القرآن الكريم، وإنما عبر عنه بلفظ الماضي - وإن كان بعضه مترقباً - تغليياً للموجود على ما لم يوجد .

والمراد بقوله - تعالى - ﴿وما أنزل من قبلك﴾، الكتب الإلهية السابقة التي أنزلها الله على أنبيائه كموسى وعيسى وداود. وهذا كقوله - تعالى - :

﴿يأياها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله، والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل﴾^(١) .

والإيمان بما أنزل على الرسول ﷺ يستلزم الإيمان برسالته، ويستوجب العمل بما تضمنته شريعته .

وإيجاب العمل بما تضمنته القرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ باق على إطلاقه . أما الكتب السماوية السابقة فيكفي الإيمان بأنها كانت وحياً وهداية، وقد تضمن القرآن الكريم ما اشتملت عليه هذه الكتب من هدايات وأصبح بنزوله مهيمناً عليها، قال - تعالى - :

﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء﴾ .

وصار من المحتم على كل عاقل أن يعمل بما جاء به القرآن من توجيهات .
وقدم الإيمان بما أنزل عليه على الإيمان بما أنزل على الذين من قبله - مع أن الترتيب يقتضي العكس - لأن إيمانهم بمن قبله لا قيمة له إلا إذا آمنوا بمحمد ﷺ :
ولم يقل : ويؤمنون بما أنزل من قبلك بتكرير يؤمنون، للإشعار بأن الإيمان به وبهم واحد، لا تغاير فيه وإن تعدد متعلقه .

ويرى بعض العلماء أن المراد من الآية الكريمة، أهل الكتاب الذين آمنوا بالكتب السماوية التي نزلت قبل القرآن، نم لما نزل القرآن على النبي محمد ﷺ وعرفوا أنه الحق - آمنوا به أيضاً -، فصار لهم أجران، كما جاء في الحديث الشريف، الذي ثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين يوم القيامة : رجل من

أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي، ورجل مملوك أدى حق الله وحق مواليه، ورجل أدب جاريته فأحسن تأديبها، ثم أعتقها.

ثم وصف الله المتقين بوصف خامس فقال: ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾ الآخرة تأنيث الآخر. وهذا اللفظ تارة يجيء وصفاً ليوم القيامة مع ذكر الموصوف، كما في قوله - تعالى - «وللدار الآخرة خير للذين يتقون» وتارة بهذا المعنى ولكن بدون ذكر الموصوف، كما في الآية التي معنا، وكما في قوله - تعالى - ﴿وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفصيلاً﴾

وسميت آخرة لأنها تأتي بعد الدنيا التي هي الدار الأولى.

و﴿يوقنون﴾ من الإيقان وهو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، بحيث لا يطرأ عليه شك، ولا تحوم حوله شبهة. يقال يقن الماء إذا سكن وظهر ما تحته، ويقال: يقنت - بالكسر - يقناً، وأيقنت، وتيقنت، واستيقنت بمعنى واحد.

والمعنى: وبالدار الآخرة وما فيها من بعث وحساب وثواب وعقاب هم يوقنون إيقاناً قطعياً، لا أثر فيه للادعاءات الكاذبة، والأوهام الباطلة.

وفي إيراد «هم» قبل قوله «يوقنون» تعريض، بغيرهم، ممن كان اعتقادهم في أمر الآخرة غير مطابق للحقيقة أو غير بالغ مرتبة اليقين.

ولا شك أن الإيمان باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب، له أثر عظيم في فعل الخيرات، واجتناب المنكرات، لأن من أدرك أن هناك يوماً سيحاسب فيه على عمله، فإنه من شأنه أن يسلك الطريق القويم الذي يكسبه رضى الله يوم يلقاه.

قال أبو حيان: وذكر لفظه ﴿هم﴾ في قوله: ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾ ولم يذكرها في قوله: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ لأن وصف إيقانهم بالآخرة أعلى من وصفهم بالإنفاق فاحتاج هذا إلى التوكيد ولم يحتاج ذلك إلى تأكيد ولأنه لو ذكر ﴿هم﴾ هناك لكان فيه قلق لفظي، إذ يكون التركيب «ومما رزقناهم هم ينفقون»^(١).

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك الثمار التي ترتبت على تقواهم فقال:

﴿وأولئك على هدى من ربهم، وأولئك هم المفلحون﴾.

المفلحون: من الفلاح وهو الظفر والفوز بدرك البغية، وأصله من الفلح - بسكون اللام - وهو الشق والقطع، ومنه فلاحه الأرض وهو شقها للحرث. وأستعمل منه الفلاح في الفوز، كأن الفائز شق طريقه وفلحه للوصول إلى مبتغاه، أو انفتحت له طريق الظفر وانشقت.

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ج ١ ص ٤٢.

والمعنى : أولئك المتصفون بما تقدم من صفات كريمة، على نور من ربهم، وأولئك هم الفائزون بما طلبوا، الناجون مما منه هربوا، بسبب إيمانهم العميق، وأعمالهم الصالحة.

والآية الكريمة كلام مستأنف لبيان أن أولئك المتقين في المنزلة العليا من الكمال الإنساني، فقد وصفهم - سبحانه - بأنهم على هدى عظيم، ويدل على عظم هذا الهدى إirاده بصيغة التنكير، إذ من المعلوم عند علماء البيان أن التنكير يدل بمعونة المقام على التعظيم. كما يدل - أيضاً - على عظم هذا الهدى وصفه بأنه « من ربهم »، فهو الذى وفقهم إليه، وسر لهم أسبابه. وفي قوله - تعالى - : ﴿ على هدى ﴾ إشعار بأنهم تمكنوا منه تمكن من استعلى على الشيء، وصار في قرار راسخ منه.

وجملة « وأولئك هم المفلحون » بيان لما ظفر به المتقون الحائزون لتلك الخصال، من سعادة في الدنيا والآخرة.

وتعريف الخبر وهو ﴿ المفلحون ﴾ مع إيراد ضمير الفصل « هم » يفيد أن الفلاح مقصور على أولئك المتقين، فمن لم يؤمن بالغيب، أو أضع الصلاة، أو بخل بالمال الذى منحه الله إياه فلم يؤده في وجوهه المشروعة، فإنه لا يكون من المهتدين، ولا من المفلحين الذين سعدوا في دنياهم وآخرتهم.

قال الإمام الرازى : « وفي تكرير ﴿ أولئك ﴾ تنبيه على أنهم كما ثبت لهم الاختصاص بالهدى، فقد ثبت لهم الاختصاص بالفلاح - أيضاً - فقد تميزوا عن غيرهم بهذين الاختصاصين، فإن قيل : فلم جرى بالعاطف؟ وما الفرق بينه وبين قوله : ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾.

قلنا : قد اختلف الخبران هنا فلذلك دخل العاطف، بخلاف الخبرين ثمة فإنهما متفقان، لأن التسجيل عليهم بالغفلة وتشبيههم بالبهائم شيء واحد، وكانت الثانية مقررة لما في الأولى، فهي من العطف بمعزل^(١).

وقال صاحب الكشاف بعد تفسيره لهذه الآية الكريمة « . . . فانظر كيف كرر الله التنبيه على اختصاص المتقين بنيل ما لا يتاله أحد على طرق شتى، وهى : ذكر اسم الإشارة، وتكريره، وتعريف المفلحين، وتوسيط ضمير الفصل بينه وبين أولئك، ليصرك مرتباتهم، ويرغبك في طلب ما طلبوا، وينشطك لتقديم ما قدموا، ويشطك عن الطمع الفارغ والرجاء الكاذب

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١ ص ١٦٩.

والتمنى على الله ما لا تقتضيه حكمته ولم تسبق به كلمته...»^(١)

والى هنا تكون الآيات الكريمة قد مدحت القرآن الكريم بما يستحقه، وأنت على من أهدوا بهديه، ووصفتهم بالصفات السامية، وبشرتهم بالبشارات الكريمة.

وبعد أن انتهى القرآن من بيان شأن الكتاب وأثره في الهداية والإرشاد، وتصوير حال المتقين الذين اهدوا به، وما اكتسبوه بالهداية من أوصاف سامية، وما كان لهم على ذلك من خير العاقبة وحسن الجزاء، أقول بعد أن انتهى من بيان كل ذلك شرع في بيان حال الكافرين، وما هم عليه من سوء الحال وقبيح الأوصاف فقال:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى
أَبْصَارِهِمْ غَشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

ففي هاتين الآيتين بيان لأحوال طائفة ثانية من الناس، على الضد في طبيعتها وأوصافها وما لها من الطائفة الأولى التي فازت برضوان الله.

والكفر - بالضم - ضد الإيمان. وأصله المأخوذ منه الكفر - بالفتح - وهو ستر الشيء وتغطيته، ومنه سمى الليل كافرًا، لأنه يغطي كل شيء بسواده، وسمى السحاب كافرًا لستره ضوء الشمس.

ثم شاع الكفر في مجرد ستر النعمة، كأن المنعم عليه قد غطي النعمة بجحوده لها. ويستعمله الشارع في عدم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

وسمى من لم يؤمن بما يجب الإيمان به بعد الدعوة إليه - كافرًا، لأنه صار بجحوده لذلك الحق وعدم الإذعان إليه كالمنغطي له.

والمراد بالذين كفروا في الآية التي معنا، طائفة معينة صمت آذانها عن الحق، عنادًا وحسدًا، وليس عموم الكافرين، لأن منهم من دخل في الإسلام بعد نزول هذه الآية.

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٤٦.

وسواء : اسم مصدر بمعنى الاستواء والمراد به اسم الفاعل أى : مستو ولذلك يوصف به كما يوصف بالمصدر، كما فى قوله - تعالى - :

﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾ .

أى : مستوية .

والإنذار : إخبار معه تخويف فى مدة تتسع للحفاظ من المخوف، فإن لم تتسع له فهو إعلام وإشعار لا إنذار، وأكثر ما يستعمل فى القرآن فى التخويف من عذاب الله - تعالى - .

والمعنى : إن الذين كفروا برسالتك يا محمد مستو عندهم إنذارك وعدمه، فهم لا يؤمنون بالحق، ولا يستجيبون لداعى الهدى، لسوء استعدادهم، وفساد فطرتهم .

وجاءت جملة «إن الذين كفروا : مستأنفة ولم تعطف على ما قبلها لاختلاف الغرض الذى سبق له الكلام، إذ فى الجمل السابقة حديث عن الكتاب وآثاره وعظمته، وهنا حديث عن الكافرين وأحوالهم .

وقد وضع هذا المعنى صاحب الكشاف فقال : «فإن قلت لم قطعت قصة الكفار عن قصة المؤمنين ولم تعطف كتحقيق قوله : ﴿إن الأبرار لفى نعمين . وإن الفجار لفى جحيم﴾ . وغيره من الآيات الكثيرة؟ قلت : ليس وزان هاتين القصتين وزان ما ذكرت . لأن الأولى فيها نحن فيه مسوقة لذكر الكتاب وأنه هدى المتقين، وسيقت الثانية لأن الكفار من صفتهم كيت وكيت؛ فبين الجملتين تباين فى الغرض والأسلوب، وهما على حد لا مجال فيه للعاطف» .

وقوله ﴿سواء﴾ خبر إن و﴿عليهم﴾ متعلق به، و﴿أنذرتهم﴾ مؤول بمصدر فاعل سواء . أى : إن الذين كفروا سواء عندهم إنذارهم وعدم إنذارهم وإنما استوى لديهم الإنذار وعدمه؛ مع أن الإنذار إنما يواجههم به نبي قوى أمين مؤيد من الله - تعالى - ، لأنهم لما جحدوا نعم الله، وعموا عن آياته، وحسدوا رسوله على ما آتاه الله من فضله، صاروا بسبب ذلك فى حضيض حمد معه شعورهم، ويرد فيه إحساسهم، فلا تؤثر فيهم موجعات القول، ولا تنفذ إلى قلوبهم بالغات الحجج . فهم كما قال الشاعر :

لقد أسمعت إذ ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادى

ولم يذكر - سبحانه - التبشير مع الإنذار، لأنهم ليسوا أهلا للبشارة، ولأن الإنذار أوقع فى القلوب، والذى لا يتأثر به يكون عدم تأثره بغيره أولى .

ولم يقل^٤ - سبحانه - سواء عليك أنذرتهم أم لم تنذرهم . الخ، لأنه بالنسبة له ﷺ لا يستوى الأمران، إذ هو فى حالة إنذاره لهم مثاب وماجور، أما فى حالة عدم إنذاره فهو

مؤاخذ من الله - تعالى - لأنه مكلف بتبليغ ما أنزل إليه من ربه .
وجملة ﴿لا يؤمنون﴾ مفسرة لمعنى الجملة التى قبلها ومؤكدة لها، لأنه حيث كان الإنذار وعدمه سواء، فلا يتوقع منهم الإيمان . ولذلك فصلت .

وفى هذه الجملة إخبار بعدم إيمانهم ألبتة، وذلك لأن حرف «لا» إذا دخل على الفعل المضارع - كما هنا - أفاد أن الفعل لا يقع فى المستقبل حتى تقوم قرينة تقصر النفى فى المستقبل على وقت محدد .

والحكمة فى الإخبار بعدم إيمان هذه الطائفة المعينة من الكفار، تسلية للنبي ﷺ حتى لا يكون فى صدره حرج من تمردهم وعدم إيمانهم بعد أن قام بواجب دعوتهم، وفى ذلك تذكرة لكل داع مصلح بأن لا يحترق قلبه أسفًا على قوم أعرضوا عن سلوك الصراط المستقيم بعد أن دعاهم إليه، وبذل قصارى جهده فى تبصيرهم وإرشادهم .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك الموانع التى حالت بينهم وبين الاهتداء إلى الحق فى الماضى والمستقبل فقال تعالى :

﴿ختم الله على قلوبهم، وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة﴾ .

والختم : الوسم بطابع ونحوه، مأخوذ من وضع الخاتم على الشيء وطبعه فيه للاستيثاق، لكى لا يخرج منه ما هو بداخله، ولا يدخله ما هو خارج عنه .

قال القرطبي : «والختم مصدر ختمت الشيء ختمًا فهو مختوم مختم، شدد للمبالغة، ومعناه التغطية على الشيء والاستيثاق منه، وقد يكون محسوسًا كما فى ختم الكتاب والباب، وقد يكون معنويًا كالختم على القلوب...»^(١)

والقلوب : جمع قلب، وهو المضغة التى توجد بالجانب الأيسر من صدر الإنسان، ويستعمل فى القوة العاقلة التى هى محل الفهم والعلم .

والسمع : مصدر سمع . ويطلق على الآلة التى يقع بها السمع .

ولما كان الختم يمنع من أن يدخل فى المختوم عليه شيء، استعير لإحداث هيئة فى القلب والسمع تمنع من خلوص الحق إليهما .

الأبصار : جمع بصر، وهو فى الأصل الإدراك بالعين، ويطلق على القوة التى يقع بها الإبصار، وعلى العين نفسها . وهذا المعنى أقرب ما تحمل عليه الأبصار فى الآية . وهو الأنسب

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٨٦ .

لأن تجعل عليه غشاوة. ومفاد الآية أن تصير أبصارهم بحيث لا تهتدى إلى النظر في حكمة المخلوقات وعجائب المصنوعات. باعتبار وتدبر وحتى لكأنما جعلت عليها غشاوة.

والغشاوة: ما يغطي به الشيء، من غشاه إذا غطاه. يقال:

غشيه غشاوة - مثله - وغشاية. أى: ستره وغطاه.

فهذه الآية الكريمة تفيد عن طريق الاستعارة أو التمثيل أن هناك حواجز حصينة، وأقفالا متينة قد ضربت على قلوبهم وعلى أسماعهم، وغشاوات مطبقة على أبصارهم حتى أصبحوا لا يخفهم نذير ولا يرغبهم بشير.

وعبر في جانب القلب والسمع بالختم، وفي جانب البصر بالغشاوة، لمعنى سام، وحكمة رائعة، ذلك أن آفة البصر معروفة، إذ غشاوة العين معروفة لنا، فالتعير في جانب العين بالغشاوة مما يجدد لنا مدى عجزهم عن إدراك آيات الله بتلك الجارحة، وأما القلب والسمع فإنهما لما كانا لا تدرك آفتها إلا بصعوبة، فقد صور لنا موانعها عن الاستجابة للحق بصورة الختم.

وعبر في جانب القلب والسمع بجملة فعلية تفيد التجدد والحدوث، وفي جانب البصر بجملة اسمية تفيد الثبات والاستقرار، لأنهم قبل الرسالة ما كانوا يسمعون صوت نذير، ولا يواجهون بحجة، وإنما كان صوت النذير وصياغة البراهين بعد ظهور النبي ﷺ. وأما ما يدرك بالبصر من دلائل وجود الله وآيات قدرته، فقد كان قائما في السماوات وفي الأرض وفي الأنفس، ويصح أن يدرك قبل الرسالة النبوية، وأن يستدل به المتبصرون والمتدبرون على وجود ربهم وحكمته، فلم يكن عماهم عن آيات الله القائمة حادثا متجددا، بل هم قد صحبهم العمى من بدء وجودهم، فلما دعوا إلى التبصر والتدبر صمموا على ما كانوا عليه من عمى،

وجمع القلوب والأبصار وأفرد السمع، لأن القلوب تختلف باختلاف مقدار ما تفهمه مما يلقي إليها من إنذار أو تبشير، ومن حجة أو دليل، فكان عن ذلك تعدد القلوب بتعدد الناس على حسب استعدادهم، وكذلك شأن الناس فيما تنظره أبصارهم من آيات الله في كونه، فإن أنظارهم تختلف في عمق تدبرها وضحولته، فكان من ذلك تعدد المبصرين بتعدد مقادير ما يستطيعون تدبره من آيات الله في الآفاق. وأما المسموع فهو بالنسبة للناس جميعا شيء واحد هي الحجة يناديه بها المرسلون، والدليل يوضحه لهم النبيون.

لذلك كان الناس جميعا كأنهم على سمع واحد، فكان أفراد السمع إيدانا من الله بأن حجته واحدة، ودليله واحد لا يتعدد.

ونرى القرآن هنا قدم القلب في الذكر على السمع، بينما في سورة الجاثية قدم السمع في الذكر على القلب فقال :

﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه، وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله؛ أفلا تذكرون﴾ .

وذلك لأنه - سبحانه - في سورة الجاثية قد ذكر الختم معطوفا على قوله « اتخذ إلهه هواه، ومن اتخذ إلهه هواه يكون أول ما يبدو منه للناس ويعرف هو إعراضه عن النصيح، ولى رأسه عن استماع الحجة، فكان مظهر عدم السماع منه أول ما يبدو للناظرين، فلذلك قدم السمع على القلب.

وأما آيتنا هذه وهى قوله - تعالى - ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم﴾ فقد جاءت إثر الآية المختومة بقوله ﴿لأ يؤمنون﴾ . والإيمان تصديق يقوم على الحجة والبراهين، وإدراك الحجة والبرهان إنما هو بالقلب فكان التعليل المتصل الواضح لنفى الإيمان أن قلوبهم مغلقة لا تنفذ إليها الحجة، أولا يتسرب إليها نور البرهان لذلك قدم القلب على السمع.

هذا وقوله - تعالى - ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ .. الخ . لا ينفى عنهم تبعة الكفر، لأنهم هم الذين باشروا من فاسد الأعمال، وذميم الخصال، ومتابعة الهوى، ما نسج على قلوبهم الأغلفة السميقة، وأصم إلى جانب ذلك آذانهم وأعمى أبصارهم، ﴿وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ .

ولعلماء الكلام كلام طويل حول هذه المسألة فليرجع إليه من شاء.

ثم بين - سبحانه - ما يستحقونه من عذاب بسبب إغراقهم في الكفر . واستحبابهم للمعاصي فقال :

﴿ولهم عذاب عظيم﴾ .

أى : ولهم بسبب سوء أعمالهم عذاب موجه مؤلم لأبدانهم وأجسامهم .

وأصل العذاب : المنع، يقال : عذب الفرس - كضرب - امتنع عن العلف . وعذب الرجل إذا ترك المأكل والنوم، فهو عاذب وعذوب . ثم أطلق على الإجماع الشديد لما فيه من المنع عن اقتراف الذنب . والعظيم : الكبير، من عظم الشيء، وأصله كبر عظمه، ثم استعير لكل كبير محسوسا كان أو معقولا .

ووصف العذاب بالعظيم على معنى أن سائر ما يجانسه من العذاب يكون بالنسبة إليه حقيراً هيناً .

قال أبو حيان في البحر: وقد ذكروا في هاتين الآيتين من ضروب الفصاحة أنوعاً.
الأول: الخطاب العام اللفظ، الخاص المعنى.

الثاني: الاستفهام الذي يراد به تقرير المعنى في النفس. أى: يتقرر أن الأنداز وعدمه سواء عندهم.

الثالث: المجاز ويسمى الاستعارة وهو في قوله - تعالى - ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ﴾ وحقيقة الختم وضع محسوس على محسوس يحدث بينهما رقم يكون علامة للخاتم، والختم هنا معنوى؛ فإن القلب لما لم يقبل الحق مع ظهوره استعير اسم المختوم عليه، فيبين أنه من مجاز الاستعارة.

الرابع: الحذف وهو في مواضع منها ﴿ إن الذين كفروا . . ﴾ أى: القوم الذين كفروا بالله وبك وبما جئت به، ومنها ﴿ لا يؤمنون ﴾ أى بالله وبما أخبرتهم به عنه^(١).

وإلى هنا يكون القرآن قد حدثنا عن طائفتين من الناس: طائفة المتقين ومالها من جميل الصفات، وجزيل الثواب، وطائفة الكافرين ومالها من ذميم النعوت، وشديد العقاب.

ثم ابتداء القرآن بعد ذلك حديثه عن طائفة ثالثة ليس عندها إخلاص المتقين، وليس لديها صراحة الكافرين، وإنما هي طائفة قلقة مذمبة لا إلى هؤلاء ولا إلى أولئك، تلك الطائفة الثالثة هي طائفة المنافقين الذين فضحهم القرآن. وأما اللثام عن خفاياهم وخداعهم فقال:

وَمِنَ النَّاسِ

مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾

يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ

وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾

قال صاحب الكشاف: «افتح - سبحانه - كتابه بذكر الذين أخلصوا دينهم لله، وواطأت قلوبهم ألسنتهم، ووافق سرهم علمهم، وفعلهم قولهم، ثم ثنى بالذين محضوا الكفر ظاهراً

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ج ١ ص ٥٠.

وباطناً، قلوباً وألسنة، ثم ثلث بالذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، وأبطنوا خلاف ما أظهروا. وهم الذين قال فيهم: ﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾، وسماهم المنافقين وكانوا أخبث الكفرة وأبغضهم إليه وأمقتهم عنده، لأنهم خلطوا بالكفر تمويهاً وتدليساً، وبالشرك استهزاء وخداعاً، ولذلك أنزل فيهم: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ ووصف حال الذين كفروا في آيتين ووصف حال الذين نافقوا في ثلاث عشرة آية، نعى عليهم فيها خبثهم، ومكرهم، وفضحهم، وسفههم. واستجهلهم، واستهزأ بهم، وتهمك بفعلهم، وسجل طغيانهم، ودعاهم صماً بكما عمياً، وضرب لهم الأمثال الشنيعة. وقصة المنافقين عن آخرها معطوفة على قصة الذين كفروا، كما تعطف الجملة على الجملة^(١).

والناس: اسم لجماعة الإنس. قال القرطبي: «واختلف النحاة في لفظ الناس فقيل: هو من أسماء الجموع، جمع إنسان وإنسانة على غير اللفظ، وتصغيره نوس، فالناس من النوس وهو الحركة، يقال: ناس، ينوس أى: تحرك. وقيل: أصله نسي، فأصل ناس نسي، قلب فصار نيس، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فانقلبت ألفاً، ثم دخلت الألف واللام فقيل: الناس، قال ابن عباس: نسي آدم عهد الله فسمى إنساناً. وقيل: سمي إنساناً لأنسه بربه، قال الشاعر:

وما سمي الإنسان إلا لأنسه ولا القلب إلا أنه يتقلب^(٢)

واليوم الآخر: هو اليوم الذى يبتدئ بالبعث ولا ينقطع أبداً، وقد يراد منه اليوم الذى يبتدئ بالبعث وينتهى باستقرار أهل الجنة فى الجنة. وأهل النار فى النار.

وقال القرآن فى شأن المنافقين ﴿ومن الناس﴾ مجرداً إياهم من الوصفين السابقين، وصف الإيمان ووصف الكفر، لأنهم لم يكونوا بحسب ظاهر الأمر مع الكافرين، ولا بحسب باطنه مع المؤمنين، لذا عبر عنهم بالناس لينطبق التعبير على ما حاولوه لأنفسهم من أنهم لاهم مؤمنون. ولاهم كافرون وفى ذلك مبالغة فى الخط من شأنهم. فهم لم يخرجوا عن كونهم ناساً فقط، دون أن يصلوا بأوصافهم إلى أهل اليمين أو إلى أهل الشمال الصرحاء فى كفرهم، بل بقوا فى منحدر من الأرض، لا يمر بهم سالك الطريق المستقيم ولا سالك المعوج من الطرق.

وعبر القرآن بلفظ ﴿يقول آمناً﴾ ليفيد أنه مجرد قول باللسان، لا أثر له فى القلوب، وإنما هم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم.

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٥٤.

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٩٢.

وحكى القرآن عن هؤلاء المنافقين أنهم اقتصروا في إظهار الإيمان على ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر، ليزيدوا في التمويه على المؤمنين بإدعاء أنهم أحاطوا بالإيمان من طرفيه، لأن من يؤمن بالله واليوم الآخر، استجابة لدعوة الرسول ﷺ فإن من شأنه أن يكون - أيضا - مؤمناً برسول الله وملائكته وكتبه.

وقد كذبهم الله - تعالى - في دعواهم الإيمان، فقال :

﴿وما هم بمؤمنين﴾.

فهذه الجملة الكريمة رد لما ادعوه من الإيمان، ونفى له على أبلغ وجه، إذ جاء النفي مؤكداً بالباء في قوله ﴿بمؤمنين﴾. ثم ان الجملة نفت عنهم الإيمان على سبيل الإطلاق، فهم ليسوا بمؤمنين لا بالله ولا باليوم الآخر، ولا بكتب الله ولا برسوله ولا بملائكته.

ثم بين - سبحانه - الدوافع التي دفعتهم إلى أن يقولوا ﴿آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ فقال :

﴿يخادعون الله والذين آمنوا﴾.

والخدع في أصل اللغة : الإخفاء والإبهام، يقال خدعه - كمنعه - خدعا، ختله وأراد به مكروها من حيث لا يعلم؛ وأصله من خدع الضب حارسه إذ أظهر الإقبال عليه ثم خرج من باب آخر.

وخداعهم الله - تعالى - معناه إظهارهم الإيمان وإبطانهم الكفر ليحقتوا دماءهم وأموالهم، ويفوزوا بسهم من الغنائم، وسمى فعلهم هذا خداعاً لله - تعالى - لأن صورته صورة الخداع، فالجملة الكريمة مسوقة على أسلوب المشاكلة، ولا يجوز حملها على الحقيقة، لأنه - سبحانه - لا يخفى عليه صنع المنافقين؛ بل لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. قال - تعالى - ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم﴾.

أما خداعهم للمؤمنين فمن مظاهره إظهارهم لهم أنهم إخوانهم في العقيدة وأنهم لا يريدون لهم إلا الخير. بينما هم في الحقيقة يضمرون لهم العداوة ويتربصون بهم الدوائر.

وجاءت الآية الكريمة هكذا بدون عطف، لأنها جواب سؤال نشأ من الآية السابقة، إذ أن قول المنافقين «آمنا» وما هم بمؤمنين، يثير في نفس السامعين استفهاما عما يدعو هؤلاء لمثل تلك الحال المضطربة والحياة القلقة المقامة على الكذب، فكان الجواب : إنهم يفعلون ذلك محاولين خداعة المؤمنين، جهلا منهم بصفات خالقهم.

وقال القرآن: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾. ولم يذكر مخادعتهم للرسول ﷺ، ولعل الحكمة في ذلك أن القرآن يعتبر مخادعة الله مخادعة لرسوله، لأنه هو الذى بعثه إليهم، وهو المبلغ عن الله أحكامه وشرائعه. قال - تعالى - :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ وقال - تعالى - ﴿مَنْ يَطْعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾.

ثم بين - سبحانه - غفلتهم وغباءهم فقال: ﴿وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾. الأنفس: جمع نفس بمعنى ذات الشيء وحقيقته. وتطلق على الجوهر اللطيف الذى يكون به الحس والحركة والإدراك.

ويشعرون: مضارع شعر بالشيء - كنصر وكرم - يقال: شعر بالشيء أى: فطن له، ومنه الشاعر لفظته، لأنه يفظن لما لا يفظن له غيره من غريب المعاني ودقائقها. والشعور: العلم الحاصل بالحواس، ومنه مشاعر الإنسان أى: حواسه.

والمعنى: أن هؤلاء المنافقين لم يخادعوا الله لعلمه بما يسرون، ولم يخادعوا المؤمنين لأن الله يدفع عنهم ضرر خداع المنافقين، وإنما يخدعون أنفسهم لأن ضرر المخادعة عائد عليهم، ولكنهم لا يشعرون بذلك. لأن ظلام الغي خالط قلوبهم، فجعلهم عديمى الشعور، فاقدى الحس.

وأى بجملة «وما يخدعون إلا أنفسهم»، بأسلوب القصر مع أن خداعهم للمؤمنين قد ينالهم بسببه ضرر، لأن أولئك المنافقين سيصيبهم عذاب شديد بسبب ذلك، أما المؤمنون فحتى لو نالهم ضرر فلهم عند الله ثوابه.

ونفى عنهم الشعور مع سلامة مشاعرهم، لأنهم لم يتنفخوا من نعمتها، ولم يستعملوها فيما خلقت له، فكانوا كالفالاقدين لها.

ثم بين - سبحانه - العلة في خداعهم لله وللمؤمنين فقال: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾. والمرض: العلة في البدن ونقيضه الصحة، وقد يستعمل على وجه الاستعارة فيما يعرض للمرء فيخل بكمال نفسه، كسوء العقيدة والحسد، والبغضاء والنفاق، وهو المراد هنا. وسمى ما هم فيه من نفاق وكفر مرضا، لكونه مانعا لهم من إدراك الفضائل. كما أن مرض الأبدان يمنعها من التصرف الكامل.

وجعل القرآن قلوبهم ظرفا للمرض، للإشعار بأنه تمكن منها تمكنا شديدا كما يتمكن الظرف من الظروف فيه.

ثم أخبر - سبحانه - بأنهم بسبب سوء أعمالهم قد زادهم الله ضللاً وخسراً فقال : ﴿فزادهم الله مرضاً﴾ .

لأنهم استمروا في نفاقهم وشكهم، ومن سنة الله أن المريض إذا لم يعالج مرضه زاد لا محالة مرضه، إذ المرض ينشئ المرض، والانحراف يبدأ يسيراً ثم تنفرج الزاوية في كل خطوة وتزداد. والمعنى : أن هؤلاء المنافقين قد زادهم الله رجساً على رجسهم، ومرضاً على مرضهم، وحسداً على حسدهم، لأنهم عموا وطمعوا عن الحق، ولأنهم كانوا يجزنون لأى نعمة تنزل بالمؤمنين. كما قال - تعالى - : ﴿إن تمسككم حسنة تسوؤهم، وإن تصيبكم سيئة يفرحوا بها﴾ . ثم بين - سبحانه - سوء عاقبتهم فقال : ﴿ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾ . ﴿أليم﴾ أى : مؤلم وموجع وجعاً شديداً. من ألم - كفرح - فهو ألم، وآله يؤله إيلاماً، أى : أوجعه إجماعاً شديداً.

والكذب : الإخبار عن الشيء بخلاف الواقع. ولقد كان المنافقون كاذبين في قولهم «أمننا بالله وباليوم الآخر» وهم غير مؤمنين،

وجعلت الآية الكريمة العذاب الأليم مرتباً على كذبهم مع أنهم كفرة، والكفر أكبر معصية من الكذب، للإشعار بقبح الكذب، وللتنفير منه بأبلغ وجه، فهؤلاء المنافقون قد جمعوا الخستين، الكفر الذى توعد الله مرتكبه بالعذاب العظيم، والكذب الذى توعد الله مقترفه بالعقاب الأليم.

وعبر بقوله : ﴿كانوا يكذبون﴾ لإفادة تجدد الكذب وحدوثه منهم حيناً بعد حين، وأن هذه الصفة هى أخص صفاتهم، وأبرز جرائمهم،

ثم وصفهم الله - تعالى - بعد ذلك بجملة من الرذائل والقبائح مضافة إلى قبائحهم السابقة فقال :

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ

لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ

لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

الفساد: خروج الشيء عن حالة الاعتدال والاستقامة، وعن كونه متفَعًا به، وضده الإصلاح، يقال: فسد الشيء فسادًا، وأفسده إفسادًا.

والمراد به هنا كفرهم، ومعاصيهم، ومن كفر بالله وانتهك محارمه فقد أفسد في الأرض، لأن الأرض لا تصلح إلا بالتوحيد والطاعة.

ومن أبرز معاصي هؤلاء المنافقين، ما كانوا يدعون إليه في السر من تكذيب الرسول ﷺ وإلقاء الشبه في طريق دعوته، والتحالف مع المشركين ضد المسلمين كلما وجدوا إلى ذلك سبيلًا.

وسلك القرآن هذا الأسلوب فقال: ﴿وإذا قيل لهم﴾ بالبناء للمفعول دون أن يسند الفعل إلى فاعله، لأن مصدر القول المعبر عن النهي عن الإفساد ليس مصدرًا واحدًا، فقد يصل آذانهم هذا النهي مرة من صريح القول. وأخرى مما كانوا يقابلون به من ناحية الرسول ﷺ وأصحابه من تجهم وإعراض.

وعلق بالفعل الذي هو الإفساد قوله: ﴿في الأرض﴾ إيدانًا بأن الإفساد مهما ضاقت حدوده، فإنه لا يبد يومًا أن يتعدى الحدود إلى ما وراء ذلك فقد يعم ويشمل إذا لم يشتد في الاحتياط له، لذلك جعل ظرف إفسادهم الأرض كلها مع أنهم موجودون في بقعة محصورة هي المدينة المنورة.

ولقد حكى القرآن جوابهم على نصيحة الناصحين وما فيه من تبجح وادعاء فقال: ﴿قالوا: إنما نحن مصلحون﴾.

فقد بالغوا في الرد فحصرُوا أنفسهم أولاً في الإصلاح مبالغة المفجوع الذي أذهلته المفاجأة بكشف أستار حقيقته، فتراهم لم يقتصروا على أن يقولوا: ﴿إنا مصلحون﴾ بل قالوا «إنما». ثم أكدوا الجملة بكونها اسمية ليدلوا بذلك على أن شأنهم في الإصلاح ثابت لازم. قال الراغب: صوروا إفسادهم بصورة الإصلاح لما في قلوبهم من المرض، كما في قوله - تعالى - ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنًا﴾. وقوله: ﴿وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾. وقوله: ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً. الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا﴾.

ولقد كذبهم الله - تعالى - تكذيبًا مؤكدًا في دعوهم أنهم مصلحون فقال:

﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾.

فأنت ترى أن القرآن الكريم قد وضع في الرد عليهم جملة صدرها بأداة الاستفتاح إيدانًا بأن

ما قالوه يجب أن يهمل إهمالاً، بل يجب أن يكون وصفهم بالإفساد قضية مبتدأة مقررة حتى يتلقاها السامع وهو منتبه النفس، حاصر الذهن.

ثم أكد الجملة بعدة تأكيدات منها: وصل «ألا» «إيان» الدالة على تأكيد الخبر وتحقيقه، ومنها تأكيد الضمير بضمير منفصل حتى يتم التصاق الخبر بالمبتدأ، ومنها اسمية الجملة، ومنها إفادة قصرهم على الإفساد في مقابل تأكيدهم أنهم هم المصلحون.

ولما كان هذا الرد المؤكد عليهم يستدعى عجباً، لأنهم زعموا أنهم لا حال لهم إلا الإصلاح، مع أنهم في الحقيقة لا حال لهم إلا الإفساد، لما كان الأمر كذلك، فقد أزال القرآن هذا العجب بقوله:

﴿ولكن لا يشعرون﴾.

أى: أنهم ما قالوه إلا عن غباء استولى على إحساسهم، ونفى عنهم الشعور بما يصدر عنهم من الفساد، فأمسوا لا يدركون من شأن أنفسهم شيئاً، ومن أسوأ ألوان الجهل أن يكون الإنسان مفسدًا ولا يشعر بذلك، مع أن أثر فساد ظاهر في العيان، مرئى لكل ذى حس. فعدم شعورهم بالفساد الواقع منهم منبىء باختلاف آلات إدراكهم، حتى صاروا يحسبون الفساد صلاحاً، والشر خيراً.

وليس عدم شعورهم رافعاً العقاب عنهم، لأن الجاهل لا يعذر بجهله خصوصاً إذا كان جهله يزول بأدنى تأمل لوضوح الأدلة، وسطوع البراهين.

ثم بين القرآن أن الناصحين قد أمرتهم بالمعروف بعد أن نهوهم عن المنكر فقال:

﴿وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء﴾.

المراد من الناس: المؤمنون بالرسول ﷺ الصادقون في إيمانهم

السفهاء: جمع سفيه، وأصل السفه: الخفة والرقة والتحرك والاضطراب يقال: ثوب سفيه، إذا كان رديء النسيج خفيفه، أو كان بالياً رقيقاً. وتسففت الريح الشجر. أى: مالت به. وزمام سفيه: كثير الاضطراب، المنازعة الناقية إياه، وشاع في خفة العقل وضعف الرأى. وهو المعنى المقصود بالسفهاء في الآية. فقد كان المنافقون يصفون المسلمين بذلك فيما بينهم. وروى أنهم كانوا يقولون: أنؤمن كما آمن سفيه بنى فلان، وسفيه بنى فلان؟! فأوحى الله للنبي ﷺ بهذا الذى كانوا يقولونه.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: لم وصفوهم بالسفه وهم العقلاء المراجيح؟ قلت لأن المنافقين لجهلهم وإخلاقهم بالنظر، اعتقدوا أن ما هم فيه هو الحق، وأن ما عدها باطل، ومن

ركب متن الباطل كان سفيهاً، ولأنهم كانوا في رياسة من قومهم ويسار، وكان أكثر المؤمنين فقراء ومنهم موال كصهيب وبلال وخباب، فدعوهم سفهاء تحقيراً لشأنهم^(١) اهـ ملخصاً.

وقد رد الله عليهم بما يكتبهم ويفضحهم فقال:

﴿ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾ لأنهم أعرضوا عن النظر في الدليل وباعوا آخرتهم بديناهم، وهذا أقصى ما يبلغه الإنسان من سفه العقل.

وقد تضمن هذا الرد تسفيهمهم وتكذيبهم في دعوى سفه الصادقين في إيمانهم، فإن قوله - تعالى - ﴿ألا إنهم هم السفهاء﴾ يفيد أن السفه مقصور عليهم فلا يتجاوزهم إلى المؤمنين، وقد تضمنت هذه الجملة من المؤكدات ما تضمنته الجملة السابقة في قوله - تعالى - ﴿ألا إنهم هم المفسدون﴾.

وإنما قال في الآية السابقة «ولكن لا يشعرون» وقال في هذه الآية «ولكن لا يعلمون» لأن الآية السابقة وصفتهم بالإفساد، وهو من المحسوسات التي تدرك بأدنى نظر فيناسبه نفى الشعور الذي هو الإدراك بالمشاعر: الحواس، أما هذه الآية فقد وصفتهم بالسفه، وهو ضعف الرأي والجهل بالأمور، وهذا لا يدركه الشخص في نفسه إلا يعد نظر وإمعان فكر. فيناسبه نفى العلم.

ثم بين القرآن ما هم عليه من سلوك ذميم، وأنهم يقابلون الناس بوجوه مختلفة فقال:

وَإِذَا لَقُوا

الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا

مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ

فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ

بِالْهُدَىٰ فَمَا رِيحَتْ بِحَرِّهِمْ وَمَا كَانَُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

﴿وإذا لقوا الذين آمنوا﴾ يقال لقيته ولاقيته إذا استقبلته وصادفته وكان قريباً منك. والمصدر

اللقاء واللقى واللقىة. والمقصود: استقبلوهم وكانوا في مواجهتهم وقريبا منهم. ومرادهم بقولهم «أمنأ» أخلصنا الإيمان بقلوبنا لأن الإقرار باللسان معلوم منهم.

وإذا خلوا إلى شياطينهم، أى: انفردوا مع رؤسائهم وقادتهم المشبهين الشياطين في تمردهم وعنوهم وصددهم عن سبيل الحق. يقال: خلا به وإليه ومعه، خلوا وخلاء وخلوة: سأله أن يجتمع به في خلوة ففعل وأخلاه معه.

أو المعنى: وإذا مضوا وذهبوا إلى شياطينهم، يقال: خلا بمعنى مضى وذهب، ومنه قوله تعالى ﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾. أى مضت.

وعبر عن حالهم مع المؤمنين بالملقاة، وعن حالهم مع الشياطين بالخلوة إيدانا بأن هؤلاء المنافقين لا أنس لهم بالمؤمنين، ولا طمأنينة منهم إليهم فهم لا يجالسونهم ولا يسامرونهم، وإنما كل ما هنالك أن يلقوهم في عرض طريق، أما شأنهم مع شياطينهم فهم إليهم يركنون، وإليهم يتسامرون ويتحادثون، لذلك هم بهم يخلون.

والمعنى في قولهم ﴿إنا معكم﴾، المراد منها موافقتهم في دينهم، وأكدوا ما خاطبوا به شياطينهم بحرف التأكيد، إذ قالوا ﴿إنا معكم﴾ ليزيلوا ما قد يجرى في خراطهم من أنهم فارقوا دينهم وانقلبوا إلى دين الإسلام بقلوبهم.

ولم يؤكدوا ما خاطبوا به المؤمنين، إذ قالوا لهم ﴿أمنأ﴾ ولم يقولوا «إنا آمنأ» ليوهموهم أنهم بمرتبة لا ينبغي أن يترددوا في إيمانهم حتى يحتاجوا إلى تأكيد.

وقوله - تعالى - حكاية عنهم: ﴿إنما نحن مستهزئون﴾. وارد مورد الجواب عما قد يعترض به عليهم شياطينهم إذا قالوا لهم: كيف تدعون أنكم معنا مع أنكم توافقون المؤمنين في عقيدتهم وتشاركونهم في مظاهر دينهم؟

فكان جوابهم عليهم ﴿إنما نحن مستهزئون﴾ والاستهزاء: السخرية والاستخفاف بالغير، يقال: هزأ منه وبه - كمنع وسمع - واستهزأ به، أى: سخر.

والمعنى: إننا نظهر للمؤمنين الموافقة على دينهم استخفافاً بهم وسخرية منهم، لا أن ذلك صادر منا عن صدق وإخلاص.

ثم بين - سبحانه - موقفه منهم فقال: ﴿الله يستهزئ بهم﴾.

حمل بعض العلماء استهزاء الله بهم على الحقيقة وإن لم يكن من أسمائه المستهزئ، لأن معناه يحتقرهم على وجه شأنه أن يتعجب منه، وهذا المعنى غير مستحيل على الله، فيصح إسناده إليه - تعالى - على وجه الحقيقة.

ويرى جمهور العلماء أن الاستهزاء لا ينفك عن التلبس كأن يظهر المستهزئ استحسان الشيء وهو في الواقع غير حسن، أو يقر المستهزأ به على أمر غير صواب، وهذا المعنى لا يليق بجلال الله، فيجب حمل الاستهزاء المسند إليه تعالى على معنى يليق بجلاله، فيحمل على ما يلزم على الاستهزاء من الانتقام والعقوبة والجزاء المقابل لاستهزائهم، وسمى ذلك استهزاء على سبيل المشاكلة^(١) كما في قوله تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾.

وهذا دليل على غيرة الله على عباده المؤمنين، وانتقامه من كل من يستهزئ بهم أو يؤذيهم. وعبر بالمضارع في قوله ﴿يستهزئ﴾ للإيدان بأن احتقاره لهم، أو مجازاتهم على استهزائهم يتجدد ويقع المرة بعد الأخرى:

ثم بين - سبحانه - لونا آخر من ألوان غضبه عليهم فقال: ﴿ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾.

المد: الإمهال والمطاولة والزيادة، من المد بمعنى الإمهال، يقال: مده في غيه - من باب رد - أمهله وطول له، ويقال: مد الجيش وأمده إذا ألقى به ما يقويه ويكثره ويزيده، وقيل: أكثر ما يستعمل المد في المكروه، والإمداد في المحبوب، والطغيان: مجاوزة الحد، ومنه طغا الماء، أى: ارتفع.

ويعمهون: يعمون عن الرشد، أو يتحIRON ويترددون بين الإظهار والإخفاء، أو بين البقاء على الكفر وتركه إلى الإيمان. يقال: عمه - كفرح ومنع - عمها، إذا تردد وتخير، فهو عمه وعامه، وهم عمهون وعمه كركع والمعنى: أن الله تعالى يجازى هؤلاء المنافقين على استهزائهم وخداعهم، ويمكنهم من المعاصي أو يملى لهم ليزدادوا إثماً. حال كونهم يعمون عن الرشد، فلا يبصرون الحق حقاً ولا الباطل باطلاً.

ثم بين - سبحانه - لونا من ألوان غبايهم وبلادتهم فقال: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾.

الاشترء: أخذ السلعة بالثمن. والمراد: أنهم استبدلوا ماكره الله من الضلالة بما أحبه من الهدى قال ابن عباس: أخذوا الضلالة وتركوا الهدى.

والمشار إليه بـ «أولئك» هم المنافقون: الموصوفون في الآيات السابقة بالكذب والمخادعة، والإفساد في الأرض، ورمى المؤمنين بالسفاهة واستهزائهم بهم.

والسر في الإشارة إليهم والتعبير عنهم بأولئك تمييزهم بأكمل صورة وأجل بيان.

(١) قال السكاكي: المشاكلة: أن تذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته اهـ مفتاح العلوم ص ٢٢٥.

إذ من المعروف عند علماء البلاغة أن اسم الإشارة إذا أشير به إلى أشخاص وصفوا بصفات يلاحظ فيه تلك الصفات، فهو بمنزلة إعادة ذكرها وإحضارها في أذهان المخاطبين. فتكون تلك الصفات، وهى هنا الكذب والمخادعة وما عطف عليها، كأنها ذكرت في هذه الآية مرة أخرى ليعرف بها علة الحكم الوارد بعد اسم الإشارة، وهو هنا اشتراء الضلالة بالهدى. أى: اختيارها. واستبدالها به.

وعبرت الآية بالاشتراء على سبيل الاستعارة ليتحدد مقدار رغبتهم في الضلالة، وزهدهم في الهدى، فإن المشتري في العادة يكون شديد الرغبة فيما يشتري، رغبة تجعله شديد الزهد فيما يبذله من ثمن. فهم راغبون في الضلالة، زاهدون في الهدى.

وقوله تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ لا يقتضى أنهم كانوا على هدى من ربهم فتركوه، بل يكفى فيه أن يجعل تمكنهم من الهدى لقيام أدلته. بمنزلة الهدى الحاصل بالفعل.

ثم بين سبحانه نتيجة أخذهم الضلالة وتركهم الهدى فقال:

﴿فما ربحت تجارتهم﴾ أى: أنهم لم يحصلوا من اشترائهم الضلالة بالهدى على الربح، وإذا كانت التجارة الحقيقية قد يفوت صاحبها الربح، ولكنه لا يقع في خسارة بأن يبقى له رأس ماله محفوظاً، فإن التجارة المقصودة من الآية هى استبدال الضلالة بالهدى، لا يقابل الربح فيها إلا الخسران، فإذا نفى عنها الربح فذلك يعنى أنها تجارة خاسرة.

ثم قال - تعالى - : ﴿وما كانوا مهتدين﴾ أى: وما كانوا مهتدين إلى سبيل الرشاد وما تتجه إليه العقول الراجحة من الدين الحق، وما كانوا مهتدين إلى طرق التجارة الربحية، فهم أولاً لم يربحوا في تجارتهم بل خسروها، وهم ثانياً ذهب نور الهدى من حولهم فبقوا في ظلمة الضلال. وما أوجع أن يجتمع على التاجر خسارته وتورطه، وما أوجع أن يجتمع عليه أن ينقطع عن غايته، وأن يكون في ظلمة تعوقه عن التبصر.

وبعد أن وصف الله تعالى حال المنافقين في الآيات السابقة، ساق مثلين لتوضيح سوء تصرفهم، وشدة حيرتهم واضطرابهم. فقال تعالى:

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ

ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّ

بِكُمْ عُمْى فهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ

ظَلَمْتُمْ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ
 حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ
 أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا
 وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّا اللَّهُ عَلَى كُلِّ
 شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

وقوله تعالى: ﴿مثلهم﴾ أى: صفتهم، وأصل المثل بمعنى المثل - بكسر الميم وسكون
 الراء - والمثل النظير والشبيه، ثم أطلق على القول السائر المعروف لمماثلة مضربه - وهو الذى
 يضرب فيه - لمورده الذى ورد فيه أولاً، ولا يكون إلا فيما فيه غرابة ثم استعير للصفة أو الحال
 أو القصة إذا كان لها شان عجيب وفيها غرابة، وعلى هذا المعنى يحمل المثل فى هذه الآية،
 وإنما تضرب الأمثال لإيضاح المعنى الخفى وتقريب المعقول من المحسوس، وعرض الغائب
 فى صورة الشاهد، فيكون المعنى الذى ضرب له المثل أوقع فى القلوب، وأثبت فى النفوس.
 واستوقد النار: طلب وقودها بسطوع نارها واندلاع لهيها، أو أوقدها لأن أوقد واستوقد قد
 يكونان بمعنى واحد كأجاب واستجاب.

والنار: جوهر لطيف حار محرق من نار ينور إذا نفر لحركتها واضطرابها، وأضاءت
 ما حوله: جعلت ما حوله مضيئاً، أو أشرقت فيما حوله. وحول الشيء: ما يحيط به من جميع
 نواحيه، ولذا قيل للعام حول، للفه ودورانه حتى يعود كما كان.
 والنور: الضوء الذى يكون للشيء المضيء، وهو مأخوذ من النار..

ومعنى: ﴿ذهب الله بنورهم﴾ سلبه منهم، وفى إسناد ذهب إلى الله تعالى - إشعار بأن النور
 الذى سلب عنهم لن يستطيع أحد أن يرده عليهم، لأن الذى سلبه عنهم إنما هو الله الغالب
 على أمره.

وقال ﴿بنورهم﴾ ولم يقل بنارهم، لأن إيقاد النار يكون للإضاءة وللإحراق والمقصود من
 إيقاد النار الواردة فى المثل إنما هو الإضاءة.

وقال ﴿بنورهم﴾ ولم يقل بنوره، مع أن الضمير يعود على ﴿الذى استوقد﴾ وهو بحسب

الظاهر مفرد، لأن ﴿الذى﴾ قد يطلق أحيانا بمعنى الذين، كما في قوله تعالى: ﴿وخضتم كالذى خاضوا﴾ أو لأن ﴿الذى﴾ أريد منه جنس المستوقد، لا مستوقد بعينه، فصار في معنى جماعة من المستوقدين. وصح أن يعود عليه ضمير الجمع في قوله ﴿بنورهم﴾ لذلك.

وأورد الظلمات بصيغة الجمع للمبالغة في شدتها، فكأنها لشدة كثافتها ظلمات بعضها فوق بعض، وأكد هذا بقوله ﴿لا يبصرون﴾ أى: أن هذه الظلمات بالغة في الشدة حتى أولئك المحاطين بها لا يتأتى لهم أن يبصروا، كما أن الشأن كذلك بالنسبة للذين طمس على أعينهم.

وعبر - سبحانه - بقوله: ﴿وتركهم﴾ ولم يقل: ذهب بنورهم وبقوا في ظلمات، ليدل بذلك على قطع الصلة بينهم وبين ربهم، وأنهم متروكون غضباً عليهم ونكاية بهم.

هذا، وللعلماء رأيان في تطبيق هذا المثل على المنافقين، أما الرأي الأول فيرى أصحابه، أن هذا المثل قد ضرب في قوم دخلوا في الإسلام عند وصول النبي ﷺ إلى المدينة، ثم تحولوا بعد ذلك إلى الكفر والنفاق فيقال في تطبيق هذا المثل عليهم: إن قصة هؤلاء المنافقين الذين اكتسبوا بإيمانهم نوراً، ثم أبطلوا ذلك بنفاقهم، ووقعوا في حيرة عظيمة، كقصة من استوقدوا ناراً؛ فلما أضاءت ما حولهم، سلب الله منهم الضوء فراحوا في ظلام لا يبتدون إلى الخروج منه سبيلاً.

وأما الرأي الثاني فيرى أصحابه أن هذا المثل إنما ضرب في قوم لم يسبق لهم إيمان وإنما دخلوا في الإسلام من أول أمرهم نفاقاً، فيقال في تطبيق هذا المثل عليهم: إن قصة هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام نفاقاً، فظفروا بحقن دمائهم وبغنائم الجهاد وسائر أحكام المسلمين، وتمتعوا بذلك في الدنيا قليلاً ثم صاروا إلى ظلمات العذاب الدائم في الآخرة - قصة هؤلاء كقصة من استوقدوا ناراً لتضيء لهم ويتفتحوها، فأضاءت ما حولهم قليلاً، ثم طففت وصاروا إلى ظلمة شديدة مطبقة.

ثم قال - تعالى - : ﴿صم بكم عمى فهم لا يرجعون﴾.

قال القرطبي: والصم في كلام العرب: الانسداد، يقال: قناة صماء إذا لم تكن مجوفة، وصممت القارورة إذا سدتها. فالأصم من انسدت خروق مسامعه. والأبكم الذى لا ينطق ولا يفهم، والعمى ذهاب البصر. وليس الغرض مما ذكرناه نفى الإدراكات عن حواسهم جملة، وإنما الغرض نفيها من جهة ما^(١).

والآية الكريمة خبر لضمير مقدر يعود على المنافقين، أى: هم صم بكم عمى.

ووصف المنافقون بهذه الصفات لأنهم وإن كانت لهم آذان تسمع، وألسنة تنطق، وأعين تبصر، إلا أنهم لا يسمعون خيراً. ولا يتكلمون بما ينفعهم ولا يبصرون مسلكا من مسالك الهداية، ومن كان كذلك كان هو ومن فقد حواسه سواء، فقد صرف الله عنهم عنايته ووكلمهم إلى أنفسهم.

ووردت هذه الصفات مجردة من حرف العطف، فلم يقل: صم وبكم وعمى، لما عرف من استعمالات البلغاء. أن تجريد أمثال هذه الأوصاف من حرف العطف يفيد تأكيدها، حيث إن المتكلم قد قصد إلى تقرير كل صفة منها على حدة.

ومعنى ﴿فهم لا يرجعون﴾، لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه، أو لا يرجعون عن الضلالة بعد أن اشتروها.

والفاء في قوله - تعالى - ﴿فهم﴾ للتفريع أو التسبيب، لأنها توحى بأن عدم رجوعهم عما هم فيه من النفاق متفرع على تلك الآفات، ومسبب عن هذه العاهات. ثم ساق - سبحانه - المثل الثاني فقال: ﴿أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق﴾. «أو» للتسوية بين الشئين وهى مفيدة أن التمثيل بأيهما أو بمجموعهما يؤدي إلى المقصود، فهى مانعة خلو مجوزة للجمع بينهما.

و(الصيب) - كصيد - المطر، من الصوب وهو النزول. يقال: صاب صوباً، إذا نزل أو انحدر، سمي به المطر لنزوله، وفي الجملة الكريمة إيجاز بحذف ما دل عليه المقام دلالة واضحة. والتقدير: أو كمثل ذوى صيب. والمعنى أن قصة هؤلاء المنافقين مشبهة بقصة الذى استوقد ناراً، أو بقصة ذوى صيب.

والسواء: كل ما علاك من سقف ونحوه، والمراد بها السحاب.

والرعد: الصوت الذى يسمع بسبب اصطدام سحابتين محملتين بشحنتين كهربيتين أحدهما موجبة والأخرى سالبة.

والبرق: هو الضوء الذى يحدث بسبب الاصطدام ذاته.

وإيراد هذه الألفاظ بصفة التنكير للتهويل، ويكون المعنى: أو أن مثل هؤلاء المنافقين كمثل قوم نزل بهم المطر من السماء تصحبه ظلمات كأنها سواد الليل، ورعد يصم الأذان، وبرق يخطف الأبصار؛ وصواعق تحرق ما تصيبه.

ثم قال - تعالى - : ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت﴾.

الصواعق : جمع صاعقة من الصعق وهو شدة الصوت الذى يصحبه - غالبًا - قطعة من نار لا تأتى على شيء إلا أهلكته .

(ومن) فى قوله - تعالى - : ﴿ من الصواعق ﴾ للتعليل . وإنما كانت الصواعق داعية إلى سدهم آذانهم بأصابعهم ، من جهة أنها قد تفضى بصوتها الهائل إلى الموت ، وجاء هذا مصرحًا به فى قوله - تعالى - ﴿ حذر الموت ﴾ .

والمعنى : يسدون آذانهم من أجل الصواعق خوفًا من أن تقتلهم بشدة صوتها . ومن المعروف أن الذى يجعل فى الأذان عند الفزع بعض الأصابع لا كلها ، إلا أنه عبر بالأصابع مبالغة فى فرط فزعهم وشدة اضطرابهم ، ومسايرة للمألوف فى اللغة من نسبة ما يكون لبعض الشيء إلى ذلك الشيء ، حيث يكون المراد جليًا واضحًا . وهو مجاز مرسل من باب إطلاق الكل وإرادة البعض .

وقوله : ﴿ حذر الموت ﴾ يدل على أنهم لم يموتوا من تلك المفزعات وهذه المروعات . إمدادا فى عذابهم . ومطاوله فى نكاهم .

وقوله - تعالى - : ﴿ والله محيط بالكافرين ﴾ جملة معترضة فى أثناء ضرب المثل بذوى الصيب .

وإحاطته - سبحانه - بالكافرين على معنى أنهم لا مهرب لهم منه ، فهو محيط بهم إحاطة تامة وهو قادر على النكال بهم متى شاء وكيف شاء .

ولم يقل محيط بهم مع تقدم مرجع الضمير وهو أصحاب الصيب ، إيذانًا بأنهم إنما استحقوا ذلك العذاب بكفرهم .

ثم قال - تعالى - : ﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم ﴾ .

يكاد من الأفعال التى تدخل على اسم يسند إليه فعل بعده نحو ﴿ البرق يخطف ﴾ . فتدل على أن المسند إليه وهو البرق قد قارب أن يقع منه الفعل وهو خطف الأبصار .

والخطف : الأخذ بسرعة . والأبصار : جمع بصر ، وهو قوة مودعة فى العين يدرك بها الألوان والأشكال .

والمعنى : أن البرق لشدة لمعانه يقرب من أن يخطف أبصارها ، وهو تصوير بليغ لشدة ذلك البرق ، وترك بيان شدة الرعد اكتفاء بما ذكره فى جانب البرق ، ولم يذكر توقيهم للأعين بوضع شيء عليها اكتفاء بما ذكره فى توى الأذان أو لأنهم شغلوا بالأذان عن الأعين .

وقوله - تعالى - : ﴿ كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ﴾ وصف رائع لما يصنعه

أهل الصيب في حالى ظهور البرق واختفائه.

وكل ظرف، وما مصدرية ولا تصالها بكل أفادت الشرط والعامل فيها هو جوابها وهو ﴿مشوا﴾ و﴿أضاء﴾ بمعنى لمع، و﴿أظلم﴾ من الإظلام وهو اختفاء النور. و﴿قاموا﴾ أى وقفوا وثبتوا في مكانهم. من قام الماء إذا جمد. ويقال: قامت الدابة إذا وقفت.

والمعنى: أنهم إذا صادفوا من البرق وميضاً انتهزوا ذلك الوميض فرصة، فخطوا خطوات يسيرة، وإذا خفى لمعانه وقفوا في مكانهم، فالجملة الكريمة تدل على فرط حرصهم على النجاة من شدة ما هم فيه من أهوال.

ثم قال - تعالى - : ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم﴾.

لو: أداة شرط، وشاء بمعنى أراد. أى: لو أراد الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لزداد قصف الرعد فأصمهم، وفي ضوء البرق فاعماهم. أو يقال: إن قصف الرعد ولمعان البرق المذكورين في المثل سببان كافيان لأن يذهب بسمع ذوى الصيب وأبصارهم لو شاء الله ذلك. فيكون قوله تعالى: ﴿ولو شاء الله لذهب﴾، إشعاراً بأن تأثير الأسباب في مسبباتها إنما هو بإرادته - تعالى - .

وخص السمع والبصر بالذهاب مع أنها من جملة مشاعرهم، لأهميتها. ولأنها هى التى سبق ذكرها، أو من باب التنبيه بالأعلى على الأدنى، لأنه إذا كان قادراً على إذهاب ما حافظوا عليه، كان قادراً على غيره من باب أولى.

ثم ختم الآية بقوله - تعالى - ﴿إن الله على كل شىء قدير﴾.

الشىء فى أصل اللغة كل ما يصح أن يعلم ويخبر عنه، ويحمل فى هذه الآية على الممكن خاصة موجوداً كان أو معدوماً، لأن القدرة إنما تتعلق بالممكنات دون الواجب والمستحيل.

والقدير: الفعال لما يريد، يقال: قدره على الشىء أقدره قدرة وقدرأ.

وهذه الجملة الكريمة بمنزلة الاستدلال على ما تضمنته الجملة السابقة من أن الله تعالى قادر على أن يذهب بأسماع أصحاب الصيب وأبصارهم متى شاء.

وتطبيق هذا المثل على المنافقين يقال فيه: إن أصحاب الصيب لضعفهم وخورهم لا يطيقون سماع الرعد الهائل، ولا يستطيعون فتح أعينهم فى البرق اللامع، فيجعلون أصابعهم فى آذانهم فرغاً من قصف الرعد، وخوفاً من صواعق تجلجل فوق رؤوسهم فتدعهم حصيداً خامدين، وكذلك حال هؤلاء المنافقين فإنهم لضعف بصائرهم، وانطماس عقولهم، تشتد عليهم زواجر القرآن ووعيده وتهديده وأوامره ونواهيه، فتشتمتر قلوبهم ويصرفون عنه أسماعهم

خشية أن تتلى عليهم آيات تقع على أسماعهم وقع الصواعق المهلكة.

قال ابن كثير: «ذهب ابن جرير ومن تبعه من المفسرين إلى أن هذين المثليين مضروبان لصنف واحد من المنافقين، وتكون «أو» في قوله تعالى ﴿أو كصيب﴾ بمعنى الواو، كقوله تعالى «ولا تطع منهم أثماً أو كفوراً» أو تكون للتخيير، أى، اضرب لهم مثلاً بهذا وإن شئت بهذا، أو للتساوى مثل: جالس الحسن أو ابن سيرين. قلت: وهذا يكون باعتبار أجناس المنافقين، فإنهم أصناف ولهم أحوال وصفات كما ذكرها الله تعالى في سورة براءة بقوله: ﴿ومنهم من يقول ائذن لى﴾. ﴿ومنهم من عاهد الله﴾. ﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات﴾. الخ. فجعل هذين المثليين لصنفين منهم أشد مطابقة لأحوالهم وصفاتهم^(١).»

هذا، ويرى فضيلة المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز. أن المثليين لطائفتي الكافرين والمنافقين، فالمثل الأول وهو قوله تعالى «مثلهم كمثل الذين استوقد ناراً» ينطبق تمام الانطباق على الأوصاف التي ذكرها الله للكافرين وأن الذي ينطبق على صفات المنافقين إنما هو المثل الثاني وحده وهو قوله تعالى ﴿أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق﴾. فقد ضرب الله لكنتا الطائفتين مثلاً يناسبها.

قال فضيلته: فضرب مثلاً للمصرين المختوم على قلوبهم بقوم كانوا يسيرون في ظلام الليل فيهم رجل استوقد لهم ناراً يهتدون بضوئها، فلما أضاءت ما حوله لم يفتح بعض القوم أعينهم لهذا الضوء الباهر، بل لأمر ما سلبوا نور أبصارهم، وتعطلت سائر حواسهم عند هذه المفاجأة، فذلك مثل النور الذي طلع به محمد ﷺ في تلك الأمة على فترة من الرسل، فتفتحت له البصائر المستنيرة هنا وهناك، لكنه لم يوافق أهواء المستكبرين الذين ألفوا العيش في ظلام الجاهلية، فلم يرفعوا له رأساً بل نكسوا على رؤسهم، ولم يفتحوا له عيناً بل خروا عليه صماً وعمياناً.

وضرب مثلاً للمترددين المخادعين بقوم جامتهم السماء بغيث منهمر في ليلة ذات رعد وبرق، فأما الغيث فلم يلقوا له بالا ولم ينالوا منه نيلاً، فلا شربوا منه قطرة، ولا استنتبوا به ثمرة.. وأما تلك التقلبات الجوية من الظلمات والرعد والبرق فكانت هي مثار اهتمامهم، ومناط تفكيرهم، ولذلك جعلوا يترصدونها، ويدبرون أمورهم على وفقها، لابسين لكل حال لبوسها: سيراً تارة، ووقوفاً تارة، واختفاء تارة أخرى.

فكانوا إذا رأوا عرضاً قريباً وسفرًا قاصدًا وبرقت لهم (بروق) الأمل في الغنيمة ساروا مع

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٥٦.

المؤمنين جنباً إلى جنب، وإذا دارت رحا الحرب وانقضت ﴿صواعقها﴾ منذرة بالموت والهزيمة أخذوا حذرهم وفروا من وجه العدو قائلين «إن بيوتنا عورة» حتى إذا كانت الثالثة فلم يلمحوا من الآمال بارقة ولم يتوقعوا من الآلام صاعقة، بل اشتبهت عليهم الأمور فهناك يقفون متربصين لا يتقدمون ولا يتأخرون، ولكن يلزمون شقة الحياذ ريثما تنقشع سحابة الشك ﴿فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم، وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين﴾.

ذلك دأب المنافقين في كل أمرهم، إن توقعوا ربحاً عاجلاً التمسوه في أى صف وجدوه، وإن توقعوا أذى كذلك تنكروا للفتنة التي ينالهم في سبيلها شيء مكروه؛ وإذا أظلم عليهم الأمر قاموا بعيداً لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء؛ أما الذى يؤمن بالله واليوم الآخر فإن له قبلة واحدة يولى وجهه شطرها، هى قبلة الحق لا يخشى فيها لومة لائم:

وليس يبالى حين يقتل مسلماً على أى جنب كان فى الله مصرعه^(١)

هذا هو رأى فضيلة الدكتور دراز، وهو رأى مستساغ يتمشى مع روح الآيات وأهداف السورة، وأياما كان فالمثلان يصوران أحوال المبطلين بصورة حسية واضحة تتجلى فيها بلاغة القرآن الكريم فى إبراز المعانى المعقولة فى صورة محسنة واضحة من شأنها أن تهدى الناس إلى طريق الحق والرشاد.

وبعد أن بينت السورة الكريمة أقسام الناس الثلاثة، وعاقبة كل قسم منهم، ساقى لهم نداء عاماً دعوتهم فيه إلى عبادة الله وحده، قال تعالى:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ
وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ
الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ
بِهِ مِنَ الشَّجَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿١٦٥﴾

(١) من كتاب النبأ العظيم ص ١٦٤ لفضيلة المرحوم الدكتور الشيخ محمد عبد الله دراز.

ففي هاتين الآيتين توجيه للناس إلى الأمر الذي خلقوا من أجله وهو عبادة الله دون ما سواه، وبيان البراهين الساطعة التي تدل على وحدانية الله وعظيم قدرته.

و«يا» حرف نداء وهو أكثر حروف النداء استعمالاً، فهو أصل حروف النداء.

و«أى» اسم مبهم لكن يزول إبهامه بالاسم المقصود بالنداء الذي يأتي بعده.

و«ها» المتصلة به مؤكدة للتنبية المستفاد من النداء.

و«العبادة» الخضوع البالغ الغاية.

وقد كثر النداء في القرآن الكريم بهذه الطريقة لما فيها من التأكيد الذي كثيراً ما يقتضيه المقام.

وفي ذكره تعالى باسم الرب، وإضافته إلى المخاطبين، تقوية لداعية إقبالهم على عبادته.

فإن الإنسان إذا اتجه بفكره إلى معنى كون الله مالكا له، أو مربياً له وتذكر ما يحفه به من رفق، وما يجود به عليه من إنعام، لم يلبث أن يخصه بأقصى ما يستطيع من الخضوع والخشوع والإجلال.

وإفراد اسم الرب دل على أن المراد رب جميع الخلق وهو الله تعالى، إذ ليس ثمة رب يستحق هذا الاسم بالإفراد والإضافة إلى جميع الناس إلا الله.

ثم بين - سبحانه - الموجبات التي من شأنها أن تحملهم على عبادته وحده فقال «الذي خلقكم والذين من قبلكم».

والخلق: أصله الإيجاد على تقدير وتسوية، ويطلق في القرآن وفي عرف الشريعة على إيجاد الأشياء المعدومة، فهو إخراجها من العدم إلى الوجود إخراجاً لا صنعة فيه للبشر.

والمعنى: اجعلوا أيها الناس عبادتكم لله تعالى وحده، لأنه هو الذي أوجدكم في أحسن تقويم بعد أن كنتم في عدم، كما أوجد الذين تقدموكم.

وقدم وصفه بخلق المخاطبين مع أنه متأخر بالزمان عن خلق من تقدموهم، لأن علم الإنسان بأحوال نفسه أظهر من علمه بأحوال غيره.

وقوله تعالى: «والذين من قبلكم» فيه رد على الدهريين من المخاطبين الذين يزعمون أنهم إنما خلقهم آبائهم فقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر.

فكان قوله: «والذين من قبلكم» تذكيراً لهم بأن آباءهم الأولين لا بد أن ينتهوا إلى أب أول قد خلقه الله تعالى.

وجملة «لعلكم تتقون» تعليل للأمر بالعبادة، ولذلك فصلت.

و«لعل» حرف موضوع ليدل على الترجى، وهو توقع حصول الشيء عندما يحصل سببه وتنتفى موانعه. والشيء المتوقع حصوله في الآية هو التقوى وسببه العبادة، إذ بالعبادة يستعد الإنسان لأن يبلغ درجة التقوى وهي الفوز بالهدى والفلاح، والترجى قد يكون من جهة المتكلم وهو الشائع وقد تستعمل لعل في الكلام على أن يكون الترجى مصروفًا للمخاطب، فيكون المترجى هو المخاطب لا المتكلم، وعلى هذا الوجه يحمل الترجى في هذه الآية، لاستحالة توقع حصول الشيء من عالم الغيب والشهادة، لأن توقع الإنسان لحصول الشيء هو أن يكون مترددًا بين الوقوع وعدمه مع رجحان الوقوع، وعليه فيكون المعنى: اعبدوا ربكم راجين أن تكونوا من المتقين، الذين بلغوا الغاية في الهدى والفلاح.

ثم أضاف - سبحانه - أسبابًا أخرى تحمل الناس على عبادته وطاعته فقال: ﴿الذى جعل لكم الأرض فراشا﴾.

الفراش: ما يفترشه الإنسان ليستقر عليه بنحو الجلوس أو المنام. أى: اجعلوا عبادتكم لله الذى صير الأرض لأجلكم مهادًا كالبساط المفروش، فذلها لكم ولم يجعلها صعبة غليظة، لكى يتهيأ لكم الاستقرار عليها. والتقلب فى مناكبها، والانتفاع بما أودع الله فى باطنها من خيرات.

وتصوير الأرض بصورة الفراش لا ينافى كونها كروية، لأن الكرة إذا عظمت جدا كانت القطعة منها كالسطح فى إمكان الانتفاع بها.

﴿والسما بناء﴾ يقال لسقف البيت بناء أى: جعل السماء كالسقف للأرض، لأنها تظهر كالقبة المضروبة فوقها كما قال - تعالى - ﴿وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون﴾.

وقدم خلق الأرض على خلق السماء لأن الأرض أقرب إلى المخاطبين، وانتفاعهم بها أظهر وأكثر من انتفاعهم بالسماء.

قال بعض الأدباء: «إذا تأملت هذا العالم وجدته كالبيت المعد فيه كل ما يحتاج إليه، فالسما مرفوعة كالسقف، والأرض ممدودة كالبساط، والنجوم منورة كالمصابيح، والإنسان كما لك البيت المتصرف فيه وضروب النبات مهياة لمنافعه، وضروب الحياة مصروفة لمصالحه» فهذه جملة واضحة دالة على أن العالم مخلوق بتدبير كامل، وتقدير شامل، وحكمة بالغة، وقدرة غير متناهية.»

ثم قال - تعالى - ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ :
 السماء : السحاب . والثمرات : ما ينتجه الشجر . والرزق : ما يصلح لأن ينتفع به . والباء
 في . (به) للسببية .

أى : أنه جعل الماء سبباً في خروج الثمرة ، وهو القادر على أن ينشئها بلا سبب كما أنشأ
 الأسباب .

وأورد ﴿مَاءً﴾ و ﴿رِزْقًا﴾ في صيغة التنكير التي تستعمل عند إرادة بعض أفراد المعنى الذى
 وضع له اللفظ لغة ، وذلك لأن من الماء ما لم ينزل من السماء ، ومن الرزق ما لا يكون من
 الثمرات . فمعنى الجملة الكريمة : أنزل من السماء بعض الماء ، فأخرج به من الثمرات بعض
 ما يكون رزقاً لكم .

ثم قال - تعالى - ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ .
 الأنداد : جمع ند ، وهو مثل الشيء الذى يضاهه وينافره ويتباعد عنه .
 وأصله من : ند البعير يند ندا ونداداً ونداً ، إذا تفرد وذهب على وجهه شاردًا .
 والمعنى : فلا تجعلوا لله أمثالا ونظراء تعبدونها وتسمونها آلهة ، وتعتقدون فيها النفع والضرر ،
 وتجعلون لها ما لله تعالى وحده ، وأنتم تعلمون أنها أشياء لا يصح جعلها أنداداً مساوية له تعالى
 ﴿وأنتم تعلمون﴾ أى : وأنتم من ذوى العلم والنظر ، فلو تأملتم أدنى تأمل لانصرفتم بقوة إلى
 عبادة الله وحده . ولتركتم الإشراف به .

وصدرت الجملة الكريمة بالفاء لترتيبها على الكلام السابق ، المترتب على الأمر بعبادة الله
 وحده .

وسمى القرآن الشركاء المزعومين أنداداً تهكمًا بالعابدين لها ، ولأن المشركين لما تركوا عبادة
 الله إلى عبادة الأوثان ، وسموها آلهة شابهت حالهم حال من يعتقد أنها آلهة ، قادرة على مخالفته
 ومضادته ، وذلك معنى جعلها أنداداً الذى هو مصب النهى فى الآية .

وجملة (وأنتم تعلمون) ، حالية ، ومفعول تعلمون متروك ، لأن الفعل لم يقصد تعليقه
 بمفعول ، بل قصد إثباته لفاعله فقط فنزل منزلة اللازم ، وفى هذه الجملة مبالغة فى زجرهم عن
 عبادة الأوثان من دون الله ، لأن ارتكاب الباطل من الجاهل قبيح ، وهو من العالم ببطلانه أشد
 قبحاً ، وأدعى إلى أن يقابل بأغلظ ألوان الإنكار . كما أن فيها إثارة لهممهم ليقنعوا عن عبادة
 غير الله ، فإن من كان من ذوى العلم لا يصح منه أن يفعل أفعال من لا عقل له ، وهذا لون
 جليل من ألوان التربية ، فإن من سمات المربى الناجح أن يجمع بين القسوة فى النهى عن
 القبيح ، وبين إثارة همة الموعوظ حتى لا يقتل همته باليأس ، لأن الإنسان إذا ساءت ظنونه بنفسه

خارت عزيمته، وفترت همته .

هذا، وقد استفاضت الأحاديث النبوية التي تدعو إلى توحيد الله، وتنبى عن الإشراك، ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال : قلت يا رسول الله أى الذنب أعظم عند الله ؟ (قال أن تجعل لله نداً وهو خلقك) .

قال الإمام ابن كثير : وهذه الآية دالة على توحيد - تعالى - بالعبادة وحده لا شريك له، فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية واختلاف أشكالها وألوانها وطباعها ومنافعها، علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه، كما قال بعض الأعراب وقد سئل : ما الدليل على وجود الله - تعالى - ؟ فقال : يا سبحان الله !! إن البعر ليدل على البعير؛ وإن أثر القدم يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا يدل هذا على وجود اللطيف الخبير^(١) .

وبعد أن ساق - سبحانه - في هاتين الآيتين البراهين الساطعة الدالة على وحدانية الله؛ ونفى عقيدة الشرك، أورد بعد ذلك الدلائل الدالة على صدق النبي ﷺ فيما يبلغه عن ربه، وعلى أن هذا القرآن ليس من صنع بشر، وإنما هو كلام واهب القوى والقدرة. فقال - تعالى - :

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا
فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّمَّنْ مِثْلِهِ ۖ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِمَّنْ دُونِ اللَّهِ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا
النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

ففي هاتين الآيتين انتقال لإثبات الجزء الثانى من جزأى الإيمان، وهو صدق النبى - ﷺ - فى رسالته، بعد أن تم إثبات الجزء الأول من ذلك وهو وحدانية الله - تعالى - وعظيم قدرته. والمعنى : إن رتبتم أيها المشركون فى شأن هذا القرآن الذى أنزلناه على عبدنا محمد على مهل وتدرىج، فأتوا أنتم بسورة من مثله فى سمو الرتبة، وعلو الطبقة واستعينوا على ذلك بأهتكم وبكل من تتوقعون منهم العون، ليساعدوكم فى مهمتكم، أو ليشهدوا لكم أنكم أتيتم بما يماثله، إن كنتم صادقين فى زعمكم أنكم تقدرون على معارضة القرآن الكريم.

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٥٨ .

والمقصود بقوله: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا...﴾ نفى الريب عن المنزل عليه - وهو محمد ﷺ - بنفيه عن المنزل وهو القرآن الكريم.

والتعبير عن اعتقادهم في حقه بالريب للإيذان بأن أقصى ما يمكن صدوره عنهم هو الارتياب في شأنه، أو للتنبية على أن كلامهم في شأن القرآن هو بمنزلة الريب الضعيف لكمال وضوح الدلائل الدالة على أن القرآن من عند الله - تعالى - .

وعبر بقوله: ﴿وإن كنتم في ريب﴾ ولم يقل: وإن ارتبتم فيما نزلنا، للإشارة إلى أن ذات القرآن لا يتطرق إليها ريب، ولا يطير إلى أفقها شرارة من شك، وأنه إن أثير حوله أى شك فمرجه إلى انطماس بصيرتهم، وضعف تفكيرهم، واستيلاء الحقد والعناد على نفوسهم. وأن بيان المفيدة للشك مع أن كونهم في ريب مما نزل على النبي ﷺ أمر محقق، تنزيلاً للمحقق منزلة المشكوك فيه، وتنزيهاً لساحة القرآن عن أن يتحقق الشك فيه من أى أحد، وتوبيخاً لهم على وضعهم الأمور في غير مواضعها.

ووجه الإتيان بنفى الدالة على الظرفية، للإشارة إلى أنهم قد امتلكهم الريب وأحاط بهم إحاطة الظرف بالمظروف.

وقال ﴿نزلنا﴾ دون أنزلنا، لأن المراد النزول على سبيل التدرج، ومن المعروف أن القرآن قد نزل منجماً في مدة تزيد على عشرين سنة.

قال صاحب الكشاف: (فإن قلت: لم قيل: (مما نزلنا) على لفظ التنزيل دون الإنزال؟ قلت: لأن المراد النزول على سبيل التدرج والتنجيم وذلك أنهم كانوا يقولون: لو كان هذا القرآن من عند الله، لم ينزل هكذا نجومًا سورة بعد سورة، وآيات عقب آيات، على حسب النوازل، وعلى سنن ما نرى عليه أهل الخطابة والشعر من وجود ما يوجد منهم مفرقًا حينًا فحينًا حسب ما يعين لهم من الأحوال المتجددة... فقيل لهم: إن ارتبتم في هذا الذي وقع إنزاله هكذا على مهل وتدرج، فهاتوا أنتم نوبة واحدة من نوبه، وهاتوا نجماً فرداً من نجومه: سورة من أصغر السور، أو آيات شتى مفترقات، وهذا غاية التبكيت ومنتهى إزاحة العلل^(١) اهـ ملخصاً.

والمراد بالعبد في قوله - تعالى - : ﴿على عبدنا﴾ محمد - ﷺ - وفي إضافته إلى الله - تعالى - تنبيه على شرف منزلته عنده، واختصاصه به.

وفي ذكره ﷺ باسم العبودية، تذكير لأمته بهذا المعنى، حتى لا يغالوا في تعظيمه فيدعوا

ألوهيته كما غالت بعض الفرق في تعظيم أنبيائها أو زعمائهم فادعت ألوهيتهم .
والسورة : الطائفة من القرآن المسماة باسم خاص ، والتي أقلها ثلاث آيات ، والضمير في قوله (من مثله) يعود على المنزل وهو القرآن .

والمراد من مثل القرآن : ما يشابهه في حسن النظم ، وبراعة الأسلوب وحكمة المعنى . وهذا الوجه من الإعجاز يتحقق في كل سورة .

وقيل : إن الضمير في قوله (من مثله) يعود على المنزل عليه القرآن ، وهو النبي - ﷺ -
ولكن الرأى الأول أرجح .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : وعود الضمير إلى القرآن أرجح لوجوه :

أحدها : أن ذلك مطابق لسائر الآيات الواردة في باب التحدى لاسيما ما ذكره في سورة يونس من قوله : ﴿فأتوا بسورة مثله . . .﴾ .

وثانيها : أن البحث إنما وقع في المنزل وهو القرآن ، لأنه قال : ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا . . .﴾ فوجب صرف الضمير إليه ، ألا ترى أن المعنى ، وإن ارتبتم في أن القرآن منزل من عند الله فهاتوا أتم شيئا مما يماثله ، وقضية الترتيب لو كان الضمير مردودا إلى رسول الله ﷺ أن يقال : وإن ارتبتم في أن محمدا منزل عليه فهاتوا قرآنا مثله .

وثالثها : أن الضمير لو كان عائدا إلى القرآن لاقتضى كونهم عاجزين عن الإتيان بمثله سواء اجتمعوا أو انفردوا وسواء كانوا أميين أو عالمين ، أما لو كان عائدا إلى محمد ﷺ فذلك لا يقتضى إلا كون أحادهم من الأميين عاجزين عنه ، لأنه لا يكون مثل محمد إلا الشخص الأمى ، فأما لو اجتمعوا وكانوا قارئين لم يكونوا مثل محمد ، لأن الجماعة لا تماثل الواحد . والقارىء لا يكون مثل الأمى ، ولا شك أن الإعجاز على الوجه الأول أقوى .

ورابعها : أننا لو صرفنا الضمير إلى محمد ﷺ لكان ذلك يوهم أن صدور مثل القرآن مما لم يكن مثل محمد في كونه أميا ممكنا ، ولو صرفناه إلى القرآن لدل ذلك على أن صدور مثله من الأمى ومن غير الأمى ممتنع فكان هذا أولى^(١) .

وقوله - تعالى - : ﴿وادعوا شهداءكم من دون الله﴾ معطوف على قوله : ﴿فأتوا بسورة﴾ .

وادعوا : من الدعاء ، والمراد به هنا : طلب حضور المدعو أى : نادوهم .

وشهداءكم : أى : آلهتكم ، جمع شهيد وهو القائم بالشهادة ، فقد كانوا يزعمون أن آلهتهم

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١ ص ٢٢٢ .

تشهد لهم يوم القيامة بأنهم على حق. وقيل: الشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر أو الناصر أو الإمام، وكأنه سمي به لأنه يحضر المجالس وتبرم بمحضره الأمور.

ودون: بمعنى غير: وتطلق في أصل اللغة على أدنى مكان من الشيء، ومنه تدوين الكتب لأنه إيداء البعض من البعض، ودونك هذا أى: خذ من أدنى مكان منك، ثم استعير للتفاوت في الرتب فقليل: زيد دون عمرو أى: في الشرف، ومنه الشيء الدون، ثم اتسع فيه فاستعمل في كل تجاوز حد إلى حد، وتخطى أمر إلى أمر.

قال الجمل: (والمعنى): وادعوا إلى المعارضة من حضركم أو رجوتهم معونته من إنسكم وجنكم وأهتكم غير الله، فإنه لا يقدر على أن يأتي بمثله إلا الله...، أو ادعوا من دون الله شهداء يشهدون لكم بأن ما أتيتم به مثله، ولا تستشهدوا بالله، فإن الاستشهاد به من عادة المبهوت العاجز عن إقامة الحجة، أو شهداءكم الذين اتخذتموهم من دون الله آلهة وزعمتم أنها تشهد لكم يوم القيامة^(١)...).

وفي أمرهم بدعوة أصنامهم وهى جناد، وفي تسميتها شهداء مع إضافتها إليهم مع أنها لا تعقل ولا تنطق، في كل ذلك أقوى ألوان التهكم، لكى يثير في نفوسهم من الألم ما قد يكون سبباً لتنبههم إلى جهلهم، وانصرافهم عن ضلالهم.

وقوله - تعالى - : ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ جملة معترضة في آخر الكلام وجواب الشرط محذوف دل عليه الكلام السابق دلالة واضحة حتى صار ذكره في نظم الكلام بما ينزل به عن مرتبة البلاغة.

والمعنى: إن كنتم صادقين في زعمكم أنكم تقدرتون على معارضة القرآن فأتوا بسورة من مثله. وادعوا أهتكم وبلغاءكم وجميع البشر ليعينوكم أو ليشهدوا لكم أنكم أتيتم بما يماثله في حكمة معانيه وحسن بيانه.

وفي هذه الآية الكريمة إثارة لحماستهم، إذ عرض بعدم صدقهم، فتتوفر دواعيهم على المعارضة التي زعموا أنهم أهل لها.

ثم قال - تعالى - : ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾.

المعنى: فإن لم تفعلوا أى: تعارضوا القرآن، وتبين لكم أن أحداً لا يستطيع معارضته، فخافوا العذاب الذى أعده الله للجاحدين وهو النار التى وقودها الناس والحجارة.

والوقود: ما يلقى في النار لإصرامها كالخطب ونحوه، والحجارة: الأصنام التى كانوا

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ٣٨.

يعبدونها من دون الله كما قال - تعالى - : ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾ .

واقتران المشركين بما كانوا يعبدون في النار مبالغة في إيلاهم وتحسيرهم والاقتصار على ذكر الناس والحجارة لا يؤخذ منه أن ليس في النار غيرهما بدليل ما ذكر في مواضع أخرى من القرآن أن الجن والشياطين يدخلونها .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : انتفاء إتيانهم بالسورة واجب فهل جيء بـ « إذا » الذي للوجوب دون « ان » الذي للشك ؟ قلت : فيه وجهان :

أحدهما : أن يساق القول معهم على حسب حسابهم وطمعهم ، وأن العجز عن المعارضة كان قبل التأمل كالمشكوك فيه لديهم لا تكالمهم على فصاحتهم واقتدارهم على الكلام .

والثاني : أن يتهم بهم كما يقول الموصوف بالقوة الواثق من نفسه بالغلبة على من يعاديه : إن غلبتك لم أبق عليك وهو يعلم أنه غالبه ويتيقنه تهكمًا به^(١) .

وقال : فإن لم تفعلوا ، ولم يقل فإن لم تأتوا بسورة من مثله ، لأن قوله ﴿فإن لم تفعلوا﴾ جار مجرى الكناية التي تعطي اختصاراً ووجازة تغني عن طول المكنى عنه ، ولأن الإتيان ما هو إلا فعل من الأفعال ، تقول : أتيت فلانا . فيقال لك : نعم ما فعلت .

وجملة ﴿ولن تفعلوا﴾ جملة معترضة بين الشرط والجزاء ، جيء بها لتأكيد عجزهم عن معارضته . فإن في نفيها في المستقبل بإطلاق تأكيداً لنفيها في الحال .

قال الإمام الرازي : (فإن قيل : فما معنى اشتراطه في اتقاء النار انتفاء إتيانهم بسورة من مثله ؟ فالجواب أنه إذا ظهر عجزهم عن المعارضة صح عندهم صدق رسول الله ﷺ وإذا صح ذلك ثم لم يأتوا العناد استوجبوا العقاب بالنار ، فاتقاء النار يوجب ترك العناد ، فأقيم المؤثر مقام الأثر ، وجعل قوله : ﴿فاتقوا النار﴾ قائماً مقام قوله فاتركوا العناد ، وهذا هو الإيجاز الذي هو أحد أبواب البلاغة ، وفيه تهويل لشأن العناد ، لإنبابة اتقاء النار منابه متبعاً ذلك بتهويل صفة النار^(٢) .

ومعنى ﴿أعدت للكافرين﴾ هيئت لهم ، لأنهم الذين يخلدون فيها ، أو أنهم خصوا بها وإن كانت معدة للفاسقين - أيضاً لأنه يريد بذلك ناراً مخصوصة لا يدخلها غيرهم كما قال - تعالى - ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ .

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ١٠١ .

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ١ ص ٢٢٤ .

وفي هذه الآية الكريمة معجزة من نوع الإخبار بالغيب، إذ لم تقع المعارضة من أحد في أيام النبوة وفيما بعدها إلى هذا العصر.

قال صاحب الكشاف: (فإن قلت: من أين لك أنه إخبار بالغيب على ما هو عليه حتى يكون معجزة؟ قلت: لأنهم لو عارضوه بشيء لم يمتنع أن يتواصفه الناس ويتناقلوه، إذ خفاء مثله فيما عليه مبنى العادة محال، لاسيما والطاعنون فيه أكثر عدداً من الذايين عنه، فحين لم ينقل علم أنه إخبار بالغيب على ما هو به، فكان معجزة^(١)).

وقال بعض العلماء: (هذه الآية الجليلة من جملة الآيات التي صدعت بتحدى الكافرين بالتزويل الكريم). وقد تحداهم الله في غير موضع منه فقال في سورة القصص:

﴿قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منها اتبعه إن كنتم صادقين﴾ وقال في سورة الإسراء: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾ وقال في سورة يونس: ﴿أم يقولون افتراه، قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾. وكل هذه الآيات مكية.

ثم تحداهم أيضا في المدينة بهذه الآية ﴿وإن كنتم في ريب﴾... إلخ. فعجزوا عن آخرهم، وهم فرسان الكلام، وأرباب النظام، وقد خصوا من البلاغة والحكم ما لم يخص به غيرهم من الأمم، جعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقة وفيهم غريزة وقوة. يأتون منه على البديهة بالعجب ويدلون به إلى كل سبب، فيخطبون، ويمدحون، ويقدمون، ويتوسلون، ويتوصلون، ويرفعون، ويضعون، فيأتون بالسحر الخلال... ومع هذا فلم يتصد لمعارضة القرآن منهم أحد، ولم ينهض - لمقدار سورة منه - ناهض من بلغائهم، ولم ينبض منهم عرق العصبية مع اشتهاهم بالإفراط في المضارة والمضادة. وقد جرد لهم النبي - ﷺ - الحجة أولاً، والسيف آخرًا فلم يعارضوا إلا السيف وحده، وما أعرضوا عن معارضة الحجة إلا لعلمهم أنهم أعجز من المعارضة، وبذلك يظهر أن في قوله - تعالى - ﴿ولن تفعلوا﴾ معجزة أخرى، فإنهم ما فعلوا، وما قدروا...

وحيث عجز عرب ذلك العصر فما سواهم أعجز في هذا الأمر... فدل على أن القرآن ليس من كلام البشر، بل هو كلام خالق القوى والقدر أنزله تصديقاً لرسوله، وتحقيقاً لقوله^(٢)...

وبعد أن ذكر القرآن الكفار ومآلهم، عطف على ذلك ذكر المؤمنين وما يفوزون به من نعيم

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ١٠٢.

(٢) تفسير القاسمي ج ٢ ص ٧٧.

في حياتهم الباقية، كما هي سنة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد فقال -
تعالى:-

وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ
رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا
وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾

البشارة: الخبر السار فهو أخص من الخبر، سمي بذلك لأن أثره يظهر على البشرة وهي ظاهر جلد الإنسان، والمأمور بالتبشير هو النبي ﷺ أو كل من يتأق منه تفخيماً لأمره، وتعظيماً لشأنه.

والصالحات: جمع صالحة وهي الفعلة الحسنة، وهي من الصفات التي جرت مجرى الأسياء في إيلائها العوامل.

والجنات: جمع جنة، وهي كل بستان ذي شجر متكاثف، ملتف الأغصان، يظل ما تحته ويستره، من الجن وهو ستر الشيء عن الحاسة، ثم صارت الجنة اسماً شرعياً لدار النعيم في الآخرة، وهي سبع درجات:

جنة الفردوس، وجنة عدن، وجنة النعيم، ودار الخلد، وجنة المأوى، ودار السلام، وعليون... وتتفاوت منازل المؤمنين في كل درجة بتفاوت الأعمال الصالحة.

والأنهار جمع نهر - بفتح الهاء وسكونها والفتح أفصح - وهو الأخدود الذي يجري فيه الماء على الأرض، وهو مشتق من مادة نهر الدالة على الانشقاق والاتساع، ويكون كبيراً أو صغيراً. وأسند إليه الجرى في الآية مع أن الذي يجري في الحقيقة هو الماء، أخذاً بفن معروف بين البلغاء، وهو إسناد الفعل إلى مكانه، توسعاً في أساليب البيان.

وقوله: «من تحتها» وارد على طريقة الإيجاز بحذف كلمة «أشجار» اعتماداً على تبادلها إلى الذهن، والمعنى: تجري من تحت أشجارها الأنهار. ثم بين - سبحانه - أحوال هؤلاء المؤمنين الصالحين فقال:

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا. قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾.

أى : إن سكان الجنة كلما رزقوا في الجنة ثمرة من ثمراتها، وجدوها مثل الذى رزقوه فيها من قبل، في بلوغه الغاية من حسن المنظر ولذة الطعم.

وفي هذا إشارة إلى أن ثمار الجنة متماثلة في حسن منظرها، ولذة طعها بحيث لا تفضل ثمرة في ذلك على أخرى، فجميع ثمرها يسر له القلب، ويستحليه الذوق، وإن اختلفت المناظر والطعوم.

ثم قال - تعالى - ﴿وأتوا به متشابهاً﴾ أى : يشبه بعضه بعضاً في الصورة والرائحة، ويختلف في اللذة والطعم، أوفى المزية والحسن، وعن ابن عباس : «ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسمى»؛ وهذه الجملة مؤكدة لما قبلها في معنى أن كل ثمر يشابه ما قبله في حسن المنظر ولذة الطعم مشابهة لا يفضل فيها ثمر على آخر؛ بخلاف ثمر الدنيا، فإنه يتفاوت في مناظره حسناً، وفي طعومه لذة.

ويرى بعض العلماء حمل قوله - تعالى - : ﴿قالوا هذا الذى رزقنا من قبل﴾ على تقدير : من قبل دخول الجنة، أى هذا الذى رزقناه في الدنيا، وإلى هذا رأى مال صاحب الكشاف فقد قال : «فإن قلت : كيف قيل . « هذا الذى رزقنا من قبل ؟ وكيف تكون ذات الحاضر عندهم في الجنة هي ذات الذى رزقوه في الدنيا ؟ قلت : معناه هذا مثل الذى رزقناه من قبل وشبهه، بدليل قوله : ﴿وأتوا به متشابهاً﴾ فإن قلت : إلام يرجع الضمير في قوله : ﴿وأتوا به﴾ ؟ قلت : إلى المرزوق في الدنيا والآخرة جميعاً، لأن قوله : « هذا الذى رزقنا من قبل » انطوى تحته ذكر ما رزقوه في الدارين . فإن قلت : لأى غرض يتشابه ثمر الدنيا وثمر الجنة ؟ قلت : لأن الإنسان بالمالوف أنس؛ وإلى المعهود أميل، وإذا رأى ما لم يألفه نفر عن طبعه، وعافته نفسه^(١) .

ثم قال - تعالى - : ﴿ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون﴾ .
الأزواج : جمع زوج وهى المرأة يختص بها الرجل، والضمير في « فيها » يعود إلى الجنات .
والمعنى : أن لهؤلاء المؤمنين نساء مختصات بهم، مطهرات غاية التطهير من كل دنس وقدر، حتى ومعنوى، لا كنساء الدنيا، وهم في هذه الجنات باقون على الدوام، لأن النعيم إنما يتم باطمئنان صاحبه على أنه دائم، أما إذا كان محتملاً للزوال فإن صاحبه يبقى منغص البال، إذ سيتذكر أنه سيفقده في يوم من الأيام، فجملة « وهم فيها خالدون » جىء بها على سبيل الاحتراس من وهم الانقطاع.

وبعد هذا البيان الجامع عن أحوال المهتدين بهديه أو الناكبين عن صراطه، وما تخلل ذلك من المواعظ النافعة، والتمثيلات الرائعة، والبشارات الطيبة لمن آمن وعمل صالحاً، بعد كل ذلك بين - سبحانه - أنه لا يعبأ أن يضرب مثلاً بشيء حقير أو غير حقير، فقال - تعالى - :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَا ذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

روى الواحدى فى أسباب النزول عن ابن عباس أن الله - تعالى - لما أنزل قوله - تعالى - ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذَّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفْذَوْهُ مِنْهُ﴾ وقوله - تعالى - : ﴿مِثْلَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمِثْلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾.

لما نزل قال المشركون : أرأيتم أى شيء يصنع بهذا؟! فأنزل الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا..﴾.

وروى عن الحسن وقتادة أن الله لما ذكر الذباب والعنكبوت فى كتابه وضرب بهما المثل ضحك اليهود وقالوا : ما يشبه أن يكون هذا من كلام الله! فأنزل الله هذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي..﴾ الخ.

وقال السدى : لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين، يعنى قوله تعالى : ﴿مِثْلَهُمْ كَمِثْلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا..﴾ وقوله تعالى : ﴿أَوْ كَصِيبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ قال المنافقون : الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال! فأنزل الله هذه الآية.

ويبدو أن الآية الكريمة قد نزلت للرد على جميع تلك الفرق الضالة، فقد قرر العلماء أن لا مانع من تعدد أسباب النزول للآية الواحدة أو للطائفة من الآيات.

والاستحياء والحياء واحد، فالسين والتاء فيه للمبالغة مثل استقدم واستأجر واستجاب. وهو في أصل اللغة انقباض النفس وانكسارها من خوف ما يعاب به ويذم. وهذا المعنى غير لائق بجلال الله، لذا ذهب جمع من المفسرين إلى تأويله بإرادة لازمه، وهو ترك ضرب الأمثال بها.

والمعنى: إن الله لا يترك أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها، وإطلاق الفعل كالاستحياء على ما يترتب عليه كترك الفعل، مألوف في الكلام البليغ حيث يكون المراد واضحاً. ومذهب السلف: إمرار هذا وأمثاله على ما ورد، وتفويض علم كنهه وكيفيته إلى الله - تعالى - مع وجوب تنزيهه عما لا يليق بجلاله من صفات المحدثات.

أى: ليس الحياء بمناع لله - تعالى - من ضرب الأمثال بهذه المخلوقات الصغيرة في نظركم؛ كالبعوض والذباب والعنكبوت، فإن فيها من دلائل القدرة، وبدائع الصنعة ما تحار فيه العقول، ويشهد بحكمة الخالق.

والمثل في اللغة: الشبيه. وهو في عرف القرآن: الكلام البليغ المشتمل على تشبيه بديع، كالمثلين السابقين اللذين ضربهما الله في حال المنافقين؛ أو وصف غريب نحو قوله تعالى: ﴿يأبىأ الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له؛ وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه﴾.

وضرب المثل: إيراده، وعبر عن إيراده بالضرب، لشدة ما يحدث عنه من التأثير في نفس السامع.

و(ما) في قوله (مثلاً ما) هي ما الإبهامية، تجيء بعد النكرة فتزيدها شيوعاً وعموماً، كقولك: أعطى كتاباً ما، أى كتاب كان.

والبعوضة واحدة البعوض وهي حشرة صغيرة تطلق على الناموس وهي بدل أو بيان من قوله (مثلاً).

وقوله: ﴿فما فوقها﴾ عطف على بعوضة، والمراد فما فوقها في الحجم كالذباب والعنكبوت، والكلب والحمار، أو فما فوقها في المعنى الذى وقع التمثيل فيه، وهو الصغر والحقارة كجناحها أو كالذرة.

قال صاحب الكشاف: سيقت هذه الآية لبيان أن ما استنكره الجهلة والسفهاء وأهل العناد

والمراء من الكفار واستغربوه من أن تكون المحقرات من الأشياء مضروباً بها المثل، ليس بموضع للاستنكار والاستغراب، من جهة أن التمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب، وإدناء المتوهم من المشاهد. . وأن الله - تعالى - أن يتمثل للأنداد وحقارة شأنها بما لا شيء أصغر منه وأقل، كما لو تمثل بالجزء الذي لا يتجزأ أو بما لا يدركه لتناهيه في صغره إلا هو وحده. . وقوله: ﴿فما فوقها﴾ فيه معنيان:

أحدهما: فما تجاوزها وزاد عليها في المعنى الذي ضربت فيه مثلاً وهو القلة والحقارة نحو قولك لمن يقول: فلان أسفل الناس وأندهم، هو فوق ذلك، تريد هو أعرق فيها وصف من السفالة والندالة.

والثاني: فيما زاد عليها في الحجم كأنه قصد بذلك رد ما استكروه من ضرب المثل بالذباب والعنكبوت لأنها أكبر من البعوضة^(١).

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك موقف الناس أمام هذه الأمثال فقال:

﴿فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم﴾.

أما حرف مفيد للشرط والتفصيل والتأكيد، أما الشرط فلوقوع الفاء في جوابها، وأما التفصيل فلوقوعها بعد مجمل مذكور أو مقدر، وأما التأكيد فلأنك إذا قلت: زيد ذاهب، ثم قصدت تأكيد ذلك وإفادة أن ذهابه واقع لا محالة قلت: أما زيد فذاهب.

والضمير في قوله (أنه) يعود على المثل، أو على ضربه المفهوم من قوله: ﴿أن يضرب مثلاً﴾. والحق: خلاف الباطن، وهو الثابت الذي لا يسوغ إنكاره.

ووجه كون المثل أو ضربه حقاً، أنه يوضح المبهم، ويفصل المجمل، فهو وسيلة إلى تقرير الحقائق وبيانها.

ووجه تفصيل الناس في هذه الآية إلى قسمين، أنهم بالنسبة إلى التشريع والتزويل كذلك، فهم مؤمن أو كافر.

والمقصود من ذكر المؤمنين هنا الثناء عليهم بثبات إيمانهم، وتبئيس الذين أرادوا تشكيكهم ببيان أن إيمانهم يحول بينهم وبين الشك.

وعبر في جانب المؤمنين بـ يعلمون تعريضاً بأن الكافرين إنما قالوا ما قالوا عناداً ومكابرة، وأنهم يعلمون أن ذلك تمثيل أصاب المحز.

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ١١١ وما بعدها.

وقال: ﴿أنه الحق﴾ معرفاً بأل، ولم يقل: أنه حق للمبالغة في حقيّة المثل.
ومن المعروف في علم البيان أن الخبر قد يؤق به معرفاً بأل، للدلالة على أن المخبر عنه بالغ في الوصف الذي أخبر به عنه مرتبة الكمال.

وقوله: ﴿من ربهم﴾ حال من الحق، ومن ابتدائية، أى: إن هذا الكلام وارد من الله، لا كما زعم الذين كفروا أنه مخالف للصواب، فهو مؤذن بأنه من كلام الخالق الذي لا يقع منه الخطأ.

ثم بين - سبحانه - موقف الكافرين من هذه الأمثال عندما تتلى عليهم فقال:
﴿وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾.

كلمة (ماذا) مركبة من ما الاستفهامية وذا اسم الإشارة، غير أن العرب توسعوا فيها فاستعملوها اسم استفهام مركباً من كلمتين، وذلك حيث يكون المشار إليه معبراً عنه بلفظ آخر غير الإشارة، حتى تصير الإشارة إليه مع التعبير عنه بلفظ آخر لمجرد التأكيد نحو: ماذا التواني؟ أو حيث لا يكون للإشارة موقع كقوله تعالى: ﴿وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر﴾ وقد يتوسعون فيها توسعاً أقوى فيجعلون ذا اسم موصول، وذلك حين يكون المستول عنه معروفاً للمخاطب بشيء من أحواله، فلذلك يجرّون عليه جملة أو نحوها هي صلة ويجعلون ذا موصولاً نحو ﴿ماذا أنزل ربكم﴾ ونحو ﴿ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾، أى: ما الذي أراه الله بهذا المثل.

والإرادة في أصل اللغة: نزوع النفس إلى الفعل، وإذا أسندت إلى الله دلت على صفة له تتعلق بالممكنات، فيترجح بها أحد وجهي المقدور، وقد كان جائز الوقوع وعدم الوقوع.
وقوله: ﴿مثلاً﴾ واقع في موقع التمييز لاسم الإشارة «هذا» كقولك لمن أجاب بجواب غير مقبول: ماذا أردت بهذا جواباً؟

والاستفهام الذي حكاه القرآن على ألسنة هؤلاء الكافرين، المقصود به الإنكار والتحقير لهذه الأمثال، ولأن يكون الله - تعالى - قد ضربها للناس.

والمعنى: فأما المؤمنون الذين من عادتهم الإنصاف، والنظر في الأمور بنظر العقل واليقين، فإنهم إذا سمعوا بمثل هذا التمثيل علموا أنه الحق الذي لا تمر الشبهة بساحته، وأما الكافرون فإنهم لانطماس بصيرتهم، وتغلب الأحقاد على قلوبهم فإنهم إذا سمعوا ذلك عاندوا وكابروا وقابلوه بالإنكار.

ثم ساق - سبحانه - جملتين بين فيهما الحكمة من ضرب الأمثال فقال: ﴿يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا﴾.

فقد دلت هاتان الجملتان على أن العلم بكون المثل حقًا، مما يزداد به المؤمنون رشدًا على رشدهم، وأن إنكاره ضلال يزداد به الكافرون تخبطًا في ظلمات جهلهم.

ووصف كلا من فريقى المؤمنين والمنكرين له بالكثرة مع أن المهديين وصفوا بالقلّة كثيرا كما في قوله: ﴿وقليل من عبادى الشكور﴾، وذلك لأن أهل الهدى كثيرون في أنفسهم، وإذا وصفوا بالقلّة فبالقياس إلى أهل الضلال، وأيضًا فإن القليل من أهل الهدى كثير في الحقيقة، وإن قلوا في الصورة، فوصفوا بالكثرة ذهابًا إلى هذه الحقيقة.

وقدم الإضلال على الهداية، ليكون أول ما يقرع أسماع المبطلين عن الجواب أمرًا فظيماً يسوءهم ويفت في أعضادهم.

ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - : ﴿وما يضل به إلا الفاسقين﴾.

الفاسقون: جمع فاسق، من الفسق، وهو في أصل اللغة: الخروج.

يقال: فسقت الرطبة من قشرها. أى: خرجت منه، وشرعًا: الخروج عن طاعة الله، فيشمل الخروج من حدود الإيمان، وهو الكفر، ثم ما دون الكفر من الكبائر والصغائر، ولكنه اختص في العرف بارتكاب الكبيرة، ولم يسمع الفسق في كلام الجاهلية، بمعنى الخروج عن الطاعة فهو بهذا المعنى من الألفاظ الإسلامية.

وقصر الإضلال بالمثل على الفاسقين، إيذان بأن الفسق هو الذى أعدهم لأن يضلوا به، حيث إن كفرهم قد صرف أنظارهم عن التدبر فيه حتى أنكروه وقالوا: ماذا أراد الله بهذا مثلا.

ثم وصف الله - تعالى - هؤلاء الفاسقين بثلاث خصال ذميمة فقال: في بيان الخصلة الأولى: ﴿الذين يتقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾.

والنقض: في اللغة حقيقة في فسخ وحل ماركب ووصل، بفعل يعاكس الفعل الذى كان به التركيب مثل نقض الحبل المفتول وقد استعمل هنا مجازًا في إبطال العهد بقريئة إضافته إلى عهد الله.

وعبر عن إبطال العهد بالنقض، لأنه أبلغ في الدلالة على الإبطال من القطع والصرم ونحوهما، لأن في النقض إفسادًا لهيئة الحبل.

والعهد: اسم للموثق الذى يلزم مراعاته وحفظه، يقال: عهد إليه في كذا، إذا أوصاه به ووثقه عليه.

وعهد الله : تارة يكون بما ركز في العقول من الحجة على التوحيد، وتارة يكون بما أوجبه الله على الناس على لسان رسله - صلوات الله عليهم - وتارة بما يلتزمه المؤمن . وليس بلازم له في أصل الشرع مما ليس بمعصية كالنذور وما يجري مجراها .

والميثاق : التوثقة، وهي التقوية والتثبيت، والمراد به : ما قوى الله به عهده .

وقوله : ﴿من بعد ميثاقه﴾ متعلق بينقضون، ومن لابتداء الغاية، وميثاقه الضمير فيه يجوز أن يعود على العهد، وأن يعود على اسم الله - تعالى - فهو على الأول مصدر مضاف إلى المفعول، وعلى الثاني مضاف للمفاعل .

أما الصفة الثانية التي وصفهم الله بها فهي قوله : «ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل» وهو عام في كل قطيعة لا يرضاها الله، كقطع الرحم، والإعراض عن موالاة المؤمنين، وترك الجماعات المفروضة، وعدم وصل الأقوال الطيبة بالأعمال الصالحة، وسائر ما فيه رفض خير أو تعاطى شر،

وأما الصفة الثالثة التي وصفهم بها فهي قوله - تعالى - :

﴿ويفسدون في الأرض﴾ .

والفساد في الأرض يقع بعبادة غير الله، وبالذعاية إلى الكفر به، وبالاستهزاء بالحق، وبالاعتداء على حقوق الغير، وبغير ذلك من الأمور التي حرمها الله - تعالى - .

وعبر بقوله : ﴿في الأرض﴾ للإشعار بأن فسادهم لا يقتصر عليهم، وإنما هو يتعداهم إلى غيرهم .

ثم بين - سبحانه - بعد أن دمغهم بتلك الصفات المردولة - عاقبة أمرهم فقال : ﴿أولئك هم الخاسرون﴾ .

الخاسرون : جمع خاسر مأخوذ من الخسر والخسران وهو النقص، ومن نقص عهد الله، وقطع ما أمر الله بوصله، وأفسد في الأرض، لاشك أنه قد نقص نفسه حظها من الفلاح والفوز، وكانت عاقبته الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة .

قال ابن جرير : «والخاسرون جمع خاسر، وهم الناقصون أنفسهم حظوظهم من رحمة الله بسبب معصيتهم له، كما يخسر الرجل في تجارته بأن يوضع من رأس ماله في بيعه، وكذلك المنافق والكافر قد خسرا بحرمان الله لهما من رحمته التي خلقها لعباده^(١) . . .» .

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٤١٧ طبعة دار المعارف .

ويعد أن عدد القرآن مساوئ أولئك الضالين، وبين سوء مصيرهم، ومآلهم، وجه إليهم الإنكار والتوبيخ فخطبهم بقوله :

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ
ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ
الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَىٰ
السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

﴿كيف﴾ اسم استفهام للسؤال عن الأحوال، وليس المراد به هنا استعمال المخاطبين عن حال كفرهم، وإنما المراد منه معنى تكثر تأديته في صورة الاستفهام وهو الإنكار والتوبيخ، كما تقول لشخص : كيف تؤذي أباك وقد رباك ؟؛ لا تقصد إلا أن تنكر عليه أذيته لأبيه وتوبيخه عليها.

وفي الآية الكريمة التفات من الغيبة إلى الخطاب؛ لزيادة تفرغهم والتعجب من أحوالهم الغريبة، لأنهم معهم ما يدعو إلى الإيمان ومع ذلك فهم منصرفون إلى الكفر: وقوله : ﴿وكنتم أمواتاً فأحياكم﴾ جار مجرى التنبيه على أن كفرهم ناشئ عن جهل وعدم تأمل في أدلة الإيمان القائمة أمام أعينهم.

والأموات : جمع ميت بمعنى المعدوم. والإحياء : بمعنى الخلق. والمعنى : كيف تكفرون بالله وحالكم أنكم كنتم معدومين فخلقكم، وأخرجكم إلى الوجود كما قال - تعالى - :

﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾.

ويصح أن يفسر الأموات بمعنى فاقدى الحياة. والإحياء بنفخ الروح فيهم فيكون المعنى : وكنتم أمواتاً يوم استقراركم نطقاً في الأرحام إلى تمام الأطوار بعدها، فنفخ فيكم الأرواح؛ وأصبحتم في طور إحساس وحركة وتفكير وبيان.

ويعد أن ويخهم على كفرهم بمن أخرجهم من الموت إلى الحياة، أورد جملاً لاستيفاء الأطوار التي ينتقل فيها الإنسان من مبدأ الحياة إلى مقره الخالد في دار نعيم أو عذاب فقال : ﴿ثم

يَمِيتَكُمْ ﴿١﴾ بقبض أرواحكم عند انقضاء آجالكم ﴿٢﴾ ثم يَحْيِيكُمْ ﴿٣﴾ يبعثكم بعد الموت ﴿٤﴾ ثم إليه ترجعون ﴿٥﴾.

أى تصيرون إليه دون سواه، فيجمعكم في المحشر؛ ويتولى حسابكم، والحكم في أمركم بمقتضى عدله ﴿٦﴾ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴿٧﴾.

أما الإمامة فهم يشاهدونها بأعينهم بين الحين والحين، وأما البعث فقد أخبر الله عنه بما يدل على صحته وينفى استبعاده، أو استحالته، بأدلة عقلية ونقلية كثيرة، أما الأدلة العقلية، فمنها: أن الذى قدر على إحيائهم من العدم، قادر على إحيائهم وإعادتهم بعد موتهم فإن الإعادة أهون من البدء دائماً، وأما الأدلة النقلية، فمنها قوله - تعالى - :
﴿٨﴾ ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴿٩﴾.

وفى قوله - تعالى - ﴿١٠﴾ ثم إليه ترجعون ﴿١١﴾ ترهيب لمن ينزع إلى الشر، ويرتكب المعاصى من غير مبالاة، وترغيب لمن يقبل على فعل الخير، ويقدم على الطاعات.

قال الجمل: «والفاء فى قوله ﴿١٢﴾ فأحياكم ﴿١٣﴾ على بابها من التعقيب، وثم على بابها من التراخى، لأن المراد بالموت الأول، العدم السابق، وبالحياة الأولى الخلق، وبالموت الثانى الموت المعهود، وبالحياة الثانية الحياة للبعث فجاءت الفاء وثم على بابيهما من التعقيب والتراخى، على هذا التفسير وهو أحسن الأقوال، ويعزى لابن عباس وابن مسعود ومجاهد، والرجوع إلى الجزء أيضاً متراخ عن البعث» (١).

وبعد أن ذكر - سبحانه - ما يشهد بقدرته ووحدانته عن طريق الأدلة المتعلقة بذوات المكلفين، أردف ذلك بالكلام عن الأدلة الكونية فقال تعالى:

﴿١٤﴾ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ﴿١٥﴾.

أى: أنه خلق جميع ما فى الأرض من نحو الحيوان والنبات والمعادن والجبال من أجلكم، فهو المنعم عليكم لتنتفعوا بها فى دنياكم، وتستعينوا بها على طاعته.
وقد أخذ العلماء من هذه الآية شاهداً على أن الأشياء التى فيها منافع مأذون فيها حتى يقوم دليل على حرمتها.

ثم استدل - سبحانه - على مظاهر قدرته بخلق السموات فقال:

﴿١٦﴾ ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم ﴿١٧﴾.

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ٣٥.

استوى إلى السماء : أقبل وعمد إليها بإرادته . وتسويتها معناه : تعديل خلقها وتقويمه . والسماء ليس المراد منها فردا من أفراد السموات ، وإنما المراد منها الأجرام العلوية الشاملة لجميع السموات ، فصح أن يعود عليها ضمير جمع الإناث في قوله : ﴿فسواهن﴾ ، وكذلك علماء البيان يزيدون أن اللفظ إذا أريد منه جنس ما وضع له صار في معنى الجمع .

فمعنى ﴿ثم استوى إلى السماء﴾ علا إليها وارتفع ، من غير تكييف ولا تحديد ولا تشبيه ، مع كمال التنزيه عن سمات المحدثات ، وقد سئل الإمام مالك عن الاستواء على العرش فقال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

وقدم الأرض هنا لأنها أدل لشدة المسابسة والمباشرة .

وجملة ﴿ثم استوى﴾ معطوفة على جملة (خلق لكم) ، وكان العطف بشم لعظم خلق السماء عن خلق الأرض .

وعبر بسواهن للإشعار بأنه - سبحانه - خلقهن في استقامة ، واستقامة الخلق هي انتظامه على وجه لا خلل فيه ولا اضطراب . قال - تعالى - :

﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ .

وجملة ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ مقرر لما ذكر قبلها من خلق السموات والأرض وما فيها على هذه الصورة الحكيمة ، فقد دلت على أن ترتيب أجزاء تلك المصنوعات وموافقة جميعها للمنافع المقصودة منها ، إنما حدث عن عالم بحقائق تلك الأجزاء وخواصها ، وإحاطته بكل شيء علماً وضع كل جزء في موضعه اللائق به .

وبعد أن بين سبحانه للناس أنه قد من عليهم بنعمة خلقه ما في الأرض جميعاً ، بدأ بعد ذلك يذكرهم بنعمة أخرى هي نعمة خلقه لأبيهم آدم ، وخلق آدم مبدأ لخلق ذريته ، وتكريمه موصول بتكريمهم فقال تعالى :

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً
قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ
نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ
﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَأِكَةِ

فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا
 سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ
 ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَذَكَّرُ أُنْثَاهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ
 أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا
 تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾

ففى هذه الآيات الكريمة عطف - سبحانه - قصة خلق آدم أبى البشر على قصة خلق الأنفس وخلق السماوات والأرض انتقالا فى الاستدلال على أن الله واحد، وجمعا بين تعدد الأدلة وبين مختلف الحوادث وأصلها، حتى يكون التذليل أجمع، والإيمان بالله أقوى وأثبت. وإذ وإذا ظرفان للزمان، الأول للماضى والثانى للمستقبل، فإن جاء إذ مع المضارع أفاد الماضى كقوله :

﴿وإذ تقول للذى أنعم الله عليه . . .﴾ وإن جاء إذ مع الماضى أفاد الاستقبال كقوله : ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ .

وإذ هنا واقعة موقع المفعول به لعامل مقدر دل عليه المقام .

والمعنى : واذكر يا محمد وقت أن قال ربك للملائكة إني جاعل فى الأرض خليفة .

وقد جاء هذا المقدر هنا مصرحا به فى آيات أخرى كما قال تعالى :

﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾ .

والملائكة جمع ملك . والتاء لتأنيث الجمع، وأصله ملائك، من ملك، نحو شمال من شمل،

والهمزة زائدة وهو مقلوب مالك، وقيل : إن ملائك من لأك إذا أرسل، ومنه الألوكة، أى : الرسالة .

والملائكة، هم جند من خلق الله، ركز الله فيهم العقل والفهم، وفطهم على الطاعة،

وأقدرهم على التشكيل بأشكال مختلفة، وعلى الأعمال العظيمة الشاقة، ووصفهم فى القرآن

بأوصاف كثيرة منها أنهم ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم

ويفعلون ما يؤمرون﴾ ومنها : أنهم رسل الله أرسلهم بأمره «ومنهم رسل الوحي إلى من

اصطفاهم من خلقه للنبوّة والرسالة. قال تعالى :

﴿جاعل الملائكة رسلاً﴾ وقال تعالى : ﴿الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس﴾
وقال - تعالى - : ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده﴾ .
و (الخليفة) من يخلف غيره وينوب منابه، فهو فعيل بمعنى فاعل،

والتاء فيه للمبالغة، والمراد به آدم - عليه السلام - لأنه كان خليفة من الله في الأرض، وكذلك سائر الأنبياء استخلفهم الله - تعالى - في عمارة الأرض، وسياسة الناس، وتكميل نفوسهم، وإجراء أحكامه عليهم، وتنفيذ أوامره فيهم. وقيل : آدم وذريته، لأنه يخلف بعضهم بعضاً في عمارة الأرض، واستغنى بذكره عن ذكر ذريته لكونه الأصل.

وخطاب الله للملائكة بأنه سيجعل في الأرض خليفة، ليس المقصود منه المشورة، وإنما خاطبهم بذلك من أجل ما ترتب عليه من سؤا لهم عن وجه الحكمة من هذه الخلافة، وما أجيّبوا به من بعد، أو من أجل تعليم العباد المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها وعرضها على ثقاتهم ونصائحهم وإن كان هو - سبحانه - يعلمه وحكمته البالغة غنياً عن المشاورة. أو الحكمة تعظيم شأن المجهول، وإظهار فضله، بأن بشر بوجود سكان ملكوته، ونوه بعضهم شأن المجهول بذكره في الملأ الأعلى قبل إيجاده، ولقبه بالخليفة.

ثم حكى - سبحانه - إجابة الملائكة فقال :

﴿قالوا أتعجل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾ .
الفساد: الخروج عن الاعتدال والاستقامة ويضاده الصلاح. يقال فسد الشيء فساداً وفسوداً وأفسده غيره.

والسفك: الصب والإهراق، يقال: سفكت الدم والدمع سفكاً - من باب ضرب - صبيته. والفاعل سافك وسفك، والمراد به حصول القتال بين أفراد بني الإنسان ظلماً وعدواناً. والتسييح: مشتق من السبح وهو المر السريع في الماء أو في الهواء، فالمسيح مسرع في تنزيه الله وتبرئته من سوء.

والتقديس: التطهير والتعظيم ووصفه بما يليق به من صفات الكمال.

فيكون التسييح نفي ما لا يليق، والتقديس إثبات ما يليق، وقدم التسييح على التقديس من باب تقديم التخلية على التحلية.

والمعنى: أتعجل في الأرض يا إلهنا من يفسد فيها ويريق الدماء والحال أننا نحن ننزهك عما

لا يليق بعظمتك، تنزيهاً متلبساً بحمدك والثناء عليك، ونظهر ذكرك عما لا يليق بك تعظيماً لك وتمجيداً.

وقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا... الخ﴾ إنما صدر منهم على وجه استطلاع الحكمة في خلق نوع من الكائنات يصدر منه الإفساد في الأرض وسفك الدماء. وقطعهم بحكمة الله في كل ما يفعل لا ينافي تعجبهم من بعض أفعاله، لأن التعجب يصدر عن خفاء سبب الفعل، فمن تعجب من فعل شيء وأحب الاطلاع على الحكمة الباعثة على فعله لا يعد منكراً.

والملائكة لا يعلمون الغيب، فلا بد أن يكونوا قد علموا ماذا سيكون من الفساد في الأرض وسفك الدماء بوجه من الوجوه التي يطلع الله بها على غيبه بعض المصطفين الأخبار من خلقه.

قال الإمام ابن كثير في توضيح هذا المعنى: قوله - تعالى - : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية، فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمأ مسنون، أو فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم. ويردعهم عن المحارم والمآثم... وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله ولا على وجه الحسد لبني آدم كما قد يتوهمه البعض... وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك، يقولون ياربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض، ويسفك الدماء فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك، ولا يصدر منا شيء من ذلك فهلا وقع الاقتصار علينا؟^(١)

وقد رد الله - تعالى - على الملائكة بقوله: ﴿قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾.

أى: إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم، فإني سأجعل فيهم الأنبياء، وأرسل فيهم الرسل ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعباد والزهاد والأولياء والأبرار والمقربون والعلماء العاملون والمحبون له - تعالى - المتبعون رسله.

فالجملته الكريمة إرشاد لهم إلى الأمر الذي من شأنه أن يقف بهم عند حدود الأدب اللائق بمقام الخالق - عز وجل - وتنبية إلى أنه - تعالى - عالم بما لا يحيط به علم أحد من خلقه، فله أن يفعل ما يشاء ويأمر بما يشاء،

وليس من أدب المؤمنين بأنه العليم الحكيم أن يسألوه حين يأمرهم بشيء، أو يعلمهم بأنه

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٦٩.

سيفعل شيئاً، عن حكمة ما أمر به أو ما سيفعله، بل شأنهم أن يتجهوا إلى استطلاع حكمة الأفعال والأوامر من أنفسهم، فإذا أدركوها فقد ظفروا بأمنيتهم، وإن وقفت عقولهم دونها، ففي تسليمهم لقدر الله، وامثالهم لأوامره الكفاية في القيام بحق التكليف والفوز برضا الله، الذي هو الغاية من الإيمان به والإقبال على طاعته.

قال بعض العلماء: «وفي هذه الآية الكريمة تسلية للنبي ﷺ عن تكذيب بعض الناس له، لأنه إذا كان الملأ الأعلى قد مثلوا على أنهم يختصمون ويطلبون البيان والبرهان فيما لا يعلمون، فأجدر بالناس أن يكونوا معذورين - وبالأنبيا أن يعاملوهم كما عامل الله الملائكة المقربين، أي: فعليك يا محمد أن تصبر على هؤلاء المكذبين، وترشد المسترشدين، وتأتى أهل الدعوة بسلطان ميين^(١)».

ثم أخذ - سبحانه - في بيان جانب من حكمة خلق آدم، وجعله خليفة في الأرض، بعد أن أجاب الملائكة على سؤالهم بالجواب المناسب الحكيم فقال - تعالى - :
﴿وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾.

علم: من التعليم وهو التعريف بالشيء. وآدم: اسم لأبي البشر، قيل إنه عبراني مشتق من آدمه، وهي لغة عبرانية معناها التراب، كما أن «حواء» كلمة عبرانية معناها «حى» وسميت بذلك لأنها تكون أم الأحياء.

و﴿الأسماء﴾ جمع اسم، والاسم ما يكون علامة على الشيء، وتأكيد الأسماء بلفظ «كلها» في أنه علمه أسماء كل ما خلق من المحدثات من إنسان وحيوان ودابة، وطيور، وغير ذلك. ويصح حمل الأسماء على خواص الأشياء ومنافعها، فإن الخواص والمنافع علامات على ما تتعلق به من الحقائق.

وقوله: ﴿ثم عرضهم على الملائكة﴾ عرض الشيء: إظهاره وإبانه والضمير في ﴿عرضهم﴾ يعود على المسميات، وهي مفهومة من قوله: ﴿الأسماء كلها﴾ إذ الأسماء لا بد لها من مسميات، فإذا أجرى حديث عن الأسماء حضر في ذهن السامع ما هو لازم لها، أعني المسميات.

ودل على المسميات بضمير جمع الذكور العقلاء فقال: ﴿عرضهم﴾ ولم يقل عرضها، لأن في جملة هذه المسميات أنواعاً من العقلاء: كالملائكة، والإنس، ومن الأساليب المعروفة بين

(١) تفسير القاسمي ج ٢ ص ٧.

فصحاء العرب تغليب الكامل على الناقص، فإذا اشتركا في نحو الجمع أو الثنية أتى بالجمع أو الثنية على ما يطلق حال الكامل منها.

والأمر في قوله: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾، ليس من قبيل الأوامر التي يقصد بها التكليف، أي: طلب الإتيان بالمأمور به، وإنما هو وارد على جهة إفحام المخاطب بالحجة.

والمعنى: أن الله - تعالى - ألهم آدم معرفة ذوات الأشياء التي خلقها في الجنة، ومعرفة أسمائها ومنافعها، ثم عرض هذه المسميات على الملائكة. فقال لهم على سبيل التعجيز: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما اختلج في خواطركم من أني لا أخلق خلقاً إلا وأنتم أعلم منه وأفضل.

قال ابن جرير: «وفي هذه الآيات العبرة لمن اعتبر والذكرى لمن ذكر، والبيان لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، عما أودع الله في هذا القرآن من لطائف الحكم التي تعجز عن أوصافها الألسن، وذلك أن الله - تعالى - احتج فيها لنبيه ﷺ على من كان بين ظهرانيه من يهود بنى إسرائيل، بإطلاعه إياه من علوم الغيب التي لم يكن - تعالى - أطلع عليها من خلقه إلا خاصا، ولم يكن مدركا علمه إلا بالإنباء والإخبار ليقرر عندهم صدق نبوته، ويعلموا أن ما أتاهم به إنما هو من عند الله.»

ثم حكى - سبحانه - ما كان من الملائكة فقال:

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

سبحان: اسم مصدر بمعنى التسييح؛ أي التنزيه، وهو منصوب بفعل مضمر لا يكاد يستعمل معه.

وهذه الآية الكريمة واقعة موقع الجواب عن سؤال يخطر في ذهن السامع للجملة السابقة، إذ الشأن أن يقال عند سماعهم قوله - تعالى -: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾، ماذا كان من الملائكة؟ هل أنبأوا بأسماء المسميات المعروضة عليهم؟ فقال - تعالى -: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا﴾ إلخ الآية.

ولو قال الملائكة: لا علم لنا بأسماء هذه المسميات لكان جوابهم على قدر السؤال، ولكنهم قصدوا الاعتراف بالعجز عن معرفة أسماء تلك المسميات المعروضة على أبلغ وجه فنفوا عن أنفسهم أن يعلموا شيئا غير ما يعلمهم الله، ودخل في ضمن هذا النفي العام الاعتراف بالقصور عن معرفة الأسماء المستول عنها.

ومعنى ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ أي: أنت ياربنا العليم بكل شيء، الحكيم في خلقك وأمرك وفي تعليمك ما تشاء ومنعك ما تشاء، لك الحكمة في ذلك، والعدل التام.

وقدم الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة، ليكون وصفه بالعلم متصلاً بنفهم عن أنفسهم في قولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾.

وبعد أن بين القرآن أن الملائكة قد اعترفوا بالعجز عن معرفة ما سئلوا عنه، وجه - سبحانه - الخطاب إلى آدم، يأمره فيه بأن يخبر الملائكة بالأساء التي سئلوا عنها، ولم يكونوا على علم بها، فقال - تعالى -:

﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

ففي هذه الآية الكريمة أخبرنا الله - تعالى - أنه قد أذن لآدم في أن يخبر الملائكة بالأساء التي فاتهم معرفتها ليظهر لهم فضل آدم، ويزدادوا اطمئناناً إلى أن إسناد الخلافة إليه، إنما هو تدبير قائم على حكمة بالغة.

وعلم الغيب يختص به واجب الوجود - سبحانه - لأنه هو الذي يعلم المغيبات بذاته، وأما العلم بشيء من المغيبات الحاصل من تعليم الله فلا يقال لصاحبه إنه يعلم الغيب.

وقوله - تعالى - ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ...﴾ إلخ الآية، استحضر وتأكيد لمعنى قوله قبل ذلك، ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. وإعادة له على وجه من التفصيل أفاد أن علمه يشمل ما يظهرونه بأقوالهم أو أفعالهم، وما يضمرونه في أنفسهم.

وفي قوله: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ...﴾ إلخ تعريض بمعاتبتهم على ترك الأولى، حيث بادروا بالسؤال عن الحكمة، وكان الأولى أن يأخذوا بالأدب المناسب لمقام الألوهية، فيتركوا السؤال عنها إلى أن يستين لهم أمرها بوجه من وجوه العلم.

ومن الفوائد التي تؤخذ من هذه الآيات، أن الله - تعالى - قد أظهر فيها فضل آدم - عليه السلام - من جهة أن علمه مستمد من تعليم الله له، فإن إمداد الله له بالعلم يدل على أنه محاط منه برعاية ضافية، ثم إن العلم الذي يحصل عن طريق النظر والفكر قد يعتريه الخلل، ويحوم حوله الخطأ. فيقع صاحبه في الإفساد من حيث إنه يريد الإصلاح، بخلاف العلم الذي يتلقاه الإنسان من تعليم الله، فإنه علم مطابق للواقع قطعاً، ولا يخشى من صاحبه أن يجيد عن سبيل الإصلاح، وصاحب هذا العلم هو الذي يصلح للخلافة في الأرض، ومن هنا، كانت السياسة الشرعية أرشد من كل سياسة، والأحكام النازلة من السماء أعدل من القوانين الناشئة في الأرض.

وبعد أن بين القرآن في الآيات السابقة بعض الكرامات التي خص الله بها آدم، انتقل إلى

بيان كرامة أخرى أكرم الله بها آدم - عليه السلام - وهي أمره للملائكة بالسجود له، ثم بيان ما حصل بينه وبين إبليس، فقال - تعالى - :

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا
لَادَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ
﴿٢٤﴾ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا
حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾
فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٦﴾
فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٢٧﴾
قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ
هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٩﴾

وقوله - تعالى - : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسجدوا لآدم . . .﴾ إلخ، معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ . . .﴾ إلخ، من باب عطف القصة على القصة، وإعادة (إذ) بعد حرف العطف المغنى عن إعادة ظرفه، تنبيه على أن الجملة مقصودة بذاتها، لأنها متميزة بهذه القصة العجيبة فجاءت على أسلوب يؤذن بالاستقلال والاهتمام.

والسجود: لغة التذلل والخضوع مع انخفاض بانحناء وغيره، وخص في الشرع بوضع الجبهة على الأرض بقصد العبادة.

وللعلماء في كيفية السجود الذي أمر الله به الملائكة لآدم أقوال: أرجحها أن السجود المأمور به في الآية يحمل على المعنى المعروف في اللغة، أى: أن الله - تعالى - أمرهم بفعل تجاه آدم

يكون مظهرًا من مظاهر التواضع والخضوع له تحية وتعظيمًا، وإقرارًا له بالفضل دون وضع الجبهة على الأرض الذي هو عبادة، إذ عبادة غير الله شرك ينتزه الملائكة عنه.

وعلى هذا الرأي سار علماء أهل السنة. وقيل: إن السجود كان لله، وآدم إنما كان كالقابلة يتوجه إليه الساجدون تحية له، وإلى هذا الرأي اتجه علماء المعتزلة، وقد قالوا ذلك هربًا من أن تكون الآية الكريمة حجة عليهم، فإن أهل السنة قالوا: إبليس من الملائكة، والصالحون من البشر أفضل من الملائكة، واحتجوا بسجود الملائكة لآدم، وخالفت المعتزلة في ذلك، وقالت: الملائكة أفضل من البشر، وسجود الملائكة لآدم كان كالقابلة.

والذي نراه أن ما سار عليه أهل السنة أرجح، لأن ما ذهب إليه المعتزلة يبعده أن المقام مقام لإظهار فضل آدم على الملائكة، وإظهار فضله عليهم لا يتحقق بمجرد كونه قبله للسجود. وأمر الملائكة بالسجود لآدم هو لون من الابتلاء والاختبار، ليميز الله الخبيث من الطيب، وينفذ ما سبق به العلم، واقتضته المشيئة والحكمة:

ثم بين - سبحانه - ما حدث من الملائكة ومن إبليس فقال:

﴿فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾.

إبليس: اسم مشتق من الإبلان، وهو الحزن الناشئ عن شدة اليأس، وفعله أبلس، والراجع أنه اسم أعجمي، ومنعه من الصرف للعلمية والعجمة وهو كائن حي، وقد أخطأ من حمله على معنى داعي الشر الذي يخطر في النفوس، إذ ليس من المعقول أن يكون كذلك مع أن القرآن أخبرنا بأنه يرى الناس ولا يرونه. قال - تعالى - ﴿إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم﴾.

وقوله: ﴿أبى واستكبر﴾ الإباء: الامتناع عن الفعل أنفة مع التمكن منه. والاستكبار: التكبر والتعظيم والغرور، بمعنى أن يرى الشخص في نفسه علوًا على غيره، وهو خلق مذموم. وكان في قوله: ﴿وكان من الكافرين﴾ بمعنى صار.

وجاء العطف في قوله ﴿فسجدوا...﴾ بالفاء المفيدة للتعقيب، للإشارة إلى أن الملائكة قد بادروا بالامتثال بدون تردد، ولم يصددهم ما كان في نفوسهم من التخوف من أن يكون هذا المخلوق، مظهر فساد وسفك دماء، لأنهم منزهون عن المعاصي. وللعلماء في كون إبليس من الملائكة أم لا قولان:

أحدهما: أنه كان منهم لأنه - سبحانه - أمرهم بالسجود لآدم، ولولا أنه كان منهم لما توجه إليه الأمر بالسجود، ولولم يتوجه إليه الأمر بالسجود لم يكن عاصيًا، ولما استحق الخزي والنكال.

ولأن الأصل في المستثنى أن يكون داخلا تحت اسم المستثنى منه حتى يقوم دليل على أنه خارج عنه. وقد اختار هذا الرأي ابن عباس، وابن مسعود وجمهور المفسرين.

وقيل إنه ليس منهم لقوله - تعالى - ﴿إلا إبليس كان من الجن، فسق عن أمر ربه﴾، فهو أصل الجن، كما أن آدم أصل الإنس، ولأنه خلق من نار، والملائكة خلقوا من نور، ولأن له ذرية ولا ذرية للملائكة. وقد اختار هذا القول الحسن وقتادة وغيرهما.

وقد حاول ابن القيم أن يجمع بين الرأيين فقال: والصواب التفصيل في هذه المسألة، وأن القولين في الحقيقة قول واحد، فإن إبليس كان مع الملائكة بصورته وليس منهم بمادته وأصله. كان من نار وأصل الملائكة من نور، فالنافى كونه من الملائكة. والمثبت لم يتواردا على محل واحد^(١).

ولما كان استثناء إبليس من الساجدين لا يدل على أنه ترك السجود عصيانياً، إذ قد يكون تركه لعذر، دل بقول: ﴿أبى واستكبر﴾ على أنه امتنع من السجود أنفةً، وتعاضلاً، وأردف هذا التعاضم والغرور باعتراضه على الله - تعالى - في تفضيل آدم، فصار بذلك في فريق الكافرين، ولذا ختمت الآية بقوله - تعالى -: ﴿وكان من الكافرين﴾ أى: صار بسبب عصيانه واستكباره من الكافرين بالله، الجاحدين لنعمه، البعيدين عن رحمته ورضوانه.

وقوله - تعالى - ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ معطوف على قوله (وإذ قلنا للملائكة... إلخ) أى: بعد أن أمرنا الملائكة بالسجود لآدم، قلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة، فهذه تكريمة أكرمها الله بها بعد أن أكرمه بكرامة الإجلال من تلقاء الملائكة.

وقوله: ﴿اسكن﴾ أمر من السكنى بمعنى اتخاذ المسكن على وجه الاستقرار.

والزوج: يطلق على الرجل والمرأة والمراد به هنا حواء، حيث تقول العرب للمرأة زوج، ولا تكاد تقول زوجة.

والجنة: هى كل بستان ذى شجر متكاثف، ملتف الأغصان، يظلل ما تحته ويستره، من الجن، وهو ستر الشيء عن الحاسة.

وجمهور أهل السنة على أن المراد بها هنا دار الثواب. التى أعدها الله للمؤمنين يوم القيامة، لأن هذا هو المتبادر إلى الذهن عند الإطلاق.

ويرى جمهور علماء المعتزلة أن المراد بها هنا بستان بمكان مرتفع من الأرض، خلقه الله

لإسكان آدم وزوجه، واختلفوا في مكانه، فقبل بفلسطين. وقيل بغيرها.
وقد ساق الإمام ابن القيم في كتابه (حادي الأرواح) أدلة الفريقين دون أن يرجح شيئاً منها.
والأحوط والأسلم: الكف عن تعيينها وعن القطع به، وإليه ذهب أبو حنيفة وأبو منصور
الماتريدي في التأويلات، إذ ليس لهذه المسألة تأثير في العقيدة.
والمخاطب بالأمر، بسكنى الجنة آدم وحواء، ولكن الأسلوب جاء في صيغة الخطاب لآدم
وعطفت عليه زوجته، لأنه هو المقصود بالأمر وزوجه تبع له.

ثم بين - سبحانه - أنه قد أباح لهما أن يأكلا من ثمار الجنة أكلا واسعا فقال:
﴿وكلا منها رغدا حيث شئتما﴾ أى كلا من مطاعم الجنة وثمارها أكلا هنيئاً أو واسعاً في أى
مكان من الجنة أردتم.

يقال: رغد عيش القوم أى: اتسع وطاب، وأرغد القوم، أى: أخصبوا وصاروا في رزق
واسع.

والضمير في قوله ﴿منها﴾ يعود إلى الجنة، والمراد بالأكل منها: الأكل من مطاعمها وثمارها،
لأن الجنة تستلزم ثماراً هى المقصودة بالأكل.

ثم بين - سبحانه - أنه نهاهم عن الأكل من شجرة معينة فقال: ﴿ولا تقربا هذه الشجرة
فتكونا من الظالمين﴾.

القرب: الدنو، والمنهى عنه هو الأكل من ثمار الشجرة، وتعليق النهى بالقرب منها إذ قال
﴿ولا تقربا﴾ القصد منه المبالغة في النهى عن الأكل، إذ في النهى عن القرب من الشيء قطع
لوسيلة التلبس به، كما قال تعالى: ﴿ولا تقربوا الزنا﴾ فنهى عن القرب من الزنا ليقطع الوسيلة
إلى ارتكابه وهى القرب منه. وأكد النهى بأن جعل عدم اجتناب الأكل من الشجرة ظلماً فقال:
﴿فتكونا من الظالمين﴾ وقد ظلما أنفسهما إذ أكلا منها، فقد ترتب على أكلهما منها أن أخرجوا من
الجنة التى كانا يعيشان فيها عيشة راضية.

وقد تكلم العلماء كثيراً عن اسم هذه الشجرة ونوعها فقبل هى التينة، وقيل: هى السنبله،
وقيل هى الكرم.. إلخ. إلا أن القرآن لم يذكر نوعها على عادته فى عدم التعرض لذكر ما لم
يدع المقصود من سوق القصة إلى بيانه.

وقد أحسن الإمام ابن جرير فى التعبير عن هذا المعنى فقال: «والصواب فى ذلك أن يقال:
إن الله - تعالى - نهى آدم وزوجه عن الأكل من شجرة يعينها من أشجار الجنة دون سائر
أشجارها فأكلا منها، ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين، لأن الله لم يضع لعباده دليلاً

على ذلك في القرآن ولا من السنة الصحيحة، وقد قيل : كانت شجرة البر، وقيل كانت شجرة العنب. وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به^(١).
ثم بين القرآن بعد ذلك ما وقع فيه آدم من خطأ فقال : ﴿فأزلهما الشيطان عنها فأخرجها مما كانا فيه﴾ أى : اذهبها عن الجنة بكذبه عليها ومقاسمته أنه لهما من الناصحين.
وأزل من الإزال وهو الإزلاق : زل يزل زلا وزللا، أى : زلقت في طين أو منطق، والاسم الزلة. وأزله غيره واستزله : أى أزلقه. أطلق وأريد به لازمه وهو الإذهاب.
وقرىء ﴿فأزلهما﴾ أى : نحاهما من الإزالة، تقول أزلت الشيء عن مكانه إزالة. أى : نحيته وأذهيته عنه.

ثم استعمل هذا اللفظ في ارتكاب الخطيئة كما استعمل في خطأ الرأي مجازاً. والضمير في قوله : ﴿عنها﴾ يعود إلى الشجرة، ومعنى أزلهما عن الشجرة أوقعهما في الزلة بسببها. والتعبير بقوله : ﴿فأخرجها مما كانا فيه﴾ أبلغ في الدلالة على فخامة الخيرات التي كانا يتقبلان فيها مما لو قيل : فأخرجها من النعيم أو من الجنة لأن من أساليب البلاغة في الدلالة على عظم الشيء أن يعبر عنه بلفظ مبهم كما هنا. لكى تذهب نفس السامع في تصور عظمتة وكماله إلى أقصى ما يمكنها أن تذهب إليه.

ونسبة إخراجها من الجنة إلى الشيطان في قوله : ﴿فأخرجها﴾ من قبيل نسبة الفعل إلى ما كان سبباً فيه، وذلك أن أكلهما من الشجرة الذى ترتب عليه إخراجها من الجنة إنما وقع بسبب وسوسة الشيطان لهما.

وقوله - تعالى - ﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو﴾ الخطاب فيه لآدم وحواء، وإبليس، وقيل الخطاب لآدم وحواء ونسلهما.

والهبوط : النزول من أعلى إلى أسفل ضد الصعود. يقال : هبط يهبط ويهبط أى : نزل من علو إلى سفلى.

والعداوة معناها التناكر والتنافر بالقلوب.

أى : قلنا لآدم وحواء والشيطان انزلوا إلى الأرض متنافرين متباغضين، يبغي بعضكم على بعض.

وعداوة الشيطان لآدم نشأت عن حسد وتكبر منذ أن أمر بالسجود له فأبى وامتنع وقال : أنا خير منه.

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٥٢١.

وعداوة آدم وذريته للشيطان من جهة أنه يكيد لهم بالسوسة والإغراء وفي هذه الجملة الكريمة إرشاد لأدم وذريته، ونهى لهم عن اتباع خطوات الشيطان، لأنه عدو لهم، ومن شأن العدو أنه يسعى لمضرة عدوه.

قال - تعالى - : ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾.

ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - : ﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾.

المستقر: موضع الاستقرار والثبات، وهو مقابل القلق والاضطراب، والمتاع: اسم لما يستمتع به من مأكول ومشرب وملبس وحياة وأنس وغير ذلك، مأخوذ من متع النهار متوعاً إذا ارتفع، ويطلق على الانتفاع الممتد الوقت.

والحين: الجزء من الزمان غير محدد بحد، والمراد به هنا وقت الموت أو يوم القيامة. والمعنى: انزلوا إلى الأرض بعضكم لبعض عدو؛ ولكم فيها منزل وموضع استقرار. وتمتع بالعيش إلى أن يأتيكم الموت.

ومن كان على ذكر دائم من أن استقراره في الأرض وتمتعه بنعيمها سينتهي في وقت، لا يدري متى يدركه، فشأنه أن يتتبع بخيراتها ويتمتع بطيب العيش فيها، وهو مقبل على العمل لمرضاة الله ما استطاع، وشاكر لأنعمه بالقلب واللسان، لا يشغله عن الشكر شاغل من ملذات هذه الحياة ومظاهر زينتها.

ثم حكى القرآن أن آدم قد بادر بطلب العفو والمغفرة من ربه فقال: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾.

التلقى في الأصل: التعرض للقاء، ثم استعمل بمعنى أخذ الشيء وقبوله، تقول: تلقيت رسالة من فلان. أى أخذتها منه وقبلتها.

والكلمات: جمع كلمة، وهى اللفظة الموضوعية لمعنى، وأرجح ما قيل في تعيين هذه الكلمات، ما أشار إليه القرآن في سورة الأعراف بقوله:

﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾.

والتوبة في أصل اللغة معناها: الرجوع، وإذا عدت بعن كان معناها الرجوع عن المعصية إلى الطاعة، وإذا عدت بعلى - كما في هذه الآية - كان معناها قبول التوبة، فالعبد يتوب عن المعصية، والله يتوب على العبد أى: يقبل توبته.

وجملة ﴿إنه هو التواب الرحيم﴾ واردة مورد التعليل لقوله: ﴿فتاب عليه﴾.

والتواب وصف له - تعالى - من تاب، أى: قبل التوبة، وجاء التعبير بصيغة فعال، للإشعار بأنه كثير القبول للتوبة من عباده، وليلدل على أنه يقبل توبة العبد وإن وقعت بعد ذنب يرتكبه ويتوب منه ثم يعود إليه بعد التوبة ثم يتوب بعد العودة إليه توبة صادقة نصوحاً.

وبعد أن أخبر القرآن في الآيات السابقة أن الله - تعالى - قد أمر آدم وحواء وإبليس بالهبوط من الجنة، نراه بعد ذلك قد أعاد خبر الأمر بالهبوط فقال:

﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً، فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

وليست هذه الإعادة من قبيل التكرار الذى يقصد منه مجرد التوكيد، بل قص الأمر بالهبوط أولاً ليعلق عليه معنى؛ هو كون بعضهم لبعض عدواً.

ثم قصة ثانية ليعلق عليه معنى آخر هو ما ترتب على الهبوط من تفصيل لحال المخاطبين، وانقسامهم إلى مهتدين وضالين.

والفاء فى قوله ﴿فإما﴾ لإفادة ترتيب انقسام المخاطبين إلى مهتدين وكافرين على الهبوط المفهوم من قوله: ﴿اهبطوا﴾.

و﴿إما﴾ هى إن الشرطية دخلت عليها «ما» لإفادة التوكيد، ويغلب على فعل شرطها أن يكون مؤكداً بالنون وأوجب بعضهم ذلك.

والهدى من الله معناه الدلالة على ما هو حق وخير بلسان رسول، أو بآيات كتاب.

وقد صرح - سبحانه - بأن الهدى صادر منه بقوله: ﴿منى هدى﴾ ثم أضافه إلى نفسه بقوله: ﴿هداى﴾ للإيدان بتعظيم أمر الهدى؛ وأنه أحق بأن يتبع، ويتخذ سبيلاً لطمأنينة النفس فى الدنيا، والفوز بالسعادة فى الأخرى.

والخوف: الفرع وهو تألم النفس من مكروه يتوقع حصوله.

والحزن: الغم الحاصل لوقوع مكروه أو فقد محبوب.

ومعنى ﴿لا خوف عليهم﴾ أن نفوسهم آمنة مطمئنة بحيث لا يعترها فرع، ولا يتتابها زعر، كما أن قوله: ﴿ولا هم يحزنون﴾ ينفى عنهم الاغتمام لفوات مطلوب أو فقد محبوب.

ونفى الخوف والحزن ورد فى الآية على وجه الإطلاق، وظاهره أن المهتدين لا يعترهم الخوف ولا الحزن فى دنياهم ولا فى آخرتهم، ولكن قوله - تعالى - فيما يقابله من جزاء الكافرين ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾، يرجح أن يكون المراد نفى الخوف والحزن فى الدار الآخرة.

ونفى الخوف والحزن عن المهتدين يوم القيامة كناية عن سلامتهم من العذاب وفوزهم بالنعيم الخالد في الجنة، فتمت المقابلة بين جزاء المهتدين وجزاء الكافرين المشار إليه بقوله - تعالى - :

﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ .

إذ هذه الآية الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - ﴿فمن تبع هداي﴾ . إلخ، وواردة مورد المقابل له في تفصيل أحوال من يأتيهم الهدى من الله .

ولم يقل : والذين لم يتبعوا هداي أولئك أصحاب النار . . وإنما قال : ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك . .﴾ إلخ، وذلك لأن من لم يتبع هدى الله يشمل من لم تبلغه الدعوة، وغير المكلفين مثل الصبيان وفاقدى العقل، وهؤلاء ليسوا من أصحاب النار . فظهر أن قوله : ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا . .﴾ جيء به على قدر من يستحقون الحكم عليهم بأنهم من أصحاب النار والمجازاة بالعذاب الخالد الأليم .

والآيات : جمع آية، وهى فى الأصل العلامة، وتستعمل فى الطائفة من الكتاب المنزل، وفيما يستدل به على وجود الله وتوحيده، من نحو بدائع مصنوعاته ومظاهر عنايته بالإنسان . وأضاف - سبحانه - الآيات إلى نفسه فقال : ﴿بآياتنا﴾ ليكون قبح التكذيب بها أظهر، وأتى بنون العظمة فقال (بآياتنا) دون أن يقول «بآيات» لبعث المهابة فى نفوس السامعين، وذلك أدمى إلى تلقى الوعيد باهتمام وخشية .

وأصحاب : جمع صاحب مأخوذ من الصحبة، وهى الاقتران والملازمة، ودل بقوله : ﴿هم فيها خالدون﴾ على أن صحبتهم للنار دائمة، وليست من الصحبة التى تستمر مدة ثم تنقطع . هذا جانب من قصة آدم كما حكاه القرآن فى هذه السورة، ومن الحكم التى تؤخذ منها : أن سياسة الأمم على الطريقة المثلئ إنما تقوم على أساس راسخ من العلم، وأن فضل العلم النافع فوق فضل العبادة، وأن روح الشر الخبيثة إذا طغت على نفس من النفوس، جعلتها لا ترى البراهين الساطعة، ولا يوجهها إلى الخير وعد، ولا يردعها عن الشر وعيد .

كما يستفاد منها كيف أن الرئيس يفسح المجال لمروسيه المخلصين، يجادلونه فى أمر يريد قضاءه، ولا يزيد عن أن يبين لهم وجهة نظره فى رفق، وإذا تجاوزوا حدود الأدب اللائق به راعى فى عتابهم ما عرفه فيهم من سلامة القلب، وتلقى أوامره بحسن الطاعة .

كما يؤخذ منها أن المتقلب فى نعمة يجب أن يحافظ عليها بشكر الله، ولا يعمل عملا فيه مخالفة لأوامر الله؛ لأن مخالفة أوامر الله، كثيراً ما تؤدى إلى زوال تلك النعمة، ومن أراد أن تزداد النعم بين يديه، فعليه أن يلتزم طاعة الله وشكره .

وقال بعض العلماء : وقد يتبادر إلى الذهن أن آدم قد ارتكب ما نهى عنه، ارتكاب من يتعمد المخالفة، فيكون أكله من الشجرة معصية، مع أنه من الأنبياء المرسلين، والرسول معصومون من مخالفة أوامر الله .

والجواب عن ذلك أن آدم تعمد الأكل من الشجرة، ناسياً النهى عن الأكل منها، وفعل النهى عنه على وجه النسيان لا يعد من قبيل المعاصي التي يرتكبها الشخص وهو متذكر أنه يرتكب محرماً، إذ أن ارتكاب المحرم عن علم وتذكر هو الذي يجعل مرتكبه مستحقاً للعقاب، والأنبياء معصومون من ذلك .

وإذا عاتب الله بعض الأخيار من عباده على ما صدر منهم على وجه النسيان، فلأن علمهم بالنهى يدعوهم إلى أن يقع النهى من نفوسهم موقع الاهتمام، بحيث يستفظعون مخالفته استفظاعاً يملأ نفوسهم بالنفور منها، ويجعلهم على حذر من الوقوع في بلائها . فالذى وقع من آدم - عليه السلام - هو أنه غفل عن الأخذ بالحزم في استحضار النهى وجعله نصب عينيه حتى أدركه النسيان، ففعل ما نهى عنه غير متعمد للمخالفة، قال - تعالى - :

﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً﴾ .

هذا، وبعد أن ذكر القرآن الكريم الناس جميعاً بنعم الله عليهم، ليحملهم بذلك على إخلاص العبادة له، وتصديق رسوله ﷺ فيما جاء به، ومن بين هذه النعم خلق آدم وإظهار فضله على الملائكة، بعد كل ذلك اتجه إلى تذكير طائفة خاصة من الكافرين المعاصرين للنبي ﷺ وهم بنو إسرائيل، استمالة لقلوبهم نحو الإيمان بالله، وكسرا لعنادهم ولجاجتهم، فقال - تعالى - :

يَبْنَئِ إِسْرَائِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي
أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِئْتِي فَأَرْهَبُونَ ﴿٤٠﴾ وَعَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ
مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرِينَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي
ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِئْتِي فَاتَّقُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ
وَتَكْفُرُوا بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا
الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾

وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم السلام - وفي إضافتهم إلى أبيهم إسرائيل تشريف لهم وتكريم، وحث لهم على الامتثال لأوامر الله ونواهيه، فكأنه قيل: يا بني العبد الصالح، والنبي الكريم، كونوا مثل أبيكم في الطاعة والعبادة.

ويستعمل مثل هذا التعبير في مقام الترغيب والترهيب، بناء على أن الحسنة في نفسها حسنة وهي من بيت النبوة أحسن، والسيئة في نفسها سيئة وهي من بيت النبوة أسوأ، ففي هذا النداء. خير داع لذوى الفطر السليمة منهم إلى الإقبال على ما يرد بعده من التذكير بالنعمة، واستعمالها فيما خلقت له.

ومعنى ﴿اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم﴾ تنبهوا بقولكم وقلوبكم لتلك المنافع التى أتتكم على سبيل الإحسان منى، وقوموا بحقوقها وأكثروا من الحديث عنها بألستكم، فإن التحدث بنعم الله فيه إغراء بشكرها.

والمراد بالنعمة: المنعم بها عليهم، وتجمع على نعم، وقد وردت في القرآن الكريم بمعنى الجمع كما في قوله تعالى: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ فإن لفظ العدد والإحصاء قرينة على أن المراد بالنعمة: النعم الكثيرة. ويبدو أن المراد بالنعمة في الآية التى معنا كذلك النعم المتعددة حيث إنه لم يقم دليل على أن المراد بها نعمة معهودة، وعلماء البيان يعدون استعمال المفرد فى معنى الجمع - اعتماداً على القرينة - من أبلغ الأساليب الكلامية.

ثم أمرهم - سبحانه - بالوفاء بما عاهدهم عليه، فقال تعالى: ﴿وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم﴾ العهد ما من شأنه أن يراعى ويحفظ، كاليمين والوصية وغيرهما، ويضاف إلى المعاهد والمعاهد جميعاً، يقال: أوفيت بعهدى، أى بما عاهدت غيرى عليه، وأوفيت بعهدك، أى بما عاهدتني عليه، وعهد الله: أوامره ونواهيه، والوفاء به يتأق باتباع ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، ويندرج فيه كل ما أخذ على بنى إسرائيل فى التوراة، من اتباع محمد ﷺ متى بعث، والإيمان بما جاء به من عند الله وتصديقه فيما يخبر عن ربه.

والمعنى: وأوفوا بما عاهدتمونى عليه من الإيمان بى، والطاعة لى، والتصديق برسلى، أوف بما عاهدتكم عليه من التمكين فى الأرض فى الدنيا والسعادة فى الآخرة.

ثم أمرهم - سبحانه - بأن يجعلوا خوفهم من خالقهم وحده، فقال - تعالى - : ﴿وإياى فارهبون﴾ أى: خافونى ولا تخافوا سواى، ولتكن قلوبكم عامرة بخشيتى وحدى، فإن ذلك يعينكم على طاعتى، ويبعدكم عن معصيتى.

وحذف متعلق الرهبة للعموم، أى ارهبونى فى جميع ما تأتون، وما تذررون، حتى لا أنزل

بكم من النقم مثل ما أنزلت بمن قبلكم من المسخ وغيره، فالآيات الكريمة قد تضمنت وعدًا ووعيدًا وترغيبًا وترهيبًا.

﴿وآمنوا بما أنزلت مصدقًا لما معكم﴾.

وبعد أن أمر الله - عز وجل - بني إسرائيل، أن يوفوا بعهده عمومًا أتبع ذلك بأمرهم بأن يوفوا بأمر خاص وهو القرآن الكريم، وفي التعبير عنه بذلك تعظيم لشأنه، وتقدير لأمره: وأفرد - سبحانه - أمرهم بأن يؤمنوا به مع إندراجهم في قوله - تعالى - ﴿وأوفوا بعهدى﴾ للإشارة إلى أن الوفاء بالعهد لا يحصل منهم إلا إذا صدقوا به.

والمراد بما معهم التوراة، والتعبير عنها بذلك للإشعار بعلمهم بتصديقه لها. والمعنى: آمنوا يا بني إسرائيل بالكتاب المنزل على محمد ﷺ وهو القرآن الكريم المصدق لكتابكم التوراة، ومن مظاهر هذا التصديق اشتغال دعوته على ما يحقق دعوتها، من الأمر بتوحيد الله - تعالى - والحث على التمسك بالفضائل، والبعد عن الرذائل، وإخباره بما جاء بها من الإشارة إلى بعثة النبي ﷺ، ومطابقة ما وصفته به مطابقة واضحة جلية وموافقته لها في أصول الدين الكلية، وهيئته عليها، ولذا قال - عليه الصلاة والسلام - : «لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا اتباعي»^(١).

وفي إخبار بني إسرائيل بأن القرآن الكريم مصدق لما معهم، إثارة لهممهم لو كانوا يعقلون - للإقبال عليه، متدبرين آياته، حتى تستيقن نفوسهم أنه دعوة الحق والإصلاح المؤدية إلى السعادة في الدنيا والآخرة وحتى تطمئن قلوبهم إلى أن الإيمان به معناه الإيمان بما معهم، والكفر به، كفر بما بين أيديهم، حيث إن ما بين أيديهم قد بشر ببعثة محمد - ﷺ - المنزل عليه القرآن الكريم.

قال الإمام الرازى: (وهذه الجملة الكريمة تدل على صدق النبي - ﷺ - من وجهين:

أولهما: أن الكتب السابقة قد بشرت به، وشهاداتها لا تكون إلا حقًا

وثانيهما: أنه - عليه الصلاة والسلام - قد أخبرهم عما في كتبهم بدون معرفة سابقة لها، وهذا لا يتأتى إلا عن طريق الوحي^(٢).

وبعد أن أمرهم - سبحانه - بالإيمان الخالص، عرض بهم لتكذيبهم وجحومهم، فقال - تعالى - : ﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾ أى: لا تكونوا أول فريق من أهل الكتاب يكفر بالقرآن الكريم، فيقتدى بكم أناس آخرون وبهذا تصيرون أئمة للكفر مع أن من الواجب

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنها -

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ١ ص ٤٣٠

عليكم أن تسارعوا إلى الإيمان به لأنكم أدرى الناس بأنه من عند الله، وأكثرهم علمًا بأنه الرسول الذي نزل عليه هذا القرآن، وهو الصادق الأمين فيما يبلغه عن ربه. والمقصود من هذه الجملة الكريمة، تبيكتهم على مسارعتهم في الكفر، واستعظام وقوع الجحود منهم، وتوعدهم عليه بسوء المآل.

قال الإمام الرازي: (هذه الجملة خطاب لبني إسرائيل قبل غيرهم فكأنه - سبحانه - يقول لهم: لا تكفروا بمحمد، فإنه سيكون بعدكم كفر، فلا تكونوا أنتم أولهم لأن هذه الأولية موجبة لمزيد الإثم، وذلك لأنهم إذا سُبِقوا إلى الكفر، فيما أن يقتدى بهم غيرهم أولاً، فإن اقتدى بهم غيرهم كان عليهم وزر ووزر كل كافر إلى يوم القيامة، وإن لم يقتد بهم غيرهم، اجتمع عليهم أمران: السبق إلى الكفر؛ والتفرد به وكلاهما منقصة عظيمة، وتؤدي إلى العقاب الويلة^(١)).

ثم نهاهم عن أن يبيعوا دينهم بدنياهم، فقال - تعالى - ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾. والاشتراء هنا استعارة للاستبدال، والذي استبدل به الثمن القليل هو الإيمان بالآيات، والمراد بالآيات: البراهين المؤيدة لصدق النبي ﷺ وفي مقدمتها القرآن الكريم والتوراة. والمراد بالثمن القليل: حظوظ الدنيا وشهواتها من نحو الرياسة والمال والجاه، وما إلى ذلك من الأمور التي خافوا ضياعها لو اتبعوا الرسول ﷺ.

والمعنى: لا تستبدلوا بالإيمان بما أنزلت مصداقاً لما معكم شيئاً من حطام الدنيا، ولا تختاروا على ثواب الله بديلاً من الأموال، فإنها مهما كثرت فهي قليلة مسترذلة بالنسبة لما يناله أولو الإيمان الخالص من رعاية ضافية في الدنيا، وخيرات حسان في الآخرة.

وليس وصف الثمن بالقليل من الأوصاف المخصصة للنكرات، بل هو من الأوصاف اللازمة للثمن المحصل بالآيات؛ إذ لا يكون إلا قليلاً وإن بلغ ما بلغ من أعراض الدنيا بجانب رضا الله - عز وجل -.

ونزل تمكينهم من الإيمان بالآيات لوضوحها منزلة حصوله بالفعل، فكأن الإيمان كان في حوزتهم، ولكنهم خلعوه ونبدوه، مستبدلين الذي هو أدنى بالذي هو خير؛ فباءوا بغضب على غضب لكفرهم بالقرآن الكريم وبتوراتهم التي بشرت بالرسول - عليه الصلاة والسلام -.

ثم حذرهم - سبحانه - من التمادي في الكفر بما أنزل، مصداقاً لما معهم، فقال - تعالى - ﴿وإياي فاتقون﴾ الاتقاء معناه الحذر، يقال: فلان اتقى الله أي حذر عقابه وبطشه، والحذر من

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١ ص ٤٣٢ بتصرف وتلخيص.

عقاب الله، يستلزم امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، بمعنى «إيأى فانقون» آمنوا بي، واتبعوا الحق وأعرضوا عن الباطل.

وبعد أن نهى القرآن الكريم بنى إسرائيل عن الكفر والضلال، عقب ذلك بنهيهم عن أن يعملوا لإضلال غيرهم، فقال - تعالى - : ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل، وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾.

اللبس - بفتح اللام - الخلط، وفعله : ليس، من باب : ضرب تقول : لبست عليه الأمر، ألبسه إذا مزجت بينه بمشكله، وحقه بباطله.

ولدعاة الضلالة طريقتان في إغواء الناس :

إحدهما : طريقة خلط الحق بالباطل حتى لا يتميز أحدهما عن الآخر وهي المشار إليها بقوله تعالى : ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل﴾.

والثانية : طريقة جحد الحق وإخفائه حتى لا يظهر، وهي المشار إليها بقوله تعالى : ﴿وتكتموا الحق﴾.

وقد استعمل بنو إسرائيل الطريقتين لصرف الناس عن الإسلام، فقد كان بعضهم يؤول نصوص كتبه الدالة على صدق النبي - ﷺ - تأويلاً فاسداً، يخلطون فيه الحق بالباطل، ليوهوا العامة أنه ليس هو النبي المنتظر، وكان بعضهم يلقي حول الحق الظاهر شبهاً، ليوقع ضعفاء الإيمان في حيرة وتردد، وكان بعضهم يخفي أو يحذف النصوص الدالة على صدق النبي ﷺ، والتي لا توافق أهواءهم وشهواتهم، فنهاهم الله - تعالى - عن هذه التصرفات الخبيثة.

والمعنى : ولا تخلطوا الحق الواضح الذي نطق به الكتب السماوية، وأيدته العقول السليمة، بالباطل الذي تختبرونه من عند أنفسكم، إرضاء لأهوائكم، ولا تكتموا الحق الذي تعرفونه، كما تعرفون أبناءكم، بغية انصراف الناس عنه «لأن من جهل شيئاً عاداه» ، فالنهي الأول عن التغيير والخلط، والنهي الثاني عن الكتمان والإخفاء.

وقوله تعالى : ﴿وأنتم تعلمون﴾ جملة حالية، أى وأنتم من ذوى العلم، ولا يناسب من كان كذلك أن يكتم الحق، أو يلبسه بالباطل، وإذا كان هذا الفعل - وهو لبس الحق بالباطل، أو كتمان وإظهار الباطل وحده - يعد من كبائر الذنوب، فإن وقعه يكون أقبح، وفساده أكبر، وعاقبته أشأم متى صدر من عالم فاهم، يميز بين الحق والباطل.

ففى هذه الجملة الكريمة بيان لحال بنى إسرائيل، المخاطبين بهذا النهي، وتبكييت لهم، لأنهم لم يفعلوا ما فعلوه عن جهالة، وإنما عن علم وإصرار على سلوك هذا الطريق المعوج.

قال أبو حيان في البحر: «وهذه الحال، وإن كان ظاهرها أنها قيد في النهي عن اللبس والكتم، فلا تدل بمفهومها على جواز اللبس والكتم حالة الجهل، إذ الجاهل بحال الشيء لا يدري كونه حقاً أو باطلاً، وإنما فائدتها بيان أن الإقدام على الأشياء القبيحة، مع العلم بها، أفحش من الإقدام عليها مع الجهل^(١)».

وبعد أن أمرهم - سبحانه - بأصل الدين الذي هو الإيمان به ورسوله محمد ﷺ أردفه بركنين من أركانه العملية، إذا قاموا بهما لانت قلوبهم للحق، وانعطفت نفوسهم نحو خشية الله وحده، فقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرََّاكِعِينَ﴾ والمراد بإقامة الصلاة، أداؤها مستوفية لأركانها وشرائطها وآدابها. والمراد بإيتاء الزكاة دفعها لمستحقيها كاملة غير منقوصة.

والمعنى: عليكم يا معشر اليهود أن تحافظوا على أداء الصلاة، التي هي أعظم العبادات البدنية، وعلى إيتاء الزكاة التي هي أعظم العبادات المالية، وأن تخضعوا لما يلزمكم في دين الله - تعالى - لأن في محافظتكم على هذه العبادات تطهيراً لقلوبكم، وتأليفاً لنفوسكم، وتزكية لمشاعركم، ولأنكم إن لم تحافظوا عليها كما أمركم الله - تعالى - فسيلحقكم الخزي في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

هذا، ونرى من المناسب أن نختم تفسير هذه الآيات الكريمة، وبيان ما اشتملت عليه من توجيه سليم، وتركيب بليغ، بما قاله أبو حيان في تفسيره، فقد قال - رحمه الله -:

«وفي هذه الجمل - وإن كانت معطوفات بالواو التي لا تقتضي في الوضع ترتيباً - ترتيب عجيب من الفصاحة، وبناء الكلام بعضه على بعض، وذلك أنه تعالى أمرهم أولاً بذكر النعمة التي أنعمها عليهم، إذ في ذلك ما يدعو إلى محبة المنعم ووجوب طاعته: ثم أمرهم بإيفاء العهد الذي التزموه للمنعم، ثم رغبتهم بترتيب إيفائه هو تعالى بعهدهم في الإيفاء بالعهد، ثم أمرهم بالخوف من نقمه إن لم يوفوا، فاكتنف الأمر بالإيفاء أمر بذكر النعمة والإحسان، وأمر بالخوف من العصيان. ثم أعقب ذلك بالأمر بإيمان خاص وهو ما أنزل من القرآن، ورغب في ذلك بأنه مصدق لما معهم، فليس أمراً مخالفاً لما في أيديهم، لأن الانتقال إلى الموافق أقرب من الانتقال إلى المخالف ثم نهاهم عن استبدال الخسيس بالنفيس، ثم أمرهم - تعالى - باتقائه ثم أعقب ذلك بالنهي عن لبس الحق بالباطل، وعن كتم الحق، فكان الأمر بالإيمان أمراً بترك الضلال، والنهي عن لبس الحق بالباطل، وكتمان الحق تركاً للإضلال.

(١) تفسير «البحر المحيط» لأبي حيان ج ١ ص ١٨٠، مطبعة السعادة سنة ١٣٢٧ هـ.

ولما كان الضلال ناشئاً عن أمرين :

إما تمويه الباطل حقاً، إن كانت الدلائل قد بلغت المستمع، وإما عن كتمان الدلائل إن كانت لم تبلغه، أشار إلى الأمرين بلا تلبسوا وتكتموا، ثم قبح عليهم هذين الوصفين مع وجود العلم، ثم أمرهم بعد تحصيل الإيمان، وإظهار الحق بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، لأن الصلاة أكد العبادات البدنية، والزكاة أكد العبادات المالية ثم ختم ذلك بالأمر بالانقياد والخضوع له - تعالى - مع جملة الخاضعين الطائعين.

فكان افتتاح هذه الآيات بذكر النعم واختتامها بالانقياد للمنعم، وما بينها من تكاليف اعتقادية، وأفعال بدنية ومالية، وبنحو ما تضمنته هذه الآيات من الافتتاح والإرداف والاختتام يظهر فضل كلام الله - تعالى - على سائر الكلام، وهذه الأوامر والنواهي، وإن كانت خاصة ببني إسرائيل في الصورة، إلا أنها عامة في المعنى، فيجب على كل مكلف في كل زمان ومكان أن يعمل بها^(١).

وبعد كل هذه الأوامر والنواهي، وبخهم الله - تعالى - وقرعهم على ارتكابهم لأمر لا تصدر عن عاقل. وهي أنهم يأمرون الناس بالخير ولا يفعلونه، فقال تعالى :

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ

وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٤٤)

الأمر : طلب إيجاد الفعل . والبر : اسم يتناول كل عمل من أعمال الخير . والنسيان : ضد الذكر، وهو السهو الحادث بعد حصول العلم . والعقل : يطلق على قوة في النفس، تستعد بها لقبول العلم . وإدراك الشيء .

والمعنى : كيف يليق بكم يا معشر اليهود، وأنتم تأمرون الناس بأمهات الفضائل، وألوان الخيرات، أن تنسوا أنفسكم، فلا تأتمروا بما تأمرون به غيركم، وأنتم مع ذلك تقرؤون توراتكم، وتدركون أى عقوبة أليمة لمن يأمر الناس بالخير وينسى نفسه، أفلا عقل لكم يجبسكم عن هذا السفه الذى تردبتم فيه، ويحذركم من سوء عاقبته؟

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - كان يهود المدينة يقول الرجل منهم لصهره، ولذى قرابته، ولئن بينه وبينه صلة من المسلمين أثبت على الذى أنت عليه، وما يأمرك به هذا

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ج ١ ص ١٨١ مطبعة السعادة : الطبعة الأولى سنة ١٣٣٢ هـ .

الرجل - يريدون محمدًا ﷺ - فإن أمره حق، فكانوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلونه^(١). والمراد بالنسيان في الآية الكريمة، تركهم العمل بما يأمرون به غيرهم، لأن الناس حقيقة ليس مؤاخذا على مانسيه، فلا يستحق هذا التوبيخ الشديد الوارد في الآية الكريمة، وليس التوبيخ متوجها إلى كونهم كانوا يأمرون الناس بالبر، لأنه فعل محمود، وإنما التوبيخ متوجه إلى كونهم تركوا العمل بما يرشدون إليه سواهم، فهم يداوون الناس، وقلوبهم مليئة بالأمراض والعلل.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَلُونَ الْكِتَابَ﴾ مزيد تقييح لشأنهم، ذلك أن قراءتهم لكتبهم أبطلت اعتذارهم بالجهل الذي قد يتشبث به بعض الفاسقين على أمر الله عند ما ينكر الناس عليهم فسوقهم.

وفي قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أسمى أنواع الهداية والإرشاد السليم، فإن من ألطف الأساليب في الخطاب والتوجيه، أن يكون للموجه إليه النصح منقطة من شأنها أن تسوقه إلى خير، ولكنه ينساق إلى غيره من أنواع الشرور فيقع فعله من الناس موقع الدهشة والغرابة، فيذكر له مسدى النصح تلك الصفة في معرض الاستفهام بغية تذكيره بأن ما صدر منه لا يلتقى مع ما عرف عنه.

وتطبيقاً لهذا المبدأ نقول: إن المخاطبين بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يعقلون ويدركون الأشياء، وبهذا الإدراك توجه إليهم التكليف بالعقائد والشرائع، ولكنهم لم يسيروا على مقضى مآلديهم من عقول، حيث كانوا يأمرون الناس بالخير، ويصرفون أنفسهم عنه، فكأنه - سبحانه - يقول لهم: إن ما أتيتم من أفعال سقيمة. يجعل الناظر إليكم يحكم عليكم بلا أدنى تردد بأنكم لا عقول لكم، ولا فضيلة لديكم، وفي هذا الأسلوب ما فيه من الترغيب في فعل الخير؛ والترهيب من فعل الشر.

ولما كانت الأمور التي كلفهم الله بها قبل ذلك فيها مشقة لا يتحملها كل أحد بسهولة. فقد أرشدهم إلى الوسائل التي تقوى عزائمهم، وتطهر قلوبهم، وتعالج أمراض نفوسهم فقال تعالى:

وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ
 ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٣٦٥: طبعة دار الكتب سنة ١٢٤٥ هـ (سنة ١٩٢٥ م).

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ الاستعانة: طلب المعونة، والصبر حبس النفس على ما نكره. يقال: صبر على الطاعة. أى حبس نفسه عليها متحملاً ما يلاقيه في أدائها من مشاق وصبر عن المعصية. أى كف نفسه عما تنزع إليه من أهواء.

والمعنى: واستعينوا على ترك ما تحبون من شهوات الدنيا، والدخول فيما تستثقله نفوسكم من قبول الإسلام، والتقيد بتكاليفه بفضيلة الصبر التي تحجز أنفسكم من غشيان الموبقات، وبفريضة الصلاة التي تنهاكم عن الفحشاء والمنكر.

قوله تعالى: ﴿وَإِنهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ كبيرة: أى صعبة شاقة. يقال كبر الشيء إذا شق وثقل، ومنه قوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أى ثقل وصعب - والخاشعين: من الخشوع وهو فى الأصل اللين والسهولة «ومعناه فى الآية الكريمة. الخشوع والاستكانة لله تعالى، والضمير فى - إنها - للصلاة لعظيم شأنها واستجماعها لضروب من الصبر، والاستثناء مفرغ. أى كبيرة على كل الناس إلا على الخاشعين.

والمعنى: إن الصلاة صعبة إلا على الخاضعين المخبتين المتظامنة قلوبهم وجوارحهم لله تعالى لأنهم موقنون أنها من أهم وسائل الفلاح فى الدنيا، والسعادة فى الآخرة، ولأنهم يجدون عند أدائها اغتباطاً وسروراً يجعل نفوسهم تنشط إليها كلما حل وقتها بهمة وإخلاص.

قال الإمام الرازى: «فإن قيل: إن كانت ثقيلة على هؤلاء سهلة على الخاشعين، فيجب أن يكون ثوابهم أكثر، وثواب الخاشع أقل، وذلك منكر من القول؟ قلنا: ليس المراد أن الذى يلحقهم من التعب أكثر مما يلحق الخاشع. وكيف يكون ذلك، والخاشع يستعمل فى الصلاة جوارحه وقلبه، ولا يغفل فيها؛ وإذا كان هذا فعل الخاشع فالثقل عليه يفعل الصلاة أعظم. وإنما المراد بقوله تعالى: ﴿وَإِنهَا لَكَبِيرَةٌ﴾. أى ثقيلة على غير الخاشع؛ لأنه لا يعتقد فى فعلها ثواباً، ولا فى تركها عقاباً، فيصعب عليه فعلها، فالحاصل أن الملحد لاعتقاده عدم المنفعة فى أدائها ثقل عليه فعلها، لأن الاشتغال بما لا فائدة فيه يثقل على الطبع. أما الموحد فلما اعتقد فى فعلها أعظم المنافع، وفى تركها أكبر المضار، لم يثقل عليه أداؤها. بل أداها وهو سعيد بها، ألا ترى إلى قول الرسول ﷺ: «جعلت قرعة عيني فى الصلاة» وصفها بذلك لأنها كانت لا تثقل عليه.

ثم وصف - سبحانه - الخاشعين وصفاً يناسب المقام، ويظهر وجه الاستعانة، فقال - تعالى -: ﴿الَّذِينَ يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون﴾.

الظن: يرد فى أكثر الكلام بمعنى الاعتقاد الراجح، وهو ما يتجاوز مرتبة الشك، وقد يقوى حتى يصل إلى مرتبة اليقين والقطع، وهو المراد هنا؛ ومثل ذلك قوله - تعالى - ﴿ألا يظن

أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ﴿ أى ألا يعتقد أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم . وقوله تعالى : ﴿إني ظننت أنى ملاق حساييه﴾ أى علمت أنى ملاق حساييه .

وملافة الخاشعين لربهم معناها الحشر إليه بعد الموت، ومجازاتهم على ما قدموا من عمل . والمعنى : إن الصلاة لثقيلة إلا على الخاشعين، الذين يعتقدون لقاء الله - تعالى - يوم الحساب، وأنهم عائدون إليه لينالوا ما يستحقونه من جزاء على حسب أعمالهم .

قال ابن جرير - مرجحاً أن المراد بالظن هنا العلم واليقين - : «إن قال لنا قائل : وكيف أخبر الله - تعالى - عمن قد وصفه بالخشوع له بالطاعة أنه يظن أنه ملاقيه، والظن شك، والشاك فى لقاء الله كافر؟ قيل له : إن العرب قد تسمى اليقين ظناً : والشك ظناً؛ نظير تسميتهن الظلمة سدفة . والضيء سدفة، والمغيث صارخاً، والمستغيث صارخاً، وما أشبه ذلك من الأسماء التى يسمى بها الشيء وضده، ومما يدل على أنه يسمى به اليقين، قول دريد بن الصمة : (فقلت لهم ظنوا بألفى مدجج . . .) .

يعنى بذلك : تيقنوا أن ألقى مدجج تأيكم، ثم قال : والشواهد من أشعار العرب وكلامها على أن الظن فى معنى اليقين أكثر من أن تحصى، وفيما ذكرنا لمن وفق فى فهمه كفاية، ومنه قوله تعالى : ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها﴾ وعن مجاهد قال : «كل ظن فى القرآن فهو علم»^(١) .

والذين قالوا إن الظن هنا على معناه الحقيقى، وهو الاعتقاد الراجح، فسروا «ملافة الخاشعين لربهم» بمعنى قربهم من رضاه يوم القيامة «ورجوعهم إليه» بمعنى حلولهم بجواره الطيب، واستقرارهم فى جناته، أى : وإن الصلاة لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يتوقعون قربهم من ربهم، ودخولهم جناته عند رجوعهم إليه .

وإلى هذا التفسير ذهب صاحب الكشاف، فقد قال : (فإن قلت : ما لها لم تثقل على الخاشعين والخشوع فى نفسه مما يثقل؟ قلت : لأنهم يتوقعون ما ادخر للصابرين على متاعها فتهدون عليهم . ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿الذين يظنون أنهم ملاقور ربهم﴾ أى يتوقعون لقاء ثوابه، ونيل ما عنده ويطمعون فيه)^(٢) .

وإنما كان شعور الخاشعين بذلك كله ظناً لا يقيناً، لأن خواتيم الحياة لا يعلمها كيف تكون

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٢٦٢ .

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ١٣٤ .

- سوى علام الغيوب، ففي وصفهم بأنهم ﴿يظنون﴾ إشارة إلى خوفهم، وعدم أمنهم مكر الله - تعالى - وهكذا يكون المؤمن دائماً بين الخوف والرجاء.

ومن هذا العرض لمعنى الآية الكريمة يتبين لنا، أن من فسر الظن هنا بمعنى اليقين والعلم، يرى أن لقاء الخاشعين لله معناه الحشر بعد الموت، ورجوعهم إليه معناه مجازاتهم على أعمالهم. والحشر والمجازاة يعتقد صحتها الخاشعون اعتقاداً جازماً.

أما من فسر الظن هنا بمعنى الاعتقاد الراجح، فيرى أن لقاء الخاشعين لله معناه توقعهم لقاء توابه، ورجوعهم إليه معناه ظفرهم بجناته، وتوقع الثواب والظفر بالجنات يرجح الخاشعون حصولها لأن مرجعها إلى فضل الله وحده.

والذي نراه أن الرأي الأول أكثر اتساقاً مع ظاهر معنى الآية الكريمة وبه قال قدماء المفسرين، كمجاهد وأبي العالية وغيرهما.

وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة توبيخ أحوار اليهود على نصحهم لغيرهم وتركهم لأنفسهم وإرشادهم إلى العلاج الذي يشفيهم من هذا الخلق الذميمة، ومن غيره متى استعملوه بصدق وإخلاص، وهذا العلاج يتمثل في تذرعهم بالصبر. ومدادومتهم على الصلاة، وشكرهم لله - تعالى - على نعمه التي فصلت الآيات بعد ذلك الحديث عنها، وها نحن نذكرها مرتبة كما ساقها القرآن الكريم.

أولاً: نعمة تفضيلهم على العالمين: قال - تعالى -:

يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ

عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾

أعاد القرآن الكريم نداءهم، تأكيداً لتذكيرهم بواجب الشكر، واهتماماً بمضمون الخطاب وما يشتمل عليه من أوامر ومنهيات، وتفصيلاً لما أسبغ الله عليهم من منن بعد أن أجلها في النداء الأول، ليكون التذكير أتم والتأثير أشد، والشكر عليها أرجى.

وقد جرت سنة القرآن الكريم أن يكرر الجمل المشتملة على أمور تستوجب المزيد من العناية كما في حال ذكر النعم، لأن تكرارها يغري النفوس الكريمة بطاعة مرسلها، والسير على الطريق القويم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ فَضَّلْتُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ عطف على نعمتي، أى واذكروا تفضيلي إياكم على العالمين، وهذا التفضيل نعمة خاصة، فعطفه على ﴿نعمتي﴾ من عطف الخاص على العام للعناية به، وهو - أى: التفضيل مبدأ تفصيل النعم وتعدادها، والمقصود منه الحظ على الاتصاف بما يناسب تلك النعم، ويستبقى ذلك القضل.

وقد ذكر الله - تعالى - بنى إسرائيل المعاصرين للعهد النبوى بهذه النعم مع أنها كانت لأبائهم. كما يدل عليه سياق الآيات؛ لأن النعم على الآباء نعم على الأبناء لكونهم منهم، ولأن شرف الأصول يسرى إلى الفروع، فكان التذكير بتلك النعم فيه شرف لهم، وحسن سمعة تعود عليهم، وتغريهم بالإيمان والطاعة - لو كانوا يعقلون -.

ومن مظاهر، تفضيل الله لبنى إسرائيل على عالمى زمانهم، جمعه لهم من المحامد قبل بعثة النبى ﷺ. ما لم يجمع لغيرهم. فقد حياهم بكثير من النعم، وبعث فيهم عددًا كبيراً من الأنبياء، ونجاهم من عدوهم، ولم يعجل العقوبة عليهم رغم عصيانهم واعتدائهم، واقترافهم شتى ألوان المنكرات عن تعمد وإصرار، ولم ينزل بهم قارعة تستأصلهم بذنوبهم كما استأصل غيرهم كقوم عاد وثمود.

ولكن بنى إسرائيل لم يقابلوا نعم الله بالشكر والعرفان. بل قابلوها بالجحود والطغيان فسلبها الله عنهم، ومنحها لقوم آخرين لم يكونوا أمثالهم ولقد حكى القرآن ألواناً من النعم التى منحها الله لبنى إسرائيل ولكنهم قابلوها بالبطر والكفران فأزالها الله عنهم. من ذلك قوله تعالى:

﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيْنَهُ، وَمَنْ يَدُلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(١).

أى: سل - يا محمد - بنى إسرائيل المعاصرين لك. سؤال تقرّيع وتوبيخ. كم آتاهم الله على أيدي أنبيائهم من النعم الجليلة، والمعجزات الباهرة، ولكنهم بعد أن جاءتهم هذه الآيات، وتمكنوا منها وعقلوها قابلوها بالعناد والاستهزاء، وجعلوها من أسباب ضلالهم مع أنها مسوقة لهدايتهم وسعادتهم، فكانت نتيجة ذلك أن ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة فى الدنيا، وتوعدهم بشديد العقاب فى الآخرة.

ومن الآيات التى صرحت بأن الله - تعالى - أعطى بنى إسرائيل نعمًا وفيرة، ولكنهم لم يحمّدوه عليها. قوله تعالى:

﴿ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين * من فرعون إنه كان عاليًا من المسرفين . ولقد اخترناهم على علم على العالمين * وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين﴾^(١) .

أى : ولقد نجينا بفضلنا . وكرمنا بنى إسرائيل من العذاب المهين الذى كان ينزله بهم فرعون وجنده، بأن أغرقناه . ومن معه أمام أعينهم؛ لأنه كان ظلومًا غشومًا، وفضلًا عن ذلك فقد اصطفينا بنى إسرائيل - على علم منا بما يكون منهم - على عالمى زمانهم وآتيناهم من النعم والمعجزات . ما فيه اختبار لقلوبهم، وامتحان لنفوسهم . فكانت نتيجة هذا الاختبار والامتحان أن كفروا بنعم الله، وكذبوا برسله وقتلوهم . فتوعدهم الله فى الدنيا بأن يسلط عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة . أما فى الآخرة فمأواهم جهنم وبئس المهاد .
- وأيضاً - من الآيات التى ساقنا أنواعاً من نعم الله على بنى إسرائيل ولكنهم لم يشكروه عليها قوله تعالى :

﴿ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين . وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم . إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾^(٢) .

والمعنى : ولقد آتينا بنى إسرائيل التوراة لتكون هداية لهم ومنحناهم الحكمة والفقہ فى الدين، وجعلنا النبوة فى عدد كبير منهم، ورزقناهم من طيبات الأغذية والأشربة، وفضلناهم على من غاصرهم من الأمم قبل بعثة النبى ﷺ وفضلنا عن ذلك فقد سقنا لهم على أيدى أنبيائهم الكثير من المعجزات والدلائل التى تقوى إيمانهم، وتهدىهم إلى الطريق المستقيم ولكنهم لم يتنفعوا بهذه النعم . بل جعلوا علمهم بالدين الحق سبباً للخلاف والشقاق، والسير فى طريق الضلال، وسيعاقبهم الله بما يستحقونه جزاء جحودهم وعنادهم .

والعبرة التى نستخلصها من هذه الآيات وأمثالها . أن الله - تعالى - فضل بنى إسرائيل على غيرهم من الأمم السابقة على الأمة الإسلامية . ومنحهم الكثير من النعم، ولكنهم لم يقابلوا ذلك بالشكر . بل قابلوه بالتمرد والحسد والبطر . فسلب الله عنهم ما جابهم من نعم، ووصفهم فى كتابه بأقبح الصفات وأسوأ الطباع . كقسوة القلب، ونقض العهد، والتهالك على شهوات الدنيا، والتعدى على الغير . والتحايل على استحلال محارم الله، ونبذهم للحق واتباعهم الباطل . . . إلى غير ذلك من الصفات التى توارد ذكرها فى القرآن الكريم .

(١) سورة الدخان الآيات ٣٠ - ٣٣ .

(٢) سورة الجاثية الآية ١٧ ، ١٨ .

وهذا مصير كل أمة بدلت نعمة الله كفرة؛ لأن الميزان عند الله للتقوى والعمل للصالح، وليس للجنس أو اللون أو النسب.

قال الإمام الرازي ما ملخصه : فإن قيل : إن تفضيلهم على العالمين يقتضى تفضيلهم على أمة محمد ﷺ ، وهذا باطل . فكيف الجواب ؟ قلنا : الجواب من وجوه أقربها إلى الصواب أن المراد : فضلتكم على عالمي زمانكم وذلك لأن الشخص الذى سيوجد بعد ذلك وهو الآن ليس بموجود لم يكن من جملة العالمين حال عدمه، وأمة محمد ﷺ ما كانت موجودة في ذلك الوقت، فلا يلزم من كون بني إسرائيل أفضل العالمين في ذلك الوقت . أنهم أفضل من الأمة المحمدية . وهذا هو الجواب أيضاً عن قوله - تعالى - : ﴿إِذْ جَعَلْ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ . وعن قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاكُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ (١) . وبهذا يتعين بطلان دعوى اليهود أنهم شعب الله المختار . استناداً إلى هذه الآية الكريمة وأمثالها، لأنها دعوى لا تؤيدها النصوص، ولا يشهد لها العقل السليم . ثم قال تعالى :

وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَىٰ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

بعد أن ذكروهم - سبحانه - في الآية السابقة بنعمة عظيمة من نعمه حذرهم في هذه الآية الكريمة من التقصير في العمل الصالح، وذلك لأن وصفهم بالتفضيل على عالمي زمانهم قد يحتملهم على الغرور، ويجعلهم يتوهمون أنهم مغفور لهم لو أذنبوا . فجاءت هذه الآية الكريمة لتقتلع من أذهانهم تلك الأوهام بأحكام عبارة وأجمع بيان .

والمراد باتقاء اليوم، وهو يوم القيامة، الحذر مما يحدث فيه من أهوال وعذاب، والحذر منه يكون بالتزام حدود الله - تعالى - وعدم تعديها، فهو من إطلاق الزمان على ما يقع فيه كما تقول «مكان مخيف» وتنكير النفس في الموضعين وهو في حيز النفس يفيد عموم النفوس . أى : لاتقتضى فيه نفس كائنة من كانت عن نفس أخرى شيئاً من الحقوق .

ووصف اليوم بهذا الوصف، ولم يقل «يوم القيامة» مثلاً، للإشعار بأن التصرف في ذلك اليوم لله وحده . فليس فيه ما اعتاد الناس في هذه الدنيا من دفاع بعضهم عن بعض .

(١) تفسير الرازي ج ١ ص ٣٥٥ .

والمعنى : احذروا - يا بني إسرائيل - يوماً عظيماً أمامكم، سيحصل فيه من الحساب والجزاء ما لا منجاة من هوله إلا بتقوى الله في جميع الأحوال والإخلاص له في كل الأعمال، فهو يوم لا تقضى فيه نفس مهما كان قدرها عظيماً عن نفس شيئاً ما، مهما يكن ذنباً صغيراً.

ثم وصف القرآن الكريم ذلك اليوم بوصف آخر يناسب المقام. فقال تعالى : ﴿ولا يقبل منها شفاعة﴾ الضمير في (منها) يعود إلى النفس المحاسبة في ذلك اليوم. والشفاعة : من الشفع ضد الوتر، وهى انضمام الغير إلى الشخص ليدفع عنه، أى لا يقبل منها أن تأتى يشفع ليحصل لها نفعاً، أو يدفع عنها ضرراً.

والآية الكريمة قد نفت قبول الشفاعة من أحد نفيًا مطلقاً، ولكن هنالك آيات كريمة تنفى قبول الشفاعة إلا من أذن له الرحمن في ذلك، من هذه الآيات قوله تعالى : ﴿من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه﴾^(١) وقوله تعالى : ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا﴾^(٢).

وللجمع بين هذه الآيات، تحمل الآيات التى تنفى الشفاعة نفيًا مطلقاً على أنها واردة في شأن النفوس الكافرة، وتحمل الآيات التى تبيح الشفاعة على أنها واردة في شأن المؤمنين إذا أذن الله فيها للشافعين، وقد وردت أحاديث صحيحة بلغت مبلغ التواتر المعنوي في أن النبي ﷺ ستكون له شفاعة في دفع العذاب عن أقوام المؤمنين، وتخفيفه عن أهل الكبائر من المسلمين، من ذلك ما أخرجه البخارى عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال : «أعطيت خمساً لم يعطهن نبي قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً وجعلت أمتى خير الأمم، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعث إلى الناس عامة»^(٣).

قال الإمام ابن جرير : (وهذه الآية وإن كان مخرجها عاماً في التلاوة فإن المراد بها خاص في التأويل، لتظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ. أنه قال : شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى، وأنه قال : ليس من نبي إلا وقد أعطى دعوة، وإنى خبأت دعوتى شفاعة لأمتى، وهى نائلة إن شاء الله منهم من لا يشرك بالله شيئاً. فقد تبين بذلك أن الله جل ثناؤه قد يصفح لعباده المؤمنين بشفاعة نبينا محمد ﷺ لهم عن كثير من عقوبة إجرامهم بينه وبينهم، وأن قوله ﴿ولا يقبل منها

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٥.

(٢) سور طه الآية ١٠٩.

(٣) صحيح البخارى «باب التيمم» ج ١ ص ٩١.

شفاعة ﴿﴾ إنما هي لمن مات على كفره غير تائب إلى الله - عز وجل - « هـ (١) .

ثم وصف اليوم بوصف ثالث فقال تعالى : ﴿ولا يؤخذ منها عدل﴾ .

العدل : العوض والفداء . سمي بالمصدر لأن الفادى يعدل المفدى بمثله في القيمة أو العين ويسويه به . يقال : عدل كذا بكذا : أى سواه به .

والمعنى : لا يؤخذ منها فداء أو بدل في ذلك اليوم إن هي استطاعت إحضاره على سبيل الفرض والتقدير .

ثم وصفه بوصف رابع فقال تعالى : ﴿ولا هم ينصرون﴾ والنصر هو الإعانة في الحرب وغيره بقوة الناصر ، وقدم المسند إليه لزيادة التأكيد المفيد أن انتفاء نصرهم محقق . فضلاً عما استفيد من نفي الفعل وإسناده للمجهول وجاء الضمير في قوله تعالى : ﴿ولا هم ينصرون﴾ جمعاً مع أنه عائد على النفس وهو قوله تعالى : ﴿لا تجزى نفس﴾ ؛ لأن النكرة إذا وقعت في سياق النفي تناولت كل فرد من أفرادها ، وبهذا صارت في معنى الجمع ، وصح أن يعود عليها ضمير الجمع وهو (هم) .

والمعنى . أنهم لا يجدون من يعينهم ويمنعهم من عذاب الله يوم القيامة

ولما كان اليهود يعتقدون أنهم شعب مميز ، وأن نسبتهم إلى الأنبياء ستجعلهم في مأمن من العقاب رغم عصيانهم وفسوقهم ، وأن آباءهم سيشفعون لهم . . . لما كانوا كذلك جاءت هذه الآية الكريمة لتبطل ما اعتقدوه ، وتقطع ما أمّلوه ، ولتنقض كل ما يحتمل أن يكون وسيلة للنجاة يوم القيامة سوى الإيمان والعمل الصالح .

فقد نفت الآية الكريمة وجود من ينوب عنهم بقولها ﴿لا تجزى نفس عن نفس شيئاً﴾ .

ونفت انتفاعهم بشفاعة الشافعين يوم الحساب بقولها (ولا يقبل منها شفاعة) .

ونفت قبول البديل أو الفداء عما ارتكبه من خطايا بقولها ﴿ولا يؤخذ منها عدل﴾ .

ونفت وجود من ينتصر لهم أو يدافع عنهم بقولها ﴿ولا هم ينصرون﴾

وهكذا سدت عليهم الآية الكريمة كل منفذ يتوهمون نجاتهم من عذاب الله بسببه ، ما داموا مصرين على كفرهم وجحودهم .

هذا ، وقد اشتملت هاتان الآيتان على أسلوب حكيم في التوجيه ، وطريقة فريدة في الإرشاد ، جمعت بين الترغيب والترهيب ، فإن الآية الأولى ابتدأت بندائهم باسم أبيهم

إسرائيل - عليه السلام - الذى هو أصل عزمهم، ومنشأ تفضيلهم لتحبى الشعور بالكرامة فى نفوسهم، ولتغرس الإحساس بالشرف فى مشاعرهم، ولتحملهم على الترفع عن الدنيا؛ لأن الذى يشعر أنه من منبت كريم تعاف نفسه الحقد والكذب والصغار، ثم جاءت الآية الثانية فأرشدتهم إلى أن التقوى هى سبب السلامة والفوز، وحذرنهم من أهوال يوم القيامة وأفهمتهم بأن انتسابهم إلى أولئك الآباء لن يغنى من الله شيئاً يوم الجزاء، وإنما الذى ينفعهم فى ذلك اليوم هو اتباع تعاليم الإسلام، التى أتى بها النبى - عليه الصلاة والسلام - وفى ذلك ما فيه من كبح غرورهم، وإبطال ظنونهم.

ثانياً: نعمة إنجائهم من عدوهم:

ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمة جليله الشأن، هى نعمة إنجائهم من عدوهم فقال تعالى:

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ
يَدْبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ
مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾

الآية الكريمة معطوفة على قوله تعالى: ﴿اذكروا نعمتى﴾ فى الآية السابقة، من باب عطف المفصل على المجرى: أى: اذكروا نعمتى، واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون. وإذ: بمعنى وقت، «وهى مفعول به لفعل ملاحظ فى الكلام وهو اذكروا أى: اذكروا وقت أن نجيناكم، والمراد من التذكير بالوقت تذكيرهم بما وقع فيه من أحداث. وآل الرجل: أهله وخاصته وأتباعه، ويطلق غالباً على أولى الخطر والشأن من الناس، فلا يقال آل الحجام أو الإسكاف.

وفرعون: اسم لملك مصر كما يقال لملك الروم قيصر، وملك اليمن تبع ويسومونكم: من سامه خسفاً إذا أذله واحتقره وكلفه مالا يطيق.

والابتلاء: الامتحان والاختبار، ويكون فى الخير والشر، قال - تعالى - ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ (١).

والمعنى: اذكروا يا بنى إسرائيل وقت أن نجيناكم من آل فرعون الذين كانوا يعذبونكم أشق.

(١) سورة الأنبياء الآية ٣٥.

العذاب وأصعبه، ويغنونكم ما فيه إذلال لكم واستئصال لأعقابكم، وامتهان لكرامتكم، حيث كانوا يزهقون أرواح ذكوركم، ويستبقون نفوس نسائكم، وفي ذلكم العذاب، وفي النجاة منه امتحان لكم بالسراء لتشكروا، ولتقلعوا عن السيئات التي تؤدي بكم إلى الإذلال في الدنيا، والعذاب في الأخرى.

قال الإمام الرازي - رحمه الله - ما ملخصه : واعلم أن الفائدة في ذكر هذه النعمة - أي نعمة إنجائهم من عدوهم - يتأتى من وجوه أهمها :

١ - أن هذه الأشياء التي ذكرها الله - تعالى - لما كانت من أعظم ما يمتحن به الناس من جهة الملوك والظلمة، صار تخليص الله - عز وجل - لهم من هذه المحن من أعظم النعم، وذلك لأنهم عاينوا هلاك من حاول إهلاكهم، وشاهدوا ذل من بالغ في إذلالهم، ولا شك في أن ذلك من أعظم النعم، وعظم النعمة يوجب المبالغة في الطاعة والبعد عن المعصية، لذا ذكر الله هذه النعمة العظيمة ليلزمهم الحجة، وليقطع عذرهم.

٢ - أنهم لما عرفوا أنهم كانوا في نهاية الذل. وكان عدوهم في نهاية العز، إلا أنهم كانوا محقين، وكان خصمهم مبطلا، لا جرم زال ذل المحقين، وبطل عز المبطلين، فكأنه تعالى يقول لهم : لا تغتروا بكثرة أموالكم ولا بقوة مركزكم، ولا تستهينوا بالمسلمين لقلّة ذات يدهم، فإن الحق إلى جانبهم. ومن كان الحق إلى جانبه، فإن العاقبة لا بد أن تكون له (١).

وخوذب بهذه النعمة اليهود الذين كانوا في زمن النبي ﷺ ومع أن هذا الإتجاه كان لأسلافهم، لأن في نجاة أسلافهم نجاة لهم، فإنه لو استمر عذاب فرعون للأبء لأفناهم، ولما بقي هؤلاء الأبناء، فلذلك كانت منة التنجية تحمل في طياتها منتين، منة على السلف لتخليصهم مما كانوا فيه من عذاب ومنة على الخلف لتمتعهم بالحياة بسببها، فكان من الواجب عليهم جميعاً أن يقدرُوا هذه النعمة قدرها، وأن يخلصوا العبادة لخالقهم الذي أنجاهم من عدوهم. ولأن الإنعام على أمة يعتبر إنعاماً شاملاً لأفرادها سواء منهم من أصابه ذلك الإنعام ومن لم يصبه. ولأن الآثار التي تترتب عليه كثيراً ما يرثها الخلف عن السلف، ولأن في إخبارهم بذلك تصديقاً للنبي - عليه الصلاة والسلام - فيما يبلغه عن ربه، فقد أخبرهم بتاريخ من مضى منهم بصدق وأمانة، وفي ذلك دليل على أنه صادق في نبوته ورسالته.

وجعلت النجاة هنا من آل فرعون ولم تجعل منه، مع أنه الأمر بتعذيب بني إسرائيل، للتنبيه على أن حاشيته وبطائه كانت عوناً له في إذقتهم سوء العذاب، وإنزال الإذلال والاعنات بهم.

(١) تفسير الرازي ج ١ ص ٣٦٠.

وجعلت الآية الكريمة استحياء النساء عقوبة لليهود - وهو في ظاهره خير - لأن هذا الإبقاء عليهن، كان المقصود منه الاعتداء على أعراضهن واستعمالهن في الخدمة بالاسترقاق. فبقاؤهن كذلك بقاء ذليل وعذاب أليم، تأباه النفوس الكريمة، والطباع الطيبة.

قال الإمام الرازي ما ملخصه: (في ذبح الذكور دون الإناث مضرة من وجوه: أحدها: أن ذبح الأبناء يقتضى فناء الرجال، وذلك يقتضى انقطاع النسل، لأن النساء إذا انفردن فلا تأثيرهن البتة في ذلك، وهذا يقضى في نهاية الأمر إلى هلاك الرجال والنساء جميعاً.

ثانيها: أن هلاك الرجال يقتضى فساد مصالح النساء في أمر المعيشة، فإن المرأة لتتمنى الموت إذا انقطع عنها تعهد الرجال. لما قد تقع فيه من نكد العيش بالانفراد. فصارت هذه الخطة عظيمة في المحن، والنجاة منها تكون في العظم بحسبها.

ثالثها: أن قتل الولد عقب الحمل الطويل، وتحمل التعب، والرجاء القوي في الانتفاع به، من أعظم العذاب، فنعمة الله في تخليصهم من هذه المحنة كبيرة.

رابعها: أن بقاء النساء بدون الذكران من أقاربهم، يؤدي إلى صيرورتهن مستفرشات الأعداء وذلك نهاية الذل والهوان^(١).

وقد رجح كثير من المفسرين أن المراد بالأبناء في قوله تعالى: ﴿يَذْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ الأطفال دون البالغين، لأن اللفظ من حيث وضعه يفيد ذلك، ولأن قتل جميع الرجال لا يفيدهم حيث أنهم كانوا يستعملونهم في الأعمال الشاقة والحقيرة، ولأنه لو كان المقصود بالذبح الرجال، لما قامت أم موسى بإلقائه في اليم وهو طفل صغير لتنجيه من الذبح.

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالأبناء الرجال لا الأطفال، لأن لفظ الأبناء هنا جعل في مقابلة النساء، والنساء هن البالغات.

والذى نرجحه هو القول الأول لما ذكرنا، ولأنه أتم في إظهار نعمة الإنجاء، حيث كان أهل فرعون يقتلون الصغار قطعاً للنسل، ويسترقون الأمهات استعباداً لهن، ويبقون الرجال للخدمة حتى ينقرضوا على سبيل التدرج، وبقاء الرجال على هذه الحالة أشد عليهم من الموت.

وقد جاءت جملة ﴿يَذْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ في هذه الآية الكريمة بدون عطف وجاءت في سورة إبراهيم معطوفة بالواو^(١). لأنها هنا بيان وتفسير لجملة ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ فيكون

(١) تفسير الفخر الرازي ج١ ص ٣٥٨.

(٢) آية سورة إبراهيم هي قوله تعالى: ﴿وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾.

المراد من سوء العذاب هنا تذبيح الأبناء واستحياء النساء .

وأما في سورة إبراهيم . فقد جاء سياق الآيات لتعداد المحن التي حلت ببني إسرائيل ، فكان المراد بجملة ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ نوعاً منه ، والمراد بجملة ﴿ويذبحون أبناءكم﴾ نوعاً آخر من العذاب ، لذا وجب العطف ، لأن الجملة الثانية ليست مفسرة للأولى وإنما هي تمثل نوعاً آخر من المحن التي حلت بهم .

هذا ، وقد تكرر تذكير بني إسرائيل بنعمة إنجائهم من عدوهم في مواضع متعددة من القرآن الكريم ، وذلك لجلال شأنها ، ولحملهم على الطاعة والشكر .

١ - من ذلك قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾^(١) .

٢ - وقوله تعالى في سورة طه : ﴿يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى * كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ، ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى * وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾^(٢) .

فهذه الآيات الكريمة وغيرها مما هي في معناها فيها تذكير لبني إسرائيل بنعمة من أجل نعم الله عليهم ، حيث أنجاهم - سبحانه - ممن أراد لهم السوء ، وعمل على قتلهم وإبادتهم واستئصال شأفتهم ، وفي ذلك ما يدعوهم إلى الاجتهاد في شكر الله - عز وجل - لو كانوا ممن يحسنون شكر النعم .

ثالثاً : نعمة فرق البحر بهم .

ثم ذكرهم - سبحانه - بعد ذلك بنعمة ثالثة عظيمة حصل بها تمام الانجاء ونجلى فيها إكرام الله لهم ، وهي نعمة فرق البحر بهم فقال تعالى :

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ

وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ

والمعنى : واذكروا يا بني إسرائيل من جملة نعمنا عليكم ، نعمة فرق البحر بكم ، وانفصاله بعد اتصاله ، حين ضربه موسى بعصاه ، فأصبحت فيه طريق يابسة فوجدتموها ، وسرتم فيها

هرباً من فرعون وجنده؟ بذلك تمت لكم النجاة، وحصل الغرق لأعدائكم، وقت أن عبروا وراءكم وقد شاهدتموهم والبحر يلفهم بأمواجه، مشاهدة لا لبس فيها ولا غموض. ولقد كان فيما رأيتم ما يدعو إلى الاتعاض، ويحمل على الشكر الجزيل لله العزيز الرحيم.

فالأية الكريمة تشير إلى قصة نجاة بنى إسرائيل وغرق فرعون وقومه، وملخصها:

أن الله - عز وجل أوحى إلى نبيه - موسى - عليه السلام - أن يرحل بنى إسرائيل ليلاً من أرض مصر التي طال عذابهم فيها إلى أرض فلسطين، ونفذ موسى - عليه السلام - ما أمره به الله - تعالى - وعلم فرعون أن موسى وقومه قد خرجوا إلى أرض الشام، فتبعهم بجيش كبير، وأدركهم مع طلوع الشمس قرب ساحل البحر الأحمر، وأيقن بنو إسرائيل عندما رأوه أنه مهلكهم لا محالة. ولجأوا إلى موسى - عليه السلام - يشكون إليه خوفهم وفزعهم، ولكنه رد عليهم بقوله: ﴿إن معي رب سيهدين﴾ وأوحى الله إليه ﴿أن اضرب بعصاك البحر﴾ فضربه ﴿فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم﴾ وأمر موسى - عليه السلام - بنى إسرائيل أن يعبروا فعبروا بين فرقى الماء دون أن يمسهم أذى. واقتفى فرعون وجنوده أثرهم طمعاً في إدراكهم وعندما عبر بنو إسرائيل البحر ولم يبق منهم أحد بين المياه المنحسرة، كان فرعون وجنده ما زالوا بين فرقى البحر، فاطبق عليهم وعام كما كان أولاً، فغرقوا جميعاً، وبنو إسرائيل ينظرون إليهم في دهشة وسرور.

وأسند - سبحانه - فرق البحر إلى ذاته الكريمة. ليدل على أن القوم عبروه وقطعوه وهم بعنايته، وقوله تعالى: ﴿فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون﴾ بيان للمنة العظمى التي امتن بها عليهم، والتي ترتبت على فرق البحر، لأن فرق البحر لهم ترتب عليه أمران.

أولهما: نجاتهم.

وثانيهما: إهلاك عدوهم وكلاهما نعمة عظيمة.

والإيمان الصحيح يقضى بأن تفهم واقعة انفصال البحر لموسى وقومه على أنها معجزة كونية له، وقد زعم البعض أنها كانت حادثة طبيعية منشؤها المد والجزر، وهو زعم لا سند له ولا دليل عليه.

واقصرت الآية هنا على ذكر إغراق آل فرعون أى جنده وأنصاره، وصرحت آيات أخرى بغرقه مع آله، من ذلك قوله تعالى: ﴿فأغرقناه ومن معه جميعاً﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿فأخذناه

وجنوده فنبذناهم في اليم وهو ملهم ﴿١﴾ ومن تمام النعمة أن الله - تعالى - أهلك مع فرعون كل مناصر له :

وقوله تعالى ﴿وأنتم تنظرون﴾ أى : أغرقنا آل فرعون وأنتم تشاهدونهم بأعينكم ، فكان ذلك ادعى لليقين بهلاك عدوكم ، وأبلغ في الشماتة به ، وأرجى لشكر النعمة - ولا شك أن مشاهدة المنعم عليه للنعمة فيها لذة كبرى ، ورؤيته لهلاك عدوه فيها عبرة عظيمة ، ومعابته لا نفراق البحر فيها تقوية لإيمانه ، وتثبيت ليقينه ، إذا كانوا ممن يحسنون الانتفاع بما يشاهدون .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : (اعلم أن هذه الواقعة - أى واقعة فلق البحر - تضمنت نعمًا كثيرة على بنى إسرائيل في الدين والدنيا ، أما نعم الدنيا فمن وجوه :

أولها : أنهم لما اقتربوا من البحر أصبحوا في موقف حرج ، لأن فرعون وجنوده من ورائهم والبحر من أمامهم ، فإن هم توقفوا أدركهم عدوهم وأهلكهم ، وإن هم تقدموا أغرقوا . فحصل لهم خوف عظيم ، جاءهم بعده الفرج بانفلاق البحر وهلاك عدوهم .

ثانيها : أن الله - تعالى - خصهم بهذه النعمة العظيمة والمعجزة الباهرة تكريمًا ورعاية لهم .

ثالثها : أنهم بإغراق فرعون وآله تخلصوا من العذاب ، وتم لهم الأمن والاطمئنان ، وذلك نعمة عظيمة ، لأنهم لو نجوا دون هلاك فرعون لبقى خوفهم على حاله ، فقد يعود لتعذيبهم مستقبلاً ، لأنهم لا يأمنون شره ، فلما تم الغرق تم الأمان والاطمئنان لبنى إسرائيل .

أما نعم الدين فمن وجوه :

أولها : أن قوم موسى لما شاهدوا تلك المعجزة الباهرة . زالت عن قلوبهم الشكوك والشبهات ، لأن دلالة مثل هذا المعجز على وجود الصانع الحكيم وعلى صدق موسى ، تقترب من العلم الضرورى .

ثانيها : أنهم لما شاهدوا ذلك صار داعيًا لهم على الثبات والانقياد لأوامر نبيهم .

ثالثها : أنهم عرفوا أن الأمور كلها بيد الله ، فإنه لا عز في الدنيا أكمل مما كان لفرعون ، ولا ذل أشد مما كان لبنى إسرائيل ، ثم إن الله - تعالى - في لحظة واحدة جعل العزيز ذليلاً ، والذليل عزيزاً ، والقوى ضعيفاً ، والضعيف قوياً ، وذلك يوجب انقطاع القلب عن علائق الدنيا ، والإقبال كلية على اتباع أوامر الخالق - عز وجل - (٢) .

هذا ، ونعمة فرق البحر لبنى إسرائيل ، وإنجائهم من عدوهم قد تكرر ذكرها في القرآن ،

(١) سورة الذاريات الآية ٤٠ .

(٢) تفسير الرازى بتصريف ج ١ ص ٣٦٠ .

من ذلك قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿فلما تراء الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون. قال كلا إن معي ربي سيهدين. فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم. وأزلفنا ثم الآخرين. وأنجينا موسى ومن معه أجمعين. ثم أغرقنا الآخرين﴾ (١)

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ذكرت بنى إسرائيل بنعمة من أجل النعم - وهي نعمة فرق البحر بهم - لكي يشكروا خالقهم عليها، ويتبعوا نبيه محمداً ﷺ ولكنهم ما قاموا بواجب الشكر لخالقهم، فحقت عليهم اللعنة في الدنيا والعقوبة في الآخرة، جزاء جحودهم وطغيانهم وما ربك بظلام للعبيد.

رابعاً: نعمة عفوه - سبحانه - عنهم بعد عبادتهم للعجل:

ثم ذكروهم - سبحانه - بعد ذلك بنعمة رابعة وهي عفوه عنهم رغم جحودهم وكفرهم وعبادتهم لغيره، فقال تعالى:

وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ

أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ

﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾

المواعدة: مفاعلة من الجانبين، وهي هنا على غير بابها، لأن المراد بها هنا أمر الله - تعالى - لموسى أن ينقطع لمناجاته أربعين ليلة تمهيداً لإعطائه التوراة، ويؤيد ذلك قراءة أبي عمرو وأبي جعفر (وعدنا). وقيل: المفاعلة على بابها، على معنى أن الله - تعالى - وعد نبيه موسى - عليه السلام - أن يعطيه التوراة وأمره بالحضور للمناجاة، فوعد موسى ربه بالطاعة والامتثال فكان الوعد حاصلًا من الطرفين.

وملخص هذه القصة أن قوم موسى بعد أن نجاهم الله، وأغرق عدوهم أمام أعينهم، طلبوا من نبيهم موسى أن يأتيهم بكتاب من عند الله ليعملوا بأحكامه، فوعده - سبحانه - أن يعطيه التوراة بعد أربعين ليلة ينقطع فيها لمناجاته، وبعد انقضاء تلك الفترة وذهاب موسى لتلقى التوراة من ربه اتخذ بنو إسرائيل عجلاً جسداً له خوار فعبدوه من دون الله، وأعلم الله موسى

بما كان من قومه بعد فراقه، فرجع إليهم غاضباً حزيناً، وأعلمهم بأن توبتهم لن تكون مقبولة إلا بقتل أنفسهم، فلما فعلوا ذلك عفا الله تعالى عنهم لكي يشكروه، ويلتزموا الصراط المستقيم.

ومعنى الآيتين الكريميتين: واذكروا يا بنى إسرائيل وقت أن وعدنا موسى أن نؤتيه التوراة بعد انقضاء أربعين ليلة من هذا الوعد، فلما حل الوعد وجاء موسى لميقاتنا عبدتم العجل في غيبته، ولا شك أنكم ظلمتم أنفسكم بعبادة غير الله، ويوضعكم الأمور في غير مواضعها، ومع هذا فلم نعاجلكم بالعقوبة، بل قبلنا توبتكم، وعفونا عنكم، لتكونوا من الشاكرين لله تعالى.

وهذا التذكير يحمل في طياته التعجب من حالهم، لأنهم قابلوا نعم الله بأقبح أنواع الكفر والجهالة، حيث عبدوا في غيبة نبيهم ما هو مثال في الغباوة والبلادة وهو العجل.

وفي اختيار حرف العطف (ثم) المفيد للتراخي الرتبي في جملة ﴿ثم اتخذتم العجل من بعده﴾ إشعار بأنهم انحدروا إلى دركات سحيقة من الجحود والجهل، وأن ما ارتكبه هو من عظام الأمور في القبح والمعصية وحذف المفعول الثاني لاتخاذتم وهو «إلهاً أو معبوداً لشناعة ذكره ولعلمهم بأنهم اتخذوه إلهاً».

وقوله تعالى: ﴿من بعده﴾ معناه: من بعد مضيه لميقات ربه إلى الطور وغيابه عنهم. وفي ذلك زيادة تشنيع عليهم، حيث وصفهم - سبحانه - بعدم الوفاء، لأنهم كان من الواجب عليهم - لو كانوا يعقلون - أن يستمروا على توحيد الله في غيبة نبيهم لاسيما وقد رأوا من المعجزات والنعم، ما يطمئن النفوس، ويقوى الإيمان ويغرس في القلوب الطاعة لله تعالى. وجملة ﴿وأنتم ظالمون﴾ حالية مقيدة لاتخاذتم، ليكون اتخاذهم العجل معبوداً، مقروناً بالتعدى والظلم من بدئه إلى نهايته، وللإشعار بانقطاع عذرهم فيما فعلوا.

وقوله تعالى ﴿ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون﴾ معناه ثم تركنا معاجلتكم بالعقوبة، ومحونا ذنوبكم، لتوبتكم من بعد اتخاذكم العجل معبوداً من دون الله، رجاء أن تشكروا خالقكم على عفوه عنكم وتستعملوا نعمه فيما خلقت له وتبعوا رسوله ﷺ.

وقد تضمنت هاتان الآيتان الكريمتان، ما يدل على غياب بنى إسرائيل وقصر نظرهم. لأنهم اتخذوا العجل إلهاً بعد أن شاهدوا البراهين على صدق نبيهم، كما تضمنتا تسليية للرسول ﷺ عما كان يشاهده من اليهود المعاصرين للدعوة الإسلامية، فكأنه سبحانه يقول: إن ما قام به بنو إسرائيل المعاصرون لك من أذى وحقد قد فعل ما يشبهه آباؤهم الأقدمون مع نبيهم موسى - عليه السلام - فلقد اتخذوا في غيبته عجلاً جسداً له خوار دون أن يفتنوا إلى أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً، اتخذوه وكانوا ظالمين.

خامسا: نعمة إيتاء موسى التوراة هدايتهم.

ثم ذكرهم - سبحانه - بتعمة خامسة فيها صلاح أمورهم، وانتظام شئونهم ألا وهى إعطاء نبيهم موسى - عليه السلام - التوراة، فقال تعالى:

وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾

ومعنى الآية الكريمة: اذكروا بابنى إسرائيل نعمة إعطاء نبيكم موسى - عليه السلام - التوراة، وفيها الشرائع والأحكام، لكى تهتدوا بها إلى طريق القلاح والرشاد فى الدنيا، وإلى الفوز بالسعادة فى الآخرة.

فلمراد بالكتاب التوراة التى أوتيتها موسى - عليه السلام - قال للعهد.

والفرقان - بضم الفاء - مأخوذ من الفرق وهو الفصل، استعير لتمييز الحق من الباطل؛ وقد يطلق لفظ الفرقان على الكتاب السماوى المنزل من عند الله كما فى قوله تعالى ﴿تبارك الذى نزل الفرقان على عبده﴾^(١) كما يطلق على المعجزة كما فى قوله تعالى ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان﴾^(٢) أى المعجزات لأن هارون لم يؤت وحياً.

والمراد بالفرقان هنا التوراة نفسها ويكون المراد بالعطف التفسير.

قال ابن جرير ما ملخصه: (وأولى الأقوال بتأويل الآية ما روى عن ابن عباس وأبى العالية ومجاهد، من أن الفرقان الذى ذكر الله تعالى أنه آتاه موسى فى هذا الموضع، هو الكتاب الذى فرق به بين الحق والباطل وهو نعت للتوراة وصفة لها، فىكون تأويل الآية حينئذ.

وإذ آتينا موسى التوراة التى كتبناها له فى الألواح، وفرقنا بها بين الحق والباطل. فىكون الكتاب نعتاً للتوراة، أقيم مقامها استغناء به عن ذكر التوراة ثم عطف عليه بالفرقان، إذ كان من نعتها)^(٣).

وقوله تعالى: ﴿لعلكم تهتدون﴾ بيان لثمرة المنة والنعمة بإيتاء التوراة؛ لأن إيتان موسى الكتاب والفرقان، المقصود منه هدايتهم، وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

ولكن ماذا كان موقف بنى إسرائيل من التوراة التى أنزلها الله هدايتهم وسعادتهم؟ كان

(١) سورة الفرقان الآية ١.

(٢) سورة الأنبياء الآية ٤٨.

(٣) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٢٨٥ طبعة الحلبي.

موقفهم منها - كما هي عادتهم - موقف الجاحد لنعم الله فقد امتدت أيديهم الأثيمة إليها فحرفوها كما شاءت لهم أهواؤهم وشهواتهم ولقد وبخهم القرآن الكريم على ذلك، وشبههم في تركهم العمل بها وعدم انتفاعهم بما فيها، بالحمار الذى يحمل كتب العلم ولكنه لا يدري ما فيها.

فقال تعالى في سورة الجمعة: ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا. بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله. والله لا يهدي القوم الظالمين﴾^(١).

حملوا التوراة: أى علموها وكلفوا العمل بها، ثم لم يحملوها: أى: لم يعملوا بها ولم ينتفعوا بما اشتملت عليه. والأسفار: جمع سفر وهو الكتاب الكبير، لأنه يسفر عن المعنى إذا قرئ.

ومعنى الآية الكريمة: مثل هؤلاء اليهود الذين علموا التوراة وكلفوا العمل بأحكامها ولكنهم لم يعملوا بها، مثلهم كمثل الحمار يحمل الكتب ولكنه لا يدري ما فيها، ولا يناله من حملها إلا التعب، بئس مثلاً مثل هؤلاء اليهود الذين كذبوا بآيات الله التى تشهد بصدق النبى ﷺ، وتذرى صفاته التى لا تنطبق إلا عليه، وقد جرت سنة الله - تعالى - فى خلقه ألا يهدى إلى طريق الحق أمثال هؤلاء القوم الظالمين، لأنهم استحيوا العمى على الهدى، وباعوا دينهم بدنياهم.

قال صاحب الكشاف: «شبه الله - تعالى - اليهود فى أنهم حمله التوراة وقراؤها، وحفاظ ما فيها ثم إنهم غير عاملين بها، ولا منتفعين بآياتها وذلك أن فيها نعت رسول الله ﷺ والبشارة به، ولم يؤمنوا به - شبههم بالحمار يحمل أسفارا، أى: كتباً كباراً من كتب العلم، فهو يمشى بها ولا يدري منها إلا ما يمر بجنبه وظهره من الكد والتعب، وكل من علم ولم يعمل، فهذا مثله وبئس المثل»^(٢).

وقال الإمام ابن القيم: «شبه الله - تعالى - من حمله كتابه ليؤمن به ويتدبره ويعمل به ويدعو إليه، ثم خالف ذلك، ولم يحمله إلا على ظهر قلب، فقراءته بغير تدبر ولا تفهم ولا اتباع له، ولا تحكيم لنصوصه - شبهه - بحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدري ما فيها، وحظه منها حملها على ظهره ليس إلا، فحظه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التى على ظهره، فهذا المثل، وإن كان قد ضرب لليهود، فهو متناول من حيث المعنى، لمن حمل القرآن فنرك العمل به ولم يؤد حقه، ولم برعه حق رعايته»^(٣).

(١) الآية ٥.

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٧٥.

(٣) أعلام الموقعين لابن القيم (نقلا عن تفسير القاسمى) ج ١٦ ص ٨٥.

ومن هذا نرى أن اليهود قد أنعم الله عليهم بالتوراة، وجعلها نوراً وهدى لهم، ولكنهم تركوها، ولم يعملوا بما فيها، واستحبوا العمى على الهدى، ﴿فبأءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين﴾.

سادساً: (نعمة إرشادهم إلى ما به يتخلصون من ذنوبهم):

ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمة جليلة، وهي إرشادهم إلى ما به يتخلصون من ذنوبهم، وإخبارهم بقبول توبتهم، فقال تعالى:

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَلْقَوْنِي بِكُفْرَانٍ ۚ لَمَّا بَدَأْتُمْ أَنْ تَبْنُوا ظُلُمَاتٍ تَهْدِيكُمْ السَّبِيلَ ۚ وَأَخْبَرْتُمْ أَنَّكُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ ۗ وَذَكَرْنَا عِلْمَ رَبِّكُمْ لِلَّذِينَ اسْتَفْتَيْنَاهُمُ لَقَدْ كُنْتُمْ أَفْوَاجًا لَا هُدًى لَّكُمْ ۗ فَتَوْبَتُهُمْ أَنَّ يَلْقَوْا رَبَّهُمْ بِالْخَيْرِ وَالْخَيْرُ الْعَجَلُ ۗ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٥٤﴾

والمعنى: واذكروا يا بني إسرائيل - لتتفجعوا وتعتبروا - وقت أن قال موسى لقومه الذين عبدوا العجل حين كان يناجى ربه بعيداً عنهم: يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم وهبطتم بها إلى الحضيض بعبادتكم غير الله - تعالى - فإذا أردتم التكفير عن خطاياكم. فتوبوا إلى ربكم توبة صادقة نصحاً، واقتلوا أنفسكم لتنالوا عفو ربكم، فذلكم خير لكم عند خالقكم من الإقامة على المعصية، ففعلتم ذلك فقبل الله توبتكم؛ لأنه هو الذى يقبل التوبة عن عباده على كثرة ما يصدر عنهم من ذنوب؛ لأنه هو الواسع الرحمة لمن ينيب إليه ويستقيم على صراطه الواضح.

وفي نداء موسى - عليه السلام - لهم بقوله: «يا قوم» تلطف في الخطاب ليجذب قلوبهم إلى سماعه، وليحملهم على تلقى أوامره بحسن الطاعة، وليشعرهم بأنهم قومه فهو منهم وهم منه، والشأن فيمن كان كذلك ألا يكذب عليهم أو يخدعهم، وإنما يريد لهم الخير.

والبارئ هو الخالق للمخلوقات بدون تفاوت أو اضطراب، فهو أخص من الخالق، ولذا قال تعالى: ﴿هو الخالق البارئ المصور﴾.

وفي هذا التعبير الحكيم، تحريض لهم على التوبة والاستجابة للبارئ الذى أحسن كل شئ خلقه، وفيه أيضاً تفرغ لهم على غباوتهم، حيث تركوا عبادة بديع السموات والأرض، وعبدوا عجلاً ضرب به المثل في الغباوة فقالوا «أبلد من ثور» فكانه - سبحانه - يقول لهم: لقد اتخذتم هذا العجل لها لتشابهكم معه في البلادة وضيق الأفق.

قال صاحب الكشاف: «فإن قلت: من أين اختص هذا الموضع بذكر البارئ؟ قلت: البارئ هو الذى خلق الخلق بريئاً من التفاوت، ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ وبتمييزاً بعضه عن بعض بالأشكال المختلفة والصور المتباينة، فكان فيه تفرع بما كان منهم من ترك عبادة العالم الحكيم الذى برأهم بلطف حكمته على الأشكال المختلفة، أبرياء من التفاوت والتنافر إلى عبادة البقر التى هى مثل فى العباوة والبلادة، حتى عرضوا أنفسهم لسخط الله ونزول أمره بأن يفك ما ركبه من خلقهم، ونثر ما نظم من صورهم وأشكالهم، حين لم يشكروا النعمة فى ذلك، وغمطوها بعبادة مالا يقدر على شئ منها» هـ^(١).

وقوله تعالى: ﴿فاقتلوا أنفسكم﴾ أمر من موسى - عليه السلام - لهم بقتلهم أنفسهم حتى تكون توبتهم مقبولة، وهذا الأمر بلغه موسى إياهم عن ربه، إذ مثل هذا الأمر لا يصدر إلا عن وحى لأنه تشريع من الله - تعالى -.

والمراد بقتلهم أنفسهم أن يقتل من لم يعبد العجل منهم عابديه، فيكون المعنى: ليقتل بعضهم بعضاً، كما فى قوله تعالى: ﴿فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة﴾ أى فليسلم بعضهم على بعض.

وقيل: المراد أن يقتل كل من عبد العجل نفسه قتلاً حقيقياً حتى يكفر عن رده بعبادته لغير الله، وقد ورد أنهم فعلوا ذلك، وأن الله - تعالى - رفع عنهم القتل وعفا عن بقى منهم على قيد الحياة كرماً منه وفضلاً، وهذا هو معنى التوبة فى قوله تعالى «فتاب عليكم»، ومعنى العفو فى قوله تعالى: فى الآية السابقة ﴿ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون﴾.

وقد ساق ابن كثير وغيره من المفسرين كثيراً من الآثار التى تحدثت عن كيفية حصول هذا القتل، من ذلك ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، أنه قال: «قال تعالى لموسى: إن توبة عبدة العجل أن يقتل كل واحد منهم من لقى من والد وولد فيقتله بالسيف ولا يبالي من قتل فى ذلك الموطن فتاب أولئك الذين كانوا خفى على موسى وهارون، ما اطلع الله على ذنوبهم فاعترفوا بها. وفعلوا ما أمروا به، فغفر الله للقاتل والمقتول»^(٢).

وأخرج ابن جرير عن ابن شهاب الزهري أنه قال: «لما أمر بنو إسرائيل بقتل أنفسهم برزوا ومعهم موسى، فتضاربوا بالسيف، وتطاعنوا بالخنجر وموسى رافع يديه، حتى إذا فتروا أتاه بعضهم، فقال له: يا نبى الله ادع الله لنا، وأخذوا بعضديه يشدون يديه. فلم يزل أمرهم على

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ١٤٠.

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٩٢.

ذلك حتى إذا قبل الله توبتهم قبض أيدي بعضهم عن بعض، فألقوا السلاح، وحزن موسى وبنو إسرائيل للذي كان من القتل فيهم، فأوحى الله - جل ثناؤه - إلى موسى ﴿لا تحزن﴾ أما من قتل فحى عندي يرزق، وأما من بقى، فقد قبلت توبته، فسر بذلك موسى وبنو إسرائيل^(١).

وجملة ﴿ذلكم خير لكم عند بارئكم﴾ تعليلية، جىء بها لتحريضهم على الامتثال والطاعة لما أمرهم به نبيهم - عليه السلام - واسم الإشارة ﴿ذلكم﴾ يعود إلى التوبة والقتل المفهومين مما تقدم.

وقال ﴿عند بارئكم﴾ ولم يقل عنده، لأن في هذا التكرير حملا للمخاطبين على التفكير والتذكير والطاعة، وإشعاراً لهم بأن عبادة من برأهم وذراهم وخلقهم في أحسن تقويم، خير لهم في دنياهم وأخراهم.

وجملة ﴿فتاب عليكم﴾ جواب لشرط محذوف للإيجار، أى فامتثلتم ما أمرتم به، فقبل البارى توبتكم، وهى خطاب من الله - تعالى - لبنى إسرائيل على لسان موسى، فيه تذكير بنعمته، وإرشاد لهم إلى موطن المنة والفضل وهو قبول توبتهم.

وعطفت هذه الجملة ﴿فتاب عليكم﴾ بالفاء، لإشعارهم بأنه - سبحانه - لم يتركهم ليستأصلبوا أنفسهم جميعاً بالقتل، بل تداركهم بلطفه ورحمته، فقبل توبتهم، ورفع عقوبة القتل عن بقى منهم.

وقوله تعالى: ﴿إنه هو التواب الرحيم﴾ إخبار وثناء على الله - تعالى - بما هو أهله من عفو ورحمة. وأكدها - سبحانه - لتزيلهم منزلة من يشك في قبول توبته، لعظم جرميتهم وضخامة خطيئتهم وسيرهم إلى أمد بعيد في طريق الشيطان.

وهذه الآية الكريمة قد تضمنت نعمة كبرى على بنى إسرائيل فإن الله - تعالى - لطف بهم، ورحمهم، وقبل توبتهم، وعفا عن قتلهم أنفسهم، بعد أن صدر منهم ما يدل على صدقهم في توبتهم، كما تضمنت - أيضاً - تذكير بنى إسرائيل المعاصرين للعهد النبوى بنعم الله عليهم، لأنه لولا عفوهم - سبحانه - عن آبائهم لما وجدوا هم، وفيها - كذلك - إشارة إلى سماحة الشريعة التى أتى بها محمد ﷺ وإغراء لليهود المعاصرين له بالدخول في الإسلام لأنه إذا كان آبائهم لم تقبل توبتهم إلا بقتلهم أنفسهم فإن شريعة الإسلام تقول لهم: لقد جاءكم النبى الذى رفع عنكم إصركم والأغلال التى كانت على أسلافكم، فأمنوا به واتبعوه لعلكم ترحمون.

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٢٨٦ طبعة الحلبي.

سابعاً: نعمة بعثهم من بعد موتهم:

ثم ذكرهم - سبحانه - بعد ذلك بنعمة جليلة، أسبغها الله عليهم رغم مطالبهم المتعنتة، وهذه النعمة تتجلى في بعثهم من بعد موتهم، فقال تعالى:

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً
فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نُنظَرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ
بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾

جهرة: في الأصل مصدر من قولك جهرت بالقراءة والدعاء واستعيرت للمعاينة لما بينهما من الاتحاد في الوضوح والانكشاف، إلا أن الأول في المسموعات والثاني في المبصرات. والصاعقة: - كما قال ابن جرير - «كل أمر هائل رآه الرائي أو عاينه أو أصابه، حتى يصير من هوله وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب وذهاب عقل. صوتاً كان ذلك أو ناراً أو زلزلة أو رجفة، وما يدل على أن الشخص قد يكون مصعوقاً وهو حي غير ميت، قوله - تعالى - : ﴿وخر موسى صعقاً﴾ يعني مغشياً عليه، فقد علم أن موسى لم يكن حين غشي عليه وصعق ميتاً، لأن الله أخبر عنه أنه لما أفاق قال: ﴿سبحانك تبت إليك..﴾ (١).

وأصل البعث في اللغة: إثارة الشيء من محله، وتحريكه بعد سكون ومنه: بعث فلان الناقة: إذا أثارها من مبركها للسير، ويستعمل بمعنى الإيقاظ، كما ورد في قصة أهل الكهف ﴿فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً. ثم بعثناهم...﴾ أي: أيقظناهم. ويستعمل - أيضاً - بمعنى الإحياء. وهو المراد في الآية التي معنا، بدليل قوله تعالى: ﴿من بعد موتكم﴾.

ومعنى الآيتين الكريميتين: واذكروا يا بني إسرائيل وقت أن تجاوزتم حدودكم، وتعتتم في الطلب، فقلتم لنبيكم موسى بجفاء وغلظة: لن نؤمن لك، ولن نقر بما جئتنا به، حتى نرى الله عيانياً وعلائية، فيأمرنا بالإيمان بك، وبما جئت به، فأخذتكم العقوبة التي صعقتكم - بسبب جهلكم وتطاولكم - وأنتم تشاهدونها بعيونكم، ثم مننا عليكم بلطفنا ورحمتنا فأحييناكم من

(١) ابن جرير ج ١ ص ٢٩٠ طبعة الحلبي.

بعد أن أخذتكم الصاعقة، لكي تشكروا الله على نعمه التي من جملتها إعادتكم إلى الحياة من بعد موتكم.

قال الإمام ابن جرير: ذكرهم الله - تعالى - بذلك اختلاف آبائهم. وسوء استقامة أسلافهم مع أنبيائهم، مع كثرة معاينتهم من آيات الله وعبره ما تثلج بأقلها الصدور، وتطمئن بالتصديق معها النفوس، وذلك مع تتابع الحجج عليهم وسبوغ النعم من الله لديهم، وهم مع ذلك مرة يسألون نبيهم أن يجعل لهم إلهًا غير الله، ومرة يعبدون العجل من دون الله، ومرة يقولون: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾. وأخرى يقولون له إذا دعوا إلى القتال: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾ ومرة يقال لهم: ﴿قولوا حطة وادخلوا الباب سجدةً نغفر لكم خطاياكم﴾ فيقولون حنطة في شعيرة، ويدخلون الباب من قبل أستاهم، مع غير ذلك من أفعالهم القبيحة التي يكثر إحصاؤها، فأعلم الله - تعالى - الذين خاطبهم بهذه الآيات من يهود بنى إسرائيل الذين كانوا بين ظهرائي مهاجر رسول الله ﷺ أنهم لن يعدوا أن يكونوا في تكذيبهم محمدًا ﷺ وجحودهم نبوته كأبائهم وأسلافهم، الذين فصل عليهم قصصهم في ارتدادهم عن دينهم مرة بعد أخرى، وتمردهم على نبيه موسى - عليه السلام - تارة بعد أخرى مع ابتلاء الله لهم، وسبوغ آلائه عليهم^(١).

والقائلون لموسى - عليه السلام - : ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ يرى جمهور المفسرين أنهم هم السبعون الذين اختارهم موسى للذهاب معه إلى ميقات ربه، وقد وردت آثار تؤيد هذا الرأي.

من ذلك ما أخرجه ابن جرير عن الربيع بن أنس في قوله تعالى: ﴿فأخذتكم الصاعقة﴾ أنه قال: هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه. وقالوا: اطلب لنا ربك لنسمع كلامه. قال: سمعوا كلاما، فقالوا: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ قال: فسمعوا صوتاً فصعقوا يقول: ماتوا، فذلك قوله: ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾ فبعثوا من بعد موتهم، لأن موتهم ذلك عقوبة لهم، فبعثوا لبقية آجالهم.

وقال ابن كثير: الذين قالوا لموسى: ﴿أرنا الله جهرة﴾ المراد بهم السبعون المختارون منهم ولم يحك كثير من المفسرين سواه.

وقيل: إن الذين طلبوا من موسى رؤية الله جهرة هم عامة بنى إسرائيل بدون تحديد لهؤلاء

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٢٦٨.

السبعين، فقد روى عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه قال في تفسير هذه الآية. «قال لهم موسى لما رجع من عند ربه بالألواح قد كتب فيها التوراة، فوجدهم يعبدون العجل. فأمرهم بقتل أنفسهم، ففعلوا، فتاب الله عليهم، فقال لهم موسى: (إن هذه الألواح فيها كتاب الله فيه أمركم الذى أمركم به، ونهيكم الذى نهاكم عنه، فقالوا: ومن يأخذ بقولك أنت؟ لا والله حتى نرى الله جهرة، حتى يطلع الله علينا فيقول: هذا كتابي فخذوه، فما له لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى؟! وقرأ قول الله تعالى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾؛ قال: فجاءت غضبة من الله - تعالى -، فجاءتهم صاعقة بعد التوبة. فصعقتهم فماتوا جميعاً. قال: ثم أحياهم الله من بعد موتهم، وقرأ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. فقال لهم موسى: خذوا كتاب الله، فقالوا لا، فقال: أى شيء أصابكم؟ فقالوا: أصابنا أننا متنا ثم أحيينا. قال: خذوا كتاب الله، قالوا لا، فبعث الله ملائكة فبتت الجبل فوقهم»^(١).

قال الإمام ابن كثير: (وهذا السياق يدل على أنهم كلفوا بعدما أحيوا ثم قال: وقد حكى الماوردي في ذلك قولين:

أحدهما: أنهم سقط التكليف لمعايبتهم الأمر جهرة حتى صاروا مضطرين إلى التصديق. والثاني: أنهم مكلفون لثلا يخلو عاقل من تكليف^(٢).

وهذا هو الصحيح لأن معايبتهم للأمر الفظيعة لا تمنع تكليفهم، لأن بنى إسرائيل قد شاهدوا أموراً عظيماً من خوارق العادات وهم مع ذلك مكلفون؛ وهذا واضح، والله أعلم^(٣).

وقال ابن جرير: «ولا خير عندنا بصحة شيء مما قاله من ذكرنا قوله في سبب قيلهم ذلك لموسى تقوم به حجة، فنسلم لهم، وجائز أن يكون ذلك بعض ما قالوه، فإذا كان لاخبر بذلك تقوم به حجة فالصواب من القول فيه أن يقال: إن الله - جل ثناؤه - قد أخبر عن قوم موسى أنهم قالوا له ﴿يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ كما أخبر عنهم أنهم قالوه...»^(٤) وفي ندائهم لنبيهم باسمه «يا موسى» سوء أدب منهم معه، لأنه كان من الواجب عليهم،

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٩٤.

(٢) تفسير ابن كثير ص ٩٤.

(٣) تفسير ابن كثير ص ٩٤.

(٤) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٢٩٣ طبعة الحلبي.

أن يقولوا له : يا رسول الله أو يا نبي الله، من الصفات التي تشعر بصفات التعظيم والتوقير، وقد تكررت مناداتهم باسمه مجرداً في كثير من المواطن.

ومن أدب الصحابة مع الرسول ﷺ أنهم كانوا يقولون له : يا رسول الله، استجابة لأمر الله - تعالى - في قوله : ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً ﴾ .

وقولهم : ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ دليل على تمردهم وعصيانهم، وقلة اكتراثهم بما أوتوا من نعم، وما شاهدوا من معجزات، إذ أنهم طلبوا منه أن يروا الله عياناً، فإن لم يروه داخلهم الشك في صدق نبيهم .

وعبر عنهم القرآن الكريم بأنهم يريدون الرؤية (جهرة) لإزالة احتمال أنهم يكتفون بالرؤية المنامية، أو العلم القلبي، فهم لا يعتقدون إلا بالرؤية الحسية، لغلظ قلوبهم، وجفاء طباعهم . وقوله تعالى : ﴿ فأخذتكم الصاعقة ﴾ إشارة إلى أن العقوبة قد فاجأتهم بعد وقت قصير من مطالبهم المعتنة، لأن الفاء تفيد التعقيب .

وجملة ﴿ وأنتم تنظرون ﴾ تفيد أن العقوبة نزلت عليهم وهم يشاهدونها وفي مشاهدتها رعب وخوف أخذ بجماع قلوبهم، قبل أن يأخذ العذاب أجسادهم، وإن إصابتهم بهذه العقوبة كان في حالة إساءتهم وتمردهم وطمعهم في أن ينالوا ما ليس من حقهم .

والآية الكريمة تفيد أن بنى إسرائيل طلبوا من نبيهم رؤية الله جهرة في الدنيا، وأنهم علقوا بإيمانهم عليها، ولم يأبها للآيات الدالة على صدق موسى - عليه السلام - فكان ذلك محض تعنت وعناد منهم، فأخذتهم الصاعقة عقوبة لهم على ذلك، وليس على مجرد سؤالهم رؤية الله - تعالى - ومن هنا يتبين أن الآية لا تدل على استحالة الرؤية كما يقول المعتزلة .

وجملة ﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم ﴾ هي محل النعمة والمنة، وهي معطوفة على قوله تعالى ﴿ فأخذتكم الصاعقة ﴾ ودل العطف بـ ﴿ ثم ﴾ على أن بين أخذ الصاعقة والبعث زماناً تتصور فيه المهلة والتأخير .

والمراد ببعثهم : إحيائهم من بعد موتهم، وهو معجزة لموسى - عليه السلام - استجابة لدعائه .

وقد اشتملت الآيتان الكريمتان على تحذير اليهود المعاصرين للعهد النبوي، من محاربة الدعوة الإسلامية، حتى لا يصابوا بما أصيب به أسلافهم من الصواعق وغيرها؛ وفيها أيضاً تسلية للنبي ﷺ عما لاقاه من اليهود، لأن ما فعلوه معه قد فعل ما يشبهه آباؤهم مع أنبيائهم، وفيها كذلك لون جديد من نعم الله عليهم ما أجددهم بشكرها لو كانوا يعقلون .

ثامناً: نعمة تظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم:
ثم عطف - سبحانه - على نعمة بعثهم من بعد موتهم نعمة أخرى بل نعمتين، وهما
تظليلهم بالغمام ومنحهم المن والسلوى، فقال تعالى:

وَوَهَبْنَا لَكُمْ
الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا
رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

الغمام: جمع غمامة، وهي السحابة، وخصه بعض علماء اللغة بالسحاب الأبيض.
والمن: اسم جنس لا واحد من لفظه، وهو - على أرجح الأقوال - مادة صمغية تسقط على
الشجر تشبه حلاوته حلاوة العسل.

والسلوى: اسم جنس جمعي، واحده سلواة، وهو طائر برى لذيذ اللحم، سهل الصيد،
يسمى بالسمانى، كانت تسوقه لهم ريح الجنوب كل مساء، فيمسكونه قبضاً بدون تعب.

وتظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم، كان في مدة تيههم بين مصر والشام المشار
إليه بقوله - تعالى - ﴿قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض﴾.

قال السدى: «لما دخل بنو إسرائيل التيه، قالوا لموسى - عليه السلام - كيف لنا بما هاهنا،
أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المن فكان ينزل على شجرة الزنجبيل، والسلوى وهو طائر يشبه
السمانى أكبر منه فكان يأتى أحدهم فينظر إلى الطير فإن كان سميئاً ذبحه وإلا أرسله، فإذا
سمن أتاه فقالوا هذا الطعام فأين الشراب؟ فأمر الله - تعالى - موسى أن يضرب بعضه الحجر
فضربه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، فشرب كل سبط من عين، فقالوا: هذا الشراب فأين
الظل؟ فظلل الله عليهم الغمام. فقالوا: هذا الظل فأين اللباس؟ فكانت ثيابهم تطول معهم
كما تطول الصبيان ولا يتمزق لهم ثوب، فذلك قوله تعالى: ﴿وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا
عليكم المن والسلوى...﴾.

ومعنى الآية الكريمة: واذكروا يا بنى إسرائيل من بين نعمى عليكم نعمة إظلالكم بالغمام
وأنتم فى التية ليقيكم حر الشمس، وحرارة الجو، ولولا منحى إياكم الطعام اللذيذ المشتهى
بدون تعب منكم فى تحصيله لهلكتم، وقلنا لكم كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الذى

رزقكم هذه النعم، ولكنكم كفرتم بها، فظلمتم أنفسكم دون أن ينالنا من ذلك شيء، لأن الخلق جميعاً لن يبلغوا ضرى فيضرون ولن يبلغوا نفعى فينفعون.
فالأية الكريمة قد أشارت إلى جحودهم النعمة بقوله تعالى: ﴿وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾.

وقوله تعالى: ﴿وما ظلمونا﴾ معطوف على محذوف، أى فعصوا ولم يقابلوا النعم بالشكر. ويرى البعض أنه لا حاجة إلى التقدير، وأن جملة ﴿وما ظلمونا﴾ معطوفة على ما قبلها لأنها مثلها في أنها من أحوال بنى إسرائيل.

والتعبير عن ظلمهم لأنفسهم بكلمة ﴿كانوا﴾ والفعل المضارع ﴿يظلمون﴾ يدل على أن ظلمهم لأنفسهم كان يتكرر منهم، لأنك لا تقول في ذم إنسان كان يسيء إلى الناس إلا إذا كانت الإساءة تصدر منه المرة تلو الأخرى.

قال الإمام ابن جرير - رحمه الله - في تفسير قوله تعالى: ﴿وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ ما ملخصه: (هذا من الذى استغنى بدلالة ظاهره على ما ترك منه، وذلك أن معنى الكلام: كلوا من طيبات ما رزقناكم فخالفوا ما أمرناهم به، وعصوا ربهم، ثم رسولنا إليهم، وما ظلمونا فاكنتى بما ظهر عما ترك، وقوله ﴿وما ظلمونا﴾ أى: ما ظلمونا بفعلهم ذلك ومعصيتهم، وما وضعوا فعلهم ذلك وعصيانهم إيانا موضع مضره علينا ومنقصة لنا، ولكنهم وضعوه من أنفسهم موضع مضره عليها ومنقصة لها فإن الله - تعالى - لا تضره معصية عاص، ولا يتحيف خزائنه ظلم ظالم، ولا تنفعه طاعة مطيع، ولا يزيد في ملكه عدل عادل، بل نفسَه يظلم الظالم وحظها يبخس العاصى، وإياها ينفع المطيع، وحظها يصيب العادل)^(١).

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ذكرت بنى إسرائيل بنعمة من أعظم النعم وهى تظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم، ولكن بنى إسرائيل لم يشكروا الله على نعمه، ولذا أرسل الله عليهم رجلاً من السماء بسبب ظلمهم وفسقهم.

تاسعاً: نعمة تمكينهم من دخول بيت المقدس ونكولهم عن ذلك.

ثم ذكرهم - سبحانه - بعد ذلك بمنة عظيمة مكنوا منها فما أحسنوا قبولها وما رعوها حق رعايتها - وهى تخليصهم من عناء التيه، والإذن لهم فى دخول بلدة يجدون فيها الراحة والهناء، وإرشادهم إلى القول الذى يخلصهم مما استوجبوه من عقوبات ولكنهم خالفوه فقال تعالى:

(١) تفسير ابن جرير ج١ ص ٣٩٧، ٣٩٨

وَأَذُقْنَا أَدْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا
وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ
وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا
غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنْ
السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

القرية : هي البلدة المشتملة على مساكن، والمراد بها بيت المقدس على الراجح .
والرغد : الواسع من العيش الهنيء، الذي لا يتعب صاحبه، يقال : أرغد فلان : أصاب
واسعاً من العيش الهنيء .

الحطة : من حط بمعنى وضع، وهي مصدر مراد به طلب حط الذنوب
قال صاحب الكشاف : (حطة) فعلة من الحط كالجلسة . وهي خبر مبتدأ محذوف، أي
مسألتنا حطة، والأصل فيها النصب بمعنى : حط عنا ذنوبنا حطة، وإنما رفعت لتعطي معنى
الثبات . (١)

والمعنى : اذكروا يا بني إسرائيل - لتتعظوا وتعتبروا - وقت أن أمرنا أسلافكم بدخول بيت
المقدس بعد خروجهم من التية، وأبحناهم أن يأكلوا من خيراتها أكلاً هنيئاً ذا سعة وقلنا لهم :
ادخلوا من بابها راكعين شكراً لله على ما أنعم به عليكم من نعمة فتح الأرض المقدسة متوسلين
إليه - سبحانه - بأن يحط عنكم ذنوبكم، فإن فعلتم ذلك العمل اليسير وقلتم هذا القول
القليل غفرنا لكم ذنوبكم وكفرنا عنكم سيئاتكم، وزدنا المحسن منهم خيراً جزاء إحسانه،
ولكنهم جحدوا نعم الله وخالفوا أوامره، فبدلوا بالقول الذي أمرهم الله به قولاً آخر أتوا به من
عند أنفسهم على وجه العناد والاستهزاء، فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا
يفسقون .

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - : (وهذا كان لما خرجوا من التية بعد أربعين سنة مع يوشع
بن نون - عليه السلام - وفتحها الله عليهم عشية جمعة، وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلاً

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢١٦

حتى أمكن الفتح، ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب (باب البلد) سجداً أى شكراً لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر ورد بلدهم عليهم وإنقاذهم من التيه والضلال^(١) وقوله تعالى: ﴿فكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ فيه إشعار بكمال النعمة عليهم واتساعها وكثرتها. حيث أذن لهم في التمتع بثمرات القرية وأطعمتها من أى مكان شاءوا.

وقوله تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً﴾ إرشاد لهم إلى ما يجب عليهم نحو خالقهم من الشكر والخضوع، وتوجيههم إلى ما يعينهم على بلوغ غاياتهم. بأيسر الطرق وأسهل السبل، فكل ما كلفوا به أن يدخلوا من باب المدينة التى فتحها الله لهم خاضعين مخبتين وأن يضرعوا إليه بأن يحط عنهم آثامهم، ويمحو سيئاتهم.

وقوله تعالى: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ بيان للثمرة التى تترتب على طاعتهم وخضوعهم لخالقهم، وإغراء لهم على الامثال والشكر، - لو كانوا يعقلون - لأن غاية ما يتمناه العقلاء غفران الذنوب.

قال الإمام ابن جرير: يعنى بقوله تعالى: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ نتغمد لكم بالرحمة خطاياكم، ونسترها عليكم، فلا نفضحكم بالعقوبة عليها. وأصل الغفر: التغطية والستر، فكل ساتر شيئاً فهو غافر.. والخطايا: جمع خطية - بغير همز - كالمطايا جمع مطية..^(٢)

وقوله تعالى: ﴿وَسَنزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ وعد بالزيادة من خيرى الدنيا والآخرة لمن أسلم لله وهو محسن، أى: من كان منكم محسناً زيد فى إحسانه ومن كان مخطئاً نغفر له خطيئاته. وقد أمرهم - سبحانه - أن يدخلوا باب المدينة التى فتحوها خاضعين وأن يلتمسوا منه مغفرة خطاياهم، لأن تغلبهم على أعدائهم، ودخولهم الأرض المقدسة التى كتبها الله لهم، نعمة من أجل النعم، وهى تستدعى منهم أن يشكروا الله عليها بالقول والفعل لئلا يزيدهم من فضله، فشان الأخير أن يقابلوا نعم الله بالشكر.

ولهذا كان النبى ﷺ يظهر أقصى درجات الخضوع لله تعالى عند النصر والظفر وبلوغ المطلوب، فعندما تم له فتح مكة دخل إليها من الثنية العليا، وإنه لخاضع لربه، حتى إن رأسه الشريف ليكاد يمس عنق ناقته شكراً لله على نعمة الفتح، وبعد دخوله مكة اغتسل وصلى ثمانى ركعات سماها بعض الفقهاء صلاة الفتح.

ومن هنا استجب العلماء للفاتحين من المسلمين إذا فتحوا بلدة أن يصلوا فيها ثمانى ركعات

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٩٨.

(٢) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٢٠٢.

عند أول دخولها شكرًا لله - تعالى - وقد فعل ذلك سعد بن أبي وقاص عندما دخل إيوان كسرى، فقد ثبت أنه صلى بداخله ثمان ركعات.

ولكن، ماذا كان من بنى إسرائيل بعد أن أتم الله لهم نعمة الفتح؟
إنهم لم يفعلوا ما أمروا بفعله، ولم يقولوا ما كلفوا بقوله، بل خالفوا ما أمروا به من قول وفعل، ولذا قال تعالى: ﴿فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذى قيل لهم﴾.

أخرج البخارى عن أبي هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ أنه قال: (قيل لبنى إسرائيل: ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة فبدلوا ودخلوا يزحفون على أستاهم، وقالوا: حبة فى شعيرة)^(١).

قال الإمام ابن كثير: (وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق، أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل، فأمروا أن يدخلوا الباب سجداً، فدخلوا يزحفون على أستاهم رافعين رؤسهم، وأمروا أن يقولوا: حطة، أى احطط عنا ذنوبنا وخطايانا فاستهزءوا وقالوا: حنطة فى شعيرة، وهذا فى غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة، ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم وخروجهم عن طاعته)^(٢).

فقوله تعالى: ﴿فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذى قيل لهم﴾ بيان للسبب الذى من أجله نزل عليهم العذاب، وتوبيخ لهم على مخالفتهم أوامر الله - تعالى -، لأن تبادل الشيء معناه تغييره وإزالته عما كان عليه بإعطائه صورة تخالف التى كان عليها.

والفعل (بدل) يقتضى بدلا ومبدلا منه، إلا أن مقام الإيجاز فى الآية استدعى الاكتفاء بذكر البديل - وهو القول الذى لم يقل لهم - دون ذكر المبدل منه - وهو القول الذى قيل لهم - والتقدير: فاختار الذين ظلموا بالقول الذى أمرهم الله به، قولاً آخر اخترعوه من عند أنفسهم على وجه المخالفة والعصيان.

قال صاحب الكشاف: ﴿فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذى قيل لهم﴾ أى: وضعوا مكان ﴿حطة﴾ قولاً غيرها، يعنى أنهم أمروا بقول معناه التوبة والاستغفار فخالفوه إلى قول ليس معناه معنى ما أمروا به، ولم يمثلوا أمر الله، وليس الغرض أنهم أمروا بلفظ بعينه. وهو لفظ الحطة فجاءوا بلفظ آخر، لأنهم لوجاءوا بلفظ آخر مستقل، بمعنى ما أمروا به لم يؤاخذوا به كما لو قالوا مكان حطة: نستغفرك وتوب إليك. أو اللهم أعف عنا وما أشبه ذلك^(٣).

(١) صحيح البخارى. باب (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية ج ١ ص ٢٢.

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٩٩. (٣) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢١٨.

والعبرة التي تؤخذ من هذه الجملة الكريمة، أن من أمره الله - تعالى - بقول أو يفعل، فتركه وأتى بآخر لم يأذن به الله، دخل في زمرة الظالمين، وعرض نفسه لسوء المصير.
 وقوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ تصريح بأن ما أصابهم من عذاب كان نتيجة عصيانهم وتمردهم وجحودهم لنعم الله - تعالى - والرجز في لغة العرب: هو العذاب سواء أكان بالأمراض المختلفة أو غيرها.

وفي النص على أن الرجز قد أناهم من جهة السماء إشعار بأنه عذاب لا يمكن دفعه وأنه لم يكن له سبب أرضي من عدوى أو نحوها، بل رمتهم به الملائكة من جهة السماء. فأصيب به الذين ظلموا دون غيرهم، ولم يقل القرآن «فأنزلنا عليهم»، بالإضمار، وإنما قال ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا﴾ بالإظهار، تأكيداً لوصفهم بأفح النعوت وهو الظلم، وإشعاراً بأن ما نزل عليهم كان سببه بغيهم وظلمهم.

وقد تضمنت الآيتان الكريمتان أن بنى إسرائيل مكثوا من النعمة فنفروا منها، وفتحت لهم أبواب الخير فأبوا دخولها، وأرشدوا إلى القول الذي يكفر سيئاتهم فخالفوا ما أرشدوا إليه مخالفة لا تقبل التأويل، فكانت نتيجة جحودهم ومخالفتهم لأمر الله حرمانهم من تلك النعمة إلى حين، ومعاقبتهم لظلمهم بالعذاب الأليم، وفي هذا التذكير امتنان عليهم ببذل النعمة، لأن عدم قبولهم لها لا يمنع كونها نعمة، وفيه إثارة لحسرة اليهود المعاصرين للعهد النبوي على ما ضاع من أسلافهم بسبب مخالفتهم وتمردهم وفيه أيضاً تحذير لهم من سلوك طريق آبائهم حتى لا يصيبهم ما أصاب أسلافهم من عذاب أليم.

عاشراً: نعمة إغاثتهم بالماء بعد أن اشتد بهم العطش.

ثم ذكروهم - سبحانه - بعد ذلك بنعمة من أجل نعمه عليهم، وهي إغاثتهم في التيه بالماء بعد أن اشتد بهم العطش، فقال تعالى:

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ

لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ

اثنتا عشرة عَيْنًا قَدَعِلَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كَلُوا

وَأَشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾

الاستسقاء : طلب السقيا عند عدم الماء أو حبس المطر، وذلك عن طريق الدعاء لله - تعالى - في خشوع واستكانة، وقد سأل موسى ربه أن يسقى بني إسرائيل الماء بعد أن استبد بهم العطش، عندما كانوا في التيه، فعن ابن عباس أنه قال : « كان ذلك في التيه، ضرب لهم موسى الحجر، فصارت منه اثنتا عشرة عيناً من ماء، لكل سبط منهم عين يشربون منها^(١) وهذه النعمة كانت نافعة لهم في دنياهم؛ لأنها أزلت عنهم الحاجة الشديدة إلى الماء ولولاه لهلكوا، وكانت نافعة لهم في دينهم؛ لأنها من أظهر الأدلة على وجود الله . وعلى قدرته وعلمه، ومن أقوى البراهين على صدق موسى - عليه السلام - في نبوته^(٢) .

ومعنى الآية الكريمة : واذكروا يا بني إسرائيل وقت أن أصاب آباءكم العطش الشديد وهم في صحراء مجدبة، فتوسل إلينا نبينهم موسى - عليه السلام - في خشوع وتضرع أن أمدهم بالماء الذي يكفيهم، فأجبناه إلى ما طلب، إذ أوحينا إليه أن اضرب بعصاك الحجر. ففعل، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً بمقدار عدد الأسباط، وصار لكل سبط منهم مشرب يعرفه ولا يتعداه إلى غيره، وقلنا لهم : تمتعوا بما من الله به عليكم من مأكول طيب ومشروب هنيء رزقكم الله إياه من غير تعب ولا مشقة، ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ فتتحول النعم التي بين أيديكم إلى نقم وتصبحوا على ما فعلتم نادمين.

وقوله تعالى : ﴿وإذ استسقى موسى لقومه﴾ يفيد أن الذي سأل ربه السقيا هو موسى - عليه السلام - وحده، لتظهر كرامته عند ربه لدى قومه، وليشاهدوا بأعينهم إكرام الله - تعالى - له، حيث أجاب سؤاله، وفجر الماء لهم ببركة دعائه.

واللام في قوله - تعالى - ﴿لقومه﴾ للسببية، أى لأجل قومه.

والفاء في قوله - تعالى - ﴿فقلنا اضرب بعصاك الحجر﴾، عطفت الجملة بعدها على محذوف، والتقدير: فأجبناه إلى ما طلب، وقلنا اضرب بعصاك الحجر.

وآل في ﴿الحجر﴾ لتعريف الجنس أى اضرب أى حجر شئت بدون تعيين، وقيل للعهد، ويكون المراد حجراً معيناً معروفاً لموسى - عليه السلام - بوحى من الله تعالى. وقد أورد المفسرون في ذلك آثاراً حكم المحققون بضعفها ولذلك لم نعتد بها.

والذى نرجحه أنها لتعريف الجنس، لأن انفجار الماء من أى حجر بعد ضربه أظهر في إقامة البرهان على صدق موسى - عليه السلام - وأدعى لإيمان بني إسرائيل وانصياعهم للحق بعد

(١) وقيل كان الاستسقاء في البرية ولكن الآثار التي تدل على أنه كان في التيه أصح وأكثر.

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٠٠.

وضوحه، وأبعد عن التشكيك في إكرام الله لنبيه موسى - عليه السلام - إذ لو كان انفجار الماء من حجر معين لأمكن أن يقولوا: إن تفجير الماء كان لمعنى خاص بالحجر لا لكرامة موسى عند ربه - تعالى - .

والفاء في قوله تعالى: ﴿فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا﴾ كسابقتها للعطف على محذوف تقديره: فضرب فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، وقد حذفت هذه الجملة المقدرة لوضوح المعنى.

وكانت العيون اثنتي عشرة عينا؛ لأن بنى إسرائيل كانوا اثني عشر سبطاً، والاسباط في بنى إسرائيل كالقبائل في العرب. وهم ذرية أبناء يعقوب - عليه السلام - الاثني عشر، ففي انفجار الماء من اثنتي عشرة عينا إكمال للنعمة عليهم، حتى لا يقع بينهم تنازع وتشاجر:

وقال - سبحانه - : ﴿فانفجرت﴾. وقال في سورة الأعراف ﴿فانبجست﴾ والانبجاس خروج الماء بقلّة. والانفجار خروجه بكثرة، ولا تنافي بينهما في الواقع؛ لأنه انبجس أولاً. ثم انفجر ثانياً، وكذا العيون يظهر الماء منها قليلاً ثم يكثر لدوام خروجه.

وقوله تعالى: ﴿قد علم كل أناس مشربهم﴾ إرشاد وتنبية إلى حكمة الانقسام إلى اثنتي عشرة عينا أي: قد عرف كل سبط من أسباط بنى إسرائيل مكان شربه، فلا يتعداه إلى غيره، وفي ذلك ما فيه من استقرار أمورهم، واطمئنان نفوسهم، وعدم تعدى بعضهم على بعض.

وقوله تعالى: ﴿كلوا واشربوا من رزق الله﴾ مقول لقول محذوف تقديره: وقلنا لهم: كلوا واشربوا من رزق الله.

وقد جمع - سبحانه - بين الأكل والشرب - وإن كان الحديث عن الشرب - لأنه قد تقدمه إنزال المن والسلوى، وقد قيل هنالك: ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ فلما أتبع ذلك بنعمة تفجير الماء لهم اجتمعت المتتان

وقوله تعالى: ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ تحذير لهم من البطر والغرور واستعمال النعمة في غير ما وضعت له؛ بعد أن أذن لهم في التمتع بالطيبات، لأن النعمة عند ما تكثر قد تنسى العبد حقوق خالقه فيهجر الشريعة، ويعيث في الأرض فساداً. قال تعالى: ﴿كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾.

والمعنى: ولا تسعوا في الأرض مفسدين، وتقابلوا النعم بالعصيان فتسلب عنكم.

قال ابن جرير - رحمه الله - : (وأصل العثا شدة الإفساد بل هو أشد الإفساد، يقال منه:

عنى فلان فى الأرض : إذا تجاوز الحد فى الإفساد إلى غاية، يعنى ، عثاً مقصوراً، ويقال للجماعة يعثون .. (١).

وبذلك تكون الآية الكريمة قد ذكرت بنى إسرائيل بنعمة جليلة، ونصحتهم بأن يعملوا على شكرها : وحذرتهم عاقبة الإفساد فى الأرض وجحودهم النعمة واستبداهم الذى هو أدنى بالذى هو خير :

ثم ذكرهم - سبحانه - بما كان منهم من جحود النعمة واستخفافهم بها وإيثارهم - بسوء اختيارهم - ما هو أدنى على ما هو خير، فقال تعالى :

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ
يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا
وَعَدْسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ
بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَآسَأَلْتُمْ
وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا وَيَغْضَبُ مِنَ
اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
الَّذِينَ يَبْغِيْنَ بَغْيَ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

الصبر : حبس النفس على الشئ، بمعنى إلزامها إياه، ومنه الصبر على الطاعات، أو يطلق على حبسها بمعنى كفها. ومنه الصبر عن المعاصى. والطعام : ما رزقوه فى التيه من المن والسلوى : والبقل : ما تنبته الأرض من الخضر مما يأكله الناس والأنعام من نحو النعناع والكرث وغيرهما. والفوم : قيل هو الثوم، وقيل هو الحنطة. والقثاء : نوع من المأكولات أكبر حجماً من (الخيار).

قال ابن جرير : (وكان سبب مسألتهم موسى - عليه السلام - ذلك فيما بلغنا عن قتادة أنه قال : كان القوم فى البرية قد ظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى : فملوا ذلك،

وذكروا عيشًا كان لهم بمصر، فسألوه موسى، فقال الله تعالى: ﴿اهبطوا مصرًا فإن لكم ما سألتم﴾ (١).

ثم ساق ابن جرير رواية، فيها تصريح بأن سؤالهم لم يكن في البرية بل كان في التيه فقال: حدثني يونس بن عبد الأعلى، قال: أخبرنا ابن وهب قال: أنبأنا ابن زيد قال:

«كان طعام بنى إسرائيل في التيه واحدًا، وشرابهم واحدًا. كان شرابهم عسلا ينزل لهم من السماء يقال له المن، وطعامهم طير يقال له السلوى، يأكلون الطير ويشربون العسل، لم يكونوا يعرفون خبزًا ولا غيره، فقالوا يا موسى: ﴿إنا لن نصبر على طعام واحد، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها﴾ فقرأ حتى بلغ قوله تعالى ﴿اهبطوا مصرًا فإن لكم ما سألتم﴾ (٢).

وقد جرى أبو حيان وصاحب الكشاف - في تفسيريهما - على أن سؤالهم لم يرسى - عليه السلام كان في التيه.

قال أبو حيان عند تفسير قوله تعالى ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد﴾: «لما سئموا من الإقامة في التيه. والمواظبة على مأكول واحد لبعدهم عن الأرض التي ألفوها، وعن العوائد التي عهدوها، أخبروا عما وجدوه من عدم الصبر على ذلك، وتشوقهم إلى ما كانوا يألفون، وسألوا موسى أن يسأل الله لهم» (٣).

وقال صاحب الكشاف: «كانوا أهل فلاحه فنزعوا إلى عكرهم (٤) فأجوا - أى ملوا وكرهوا - ما كانوا فيه من النعمة وطلبت أنفسهم عدم البقاء ﴿على طعام واحد﴾ أرادوا ما رزقوه في التيه من المن والسلوى» (٥).

ومعنى الآية الكريمة إجمالاً: واذكروا يا بنى إسرائيل بعد أن أسبغنا عليكم نعمنا ما كان من سوء اختيار أسلافكم، وفساد أذواقهم، وإعنائهم لنبيهم موسى - عليه السلام - حيث قالوا له ببطر وسوء أدب: لن نصبر على طعام المن والسلوى في كل وقت، فسل ربك أن يخرج لنا مما تنبت الأرض من خضرها وفاكحتها وحنظتها وعدسها وبصلها، لأن نفوسنا قد عافت المن والسلوى، فويخهم نبيهم موسى - عليه السلام - بقوله: أنتخارون الذى هو أقل فائدة وأدن

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٣٠٩.

(٢) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٣٠٩.

(٣) تفسير ابن حيان ج ١ ص ٣٣١.

(٤) فنزعوا إلى عكرهم: أى حنوا إلى أصلهم وعادتهم.

(٥) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٧١.

لذة، وتتركون المن والسلوى وهو خير مما تطلبون لذة وفائدة؟ انزلوا إلى مصر من الأمصار فإنكم تجدون به ما طلبتموه من البقول وأشباهاها.
وأحاطت بنى إسرائيل المهانة والاستكائة كما تحيط القبة بمن ضربت عليه، وحق عليهم غضب الله.

ثم بين الله - تعالى - السبب في جحودهم للنعم وفي أنه ضرب عليهم الذلة والمسكنة وأنزل عليهم غضبه بقوله: ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير الحق﴾ إلخ أى: إن الكفر بآيات الله قد تأصل فيهم، وقتل أنبيائهم بغير الحق قد تكرر منهم حتى صار كالطبيعة الثانية والسجية الثابتة، فليس غريباً على هؤلاء أن يقولوا لن نصبر على المن والسلوى وأن ينزل بهم غضب الله ونقمته من أجل جحودهم وكفرهم.

وقوله تعالى: ﴿وإذ قلت يا موسى لن نصبر على طعام واحد﴾ تذكير لهم برغبة من رغباتهم الناشئة عن ذوق سقيم. لا يقدر النعمة قدرها، وفيه انتقال من تعداد النعم عليهم إلى بيان موقفهم الجحودى منها، وانسياقهم وراء شهواتهم وأهوائهم وحماقتهم، وفيه إشعار بسوء أدبهم في مخاطبتهم لنبيهم موسى - عليه السلام - إذ عبروا عن عدم رغبتهم في تناول المن والسلوى بحرف ﴿لن﴾ المفيد تأكيد النفي فقالوا ﴿لن نصبر﴾. إلخ فكأنهم يقولون له مهديين، ليلجئوه إلى دعاء ربه سريعاً: إننا ابتداء من هذا الوقت الذى نخاطبك فيه إلى أن نموت، لن نحبس أنفسنا عن كراهية على تناول طعام واحد، لأننا قد سئمناه ومللناه، ولن نعود إليه: فالتعير «لن» يشعر بشدة ضجرهم، وبلوغ الكراهية لهذا الطعام منهم متنهاها.

قال الحسن البصرى - رضى الله عنه - : «بطروا طعم المن والسلوى فلم يصبروا عليه، وذكروا عيشهم الذى كانوا فيه، وكانوا قوماً أهل أعداس ويصل ويقل وثوم»^(١).

ووصفوه بالوحدة مع أن المن والسلوى نوعان، لأنهم أرادوا من الوحدة أنه طعام متكرر في كل يوم لا يختلف بحسب الأوقات، والعرب تقول لمن يفعل على مائدته في كل يوم من الطعام أنواعاً لا تتغير، إنه يأكل من طعام واحد.

وسألوا موسى - عليه السلام - أن يدعو لهم، لأن دعاء الأنبياء أقرب إلى الإجابة من دعاء غيرهم، وكذلك دعاء الصالحين، حيث يصدر من قلوب عامرة بتقوى الله وجلاله، فيلقى من الإجابة ما لا يلقىه دعاء نفوس تستهويها الشهوات، وتستولى عليها السيئات.

وقولهم: ﴿فادع لنا ربك﴾ ولم يقولوا ربنا، لعدم رسوخ الإيمان في قلوبهم، ولأنه سبحانه - قد اختصه بما لم يعط مثله من مناجاته وتكميله وإيتائه التوراة.

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٠١.

وقولهم: ﴿يُخْرِج لَنَا مِمَّا تَنْبِت الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ هو مضمون ما طلبوه من موسى - عليه السلام - وهو في معنى مقول قول محذوف والتقدير: أى قل لربك يخرج لنا.

وجاء التعبير بالفعل ﴿يُخْرِج﴾ مجزوماً - مع أن مقتضى الظاهر أن يقال: «أن يخرج - للإيماء إلى أنهم واثقون بأنه إن دعا ربه أجابه، حتى لكان إخراج ما تنبت الأرض متوقف على مجرد دعاء موسى ربه، وأنه لو لم يدع لهم، لكان شحيحاً عليهم بما فيه نفعهم»^(١).

والجملة الكريمة: ﴿أُتْسَبَدَلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ من مقول موسى - عليه السلام - لهم، وفيها توبيخ شديد لهم على سوء اختيارهم، وضعف عقولهم. لإيثارهم الأدنى وهو البقل وما عطف عليه، على ما هو خير منه وهو المن والسلوى.

قال ابن جرير عند تفسيره للآية الكريمة: «أى قال لهم موسى: أتأخذون الذى هو أحسن خطراً وقيمة وقدراً من العيش، بدلا بالذى هو خير منه خطراً وقيمة وقدراً، وذلك كان استبدالهم، وأصل الاستبدال: هو ترك شيء لآخر غيره مكان المتروك، ومعنى قوله: ﴿أدنى﴾ أحسن وأضع وأصغر قدراً وخطراً، وأصله من قولهم: هذا رجل دنى بين الدناءة، وإنه ليدنى فى الأمور - بغير همز - إذا كان يتبع خسيسها. ثم قال: ولا شك أن من استبدل بالمن والسلوى: البقول والقثاء والعدس والبصل والثوم، فقد استبدل الوضيع من العيش بالرفيع منه»^(٢).

ثم أضاف موسى - عليه السلام - إلى توبيخهم السابق على بطرهم وجحودهم توبيخاً آخر فقال لهم: ﴿اهبطوا مصرًا فإن لكم ما سألتم﴾ أى إذا كان هذا هو مرغوبكم، فاتركوا هذا المكان، وانزلوا إلى مصر من الأمصار، لكى تجدوا ما سألتمون إياه من البقل والثوم وأشباههما، لأن ما اخترتموه لا يوجد فى المكان الذى حللتم به، وإنما يوجد فى الأمصار والقرى. وقوله تعالى: ﴿مِصْرًا﴾.

قال ابن كثير: «هكذا هو منون مصروف مكتوب بالألف فى المصاحف الأئمة العثمانية وهو قراءة الجمهور بالصرف»^(٣).

وقال ابن جرير: «فأما القراءة فإنها بالألف والتنوين ﴿اهبطوا مصرًا﴾ وهى القراءة التى

(١) تفسير «التحرير والتنوير» ج ١ ص ٥٠٠ الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور طبعة عيسى البابى الحلبي سنة ١٩٦٤.

(٢) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٣١٢.

(٣) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٠١.

لا يجوز عندي غيرها، لاجتماع خطوط مصاحف المسلمين واتفاق قراءة القراء على ذلك..» اهـ^(١).

وقال أبو حيان في البحر: «وقرأ الحسن وطلحة والأعمش وأبان ابن تغلب (مصر) بغير تنوين، وقد وردت كذلك في مصحف أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود، وبعض مصاحف عثمان - رضى الله عنه» اهـ^(٢).

والمعنى على القراءة الأولى: اهبطوا مصرًا من الأمصار لأنكم في البدو، والذي طلبتم لا يكون في البوادي والفيافي وإنما يكون في القرى والأمصار، فإن لكم إذا هبطتموه ما سألتكم من العيش.

والمعنى على القراءة الثانية: اتركوا المكان الذي أنتم فيه، واهبطوا مصر التي كنتم تسامون فيها سوء العذاب فإنكم تجدون فيها ما تبغونها، لأنكم قوم لا تقدرون نعمة الحرية، ولا تتراحون للفضائل النفسية، بل شأنكم - دائما - أن تستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير.

ومن حجة الذين قالوا إن الله أراد بالمصر في الآية الكريمة، مصر فرعون، قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿فأخرجناهم من جنات وعيون. وكنوز ومقام كريم. كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾^(٣).

وقوله تعالى في سورة الدخان: ﴿كم تركوا من جنات وعيون. وزروع ومقام كريم. ونعمة كانوا فيها فاكهين. كذلك وأورثناها قوما آخرين﴾^(٤).

قالوا: فأخبر الله - تعالى - أنه قد ورثهم ذلك، وجعلها لهم، فلم يكونوا يرثونها، ثم لا ينتفعون بها، ولا يكونون منتفعين إلا بمصير بعضهم إليها

قال ابن جرير: «ومن حجة من قال إن الله - تعالى - إنما عني بقوله: ﴿اهبطوا مصرًا﴾ أى: مصرًا من الأمصار دون مصر فرعون بعينها، أن الله - تعالى - جعل أرض الشام لبني إسرائيل مساكن بعد أن أخرجهم من مصر، وإنما ابتلاهم بالتيه. بامتناعهم عن موسى في حرب الجبابرة، إذ قال لهم ﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾.. إلى قوله تعالى: ﴿فأذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٣١٥.

(٢) تفسير أبي حيان ج ١ ص ٢٣٣.

(٣) الآيات ٥٧ - ٥٩.

(٤) الآيات من ٢٥ - ٢٨.

قاعدون ﴿١﴾. فحرم الله - تعالى - على قائل ذلك - فيما ذكر لنا - دخولها حتى هلكوا في التيه وابتلاهم بالتيهان في الأرض أربعين سنة. ثم أهبط ذريتهم الشام، فأسكنهم الأرض المقدسة، وجعل هلاك الجبابرة على أيديهم مع «يوشع بن نون» بعد وفاة موسى بن عمران. فرأينا أن الله - تعالى - قد أخبر عنهم أنه كتب لهم الأرض المقدسة، ولم يجبرنا عنهم أنه ردهم إلى مصر بعد إخراجهم منها، فيجوز لنا أن نقرأ ﴿اهبطوا مصر﴾ ونتأوله أنه ردهم إليها. قالوا: فإن احتج محتج بقوله تعالى: ﴿فأخرجناهم من جنات وعيون. وكنوز ومقام كريم. كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾؟ قيل لهم: فإن الله - تعالى - إنما أورثهم ذلك فملكهم إياها. ولم يردهم إليها وجعل مساكنهم الشام» اهـ^(١).

قال أبو حيان في البحر: (ولم يصرح أحد من المفسرين والمؤرخين أنهم هبطوا من التيه إلى مصر) اهـ^(٢).

ومع أن ابن جرير - رحمه الله - قد رد على من قال، إن المراد بالمصر مصر فرعون: استناداً إلى قراءة غير الجمهور، إلا أنه لم يرجح أحد الرأيين فقد قال: (والذى نقول به في ذلك، أنه لا دلالة في كتاب الله - تعالى - على الصواب من هذين التأويلين، ولا خبر به عن الرسول ﷺ يقطع بحجته العذر، وأهل التأويل متنازعون تأويله، فأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب أن يقال: إن موسى سأل ربه أن يعطى قومه ما سألوه من نبات الأرض على ما بينه الله - تعالى - في كتابه وهم في الأرض تائهون فاستجاب الله لموسى دعاءه وأمره أن يهبط بمن معه من قومه قراراً من الأرض التي تنبت ما سأل لهم من ذلك، إذا صاروا إليه، وجائز أن يكون ذلك القرار مصر، وجائز أن يكون الشام...»^(٣).

ومن هذا النص الذى نقلناه عن ابن جرير، نرى أنه لم يقطع برأى في المكان الذى أمر بنو إسرائيل بالهبوط فيه وأنه يرى أن الله - تعالى - قد استجاب لموسى - عليه السلام - دعاءه، وأن موسى وقومه قد هبطوا - فعلاً - إلى قرار من الأرض التى تنبت البقول وأشباهاها. وقد عارض الإمام ابن كثير في تفسيره رأى ابن جرير فقال:

وهذا الذى قاله - أى ابن جرير - فيه نظر، والحق أن المراد مصر من الأمصار، كما روى عن ابن عباس وغيره والمعنى على ذلك، لأن موسى - عليه السلام - يقول لهم: هذا الذى سألتكم ليس بأمر عزيز، بل هو كثير في أى بلد دخلتموها وجدتموه، فليس يساوى مع دنايته

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٣١٤.

(٢) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ج ١ ص ٢٣٤.

(٣) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٣١٣.

وكثرته في الأمصار أن أسأل الله فيه، ولهذا قال: ﴿أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم﴾ أى ما طلبتم، ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر ولا ضرورة فيه لم يجابوا إليه والله أعلم^(١).

وبذلك يظهر لنا أن ابن كثير - رحمه الله - يرى أن المراد بالمصر مكان غير معين وأن موسى - عليه السلام - لم يسأل ربه إجابة طلبهم لأنهم كانوا متعنتين. بطرين، والله - تعالى - يكره من كان كذلك، وأن قول موسى - عليه السلام - لهم «اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم» من باب التوبيخ والتجهيل لهم، إذ ليس حينئذ بلد قويم يستطيعون الوصول إليه.

هذا، والذي نرجحه في هذا المقام هو ما ذهب إليه الإمام ابن كثير لما يأتي:

أولاً: أن القراءة بالتونين متواترة، وابن جرير نفسه لم يجوز القراءة بغيرها، وهذه القراءة المتواترة، نص في أن المراد من مصر، أى بلد كان، لا مصر فرعون، ثم إذا كان المراد به ذلك فليس لنا أن نقول إنه يصدق على مصر فرعون، وذلك لأن الأمصار التي تنبت ما طلبوا من البقول والخضر أقرب إليهم من مصر، فليس من المعقول أن يؤمروا بالذهاب إلى مصر فرعون وهى بعيدة عن مكانهم بعداً شاسعاً، وبتركوا الأمصار الأقرب إليهم وفيها ما يريدون.

ثانياً: لم ينقل أحد من المؤرخين أنهم رجعوا إلى مصر بعد خروجهم منها كما قال أبوحيان وغيره، بل الثابت أن بنى إسرائيل خرجوا من مصر، وأمروا بعد خروجهم بدخول الأرض المقدسة لقتال الجبارين ولكنهم أبوا طاعة نبيهم - عليه السلام - فعذبوا بالتيه أربعين سنة لتخلفهم عن قتال الجبارين، ولعصيانهم أمر نبيهم وماتوا جميعاً في التيه، وبقي أبنائهم فامتثلوا أمر الله - تعالى - وهبطوا إلى الشام. وقاتلوا الجبارين ودخلوا الأرض المقدسة بقيادة يوشع بن نون.

ثالثاً: ليس في الآية ما يشعر بأن موسى - عليه السلام - طلب من ربه أن يجيبهم إلى رغبتهم فكيف نقول بما لم يدل عليه القرآن الكريم ولو من طريق الإشارة؟

رابعاً: دخولهم في التيه كان عقوبة لهم على نكوصهم عن قتال الجبارين، ليدخلوا الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم. فالتيه والحالة هذه كان بمثابة سجن لهم يعاقبون فيه، كما يشعر بذلك قوله تعالى: ﴿فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض﴾ فكيف يخرج السجين من سجنه تلبية لبعض رغباته المنكرة. وبناء على ذلك يكون الأمر في قول موسى لهم: ﴿اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم﴾ للتهديد والتوبيخ والتجهيل.

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٠٢.

ثم بين - سبحانه - العقوبات التي حلت بهم جزاء ظلمهم وفجورهم فقال تعالى : ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله﴾ :

ضرب الذلة والمسكنة عليهم كناية عن لزومها لهم، وإحاطتها بهم، كما يحيط السرادق بمن بداخله .

قال صاحب الكشاف : (جعلت الذلة محيطة بهم، مشتملة عليهم، فهم فيها كمن يكون في القبة من ضربت عليه، أو ألصقت به حتى لزمتهم ضربة لازب كما يضرب الطين على الحائط فيلزمه، فاليهود صاغرون أذلاء أهل مسكنة ومدقعة)^(١).

وأصل الضرب في كلام العرب يرجع إلى معنى التقاء ظاهر جسم، بظاهر جسم آخر بشدة، يقال : ضرب بيده الأرض إذا ألصقها بها، وتفرعت عن هذا معان مجازية ترجع إلى شدة اللصوق .

والذلة : على وزن فعلة من قول القائل : ذل فلان يذل ذلة وذلة، والمراد بها الصغار والهوان والحقارة .

والمسكنة : مفعلة من السكون، ومنها أخذ لفظ المسكين، لأنهم قد أثقله فجعله قليل الحركة والنهوض، لما به من الفاقة والفقر، والمراد بها في الآية: الضعف النفسى، والفقر القلبى الذى يستولى على الشخص، فيجعله يحس بالهوان، مهما يكن لديه من أسباب القوة .

والفرق بينها وبين الذلة . أن الذلة هوان تحيى أسبابه من الخارج، كأن يغلب المرء على أمره نتيجة انتصار عدوه عليه فيذل لهذا العدو .

أما المسكنة فهى هوان ينشأ من داخل النفس نتيجة بعدها عن الحق واستيلاء المطامع والشهوات عليها، وتوارث الذلة قرونًا طويلة يورث هذه المسكنة، ويجعلها كالطبيعة الثابتة فى الشخص المستذل . ولقد عاش اليهود قرونًا وأحقابًا مستعبدين لمختلف الأمم، فأكسبهم هذا الاستعباد ضعفًا نفسيًا جعلهم لا يفرقون بين الحياة الذليلة والكريمة، بل إنهم ليفضلون الأولى على الثانية ما دامت تجلب لهم غرضًا من أغراض الدنيا، ومهما كثر المال فى أيديهم، فإنهم لا يتحولون عن فقرهم النفسى وظهورهم أمام الناس بمظهر البائس الفقير .

وقوله تعالى : ﴿وباءوا بغضب من الله﴾ بيان لسوء عاقبتهم فى الآخرة ومبالغة فى إهانتهم وتحقيرهم، فهم فى الدنيا أذلاء حقراء، وفى الآخرة سيرجعون بغضب من الله بسبب أفعالهم القبيحة .

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢١٧ .

قال ابن جرير - رحمه الله - يعنى بقوله تعالى ﴿وباءوا بغضب من الله﴾ : انصرفوا ورجعوا، ولا يقال باءوا إلا موصولاً إما بخير وإما بشر يقال منه باء فلان بذنبه يئوء بواً وبواء، ومنه قوله تعالى : ﴿إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك﴾ يعنى تنصرف متحملهما، وترجع بهما قد صارا عليك دون، فمعنى الكلام إذا . ورجعوا منصرفين متحملين غضب الله، قد صار عليهم من الله غضب، ووجب عليهم منه سخط^(١).

وقال صاحب الكشاف : ﴿وباءوا بغضب من الله﴾ من قولك باء فلان بفلان، إذا كان حقيقةً بأن يقتل به مساواته له ومكافأته، أى صاروا أحقاء بغضبه^(٢).

ثم صرح - سبحانه - بعد ذلك بسبب ما أحاط بهم من الذلة والمسكنة واستحقاقهم غضب الله وسخطه، فقال تعالى : ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير الحق، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ . والجملة الكريمة استئناف بياني جواب عن سؤال تقديره : لم فعل بهم كل ذلك؟ فكان الجواب، فعلنا بهم بسبب جحودهم لآيات الله، وبسبب قتلهم لأنبيائه، وخروجهم عن طاعته؛ ومجاوزتهم حدودهم والآيات تطلق ويراد بها الأدلة الشاهدة على وحدانية الله تعالى وربوبيته، وتطلق ويراد بها النصوص التى تشتمل عليها الكتب السماوية، وتطلق ويراد بها الأدلة الشاهدة على صدق الرسل - عليهم الصلاة والسلام - فيما يبلغون عن الله - تعالى - وهى التى يسميها علماء التوحيد المعجزات، وقد كفر اليهود بكل هذه الضروب من الآيات، ومردوا على ذلك كما يفيدته التعبير بالفعل المضارع ﴿يكفرون﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ويقتلون النبيين بغير الحق﴾ أى ويقتلون أنبياء الله الذين بعثهم مبشرين ومنذرين، ولقد قتل اليهود - فيمن قتلوا من الأنبياء - زكريا وابنه يحيى - عليهما السلام - لأنها آيا الانقياد وراء شهواتهم وأهوائهم .

وقال - سبحانه - ﴿بغير الحق﴾ مع أن قتل الأنبياء لا يكون بحق أبداً، لإفادة أن قتلهم لهم كان بغير وجه معتبر فى شريعتهم لأنها تحرمه، ﴿أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً﴾ فهذا القيد المقصود به الاحتجاج عليهم بأصول دينهم وتحليل مذمتهم، وتقبيح إجرامهم، حيث إنهم قتلوا أنبياءهم بدون خطأ فى الفهم، أو تأول فى الحكم، أو شبهة فى الأمر، وإنما فعلوا ما فعلوا وهم عالمون بقبح ما ارتكبوا، وخالفوا شرع الله عن تعمد وإصرار.

قال صاحب الكشاف : «فإن قلت : قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير الحق فما فائدة ذكره؟

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢١٧ .

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٣١٥ .

قلت : معناه أنهم قتلوهم بغير الحق عندهم ، لأنهم لم يقتلوا ولا أفسدوا في الأرض فيقتلوا ، وإنما نصحوهم ودعوهم إلى ما ينفعهم فقتلوهم ، فلو سئلوا وأنصفوا من أنفسهم لم يذكروا وجهاً يستحقون به للقتل عندهم»^(١) .

وقال الإمام الرازي : « فإن قيل : قال هنا ﴿ويقتلون النبيين بغير الحق﴾ وقال في آل عمران ﴿ويقتلون النبيين بغير حق﴾ فما الفرق ؟ قلت . إن الحق المعلوم فيما بين المسلمين الذي يوجب القتل يتجلى في حديث : « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : « كفر بعد إيمان ، وزناً بعد إحصان ، وقتل نفس بغير حق » فالحق المذكور هنا بحرف التعريف إشارة إلى هذا وأما الحق المنكر فالمراد به تأكيد العموم ، أى لم يكن هناك أى حق يستندون إليه ، لا هذا الذى يعرفه المسلمون ولا غيره البتة»^(٢) .

ثم قال تعالى : ﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ .

العصيان : الخروج عن طاعة الله . والاعتداء : تجاوز الحد الذى حده الله - تعالى - لعباده إلى غيره . وكل متجاوز حد شيء إلى غيره فقد تعداه إلى ما جاوز إليه . وللمفسرين فى مرجع الإشارة « ذلك » رأيان :

أحدهما : أنه يعود إلى كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء ، وعليه يكون المعنى :

إن هؤلاء اليهود قد مرونا على عصيانهم لخالقهم ، وتعديههم حدوده بجرأة وعدم مبالاة فنشأ عن هذا التمرد والطغيان أن كفروا بآيات الله - تعالى - وامتدت أيديهم الأثيمة إلى قتل الأنبياء بقلوب كالحجارة أو أشد قسوة .

والجملة الكريمة على هذا الرأى تفيد أن التردى فى المعاصى وارتكاب المناهى ، وتجاوز الحدود المشروعة ، يؤدى إلى الانتقال من صغير الذنوب إلى كبيرها ، ومن حقيرها إلى عظيمها ، لأن هؤلاء اليهود لما استمروا المعاصى وداوموا على تعدى الحدود ، هانت على نفوسهم الفضائل ، وانكسرت أمام شهواتهم كل المثل العليا ، فكذبوا بآيات الله تكذيباً وقتلوا من جاءهم بالهدى ودين الحق .

والثانى : يرى أصحابه أن اسم الإشارة الثانى يعود إلى نفس المشار إليه باسم الإشارة الأول ، وتكون الحكمة فى تكرار الإشارة هو تمييز المشار إليه حرصاً على معرفته ويكون العصيان والاعتداء سببين آخرين لضرب الذلة والمسكنة عليهم ، واستحقاقهم لغضب الله - تعالى -

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢١٧ .

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ١ ص ٣٩٠ .

كما بينا، والإشارة حيثئذ من قبيل التكرير المغنى عن العطف كما في قوله تعالى : ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ .

والمعنى أن هؤلاء اليهود قد لزمتهم الذلة والمسكنة، وصاروا أحقاء بسخط الله بسبب كفرهم بآياتنا. وقتلهم أنبياءنا، وخرجهم عن طاعتنا وتعديهم لحدودنا.

وعلى هذا الرأى يكون ذكر أسباب العقوبة التى حلت بهم فى الدرجة العليا من حسن الترتيب، فقد بدأ - سبحانه - بما فعلوه فى حقه وهو كفرهم بآياته، ثم ثنى بما يتلوه فى العظم وهو قتلهم لأنبيائه، ثم وصمهم بعد ذلك بالعصيان والخروج عن طاعته ثم ختم أسباب العقوبة بدمغهم بالاعتداء، وتخطى الحدود، وعدم المبالاة بالعهود، وهذا الترتيب من لطائف أسلوب القرآن الكريم فى سوق الأحكام، مشفوعة بعلمها وأسبابها.

وبهذا تكون الآية الكريمة قد وصفت بنى إسرائيل بجحود النعم، وسوء الأدب وحق التفكير، وهوان النفس، وبلادة الطبع، وبطر الحق، والبغى على أنفسهم وعلى غيرهم، وما وصفتهم به أيده الأيام وصدقته الأحداث فى كل زمان ومكان.

وبعد أن بين القرآن الكريم ما حل باليهود من عقوبات بسبب جحودهم لنعم الله، وكفرهم بآياته - أردف بذلك ما وعد الله به المؤمنين من جزيل الثواب.

فقال - تعالى - :

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ
مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ
عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

ففى هذه الآية الكريمة حدثنا القرآن عن أربع فرق من الناس :

أما الفرقة الأولى : فهى فرقة الذين آمنوا، والمراد بهم الذين آمنوا بالنبى ﷺ، وصدقوه.

وابتدأ القرآن بهم للإشعار بأن دين الإسلام دين قائم على أساس أن الفوز برضا الله لا ينال إلا بالإيمان الصادق والعمل الصالح، ولا فضل لأمة على أمة إلا بذلك، كما قال - تعالى - :
﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ .

وأما الفرقة الثانية : فهى فرقة الذين هادوا، أى : صاروا يهودًا، يقال : هاد وتهود، أى دخل فى اليهودية، وسموا يهودًا نسبة إلى يهوذا أكبر أولاد يعقوب - بقلب الذال دالا فى

التعريب - أو سموًا يهودا حين تابوا من عبادة العجل، من هاد يهودا بمعنى تاب. ومنه (إنا هدنا إليك) أى: تينا.

والفرقة الثالثة: هى فرقة النصارى، جمع نصران بمعنى نصرانى، كندامى وندمان والياء فى نصرانى للمبالغة، وهم قوم عيسى - عليه السلام - قيل سموًا بذلك لأنهم كانوا أنصارًا له، وقيل إن هذا الاسم مأخوذ من الناصرة وهى القرية التى كان عيسى - عليه السلام - قد نزلها. وأما الفرقة الرابعة: فهى فرقة الصابئين جمع صابئ، وهو الخارج من دين إلى دين، يقال: صبًا الظلف والتاب والنجم - كمنع وكرم - إذا طلع. والمراد بهم الخارجون من الدين الحق إلى الدين الباطل، وهم قوم يعبدون الكواكب أو الملائكة، ويزعمون أنهم على دين صابئ بن شيث بن آدم.

وذكر القرآن الصابئة فى هذا المقام وهم من أبعد الأمم ضلالا. لينبه على أن الإيمان الصحيح والعمل الصالح يرفعان صاحبهما إلى مرتقى الفلاح. حتى ولو سبق له أنه بلغ فى الكفر والفجور أقصى غاياته.

والإيمان المشار إليه فى قوله - تعالى - : ﴿من آمن بالله واليوم الآخر﴾. الخ، يفسره بعض العلماء بالنسبة لليهود والنصارى بمعنى صدور الإيمان منهم على النحو الذى قرره الدين الحق، فمن لم تبلغه منهم دعوة الإسلام، وكان ينتمى إلى دين صحيح فى أصله بحيث يؤمن بالله واليوم الآخر ويقدم العمل الصالح على الوجه الذى يرشده إليه دينه، فله أجره على ذلك عند ربه.

أما الذين بلغتهم دعوة الإسلام من تلك الفرق ولكنهم لم يقبلوها؛ فإنهم لا يكونون ناجين من عذاب الله مهما ادعوا بأنهم يؤمنون بغيرها، لأن الشريعة الإسلامية قد نسخت ما قبلها والرسول ﷺ يقول: «لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا اتباعي».

ويفسرونه - أى الإيمان - بالنسبة للمؤمنين المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا﴾. على أنه بمعنى الثبات والدوام والإذعان، وبذلك ينتظم عطف قوله - تعالى - : ﴿وعمل صالحاً﴾ على قوله ﴿آمن﴾ مع مشاركة هؤلاء المؤمنين لتلك الفرق الثلاث فيما يترتب على الإيمان والعمل الصالح من ثواب جزيل، وعاقبة حميدة.

وبعض العلماء يرى أن معنى ﴿من آمن﴾ أى: من أحدث من هذه الفرق إيمانًا بالنبي ﷺ وبما جاء من عند ربه، قالوا: لأن مقتضى المقام هو الترغيب فى دين الإسلام، وأما بيان من مضى على دين آخر قبل نسخه فلا ملاسة له بالمقام، فضلا عن أن الصابئين ليس لهم دين تجوز رعايته فى وقت من الأوقات.

ثم بين - سبحانه - عاقبتهم فقال: ﴿فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

الأجر: الجزاء على العمل، وسمى الله ما يعطيه للمؤمن العامل أجرًا على سبيل التفضل منه.

وقال: ﴿عند ربهم﴾ ليدل على عظم الثواب، لأن ما يكون عند الله من الجزاء على العمل لا يكون إلا عظيمًا، ولأن المجازى لهم هو ربهم المنعوت بصفات الكرم والرحمة وسعة العطاء.

والمعنى: إن هؤلاء الذين آمنوا بالله عن تصديق وإذعان، وقدموا العمل الصالح الذى ينفعهم يوم لقائه، هؤلاء لهم أجرهم العظيم عند ربهم، ولا يفزعون من هول يوم القيامة كما يفزع الكافرون، ولا يفوتهم نعيم، فيحزنون عليه كما يحزن المقصرون.

ثم واصل القرآن حديثه مع بنى إسرائيل، فذكرهم بنعمة شمول الله إياهم برحمته وفضله رغم توليهم عن طاعته ونقضهم لميثاقه فقال تعالى:

وَإِذْ

أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ
بِقُوَّةٍ وَآذِكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِمَّا
بَعْدَ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ

الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾

قال ابن جرير: «وكان سبب أخذ الميثاق عليهم فيما ذكره ابن زيد، ما حدثني به يونس بن عبد الأعلى، قال: أخبرنا ابن وهب، قال ابن زيد: لما رجع موسى من عند ربه بالألواح قال لقومه بنى إسرائيل: إن هذه الألواح فيها كتاب الله، وأمره الذى أمركم به ونهى الذى نهاكم عنه. فقالوا: ومن يأخذ بقولك أنت، لا والله حتى نرى الله جهرة، حتى يطلع الله علينا فيقول: «هذا كتابي فخذ» فما له لا يكلمنا كما كلمك أنت يا موسى: قال فجاءت غضبة من الله، فجاءتهم صاعقة فصعقتهم فماتوا جميعًا، قال: ثم أحياهم الله بعد موتهم فقال لهم موسى: خذوا كتاب الله. فقالوا: لا. قال: أى شيء أصابكم؟ قالوا: متنا جميعًا، ثم حينئذ؟

قال: خذوا كتاب الله. قالوا: لا. فبعث الله ملائكة فتفتت الجبل فوقهم، فقبل لهم: أتعرفون هذا؟ قالوا نعم، هذا الطور. قال: خذوا الكتاب وإلا طرحناه عليكم، قال: فأخذوا بالميثاق. قال: ولو كانوا أخذوه أول مرة لأخذوه بغير ميثاق»^(١).

ومعنى الآيتين الكريميتين: واذكروا - يا بني إسرائيل - لتعتبروا وتتفعلوا وقت أن أخذنا عليكم جميعاً العهد بأن تعبدوا الله وحده، وتتبعوا ما جاءكم به رسله، وتعملوا بما في التوراة، واذكروا كذلك وقت أن رفعنا فوق أسلافكم الطور تهديداً لهم بالعقوبة إذا لم يطيعوا أوامر الله، وليشهدوا آية من آيات الله الدالة على قدرته، وقلنا لكم جميعاً. خذوا ما آتيناكم في كتابكم من تكاليف بجد وعزم واجتهاد، واذكروا ما فيه وتدبروه وسيروا على هديه لتتقوا الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة، ولكن الذى حصل منكم جميعاً أنكم أعرضتم عن العمل بما أخذ عليكم، فتركتم تعاليم كتابكم وأذيتم أنبياءكم، ولولا أن الله - تعالى - رآف بكم، ووفقكم للتوبة، وعفا عن زلاتكم، لكتنتم من الهالكين في دنياكم وآخرتكم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ تذكير لبني إسرائيل بنعمة من أمثال النعم الواردة في الآيات السالفة، لأن أخذ الميثاق عليهم ليعملوا بما في التوراة من الأمور العائد عليهم نفعها.

وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ أى: أعليناه، وجعلناه فوق رؤوسكم كال مظلة. والطور: اسم للجبل الذى ناجى عليه موسى ربه - تعالى - كان بنو إسرائيل بأسفله فرفع فوق رؤوسهم.

وقوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ مقول لقول محذوف، دل عليه المعنى، والتقدير: وقلنا لهم: خذوا ما آتيناكم بقوة، أى: تمسكوا به، واعملوا بما فيه بجد ونشاط، وتقبلوه، واجتنبوا نواهيه، واعملوا ما جاء به بدون تردد.

والمراد «بما آتيناكم» التوراة التى أنزلها الله تعالى على موسى لتكون هدى ونوراً لهم. وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أى احفظوه وتدبروه وتدارسوه، وامثلوا أوامره، واجتنبوا نواهيه، واعملوا بكل ما جاء فيه بلا تعطيل لشيء منه.

قال الإمام القرطبي: «وهذا هو المقصود من الكتب، العمل بمقتضاها لا تلاوتها باللسان - فحسب -، فقد روى النسائي عن أبي سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ، قال: «إن من أشر الناس رجلاً فاسقاً يقرأ القرآن، لا يرعوى إلى شيء منه»^(٢).

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٣٢٤.

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٣٤٧.

و«لعل» في قوله تعالى: ﴿لعلكم تتقون﴾ إما للتعليل، فيكون المعنى: خذوا الكتاب بجد وعزم، واعملوا بما فيه بصدق وطاعة، لتتقوا الهلاك في عاجلتكم وأجلتكم، وإما للترجي، وهو منصرف إلى المخاطبين، فيكون المعنى: خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه ولا تنسوه، وأنتم ترجون أن تكونوا من طائفة المتقين.

وقوله تعالى: ﴿ثم توليتم من بعد ذلك﴾ بيان لنقضهم وإعراضهم عن العمل بالميثاق الذي أخذ عليهم، ونبذوه خلف ظهورهم.

والمشار إليه بقوله تعالى: ﴿ذلك﴾ أخذ الميثاق عليهم، وقبول ما أوتوه من الكتاب، والمعنى: ثم أعرضتم وانصرفتم عن طاعتي بعد أخذ الميثاق عليكم، ومشاهدتكم للآيات التي تستكين لها القلوب؛ لأن قلوبكم كالحجارة أو أشد قسوة.

وقوله تعالى: ﴿فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين﴾ تصريح بما جباهم به - سبحانه - من رافة بهم، وقبول لتوبتهم، وعفو عن خطيئاتهم، فكأنه - سبحانه - يقول لهم: إنكم بإعراضكم عن طاعتي، ونقضكم لعهدي، وإهمالكم العمل بكتابي، وعدم تأثركم بآياتي ونذري، قد استحققتم غضبي وعذابي، ولكن حال دون حلولها بكم. فضلى الذى تدارككم ورحمتى التى وسعتكم، ولطفى وإمهالى لكم، ولولا ذلك لكنتم من الخاسرين فى دنياكم وآخرتكم، بسبب ما اجترحتم من نقض ميثاقكم

وبذلك تكون الآياتان قد ذكرتا بنى إسرائيل المعاصرين للعهد النبوى بما كان من أسلافهم من جحود النعمة، ونقض للعهد، وفى هذا التذكير تحذير لهم من السير على طريقتهم، ودعوة لهم إلى الدخول فى الإسلام واتباع محمد ﷺ.

ثم ذكرهم - سبحانه - بسوء عاقبة الذين اعتدوا منهم فى السبت، وحذرهم من أن ينهجوا نهجهم فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ

فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا

بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

الاعتداء: مجاوزة الحد، يقال: اعتدى فلان وتعدى إذا ظلم.

والسبت: المراد به اليوم المسمى بهذا الاسم، وأصل السبت - كما قال ابن جرير - الهدوء

والسكون في راحة ودعة، ولذلك قيل للنائم: مسبوت لهدوئه وسكون جسده واستراحته. كما قال - جل ثناؤه - ﴿وجعلنا نومكم سباتاً﴾ أى راحة لأبدانكم، وهو مصدر، من قول القائل سببت فلان يسبت سبتاً^(١).

وملخص قصة اعتداء بنى إسرائيل في يوم السبت، أن الله - تعالى - أخذ عليهم عهداً بأن يتفرغوا لعبادته في ذلك اليوم، وحرّم عليهم الاصطياد فيه دون سائر الأيام، وقد أراد - سبحانه - أن يختبر استعدادهم للوفاء بعهودهم، فابتلاهم بتكاثر الحيتان في يوم السبت دون غيره، فكانت تتراعى لهم على الساحل في ذلك اليوم قريبة المأخذ سهلة الاصطياد فقالوا: لو حفرنا إلى جانب ذلك البحر الذى يزخر بالأسمك يوم السبت حياضاً تنساب إليها المياه في ذلك اليوم ثم نصطادها من تلك الحياض في يوم الأحد وما بعده، وبذلك نجمع بين احترام ما عهد إلينا في يوم السبت، وبين ما تشتهي أنفسنا من الحصول على تلك الأسماك، فصحبهم فريق منهم بأن عملهم هذا إنما هو امتثال ظاهرى لأمر الله، ولكنه في حقيقته خروج عن أمره من ترك الصيد في يوم السبت، فلم يعاب أكثرهم بذلك، بل نفذ تلك الحيلة، فغضب الله عليهم ومسحهم قردة، وجعلهم عبرة لمن عاصرهم ولن أتى بعدهم..

والحديث عن أصحاب السبت قد جاء ذكره مفصلاً في سورة الأعراف^(٢) كما جاءت الإشارة إليه في سورتي النحل^(٣) والنساء^(٤).

ثم بين - سبحانه - العقوبة التى حلت بهم بسبب اعتدائهم في يوم السبت، وتحاليلهم على استحلال محارم الله فقال - تعالى -:

﴿فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾.

أى: صاغرين مطرودين مبعدين عن الخير أذلاء.

والخسوء: الطرد والإبعاد. يقال: خسأت الكلب خساً وخسوءاً - من باب منع - طردته وزجرته، وذلك إذا قلت له: اخسأ.

وجمهور المفسرين على أنهم مسحوا على الحقيقة ثم ماتوا بعد ذلك بوقت قصير.

ويرى مجاهد أنهم لم تمسخ صورهم ولكن مسخت قلوبهم، أى: إنهم مسحوا مسحاً نفسياً فصاروا كالقردة في شرورها وإفسادها لما تصل إليه أيديها.

وتلك العقوبة كانت بسبب إمعانهم في المعاصى، وتأبيهم عن قبول النصيحة، وضعف إرادتهم أمام مقاومة أطماعهم، وانتكاسهم إلى عالم الحيوان لتخليهم عن خصائص الإنسان،

(٣) الآية ١٢٤.

(٤) الآية ١٥٤.

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٣٢٧.

(٢) الآيات من ١٦٣ - ١٦٦.

فكانوا حيث أرادوا لأنفسهم من الصغار والهوان.

والضمير في قوله: ﴿فجعلناها﴾ يعود إلى العقوبة التي هي مسخهم قردة و«نكالا» أى عبرة تنكل المعتبر بها بحيث تمنعه وتردعه من ارتكاب الشر.

يقال: نكل به تنكيلا إذا صنع به صنعا يردعه ويجعل غيره يخاف ويحذر. والاسم النكال وهو ما نكلت به غيرك، وأصله من النكل - بالكسر - وهو القيد الشديد وجمعه أنكال.

وقوله: «لما بين يديها وما خلفها. أى: للذين كانوا قبل هذه العقوبة وعاشوا حتى شاهدوها، وللذين أتوا بعدها وعرفوا عن يقين خبرها.

والمعنى: فجعلنا هذه العقوبة عبرة زاجرة لمن كان قبلها وعاش حتى رآها ولمن أتى بعدها وعلم يقينا بحال العادين في السبب الذين مسخوا بسبب عصيانهم تحذيرا له من أن يعمل عملهم، فيمسخ كما مسخوا، ويحل به العذاب الذى حل بهم. كما جعلناها أيضا «موعظة للمتقين» الذين يسمعون قصتها فهم الذين من شأنهم أن ينتفعوا بالعظات، ويعتبروا بالمثلات.

ثم ساق القرآن بعد ذلك قصة من قصص بنى إسرائيل تدل على تنطعهم في الدين، ومحاولتهم تضيق ما وسعه الله عليهم، وتهربهم من الانصياع لكلمة الحق، وتشككهم في صدق أنبيائهم، وتعنتهم في السؤال. وهذه القصة هي قصة أمرهم على لسان نبيهم موسى - عليه السلام - بذبح بقرة. استمع إلى القرآن الكريم، وهو يحكى هذه القصة بأسلوبه البليغ الحكيم فيقول.

وَإِذْ قَالَ

مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَنْتَ خَدُنَا

هَذَا وَقَالَ أَعُودُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿١٧﴾ قَالُوا

ادْعُ لِنَارِكَ يَبِينُ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ

وَلَا يَكْرَهُونَ بَيْنَ ذَلِكَ فافعلوا ما تؤمرون ﴿١٨﴾ قَالُوا

ادْعُ لِنَارِكَ يَبِينُ لَنَا مَا لَوْ نَهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ

إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقْعُ لَوْ نَهَا تَسْرُ النَّظِيرِينَ ﴿١٩﴾

قَالُوا أَدْعُنَا رَبَّنَا يَبِينْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقْرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا
 إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَّا ذَلُولٌ
 تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا
 الْكَنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ
 قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَآذَرْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾
 فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ
 آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ
 فِيهَا كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً وَإِن مِّنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ
 مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِن مِّنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِن
 مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

﴿٧٤﴾

روى المفسرون أنه كان في بنى إسرائيل رجل غنى، وله ابن عم فقير لا وارث له سواه،
 فلما طال عليه موته قتله ليرثه، وحمله إلى قرية أخرى فإلقاه فيها، ثم أصبح يطلب ثأره وجاء
 بناس إلى نبيهم موسى - عليه السلام - يدعى عليهم القتل، فسألهم موسى - عليه السلام -
 فجحدهوا فسألوه أن يدعو الله ليبين لهم بدعائه القاتل الحقيقي، فدعا موسى ربه فأوحى الله -
 تعالى - إليه أن يطلب منهم أن يذبحوا بقرة، فقال لهم موسى: ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا
 بقرة...﴾ (١).

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٩٧ بتصرف وتلخيص وهناك روايات أخرى في شأن هذه القصة ذكرها ابن
 جرير وأبو حيان وغيرهما لم تذكرها لأنها لا تختلف عن النص الذي سقناه إلا في التفاصيل.

وقد ساق القرآن الكريم هذه القصة بأسلوبه البديع الذى يأخذ بمجامع القلوب، ويحرك النفوس إلى النظر والاعتبار، فقال تعالى:

﴿وَإِذ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقَرَةً، قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا، قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

ومعنى الآية الكريمة: واذكروا يا بنى إسرائيل - لتعتبروا وتتعضوا وقت أن حدث فى أسلافكم قتيلا ولم يعرف الجاني. فطلب بعض أهله وغيرهم ممن يهيمه الأمر من موسى - عليه السلام - أن يدعو الله - تعالى - ليكشف لهم عن القاتل الحقيقى، فقال لهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقَرَةً﴾ فدهشوا وقالوا بسفاهة وحمافة ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا؟﴾ أى أتجعلنا موضع سخريتك؟ ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ الذين يخبرون عنه بما لم يأمر به.

والذى عليه جمهور المفسرين أن أمرهم بذبح البقرة كان بعد تنازعهم فى شأن القاتل من هو؟ وذلك ليعرف القاتل الحقيقى إذا ضرب القتيلا ببعضها، كما سياتى فى قوله تعالى: ﴿وَإِذ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مَخْرُجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

وقد أمرهم الله - تعالى - بذبح بقرة دون غيرها من الحيوانات؛ لأنها من جنس ما عبده وهو العجل، وفى أمرهم بذلك تهوين لشأن هذا الحيوان الذى عظموه وعبده وأحبوه فكأنه - سبحانه - يقول لهم: إن هذا البقر الذى يضرب به المثل فى البلادة، لا يصلح أن يكون معبودًا من دون الله، وإنما يصلح للحرث والسقى والعمل والذبح.

وقولهم ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا؟﴾ يدل على سفههم وسوء ظنهم بنبيهم وعدم توقيرهم له وجهلهم بعظمة الله - تعالى - وما يجب أن يقابل به أمره من الانقياد والامتثال، لأنهم لو كانوا عقلاء لامتلوا أمر نبيهم، وانتظروا النتيجة بعد ذلك. ولكنهم قوم لا يعقلون.

ولما كان قولهم هذا القول يدل على اعتقادهم بأن موسى - عليه السلام - قد أخبر عن الله بما لم يؤمر به، أجابهم موسى بقوله: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾: أى ألتجىء إلى الله وأبرأ إليه من أن أكون من السفهاء الذين يروون عنه الكذب والباطل، وفى هذا الجواب تبرؤ وتنزه عن الهزء، وهو المزاح الذى يخالطه احتقار واستخفاف بالمزاح معه - لأنه لا يليق بعقلاء الناس فضلا عن رسل الله - عليهم السلام - كما أن فيه - أيضا - رداً لهم - عن طريق التعريض بهم - إلى جادة الأدب الواجب فى جانب الخالق، حيث بين لهم أن ما ظنوه به لا يليق إلا بمن يجهل عظمة الله - تعالى -.

قال فضيلة المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين عند تفسيره للآية الكريمة:

(وقد نبهت الآية الكريمة، على أن الاستهزاء بأمر من أمور الدين جهل كبير، ومن الجهل ما يلقي صاحبه في أسوأ العواقب، ويقذف به في عذاب الحريق، ومن هنا منع المحققون من أهل العلم استعمال الآيات كأمثال يضربونها في مقام المزح والهزل، وقالوا: إنما أنزل القرآن الكريم ليتلى يتدبر وخشوع، وليعمل به بتقبل وخضوع^(١)).

هذا وما أرشدهم إليه نبيهم - عليه السلام - كان كافياً لحملهم على أن يذبحوا أى بقرة تنفيذاً لأمر ربهم، ولكن طبيعتهم الملتوية المعقدة لم تفارقهم، فأخذوا يسألون كما أخبر القرآن عنهم بقوله: ﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ﴾؟

أى: قال بنو إسرائيل لموسى اطلب لنا من ربك أن يبين لنا حالها وصفاتها^(٢). وسبب سؤالهم عن صفتها، تعجبهم من بقرة مذبوحة بأيديهم، يضرب ببعضها ميت لتعود إليه الحياة، وكأنهم - لقلة فهمهم - قد توقعوا أن البقرة التى يكون لها أثر في معرفة قاتل القاتل، لا بد أن تكون لها صفة متميزة عن سائر جنسها.

وسؤالهم بهذه الطريقة يوحى بسوء أدبهم مع الله - تعالى - ومع نبيهم موسى - عليه السلام - لأنهم قالوا ﴿ ادع لنا ربك ﴾ فكأنما هو رب موسى وحده، لا ربهم كذلك، وكان المسألة لا تعنيهم هم إنما تعنى موسى وربه ومع هذا فقد أجابهم إجابة المرئى الحكيم للأنباع السفهاء الذين ابتلى بهم فقال: ﴿ قال إنه يقول إنها بقرة لا افترض^(٣) ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون ﴾.

أى: قال لهم موسى بعد أن أخبره الله بصفتها: إنه - تعالى - يقول: إن البقرة التى أمركم بذبحها لا مسنة ولا صغيرة، بل نصف بينهما، فاتركوا الإلحاح فى الأسئلة، وسارعوا إلى امتثال ما أمرتم به.

(١) مجلة لواء الإسلام العدد السابع السنة الثانية ص ٨.

(٢) ﴿ ما ﴾ هنا مراد بها السؤال عن الصفة كما يقول من يسمع الناس يتكلمون عن حاتم أو الأحنف وقد علم أنها رجلان، ولم يعلم صفتيها ما حاتم؟ أو ما الأحنف؟ فيقال: كريم أو حليم.

(٣) الفارض المسنة اسم للبقرة التى انقطعت ولادتها من الكبر، وسميت بذلك لأنها فرضت سنّها أى قطعتها وبلغت آخرها. والبكر هى الفتية مشتقة من البكرة - بالضم - وهى أول النهار، والمراد بها هنا التى لم تلد. قال ابن جرير (البكر من إناث البهائم وبنى آدم ما لم يفتحله الفحل) والعوان هى المتوسطة فى السن: وضح إضافة (بين) إلى اسم الإشارة (ذلك) لأنه أشير إلى القارض والبكر. قال ابن جرير: (العوان النصف التى قد ولدت بطناً من بطن. . . وجمعها عون. يقال: امرأة عوان من نسوة عون، وحرب عوان إذا كانت حرباً قد قوتل فيها مرة بعد أخرى).

وقد أكد - سبحانه - جملة ﴿قال إنه يقول إنها بقرة﴾ تنزيلاً لهم منزلة المنكرين لاعتنتهم في السؤال ومحاولتهم التنصل مما أمروا به.

ولم يقل القرآن الكريم من أول الأمر: إنها بقرة عوان بل جاء بالوصفين السابقين ﴿لا فارض ولا بكر﴾ للتعريض بغاوتهم، والتلميح بعدم فهمهم للأساليب الموجزة، لذا لجأ في جوابهم إلى تكثير التوصيف حتى لا يعودوا إلى تكرار الأسئلة.

وقوله تعالى: ﴿فافعلوا ما تؤمرون﴾ يقصد به قطع العذر مع الحض على الطاعة والامتثال. وما موصولة، والعائد محذوف بعد حذف جاره، على طريقة التوسع، أى: إذا كان الأمر كذلك، فبادروا إلى تنفيذ ما تؤمرون به، لتصلوا إلى معرفة القاتل الحقيقي بأيسر طريق، ولا تضيقوا على أنفسكم ما وسعه الله لكم، ولا تكثروا من المراجعة، فإنها ليست في مصلحتكم.

ومع ذلك فقد أبوا إلا تنطعاً، واستقصاء في السؤال، فأخذوا يسألون عن لونها بعد أن عرفوا سننها، فقالوا كما حكى القرآن عنهم:

﴿قالوا ادع لنا ربك يبين ما لونها. قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين﴾. والمعنى: قال بنو إسرائيل لنبيهم، مشددين على أنفسهم بعد أن عرفوا صفة البقرة من جهة سننها: سل لنا ربك يبين لنا ما لونها، لكي يسهل علينا الحصول عليها، فأجابهم بقوله: إنه - تعالى - يقول إن البقرة التي أمرتكم بذبحها صفراء فاقع لونها، تعجب في هيئتها ومنظرها وحسن شكلها الناظرين إليها...

قال ابن جرير: «والفقوع في الصفرة نظير النصوع في البياض، وهو شدته وصرافته»^(١).

وقال صاحب الكشاف: «الفقوع أشد ما يكون مع الصفرة، وأنصغنه يقال في التوكيد أصفر فاقع ووارس، كما يقال: أسود حالك،.. ثم قال فإن قلت: فهلا قيل: صفراء فاقعة، وأى فائدة في ذكر اللون؟ قلت: الفائدة فيه التوكيد، لأن اللون اسم للهيئة وهي الصفرة، فكانه قيل: شديد صفرتها فهو من قولك: جد جده»^(٢).

وإلى هنا يكونون قد عرفوا وصف البقرة من حيث سننها ووصفها من حيث لونها، فهل أغتتهم هذه الأوصاف؟ كلا! ما أغتتهم. فقد أخذوا يسألون للمرة الثالثة عما هم في غنى عنه فقالوا كما حكى القرآن عنهم: ﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا. وإنا

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٣٣٥.

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢١٩.

إن شاء الله لمهتدون . قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول، تثير الأرض ولا تسقى الحرث، مسلمة لا شية فيها : قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴿١﴾ .

ومعنى الآيتين الكريميتين : قال بنو إسرائيل لموسى بعد أن عرفوا سن البقرة ولونها : سل من أجلنا ربك أن يزيدنا أيضاً لحال البقرة التي أمرنا بذبحها . حيث إن البقر الموصوف بالوصفين السابقين كثير، فاشتبه علينا أيها نذبح، وإنا إن شاء الله بعد هذا البيان منك لمهتدون إليها، ومنفذون لما تكلفنا به، فأجابهم موسى بقوله : «إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث، مسلمة لا شية فيها» أى قال إنه - سبحانه - يقول: أنها بقرة سائمة ليست مذللة بالعمل في الحراثة ولا في السقى، وهى بعد ذلك سليمة من كل عيب، ليس فيها لون يخالف لونها الذى هو الصفرة الفاقعة، فلما وجدوا أن جميع مشخصاتها ومميزاتها قد اكتملت ﴿١﴾ قالوا الآن جئت بالحق ﴿١﴾ الواضح، ولم يبق إشكال فى أمرها، وبحوثها عنها، وحصلوها ﴿١﴾ فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴿١﴾ لكثرة أسئلتهم وترددهم .

فقوله - تعالى - : ﴿١﴾ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ﴿١﴾ حكاية لسؤالهم الثالث الذى وجهوه إلى نبيهم - عليه السلام - ليزدادوا معرفة بحال البقرة وصفتها من حيث نفاستها، بعد أن عرفوا سنها ولونها .

فكأنهم يقولون له : إن فى أجوبتك السابقة عنها تقصيراً يشق معه تمييزها، فسل من أجلنا ربك ليزيدنا بياناً لحالها، وكأنما أحسوا بأنهم قد أثقلوا عليه وتجاوزوا الحدود المعقولة فى الطلب، فعملوا ذلك بقولهم .

﴿١﴾ إن البقر تشابه علينا ﴿١﴾ أى : لا تتضايق من كثرة أسئلتنا، فإن لنا عذرنا فى هذا التكرار . لأن البقر الموصوف بالعوان وبالصفرة الفاقعة كثير، فاشتبه علينا أمر تلك البقرة التى تريدنا أن نذبحها .

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور : «وإنما لم يعتذروا فى المرتين الأوليين واعتذروا فى الثالثة، لأن للثلاثة فى التكرير وقعاً من النفس فى التأكيد والسامة وغير ذلك، ولذا كثر فى أحوال البشر وشرائعهم التوقيت بالثلاثة» (١)

وقولهم : ﴿١﴾ وإنا إن شاء الله لمهتدون ﴿١﴾ حض لنبيهم موسى - عليه السلام - على الدعاء، ووعد له بالطاعة والامتثال، ودفع للسامة عن نفسه من كثرة أسئلتهم، وتبرير لمسلكتهم فى كثرة المراجعة حتى يتفادوا غضبه، فكأنهم يقولون له :

(١) تفسير التحرير والتنوير ج ١ ص ٥٣٣ .

اجتهد في الدعاء من أجل أن يزيدنا ربك إيضاحًا، وكشفًا لحال تلك البقرة التي تريد منا أن نذبحها، وإنا - إن شاء الله - بسبب هذا الإيضاح سنهتدي إليها، ثم إلى القاتل الحقيقي، وبذلك ندرك الحكمة، التي من أجلها أمرتنا بذبحها.

قال ابن جرير: وأما قوله تعالى: ﴿وإنا إن شاء الله لَمُهتدون﴾ فإنهم عنوا وإنا إن شاء الله لمين لنا ما التبس علينا وتشابه من أمر البقرة التي أمرنا بذبحها. ومعنى اهتدائهم في هذا الموضوع تبينهم ذلك الذي لزمهم ذبحه مما سواه من أجناس البقر^(١).

وفي قوله تعالى: ﴿قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض، ولا تسقى الحرث مسلمة لاشية فيها﴾ إضافة أوصاف جديدة للبقرة المطلوبة، كانوا في غنى عنها لو أطاعوا نبيهم من أول الأمر، ولكنهم للجاجتهم، وسوء اختيارهم، وبعد أفهامهم عن مقاصد الشريعة، ضيقوا على أنفسهم دائرة الاختيار، فأصبحوا مكلفين بالبحث عن بقرة موصوفة بأنها متوسطة السن، لونها أصفر فاقع، تبهج الناظرين إليها، وهي، بعد ذلك، سائمة نفيسة غير مذلة ولا مدربة على حرث الأرض أو سقى الزرع، سليمة من العيوب، ليس فيها لون يخالف لونها الذي هو الصفرة الفاقعة.

وقوله تعالى: ﴿لا ذلول﴾^(٢) صفة لبقرة، يقال: بقرة ذلول، أى: روضة زالت صعوبتها، وإثارة الأرض: تحريكها وقلبها بالحرث والزراعة والحرث: شقها لإلقاء البذور فيها. والمراد: نفي التذليل ونفي إثارة الأرض وسقى الزرع عن البقرة المطلوبة.

أى: هى بقرة صعبة لم يذلها العمل في حراثة الأرض، ولا فى سقى الزرع، فهى معفاة من العمل فى هذه الأشياء. و﴿لا﴾ فى قوله تعالى: ﴿لا ذلول﴾ للنفى، وفى قوله تعالى: ﴿ولا تسقى الحرث﴾ مزيدة لتوكيد الأولى، لأن المعنى: لا ذلول تثير وتسقى، وأعيد فى قوله تعالى: ﴿ولا تسقى الحرث﴾ مراعاة للاستعمال الفصيح.

وقوله - تعالى - : ﴿مسلمة لاشية فيها﴾ صفتان للبقرة، ومسلمة مفعلة من السلامة. والشية: اللون المخالف لبقية لون الشيء، وأصله من وشى الشيء، وهو تحسين عيوبه التى تكون فيه بضروب مختلفة من ألوان سداه ولحمته.

والمعنى: إن هذه البقرة سليمة من العيوب المختلفة، وليس فيها لون يخالف لون جلدها من

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٣٥٨.

(٢) الذلول - بفتح الذال - فعول من ذل ذلا - بكسر الذال - فى المصدر بمعنى لأن وسهل، وأما الذل - بضم الذال - فهو ضد العجز، وهما مصدران لفعل واحد خص فى الاستعمال أحد المصدرين بأحد المعنيين.

بياض أو سواد أو غيرهما، بل هي صفراء كلها.

وأرادوا بالحق في قوله تعالى: ﴿ قالوا الآن جئت بالحق ﴾ الوصف الواضح الذي لا اشتباه فيه ولا احتمال، فكأنهم يقولون له: الآن - فقط - جئنا بحقيقة وصف البقرة، فقد ميزتها عن جميع ما عداها، من جهة اللون وكونها من السوائم لا العوامل، وبذلك لم يبق لنا في شأنها اشتباه أصلاً.

والفاء في قوله تعالى: ﴿ فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ قد عطف ما بعدها على محذوف يدل عليه المقام، والتقدير فظفروا بها فذبحوها، أى: فذبح قوم موسى البقرة التي وصفها الله - تعالى - لهم، بعد ما قاربوا أن يتركوا ذبحها، ويدعوا ما أمروا به، لتشككهم في صحة ما يوجه إليهم من إرشادات ولكثرة مما طللهم.

قال صاحب الكشاف: وقوله تعالى: ﴿ وما كادوا يفعلون ﴾ استئصال لاستقصائهم، وأنهم لتطويلهم المفرط. وكثرة استكشافهم، ما كادوا يذبحونها وما كادت تنتهي سؤالاتهم، وما كاد ينقطع خيط إسهابهم فيها وتعمقهم، وقيل: ما كادوا يذبحونها لغلاء ثمنها، وقيل لخوف الفضيحة في ظهور القاتل^(١).

ثم كشف الله - تعالى - بعد ذلك عن الغاية التي من أجلها أمروا بذبح البقرة فقال تعالى: ﴿ وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون ﴾.

المعنى: واذكروا يا بنى إسرائيل إذ قتلتم نفساً، فاختلتم وتنازعتم في قاتلها، ودفع كل واحد منكم التهمة عن نفسه، والله - عز وجل - مخرج لا محالة ما كنتم من أمر القاتل، فقد بين - سبحانه - الحق في ذلك فقال على لسان رسوله موسى - عليه السلام - اضربوا القاتل بأى جزء من أجزاء البقرة، فضربتموه ببعضها فعادت إليه الحياة - بإذن الله - وأخبر عن قاتله، ويمثل هذا الإحياء لذلك القاتل بعد موته، يحيى الله الموتى للحساب والجزاء يوم القيامة، ويبين لكم الدلائل الدالة على أنه قدير على كل شيء رجاء أن تعقلوا الأمور على وجهها السليم.

وجهور المفسرين على أن واقعة قتل النفس وتنازعهم فيها، حصلت قبل الأمر بذبح البقرة، إلا أن القرآن الكريم أخرها في الذكر ليعدد على بنى إسرائيل جناياتهم وليشوق النفوس إلى معرفة الحكمة من وراء الأمر بذبحها، فتقبلها بشغف واهتمام.

قال صاحب الكشاف. فإن قلت فما للقصة لم تفص على تربيها، وكان حقها أن يقدم ذكر

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٣٠.

القتيل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها، وأن يقال : وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها؟ قلت : كل ما قص من قصص بنى إسرائيل إنما قص تعديداً لما وجد منهم من الجنايات، وتقريعاً لهم عليها، ولما جدد فيهم من الآيات العظام، وهاتان قصتان كل واحدة منها مستقلة بنوع من التقريع وإن كانتا متصلتين متحدتين.

فالأولى : لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك .

والثانية : للتقريع على قتل النفس المحرمة وما تبعه من الآية العظيمة، وإنما قدم قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتل، لأنه لو عمل على عكسه لكانت القصة واحدة، ولذهب الغرض من تشية التقريع، ولقد روعيت نكتة بعد ما استؤنفت الثانية استئناف قصة برأسها، أن وصلت بالأولى، دلالة على اتحادهما، بضمير البقرة لا باسمها الصريح في قوله : ﴿اضربوه ببعضها﴾ حتى تبين أنها قصتان فيما يرجع إلى التقريع ونيته، بإخراج الثانية مخرج الاستئناف مع تأخيرها، وأنها قصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة^(١).

وقد أسند القرآن الكريم القتل إلى جميعهم في قوله تعالى : ﴿وإذ قتلتم﴾ مع أن القاتل بعضهم، للإشعار بأن الأمة في مجموعها وتكافلها كالشخص الواحد.

وأسند القتل - أيضاً - إلى اليهود المعاصرين للعهد النبوي، لأنهم من سلالات أولئك الذين حدث فيهم القتل، وكثيراً ما يستعمل القرآن الكريم هذا الأسلوب للتنبية على أن الخلف قد سار على طريقة السلف في الانحراف والضلال.

وقوله تعالى : ﴿فادارأتم فيها﴾ بيان لما حصل منهم بعد قتل النفس التي ذكرنا قصتها ومعنى ادارأتم فيها : اختلفتم وتخاصمتم في شأنها لأن المنخاصمين يدرأ بعضهم بعضاً أى يدفعه ويزحمه، أى تدافعتهم بمعنى طرح قتلها بعضكم على بعض فدفع المطروح عليه الطارح، ليدفع الجناية عن نفسه ويتهم غيره.

وقوله تعالى : ﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ معناه : والله - تعالى - مظهر ومعلن ما كنتم تسترونه من أمر القتل الذي قتلتموه، ثم تنازعتم في شأن قاتله، وذلك ليتبين القاتل الحقيقي بدون أن يظلم غيره.

وهذه الجملة الكريمة ﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ معترضة بين قوله تعالى ﴿فادارأتم﴾ وبين قوله تعالى : ﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾ . وفائدته إشعار المخاطبين قبل أن يسمعوا ما أمروا بفعله، بأن القاتل الحقيقي سبنكشف أمره لا محالة.

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٢٠.

قال صاحب تفسير التحرير والتنوير: « وإنما تعلق إرادة الله بكشف حال من قتل هذا القتيل - مع أنه، ليس أول قتيل ظل دمه في الأمم - إكراماً لموسى - عليه السلام - أن يضيع دم في قومه وهو بين أظهرهم، وبمراى ومسمع منه، لاسيما وقد قصد القاتلون استغفاله ودبروا المكيدة في إظهار المطالبة بدمه، فلولم يظهر الله - تعالى - هذا الدم وبين سافكه - لضعف يقين القوم برسولهم موسى - عليه السلام - وكان ذلك مما يزيد شكهم في صدقه فينقلبوا كافرين، فكان إظهار القاتل الحقيقي إكراماً من الله تعالى - لموسى، ورحمة بالقوم لثلا يضلوا»^(١).

وقوله تعالى: ﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾ إرشاد لهم إلى الوسيلة التي عن طريقها سيهدون إلى القاتل الحقيقي، والضمير في قوله ﴿اضربوه﴾ يعود على النفس، وتذكيره مراعى فيه معناها هو الشخص أو القتيل.

وضرب القتيل ببعضها - أي كان ذلك البعض - دليل على كمال قدرة الله تعالى. وفيه تيسير عليهم. واسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿كذلك يحيى الله الموتى﴾ مشار به إلى مخدوف دل عليه سياق الكلام.

والتقدير: فقلنا لقوم موسى الذين تنازعوا في شأن القتيل اضربوه ببعض البقرة ليحيا، فضرِبوه فأحياء الله، وأخبر القتيل عن قاتله، وكمثل إحيائه يحيى الله الموتى في الآخرة للثواب والعقاب.

وبذلك تكون الآية ظاهرة في أن الذى ضرب ببعض البقرة قد صار حياً بعد موته. قال الإمام ابن جرير - رحمه الله - : فإن قيل : وما كان معنى الأمر بضرب القتيل ببعضها؟ قيل : ليحيا فينبىء نبي الله والذين اداروا فيه عن قاتله.

فإن قال : وأين الخبر عن أن الله - تعالى - أمرهم بذلك؟ قيل : ترك ذلك اكتفاء بدلالة ما ذكر من الكلام الدال عليه، والمعنى : فقلنا اضربوه ببعضها ليحيا فضرِبوه فحيى، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿كذلك يحيى الله الموتى ويريكهم آياته لعلكم تعقلون﴾^(٢).

والمقصود بالآيات في قوله تعالى: ﴿ويريكهم آياته لعلكم تعقلون﴾ الدلائل الدالة على أن الله على كل شيء قدير والتي منها ما شاهدوه بأعينهم من ترتب الحياة على ضرب القتيل بعضوميت، وأخبره عن قاتله، واهتدائهم بسبب ذلك إلى القاتل الحقيقي. وذلك لكى تستعملوا عقولكم في الخير. وتوقنوا بأن من قدر على إحياء نفس، واحدة فهو قادر على إحياء الأنفس جميعاً لأنه - سبحانه - لا يصعب عليه شيء.

(١) تفسير التحرير والتنوير ج ١ ص ٥٢٩. (٢) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٣٠٩.

هذا ولصاحب المنار - رحمه الله - رأى في تفسير الآية الكريمة، فهو يرى أن المراد بالإحياء في قوله تعالى ﴿كذلك يحيى الله الموتى﴾ حفظ الدماء وأستبقاؤها وليس المراد به عنده الإحياء الحقيقي بعد الموت.

فقد قال في تفسيره: وأما قوله تعالى: ﴿فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى﴾ فهو بيان لإخراج ما يكتبون، ويروون في هذا الضرب روايات كثيرة. قيل: إن المراد اضربوا المقتول بلسانها وقيل بفخذها وقيل بذنبها، وقالوا: أنهم ضربوه فعدت إليه الحياة، وقال قتلنى أخى أو ابن فلان، الخ ما قالوه، والآية ليست أيضاً نصاً في جملة فكيف بتفصيله؟ والظاهر مما قدمنا أن ذلك العمل كان وسيلة عندهم للفصل في الدماء عند التنازع في القاتل إذا وجد القاتل قرب بلد ولم يعرف قاتله ليعرف الجاني من غيره فمن غسل يده وفعل ما رسم لذلك في الشريعة برىء من الدم ومن لم يفعل ثبتت عليه الجناية.

ومعنى إحياء الموتى على هذا حفظ الدماء التي كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف في قتل تلك النفس، أى يحييها بمثل هذه الأحكام، وهذا الإحياء على حد قوله تعالى ﴿ومن أحيأها فكأنما أحيأ الناس جميعاً﴾ وقوله تعالى ﴿ولكم في القصص حياة﴾.

فالإحياء هنا معناه الاستبقاء كما هو المعنى في الآيتين^(١)...

والذى نراه أن المراد بالإحياء في قوله تعالى: ﴿كذلك يحيى الله الموتى﴾ الإحياء الحقيقي للميت بعد موته، وأن تفسيره بحفظ الدماء وأستبقائها ضعيف لما يأتى:

أولاً: مخالفته لما ورد عن السلف في تفسير الآية الكريمة فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: «لما ضرب المقتول ببعضها - يعنى ببعض البقرة - جلس حياً، فقيل له من قتلك؟ قال: بنو أخى قتلونى ثم قبض^(٢)...»

ثانياً: ما ذهب إليه صاحب المنار لا يدل عليه القرآن الكريم لا إجمالاً ولا تفصيلاً، ولا تصريحاً ولا تلميحاً، لأن قوله تعالى ﴿كذلك يحيى الله الموتى﴾ ظاهر كل الظهور، في أن المراد بالأحياء رد الحياة إليهم بعد ذهابها عنهم، إذ الموت هم الذين ماتوا بالفعل، وإحياءهم رد أرواحهم بعد موتهم وليس هناك نص صحيح يعتمد عليه في مخالفة هذا الظاهر، ولا توجد أيضاً قرينة مانعة من إرادة هذا المعنى المتبادر من الآية بأدنى تأمل وما دام الأمر كذلك فلا يجوز تأويله بما يخالف ما يدل عليه اللفظ دلالة واضحة، ومن التعسف الظاهر أن يراد من الموتى

(١) تفسير المنار ج ١ ص ١٥١.

(٢) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٣٤٢.

الأحياء من الناس، ويأحياء الموتى تشريع العقوبات صوتاً لدماء الأحياء منهم والله تعالى حينما أراد أن يدل على هذا المعنى قال ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون﴾ .
فهذه الآية الكريمة تدل على أن القصاص من الجناة يحفظ على الناس حياتهم بدون التواء أو تعمية .

ثالثاً : تفسير الإحياء برد الحياة إلى الموتى، كما قال المفسرون، يؤدي إلى غرس الإيمان بصحة البعث في القلوب، لأن المعنى عليه، كهذا الإحياء العجيب - وهو إحياء القتيل بضربه ببعض البقرة ليخبر عن قاتله - يحى الله الموتى بأن يعيهم من قبورهم يوم القيامة، ليحاسبهم على أعمالهم، فيكون إثباتاً للبعث عن طريق المشاهدة حتى لا ينكره منكر.

رابعاً : قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾ قرينة قوية على أن المراد بالإحياء، رد الحياة إلى الموتى بعد موتهم لأن المراد ﴿بآياته﴾ في هذا الموضع، - كما قال المفسرون - الدلائل الدالة على عظم قدرته - تعالى - وذلك إنما يكون في خلق الأمور العجيبة الخارقة للعادة والتي ليست في طاقة البشر، كإحياء الموتى وبعثهم من قبورهم للحساب والجزاء .
ثم بين القرآن الكريم، بعد ذلك أن هذه المعجزات الباهرة التي تزلزل المشاعر، وتهز القلوب، وتبعث في النفوس الإيمان، لم تؤثر في قلوب بني إسرائيل الصلدة لأنه قد طرأ عليهم بعد رؤيتها ما أزال آثارها من قلوبهم، ومحا الاعتبار بها من عقولهم، فقال تعالى : ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله، وما الله بغافل عما تعملون﴾ .

والمعنى : ثم صلبت قلوبكم - يا بني إسرائيل - وغلظت من بعد أن رأيتم ما رأيتم من معجزات منها إحياء القتيل أمام أعينكم، فهي كالحجارة في صلابتها وبيوستها، بل هي أشد صلابة منها، لأن من الحجارة ما فيه ثقب متعددة، وخروق متسعة، فتتدفق منه مياه الأنهار التي تعود بالمنافع على المخلوقات، ولأن من بينها ما يتصدع تصدعاً قليلاً فيخرج منه ماء العيون والأبار ولأن منها ما يتردى من رأس الجبل إلى الأرض والسفح من خوف الله وخشيته، أما أنتم - يا بني إسرائيل - فإن قلوبكم لا تتأثر بالمواعظ ولا تنقاد للخير، ولا تفعل ما تؤمر به، مهما تعاقبت عليكم النعم والنقم والآيات، وما الله بغافل عما تعملون :

وقوله تعالى : ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾ بيان لما طرأ على قلوب بني إسرائيل من بعد عن الاعتبار، وعدم تأثر بالعظات وإعراض عن الإنابة والإذعان لآيات الله وتحلل من المواثيق التي أقرروا بها على أنفسهم .

وجيء (بشم) التي هي للترتيب والتراخي . لاستبعاد استيلاء الغلظة والقسوة على قلوبهم بعد أن رأوا الكثير من المعجزات، فكأنه - سبحانه - يقول لهم - بعد أن ساق لهم قصة البقرة وما ترتب عليها من منافع وعبر: ومع ذلك كله لم تلن قلوبكم - يا بني إسرائيل - ولم تفدكم المعجزات: فقسست قلوبكم وكان من المستبعد أن تقسوا.

وقوله تعالى: ﴿من بعد ذلك﴾ فيه زيادة تعجيب من إحاطة القساوة بقلوبهم، بعد توالي النعم، وتكاثر المعجزات التي أشار القرآن الكريم إلى بعضها في الآيات السابقة. واسم الإشارة (ذلك) مشاربه إلى إحياء القتيل بعد ضربه بجزء من البقرة أو إلى جميع النعم والمعجزات الواردة في الآيات السابقة.

و (أو) في قوله تعالى: ﴿فهى كالحجارة أو أشد قسوة﴾ قيل: للتنوع، فإن قلوبهم متفاوتة في القسوة، فمنها ما هو قاس كالحجارة، ومنها ما هو أشد منها قسوة، أى: فبعض قلوبكم كالحجارة في صلابتها وبعضها أشد من الحجارة في صلابتها.

وقيل: للتشكيك بالنسبة للمخاطبين، لا إلى المتكلم، كأن يقول أحد الناس لآخر، إن هذه القلوب قسوتها تشبه الحجارة أو تزيد عليها.

والأظهر أن تكون للإضراب على طريقة المبالغة والمعنى: ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة بل هى أشد منها قسوة، إذ لا شعور فيها يأتي بخير، والحجارة ليست كذلك. وشبه - سبحانه - قلوبهم بالحجارة في القسوة، لأن صلابه الحجر أعرف للناس وأشهر، حيث إنها محسوسة لديهم ومتعارفة بينهم ولذا جاء التشبيه بها.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت لم قيل أشد قسوة، وفعل القسوة مما يخرج منه أفعل التفضيل وفعل التعجب؟ قلت: لكونه أبين وأدل على فرط القسوة، ووجه آخر، وهو أن لا يقصد معنى الأقسى ولكن قصد وصف القسوة بالشدة. كأنه قيل اشتدت قسوة الحجارة، وقلوبهم أشد قسوة.

وقوله تعالى: ﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾ بيان لفضل الحجارة على قلوبهم القاسية، قصد به إظهار زيادة قسوة قلوبهم عن الحجارة، لأن هذا الأمر لغرابته يحتاج إلى بيان سببه.

فكأنه - سبحانه - يقول لهم. إن هذه الحجارة على صلابتها ويوستها منها ما تحدث فيه المياه خروفاً واسعة تندفق منها الأنهار الجارية النافعة، ومنها ما تحدث فيه المياه شقوقاً مختلفة

تنجم عنها العيون النابعة، والآبار الجوفية المفيدة. ومنها ما ينقاد لأوامر الله عن طواعية وامتنال. أما قلوبكم أنتم فلا يصدر عنها نفع، ولا تتأثر بالعظاات والعبر، ولا تنقاد للحكم التي من شأنها هداية النفوس.

وقوله تعالى: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ تهديد وتخويف، حيث إنه - سبحانه - سيحاسبهم على أعمالهم، وسيذيقهم ما يستحقونه من عقاب جزاء جحودهم لنعمه، وعصيانهم لأمره.

وبذلك تكون الآية الكريمة قد وصفت بني إسرائيل بما هم أهل. من قساوة القلب وانطماس البصيرة، وعدم التأثر بالعظاات مها كثرت. وبالآيات مها توات.

ما يؤخذ من هذه القصة من العظاات والعبر:

اشتملت هذه القصة على كثير من العظاات والتوجيهات الإلهية من ذلك.

١ - دلالتها على ما جبل عليه بنو إسرائيل من فظاظة وغلظة، وسوء أدب مع مرشديهم، وإحفاء في الأسئلة بلا موجب، وعدم استعداد للتسليم بما يأتيهم به الرسل، ومما طلة في الانصياع للتكاليف، وانحراف عن الطريق المستقيم.

٢ - دلالتها على صدق النبي ﷺ فيما يبلغه عن ربه، فقد أخبر في هذه القصة الواقعية التي لم يشهد حوادثها بما أوحاه الله إليه وهذا الإخبار من أعلام نبوته ﷺ كما أنها تدل على صدق نبوة موسى - عليه السلام - وأنه رسول من رب العالمين.

٣ - دلالتها على أن التنطع في الدين، والإلحاف في المسألة يؤديان إلى التشديد في الأحكام، لأن بني إسرائيل لوأنهم أول الأمر عمدوا إلى ذبح أي بقرة لأجزأتهم ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم.

أخرج ابن جرير - رحمه الله - عن ابن عباس - رضى الله عنها - قال: «لو أن القوم أخذوا أدنى بقرة لأجزأتهم. لكنهم شددوا فشدد الله عليهم»^(١).

وقد أدى بهم هذا التنطع والتشديد إلى تضيق دائرة اختيارهم، وتكثير للشروط التي يجب توافرها في البقرة المطلوبة، وذلك لتأديبهم على مما طلتهم وبلادة عقولهم، وسوء تلقيهم للشريعة بأنواع من التقصير عملا وشكرا وفهما، وبذلك يعلم أن ما كلفهم الله به أولا هو ذبح بقرة ما، وأن ما أمروا به بعد ذلك من كونها صفراء سالمة من آثار الخدمة ليس من باب تأخير

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٣٤٧.

البيان عن وقت الخطاب، وإنما هو تشريع طارئٌ قصد منه تأديبهم على تعنتهم ولجاجهم وكثرة أسئلتهم.

وقد جاءت تعاليم الإسلام بالنهي عن كثرة السؤال قال تعالى:

﴿يأياها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم، وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حلِيم قد سأها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين﴾.

وفي الحديث الشريف: «ذروني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوه، وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا عنه ما استطعتم»^(١).

قال صاحب المنار: «وقد امثل سلفنا لأمر الله فلم يشددوا على أنفسهم، فكان الدين عندهم فطرياً وحنيفياً سمحاً، ولكن من خلفهم عمد إلى ما عفا الله عنه فاستخرج له أحكاماً استنبطها بجتهاده، حتى صار الدين حملاً ثقيلاً على الأمة فسئمته وملت وألقته وتخلت»^(٢).

٤ - قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - : وفي هذه القصة أنواع من العبر منها.

(أ) أنه لا يجوز مقابلة أمر الله الذي لا يعلم المأمور به وجه الحكمة فيه بالإنكار، فإن القوم لما قال لهم نبيهم ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ قابلوا هذا الأمر بقولهم: ﴿أنتخذنا هزوا﴾ فلما لم يعلموا وجه الحكمة في ارتباط هذا الأمر بما سألوا عنه قالوا «أنتخذنا هزوا». وهذا من غاية جهلهم بالله ورسوله، فإنه أخبرهم عن أمر الله لهم بذلك، ولم يكن هو الأمر به، ولو كان هو الأمر به لم يجوز لمن آمن بالرسول أن يقابل أمره بذلك فلما قال لهم: ﴿أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ وتيقنوا أن الله - تعالى - أمره بذلك، أخذوا في التعنت بسؤالهم عن عينها ولونها، فلما أخبروا عن ذلك رجعوا إلى السؤال مرة ثالثة، فلما تعينت لهم ولم يبق إشكال توقفوا في الامتثال، ولم يكادوا يفعلون.

ثم من أقبح جهلهم وظلمهم قولهم لنبيهم: ﴿الآن جئت بالحق﴾ فإن أرادوا بذلك: أنك لم تأت بالحق قبل ذلك في أمر البقرة، فتلك ردة وكفر ظاهر، وإن أرادوا: أنك الآن بينت لنا البيان التام في تعيين البقرة المأمور بذبحها فذلك جهل ظاهر، فإن البيان قد حصل بقوله: ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ فإنه لا إجمال في الأمر ولا في الفعل ولا في المذبح فقد جاء رسول الله بالحق من أول مرة.

(٢) تفسير المنار ج ١ ص ٣٤٦.

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٣٤٧.

قال الإمام بن جرير: «وقد كان بعض من سلف يزعم أن القوم ارتدوا عن دينهم وكفروا بقولهم لموسى «الآن جئت بالحق» وزعم أن ذلك نفى منهم أن يكون موسى - عليه السلام - أتاهم بالحق في أمر البقرة قبل ذلك، وأن ذلك كفر منهم، وليس الأمر كما قال عندنا، لأنهم قد أذعنوا بالطاعة بذبحها، وإن كان قولهم الذي قالوه لموسى يعد من جهالاتهم وهفوة من هفواتهم».

(ب) ومنها: الدلالة على صحة ما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم من معاد الأبدان، وقيام الموتى من قبورهم.

(ج) ومنها: إقامة أنواع الآيات والبراهين والحجج على عباده بالطرق المتنوعات، زيادة في هداية المهتدى، وإعذارا وإنذارا للضال:

(د) ومنها: الإخبار عن قساوة هذه الأمة وغلظها، وعدم تمكن الإيمان فيها.

قال عبد الصمد بن معقل عن وهب: كان ابن عباس يقول «إن القوم بعد أن أحيا الله - تعالى - الميت فأخبرهم يقاتله، أنكروا قتله، وقالوا: والله ما قتلناه بعد أن رأوا الآيات الحق».

(هـ) ومنها: مقابلة الظالم الباغي بنقيض قصده شرعاً وقدرًا، فإن القاتل قصد ميراث المقتول، ودافع القاتل عن نفسه، ففضحة الله - تعالى - وهتكه، وحرمه ميراث المقتول.

(و) ومنها: أن بني إسرائيل فتنوا بالبقرة مرتين من سائر الدواب ففتنوا بعبادة العجل وفتنوا بالأمر بذبح البقرة، والبقرة من أبلد الحيوان حتى ليضرب به المثل في البلادة.

ثم قال الإمام ابن القيم في ختام حديثه عن هذه القصة: والظاهر أن هذه كانت بعد قصة العجل؛ ففي الأمر بذبح البقرة تنبيه على أن هذا النوع من الحيوان الذي لا يمتنع من الذبح والحرق والسقى، لا يصلح أن يكون إلهًا معبودًا من دون الله، وأنه إنما يصلح للذبح والحرق والسقى والعمل^(١).

هـ - دلالتها على قدرة الله - تعالى - فإن إحياء الميت عن طريق الضرب بقطعة من جسم بقرة مذبوحة - دليل على قدرة الله - تعالى - على الإحياء والإماتة وما هذا الضرب إلا وسيلة كشفت للناس عن طريق المشاهدة عن آثار قدرته - تعالى - التي لا يدرون كيف تعمل، فهم يرون آثارها الخارقة ولكنهم لا يعرفون كنهها، وصدق الله حيث يقول: ﴿فلنناضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويرىكم آياته لعلكم تعقلون﴾.

(١) إغاثة اللهفان جـ ٢ ص ٣٠ لابن القيم.

وإلى هنا تكون هذه القصة قد دمغت بنى إسرائيل برذيلة التنطع في الدين، والتعنت في الأسئلة، والإساءة إلى نبيهم - عليه السلام - وعدم اعتبارهم بالعظات والمثالات. لقساوة قلوبهم، وسوء طباعهم، وانطماس بصيرتهم ﴿ومن يضل الله فما له من هاد﴾. ثم ساق القرآن بعد ذلك لونا آخر من ألوان رذائلهم. ويتمثل هذا اللون في تحريفهم للكلم عن مواضعه، واشترائهم بآيات الله ثمنا قليلا، وذلك لقساوة قلوبهم، وانطماس بصيرتهم، وبيعهم الدين بالقليل من حطام الدنيا، قال - تعالى - .

﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِالْكِتَابِ وَقَدْ كَانَفَرِيقٌ مِّنْهُمْ
يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذْ الْقَوَّالَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا
وَإِذَا خَلَا بِعَضْبِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ
اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾
أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾
وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا ءَامَانِي وَإِنْ هُمْ
إِلَّا يَنْظُنُونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ
ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
فَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾

والآيات الكريمة التي معنا قد افتتحت بتبشير المؤمنين من دخول اليهود في الإسلام ولكن هذا التبشير قد سبق بما يدعمه ويؤيده، فقد بينت الآيات السابقة عليها «موقف اليهود الجحودي من نعم الله - عز وجل - كما بينت تنطعهم في الدين، وسوء إدراكهم لمقاصد الشريعة، وقساوة قلوبهم من بعد أن رأوا من الآيات البيينات ما رأوا، وبعد هذا البيان الموحى بالقنوط من استجابتهم للحق، خاطب الله المؤمنين بقوله :

﴿أفتطمعون^(١) أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه^(٢)﴾ من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾.

ومعنى الآية الكريمة : أفتطمعون - أيها المؤمنون - بعد أن وصفت لكم من حال اليهود ما وصفت من جحود ونكران، أن يدخلوا في الإسلام. والحال أنه كان فريق من علمائهم وأخبارهم يسمعون كلام الله ثم يميلونه عن وجهه الصحيح من بعد ما فهموه، وهم يعلمون أنهم كاذبون بهذا التحريف على الله تعالى، أو يعلمون ما يستحقه محرفه من الخزي والعذاب الأليم.

فالخطاب في الآية الكريمة للمؤمنين، والاستفهام يقصد به الإنكار عليهم، إذ طمعوا في استجابة اليهود لدعوة الحق، بعد أن علموا سوء أحوالهم، وفساد نفوسهم. والنهي عن الطمع في إيمانهم لا يقتضى عدم دعوتهم إلى الإيمان، فالمؤمنون مأمورون بدعوتهم إليه، لإقامة الحججة عليهم في الدنيا عند إجراء أحكام الكفر عليهم، ولقطع عذرهم في الآخرة وقد تصادف الدعوة إلى الإسلام نفوسًا منصفة تستجيب لدعوة الحق، وتتهدى إلى الطريق المستقيم، وهذا ما فعله رسول الله ﷺ معهم هو وأصحابه من بعده. ولكن اليهود صموا أذانهم عن الحق بعد ما عرفوه فأصبحت دعوتهم إلى الإسلام غير مجدية، وهنا يأتي النهي عن الطمع في إيمانهم بهذه الآية وأمثالها.

وجملة ﴿وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله﴾ حالية، مشتملة على بيان أحد الأسباب الداعية إلى القنوط من إيمانهم، وبذلك يكون التقنيظ من إيمانهم قد علل بعلتين : إحداهما : ما سبق هذه الآية من تصوير لأحوالهم السيئة.

والثانية : ما تضمنته هذه الجملة الكريمة من تحريفهم لكلام الله عن علم وتعمد. والمراد بالفريق في قوله تعالى : ﴿وقد كان فريق منهم﴾ أخبارهم وعلمائهم الذين عاصروا الرسل الكرام، فسمعوا منهم، أو الذين أتوا بعدهم فنقلوا عنهم.

والتحريف أصله انحراف الشيء عن جهته وميله عنها إلى غيرها. والمراد به هنا : إخراج الوحي والشريعة عما جاءت به، بالتغيير والتبديل في الألفاظ، أو بالكتمان والتأويل الفاسد، والتفسير الباطل.

(١) الطمع تعلق النفس بالحصول على شيء مرغوب تعلقًا قويًا.

(٢) التحريف أصله مصدر حرف الشيء يحرفه إذا مال به إلى الحرف، وهو يقتضى الخروج عن جادة الطريق، ولما شاع تشبيه الحق والصواب بالجادة وبالصراط المستقيم، شاع في تشبيهه ما يخالف ذلك بالانحراف.

وقوله تعالى: ﴿ثم يحرفونه من بعدما عقلوه وهم يعلمون﴾ زيادة تشنيع عليهم، حيث إنهم حرفوا كلام الله بعد فهمهم له عن تعمد وسوء نية، وارتكبوا هذا الفعل الشنيع، رغم علمهم بما يستحقه مرتكبه من عقوبة دنيوية وأخروية.

ففى هذين القيدَين من النعى عليهم مالا مزيد عليه، حيث أیطل بهما عذر الجهل والنسيان، وسجل عليهم تعمد الفسوق والعصيان.

وإنما كان قيام الفريق من أحبار اليهود بتحريف الكتاب سبباً فى اليأس من إيمان عامتهم، لأن هؤلاء العامة المقلدون، قد تلقوا دينهم عن قوم فاسقين، دون أن يلتفتوا إلى الحق، أو يتجهوا إلى النظر فى الأدلة الموصلة إليه، وأمثال هؤلاء الذين شبوا على عمایة التقليد، وغواية الشيطان، لا يرجى منهم الوصول إلى نور الحق، وجلال الصدق، ولأن أمة بلغ الحال بعلمائها - وهم مظهر محامدهم - أن يجرؤوا على كلام الله فيحرفوه لا تنتظر من دهمائها أن يكونوا خيراً منهم حالا أو أسعد مآلاً.

ثم أخبر القرآن الكريم عن بعضهم، بأنهم قد ضموا إلى رذيلة التحريف رذيلة النفاق والتدليس فقال تعالى: ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمناً وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون. أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾.

والمعنى: وإذا ما تلافى المنافقون من اليهود مع المؤمنين، قالوا لهم نفاقاً وخداعاً. صدقتنا أن ما أنتم عليه هو الحق. وأن محمداً ﷺ رسول من عند الله، وإذا ما انفرد بعض اليهود ببعض قال الذين لم ينافقوا لإخراهم الذين نافقوا معاتين: أتخبرون المؤمنين بما بينه الله لكم فى كتابكم مما يشهد بحقية ما هم عليه، لتكون لهم الحجة عليكم يوم القيامة، أفلا تعقلون أن هذا التحديث يقيم الحجة لهم عليكم؟

فالآية الكريمة فيها بيان لنوع آخر من مساوىء اليهود ومخازيمهم التى تدعو إلى اليأس من إيمانهم وتكشف النقاب عما كانوا يضمرونه من تدليس^(١).

قال الإمام الرازى: «وإنما عدلوه على ذلك لأن اليهودى إذا اعترف بصحة التوراة، واعترف بشهادتها على صدق النبى ﷺ كانت الحجة قوية عليه، فلا جرم كان بعضهم يمنع بعضاً من الاعتراف بذلك أمام المؤمنين»^(٢).

(١) والضمير فى (قالوا) الأولى يعود إلى فريق اليهود الذين أظهروا الإسلام نفاقاً، وفى (قالوا) الثانية يعود إلى فريق اليهود الذين بقوا على يهوديتهم، والذين كانوا يلومون من نافقوا منهم لتحديثه المؤمنين بما يشهد بصدق محمد ﷺ.

(٢) تفسير الرازى ج ١ ص ٤٠٠.

والاستفهام في قوله تعالى: ﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ للإلكار والتوبيخ والفتح يطلق على القضاء ومنه قوله تعالى: ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾ أى: افض بيننا وبين قومنا بالحق.

قال ابن جرير: «أصل الفتح في كلام العرب القضاء والحكم والمعنى أتحدثونهم بما حكم الله به عليكم وقضاه فيكم؟ ومن حكمه - تعالى - وقضائه فيهم أخذه ميثاقهم بأن يؤمنوا بمحمد ﷺ فقد بشرت به التوراة»^(١).

وقوله تعالى: ﴿ليحاجوكم به عند ربكم﴾ متعلق بالتحديث ومرادهم تأكيد النكير على إخوانهم الذين أظهروا إيمانهم نفاقاً، فكأنهم يقولون لهم: أتحدثون المؤمنين بما يفضحكم يوم القيامة أمام الخالق - عز وجل - وفي حكمه وقضائه، لأنهم سيقولون لكم. ألم تحدثونا في الدنيا بما في كتابكم من حقيقة ديننا وصدق نبينا؟ فيكون ذلك زائداً في ظهور فضيحتكم وتوبيخكم على رعوس الخلائق يوم الموقف العظيم، لأنه ليس من اعترف بالحق ثم كتم كمن ثبت على الإنكار.

وجملة ﴿أفلا تعقلون﴾ من بقية مقولهم لمن نافق منهم. وقد أتوا بها لزيادة توبيخهم لهم حتى لا يعودوا إلى التحدث مع المؤمنين.

والمعنى: أليست لكم عقول تحجزكم عن أن تحدثوا المؤمنين بما يقيم لهم الحجة عليكم يوم القيامة؟

ثم ويخهم الله على جهلهم بحقيقة علمه فقال تعالى: ﴿أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ أى: أيقول الذين لم ينافقوا من اليهود لإخوانهم الذين نافقوا ما قالوا، ويكتمون من صفات النبي ﷺ ما كتموا، ويحرفون من كتاب الله ما حرفوا، ولا يعلمون أن الله يعلم ما يخفون من كفر وحقد، وما يظهرون من إيمان وود؟

فالآية الكريمة فيها توبيخ وتجهيل لليهود الذين عاتبوا المنافقين منهم على تحديث المؤمنين بما في توراتهم مما يؤيد صدق النبي ﷺ لأنهم لو كانوا مؤمنين إيماناً صادقاً بإحاطة علمه بسرهم وعلانيتهم، لمانهوا إخوانهم عن تحديث المؤمنين بما فيها فإن ما فيها من صفات للنبي ﷺ من الحقائق التي أمرهم الله ببيانها ونهاهم عن كتمانها.

ثم بين القرآن الكريم بعد ذلك حال عوام اليهود ومقلديهم، بعد أن بين حال علمائهم

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٣٨٠.

ومناقضهم فقال تعالى: ﴿ومنهم أमीون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون﴾^(١) أى: ومن اليهود قوم أमीون لا يحسنون الكتابة، ولا يعلمون من كتابهم التوراة سوى أكاذيب اختلقها لهم علماءهم أو أمانيات باطلة يقدرونها فى أنفسهم بدون حق، أو قراءات عارية عن التدبر والفهم، وقصارى أمرهم الظن من غير أن يصلوا إلى مرتبة اليقين المبني على البرهان القاطع والدليل الساطع.

فالأية الكريمة فيها زيادة تبيس للمؤمنين من إيمان كافة اليهود بفرقهم المختلفة. فإنهم قد وصلوا إلى حال من الشناعة لا مطمع معها فى هداية، فعلماءهم محرفون لكتاب الله على حسب أهوائهم وشهواتهم، وعوامهم لا يعرفون من كتابهم إلا الأكاذيب والأوهام التى وضعها لهم أحبارهم، وأمة هذا شأن علمائها وعوامها لا ينتظر منها أن تستجيب للحق أو أن تقبل على الصراط المستقيم.

و(الأماني) - بالتشديد - جمع أمانية، مأخوذة من تمنى الشيء أى: أحب أن يحصل عليه، أو من تمنى إذا كذب، أو من تمنى الكتاب أى قرأه.

فإن فسرنا الأماني بالأول كان قوله تعالى: ﴿إلا أمانى﴾ معناه: إلا ما هم عليه من أمانيتهم فى أن الله لا يؤاخذهم بخطاياهم، وأن آياتهم الأنبياء يشفعون لهم، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات.

وإن فسرناها بالكذب، كان قوله تعالى: ﴿إلا أمانى﴾ معناه: إلا أكاذيب مختلقة، سمعوها من أحبارهم فقبلوها على التقليد.

وإن فسرنا الأمانية بالقراءة كان قوله تعالى: ﴿إلا أمانى﴾ معناه: إلا ما يقرءونه من قراءات خالية من التدبر، وعارية عن الفهم. من قوله تمنى كتاب الله أول ليله... أى قرأ.

هذا، وقد رجح ابن جرير تفسير (الأماني) بالأكاذيب فقال: ما ملخصه «وأولى ما روينا فى تأويل قوله تعالى: ﴿إلا أمانى﴾ بالصواب، أن هؤلاء الأميمين لا يفقهون من الكتاب الذى أنزله الله على موسى شيئاً، ولكنهم يتخرصون الكذب، ويتقولون الأباطيل كذباً وزوراً، والتمنى فى هذا الموضع هو تخلق الكذب وتخرصه وافتعاله بدليل قوله تعالى بعد ﴿وإن هم إلا يظنون﴾ فأخبر عنهم أنهم يتمنون ما يتمنون من الأكاذيب ظناً منهم لا يقيناً^(٢).

والذى نراه أن المعانى الثلاثة للأماني تنطبق على اليهود، وكلها حصلت منهم؛ وما دام

(١) الأميمون جمع أمى، وهو الذى لا يحسن الكتابة والقراءة.

(٢) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٢٧٥.

يصدق عليهم المعاني الثلاثة لغة فجميعها مرادة من الآية، ولا معنى لأن نشتغل بترجيح بعضها على بعض كما فعل ابن جرير وغيره.

وعلى أى تفسير من هذه التفاسير للأمان، فالاستثناء منقطع، لأن أى واحد من هذه المعاني ليس من علم الكتاب الحقيقى فى شىء.

وفى قوله تعالى: ﴿وإن هم إلا يظنون﴾ زيادة تجهيل لهم، لأن أمنياتهم هذه من باب الأوهام التى لا تستند إلى دليل أو شبه دليل، أو من باب الظن الذى هو ركون النفس إلى وجه من وجهين يحتملها الأمر دون أن تبلغ فى ذلك مرتبة القطع واليقين. وهذا النوع من العلم لا يكفى فى معرفة أصول الدين التى يقوم عليها الإيمان العميق، فهم ليسوا على علم يقينى من أمور دينهم، وإنما هم يظنونها ظناً بدون استيقان، والظن لا يغنى من الحق شيئاً.

وبعد أن بين القرآن الكريم فرق اليهود، توعد الذين يعرفون الكلم عن مواضعه بسوء المصير فقال تعالى: ﴿فويل^(١) للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾:

والمعنى: فهلاك وفضيحة وخزى لأولئك الأحرار من اليهود الذين يكتبون الكتابات المحرفة والتأويلات الفاسدة بأيديهم، بدلا مما اشتملت عليه الكتب من حقائق، ثم يقولون لجهلهم ومقلديهم كذباً وبهتاناً هذا من عند الله، ومن نصوص التوراة التى أنزلها الله على موسى، ليأخذوا فى نظير ذلك عرضاً يسيراً من حطام الدنيا، فعقوبة عظيمة لهم بسبب ما قاموا به من تحريف وتبديل لكلام الله، وخزى كبير لهم من أجل ما اكتسبوه من أموال بغير حق.

فالآية الكريمة فيها تهديد شديد لأحرار اليهود الذين تجرءوا على كتاب الله بالتحريف والتبديل، وباعوا دينهم بدنياهم، وزعموا أن ما كتبوه هو من عند الله.

وصرح - سبحانه - بأن الكتابة ﴿بأيديهم﴾ ليؤكد أنهم قد باسروها عن تعمد وقصد، وليدفع توهم أنهم أمروا غيرهم بكتابتها، ولتصور حالتهم فى النفوس كما وقعت، حتى ليكاد السامع لذلك أن يكون مشاهداً لهيئتهم.

وقوله تعالى: ﴿ثم يقولون هذا من عند الله﴾ كشف عن كذبهم وفجورهم، فهم يعرفون الكلم عن مواضعه، ثم يزعمون أنه من عند الله ليتقبله أتباعهم بقوة واطمئنان.

ثم بين - سبحانه - العلة التى حملتهم على التحريف والكذب فقال تعالى: ﴿ليشتروا به

(١) الويل لفظ دال على الشر أو الهلاك، وهو مصدر لا فعل له من لفظه وقد يستعمل بدون حرف نداء كما هنا، وقد يستعمل مع حرف النداء كما فى قوله تعالى «يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا».

ثمنًا قليلاً ﴿١﴾ أى كتبوا الكتابة بأيديهم، ونسبوا إلى الله زورًا وهتانًا؛ ليحصلوا على عرض قليل من أعراض الدنيا، كاجتلاب الأموال الحرام، وانتحال العلم لأنفسهم والطمع فى الرئاسة والجاه، وإرضاء العامة بما يوافق أهواءهم.

وعبر - سبحانه - عن الثمن بأنه قليل، لأنه مهما كثر فهو قليل بالنسبة إلى ما استوجبه من العذاب، وحرموه من الثواب المقيم.

وقوله تعالى: ﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾ تهديد لهم مرتب على كتابة الكتاب المحرف، وعلى أكلهم أموال الناس بالباطل، فهو وعيد لهم على الوسيلة - وهى الكتابة - وعلى الغاية - وهى أخذ المال بغير حق - .

قال الشيخ القاسمى: قال الراغب: فإن قيل: لم ذكر ﴿يكسبون﴾ بلفظ المستقبل، و﴿كتبت﴾ بلفظ الماضى؟ قيل: تنبيهاً على ما قاله النبى ﷺ، «من سن سنة سيئة فعلية وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» فنه بالآية إلى أن ما أثبتوه من التأويلات الفاسدة التى يعتمدها الجهلة هو اكتساب وزر يكتسبونه حالا فحالا، وعبر بالكتابة دون القول لأنها متضمنة له وزيادة، فهى كذب باللسان واليد. وكلام اليد يبقى رسمه، أما القول فقد يضمحل أثره» (١).

وبهذا تكون الآيات الكريمة قد دمغت اليهود برذيلة التحريف لكلام الله عن تعمد وإصرار ووصفتهم بالنفاق والخداع، ووبختهم على بلادة أذهانهم وسوء تصورهم لعلم الله - تعالى - وتوعدتهم بسوء المصير جزاء كذبهم على الله.

ثم حكى القرآن بعد ذلك لونا من ألوان دعاواهم الباطلة، وأقاويلهم الفاسدة، ورد عليهم بما يجرس ألسنتهم ويقطع حجتهم، فقال تعالى:

وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ
 أَنَتَّخِذُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُمْ أَمَنُفُؤُونَ
 عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً
 وَأَحْطَتْ بِهَا حَطَّتْ بِهَا خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ

فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾

روى المفسرون في سبب نزول هذه الآيات آثاراً، منها ما روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: «إن اليهود كانوا يقولون إن هذه الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نعذب بكل ألف سنة يوماً في النار، وإنما هي سبعة أيام معدودة»، فأنزل الله تعالى: ﴿وقالوا لن تمسنا النار...﴾ الآيات (١).

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: «حدثني أبي أن الرسول ﷺ قال لليهود أنشدكم بالله وبالتوراة التي أنزلها الله على موسى يوم طور سيناء، من أهل النار الذين أنزلهم الله في التوراة؟ قالوا: إن ربنا غضب علينا غضبة، فتمكث في النار أربعين ليلة، ثم نخرج فتخلفوننا فيها، فقال رسول الله ﷺ كذبتم والله لا نخلفكم فيها أبداً، فنزل القرآن تصديقاً لقول النبي ﷺ وتكذيباً لهم - نزل قوله تعالى - ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿هم فيها خالدون﴾ (٢).

وأخرج ابن جرير - أيضاً - عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى: ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾ ذلك أعداء الله اليهود، قالوا: لن يدخلنا الله النار إلا تحلة القسم. الأيام التي أصبنا فيها العجل أربعين يوماً، فإذا انقضت عنا تلك الأيام انقطع عنا العذاب والقسم (٣).

هذه بعض الآثار التي وردت في سبب نزول الآيات الكريمة، والمعنى:

وقالت اليهود - يا محمد - إن النار لن تصيبنا، ولن نذوق حرها، إلا أياماً قلائل - قل لهم - يا محمد - رداً على دعواهم الكاذبة هل اتخذتم من الله عهداً بذلك حتى يكون الوفاء به متحققاً؟ أم تقولون على الله الباطل جهلاً وجراءة عليه؟

ثم أبطل القرآن الكريم دعواهم بأصل عام يشملهم ويشمل غيرهم فقال. ليس الأمر كما تدعون، بل الحق أنه من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته ومات عليها دون أن يتوب إلى

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢١٨

(٢) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٢٨٣ طبعة الحلبي.

(٣) لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ص ١١

الله - تعالى - منها ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾، والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾.

وقوله تعالى: ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾ بيان لضرب من ضروب غرورهم وكذبهم، معطوف على رذائلهم السابقة التي حكاها القرآن الكريم، إذ الضمير في قوله تعالى (وقالوا) يعود على اليهود الذين مر الحديث عنهم ولما ينته بعد.

والمس: اتصال أحد الشيين بآخر على وجه الإحساس والإصابة..

والمراد من النار: نار الآخرة. والمراد من المعدودة: المحصورة القليلة، يقال: شئ معدود أى قليل. وشئ غير معدود أى كثير فهم يدعون أن النار لن تمسهم إلا مدة يسيرة قد تكون سبعة أيام، وقد تكون أربعين يوماً، وبعدها يخرجون إلى الجنة لأن كل معدود منقوض.

ثم أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يرد عليهم فيما زعموه فقال تعالى: ﴿قل أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون﴾ أى: قل لهم - يا محمد - إن مثل هذا الإخبار الجازم بأن النار لن تمسكم إلا أياماً معدودة، لا يكون إلا من اتخذ عهداً من الله بذلك، فهل تقدم لكم من الله عهد بأن النار لن تمسكم إلا أياماً معدودة، فكان الوفاء متحققاً، لأن الله - تعالى - لا يخلف وعده، أم تقولون على الله شيئاً لا علم لكم به.

فلاستفهام للإنكار، وهو متوجه إلى زعمهم أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة، فكأنه - سبحانه - يقول لهم. إن قولكم هذا يحتمل أمرين لا ثالث لهما: إما اتخاذ عهد عند الله به، وإما القول عليه - سبحانه - بدون علم، وما دام قد ثبت أن اتخاذ العهد لم يحصل، إذا أنتم - يا معشر اليهود - كاذبون فيما تدعون من أن النار لن تمسكم إلا أياماً معدودة.

قال الإمام الرازى: قوله تعالى: ﴿أتخذتم﴾ ليس باستفهام بل هو إنكار؛ لأنه لا يجوز أن يجعل الله - تعالى - حجة رسوله في إبطال قولهم أن يستفهمهم بل المراد التنبيه على طريقة الاستدلال، وهى أنه لا سبيل إلى معرفة هذا التقدير إلا بالسمع، فلما لم يوجد الدليل السمعى وجب ألا يجوز الجزم بهذا التقدير^(١).

وإنما ساق القرآن الكريم الرد عليهم في صورة الاستفهام، لما فيه من ظهور القصد إلى تقريرهم بأنهم قالوا على الله ما لا يعلمون، إذ هم لا يستطيعون أن يثبتوا أن الله وعدهم بما ادعوه من أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة، ولا يوجد عندهم نص صحيح من كتابهم يؤيد مدعاهم.

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٣ ص ١٤٣ طبعة عبد الرحمن محمد.

وبذلك تكون الآية الكريمة قد أبطلت مدعاهم إبطالا يحمل طابع الإنكار والتوبيخ .
ثم ساق - سبحانه - آية أبطلت مدعاهم عن طريق إثبات ما نفوه فقال تعالى : ﴿بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ .

بلى حرف جواب يجيء لإثبات فعل ورد قبلها منفياً، والفعل المنفى هنا هو قول اليهود « لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة » فجاءت « بلى » لإثبات أن النار تمسهم أكثر مما زعموا فهم فيها خالدون جزاء كفرهم وكذبهم .

ومعنى الآية الكريمة : ليس الأمر كما تدعون أيها اليهود، من أن النار لن تمسكم إلا أياماً معدودة، بل الحق أنكم ستخلدون فيها . فكل من كسب شركاً مثلكم، واستولت عليه خطاياها، وأحاطت به كما يحيط السرادق بمن في داخله، ومات على ذلك دون أن يدخل الإيمان قلبه ويتوب إلى ربه فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

فالآية الكريمة فيها إبطال لمدعاهم، وإثبات لما نفوه، على وجه يشملهم ويشمل جميع من يقول قولهم، ويكفر كفرهم .

هذا والمراد بالسيئة هنا الشرك بالله كما قال جمهور المفسرين لورود الآثار عن السلف بذلك، وفائدة الإنيان بقوله تعالى ﴿وأحاطت به خطيئته﴾ بعد ذلك، الإشعار بأن الخطيئة إذا أحاطت بصاحبها أخذت بمجامع قلبه فحرمته الإيمان، وأخذت بلسانه فمنعته عن أن ينطق به .
وقوله تعالى ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ بيان لما أعد لهم من عقوبات جزاء كفرهم وكذبهم على الله، فهم يوم القيامة سيكونون أصحاباً للنار ملازمين لها على التأييد لإيثارهم في الحياة الدنيا ما يوردهم سعيها، وهو الكفر وسوء الأفعال على ما يدخلهم الجنة وهو الإيمان وصالح الأعمال .

وبعد أن ذكر - سبحانه - ما أعد لهؤلاء اليهود وأمثالهم من الكافرين الذين يفترون على الله الكذب، عقب ذلك ببيان ما أعدّه - سبحانه - لأهل الإيمان والتقوى فقال تعالى : ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ أى : والذين آمنوا بالله ورسوله، وأطاعوا الله فأقاموا حدوده، وأدوا فرائضه، واجتنبوا محارمه، فأولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون خلوداً أبدياً، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ردت على اليهود أبلغ رد . حيث كذبهم في دعواهم أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة، وأنهم صائرون بعد ذلك إلى الجنة، وأخبرتهم بخلودهم وخلود كل كافر في النار، وأما الجنة فهي لمن آمن وعمل صالحاً واتبع سبيل المرسلين فهؤلاء أصحابها وهم فيها خالدون .

ثم تحدث القرآن بعد ذلك عن رذيلة من أبرز الرذائل التي طبع عليها بنو إسرائيل، وهى رذيلة نقضهم للعهود والمواثيق فقال تعالى :

وَإِذْ
أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا
لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ
تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

ومعنى الآية إجمالاً : واذكروا يا بنى إسرائيل لتعتبروا وتستجيبوا للحق - وليذكر معكم كل من ينتفع بالذكرى - وقت أن أخذنا عليكم العهد، وأمرناكم بالعمل به على لسان رسلنا - عليهم السلام - وأمرناكم فيه بألا تعبدوا سوى الله، وأمرناكم فيه كذلك، بأن تحسنوا إلى آباءكم وتقوموا بأداء ما أوجبه الله لهما من حقوق، وأن تصلوا أقرباءكم وتعطفوا على اليتامى الذين فقدوا آباءهم، وعلى المساكين الذين لا يملكون ما يكفيهم فى حياتهم، وأمرناكم فيه - أيضاً - بأن تقولوا للناس قولاً حسناً فيه صلاحهم ونفعهم، وأن تحافظوا على فريضة الصلاة، وتؤدوا بإخلاص ما أوجبه الله عليكم من زكاة، ولكنكم نقضتم أنتم وأسلافكم الميثاق، وأعرضتم عنه، إلا قليلاً منكم استمروا على رعايته والعمل بموجبه.

والمراد بنى إسرائيل فى الآية الكريمة، سلفهم وخلفهم، لأن هذه الأوامر والنواهي التى تناولتها الآية الكريمة، والتى هى مضمون العهد المأخوذ عليهم، قد أخذت عليهم جميعاً على لسان أنبيائهم ورسولهم.

والدليل على أن المقصود بنى إسرائيل ما يتناول الخلف المعاصرين منهم للعهد النبوى، قوله تعالى فى ختام هذه الآية ﴿ثم توليتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون﴾ فإنه قد أسند إليهم فيه أنهم تولوا عن الميثاق معرضين، والاعراض عنه لا يكون إلا بعد أخذه عليهم كما سياتى.

وقوله تعالى ﴿لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً...﴾ إلى قوله تعالى ﴿ثم توليتم...﴾ بيان للميثاق وتفصيل له. وجاء التعبير بقوله تعالى ﴿لا تعبدون إلا الله﴾ فى صورة الخبر المنفى والمراد منه النهى عن عبادة غير الله، لإفادة المبالغة والتأكيد، فكان الأمر والنهى قد امتثلا فيخبر

بوقوعها، أو أنها لأهميتها يخبر عنها بأنها سيتلقيان بحسن الطاعة حتماً، فينزل ما يجب وقوعه منزلة الواقع، ويخبر عن الأمور بأنه فاعل لما أمر به ومجتنب لما نهى عنه في الحال، وفي ذلك ما فيه من إفادة المبالغة في وجوب امتثال الأمر والنهي.

وقد تضمنت الآية الكريمة لوناً فريداً من التوجيه المحكم الذي لو اتبعوه لحسنت صلتهم مع الخالق والمخلوق، لأنها ابتدأت بأمرهم بأعلى الحقوق وأعظمها وهو حق الله - تعالى - عليهم، بأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ثم ثنت ببيان حقوق الناس فبدأت بأحقهم بالإحسان وهما الوالدان لما لهما من فضل الولادة والعطف والتربية، ثم الأقارب الذين تجمع الناس بهم صلة قرابة من جهة الأب والأم، ورعايتهم تكون بالقيام بما يحتاجون إليه على قدر الاستطاعة، ثم باليتامى لأنهم في حاجة إلى العون بعد أن فقدوا الأب الحاني، ثم بالمساكين لعجزهم عن كسب ما يكفيهم، ثم بالإحسان إلى سائر الناس عن طريق الكلمة الطيبة، والمعاملة الحسنة، لأن الناس إن لم يكونوا في حاجة إلى المال، فهم في حاجة إلى حسن المقال، ثم أرشدتهم إلى العبادات التي تعينهم على إحسان صلتهم بالخالق والمخلوق فأمرتهم بالمداومة على الصلاة بخشوع وإخلاص، وبالمحافظة على أداء الزكاة بسخاء وطيب خاطر، ولعظم شأن هاتين العبادتين البدنية والمالية ذكرتا على وجه خاص بعد الأمر بعبادة الله، تفخياً لشأنها وتوكيداً لأمرها، وكان من الواجب على بني إسرائيل أن ينتفعوا بهذه الأوامر الحكيمة، لكنهم عموا وطمسوا عنها فويخهم القرآن الكريم بقوله: ﴿ثم توليتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون﴾.

أى: ثم توليتم - أيها اليهود - عن جميع ما أخذ عليكم من موثيق فأشركتم بالله وعققتم الوالدين، وأسأتم إلى الأقارب واليتامى والمساكين وقتلتم للناس أفحش الأقوال، وتركنم الصلاة، ومنعتم الزكاة، وقطعتم ما أمر الله به أن يوصل.

وقوله تعالى: ﴿إلا قليلاً منكم﴾ إنصاف لمن حافظ على العهد منهم، حيث إنه لا تخلو أمة من المخلصين الذين يرعون العهود، ويتبعون الحق، وإرشاد للناس إلى أن وجود عدد قليل من المخلصين في الأمة، لا يمنع نزول العقاب بها متى فشا المنكر في الأكثرين منها.

وقوله تعالى: ﴿وأنتم معرضون﴾ جملة حالية تفيد أن الأعراض عن الطاعة، وعدم التقيد بالموثيق التي أقروا بها، عادة متأصلة فيهم ووصف ثابت لهم، وسجية معروفة منهم.

قال صاحب المنار: «قد يتولى الإنسان منصرفاً عن شيء وهو عازم على أن يعود إليه ويوفيه حقه، فليس كل متول عن شيء معرضاً عنه ومهملاً له على طول الدوام، لذلك كان ذكر هذا القيد «وأنتم معرضون» لازماً لا بد منه، وليس تكراراً كما يتوهم، ثم قال: وقد كان سبب ذلك التولى مع الإعراض أن الله أمرهم ألا يأخذوا الدين إلا من كتابه فاتخذوا أحبارهم أرباباً من دون الله، يملكون برأيهم ويحرمون، ويبيحون باجتهادهم ويحظرون ويزيدون في الشرائع

والأحكام ويضعون ما شاءوا من الشعائر فصدق عليهم أنهم اتخذوا من دونه شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله، فإن الله هو الذى يضع الدين وحده وإنما العلماء أدلاء يستعان بهم على فهم كتابه، وما شرع على السنة رسله...» (١)

وخلاصة الفرق بين التفسير الذى بدأنا به وبين تفسير صاحب المنار، لقوله تعالى: ﴿وَأنتم معرضون﴾ أن هذه الجملة على التفسير الأول تبين عادة فى القوم تأصلت فيهم حتى كأنها سجية، والمعنى: «ثم توليتم، أى عرضتم وأنتم قوم عادتكم الإعراض. وعلى تفسير صاحب المنار تكون هذه الجملة مبينة. لنوع التولى ومتممة لمعناه: والتفسير الأول - الذى سقناه - أدخل فى باب الذم، وأوفى ببيان ما عليه حال اليهود.

ثم قال تعالى:

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَآتْسِفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ
 أَنفُسَكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾
 ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا
 مِّنْكُمْ مِّنْ دِيَارِهِمْ تَظْهَرُونَ عَلَيْهِم بِآلَاتِهِم وَالْعُدْوَانِ
 وَإِن يَأْتُواكُمُ أُسْرَىٰ تَفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحْرَّمٌ عَلَيْكُمْ
 إِخْرَاجُهُمْ أَفْتُوْمُنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ
 بِبَعْضِ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ
 فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ
 وَمَا لِلَّهِ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا
 الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ
 يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

بعد أن بين - سبحانه - في الآية السابقة أن الله - تعالى - قد أخذ على بني إسرائيل عهداً بأن يعبدوه ويؤدوا فرائض الله، إلا أنهم نقضوا هذا العهد وتولوا عنه سوى قليل منهم بعد ذلك بين في هذه الآيات الكريمة أنه - سبحانه - أخذ عليهم عهداً آخر ولكنهم نقضوه كما هو دأبهم.

وملخص هذا العهد الذى ذكرته الآيات الكريمة، أن الله تعالى أخذ عليهم الميثاق ألا يقتل بعضهم بعضاً، وألا يخرج بعضهم بعضاً من داره، وأنهم إذا وجدوا أسيراً منهم فى يد غيرهم فإن عليهم أن يبذلوا أموالهم لفدائه من الأسر، وتخليصه من أيدي أعدائهم، ثم لما نشبت الحرب بين قبيلتي الأوس والخزرج، انضمت قبيلة بنى قريظة إلى الأوس، وانضمت قبيلة بنى قينقاع وبنى النضير إلى الخزرج، وصارت كل طائفة من طوائف اليهود تقاتل بجانب أبناء ملتهم المنضمين إلى حلفائهم الآخرين فإذا وضعت الحرب أوزارها، بذل جميع اليهود أموالهم لتخليص الأسرى من أعدائهم كما أمرهم - تعالى - وبهذا يكونون قد آمنوا ببعض الكتاب وهو بذل الفداء لتخليص الأسرى، وكفروا ببعضه وهو تحريم سفك دماء إخوانهم وإخراجهم من ديارهم، ويحكى التاريخ أن العرب كانوا يعيرونهم فيقولون لهم: كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم بأموالكم؟ فكان اليهود يقولون: قد حرم علينا قتالهم ولكننا نستحي أن نخذل حلفاءنا وقد أمرنا أن نفتدى أسرانا.

وقد توعدهم - سبحانه - بالخزى فى الدنيا والآخرة، جزاء نقضهم لعهوده، وتفريقهم بين أحكامه.

والمعنى الإجمالى للآيات الكريمة: واذكروا - أيضاً - يا بنى إسرائيل وقت أن أخذنا عليكم العهد، وأوصيناكم فيه بألا يتعرض بعضكم لبعض بالقتل، وبألا يخرج بعضكم بعضاً من مساكنهم، ثم أقررتم وأنتم تشهدون على الوفاء بهذا العهد، والالتزام بما جاء فيه، ثم أنتم هؤلاء - يا معشر اليهود - بعد إقراركم بالميثاق، وبعد شهادتكم المؤكدة على أنفسكم بأنكم قد قبلتموه، خرجتم على تعاليم التوراة، فنقضتم عهودكم، وأراق بعضكم دماء بعض، وأخرجتم إخوانكم فى الملة والدم من ديارهم ظلماً وعدواناً، وتعاونتم على قتلهم وإخراجهم مع من ليسوا من ملتكم أو قرباتكم، ومع ذلك فإذا وقع إخوانكم الذين قاتلتموهم وأخرجتموهم من ديارهم فى الأسر فاديتموهم، فلم لم تتبعوا حكم التوراة فى النهى عن قتالهم وإخراجهم كما اتبعتم حكمها فى مفاداتهم؟ وكيف تستبيحون القتل والإخراج من الديار، ولا تستبيحون ترك الأسرى فى أيدي عدوهم؟ إن هذا التفريق بين أحكام الله جزاء فاعله الهوان فى الدنيا. والعذاب الدائم فى الأخرى، وما الله بغافل عما تعملون. ولا شك أن أولئك اليهود الذين

نقضوا عهودهم، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، قد باعوا دينهم بديناهم، فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ معناه: اذكروا حين أخذنا العهد عليكم يا بني إسرائيل ألا يسفك أحد منكم دم غيره، وألا يخرج من دياره. على حد قوله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَاسْلُمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾^(١) أي فليسلم بعضكم على بعض.

وفائدة هذا التعبير، التنبيه إلى أن الأمة المتواصلة بالدين، يجب أن يكون شعورها بالوحدة قوياً وعميقاً، بحيث يكون قتل الرجل لغيره قتلاً لنفسه، وإخراجه له من داره إخراجاً لها.

قال صاحب المنار: (وقد أورد - سبحانه - النهي عن سفك بعضهم دم بعض، وإخراج بعضهم بعضاً من ديارهم وأوطانهم، بعبارة تؤكد وحدة الأمة، وتحدث في النفس أثراً شريفاً، يبعثها على الامتثال إن كان هناك قلب يشعر، ووجدان يتأثر فقال تعالى:

﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ فجعل دم كل فرد من أفراد الأمة كأنه دم الآخر عينه حتى إذا سفكه كان كأنه بخر نفسه وانحدر بيده، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ على هذا النسق، وهذا التعبير المعجز ببلاغته خاص بالقرآن الكريم^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَسْهَوْنَ﴾ تسجيل عليهم بأنهم قد قبلوا العمل بالميثاق والتزموا به، إذ المعنى: ثم اعترفتهم بهذا الميثاق - أيها اليهود - ولم تنكروه، فكان من الواجب عليكم أن تفوا به، فماذا كان موقفهم بعد هذا الاقرار والإشهاد؟.

لقد بين القرآن الكريم بعد ذلك أنهم نقضوا عهودهم، وارتكبوا ما نهوا عن ارتكابه، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَخْرُجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ...﴾ أي: ثم أنتم - يا معشر اليهود - بعد اعترافكم بالميثاق، والتزامكم به، نقضتم عهودكم، وارتكبتم في حق إخوانكم ما نهيتهم عنه، من القتل والإخراج، وفعلتم ما لا يليق بالعقلاء، ومن يحترم المواثيق.

ولما كان قتل بعضهم لبعض، وإخراجهم من أماكنهم يحتاج إلى قوة وغلبة، بين - سبحانه - أنهم يرتكبون ذلك وهم متعاونون عليه بالشرور ومجازة الحدود، فقال تعالى: ﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ تظاهرون: من التظاهر وهو التعاون، وأصله من الظهر، كأن المتعاونين يسند كل واحد منهم ظهره إلى الآخر. والمعنى: تتعاونون على قتل إخوانكم

(١) سورة النور الآية ٦١.

(٢) تفسير المنار ج ١ ص ٣٧٢.

وإخراجهم من ديارهم مع من ليسوا من أقاربكم وليسوا من دينكم، وأنتم مرتكبون ذلك الإثم والعدوان.

وقوله تعالى: ﴿وإن يأتوكم أسارى تفادوهم، وهو محرم عليكم إخراجهم﴾ بيان لتناقضهم وتفريقهم لأحكام الله تعالى.

وأسارى: جمع أسير بمعنى مأسور، وهو من يؤخذ على سبيل القهر فيشد بالإسار وهو القدر - بكسر القاف -، والقدر: سير يقدر من جلد غير مدبوغ. وتفادوهم: تنقذوهم من الأسر بالفداء، يقال: فاداه وفداه: أعطى فداءه فأنقذه.

أى: أنتم - يا معشر اليهود - إن وجدتم الذين قاتلتموهم وأخرجتموهم من ديارهم أسرى تسعون في فكاكهم، وتبدلون عرضاً لإطلاقهم، والشأن أن قتلهم وإخراجهم محرم عليكم كتركهم أسرى في أيدي أعدائكم، فلماذا لم تتبعوا حكم التوراة في النهي عن قتلهم وإخراجهم كما اتبعتم حكمها في مفاداتهم؟

وصدرت الجملة الكريمة «وهو محرم عليكم إخراجهم» بضمير الشأن للاهتمام بها. والعناية بشأنها، وإظهار أن هذا التحريم أمر مقرر مشهور لديهم، وليس خافياً عليهم.

وقوله تعالى: ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾ توبيخ وتقريع لهم على تفريقهم بين أحكام الله.

والمعنى: أفتتبعون أحكام كتابكم في فداء الأسرى، ولا تتبعونها في نهيككم عن قتال إخوانكم وإخراجهم من ديارهم؟ فلاستفهام للإنكار والتوبيخ على التفريق بين أحكامه - تعالى - بالإيمان ببعضها والكفر بالبعض الآخر.

وبعض الكتاب الذى آمنوا به هو ما حرم عليهم من ترك الأسرى فى أيدي عدوهم، وبعضه الذى كفروا به ما حرم عليهم من القتل والإخراج من الديار، فالإنكار منصب على جمعهم بين الكفر والإيمان.

قال فضيلة المرحوم للشيخ محمد الخضر حسين: «وإنما سمي - سبحانه - عصيانهم بالقتل والإخراج من الديار كفراً؛ لأن من عصى أمر الله - تعالى - بحكم عملي معتقداً أن الحكمة والصلاخ فيما فعله، بحيث يتعاطاه دون أن يكون في قلبه أثر من التحرج، ودون أن يأخذه ندم وحزن من أجل ما ارتكب. فقد خرج بهذه الحالة النفسية عن سبيل المؤمنين، وفي الآية الكريمة دليل واضح على أن الذى يؤمن ببعض ما تقرر فى الدين بالدليل القاطع ويكفر ببعضه، يدخل فى زمرة الكافرين لأن الإيمان كل لا يتجزأ»^(١).

ثم بين - سبحانه - العقاب الديوى والأخروى الذى استحقه أولئك المارقون لأحكامه فقال تعالى: ﴿فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي فى الحياة الدنيا، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون﴾

اسم الإشارة (ذلك) مشار به إلى القتل والإخراج من الديار، اللذين نقضوا بهما عهد الله بغياً وكفراً والخزى فى الدنيا هو الهوان والمقت والعقوبة ومن مظاهره: ما لحق اليهود بعد تلك الحروب من المذلة بإجلاء بنى قينقاع والنضير عن ديارهم، وقتل بنى قريظة وفتح خيبر، وما لحقهم بعد ذلك من هوان وصغار، وتلك سنة الله فى كل أمة لا تتمسك بدينها ولا تربط شئونها بأحكام شريعته وأدابها.

ولما كان البعض قد يتوهم أن خزيهم فى الدنيا قد يكون سبباً فى تخفيف العذاب عنهم فى الأخرى، نفى - سبحانه - هذا التوهم، وبين أنهم يوم القيامة سيصبرون إلى ما هو أشد منه. لأن الله - تعالى - ليس ساهياً عن أعمالهم حتى يترك مجازاتهم عليها.

فالمراد من نفى الغفلة نفى ما يتسبب عنها من ترك المجازاة لهم على شرورهم: وفى ذلك دليل على أن الله - تعالى - يعاقب الخائدين عن طريقه المستقيم، بعقوبات فى الدنيا، وفى الآخرة، جزاء طغيانهم، وإصرارهم على السيئات.

ثم أكد - سبحانه - هذا الوعيد الشديد وبين علته فقال تعالى: ﴿وأولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينعرون﴾.

والمعنى: أولئك اليهود الذين فرقوا أحكام الله، وباغوا دينهم بدنياهم، وآثروا متاع الدنيا على نعيم الآخرة قد استحقوا غضب الله فلا يخفف عنهم العذاب يوم القيامة، ولا يجدون من دون الله ولياً ولا نصيراً.

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد دمغت اليهود بنقضهم للعهد، وإيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم ببعض، فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين.

ثم ذكرهم - سبحانه - بعد ذلك بلون آخر من ألوان جنائياتهم، فقال تعالى:

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ

بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ

بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ

أَسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِّيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِّيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا
 قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

ففى هاتين الآيتين تذكير لبنى إسرائيل بضرب من النعم التى أمدهم الله بها ثم قابلوها بالكفر والإجرام .

والمراد بالكتاب الذى أعطاه الله لموسى التوراة، فقد أنزلها عليه لهدايتهم ولكنهم حرفوها وبدلوها وخالفوا أوامره وأولوها تأويلا سقيا .

ومعنى ﴿وقفينا من بعده بالرسول﴾ أردفنا وأرسلنا من بعد موسى رسلا كثيرين متتابعين، لإرشاد بنى إسرائيل، وإخراجهم من الظلمات إلى النور .

يقال : قفا أثره يقفوه قفواً وقفواً، إذا تبعه . وقفى على أثره بفلان إذا أتبعه إياه . وقفيته زيذاً وبه : أتبعته إياه . واشتقاقه من : قفوته إذا أتبعته قفاه، والقفا مؤخر العنق، ثم أطلق على كل تابع ولو بعد الزمن بينه وبين متبوعه .

والرسول : جمع رسول بمعنى مرسل، وقد أرسل الله - تعالى - رسلا بعد موسى - عليه السلام - : منهم : داود، وسليمان، وإلياس، واليسع، ويونس، وزكريا، ويحيى - عليهم الصلاة والسلام - .

فمن مظاهر نعم الله على بنى إسرائيل، أنه لم يكتف بإنزال الكتب لهدايتهم، وإنما أرسل فيهم بجانب ذلك رسلا متعددين، لكى يبشروهم وينذروهم، ولكن بنى إسرائيل قابلوا نعم الله بالجحود والكفران، فقد حرفوا كتب الله، وقتلوا بعض أنبيائه .

والمراد بالبينات فى قوله : ﴿وآتينا عيسى بن مريم البينات﴾ الحجج والبراهين والآيات الدالة على صدقه وصحة نبوته، فتشمل كل معجزة أعطها الله لعيسى كإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، والإخبار ببعض المغيبات، وغير ذلك من المعجزات التى أيد الله بها عيسى - عليه السلام - .

وخص القرآن عيسى بالذكر لكونه صاحب كتاب هو الإنجيل، ولأن شرعه نسخ أحكاما من شريعة موسى - عليه السلام - .

وفى إضافة عيسى إلى أمه إبطال لما يزعمه اليهود من أن له أباً من البشر .
 وقوله : ﴿وأيدناه بروح القدس﴾ أى : قويناه مأخوذ من الأيد وهو القوة .

وروح القدس هو جبريل - عليه السلام - ، قال - تعالى - :

﴿قل نزله روح القدس من ربك بالحق﴾ ، والإضافة فيه من إضافة الموصوف إلى الصفة ،
أى : الروح المقدس . ووصف بالقدس لطهارته وبركته . وسمى روحاً لمشابهته الروح الحقيقي
في أن كلا منهما مادة لحياة البشر . فجبريل من حيث ما يحمل من الرسالة الإلهية تحيا به
القلوب . والروح تحيا به الأجسام .

أى : أننا أعطينا عيسى بن مريم الحجج الدالة على صدقه في نبوته وقويناه على ذلك كله
بوحينا الذى أوحيناه إليه عن طريق جبريل - عليه - السلام - .

ثم ويخ الله اليهود على أفعالهم القبيحة فقال : ﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم
استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾ .

أى : أفكلما جاءكم يابنى إسرائيل رسول بما لا تحبه أنفسكم الشريرة استكبرتم عن اتباعه
والإيمان به وأقبلتم على هؤلاء الرسل ففريقاً منهم كذبتم ، وفريقاً آخر منهم تقتلونهم غير مكترفين
بالتكذيب :

وتهوى : من هوى إذا أحب « والهوى يكون فى الحق ويكون فى الباطل كما فى هذه الآية .

واستكبرتم : تكبرتم ، والتكبر ينشأ عن الاعجاب بالنفس الذى هو أثر الجهل بها . وهو من
الصفات التى متى تمكنت فى النفس أوردتها المهالك ، وساقتها إلى سوء المصير .

وقدم تكذيبهم للرسول على قتلهم إياهم ، لأن التكذيب أول ما يصدر عنهم من الشر .
وعبر فى جانب القتل بالفعل المضارع فقال : ﴿تقتلون﴾ ولم يقل قتلتم كما قال كذبتم ، لأن
الفعل المضارع كما هو المألوف فى أساليب البلاغة . يستعمل فى الأفعال الماضيه التى بلغت من
الفضاعة مبلغاً عظيماً . ووجهه أن المتكلم يعتمد بذلك الفعل القبيح كقتل الأنبياء ، ويعبر عنه
بالفعل المضارع الذى يدل بحسب وضعه على الفعل الواقع فى الحال . فكأنه أحضر صورة قتل
الأنبياء أمام السامع ، وجعله ينظر إليها بعينه ، فيكون إنكاره لها أبلغ ، واستفظاعه لها أعظم .

ثم حكى القرآن بعض الدعاوى الباطلة التى كان يدعيها اليهود فى العصر النبوى ورد عليها
بما يدحضها فقال :

﴿وقالوا قلوبنا غلف﴾ أى : قال اليهود الذين كانوا فى العهد النبوى : قلوبنا يا محمد مغطاة
بأغطية حسية مانعة من نفوذ ما جئت به فيها . ومقصدهم من ذلك ، إقناطه ﷺ من إجابتهم
لدعوته حتى لا يعيد عليهم الدعوة من بعد .

والغلف: جمع أغلف، وهو الذي جعل له غلاف، ومنه قيل للقلب الذي لا يعى ولا يفهم، قلب أغلف، كأنه حجب عن الفهم بالغلاف.

قال ابن كثير: وقرأ ابن عباس - بضم اللام - وهو جمع غلاف. أى: قلوبنا أوعية لكل علم فلا نحتاج إلى علمك.

وقد رد الله - تعالى - على كذبهم هذا بما يدحضه ويفضحه فقال:

﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾ أى: أن قلوبهم ليست غلفاً بحيث لا تصل إليها دعوة الحق بل هى متمكنة بأصل فطرتها من قبول الحق، ولكن الله أبعدهم من رحمته بسبب كفرهم بالأنبياء واستحبابهم العمى على الهدى.

والفاء فى قوله: ﴿فقليلاً ما يؤمنون﴾ للدلالة على أن ما بعدها متسبب عما قبلها و﴿ما﴾ فى قوله ﴿فقليلاً ما﴾ لتأكيد معنى القلة.

والمعنى أن الله لعنهم وكان هذا اللعن سبباً لقلّة إيمانهم فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً، وقلة الإيمان ترجع إلى معنى أنهم لا يؤمنون إلا بقليل مما يجب عليهم الإيمان به. وقد وصفهم الله - تعالى - فيما سبق بأنهم كانوا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض.

ثم نبه القرآن المؤمنين إلى نوع آخر من رذائل اليهود، ويتجلى هذا النوع فى جحودهم الحق عن معرفة وعناد، وكرهتهم الخير لغيرهم يدافع الأنانية والحسد، وتحولهم إلى أناس يتميزون من الغيظ إذا ما رأوا نعمة تساق لغير أبناء ملتهم.

استمع إلى القرآن وهو يصور كل ذلك بأسلوبه البليغ الحكيم فيقول:

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا

مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ

مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾

بِسْمَا أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ

اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ

فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾

روى المفسرون في سبب نزول الآية الأولى من هاتين الآيتين آثارا متعددة، من ذلك ما جاء عن عاصم بن عمرو بن قتادة الأنصاري عن رجال من قومه قالوا: مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداه، أنا كنا نسمع من رجال يهود حين كنا أهل شرك وكانوا أهل كتاب، عندهم علم ليس عندنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فكنا إذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: قد تقارب زمان نبي يبعث الآن، نتبعه فقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث الله محمدا ﷺ رسولا من عند الله أجبنا حين دعانا إلى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه، فأمننا به وكفروا به، ففينا وفيهم نزل قوله - تعالى - ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله﴾ . . . الخ الآية (١).

ومعنى الآيتين الكريميتين: ولما جاء إلى اليهود محمد ﷺ ومعه القرآن الكريم وهو الكتاب الذي أوحاه الله إليه، مصدقا لما معهم من التوراة فيما يختص ببعثة النبي ﷺ ونعته، وكانوا قبل ذلك يستنصرون به على أعدائهم، لما جاءهم النبي المرتقب ومعه القرآن الكريم جحدوا نبوته، وكذبوا كتابه ﴿فلعنة الله على الكافرين﴾. بشئ الشيء الذي باعوا به أنفسهم. الكفر بما أنزل الله على نبيه محمد ﷺ، وكفرهم هذا كان من أجل البغي الذي استولى على نفوسهم، والحسد الذي خالط قلوبهم، وكرهية لأن ينزل الله وحيه على محمد العربي ﷺ فباءوا بسبب هذا الخلق الذميمة، بغضب مترادف متكاثر من الله (٢) - تعالى - ﴿وللكافرين عذاب مهين﴾ جزاء كفرهم وحسداهم.

والمراد بالكتاب في قوله تعالى ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم﴾ القرآن الكريم، وفي تنكيهه زيادة تعظيم وتشريف له، وفي الأخبار عنه بأنه من عند الله، إشارة إلى أن ما يوحى به - سبحانه - جدير بأن يتلقى بالقبول وحسن الطاعة لأنه صادر من الحكيم الخبير، والذي مع اليهود هو التوراة، ومعنى كون القرآن مصدقا لها، أنه يؤيدها ويوافقها في أصول الدين، وفيما يختص ببعثة النبي ﷺ وصفته.

وفي وصف القرآن الكريم بأنه مصدق لما معهم، زيادة تسجيل عليهم باللمزة لأنهم لم يكفروا بشيء يخالف أصول كتابهم وإنما كفروا بالكتاب الذي يصدق كتابهم.

وقوله تعالى: ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾.

بيان لحالتهم قبل البعثة المحمدية، فإن اليهود كانوا عندما يحصل بينهم وبين أعدائهم نزاع،

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٢٣.

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ج ٣ ص ٢٨٢ للإمام ابن تيمية وقد ساق - رحمه الله - أكثر من عشرة آثار في هذا المعنى عند حديثه عن هذه الآية.

يستنصرون عليهم بالنبي ﷺ قبل بعثته فيقولون اللهم انصرنا عليهم بالنبي الذي نجد نعته في التوراة،

والاستفتاح معناه: طلب الفتح وهو الفصل في الشيء والحكم فيه، كما في قوله تعالى: ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾. ويستعمل بمعنى النصر لأن فيه فصلا بين الناس قال تعالى: ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ أى: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر، فالمراد به في الآية الاستنصار.

ثم بين - سبحانه - حقيقة حالهم بعد أن جاءهم الكتاب والرسول فقال تعالى: ﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾ أى: فلما جاءهم ما كانوا يستفتحون به على أعدائهم ويرتقبونه جحدوه وكفروا به.

وقال - سبحانه - ﴿فلما جاءهم ما عرفوا﴾ ولم يقل فلما جاءهم الكتاب أو الرسول، ليكون اللفظ أشمل، فيتناول الكتاب والرسول الذي جاء به لأنه لا يجيء الكتاب إلا عن طريق رسول.

ومعرفتهم بصدق الرسول ﷺ وما أنزل عليه حاصلة بانطباق العلامات والصفات الواردة في التوراة عن النبي ﷺ فكان من الواجب عليهم أن يؤيدوا هذه المعرفة بالإيمان به، ولكن خوفهم على زوال رياستهم وأموالهم، وفوات ما كانوا يحرصون عليه من أن يكون النبي المبعوث منهم لا من العرب، ملأ قلوبهم غيظًا وحسدًا، وأخذ هذا الغيظ والحسد يغالب تلك المعرفة حتى غلبها، وحال بينها وبين أن يكون لها أثر نافع لهم لعدم اقتنائها بالقبول والتصديق. ولقد حاول رئيسهم (عبد الله بن سلام) - رضى الله عنه - أن يصرفهم عن العناد وأقسم لهم بأن ما جاء به النبي ﷺ هو الحق المصدق لما معهم أن يتبعوه ولكنهم عموا وطمسوا وتنقصوه ولذا لعنهم الله تعالى، وأبعدهم عن رحمته كما قال تعالى: ﴿فلعنة الله على الكافرين﴾.

وقال - سبحانه - ﴿على الكافرين﴾ ولم يقل عليهم، للإشعار بأن حلول اللعنة عليهم كان بسبب كفرهم.

ثم ذكر - سبحانه - أنهم بكفروهم قد باعوا أنفسهم بثمان بخص. فقال تعالى: «بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله» أى: بئس الشيء الذى باع به اليهود أنفسهم بكفروهم بما أنزل الله بغيًا وحسدًا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده.

وجمهور المفسرين على أن «اشتروا» هنا بمعنى باعوا، لأن أولئك اليهود، لما كانوا متمكنين من الإيمان الذى يفضى بهم إلى السعادة الأبدية بعد أن جاءهم ما عرفوا من الحق فتركوه،

واستمروا على كفرهم بغياً وحسداً وحباً في الرياسة وتعصباً لجنسيتهم لما كانوا كذلك، صار اختيارهم للكفر على الإيمان، بمنزلة اختيار صاحب السلعة ثمنها على سلعته، فكأنهم بذلوا أنفسهم التي كان باستطاعتهم الانتفاع بإيمانها، وقبضوا الكفر عوضاً عنها فأنفسهم بمنزلة السلعة المبيعة وكفرهم بمنزلة ثمنها المقبوض، فيس هذا الثمن الذي أوردتهم العذاب الأليم.

وعبر - سبحانه - عن كفرهم بصيغة المضارع ﴿أن يكفروا﴾ وعن بيعهم لأنفسهم بالماضي، ﴿اشترؤا﴾ للدلالة على أنهم صرحوا بكفرهم بالقرآن الكريم من قبل نزول الآية، وإن بيعهم أنفسهم بالكفر طبيعة فيهم مستقرة منذ وقت بعيد، وأنهم ما زالوا مستمرين على تلك الطبيعة المنحرفة.

وقوله تعالى: ﴿بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده﴾، تعليل لكفرهم وبيان للباعث عليه، أي كفروا بما أنزل الله على عبده ورسوله محمد ﷺ بدافع من البغى والحقد، وكراهة أن ينزل الله الوحي من فضله على من يشاء من عباده، فالبغى هنا مصدر بغى يبغى إذا ظلم. والمراد به ظلم خاص هو الحسد، وإنما عد الحسد ظلماً، لأن الظلم معناه المعاملة التي تبعد عن الحق وتجافيه. والحسد معناه تمنى زوال النعمة عن الغير والظالم والحاسد قد جانب كل منهما الحق فيما صنع، والحاسد لن يناله نفع من زوال نعمة المحسود، كما أنه لن يناله ضرر من بقائها، وما دام الأمر كذلك فالحاسد ظالم للمحسود بتمنى زوال النعمة وصدق الشاعر في قوله.

وأظلم خلق الله من بات حاسداً - لمن بات في نعمائه يتقلب - .

فاليهود قد كفروا بما أنزل الله، من أجل حسدهم للنبي ﷺ على النبوة ولأنه لم يكن منهم وكان من العرب، وكراهية لأن ينزل الله الوحي على من يصطفيه للرسالة من غيرهم، فعدم إيمانهم بما عرفوه وارتقبوه سببه أنانيتهم البغيضة، وأثرتهم الذميمة التي حملتهم على أن يحسدوا الناس على ما آتاهم الله من فضله، وأن يتوهموا أن النبوة مقصورة عليهم، فليس لله - تعالى - في زعمهم - أن ينزعها من ذرية إسحاق ليجعلها في ذرية إسماعيل عليهما السلام - .

ولم يصرح - سبحانه - بأن المحسود هو النبي ﷺ لعلم ذلك من سياق الآيات الكريمة وللتنبية على أن الحسد في ذاته مذموم كيفما كان حال المحسود.
ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما آل إليه أمرهم من خسران مبين فقال تعالى:

﴿فبأءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين﴾ : بء بإثمه بيء أي : رجع أي : فرجعوا من أجل كفرهم وحسدهم للنبي ﷺ بغضب مضموم إلى غضب آخر كانوا قد استحقوه بسبب كفرهم بعسى، - عليه السلام - وبسبب تحريفهم للكلم عن مواضعه،

وتضييعهم لأحكام التوراة. فهم بسبب كفرهم المستمر الذى تعددت أسبابه، يصيهم غضب كثير متعاقب من الله - تعالى - .

ويصح أن يكون معنى قوله : ﴿فبأءوا بغضب على غضب﴾ أنهم رجعوا بغضب شديد مؤكد، لصدوره من الله - تعالى - .

والمراد بالكافرين، اليهود الذين تحدث عنهم فيما سبق، فهم الذين عرفوا صدق محمد ﷺ فى نبوته بما نطقت به التوراة، ومع ذلك كفروا به فاستحبوا العمى على الهدى .

وعبر عنهم بهذا العنوان للنبيه على أن ما أصابهم من عذاب مذل لهم كان بسبب كفرهم، ويصح أن يراد بالكافرين : كل كافروهم يدخلون فيه دخولا أوليا؛ وإنما كان لهم العذاب المهين لأن كفرهم لما كان سببه البغى والحسد والتكبر والأنانية، قوبلوا بالإهانة والصغار .

وبذلك تكون الأيتان الكريمتان قد كشفتنا عن لون من صفات اليهود الذميمة وهو إعراضهم عن الإيمان بمحمد ﷺ الذى كانوا يستنصرون به على أعدائهم قبل بعثته، ويبيعهم الإيمان الذى كان فى مكنثهم الظفر به بالكفر بما أنزل الله من دين قويم، وكتاب كريم إرضاء لغريزة الحقد الذى استحوذ على قلوبهم، وتمشياً مع أثرهم التى أبت عليهم أن يؤمنوا بنى ليس من نسل إسرائيل ولو جاءهم بالحق المين، فحق عليهم قول الله - تعالى - : ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ .

ثم حكى القرآن بعد ذلك بعض المعاذير الكاذبة التى كان اليهود يعتذرون بها عندما يدعون إلى الدخول فى الإسلام، فقد كانوا يقولون إننا مكلفون ألا نؤمن إلا بكتابنا التوراة، فنحن نكتفى بالإيمان به دون غيره. استمع إلى القرآن - وهو يعرض دعاوهم الكاذبة ثم يقذفها بالحق فيدمغها - حيث يقول :

وَإِذِ قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوْؤْمِنُ بِمَا
 أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ، وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا
 لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ
 مُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ
 ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢﴾

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا
 مَاءَ آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا
 وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ
 بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

ومعنى الآيات الكريمة. أن اليهود المعاصرين للعهد النبوي كانوا إذا عرض عليهم الإيمان بما أنزل الله من القرآن على محمد ﷺ أجابوا بقولهم : نؤمن بما أنزل علينا وهو التوراة التي أنزلها الله - تعالى - على موسى، ويحجدون غيرها وهو القرآن الكريم المصدق لها في الأمر باتباع محمد ﷺ ثم أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يكذبهم في دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم فقال : ﴿ قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ﴾ بالتوراة فإنها تنهاكم عن قتلهم ثم كذبهم القرآن الكريم مرة أخرى فقال : ﴿ ولقد جاءكم موسى بالبينات ﴾ أى : بالآيات الواضحات الدالة على صدقه، ولكنكم ﴿ اتخذتم العجل من بعده ﴾ أى : من بعد ذهابه لميقات ربه ﴿ وأنتم ظالمون ﴾ لعبادتكُم غير الله تعالى.

ثم كذبهم القرآن الكريم - في دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم - بصورة أخرى سوى ما سبقها فقال تعالى : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور ﴾ وقلنا لكم : ﴿ خذوا ما آتيناكم - من التوراة - بقوة ﴾ أى بجحدو حزم ﴿ واسمعوا ﴾ ما أمرتم به فيها سماع تدبر وطاعة. ولكن أسلافكم الذين أنتم على شاكلتهم قالوا لنبيهم : « سمعنا » قولك « وعصينا » أمرك. وخالط حب العجل قلوبهم كما يخالط الماء أعماق البدن، وكل هذه الأفاعيل منكم لا تناسب دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم، وإذا فبئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين بالتوراة كما تزعمون، فالواقع أن التوراة بريئة من أعمالكم، وأنتم بعيدون عن الإيمان بها.

وقوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ﴾ تصوير لنوع آخر من قبائح اليهود، وإخبار عن إعراضهم عن الحق بدعوى أنهم مكلفون بعدم الإيمان إلا بما أنزله الله على موسى وهو التوراة.

والمقصود ﴿ بما أنزل الله ﴾ القرآن الكريم. ولم يذكر المنزل عليه وهو محمد ﷺ للعلم به أو للتنبيه على أن وجوب الإيمان بالكتاب، يكفي فيه العلم بأنه منزل من عند الله - تعالى - ومتى

استقر في النفس أن القرآن الكريم من عند الله، استتبع ذلك استحضر أنه أنزل على محمد ﷺ.

وقولهم: ﴿نؤمن بما أنزل علينا﴾ معناه: نؤمن بالتوراة التي أنزلها الله على نبينا موسى دون غيرها مما أنزله الله عليك - يا محمد -، وجوابهم هذا يدل على غباثتهم وعنادهم. لأن الداعي لهم إلى الإيمان، يطلب منهم أن يؤمنوا بكل ما أنزل الله من الكتب السماوية، ولكنهم قيدوا أنفسهم بالإيمان ببعض ما أنزل الله وهو ما أنزل عليهم، فلم يكن إيمانهم مطابقاً لما أمر الله به وهو التصديق بجميع الكتب السماوية، ولا شك أن من آمن ببعض الكتب السماوية وكفر ببعضها يكون كافراً بجميعها.

وقوله تعالى: ﴿ويكفرون بما وراءه﴾ قصد به بيان التصريح بكفرهم بالقرآن الكريم بعد أن لمحاو بذلك في قولهم: ﴿نؤمن بما أنزل علينا﴾. والضمير في ﴿وراءه﴾ يعود على ﴿ما أنزل علينا﴾ المكنى به عن التوراة، أى: قالوا نؤمن بما أنزل علينا والحال أنهم يكفرون بما سوى التوراة أو بما بعدها وهو القرآن الكريم.

قال ابن جرير - رحمه الله - : «وتأويل وراء في هذا الموضع: سوى، كما يقال للرجل المتكلم بالحسن، ما وراء هذا الكلام الحسن شيء. يراد به: ليس من عند المتكلم به شيء سوى ذلك الكلام، فكذلك معنى قوله تعالى: ﴿ويكفرون بما وراءه﴾ أى بما سوى التوراة، وبما بعده من كتب الله التي أنزلها على رسوله»^(١).

والضمير «هو» في قوله تعالى: ﴿وهو الحق مصدقاً لما معهم﴾ يعود إلى القرآن الكريم المكنى عنه بقوله «بما وراءه». والحق: الحكم المطابق للواقع. ووصف به القرآن الكريم لاشتماله على الأحكام المطابقة للواقع.

ومعنى كون القرآن مصدقاً لما مع اليهود وهو التوراة، أنه يدل على نبوة النبي ﷺ. وبهذا كان مؤيداً للتوراة التي بشرت بالنبي ﷺ وذكرت له نعوته لا تنطبق إلا عليه، وبذلك يكون اليهود الذين يدعون الإيمان بما أنزل عليهم كاذبين في دعواهم، لأنهم لم يؤمنوا بمحمد ﷺ الذي بشرت به توراتهم وأمرتهم بالإيمان به وأيدها القرآن الكريم في ذلك.

قال صاحب الكشاف: وفي قوله تعالى: ﴿وهو الحق مصدقاً لما معهم﴾ رد لمقاتلهم ﴿نؤمن بما أنزل علينا﴾ لأنهم إذ كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها»^(٢).

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٤١٨.

(٢) تفسير الكشاف بتصرف ج ١ ص ٢٢٤.

ثم أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يوبخهم ويبطل دعواهم بالإيمان بما أنزل عليهم بدليل إلزامي فقال تعالى: ﴿قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾.

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء اليهود الذين إذا دعوتهم إلى الإيمان بك قالوا. ﴿نؤمن بما أنزل علينا﴾ قل لهم: إن كنتم حقًا مؤمنين بما أنزل عليكم وهو التوراة، فلائى شئ تقتلون أنبياء الله مع أن التوراة تحرم عليكم قتلهم، بل هى تأمركم باتباعهم وتصديقهم وطاعتهم لأنه أرسلهم لهدايتكم وسعادتكم.

إن قتلتمكم لهم أكبر دليل على أنكم لم تؤمنوا لا بما أنزل عليكم ولا بغيره وأنكم كاذبون في مدعاكم لأن جميع ما أنزل الله من وحى يحرم قتل الأنبياء، ويأمر الناس باتباعهم وطاعتهم. ويرجع معنى الآية إلى نفي فعل الشرط وهو كونهم مؤمنين، إذ لا وجه لقتلهم الأنبياء إلا عدم إيمانهم بالتوراة، وهذا كما تريد أن تنفى عن رجل العقل لفعله ما ليس من شأنه أن يصدر من عاقل، فتقول له: إن كنت عاقلًا فلم فعلت كذا؟ أى أنت لست بعاقل.

والفاء فى قوله تعالى: ﴿فلم تقتلون﴾ واقعة فى جواب محذوف دل عليه ما بعده، والتقدير إن كنتم مؤمنين بما أنزل عليكم فلم تقتلون أنبياء الله - تعالى -

والإتيان بالمضارع فى قوله - تعالى - : ﴿تقتلون﴾ مع أن القتل للأنبياء وقع من أسلافهم بقرينة قوله تعالى: ﴿من قبل﴾ لقصد استحضار تلك الجناية الشنيعة، وللتنبية على أن ارتكابهم لنلك الجريمة البشعة يتجدد ويقع منهم المرة تلو الأخرى، وللإشعار بأن الخلف يمشون على عماية السلف، فى التعدى والعصيان، فلقد حاول اليهود المعاصرون للعهد النبوى قتل الرسول ﷺ ولكن الله - تعالى - عصمه منهم، ونجاه من مكرهم.

وأضاف سبحانه - الأنبياء إليه فقال: ﴿أنبياء الله﴾ للتنبية على شرفهم العظيم، وللدلالة على فظاعة عصيان اليهود واجتراحهم المنكر، إذ قابلوا بالقتل من يجب عليهم أن يقابلوههم بالتصديق والتوقير والطاعة.

ثم ذكر القرآن الكريم لهم جنائيات أخرى تدل على أنهم لم يؤمنوا بما أنزل عليهم كما يدعون. ومن تلك الجنايات عبادتهم العجل، فقال تعالى: ﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات، ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾.

البينات: جمع بينة وهى الآيات والمعجزات الدالة على صدقه وحقية نبوته، كانقلاب العصا ثعبانًا، وقلق البحر، وانفجار العيون من الحجر... إلخ.

وإنما سماها الله بينات، لأنها لما كانت لا يقدر على أن يأتى بها بشر إلا بتسخير الله ذلك له

دلت على صدق موسى - عليه السلام - في نبوته ورسالته.

والمعنى : ولقد جاءكم - يا بني إسرائيل - نبينا موسى بالآيات الواضحات الدالة على صدقه، وحقية نبوته، وكان من الواجب عليكم أن تتبعوه وتطيعوه ولكنكم لم تفعلوا فقد اتخذتم العجل إلهًا من بعد مفارقة نبيكم موسى لكم لمناجاة ربه، ومن بعد مشاهدتكم لتلك المعجزات، التي استبان بها صدقه فيما يبلغكم عن ربه فأنتم ظالمون بذلك، لأنكم تركتم عبادة من يستحق العبادة وهو الله - تعالى - وعبدتم العجل الذي لا يملك ضراً ولا نفعاً.

فالآية الكريمة فيها أبطال لدعواهم الإيمان بما أنزل عليهم، لأنهم لو كانوا مؤمنين حقًا بنبيهم الذي جاءهم بالبينات، لما تركوا ما أمرهم به وهو عبادة الله، وفعلوا ما نهاهم عنه وهو عبادة العجل.

ثم ذكر القرآن الكريم جنابة أخرى تكذبهم في دعواهم : أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم - وهي إباؤهم التوراة عنادًا واستكبارًا فقال تعالى :

﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور، خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا، قالوا سمعنا وعصينا، وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم، قل بشئنا يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾.

ومعنى الآية الكريمة : واذكروا - يا بني إسرائيل - وقت أن أخذنا الميثاق عليكم بأن تعملوا بما في التوراة، وتتلقوا أحكامها بالتقبل والطاعة ورفعنا فوقكم الطور لتريكم آية من آياتنا العظمى التي تقوى قلوبكم، وتجعلكم تقبلون على تعاليم التوراة برغبة واستجابة، وقلنا لكم خذوا ما آتيناكم بجد وحزم، واسمعوا ما أمرناكم به سماع تدبر وطاعة، ولكنكم - يا بني إسرائيل - يا من تدعون الإيمان بما أنزل عليكم - أعرضتم عما أمرتم به من قبول التوراة وقتلت لئبيكم سمعنا قولك وعصينا أمرك، وخالط حب عبادة العجل قلوبكم كما يخالط الماء أعماق البدن ولم تأبهوا بما جاءكم في التوراة من الهدى والنور وبما صحب عرضها عليكم من الآية البينة وهي رفع الجبل فوقكم حتى ظننتم أنه واقع بكم فكفرتم بذلك كله ولا زالت نفوسكم تحن إلى عبادة العجل ولقد سرتم على منهج أسلافكم في العناد والجحود والإعراض عما ينزله الله من الحق، وإذا كان هذا شأنكم فكيف تدعون الإيمان بما أنزل عليكم؟

ثم أمر الله نبيه ﷺ أن يوبخهم على تحرصاتهم فقال تعالى : ﴿قل بشئنا يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾.

وقوله تعالى : ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾ معناه : أننا حركناه ونقلناه معلقًا فوقكم في الهواء، لتروا بأعينكم آية كونية من شأنها أنها تحملكم على الإيمان والطاعة إن كانت لكم عقول تعقل.

ومعنى قوله تعالى : ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا﴾ : قلنا لكم خذوا ما أمرناكم به في التوراة بجد واجتهاد في تأديته، واسمعوا ما تؤمرون به سماع طاعة وتفهم. فقوله تعالى ﴿واسمعوا﴾ ليس المراد به مجرد السماع للقول فقط، بل المقصود منه السماع الذي يصحبه التدبير والاستجابة للأمر: فهو مؤكد ومقرر لقوله تعالى : ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ .
ثم حكى - سبحانه - جوابهم الذي يدل على عنادهم فقال : ﴿قالوا سمعنا وعصينا﴾ .
قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف طابق قوله جوابهم ؟ قلت طابقه من حيث إنه قال لهم اسمعوا : وليكن سماعكم سماع تقبل وطاعة، فقالوا سمعنا ولكن لا سماع طاعة^(١) .
وقد اختلف المفسرون هل صدر متهم هذا اللفظ حقيقة باللسان نطقاً أو أنهم فعلوا فعلا مقام القول فيكون مجازاً؟

قال الفخر الرازى : الأكثرون من المفسرين على أنهم قالوا هذا القول حقيقة. وقال أبو مسلم : وجائز أن يكون المعنى سمعوه فتلقوه بالعصيان فعبّر عن ذلك بالقول ولم يقوله، كقوله تعالى ﴿فقال لها والأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾ . قال : والأول أولى لأن صرف الكلام عن ظاهره بغير دليل لا يجوز^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم﴾ عطف على قولهم سمعنا وعصينا والإشراب ؛ السقى وجعل الشيء شارباً، واستعمل على وجه التجوز في خلط لون بأخر كأن أحد اللونين سقى الآخر، يقال : بياض مشرب بحمرة أى مختلط، وفلان أشرب قلبه حب كذا بمعنى خالط حبه قلبه .

قال الإمام الرازى : قوله تعالى : ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل﴾ في وجه هذه الاستعارة وجهان : الأول : معناه تداخلهم حبه والحرص على عبادته كما يتداخل الصبغ الثوب، وقوله في قلوبهم بيان لمكان الإشراب كقوله : ﴿إنما يأكلون في بطونهم ناراً﴾ ، الثانى : كما أن الشرب مادة لحياة ما تخرجه الأرض، فكذا تلك المحبة كانت مادة لجميع ما صدر عنهم من الأفعال^(٣) .
وفي الجملة الكريمة ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم﴾ مضاف محذوف وهو لفظ (حب) للدلالة المعنى عليه .

والمعنى : إن هؤلاء اليهود الذين مردوا على العصيان قد خالط حب العجل نفوسهم حتى

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٢٥ .

(٢) الفخر الرازى ج ١ ص ٤٣٢ .

(٣) تفسير الرازى ج ١ ص ٤٣٢ .

استقر في قلوبهم كما يخالط الماء أعماق الجسد. وحذف لفظ الحب من الجملة الكريمة، يشعر بشدة تعلق قلوبهم بالعجل حتى لكأنهم أشربوا ذاته.

والتعبير بقوله: ﴿أشربوا﴾ يشير إلى أنه بلغ حبه العجل مبلغ الأمر الذي لا اختيار لهم فيه كأن غيرهم أشربهم إياه.

وقوله تعالى: ﴿بكفرهم﴾ دليل على أن محبتهم للعجل ناشئة عن كفر سابق، ووجود متاصل فكفرهم الذي ترتب على عبادتهم للعجل، قد سبقه كفر آخر، فهو كفر على كفر.

ثم أمر الله - تعالى - نبيه في ختام الآية الكريمة بتوبيخهم فقال تعالى:

﴿قل بشئما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾ أى: قل - يا محمد - لهؤلاء اليهود الذين يدعون الإيمان بما أنزل عليهم - قل لهم - بشئ الشئ الذى يأمركم به إيمانكم قتل الأنبياء وعبادة العجل والعصيان إن كنتم مصدقين - كما زعمتم - بالتوراة، والحق أن التوراة ما أمرتكم بشئ من ذلك فما أنتم بمؤمنين بها ولا غيرها من كتب الله، لأنها لا تأمر بالفحشاء.

فالجملة الكريمة خلاصة لإبطال قولهم «نؤمن بما أنزل علينا» بعد أن أبطله الله - تعالى - فيها سبق بشواهد متعددة، لأنهم لما زعموا ذلك، وكانوا مع هذا يفعلون أفعالاً قبيحة تناقض الإيمان بأى كتاب سماوى، أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يذمهم على هذه الأفعال التى تناقض الإيمان بما أنزل عليهم لكى يعلم الناس جميعاً أن دعواهم لا أساس لها من الصحة.

وأضاف - سبحانه - الإيمان إليهم فقال ﴿إيمانكم﴾ ولم يقل الإيمان، لأنه ليس إيماناً صحيحاً وإنما هو إيمان مزعوم، وإضافة الإيمان إليهم من باب التهكم بهم والاستهزاء بقولهم.

وقوله تعالى: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ تشكيك في إيمانهم بالتوراة، وقدح في صحة دعواهم فإن الإيمان الحق إنما يأمر بعبادة الله وحده، وينهى عن عبادة سواه وعن ارتكاب السوء والفحشاء.

فالجملة الكريمة فى معنى النفى لادعائهم الإيمان بالتوراة لأنها ما أمرت بشئ يبغضه الله تعالى.

قال الإمام ابن جرير: وقوله: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أى إن كنتم مصدقين كما زعمتم بما أنزل الله عليكم. وإنما كذبهم الله بذلك لأن التوراة تنهى عن ذلك كله، وتأمر بخلافه، فأخبرهم أن تصديقهم بالتوراة إن كان يأمرهم بذلك، فبشئ الأمر تأمر به. وإنما ذلك نفى من الله - تعالى - عن التوراة أن تكون تأمر بشئ مما يكرهه الله من أفعالهم وأن يكون التصديق بها يدل على شئ من مخالفة أمر الله، وإعلام منه - جل ثناؤه - أن الذى يأمرهم بذلك أهواؤهم،

والذى يحملهم عليه البغى والعدوان»^(١).

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد أقامت الأدلة المتعددة، والبراهين القاطعة على كذب اليهود في دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم، ووبختهم على مزاعمهم الباطلة، وأقواهم الفاسدة. هذا، ولفضيلة أستاذنا الدكتور محمد عبد الله دراز كلام رصين عند حديثه عن هذه الآيات، فقد قال - رحمه الله - :

يقول الله تعالى في ذكر خجاج اليهود: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم آمَنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ، قَالُوا: نُوْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا، وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ، وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ، قُلْ: فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ...﴾.

هذا قطعة من فصل من قصة بنى إسرائيل، والعناصر الأصلية التي تبرزها لنا هذه الكلمات القليلة تلخص فيما يلي :

- ١ - مقالة ينصح بها الناصح لليهود: إذ يدعوهم إلى الإيمان بالقرآن.
- ٢ - إجابتهم لهذا الناصح بمقالة تنطوى على مقصدين.
- ٣ - الرد على هذا الجواب بركنيه من عدة وجوه.

وأقسم لو أن محامياً بليغاً وكلت إليه الخصومة بلسان القرآن في هذه القضية، ثم هدى إلى استنباط هذه المعانى التى تحتلج في نفس الداعى والمدعو لما وسعه في أدائها أضعاف أضعاف هذه الكلمات، ولعله بعد ذلك لا يفى بما حوفا من إشارات واحتراسات وآداب وأخلاق.

قال الناصح لليهود: آمنوا بالقرآن كما آمنتم بالتوراة، أستم قد آمنتم بالتوراة التى جاء بها موسى لأنها أنزلها الله؟ فالقرآن الذى جاء به محمد ﷺ أنزله الله، فأمنوا به كما آمنتم بها.

فانظر كيف جمع القرآن هذا المعنى الكثير في هذا اللفظ الوجيز ﴿آمَنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾. وسر ذلك أنه عدل بالكلام عن صريح اسم القرآن إلى كنياته. فجعل دعاءهم إلى الإيمان به دعاء إلى الشيء بحجته، وبذلك أخرج الدليل والدعوى في لفظ واحد.

ثم انظر كيف طوى ذكر المنزل عليه فلم يقل: آمنوا بما أنزل الله (على محمد)، مع أن هذا جزء متمم لوصف القرآن المقصود بالدعوة.

أتدرى لم ذلك؟ لأنه لو ذكر لكان في نظر الحكمة البيانية زائداً، وفي نظر الحكمة الإرشادية مفسداً.

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٤٢٤.

أما الأول فلأن هذه الخصوصية لا مدخل لها في الإلزام، فأدير الأمر على القدر المشترك وعلى الحد الأوسط الذي هو عمود الدليل.

وأما الثاني فلأن إلقاء هذا الإسم على مسامح الأعداء من شأنه أن يخرج أضغانهم ويثير أحقادهم فيؤدى إلى عكس ما قصده الداعى من التأليف والإصلاح...

كان جواب اليهود أن قالوا: إن الذى دعانا للإيمان بالتوراة ليس هو كونها أنزلها الله فحسب، بل إننا آمنّا بها لأن الله أنزلها علينا. والقرآن لم ينزله علينا، فلکم قرآنکم ولنا توراتنا، ولكل أمة شرعة ومنهاج.

هذا هو المعنى الذى أوجزه القرآن فى قوله: ﴿نؤمن بما أنزل علينا﴾ وهذا هو المقصد الأول، وقد زاد إيجاز هذه العبارة أن حذف منها فاعل الإنزال وهو لفظ الجلالة، لأنه تقدم ذكره فى نظيرتها.

ومن البين أن اقتصارهم على الإيمان بما أنزل عليهم يومئذ إلى كفرانهم بما أنزل على غيرهم، وهذا هو المقصد الثانى، ولكنهم تحاشوا التصريح به لما فيه من شناعة التسجيل على أنفسهم بالكفر، فأراد القرآن أن يبرزه، أنظر كيف أبرزه؟ إنه لم يجعل لازم مذهبهم مذهباً له، ولم يدخل مضمون قولهم فى جملة ما نقله من كلامهم، بل أخرجه فى معرض الشرح والتعليق على مقالتهم فقال:

﴿ويكفرون بما وراءه﴾ أليس ذلك هو غاية الأمانة فى النقل؟.. ثم جاء دور الرد والمناقشة فيها أعلنوه وما أسروه.

فتراه لا يبدأ بمحاورتهم فى دعوى إيمانهم بكتابتهم، بل يتركها مؤقتاً كأنها مسلمة ليس عليهم وجوب الإيمان بغيره من الكتب فيقول: كيف يكون الإيمان بكتابتهم باعثاً على الكفر بما هو حق مثله؟ لا بل هو الحق كله، وهل يعارض الحق الحق حتى يكون الإيمان بأحدهما موجبا للكفر بالأخر؟

ثم يترقى فيقول: وليس الأمر بين هذا الكتاب الجديد وبين الكتب السالفة عليه كالأمر بين كل حق وحق، فقد يكون الشيء حقاً وغيره حقاً فلا يتكاذبان، ولكنها فى شأنين مختلفين، فلا يشهد بعضها لبعض، أما هذا الكتاب فإنه جاء شاهداً ومصداقاً لما بين يديه من الكتب، فكيف يكذب به من يؤمن بها.

فانظر إلى الإحكام فى صنعة البيان: إنما هى كلمة رفعت وأخرى وضعت فى مكانها عند الحاجة إليها، فكانت هذه الكلمة حسماً لكل عذر، وسداً لكل باب من أبواب الهرب، بل

كانت هذه الكلمة وحدها بمثابة حركة تطويق للخصم. تمت خطوة واحدة، وفي غير ما جلبه ولا طنطنة.

ولما قضى وطر النفس من هذا الجانب المطوى الذى ساقه مساق الاعتراض والاستطراد، استوى إلى الرد على المقصد الأصلي الذى تبجحوا بإعلانه والافتخار به، وهو دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم، فأوسعهم إكذاباً وتفنيداً. وبين أن داء الجحود فيهم داء قديم، قد أشربوه في قلوبهم ومضت عليه القرون حتى أصبح مرضاً مزمناً وأن الذى أتوه اليوم من الكفر بما أنزل على محمد ما هو إلا حلقة متصلة بسلسلة كفرهم بما أنزل عليهم، وساق على ذلك الشواهد التاريخية المفضعة التى لا سبيل لإنكارها فى جهلهم بالله، وانتهاكهم لحرمة أنبيائه، وتمردهم على أوامره ﴿قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾.

تأمل كيف أن هذا الانتقال كانت النفس قد استعدت له فى آخر المرحلة السابقة، إذ يفهم السامع من تكذيبهم لما يصدق كتابهم أنهم صاروا مكذبين لكتابهم نفسه، وهل الذى يكذب من يصدقك يبقى مصدقاً لك؟؟...

ثم انظر بعد أن سجل القرآن على بنى إسرائيل أفحش الفحش وهو وضعهم البقر الذى هو مثل فى البلادة موضع المعبود الأقدس، وبعد أن وصف قسوة قلوبهم فى تأييدهم على أوامر الله مع حملهم عليها بالآيات الرهيبة. بعد كل ذلك تراه لا يزيد على أن يقول فى أول الأمر: إن هذا «ظلم»، وفى الثانية (بشما) صنعتم، أذلك كل ما تقابل به هذه الشناعات؟ نعم إنها كلمتان وافيتان بمقدار الجريمة لو فهمتا على وجهها، ولكن أين حدة الألم وحرارة الاندفاع فى الانتقام؟ بل أين الإقذاع والتشنيع؟ وأين الإسراف والفجور الذى تراه فى كلام الناس، إذا أحفظوا بالنيل من مقامهم.

تالله ما أعف هذه الخصومة وما أعز هذا الجنب، وأغناه عن شكر الشاكرين وكفر الكافرين، وتالله إن هذا الكلام لا يصدر عن نفس بشر^(١).
ثم أمر الله - تعالى - نبيه «ﷺ» أن يرد على اليهود فى دعواهم أن الجنة لن يدخلها إلا من كان على ملتهم فقال - تعالى -:

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾

(١) عن كتاب «النبأ العظيم» من ص ١١٤ : ص ١٢٢ لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد الله دراز.

وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ
 ﴿٩٥﴾ وَلَنَجْذِثَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ
 أَشْرَكُوا يُوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْزَقٍ بِهِ
 مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

ومعنى الآيات الكريمة إجمالاً :

قل - يا محمد - لأولئك اليهود الذين ادعوا أن الجنة لن يدخلها إلا من كان هوداً : إن كانت الجنة مختصة بكم ، وسالمة لكم دون غيركم ، وليس لأحد سواكم فيها حق . فتمنوا الموت إن كنتم صادقين في دعواكم ، لأن من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق إليها وأحب الوصول إليها .

ثم أخبر الله أن هذا التمني لن يحصل منهم فقال : ﴿ولن يتمنوه أبداً﴾ أى الموت ﴿بما قدمت أيدىهم﴾ أى بسبب ما ارتكبه من كفر ومعصية ﴿والله عليم بالظالمين﴾ الذين وضعوا الأمور في غير موضعها ، فادعوا ما ليس لهم ، ونفوه عنهم هو لهم .

ثم أخبر القرآن بأن حرصهم على الحياة لا نظير له ولا مثل فقال : ﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة﴾ متطاوله ﴿ومن الذين أشركوا﴾ أى : وأحرص عليها - أيضاً - من الذين أشركوا الذين لا يعرفون إلا الحياة الدنيا ﴿يود أحدهم لو يعمر ألف سنة﴾ أى يتمنى الواحد من هؤلاء اليهود أن يعيش السنين الكثيرة ولو تجاوزت الحدود المعقولة لعمر الإنسان والحال أنه ما أحد منهم بمزحزحه ومنجيه تعميره من العذاب ﴿والله بصير بما يعملون﴾ أى : لا يخفى عليه أعمالهم ، فهو محاسبهم عليها ، ومجازيهم بما يستحقونه من عقاب .

وقوله تعالى : ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ رد على زعمهم الباطل أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً ، والمراد بالدار الآخرة : الجنة ونعيمها ، ومعنى «خالصة» سالمة لكم مختصة بكم ، لا يشارككم فيها أحد من الناس .

قال الإمام ابن جرير : «يقال : خلص لى فلان بمعنى صار لى وحدى وصفا لى ، ويقال منه خلص هذا الشيء ، فهو يخلص خلوصاً وخالصة ، والخالصة مصدر مثل العافية . .» (١) .

وقوله تعالى: ﴿فتمنوا الموت﴾ التمنى هو ارتياح النفس ورغبتها القوية في الشيء. بحيث توده وتحب المصير إليه، وهو يستعمل في المعنى القائم بالقلب كما بينا، ويستعمل في اللفظ الدال على هذا المعنى، كأن يقول الإنسان بلسانه، ليتنى أحصل على كذا.

والاستعمال الثانى هو المراد بقوله تعالى: ﴿فتمنوا الموت﴾ أى اذكروا بألستكم لفظاً يدل على أنكم تحبون الموت وترغبون فيه. وإنما قلنا إن ذلك هو المراد من الآية لأن المعنى الكائن بالقلب لا يعرفه أحد سوى الله - تعالى - والتحدى لا يقع بتحصيل المعاني القائمة بالضمائر والقلوب.

ومعنى الآية الكريمة. قل يا محمد لليهود: إن كانت الجنة خاصة بكم، ولا منازع لكم فيها ولا مزاحم كما تزعمون، فتمنوا الموت بألستكم لكى تظفروا بنعيمها الدائم، إن كنتم صادقين فى دعواكم أنها خالصة لكم، وإلا فإنكم لا تكونون صادقين فى دعواكم، إذ لا يعقل أن يرغب الإنسان عن السعادة المحضة الدائمة المضمونة له فى الآخرة، إلى سعادة ممزوجة بالشقاء فى الدنيا.

قال الإمام الرازى: (وبيان هذه الملازمة أن نعم الدنيا قليلة حقيرة بالقياس إلى نعم الآخرة. ثم إن نعم الدنيا على قتلها كانت منغصة عليهم بسبب ظهور محمد ﷺ ومنازعتهم معهم، بالجدال والقتال، ومن كان فى النعم القليلة المنغصة. ثم تيقن أنه بعد الموت لا بد أن ينتقل إلى تلك النعم العظيمة، فإنه لا بد أن يكون راغباً فى الموت، لأن تلك النعم العظيمة مطلوبة ولا سبيل إليها إلا بالموت وحيث كان الموت يتوقف عليه المطلوب وجب أن يكون هذا الإنسان راضياً بالموت متمنياً له، فثبت أن الدار الآخرة لو كانت خالصة لهم، لوجب أن يتمنوا الموت. ثم إن الله - تعالى - أخبر أنهم ما تمنوا الموت، بل لن يتمنوه أبداً، وحينئذ يلزم قطعاً بطلان ادعائها فى قولهم: «إن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس»^(١).

وتحديدهم بتمنى الموت يكون بأن يقولوا بألستهم ليتنا نموت، أو يقولوا ما فى معنى هذه الكلمة كما أشرنا إلى ذلك سابقاً، وهذا رأى جمهور المفسرين.

وروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن ذلك يكون عن طريق المباهلة، بأن يحضروا مع المؤمنين فى صعيد واحد، ثم يدعو الفريقان بالموت على الكاذب منها.

ويبدو لنا أن رأى الأول أرجح لأنه أقرب إلى موافقة اللفظ الذى نطقت به الآية وأقرب أيضاً إلى معناها. إذ ليس فى الآية إشارة ما إلى طلب المباهلة، والقرآن حينما دعا إليها نصارى

نجران، جاء اللفظ بها صريحاً في قوله تعالى: ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم، ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾^(١).

ثم أخبر - سبحانه - بأن هؤلاء اليهود لن يتمنوا الموت أبداً بسبب ما فعلوا من شرور فقال تعالى: ﴿ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين﴾.

أى: لا يتمنى اليهود الموت أبداً بسبب ما قدمت أيديهم من آثام، والله - عز وجل - لا تخفى عليه خافية من سيئاتهم واعتداءاتهم بل هو سيسجلها عليهم، ويجازيهم عليها الجزاء الذى يستحقونه، والآية الكريمة خبر من الله - تعالى - عن اليهود بأنهم يكرهون الموت، ويمتنعون عن الإجابة إلى ما دعوا إليه من تمنيه، لعلمهم بأنهم إن فعلوا فالموت نازل بهم، وذلك لأن رسول الله ﷺ لم يخبرهم خبراً إلا كان حقاً كما أخبر فهم يحذرون أن يتمنوا الموت، خوفاً من أن يحل بهم عقاب الله بما كسبت أيديهم من الذنوب.

وقد صح من عدة طرق عن ابن عباس أنه قال: «لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه». وقال ابن جرير في تفسيره: «وبلغنا أن النبي ﷺ قال: «لو أن اليهود تمنوا الموت لمتوا؛ ولرأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالا» قال حدثنا بذلك أبو كريب، حدثنا زكريا بن عدى، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن عبد الكريم عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ^(٢).

وقال الإمام ابن كثير: ورواه الإمام أحمد عن اسماعيل بن يزيد الرقى حدثنا فرات عن عبد الكريم به^(٣).

وقال صاحب الكشاف: قوله: ﴿ولن يتمنوه أبداً﴾ من المعجزات لأنه إخبار بالغيب وكان كما أخبر به، كقوله تعالى: ﴿ولن تفعلوا﴾ فإن قلت: ما أدراك أنهم لم يتمنوا الموت: قلت لو تمنوا لنقل ذلك عنهم كما نقلت سائر الحوادث، وكان ناقلوه من أهل الكتاب وغيرهم من أولى المطاعن في الإسلام أكثر من الذر وليس أحد منهم نقل عنه ذلك^(٤).

ويكفى في تحقيق هذه المعجزة، ألا يصدر تمنى الموت عن اليهود الذين تحداهم النبي ﷺ بذلك، وهم الذين كانوا يضعون العراقيل في طريق دعوته، ويصرون على جحود نبوته؛ فلا يقدح في هذه المعجزة أن ينطق يهودى بعد العهد النبوى بتمنى الموت وهو حريص على الحياة، لأن المعنيين بالتحدى هم اليهود المعاصرون للعهد النبوى.

(١) آل عمران الآية ٦١.

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٢٧.

(٣) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٤٢٧.

(٤) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٢٥.

وقوله تعالى : ﴿والله عليم بالظالمين﴾ وارد مورد التهديد والوعيد لهم وكان اليهود ظالمين بسبب ما قدمت أيديهم ويسبب كونهم قد كذبوا على الله في دعواهم أن الجنة لا يدخلها إلا من كان منهم .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بأن هؤلاء اليهود الذين يزعمون أن الجنة خالصة لهم في غاية الحرص على الحياة فقال تعالى : ﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون﴾ .

ومعنى الآية الكريمة : ولتجدن - يا محمد - أولئك اليهود - الذين يزعمون أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس - لتجدنهم أحب الناس للحياة، وأحرصهم عليها، وأشدهم كراهية للموت « وليس ذلك عندما يكونون متمتعين بالطمأنينة والعافية فقط بل هم كذلك حتى ولوزالت عنها كل معاني الراحة والطمأنينة، فهم أحرص عليها حتى من المشركين الذين لا يؤمنون بالبعث، والذين يعتبرون نعيمهم الأكبر هو ما يتمتعون به من اللذائذ في هذه الدنيا، وهم في حرصهم على الحياة يتمنون أن تطول أعمارهم دهوراً طويلة، لا يصل إليها خيال أحد ممن يحرصون عليها كما قال تعالى : ﴿يود أحدهم لو يعمر ألف سنة﴾ . وبذلك تكون الآية الكريمة قد كذبتهم في دعواهم أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس لأن الأمر لو كان كما يزعمون لرحبوا بالانتقال إليها، ولكنهم لا يحبون الموت ولا يكاد يخطر ببالهم، ويحرصون كل الحرص على البقاء حتى مع سوء الحالة ورذالة العيش، كما يشعر بذلك التنكير في قوله تعالى ﴿على حياة﴾ .

والمراد بالناس جميعهم، وأفعل التفضيل في «أحرص» على بابه، لأن الحرص على الحياة غريزة في البشر إلا أنهم متفاوتون فيه قوة وكيفية وأسباباً، كما قال الشاعر :

أرى كلنا يهوى الحياة بسعيه حريصاً عليها مستهماً بها صبا
فحب الجبان النفس أوردته التقى وحب الشجاع النفس أوردته الحربا

فالناس جميعاً وإن كانوا يشتركون مع اليهود في الحرص على الحياة، إلا أن اليهود يزيدون على سائر الناس أنهم أحرصهم، وأنهم من أجل حرصهم عليها يضحون بدينهم وبكرامتهم وبكل شيء .

ونكر - سبحانه - الحياة التي يحرصون عليها، زيادة في تحقيرهم، فكأنه - سبحانه - يقول : إنهم شديدو الحرص على الحياة، ولو كانت حياة بؤس وشقاء، وللإشعار بأن ما يههمهم

هو مطلق حياة كيفما كانت، بصرف النظر عن العزة والكرامة، فمن أمثال اليهود المشهورة «الحياة وكفى».

ولا شك أن شدة التهالك على الحياة، تؤدي إلى الجبن، واحتمال الضيم، وتجعل الأمة التي تنتشر فيها هذه الرذيلة لا تفرق بين الحياة الكريمة والحياة الذليلة.

وقوله تعالى: ﴿ومن الذين أشركوا﴾ عطف على الناس، لأنه لما كان قوله تعالى: ﴿أحرص الناس﴾ في معنى: أحرص من جميع الناس صح أن يراعى المعنى، فيكون قوله: ﴿ومن الذين أشركوا﴾ معطوف عليه، فيكون المعنى: أحرص من جميع الناس، وأحرص من الذين أشركوا على الحياة.

والذين أشركوا، هم الذين جعلوا لله شركاء وإنما أقردوا بالذكر مع أنهم من الناس، مبالغة في توبيخ اليهود ودمهم، لأنهم إذا زاد حرصهم على الحياة - وهم أهل كتاب - على المشركين الذين لا كتاب لهم ولا يدينون بيعت أو نشور كان ذلك دليلاً على هوان نفوسهم، وابتذال كرامتهم وعدم اعتدادهم بوصايا كتبهم التي تنهاهم عن الحرص على الحياة الذليلة.

قال صاحب الكشاف: «وفيه توبيخ عظيم، لأن الذين أشركوا لا يؤمنون بعاقبة ولا يعرفون إلا الحياة الدنيا، فحرصهم عليها لا يستبعد لأنها جنتهم، فإذا زاد عليها في الحرص من له كتاب وهو مقر بالجزاء، كان حقيقاً بأعظم التوبيخ، فإن قلت: لم زاد حرصهم على حرص المشركين؟ قلت: لأنهم علموا أنهم صائرون إلى النار لا محالة والمشركون لا يعلمون ذلك»^(١).

ثم بين - سبحانه - مظهراً من مظاهر حرصهم على الحياة فقال تعالى: ﴿يود أحدهم لو يعمر ألف سنة﴾ أى يتمنى الواحد منهم أن يعيش دهوراً كثيرة، ليس من عادة الناس أن يحبوا بلوغها، لأنها تؤدي بهم إلى أردل العمر، وعدم طيب العيش.

فالجملة الكريمة مستأنفة لإظهار مغالاتهم في التهالك على الدنيا ولتحقيق عموم النوعية في الحياة المنكرة، ولدفع ما يظنه بعض الناس من أن حرصهم على الحياة مهما اشتد فلن يصل بهم إلى تمنى أن يعيش الواحد منهم ألف عام، أو أكثر، فجاء بهذه الجملة الكريمة. لتحقيق أن تعلقهم بالدنيا يشمل حتى هذه السن المتطاولة، التي لا هناء فيها ولا راحة، والتي استعاذ من بلوغها المؤمنون.

ثم بين - سبحانه - أن تعميرهم الطويل لن ينجيهم من العقوبة، لأن الموت لا يتركهم مهما

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٣٥.

طال عمرهم، فقال تعالى: ﴿وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر﴾ أي: وما أحد منهم يبعده تعميره عن العذاب المعد له، ولا يمنجيه منه.

والجملة الكريمة فيها بيان مصيرهم المحتوم، وقطع لحبال مطامعهم، لأن الموت سيلحقهم مهما بلغ عمرهم، وسيلقون جزاءهم على سوء صنيعهم.

وفي التعبير ﴿بمزحزحه﴾ إشارة إلى أن طول عمرهم، ليس له أي أثر في تخفيف العذاب عنهم، وقوله: ﴿والله بصير بما يعملون﴾ تهديد ووعيد لهم لأنه - سبحانه - عليم بأعمالهم، محيط بما يخفون وما يعلنون، وسيجازيهم على كل ذلك بما يستحقون.

ومن هذا العرض للآيات الكريمة نرى أنها قد ردت على اليهود في دعواهم أن الجنة خالصة لهم، ردًا يبطل حججهم، ويفضح مزاعمهم، ويكبت نفوسهم، ويخرس ألسنتهم، ويعلن أن الجنة إنما هي لمن أسلم وجهه لله وهو محسن، وهم ليسوا من هذا النوع من الناس ولذا حرصوا على الحياة وفزعوا من الموت، لأنهم يعلمون أن من ورائهم النار وبئس القرار بسبب ما ارتكبوا من سيئات، واقترفوا من أكاذيب.

ثم ساق القرآن بعد ذلك لونا عجيبا من ألوان رذائل اليهود وهو مجاهرتهم بالعداوة لأمين الوحي جبريل - عليه السلام - فقال - تعالى - :

قُلْ

مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلْجَبْرِيلِ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ، عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ

مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرًا لِلْمُؤْمِنِينَ

﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَرُسُلِهِ، وَجَبْرِيلَ

وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾

فهاتان الآيتان تكشفان عن رذيلة غريبة حقًا من رذائل اليهود وهي عداوتهم للملك من ملائكة الله، لا يأكل مما يأكلون، ولا يشرب مما يشربون وإنما هو من الملائكة المقربين، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وإذا فليس هناك مقتض لعداوته، فلماذا هذا التصريح منهم ببيغضه وكراهيته؟

لقد سمعوا أن جبريل - عليه السلام - ينزل بالوحي من عند الله على محمد ﷺ وهم

يחסدونه على النبوة، فلج بهم الحقد والغیظ إلى أن أعلنوا عن عدائهم لجبریل - أيضاً - وهذه حماقة وجهالة منهم، لأن جبریل - عليه السلام - نزل بالخير لهم في دينهم وفي دنياهم. ولكن الحقد والحسد إذا استوليا على النفوس جعلها لا تفرق بين الخير والشر.

ومعنى الآيتين الكریمتين، قل - يا محمد - هؤلاء اليهود الذين أعلنوا عداءهم لجبریل أنه لا وجه لعداوته لأنه لم ينزل بالقرآن من تلقاء نفسه وإنما نزل على قلبك بأمر الله ليكون مؤيداً لما نزل قبله من الكتب السماوية وليكون هداية إلى طريق السعادة وبشارة للمؤمنين بالجنة، وقل لهم كذلك من كان معادياً لله أو للملك من ملائكته أو لرسول من رسله، فقد كفر وباء بغضب من الله، ومن غضب الله عليه، فجزاؤه الخزي وسوء المصير.

قال الإمام ابن جریر: (أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً، على أن هذه نزلت جواباً ليهود من بنی إسرائيل، إذ زعموا أن جبریل عدو لهم، وميكائيل ولي لهم)^(١).

وروى البخاری في صحيحه - عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال: سمع عبد الله بن سلام بقدم النبي ﷺ وهو في أرض يخترف - أى يجنى ثمارها - فأتى النبي ﷺ فقال له: إني سئلتك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى، فيم أول أشرط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة، وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: أخبرني بهن جبریل آنفاً قال: جبریل؟ قال: نعم قال ذلك عدو اليهود من الملائكة - فقرأ النبي ﷺ هذه الآية: ﴿قل من كان عدواً لجبریل فإنه نزله على قلبك...﴾ الآية ثم قال: أما أول أشرط الساعة، فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب! وأما أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة نزع فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله. يا رسول الله: إن اليهود قوم بهت، وإنهم إن تعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم ييهتوني، فجاءت اليهود فقال النبي ﷺ: أى رجل فيكم عبد الله؟ قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا: قال «أرايتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟ فقالوا: أعاذه الله من ذلك؟ فخرج عبد الله فقال: «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»، فقالوا: شرنا وابن شرنا، وانتقصوه، قال: فهذا الذى كنت أخاف يا رسول الله^(٢).

وأخرج الإمام أحمد عن ابن عباس: «أن اليهود بعد أن سألوا النبي ﷺ أسئلة أجابهم عنها، قالوا صدقت فحدثنا من وليك من الملائكة فعندها نجامعك أو نفارقك. قال: ولى جبریل، لم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه، قالوا: فعندها نفارقك، ولو كان وليك سواء من

(١) تفسير ابن جریر ج ١ ص ٤٣١.

(٢) صحيح البخاری كتاب التفسير باب قوله تعالى: «قل من كان عدواً لجبریل» ج ٦ ص ٢٣.

الملائكة لتابعناك وصدقناك، قال: فما يمنعكم أن تصدقوه؟ قالوا: إنه عدونا، فأنزل الله - تعالى - قوله: ﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه...﴾ الآيات.

وفي حديث للإمام أحمد والترمذي والنسائي «قال اليهود للنبي ﷺ بعد أن سأله عن أشياء أجابهم عنها إنما بقيت واحدة وهى التى نتابعك إن أخبرتنا بها، إنه ليس من نبي إلا وله ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟ قال جبريل - عليه السلام - قالوا: جبريل ذلك الذى ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا، لو قلت ميكائيل الذى ينزل بالرحمة والقطر والنبات لكان. فأنزل الله - تعالى - : ﴿قل من كان عدواً لجبريل﴾ الآية^(١).

فيؤخذ من هذه الأحاديث وما فى معناها أن اليهود فى عهد النبى ﷺ كانوا يجاهرون بعداوتهم لجبريل - عليه السلام - وأن هذه المجاهرة بالعداوة، قد تكررت منهم فى مواقف متعددة بينهم وبين النبى ﷺ وأن الذى حملهم على ذلك هو حسدهم له، وغیظهم من جبريل، لأنه ينزل بالوحي عليه.

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: «ومن عجيب تهافت اعتقادهم أنهم يثبتون أنه ملك مرسل من عند الله، ومع ذلك يبغضونه، وهذا أحط درجات الانحطاط فى العقل والعقيدة، ولاشك أن اضطراب العقيدة من أكبر مظاهر انحطاط الأمة لأنه ينبىء عن تضافر آرائهم على الخطأ والأوهام»^(٢).

وفى أمر الرسول ﷺ بلفظ (قل) كى يرد على اليهود، تثبيت له، وتطمين لنفسه وتوبيخ لهم على معاداتهم لأمين الوحي، وهو جبريل - عليه السلام -.

وقوله تعالى: ﴿من كان عدواً لجبريل﴾، شرط عام قصد الإتيان به ليعلموا أن الله - تعالى - لا يعاب بهم ولا بغيرهم ممن يعادى جبريل، إن وجد معاد آخر له سواهم. وقوله تعالى: ﴿على قلبك﴾ زيادة تقرير للتنزيل، ببيان محل الوحي، وإشارة إلى أن السبب فى تمكنه ﷺ من تلاوة القرآن الكريم، وإبلاغه للناس، ثباته فى قلبه.

وقوله تعالى: ﴿فإنه نزله على قلبك بإذن الله﴾ معناه: فلا موجب لعداوته. لأنه نزل القرآن على قلبك يا محمد بإذن الله وأمره. وإذا فعداوته عداوة لله فى الحقيقة والواقع، ومن هنا يتبين أن هذه الجملة تعليل لجواب الشرط وقائمة مقامه.

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٢٩.

(٢) تفسير التحرير والتنوير ج ١ ص ٢٢٦.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف استقام قوله تعالى : ﴿ فإنه نزله على قلبك ﴾ جزاء للشروط ؟ قلت : فيه وجهان :

أحدهما : إن عادى جبريل أحد من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته ، حيث نزل كتاباً مصدقاً للكتب التي بين يديه ، فلو أنصفوا لأحبوه وشكروا له صنيعه في إنزاله ما ينفعهم ويصح المنزل عليهم .

والثاني : إن عاداه أحد فالسبب في عداوته أنه نزل عليك القرآن مصدقاً لكتابهم ، وموافقاً له ، وهم كارهون للقرآن ولموافقتهم لكتابهم ، ولذلك يجرّفونه ويحسدون موافقته له . كقولك : « إن عاداك فلان فقد آذيتَه وأسأت إليه » (١) .

وقوله - تعالى - : ﴿ بإذن الله ﴾ أي بأمره ، وهو توبيخ لهم على عداوتهم لجبريل ، الذي أنزل بالقرآن بإذن الله ، لا من تلقاء نفسه ، وهذه حجة أولى عليهم .

وقوله تعالى : ﴿ مصدقاً ﴾ حال من الضمير العائد على القرآن الكريم ، في قوله ﴿ نزله ﴾ أي أنزله حالة كونه مؤيداً للكتب السماوية التي قبله ومن بينها التوراة ، وهذه حجة ثانية عليهم .

ثم عززها بثالثة ورابعة - فقال تعالى : ﴿ وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾ أي هذا القرآن الذي نزل مصدقاً لكتبكم ، هو هاد إلى طريق الفلاح والنجاح ، والعاقل لا يرفض الهداية التي تأتيه وتتقده مما هو فيه من ضلالات ولو كان الواسطة في مجيئها عدواً له ، وهو - أيضاً - مبشر للمؤمنين برضا الله تعالى - عنهم في الدنيا والآخرة ، أما الضالون فقد أنذرهم بسوء العقبى فعليكم أن تتبعوا طريق الإيمان لتكونوا من المفلحين وبذلك يكون القرآن قد أقام حججاً متعددة على حماقتهم وعنادهم وجحودهم للحق بعد ما تبين . وتكون الآية الكريمة قد مدحت القرآن بخمس صفات .

أولها : أنه منزل من عند الله وياذنه .

وثانيها : أنه منزل على قلب النبي ﷺ .

وثالثها : أنه مصدق لما نزل قبله من الكتب السماوية .

ورابعها : أنه هاد إلى الخير أبلغ هدى وأقواه .

وخامسها : أنه بشارة سارة للمؤمنين .

ثم بين - تعالى - حقيقة الأمر فيمن يعادى جبريل وأن عداوته عداوة الله - تعالى - فإنه أمين وحيه إلى رسله ليس له في ذلك شيء إلا أن يبلغ ما أمر به فقال تعالى : ﴿ من كان عدواً لله

وملائكته ورسله وجبريل وميكايل فإن الله عدو للكافرين ﴿١﴾.

والمعنى : أن عداوة جبريل عداوة لله ، وأن عداوة محمد ﷺ عداوة لله - أيضًا - فالإيمان بالله وملائكته ورسله وحدة لا تتجزأ فمن كفر بواحد منهم فهو كافر بالجميع .

ومعنى عداوة العبد لله : كفره به ومخالفته لأوامره ونواهيه ومعنى عداوته للملائكة : إنكار فضلهم ووصفهم بما يناق عصمتهم ورفعة منزلتهم . ومعنى عداوته لرسله : تكذيبه لهم وتعمده إلحاق الأذى بهم ومعنى عداوة الله لعبده : غضبه سبحانه - عليه ، ومجازاته له على كفره . وصدر - سبحانه - الكلام باسمه الجليل تفخيلاً لشأن ملائكته ورسله وإشعاراً بأن عداوتهم إنما هي عداوة له - تعالى - .

وأفرد - سبحانه - جبريل وميكايل بالذكر، مع اندراجهما تحت عموم ملائكته، لتصريح اليهود بعداوة جبريل وتعظيم ميكايل، فأفردهما بالذكر للتنبيه على أن المعادة لأحدهما معادة للجميع، وأن الكفر بأحدهما كفر بالآخر.

قال ابن جرير : « فإن قال قائل : أو ليس جبريل وميكايل من الملائكة ؟ قيل بلى ، فإن قال : فما معنى تكرير ذكرهما بأسمائهما في الآية في جملة أسماء الملائكة ؟ قيل : معنى أفراد ذكرهما بأسمائهما أن اليهود لما قالت جبريل عدونا وميكايل ولينا ، وزعمت أنها كفرت بمحمد ﷺ من أجل أن جبريل صاحبه ، أعلمهم الله - تعالى - أن من كان لجبريل عدواً فإن الله عدو له وأنه من الكافرين ، فنص عليه باسمه وعلى ميكايل باسمه ، لثلا يقول منهم قائل : إنما قال الله : من كان عدواً لله وملائكته ورسله ، ولسنا لله ولا للملائكة ولا لرسله أعداء ، لأن الملائكة اسم عام محتمل خاصاً ، وجبريل وميكايل غير داخلين فيه ، وكذلك قوله ورسله فلست يا محمد داخلاً فيهم ، فنص الله - تعالى - على أسماء من زعموا أنهم أعداؤه بأعيانهم ليقطع بذلك تلبيسهم على أهل الضعف منهم ، ويحسم تمويه أمورهم على ضعاف الإيمان » (١).

وقال - سبحانه - في ختام الآية الكريمة ﴿ فإن الله عدو للكافرين ﴾ ولم يقل فإن الله عدو له أو لهم ، ليدل على أن عداوة كل واحد ممن اشتملت الآية الكريمة على ذكرهم كفر وجحود ، وليكون اندراجهم تحت هذا الحكم العام من باب إثبات الحكم بالدليل ، وللإشعار بأن عداوة الله - تعالى - لهم سببها كفرهم فإن الله لن يعادى قومًا لذواتهم ولا لأنسابهم ، وإنما يكره لهم الكفر ويعاقبهم عليه معاقبة العدو للعدو .

قال صاحب المنار : « فهذه الآية الكريمة وعيد لهم بعد بيان فساد العلة التي جاءوا بها ، فهم لم يدعوا عداوة هؤلاء كلهم ، لكنهم كذلك في نفس الأمر ، فأراد أن يبين حقيقة حالهم في

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٤٤٩ .

الواقع، وهى أنهم أعداء الحق وأعداء كل من يمثله ويدعو إليه، فالتصريح بعداوة جبريل كالتصريح بعداوة ميكائيل الذى يزعمون أنهم يحبونه. وأنهم كانوا يؤمنون بالنبي ﷺ لو كان هو الذى ينزل بالوحى عليه، ومعاداة القرآن الكريم كمعاداة سائر الكتب الإلهية لأن المقصود من الجميع واحد فقولهم السابق وحالهم يدلان على معاداة كل من ذكره. وهذا من ضروب إيجاز القرآن الكريم التى انفرد بها^(١).

وبهذا تكون الآيتان الكریمتان قد دمغتا اليهود بالكفر والجهالة، لمعاداتهم لجبريل وتكذيبهم لمحمد ﷺ وبينتا ما عليه أمرهم من خزى وهوان بسبب هذه العداوة التى لا باعث عليها إلا الحسد، وكراهية أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده. ثم أخذ القرآن فى تثبيت فؤاد النبي ﷺ وتسليته عما يفعله معه اليهود فقال تعالى:

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا

إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾
أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ

لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾

أى: لقد أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحة دالة على معانيها وعلى كونها من عند الله، وبيننا لك فيها علوم اليهود، ومكونات سرائرهم وأخبارهم، وما حرفة أوائلهم وأواخرهم من كتبهم، وما بدلوه من أحكامهم قال تعالى:

﴿إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون﴾.

وإن هذه الآيات التى أنزلها الله إليك يا محمد، ما يكفر بها، ويحصد صدقها إلا المتمردون من الكفرة، الخارجون على حدود الله المنتهكون لحرماته.

والهمزة فى قوله ﴿أوكلما﴾ للإنكار، والواو للعطف على محذوف يقتضية المقام: أى أكفروا بالآيات البينات، وكلما عاهدوا عهداً نبذوه فريقتهم، أى: طرحوه ونقضوه من النبذ وهو إلقاء الشيء وطرحه لقله الاعتداد به ومنه سمي النبذ وهو التمر والزبيب إذا طرحا فى الماء وهو حقيقة فى الأجرام وإسناده إلى العهد مجاز.

(١) تفسير المنار ج ١ ص ٣٩٤.

والضمير في قوله : ﴿منهم﴾ يعود لليهود الذين اشتهروا بنقض العهود وقوله : ﴿بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ يفيد الترقى إلى الأغلظ فالأغلظ، أى أن فريقاً منهم عرف بنقضه للعهد، وأكثرهم عرف بكفره وجحدته للحق.

قال صاحب الكشاف، واليهود موسومون بالغدر ونقض العهود، وكم أخذ الله الميثاق منهم ومن آباؤهم فنقضوا، وكم عاهدوا رسول الله فلم يفوا ﴿الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون﴾. (١)

وقال الرازى : «المقصود من هذا الاستفهام الإنكار وإعظام ما يقدمون عليه لأن مثل ذلك إذا قيل بهذا اللفظ كان أبلغ في التوبيخ والتبكيث. ودل بقوله : ﴿أوكلما عاهدوا﴾ على عهد بعد عهد نبذوه ونقضوه، بل يدل على أن ذلك كالعادة منهم، فكأنه - تعالى - أراد تسليية النبي ﷺ عند كفرهم بما أنزل عليه من الآيات، بأن بين له أن ذلك ليس ببدع منهم، بل هو سجيتهم وعادتهم وعادة سلفهم...» (٢)

ثم تحدث القرآن بعد ذلك عن نبذ اليهود لكتاب الله، واتباعهم للسحر والأوهام، فقال - تعالى - :

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ
مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَانَتْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾
وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ
سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ
السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَرْوَتَ
وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٢٧.

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ١ ص ٤١٧.

فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ
وَمَا هُمْ بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ
مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ
مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ
أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا
وَأَتَقُوا لِمَثُوبَةٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

والمعنى : وحين جاء اليهود وأخبارهم رسول من عند الله، وهو محمد ﷺ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة، طرح فريق كبير منهم تعاليم التوراة التي تشهد بصدقه، وراء ظهورهم، حتى لكانهم يجهلون أنها من عند الله، واتبعوا ما قصته واختلقته الشياطين من السحر والأوهام والمفتريات على عهد سليمان - عليه السلام - ومن هذه المفتريات والأكاذيب زعمهم أن سليمان - عليه السلام - كان ساحراً، وما تم له ملكه العريض، ولا ظهرت على يديه المعجزات الباهرة من تسخير الجن والريح إلا بهذا.

وقد أكد بهم الله - تعالى - في هذا الزعم بقوله : ﴿وما كفر سليمان﴾ أي : بتعلم السحر والعمل به، كما يزعم هؤلاء «ولكن الشياطين» هم الذين «كفروا» بتعلم السحر وتعليمه للناس، وتعليمهم - أيضاً - ضرباً آخر منه وهو ﴿ما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت﴾ من وصف السحر وماهيته وكيفية الاحتيال به، ولقد كان الملكان لا يعلمان أحداً من الناس السحر حتى ينصحا به بقولهما : إن السحر الذي نعلمك إياه.. القصد منه التمييز بين المطيع والعاصي، وبين السحر والمعجزة، فحذار أن تستعمله فيما نهيت عنه فتكون من الكافرين، بخلاف الشياطين فإنهم تعلموه وعلموه لغيرهم لاستعماله في الشرور والآثام، ولإحداث التفرقة بين الزوجين، ولكن هذا السحر الذي يتعاطاه الشياطين وأتباعهم لن يضر أحداً بذاته، وإنما ضرره يتأتى إذا أراد الله تعالى - ذلك وشاءه، ولقد علم أولئك النابذون لكتاب الله المؤثرون عليه اتباع السحر، أن من استبدل السحر بكتاب الله، فليس له نصيب من نعيم الجنة، ﴿ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون﴾ علماً نافعاً. ﴿ولو أنهم آمنوا﴾

بالله ورسوله محمد ﷺ كما أرشدتهم إليه التوراة، ﴿واتقوا﴾ المعاصي والاثام لأنبيوا ماثوبة من عند الله هي خير لهم مما آثروه واختاروه على كتاب الله ﴿لو كانوا يعلمون﴾.

وقوله تعالى: ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم﴾. . الخ الآية.

بيان لما صدر عن اليهود من تكذيب للرسول ﷺ وطرح لتعاليم كتابهم التي أمرتهم باتباعه. أخرج ابن جرير عن السدي قال في قوله تعالى: ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب: كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون واتبعوا ماتلوا الشياطين على ملك سليمان﴾. أى لما جاءهم محمد ﷺ عارضوه بالتوراة فخاصموه بها. فاتفقت التوراة والقرآن، فنبذوا التوراة والقرآن وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت، فذلك قول الله ﴿كأنهم لا يعلمون﴾ أى كأن هؤلاء الذين نبذوا كتاب الله من علماء اليهود، فنقضوا عهد الله، لا يعلمون ما في التوراة من الأمر باتباع محمد ﷺ وتصديقه^(١).

وفي وصف الرسول بأنه آت من عند الله تعظيم له، ومبالغة في انكار عدم إيمانهم به، وإغراء للناس جميعاً بالدخول في دعوته، لأنه ليس رسولا من تلقاء نفسه، وإنما هو رسول من عند الله - تعالى -:

والمراد «بما معهم» التوراة. وتصديق الرسول ﷺ لها، معناه أن ما جاء به من تعاليم موافق لها في أصول الدين، وأن ما جاءت به من صفات للرسول المنتظر بعد عيسى - عليه السلام - لا تنطبق إلا عليه ﷺ.

وعبر - سبحانه - عن تركهم العمل بالكتاب الذي نزل لهدايتهم بالنبذ، مبالغة في عدم اعتدادهم، وتناسيهم إياه، لأن أصل النبذ طرح وإلقاء ما لا يعتد به.

وفي إسناد النبذ إلى فريق من الذين أوتوا الكتاب، سخرية بهم، واستجهاال لهم، لأن الذين أوتوه هم الذين نبذوه، ولو كان النابذون من المشركين لكان لهم بعض العذر لجهلهم، ولكن أن يكون التاركون للنور هم الذين أوتوه وأكرموا به، فذلك هو الضلال المبين.

والمراد من ﴿كتاب الله﴾ الذي نبذوه لما جاءهم رسول الله - ﷺ - التوراة، لأنهم لو كانوا مؤمنين بها حقاً، لاتبعوا الرسول ﷺ الذي ذكرت صفاته فيها، والذي وجب عليهم بمقتضى كتابهم التوراة الإيمان به، فهم بجحودهم لنبوته، يكونون جاحدين لتوراتهم التي شهدت له بالصدق.

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٤٤٣ بتصرف وتلخيص.

وقيل المراد بكتاب الله الذي نبذوه القرآن، لأنهم لم يؤمنوا به، بل تركوه بعد سماعه، وتناسوا ما اشتمل عليه من هداية وإرشاد، مع أنه كان من المتحتم عليهم أن يتلقوه بالقبول. والذى نراه أن الرأى الأول أرجح، لأن النبذ يقتضى سابقة الأخذ، فى الجملة. وهو متحقق بالنسبة للتوراة، بخلاف القرآن الكريم فإنهم لم يسبق لهم أن تمسكوا به، ولأن مذمتهم تكون أشد وجحودهم أكثر، إذا كان المراد بالكتاب الذى نبذوه، هو عين الكتاب الذى نزل لهدايتهم وآمنوا به وهو التوراة.

وقوله تعالى: ﴿وراء ظهورهم﴾ كناية عن إعراضهم الشديد عنه، وتوليهم عن تعاليمه. تقول العرب: جعل هذا الأمر وراء ظهره، أى تولى عنه معرضاً، لأن ما يجعل وراء الظهر لا ينظر إليه، وفى هذه الجملة الكريمة تصوير صادق لإعراضهم عن كتاب الله - تعالى - حيث شبه - سبحانه - تركهم لكتابه، بحالة شئ يرمى به وراء الظهر استهانة به. وفى إضافة الورا إلى الظهر، تأكيد لنبذ ما ترك بحيث لا يؤخذ بعد ذلك.

قال الأستاذ الإمام: ليس المراد بنبذ الكتاب وراء ظهورهم أنهم طرحوه برمته، وتركوا التصديق به فى جملة وتفصيله. وإنما المراد أنهم طرحوا أجزاء منه وهو ما يبشر بالنبي ﷺ وبين صفاته ويأمرهم بالإيمان به واتباعه. فهو تشبيه لتركهم إياه وإنكاره، بمن يلقى الشئ وراء ظهره حتى لا يراه فيتذكره، وترك الجزء منه كتركه كله، لأن ترك البعض يذهب بحرمة الوحي من النفس، ويجرى على ترك الباقي^(١)...

وقوله تعالى: ﴿كأنهم لا يعلمون﴾ جملة حالية، أى طرحوه وراء ظهورهم مشبهين بحال من لا يعلم منه شيئاً، ومن لا يعرف أنه كتاب الله.

وشبههم بمن لا يعلمون مع أنهم فى الواقع يعلمون أنه من عند الله - حق العلم - لأنهم نبذوه مكابرة وعناداً، ولأنهم لم يعملوا بمقتضى علمهم ومن كان هذا شأنه فهو والجاهل سواء، فى جحود الحق والانغماس فى الآثام.

وقال - سبحانه - : ﴿كأنهم لا يعلمون﴾ بنفى الحال والاستقبال للإشعار بأنهم قوم لا أمل فى توبتهم وإنابتهم، بل هم تمر بهم الأيام، وتتوالى عليهم العظات، ومع ذلك لا يتوبون ولا يرجعون إلى الحق، فهم مستمررون على طرح كتاب الله فى كل وقت وأن، ومصممون على ذلك.

ثم حكى - سبحانه - لونا آخر من زيغهم وضلالهم واتباعهم للأباطيل بعد أن وبخهم على

(١) تفسير المنار ج ١ ص ٣٤٦.

نذهم لكتابه فقال تعالى : ﴿واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان﴾ .
اتبعوا : من الاتباع وهو الاقتداء، والضمير فيه يعود على اليهود المعاصرين للنبي ﷺ .
وتتلو : من التلاوة بمعنى الاتباع أو القراءة، وقال الراغب : تلا عليه كذب عليه .
والشياطين : جمع شيطان، وهو كائن حي خلق من النار، ويطلق على الممتلئ شرًا من
الأنس .

والمعنى : إن هؤلاء اليهود نبذوا كتاب الله، واتبعوا الذى كانت تتلوه وتقصه الشياطين على
عهد ملك سليمان، وفي زمانه، من الأكاذيب والكفر ومن ذلك زعمهم أن ملكه قام على
أساس السحر، وأنه ارتد في أواخر حياته، وعبد الأصنام إرضاء لسنائه الوثنيات إلى غير ذلك
من الأكاذيب التى ألصقوها به - عليه السلام - وهو برىء منها .

قال صاحب الكشاف : وقوله تعالى : ﴿على ملك سليمان﴾ أى على عهد ملكه وفي زمانه،
وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع ثم يضمون إلى ما سمعوا أكاذيب يلقونها ويلقونها
إلى الكهنة، وقد دونوها في كتب يقرءونها ويعلمونها للناس، وفشا ذلك في زمان سليمان - عليه
السلام - حتى قالوا : إن الجن تعلم الغيب، وكانوا يقولون : ماتم لسليمان ملكه إلا بهذا
العلم وبه يسخر الإنس والجن والريح التى تجرى بأمره^(١) .

وقوله تعالى : ﴿وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا﴾ معناه : وما كفر سليمان ولكن
الشياطين هم الذين كفروا إذ تعلموا السحر وعلموه لغيرهم بقصد إضلالهم، وصرفهم عن
عبادة - الله - تعالى - إلى عبادة غيره من المخلوقات .

ففى الجملة الكريمة تنزيه لسليمان - عليه السلام - عن الردة والشرك وتبرئة له من عمل
السحر الذى كان يتعاطاه أولئك الشياطين وينسبونه إليه زورا وهبتاناً، ودلالة على أن ذلك
السحر الذى نسبوه إليه وباشرته الشياطين نوع من الكفر .

وقد كان اليهود يعتقدون كفر سليمان، وأنه ارتد في آخر عمره، وعبد الأصنام وبني لها
المعابد، وكانوا عندما يذكر النبي ﷺ سليمان بين الأنبياء يقولون : انظروا إلى محمد يخلط الحق
بالباطل، يذكر سليمان مع الأنبياء، وإنما كان ساحراً يركب الريح .

فإن قال قائل : ما الحكمة فى نفي الكفر عن سليمان مع أن صدر الآية لا يفيد أن أحداً
نسب إليه ذلك .

فالجواب : أن اليهود الذين نبذوا كتاب الله، واتبعوا ما تلتته الشياطين من السحر أضافوا

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٢٢ .

هذا السحر إلى سليمان، وقالوا إنه كان يسخر به الجن والإنس والريح، فأكذبهم الله - تعالى - بقوله: ﴿وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا﴾ كما بينا.

والضمير في قوله تعالى: ﴿يعلمون الناس السحر﴾ يعود على الشياطين الذين افتروا الأكاذيب على سليمان - عليه السلام -.

ويجوز أن يعود على اليهود الذين نبذوا كتاب الله واتبعوا ما تلتته الشياطين على سليمان.

قال الأستاذ الإمام: في قوله تعالى ﴿يعلمون الناس السحر﴾: وجهان: أحدهما: أنه متصل بقوله تعالى: ﴿ولكن الشياطين كفروا﴾ أى: أن الشياطين هم الذين يعلمون الناس السحر.

والثاني: وهو الأظهر أنه متصل بالكلام عن اليهود وأن الكلام في الشياطين قد انتهى عند قوله تعالى ﴿كفروا﴾ وانتحال اليهود لتعليم السحر أمر كان مشهوراً في زمن التنزيل ولا يزالون ينتحلون ذلك إلى اليوم، أى أن فريقاً من اليهود نبذوا كتاب الله واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وههنا يقول القائل: بماذا اتبعوا أولئك الشياطين الذين كذبوا على سليمان في رميه بالكفر وزعمهم أن السحر استخرج من كتبه التي كانت تحت كرسيه؟ فأجاب على طريق الاستثناف البياني ﴿يعلمون الناس السحر﴾.

ونفى الكفر عن سليمان والصاقه بالشياطين الكاذبين ذكر بطريق الاعتراض، فعلم - أيضاً - أنهم اتبعوا الشياطين بهذه الفرية، وإنما كان القصد إلى وصف اليهود بتعلم السحر، لأنه من السيئات التي كانوا متلبسين بها، ويضرون بها الناس خداعاً وتمويهاً وتلبساً^(١).

وإنما أضاف الله - تعالى - إلى اليهود أنهم اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان خاصة مع أنه كان معروفاً قبل سليمان - عليه السلام - كما أخبر به القرآن عن سحرة فرعون، وإنما أضاف ذلك إليهم، لأن هذا كان هو الواقع منهم، ولأن سحر هؤلاء الشياطين الذين كانوا على عهد سليمان، كان مدوناً في صحف اليهود من قديم، وتوارثه خلفهم عن سلفهم إلى أن وصل إلى من عاصر النبي ﷺ منهم ولأن سليمان - عليه السلام - أعطاه الله تعالى ملكاً واسعاً، وسخر له الإنس والجن والريح، فعزت الشياطين ذلك كله إلى تعلمه السحر.

و﴿وما﴾ في قوله تعالى: ﴿وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت﴾ موصولة، وهي معطوفة على السحر في قوله تعالى: ﴿يعلمون الناس السحر﴾ أى يعلمون الناس السحر، ويعلمونهم الذي أنزل على الملكين.

(١) تفسير المنار ج ١ ص ٤٠١.

والذى أنزل عليها هو وصف السحر وماهيته وكيفية الاحتيال به . ليعرفاه الناس فيجتنبوه، على حد قول الشاعر:

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه .

فالشياطين عرفوه فعملوا به، وعلموه للناس ليستعملوه في الشرور والمآثم بينما المؤمنون عرفوه واستفادوا من الاطلاع عليه فتجنبوه^(١).

هذا، واختصت بابل^(٢) بالإنزال، لأنها كانت أكثر البلاد عملا بالسحر، وكان سحرتها قد اتخذوا السحر وسيلة لتسخير العامة لهم في أبدانهم وعقولهم وأموالهم، ثم جروهم إلى عبادة الأصنام والكواكب فحدث فساد عظيم، وعمت الأباطيل فألهم الله - تعالى - هاروت وماروت أن يكشفوا للناس حقيقة السحر ودقائقه، حتى يعلموا أن السحرة الذين صرفوهم عن عبادة الله إلى عبادة الكواكب وغيرها قد خدعوهم وأضلوهم، وبذلك يعودون إلى الصراط المستقيم.

واللام في ﴿الملكين﴾ مفتوحة في القراءات العشر المتواترة، وقرئ شاذًا ﴿الملكين﴾ بكسر اللام.

قال بعض المفسرين: المراد بالملكين - بفتح اللام - رجلان صالحان اطلعا على أسرار السحر التي كانت تفعلها السحرة، فعلموها للناس ليحذروهم من الانقياد لتليسات الشياطين، وسميا ملكين مع أنها من البشر لصلاحهما وتقواهما، ويؤيد هذا الرأي قراءة الملكين - بكسر اللام - وإن كانت شاذة:

وقال جمهور المفسرين: إنها ملكان على الحقيقة أنزلها الله - تعالى - ليعلمنا الناس السحر ابتلاء لهم، ليفضحا مزاعم السحرة الذين كانوا يدعون النبوة كذبا، ويسخرون العامة لهم ويخرجونهم إلى عبادة غير الله، (وهاروت وماروت) اسمان للملكين الذين أنزل عليهما السحر، وهما بدل أو عطف بيان للملكين.

(١) ويجوز أن تكون (ما) معطوفة على قوله تعالى: ﴿ما تتلو الشياطين﴾ والمعنى على هذا الرأي. واتبع اليهود بعد أن نزلوا كتاب الله السحر الذي تلت الشياطين على عهد سليمان واتبعوا كذلك السحر الذي أنزل على الملكين بيابل هاروت وماروت وعلى هذا الرأي يكون قوله تعالى: ﴿ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر جملة معترضة بين المتعاطفين قصد بها تبرئة سليمان من السحر وإضافته إلى الشياطين، وبيان أنهم هم الذين تعلموه وعلموه الناس بقصد إضلالهم. هذا وفي إعراب (ما) في قوله تعالى: ﴿وما أنزل على الملكين﴾ آراء أخرى إكتفينا عنها بما ذكرناه لوفاته بالغرض.

(٢) بابل: مدينة بالعراق ينسب اليها السحر والخمر.

وقوله تعالى : ﴿وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتننة فلا تكفروا﴾ بيان لما كان ينصح به الملكان من يريد تعلم السحر منها. والجملة حالية من هاروت وماروت.

والفتنة، المراد بها هنا الابتلاء والاختبار، تقول : فتننت الذهب في النار، أى : اختبرته لتعرف جودته وردائه.

والمعنى : أن الملكين لا يعلمان أحدًا من الناس السحر إلا وينصحانه بقولها إن ما نعلمك إياه من فنون السحر الغرض منه الابتلاء والاختبار لتمييز المطيع من العاصي. فمن عمل به ضل وفوى، ومن تركه فهو على هدى ونور من الله، وإظهار الفرق بين المعجزة والسحر. فحذار أن تستعمل ما تعلمته فيما نهيت عنه فتكون من الكافرين. كما كفر السحرة بنسبتهن التأثيرات إلى الكواكب وغيرها من المخلوقات.

فالمقصود من تعليم الملكين للناس السحر، فضح أمر السحرة الذين كثروا في تلك الأيام، وادعوا ما لم يأذن به الله، وإظهار الفرق بين المعجزة والسحر حتى يعلم الناس أن هؤلاء السحرة الذين قد يزعمون بمرور الأيام أنهم أنبياء ليسوا كذلك، وإنما هم أفاكون، وأخبروا على أنفسهم بطريق القصر بأنهم فتننة للمبالغة في الاقرار بأنها لا يملكان نفعًا ولا ضررًا لأحد، وإنما هما فتننة محضة، وابتلاء من الله لعباده لتمييز المطيع من العاصي.

ثم بين - سبحانه - لونا من السحر البغيض الذى استعمله أولئك السحرة فى الأذى فقال تعالى : ﴿فيتعلمون منها ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾ أى فيتعلم بعض الناس من الملكين ما يحصل به الفرق بين المرء وزوجه.

فالجملة الكريمة تفريع عما دل عليه قوله تعالى قبل ذلك : ﴿وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتننة﴾ لأنه يقتضى أن التعليم حاصل، وأن بعض المتعلمين قد استعملوه فى التفريق بين الزوجين.

وخصص سبحانه هذا اللون من السحر بالنص عليه للتنبيه على شدة فساده. وعلى شناعة ذنب من يقوم به. لأنه تسبب عنه التفريق بين الزوجين اللذين جمعت بينهما أواصر المودة والرحمة.

والضمير فى قوله تعالى : ﴿فيتعلمون﴾ راجع لأحد، وصح عود ضمير الجمع عليه مع أنه مفرد، لوقوعه فى سياق النفى، والنكرة إذا وردت بعد نفى كانت فى معنى أفراد كثيرة، فصح أن يعود ضمير الجمع إليه كذلك.

ثم نفى - سبحانه - أن يكون السحر مؤثرًا بذاته فقال تعالى : ﴿وما هم بضارين به من

أحد إلا بإذن الله ﴿﴾ أى : أن أولئك السحرة لن يضرُوا أو ينفَعُوا أحدًا بسحرهم إلا بإذن الله وقدرته، فالسحر سبب عادي لما ينشأ عنه من الأضرار ويجوز أن يتخلف عنه مسببه إذا أذن الله بذلك .

والجملة الكريمة معترضة لدفع توهم أن يكون السحر مضرًا بذاته، بحيث لا يتخلف عنه الضرر متى تعاطاه الساحر .

والمراد ﴿﴾ بإذن الله ﴿﴾ هنا . تخليته - سبحانه - بين المسحور وضرر السحر، أى : إن شاء حصل الضرر بسبب السحر، وإن شاء منعه فلا يصيب المسحور منه شيء من الأذى .
وعبر - سبحانه - عن هذا المعنى بطريق القصر، مبالغة في نفى أى تأثير للسحر بذاته، وإغراء للناس بتكذيب ما يزعمه السحرة من أن لهم قوى غيبية سوى الأسباب التي ربط الله بها المسبيات، وإرشادًا لهم إلى حسن الاعتقاد، وسلامة اليقين .

ثم بين - سبحانه - أن أولئك المتعلمين السحر للأذى وللتفرقة بين المتحايين يتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم، فقال تعالى : ﴿﴾ ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ﴿﴾ أى : أن أولئك الذين تعلموا السحر ليضروا به غيرهم، ولم يتعلموه ليفرقوا به بين الحق والباطل، أوليدفعوا به الشر عن أنفسهم، قد سلكوا بهذا التعليم الطريق الذي يضرهم ولا ينفعهم، وأصبحوا بذلك عاصين لما نصحهم به الملكان عند تعليم السحر .

وفي هذه الجملة الكريمة زيادة تنبيه على تفاهة عقول المشتغلين بالسحر للأذى ومبالغة في تجهيل المصدقين لهم، لأن الساحر - مهما بلغت براعته - فلن يستطيع أن يمنع شيئاً أرادته الله، ولا أن يأتي بشيء منعه الله مادام الأمر كذلك فالمشتغل به، والمصدق له كلاهما وقع في ضلال ميين .

وقد أفادت الجملة الكريمة يجمعها بين إثبات الضر ونفى النفع مفاد الحصر فكأنه - سبحانه - يقول : ويتعلمون ما ليس إلا ضرراً بحتاً .

ثم بين - سبحانه - مآل أولئك اليهود التاركين للحق، والمتبعين للباطل فقال تعالى : ﴿﴾ ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ﴿﴾ أى : ولقد علم أولئك اليهود الذين نبذوا تعاليم كتابهم واتبعوا السحر، أن من استبدل السحر بكتاب الله ليس له من حظ في الجنة، لأنه قد اختار الضلال وترك الهدى، وعلمهم مرجعه إلى أن التوراة قد حرمت عليهم تعلم السحر أو تعليمه للأذى والضرر، وشدت العقوبة على مرتكبه، وعلى متبع الجن والشياطين والكهان . فالضمير في ﴿﴾ علموا ﴿﴾ يعود إلى أولئك اليهود الذي تركوا كتاب الله واستبدلوا به السحر .

والاشترء هو اكتساب شيء ببدل غيره، والمراد أنهم اكتسبوا السحر الذى تتلوه الشياطين بعد أن بذلوا فى سبيل ذلك إيمانهم ونصيبيهم من الجنة، وغدوا مفلسين من حظوظ الآخرة، لإقبالهم على التمويه والكذب، واستبدالهم الذى هو أدنى بالذى هو خير.

وأكد - سبحانه - علمهم بضرر السحر بقوله ﴿ولقد علموا﴾ للإشارة إلى أن اختيارهم للسحر لم ينشأ عن جهلهم بضرره، وإنما هم الذين اختاروه ومالوا إليه متعمدين وعالمين بعاقبته السيئة.

ثم قال تعالى: ﴿وليس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون﴾.

شروا: بمعنى باعوا، وبيع الأنفس هنا معناه بيع نصيبها من الجنة. ونعيمها.

والمعنى: وليس شيئاً باع به أولئك السحرة حظوظ أنفسهم تعلم ما يضر من السحر والعمل به، ولو كانوا ممن ينتفعون بعلمهم لما فعلوا ذلك.

وأثبت لهم العلم فى قوله تعالى: ﴿ولقد علموا لمن اشتراه﴾ ثم نفاه عنهم فى قوله تعالى: ﴿لو كانوا يعلمون﴾ جرياً على الأسلوب المعروف فى فنون البلاغة من أن العالم بالشيء إذا لم يعمل بموجب علمه نزل منزلة الجاهل ونفى عنه العلم كما ينفى عن الجاهلين.

وإلى هذا المعنى الذى قررناه أشار صاحب الكشاف بقوله.

فإن قلت كيف أثبت لهم العلم أولاً فى قوله: ﴿ولقد علموا لمن اشتراه﴾ على سبيل التوكيد القسمى، ثم نفاه عنهم فى قوله: ﴿لو كانوا يعلمون﴾؟

قلت: معناه لو كانوا يعملون بعلمهم. جعلهم حين لم يعملوا به كأنهم منسخلون عنه^(١).

ثم بين - سبحانه - المنافع التى تعود عليهم لو اتبعوا الحق، بعد أن بين الأضرار التى ترتبت على اتباعهم للباطل فقال تعالى: ﴿ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون﴾ أى: لو أن أولئك اليهود النابذين لكتاب الله المتبعين للأوهام والأباطيل، آمنوا بمحمد ﷺ أو بالتوراة إيماناً حقاً، واتقوا الله، فاجتنبوا ما يؤثمهم ومنه السحر والتمويه، لكانت لهم مثوبة^(٢) من عند الله، هى خير لهم من السحر وغيره، ولو كانوا من أولى العلم النافع لفهموا ذلك، واستبدلوا بالسحر الإيمان والتقوى، ولكنهم قوم لا يعقلون.

فقوله تعالى: ﴿لمثوبة من عند الله خير﴾ جواب للو الشرطية، وأصل التركيب، لأثبوا مثوبة

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٢٨.

(٢) المثوبة: اسم مصدر أثنى أعطى الثواب، والثواب الجزاء الذى يعطى للغير.

من عند الله خيراً مما شروا به أنفسهم، فحذف الفعل، وغير السبك إلى ما عليه النظم الكريم، للدلالة على ثبوت المثوبة لهم والجزم بخيريتها.

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف^(١) بقوله: (فإن قلت: كيف أو ثرت الجملة الاسمية على الفعلية في جواب لو؟ قلت: لما في ذلك من الدلالة على ثبات المثوبة واستقرارها، كما عدل عن النصب إلى الرفع في سلام عليكم لذلك.

وقال الإمام الألوسي: (المثوبة: اسم مصدر أتاب إذا أعطى الثواب، والثواب الجزاء الذي يعطى للغير. ولم يقل - سبحانه - لمثوبة الله مع أنه أخصر، ليشعر التنكير بالتقليل فيفيد أن شيئاً قليلاً من ثواب الله - تعالى - في الآخرة الدائمة، خير من متاع كثير في الدنيا الفانية، فكيف وثواب الله - تعالى - كثير دائم، وفيه من الترغيب والترهيب المناسبين للمقام ما لا يخفى^(٢).

وقوله تعالى: ﴿لو كانوا يعلمون﴾ شرط آخر محذوف الجواب للدلالة ما تقدم عليه، وحذف مفعول ﴿يعلمون﴾ للدلالة ﴿لمثوبة من عند الله خير﴾ عليه. أى: لو كانوا يعلمون مثوبة الله لما اشتروا السحر بالإيمان.

وبذلك تكون الآيات الكريمة التي سقناها في هذا المبحث قد دمغت بنى إسرائيل بجهود الحق، ونبذهم لتعاليم كتابهم وإيثارهم عليها الأكاذيب والأباطيل، وسيرهم في طريق الشر عن تعمد وإصرار، وعدم عملهم بما يعلمون لانحراف طباعهم، وحماسة تفكيرهم وسوء تدبيرهم. واستحوذ الشيطان عليهم.. ﴿فبأءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب أليم﴾.

هذا، ويحسن بنا قبل أن نختم هذا البحث، أن نذكر كلمة موجزة عن السحر فنقول: السحر: في أصل اللغة معناه: الصرف، ومنه قوله تعالى ﴿فأنى تسحرون﴾ أى: فكيف تصرفون عن الحق إلى الباطل.

وقد ذكر السحر في القرآن والسنة، واتفق علماء المسلمين على أن هناك شيئاً يسمى سحراً، إلا أنهم اختلفوا في تصويره.

فجمهور أهل السنة ذهب إلى أن للسحر آثاراً حقيقية، وأن الساحر قد يأتي بأشياء غير عادية، إلا أن الفاعل الحقيقي في كل ذلك هو الله - تعالى - واستدلوا على ذلك بأدلة منها.

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٢٨.

(٢) تفسير الألوسي ج ١ ص ٣٨٤.

أولاً : أن الله - تعالى - قد أمر نبيه ﷺ، أن يستعيذ به ﴿من شر النفاثات في العقد﴾ وهم السحرة - على أرجح الأقوال.

قال الإمام ابن كثير: قوله تعالى ﴿ومن شر النفاثات في العقد﴾ قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك، يعنى السواحر قال مجاهد «إذا رقين ونفثن في العقد»^(١).
فالآية الكريمة تدل على أن للسحر آثارا حقيقية، وإلا لما أمر الله - تعالى - نبيه ﷺ أن يستعيذ من شرور السحرة.

ثانياً : قال الإمام البخارى : - في باب هل يستخرج السحر - : حدثني عبد الله بن محمد، قال : سمعت سفيان بن عيينة يقول : أول من حدثنا به ابن جريج يقول : حدثني آل عروة عن عروة، فسألت هشاماً عنه فحدثنا عن أبيه عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن، قال سفيان : وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذلك. فقال : «يا عائشة أعلمت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان ففعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للآخر، ما بال الرجل : مطبوب، قال ومن طبه؟ قال : لبيد بن الأعصم - رجل من بني زريق حليف اليهود كان منافقاً - قال . وفيه : قال : في مشط ومشاطه، قال : وأين؟ قال في جف طلعة ذكر تحت راعوفة في بئر ذروان. قالت : فأتى البئر حتى استخرجه، فقال : «هذه البئر التي أريتها وكان نخلها رءوس الشياطين» قال فاستخرج - أى السحر - قالت : فقلت أفلا - أى - تنشرت؟ فقال : «إن الله قد شفاني وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً»^(٢).

فهذا الحديث الصحيح يفيد أن السحر قد أثر في جسم الرسول ﷺ بنوع من المرض أو الثقل، دون أن يكون لذلك أدنى تأثير في عقله.

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٥٧٣.

(٢) فتح الباري : لابن حجر ج ١٢ ص ٢٤٥ طبعة الحلبي.

وهذا تفسير موجز لمفردات الحديث: «هشام» هو ابن عروة بن الزبير ومعنى: «أفتاني فيما استفتيته فيه»: أجبني فيما دعوته من أن يطلعني على حقيقة ما «مطبوب» أى مسحور يقال: طب الرجل - بالضم - إذا سحر. «المشط»: الآلة التي يسرح بها شعر الرأس واللحية «والمشاطة»: ما يخرج من الشعر إذا مشط «وجف طلع نخلة ذكر» هو الغشاء الذي يكون على الطلع ويطلق على الذكر والأنثى فلهذا قيده بالذكر. «والراعوفة» حجر يوضع على رأس البئر يقوم عليه المستقى وقد يكون في أسفلها «وبئر ذروان»: اسم لموضع البئر كأن ماءها نقاعة الحناء: يعنى أحمر اللون. «أفلا أى تنشرت»: النشرة - بالضم - ضرب من العلاج يعالج به من يظن أن به سحرا أو مسا من الجن قيل لها ذلك: لأنه يكشف بها عما خالطه من الداء.

قال الإمام ابن القيم : هذا هو الحديث الذى رواه البخارى، وهو ثابت عند أهل العلم بالحديث لا يختلفون فى صحته، وقد اتفق أصحاب الصحيحين على تصحيحه، ولم يتكلم فيه أهل الحديث بكلمة واحدة، والقصة مشهورة عند أهل التفسير والسنة والحديث والتاريخ والفقهاء، وهؤلاء أعلم بأحوال الرسول ﷺ وأيامه^(١).

وقال الإمام القرطبي «الأدلة متوفرة على أن للسحر حقيقة، فهو مقطوع به بإخبار الله - تعالى - ورسوله على وجوده ووقوعه، وعلى هذا أهل الحل والعقد الذين ينعتقد بهم الإجماع ولا عبرة مع اتفاقهم بحثالة المعتزلة ومخالفتهم أهل الحق، ولقد شاع السحر وذاع فى سابق الزمان، وتكلم الناس فيه، ولم يبد من الصحابة ولا من التابعين إنكار لأصله^(٢).

وقال الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي. قال المازرى : «مذهب أهل السنة وجهور علماء الأمة على إثبات السحر وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء الثابتة. خلافا لمن أنكر ذلك ونفى حقيقته وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة لا حقائق لها. وقد ذكره الله - تعالى - فى كتابه وذكر أنه مما يتعلم. وذكر فيه إشارة إلى أنه مما يكفر به. وأنه يفرق بين المرء وزوجه. وهذا كله لا يمكن فيما لا حقيقة له، وهذا الحديث أيضاً مصرح بإثباته. وأنه أشياء دفنت وأخرجت ولا يستنكر فى العقل أن الله - سبحانه - يخرق العادة عند النطق بكلام ملفق أو تركيب أجسام، أو المزج بين قوى على ترتيب لا يعرفه إلا الساحر. قال : وقد أنكر بعض المتدعة هذا الحديث لسبب آخر. فزعم أنه يحط من منصب النبوة ويشكك فيها، وأن تجوززه يمنع الثقة بالشرع وهذا الذى ادعاه بعض المتدعة باطل لأن الدلائل القطعية قد قامت على صدقه وصحته وعصمته فيما يتعلق بالتبليغ والمعجزة شاهدة بذلك. قال القاضى عياض : وقد جاءت روايات مبينة أن السحر إنما تسلط على جسده وظواهر جوارحه، لا على قوله وقلبه واعتقاده، ويكون معنى قوله فى الحديث : «حتى يظن أنه يأتى أهله ولا يأنهين» أن يظهر من نشاطه ومتقدم عادته القدرة عليهن، فإذا دنا منهن أخذته أخذة السحر فلم يأتهن ولم يتمكن من ذلك كما يعترى المسحور^(٣).

أما المعتزلة فقد ذهبوا إلى أن السحر لا حقيقة له، وإنما هو تخييل وتمويه كما قال تعالى فى سحرة فرعون ﴿فإذا جبالهم وعصيمهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾ فأخبر - سبحانه -

(١) التفسير القيم لابن القيم - تفسير سورة الفلق.

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٦٤.

(٣) صحيح مسلم «كتاب السلام» باب السحر ج ٤ ص ١٧١٩ شرح وتحقيق الأستاذ محمد فؤاد

أن ماظنوه سعيًا منها لم يكن سعيًا على الحقيقة إنما كان تخيلاً وتمويهًا. وقال تعالى في سحرة فرعون أيضًا ﴿فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم﴾ أى فلما ألقوا عصيهم موهوا على الناس حتى ظنوا أن حبالهم وعصيهم تسعى، وأرهبوهم بما فعلوه، وجاءوا بسحر عظيم في فنه.

والذى نراه أن السحر على أضرب منها:

أولاً: ضرب يترتب على مزاولته قلب الحقائق كقلب الإنسان حيواناً وعكسه، وهذا قد منعه المعتزلة بحجة أن الساحر لو أمكنه ذلك لا لتلبس فعله هذا بمعجزات الأنبياء. وأهل السنة أجازوا وقوعه وإن كان لم يقع فعلاً. ويفرقون بينه وبين المعجزة إن وقع، بأن المعجزة خارق يظهر على يد من يدعى النبوة على سبيل التحدى والمعارضة، والسحر ليس فيه دعوى نبوة ولا معارضة.

هذا، مع ملاحظة أن السحر يمكن تعلمه وتعليمه، ولا يظهر إلا على يد شرير بخلاف المعجزة.

قال فضيلة المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين: وهذا النوع لم يقع لنا دليل في الشريعة على وقوعه، وربما كانت الحاجة إلى الفرق بين المعجزة والسحر فرقاً واضحاً تقتضى عدم وقوعه، فالساحر لا يبلغ أن يقلب العصا ثعباناً، ولا أن يفلق البحر فتمر بين فرقيه الجيوش ولا أن يجعل الماء ينبع بين الأصابع فتروى منه العطاش، أعنى أنه لا يجرى على يده من خوارق العادات، مثل ما يجرى على أيدي الأنبياء للإعجاز^(١).

ثانياً: أن يزاول بعض أرباب النفوس الخبيثة أفعالاً يترتب عليها الضرر بدون عماسة ولا ملابسة لمن وقع عليه الضرر، وهذا الضرب قد جوز وقوعه أهل السنة ومنعه المعتزلة، ومن أمثله ما يفعله السحرة للتفريق بين المرء وزوجه والظاهر في هذا الضرب قول أهل السنة لأن القرآن الكريم قد حكى عن السحرة أنهم يتعلمون من السحر ما يفرقون به بين المرء وزوجه، وقد صح الحديث أن لبيد بن الأعصم اليهودى سحر رسول الله ﷺ وأنه حينما استخرج السحر خف جسمه ﷺ كأنما نشط من عقال.

ثالثاً: مزاوله أسباب يترتب عليها آثار ظاهريه لا حقيقية وهذا الضرب واقع باتفاق بين أهل السنة والمعتزلة، وقد حكاه القرآن الكريم عن سحرة فرعون في قوله تعالى: ﴿فلما ألقوا سحروا

(١) مجلة لواء الإسلام السنة الثالثة العدد الثالث ص ٨.

أعين الناس واسترهبوهم ﴿ وفي قوله تعالى : ﴿ فإذا جبالهم وعصبيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ .

هذا، وقد حذر الإسلام من تعاطى السحر لللاذى، وجاءت تعاليمه بدمه وتحريمه، وتوعدت مرتكبه بالعقوبات الأليمة، ففي الحديث الشريف « حد الساحر ضربه بالسيف » .

وقد أفتى بعض الفقهاء بقتل الساحر لأنه زنديق، وبعضهم أفتى بأن الساحر إذا كان قد أحدث في المسحور جنائية توجب القصاص اقنص منه، وإن كان قد أحدث به ما لا قصاص فيه، حكم عليه بدية مناسبة .

وبعد : فهذه كلمة ذكرناها عن السحر، لم نقصد بها الخوض في تفصيلاته . وإنما قصدنا بها إعطاء القارئ فكرة مختصرة عنه بمناسبة حديثنا عن ردائل اليهود التي منها نبذهم لكتاب الله واتباعهم للاوهام والأباطيل والأكاذيب .

ثم وجه القرآن نداء إلى المؤمنين نهاهم فيه عن مخاطبة النبي ﷺ بألفاظ معينة حتى لا يتخذها اليهود ذريعة للإساءة إلى النبي ﷺ فقال تعالى :

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا
أَنْظُرْنَا وَأَسْمِعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾

﴿راعنا﴾ من المراعاة، وهى المبالغة فى الرعى بمعنى حفظ الغير، وإمهاله، وتدبير أموره، وتدارك مصالحه، وكان المؤمنون يقولون لرسول الله ﷺ إذا حدثهم بحدِيث راعنا يا رسول الله، أى : راقبنا وانظرننا حتى نفهم كلامك ونحفظه، فتلقف اليهود هذه الكلمة لموافقها كلمة سيئة عندهم، وأخذوا يلوون بها ألسنتهم، ويقولون «راعنا» يا أبا القاسم، يظهر أنهم يريدون طلب المراعاة والإنتظار، وهم يريدون فى الحقيقة الإساءة إليه - ﷺ إذ أن هذه الكلمة عبرية كانوا يتسابون بها يقصدون جعله راعيا من رعاة الغنم أو من الرعونة التى هى الحمق والخفة، فهى الله - تعالى - المسلمين عن استعمال هذه الكلمة حتى لا يتخذها اليهود وسيلة إلى إيذاء النبي ﷺ والتنقيص من شأنه .

قال قتادة : « كانت اليهود تقول للنبي ﷺ راعنا سمعك، يستهزئون بذلك وكانت - هذه الكلمة - فى اليهود قبيحة » .

وقال الإمام ابن كثير : « نهى الله - تعالى - عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين فى مقامهم وفعالهم،

وذلك أن اليهود كانوا يعلنون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص فإذا أرادوا أن يقولوا :
اسمع لنا، يقولوا راعنا يورون بالرغونة كما قال تعالى :

﴿من الذين هادوا يجرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا، واسمع غير مسمع
وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين، ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا
لهم وأقوم، ولكن لعنهم الله بكفرهم، فلا يؤمنون إلا قليلا﴾. وكذلك جاءت الأحاديث
بالإخبار عنهم بأنهم كانوا إذا سلموا، إنما يقولون السام عليكم والسام هو الموت ولهذا أمرنا أن
نرد عليهم بقولنا وعليكم، وإنما يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا، والغرض أن الله
تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولاً وفعلاً^(١).

وقال الإمام ابن تيمية : « كان المسلمون يقولون راعنا يا رسول الله وأرعنا سمعك، يعنون
المراعاة، وكانت هذه اللفظة سباً قبيحاً بلغة اليهود فلما سمعتها اليهود اغتمموها وقالوا فيما
بينهم : كنا نسب محمداً سراً فأعلنوا له الآن بالشتم، وكانوا يأتونه ويقولون : راعنا يا محمد
ويضحكون فيما بينهم، فسمعها «سعد بن معاذ» فظن لهم، - وكان يعرف لغتهم - فقال
للإهود : عليكم لعنة الله، والذي نفسى بيده يا معشر اليهود لئن سمعتها من رجل منكم يقولها
لرسول الله ﷺ لأضربن عنقه، فقالوا : أولستم تقولونها، فأنزل الله - تعالى - ﴿يا أيها الذين
آمنوا لا تقولوا راعنا﴾ لكي لا يتخذ اليهود ذلك سبيلاً إلى شتم الرسول ﷺ^(٢).

ثم أرشد الله - تعالى - المؤمنين إلى ما يقولونه بدل هذه الكلمة فقال تعالى : ﴿وقولوا
انظرنا﴾ أى : لا تقولوا تلك الكلمة - وهى «راعنا» أيها المؤمنون لئلا يتخذها اليهود ذريعة
لسب نبيكم ﷺ وقولوا مكانها «انظرنا» أى : انتظرنا وتأن معنا حتى نفهم عنك، من نظر بمعنى
انتظر تقول نظرت الرجل انظره إذا انتظرته وارتقبته، وبهذا المعنى ورد قوله تعالى ﴿انظرونا
نقتبس من نوركم﴾ أى : انتظرونا نقتبس من نوركم.

فالآية الكريمة تنبيه وإرشاد إلى الأدب الجميل، وهو أن يتجنب الإنسان في مخاطباته الألفاظ
التي توهم جفاء أو تنقيصاً في مقام يقتضى إظهار مودة أو تعظيم.

تم بين - سبحانه - مصير اليهود المؤلم جزاءً لتعديهم على رسول الله ﷺ فقال : ﴿وللكافرين
عذاب أليم﴾، أى : هؤلاء اليهود الذين اتخذوا كلمة «راعنا» وسيلة إلى سب الرسول ﷺ
عذاب أليم جزاء كفرهم وتطاولهم وسفاهتهم.

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٤٨.

(٢) كتاب «الصارم السلول على شاتم الرسول»، ص ١٤١ للإمام ابن تيمية.

هذا، وقد وردت أحاديث صحيحة صرحت بأن اليهود كانوا يجيئون رسول الله ﷺ بكلام محرف لا يفتن له أكثر الناس يقصدون به الدعاء عليه بالموت، فكان الرسول ﷺ يرد عليهم بما يكتبهم ويخزيهم ومن هذه الأحاديث ما أخرجه البخارى عن أنس بن مالك قال:

١ - مر يهودى برسول الله ﷺ فقال السام عليك، فقال رسول الله ﷺ (وعليك)، ثم قال رسول الله ﷺ لأصحابه - أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال يقول (السام عليك) قالوا يارسول الله ألا نقتله. قال: (لا، إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم)^(١).

٢ - وأخرج الشيخان عن عائشة - رضى الله عنها - قالت:

دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا:

السام عليك قالت عائشة: ففهمتها، فقلت: عليكم السام واللعنة، قالت: فقال رسول الله ﷺ «مهلا يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله» فقلت يا رسول الله ألم تسمع ما قالوا؟ قال «لقد قلت وعليكم»^(٢).

٣ - وروى مسلم عن جابر بن عبد الله قال: «سلم ناس من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا السام عليك يا أبا القاسم فقال: «وعليكم» فقالت عائشة وغضبت: ألم تسمع ما قالوا: قال بلى قد سمعت فرددت عليهم، وإنما نجاب ولا يجابون علينا»^(٣).

وإذن فالآية الكريمة وهى قوله تعالى: ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ إلخ، وهذه الأحاديث الشريفة تثبت أن اليهود كانوا يستعملون من بين مسالكهم الخبيثة لكيد الدعوة الإسلامية القول الملتوى القبيح، والخطاب المحرف السىء، ولكن الله - تعالى - أحبط خبطهم، ونهى المؤمنين عن استعمال الألفاظ التى كان يتخذها اليهود ذريعة لبلوغ مآربهم، وكان الرسول ﷺ يرد عليهم بما يغیظهم ويخزيهم، وبذلك ذهب مكابد اليهود أدراج الرياح وأيد الله - تعالى - رسوله والمؤمنين بقوته ونصره.

ثم نبه القرآن المؤمنين إلى ما يضمرة لهم المشركون وأهل الكتاب وعلى رأسهم اليهود - من شرور وأحقاد فقال - تعالى:

(١) صحيح البخارى، باب «إذا عرض الذمى وغيره بسبب النبى». من كتاب «أستابة المتدين» ج ٩ ص ٢٠.

(٢) أخرجه البخارى - واللفظ له - فى باب «كيف يرد على أهل الذمة السلام، ج ٨ ص ٧٠ وأخرجه مسلم فى كتاب السلام، ج ٤ ص ١٨٠٦ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى.

(٣) صحيح مسلم: باب «النهى عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم من «كتاب السلام»

ج ٤ ص ١٢٠٧.

مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ
 أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ
 بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

﴿ما يود﴾ أى : ما يحب، إذ الود محبة الشيء مع تمنيه، يقال : ود فلان كذا يوده ودًا ومودة بمعنى أحبه وتمناه.

قال صاحب الكشاف : «ومن الأولى في الآية للبيان، لأن الذين كفروا جنس تحت نوعان، أهل الكتاب والمشركون، والثانية مزيدة لاستغراق الخير والثالثة لابتداء الغاية» (١).

وقوله - تعالى - : ﴿ما يود﴾ .. إلخ الآية بيان لما يبغته الكافرون - خصوصًا اليهود - للمسلمين من حقد وكرهية وتحذير لهم من الاطمئنان إليهم، والثقة بهم.

وفي التعبير بقوله تعالى : ﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ دون ما يود أهل الكتاب تنبيه إلى أنهم قد كفروا بكتبهم، لأنهم لو كانوا مؤمنين بها لصدقوا محمدًا ﷺ الذي أمرتهم بكتبهم بتصديقه واتباعه.

وعطف عليهم المشركين ليدل على أن عبدة الأصنام - أيضًا - يضاهون كفره أهل الكتاب، في كراهة نزول أى خير على المؤمنين، وأن الجميع يحسدونهم على ما آتاهم الله من فضله عن طريق نبيه ﷺ من دين قويم، وقرآن كريم، وهداية عظيمة، وأخوة شاملة، وأمن بعد خوف، وقوة بعد ضعف.

والخير : النعمة والفضل، والمراد به في الآية الكريمة النبوة وما تبعها من الوحي الصادق، والقرآن العظيم المشتمل على الحكمة الرائعة والحجة البالغة والبلاغة الباهرة والتوجيه النافع. وأهل الكتاب قد كرهوا ذلك للمؤمنين لعنادهم وحسدهم، وكرهتهم أن تكون النبوة في رجل عربي ليس منهم.

والمشركون كرهوا ذلك - أيضًا - لأن في انتشار الإسلام، وفي تنزيل الوحي على النبي ﷺ ما يوجب أمالهم في إبطال الدعوة الإسلامية، وإضعاف شوكتها والنصر على أتباعها.

وقوله تعالى : ﴿والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾.

رد عليهم بما يكشف عن جهلهم وجهل جميع الحاسدين، لأن الحاسد لغباوته يسخط على قدر الله، ويعترض عليه لإنعامه - سبحانه - على المحسود والله - تعالى - هو صاحب التصرف المطلق في الإعطاء والمنع فكان من الواجب على هؤلاء الذين لا يودون أن ينزل أى خير على المؤمنين أن يريحوا أنفسهم من هذا العناء، وأن يتحولوا عن ذلك الغباء، لأن الله - تعالى - يهب خيره لمن يشاء.

والاختصاص بالشيء : الإنفراد به، تقول : اختص فلان بكذا أى انفرد به، ويستعمل متعدياً إلى المفعول به، فتقول : اخصصت فلانا بكذا أى أفردته به وجعلته مقصوراً عليه. وعلى هذا الوجه ورد الاختصاص في الآية الكريمة.

وقيد - سبحانه - اختصاص رحمته بمن يشاء ليعلم الناس جميعاً، أن أفراد بعض عباده بالرحمة منوط بمشيئته وحدها، وليس لأحد كائناً من كان أى تأثير في ذلك.

ومفعول المشيئة محذوف كما هو الشأن فيه إذا تقدم عليه كلام أو تأخر عنه. أى : يختص برحمته من يشاء اختصاصه بها، وهى تتناول النبوة. والقرآن، والنصر، وكل ذلك مما لا يود الكافرون إنزاله على المؤمنين.

وقوله تعالى : ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ تذييل لما سبق أى كل خير يناله العباد في دينهم أو دنياهم إنما هو من عنده - تعالى - يتفضل به عليهم، وفي ذلك إشعار للحاسدين بأن يقلعوا عن حسدهم، وتعريض باليهود وغيرهم ممن حسدوا محمداً ﷺ على أن آتاه الله النبوة، فكانت - سبحانه - يقول لهم : إني أصطفى للنبوة من أشياء من عبادى وهى لا تدرك بالأمان، ولكنى أهبتها لمن هو أهل لها.

وبذلك تكون الآية الكريمة قد حذرت المؤمنين مما يبيتته لهم الكافرون من حقد وبغضاء وبشرتهم بأن ما يبيتونه لن يضرهم ماداموا معتصمين بكتاب ربهم، وسنة نبيهم.

ثم انتقل القرآن إلى الحديث عن موضوع النسخ الذى أثار اليهود حوله الشبهات، وجادلوا فيه النبي ﷺ.

لقد استنكر اليهود أن يبدل الله آية بآية، أو حكماً بحكم، وقالوا : ألا ترون إلى محمد ﷺ يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمر بخلافه، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً، ما هذا من شأن الأنبياء وما هذا القرآن إلا من كلام محمد، يقوله من تلقاء نفسه، وهو كلام يناقض بعضه بعضاً.

ولم يترك القرآن الكريم تلك الشبهات التى أثارها اليهود حول شريعة الإسلام بدون

جواب، بل أنزل الله - تعالى - آيات كريمة لدحضها وإزالتها من الصدور، ليزداد المؤمنون إيماناً، وهذه الآيات هي قوله تعالى :

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِمَّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا
 أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ
 مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن
 وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ
 كَمَا سَأَلِ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ
 فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾

والنسخ في اللغة الإبطال والإزالة، يقال. نسخت الشمس الظل تنسخه، إذا أذهبت وأبطلته.

وفي عرف الشرع : بيان انتهاء مدة الحكم بخطاب لولا هذا الخطاب لاستمر الحكم على مشروعيته، بمقتضى النص الذى تقرر به أولاً.
 ونسها من أنسى الشيء جعله منسياً.

فمعنى نسخ الآية في قوله تعالى : ﴿ ما ننسخ من آية ﴾ رفع حكمها مع بقائها.
 ومعنى إنسائها في قوله - تعالى - : ﴿ ننسها ﴾ رفع الآية من نظم القرآن جملة.
 وسمى رفع الآية من نظم القرآن جملة إنساء، لأن من شأن مالا يبقى في النظم أن ينسأه الناس لقلّة جريانه على الألسنة بالتلاوة والاحتجاج به.

ويصح إبقاء الإنساء على حقيقته، وهو إذهاب الآية من القلوب وإزالتها من الحافظة، بعد أن يقضى الله بنسخها.

ولمّا قلنا بعد أن يقضى الله بنسخها، لأن إنساء الناس آية لم تنسخ إضاعة لشيء من القرآن، والله يقول ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له الحافظون ﴾ (١).

ومما يدل على نسخ الآية المنسأة، أى : انتهاء مدة التكليف بها قوله تعالى : ﴿نأت بخير منها أو مثلها﴾ أى نأت بخير من المنسية المنسوخة أو مثلها، فيكون قوله تعالى : ﴿أو ننسها﴾ معبراً عن حالة تعرض في بعض ما سيرفع من القرآن وهى أن ينساه الناس لذهابه من قلوبهم، بعد أن يقضى الله بنسخه - كما ذكرنا - .

ووجه ذكر هذه الحال بوجه خاص، أن ما ينسى لعدم حضوره في الذهن لا تعرف الآيات التى تقوم مقامه، فربما يقع في الوهم أنه ذهب من غير أن ينزل من الآيات ما يغنى عنه.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ننساها﴾ بالهمزة، من النساء وهو التأخير وعلى هذه القراءة يحمل النسخ في قوله تعالى : ﴿ما ننسخ من آية﴾ على النوعين السابقين وهما : نسخ الآية حكماً فقط، ونسخها حكماً وتلاوة.

ومعنى ﴿ننساها﴾ تؤخر إنزالها إلى وقت ثان فلا تنزلها، وتنزل ما يقوم مقامها في القيام بالصلحة .

والخيرية والمماثلة في قوله تعالى : ﴿نأت بخير منها أو مثلها﴾ ترجع إلى ثواب العمل بها . فقد يكون ثواب العمل بالناسخة أوفر من ثواب العمل بالمنسوخة قبل نسخها، وقد يكون مماثلاً له، وإن كانت كل واحدة من الآيتين الناسخة والمنسوخة بالنظر إلى الوقت المقدر للعمل بها، أقوم على المصلحة من الأخرى .

وبعد أن أثبت - سبحانه - أن النسخ جائز وواقع بقوله : ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾ ساق جملة كريمة في صورة الاستفهام التقريرى، مخاطباً بها الأمة الإسلامية في شخص نبيها ﷺ لتكون دليلاً على هذا الثبوت، وهذه الجملة هى قوله تعالى : ﴿ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير﴾ والمعنى أن الله - تعالى - متمكن من أن يفعل ما يشاء على الوجه الذى تقتضيه حكمته وإرادته، ومن كان هذا شأنه فله أن يأمر في وقت بأمر، ثم ينسخه أو يستبدل به آخر لمقتضيات الظروف والأحوال .

ثم أقام - سبحانه - الدليل على كمال قدرته وشمولها لكل شىء فقال :

﴿ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض، وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير﴾ .

والمعنى : أنه - سبحانه - مالك لجميع الكائنات العلوية والسفلية، وأنه هو المتصرف كما يشاء في ذواتها وأحوالها، وأنه يتصرف في أمورهم ويحريها على حسب ما يصلحهم، وهو أعلم بما يتعبد لهم به من ناسخ ومنسوخ وليس للناس من أحد يتولى أمورهم، ويعينهم على أعدائهم سواء، ومن كان الله وليه ونصيره علم يقينا أنه لا يفعل به إلا ما هو خير له في دنياه وأخراه .

وإذن فأنتم - أيها اليهود - ما قدرتم الله حق قدره، لزعمكم أن النسخ محال على الله لأن المالك لكل شيء، من حقه أن يحو ما يشاء ويثبت ما يريد على حسب ما تقتضيه حكمته ومشيئته.

فالآية واقعة موقع الدليل على ما تضمنته الجملة السابقة من إحاطة قدرته - سبحانه - بكل شيء.

ثم حذر القرآن الكريم المؤمنين من الاستماع إلى وساوس اليهود، تثبيتاً لقلوبهم، وتقوية للإيمانهم، فقال تعالى: ﴿أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾

والمعنى: لا يصح لكم أيها المؤمنون أن تفترحوا على رسولكم محمد ﷺ مقترحات تتناق مع الإيمان الحق كأن تسألوه أسئلة لاخير من ورائها لأنكم لو فعلتم ذلك لصرتم كبنى إسرائيل الذين طلبوا من نبيهم موسى - عليه السلام - بعد أن جاءهم بالبينات - مطالب تدل على تعنتهم وجهلهم فقالوا له: ﴿أرنا الله جهرة﴾^(١) وقالوا له: ﴿أجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾^(٢) ولو صرتم مثلهم لكنتم ممن يختار الكفر على الإيمان، وتخرجتم عن الصراط المستقيم الذي يدعوكم إليه نبيكم ﷺ.

والاستفهام في الآية الكريمة للإنكار، وفي أسلوبها مبالغة في التحذير من الوقوع فيما وقع فيه اليهود من تعنت مع رسولهم، إذ جعل محط الإنكار إرادتهم للسؤال، وفي النهي عن إرادة الشيء، نهى عن فعله بأبلغ عبارة.

ثم نبه الله تعالى عباده المؤمنين إلى ما يضرهم لهم اليهود من أحقاد وشور فقال - تعالى - :

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ لَو يُرَدُّوْنَ كُمْ
مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كِفَّارًا حَسَدًا
مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَصُوا
وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

(١) سورة البقرة الآية ٥٦.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٣٨.

ومعنى الآية الكريمة: أحب وتمنى عدد كثير من اليهود الذين هم أهل كتاب، أن ينقلوكم أيها المؤمنون من الإيمان إلى الكفر، حسداً لكم وبغضاً لدينكم، من بعد ما ظهر لهم أنكم على الحق باتباعكم محمداً ﷺ فلا تهتموا بهم، بل قابلوا أحقادهم وشروهم بترك عقابهم، والإعراض عن أذاهم، حتى يأذن الله لكم فيهم بما فيه خيركم ونصركم، فإنه - سبحانه - على كل شيء قدير».

وقوله تعالى: ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً﴾ بيان للون من ألوان الشرور التي يضمها أهل الكتاب وعلى رأسهم اليهود، وهو تمنئهم ارتداد المسلمين عن دينهم الحق، إلى الكفر الذي أنقذهم الله - تعالى - منه.

وإنما أسند - سبحانه - هذا التمنى الذميمة إلى الكثرة منهم، انصافاً للقلة المؤمنة التي لم ترتض أن ينتقل المسلمون إلى الكفر بعد أن هداهم الله إلى الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿من بعد إيمانكم﴾ مبالغة في ذمهم بسبب ماتمنوه وأحبوه إذ ودوا - وهم أهل كتاب - أن يحل الكفر محل الإيمان، وفيه إشعار بأن ماتمنوه بعيد الحصول؛ لأن الإيمان متى خالطت بشاشته القلوب، منع صاحبه من الانتقال إلى الكفر.

ثم بين - سبحانه - أن الذي حملهم على هذا التمنى الذميمة هو الحقد والحسد، فقال تعالى: ﴿حسداً من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق﴾ أى: أن هذا التمنى لم يكن له من سبب أو علة سوى الحسد الذي استولى على نفوسهم، واستحوذ على قلوبهم فجعلهم يحسدون المؤمنين على نعمة الإيمان ويتمنون التحول عنه إلى الكفر، فالجملة الكريمة علة لما تضمنته الجملة السابقة من محبتهم نقل المؤمنين إلى الكفر.

قال فضيلة المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين: «والحسد: قلق النفس من رؤية نعمة يصيبها إنسان، وينشأ عن هذا القلق تمنى زوال تلك النعمة عن الغير وتمنى زوال النعم مذموم بكل لسان، إلا نعمة أصابها فاجر أو جائر يستعين بها على الشر والفساد، فإن تمنى زوالها كراهية للجزور والفساد لا يدخل في قبيل الحسد المذموم فإن لم تتمن زوال النعمة عن شخص وإنما تمنيت لنفسك مثلها فهي الغبطة والمنافسة، وهي محمودة لأنها قد تنتهي بالشخص إلى اكتساب محامد لولا المنافسة لظل في غفلة عنها، والحسد قد يهجم على الإنسان ولا يكون في وسعه دفعه لشدة النفرة بينه وبين المحسود، وإنما يؤاخذ الإنسان على رضاه به، وإظهار ما يستدعيه من القدح في المحسود، والقصد إلى إزالة النعمة عنه»^(١).

(١) مجلة لواء الإسلام السنة الثالثة العدد ٥ ص ٦.

وقوله تعالى: ﴿من عند أنفسهم﴾ إعلام للمؤمنين، بأن هؤلاء اليهود لم يؤمروا بذلك في كتابهم، بل إن كتابهم لينهاهم عن هذا الخلق الذميمة ولكنهم لحبث نفوسهم وسوء طباعهم، رسخ الحسد في قلوبهم لدرجة يعسر معها صرفه عنهم، أو صرفهم عنه.

والجملة الكريمة ﴿حسدًا من عند أنفسهم﴾ تدل على أن أولئك اليهود يعتقدون صحة دين الإسلام، إذ الإنسان لا يحسد غيره على دين إلا إذا عرف في نفسه صحته، وأنه طريق الفوز والفلاح.

وقوله تعالى: ﴿من بعد ماتين لهم الحق﴾ يدل على أن محبة اليهود لتحويل المؤمنين من الكفر إلى الإيمان وقعت، بعد أن ظهر لهم صدق النبي ﷺ وبعد أن تبين لهم أن الصفات التي وردت في التوراة بشأن المبره، لا تنطبق إلا عليه، وإذا فكفروهم به لم يكن عن جهل وإنما كان عن عناد وجمود على الباطل، وذلك هو شأن أحبارهم الذين كانوا على علم بالتوراة، ويتبشيرها بالنبي ﷺ.

ثم أمر الله تعالى المؤمنين في ختام الآية أن يقابلوا شرور اليهود بالعمو والصفح، وأن يوادعوههم إلى حين فقال تعالى: ﴿فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير﴾.

العمو: ترك العقاب على الذنب. والصفح: ترك المؤاخذة عليه، فكل صفح عفو ولا عكس.

والمعنى: عليكم أيها المؤمنون أن تتركوا معاقبة أولئك اليهود الحاسدين وأن تعرضوا عن رفع السيف في وجوههم حتى يأذن الله لكم في أن تشفوا صدوركم منهم، ويبيح قتالهم الذي يترتب عليه نصركم، إذ أن كل شيء داخل تحت سلطان قدرته - تعالى -.

فالمراد بالأمر في قوله تعالى: ﴿حتى يأتي الله بأمره﴾ الإذن للمسلمين بقتالهم في الوقت الذي يختاره الله - تعالى - لهم، عند ما تكون لهم القوة التي يتمكنون بها من جهاد أعدائهم.

قال صاحب المنار: قال الأستاذ الإمام: «وفي أمره تعالى لهم بالعمو والصفح إشارة إلى أن المؤمنين على قتلهم هم أصحاب القدرة والشوكة لأن الصفح إنما يطلب من القادر على خلافه كأنه يقول: لا يغرنكم أيها المؤمنون كثرة أهل الكتاب مع باطلهم، فإنكم على قتلهم أقوى منهم بما أنتم عليه من الحق، فعاملوهم معاملة القوى العادل، للضعيف الجاهل وفي إنزال المؤمنين على قتلهم منزلة الأقوياء، ووضع أهل الكتاب على كثرتهم موضع الضعفاء، إيدان بأن أهل الحق هم المؤيدون بالعبادة الإلهية، وأن العزة لهم ما ثبتوا على حقهم، ومهما يتصارع الحق

والباطل فإن الحق هو الذى يصرع الباطل كما قلنا غير مرة، وإنما بقاء الباطل فى غفلة الحق عنه» (١).

وقد أكد الله - تعالى - وعده بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى أن كل شىء داخل تحت قدرته النافذة التى لا يعجزها شىء.

وقد أنجز الله - تعالى - وعده، فأذن للمؤمنين فى الوقت المناسب بقتال اليهود وتأديبهم، وقد ترتب على ذلك النصر للمؤمنين، والطرده والقتل لليهود الحاقدين.

وبعد أن أمر القرآن المؤمنين فى الآية السابقة بالعفو والصفح عن أعدائهم لأن الحكمة تجعل العفو والصفح خيراً من العقوبة والتأنيب، انتقل بعد ذلك إلى أمرهم بالمحافظة على الشعائر التى تطهر قلوبهم، وتزكى نفوسهم فقال - تعالى -:

**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ
مِّنْ خَيْرٍ يَّجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**

فقد أمرهم - سبحانه - فى هذه الآية بالمواظبة على عمودى الإسلام وهما العبادة البدنية التى تؤكد حسن صلة العبد بخالقه وهى الصلاة والعبادة المالية التى تؤلف بين قلوب المؤمنين والمعسرين وهى الزكاة.

وجاءت جملة ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله﴾ بعد ذلك، لترغيبهم فى فعل الخير على وجه عام، ولتحثهم على التزود من الأعمال الصالحة سواء أكانت فرضاً أم نفلاً. وقال ﴿لأنفسكم﴾ للإشعار بأن ما يقدمه المؤمن من خير إنما يعود نفعه إليه، وأنه سيجد عند الله نظير ذلك الثواب الجزيل، والأجر العظيم، وفى قوله، عند الله، إشارة إلى ضخامة الثواب، لأنه صادر من الغنى الحميد.

وجاءت جملة «إن الله بما تعلمون بصير» لتأكيد ذلك الوعد، فقد دلت على أن الله - تعالى - لا يخفى عليه عمل عامل قليلاً كان أو كثيراً. وإذا كان عالماً محيطاً بكل عمل يصدر من الإنسان، كانت الأعمال محفوظة عنده - تعالى -، فلا يضيع منها عمل دون أن يلقي العامل جزاءه يوم الدين.

(١) تفسير المنار ج ١ ص ٤٢١.

وفي إعادة ذكر اسم الجلالة في هذه الجملة مع تقدم ذكره في قوله: ﴿تجدوه عند الله﴾ إشعار باستقلال هذه الجملة، وبشدة الاهتمام بالمعنى الذى تضمنته.

كذلك من فوائد إظهار اسم الجلالة في مقام يجوز فيه الإضمار، أن تكون الجملة كحكمة تقال عند كل مناسبة، بخلاف ما لواتى بدل الاسم الظاهر بالضمير فإن إلقاءه عند المناسبة يستدعى أن تذكر الجملة السابقة معها حتى يعرف المراد من الضمير.

ثم حكى القرآن لونا من ألوان المزاعم الباطلة التى درج عليها أهل الكتاب، ورد عليها بما يطلها فقال:

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا
تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ
فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾

الضمير في «قالوا» يعود على أهل الكتاب من الفريقين.

والهود: جمع هائد أى متبع اليهودية وقدمهم القرآن الكريم على النصارى لتقدمهم في الزمان.

والمعنى: وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا، وقالت النصارى لن يدخلها إلا من كان نصرانيًا، إلا أن الآية الكريمة سلكت في طريق الإخبار عما زعموه مسلك الإيجاز، فحككت القولين في جملة واحدة، وعظفت أحد الفريقين على الآخر بحرف «أو» ثقة بفهم السامع، وأمنا من اللبس، لما عرف من التعادى بين الفريقين، وتضليل كل واحد منها لصاحبه، ونظير هذه الآية قوله تعالى حكاية عنهم ﴿وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا﴾ أى: قالت اليهود: كونوا هودا تهتدوا، وقالت النصارى: كونوا نصارى تهتدوا.

ولذا قال الإمام ابن جرير: «فإن قال قائل: وكيف جمع اليهود والنصارى في هذا الخبر مع اختلاف مقالة الفريقين، واليهود تدفع النصارى عن أن يكون لها في ثواب الله نصيب، والنصارى تدفع اليهود عن مثل ذلك؟

قيل: إن معنى ذلك بخلاف الذى ذهب إليه، وإنما عنى به وقالت اليهود: لن يدخل الجنة

إلا من كان هودا، وقالت النصرارى : لن يدخل الجنة إلا النصرارى، ولكن معنى الكلام لما كان مفهومًا عند المخاطبين به جمع الفريقان في الخبر عنها فقيل : ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصرارى﴾^(١).

وقوله تعالى : ﴿تلك أمانيتهم﴾ جملة معترضة قصد بها بيان أن ما يدعون من أن الجنة خاصة بهم، ما هو إلا أمانى منهم يتمنونها على الله بغير حق ولا برهان. سولتها لهم أنفسهم التي استحوذ عليها الشيطان فخدعها بالأباطيل والأكاذيب.

واسم الإشارة «تلك» مشار به إلى ما تضمنه قوله تعالى : ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصرارى﴾ وهو يتضمن أمانى كثيرة : منها، أن اليهود أمانيتهم أنه لن يدخل الجنة غيرهم، والنصرارى كذلك أمانيتهم أنهم هم وحدهم أصحاب الجنة، وكلا الفريقين يعتقد أن المسلمين ليسوا أهلها، وهذا جاء خبر اسم الإشارة جمعًا فقال تعالى ﴿تلك أمانيتهم﴾. ويرى صاحب الكشاف أن المشار إليه أمور قد تعددت لفظًا وحكاها القرآن عنهم في قوله ﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم﴾ وفي قوله : ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارًا، حسدًا من عند أنفسهم﴾ وفي قوله : ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصرارى﴾، وعبارته :

فإن قلت : لم قيل ﴿تلك أمانيتهم﴾ وقولهم لن يدخل الجنة أمانية واحدة؟ قلت : أشير بها إلى الأمانى المذكورة وهو إمانيتهم أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم، وأمانيتهم أن يردوهم كفارًا، وأمانيتهم ألا يدخل الجنة غيرهم. أى تلك الأمانى الباطلة أمانيتهم^(٢).

ويرى صاحب الانتصاف : أن المشار إليه واحد وهو قولهم ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصرارى﴾ وجمع لإفادة أن تلك الأمانية قد تمكنت من نفوسهم وأشربتها قلوبهم. فقال : والجواب القريب أنهم لشدة تمنيتهم هذه الأمانية، ومعاودتهم لها، وتأكدها في نفوسهم جمعت ليفيد جمعها أنها متأكدة في قلوبهم بالغة منهم كل مبلغ، والجمع يفيد ذلك، وإن كان مؤداه واحدًا ونظيره قولهم : معى جياع، فجمعوا الصفة ومؤداهما واحد، لأن موصوفها واحد، تأكيدًا لثبوتها وتمكنها، وهذا المعنى أحد ما روى في قوله تعالى : ﴿إن هؤلاء لشردمة قليلون﴾^(٣) فإنه جمع «قليلًا» وقد كان الأصل إفراده فيقال «لشردمة قليلة» كقوله تعالى ﴿كنم من فئة قليلة﴾ لولا ما قصد إليه من تأكيد القلة بجمعها، ووجه إفادة الجمع في مثل هذا التأكيد، أن الجمع

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٤٩١ . (٢) سورة الشعراء الآية ٥٤ .

(٣) تفسير الكشاف ج ١ ص ١٣٠ .

يفيد بوضعه الزيادة في الأحاد فنقل إلى تأكيد الواحد، وإبانته زيادة على نظرائه، نقلاً مجازياً بديعاً فتدبر هذا الفصل فإنه من نفائس صناعة البيان والله الموفق»^(١).

ثم أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يطالبهم بالدليل على صحة ما يدعون، فقال تعالى « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ».

أى قل - يا محمد - لهؤلاء الزاعمين أن الجنة لهم خاصة من دون الناس، هاتوا حجتكم على خلوص الجنة لكم، إن كنتم صادقين في دعواكم، لأنه لما كانت دعواهم الاختصاص بدخول الجنة لا تثبت إلا بوحي من الله وليس لمجرد التمني، أمر الله - تعالى - نبيه ﷺ أن يطالبهم بالدليل من كتبهم على صحة دعواهم، وهذه المطالبة من قبيل التعجيز لأن كتبهم خالية مما يدل على صحتها.

قال الإمام ابن جرير: « وهذا الكلام وإن كان ظاهره دعاء القائلين «لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى» إلى إحضار حجة على دعواهم، فإنه بمعنى التكذيب من الله لهم في دعواهم وقيلهم، لأنهم ليسوا بقادرين على إحضار برهان على دعواهم تلك أبداً»^(٢).

هذا، ويؤخذ من الآية الكريمة بطلان التقليد في أمور الدين، وهو قبول قول الغير مجرداً من الدليل، فلا ينبغي للإنسان أن يقرر رأياً في الدين إلا أن يسنده إلى دليل، كما أنه لا يقبل من غيره قولاً إلا أن يكون مؤيداً بدليل.

أما عدم صحة التقليد في أصول الدين: أى فيما يرجع إلى حقيقة الإيمان فالأمر فيه جلى، لأنه يكتفى في إيمان الشخص بأى دليل ينشرح به صدره للإسلام، وتحصل له به الطمأنينة، كأن يستمد إيمانه بالله من التنبيه لحكمة الله في إتقان المخلوقات، أو في رعاية اللطف والرفق بالإنسان، ويستمد إيمانه بصدق الرسول ﷺ من الاستماع إلى القرآن الكريم، أو من سيرته التى لم يظهر بمثلها أو بما يقرب منها بشر غير رسول، والقصد أن لا يكون إسلامه لمجرد أنه في بيئة إسلامية أو ولد من أب وأم مسلمين.

وأما التقليد في الفروع أى في الأحكام العملية، فالناس بالنظر إلى القدرة على تمييز الخطأ من الصواب درجات، فمن له قدرة على فهم الأدلة ومعرفة الراجح من الأحكام، لا يجوز أن يتلقى الحكم من غيره إلا مقروناً بدليل، وإن كان قاصراً عن هذه الدرجة أخذ بما يفتيه به العالم

(١) هامش تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٣٠.

(٢) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٦٤٩.

المشهود له بالرسوخ في علم الشريعة، والمعروف بالمحافظة على لباس التقوى ما استطاع^(١). ثم أبطل القرآن الكريم مدعاهم بطريق آخر وهو إيراد قاعدة كلية رتب دخول الجنة على الإيمان والعمل الصالح بلا محاباة لأمة أو لجنس أو لطائفة فقال تعالى:

﴿بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.
 ﴿بلى﴾ حرف يذكر في الجواب لإثبات المنفى في كلام سابق، وقد صدرت الآية التي معنا بحرف «بلى» لإثبات ما نفوه وهو دخول غيرهم الجنة ممن لم يكن لا من اليهود ولا من النصراني، مادام قد أسلم وجهه لله وهو محسن.

وقوله تعالى: ﴿أسلم وجهه لله﴾ المراد به اتجه إليه، وأذعن لأمره، وأخلص له العبادة، وأصل معناه الاستسلام والخضوع.

وخص الله - تعالى - الوجه دون سائر الجوارح بذلك، لأنه أكرم الأعضاء وأعظمها حرمة، فإذا خضع الوجه الذي هو أكرم أعضاء الجسد فغيره من أجزاء الجسد أكثر خضوعاً. وقوله تعالى: ﴿وهو محسن﴾ من الإحسان، وهو أداء العمل على وجه حسن أى: مطابق للصواب وهو ما جاء به الشرع الشريف.

والمعنى: ليس الحق فيما زعمه كل فريق منكم يا معشر اليهود والنصارى من أن الجنة لكم دون غيركم، وإنما الحق أن كل من أخلص نفسه لله، وأتى بالعمل الصالح على وجه حسن، فإنه يدخل الجنة، كما قال تعالى: ﴿فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.
 وقد أفادت الآية الكريمة ما يأتي:

(أ) إثبات ما نفوه من دخول غيرهم الجنة.

(ب) بيان أنهم ليسوا من أهل الجنة، إلا إذا أسلموا وجوههم لله، وأحسنوا له العمل فيكون ذلك ترغيباً لهم في الإسلام، وبياناً لمفارقة حالهم لحال من يدخل الجنة، لكي يقلعوا عما هم عليه، ويعدلوا عن طريقتهن المعوجة.

(ج) بيان أن العمل المقبول عند الله - تعالى - يجب أن يتوفر فيه أمران:

أولهما: أن يكون خالصاً لله وحده.

ثانيهما: أن يكون مطابقاً للشريعة التي ارتضاها الله تعالى وهي شريعة الإسلام.

(١) تفسير الآية الكريمة للمرحوم الشيخ محمد الحضر حسين: مجلة لواء الإسلام السنة الثالثة العدد الخامس

قال الإمام ابن كثير: «فمتى كان العمل خالصاً ولم يكن صواباً لم يتقبل، ولهذا قال رسول الله ﷺ «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» فعمل الرهبان ومن شابههم وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله فإنه لا يتقبل منهم حتى يكون ذلك متابعاً للرسول ﷺ المبعوث فيهم وإلى الناس كافة، وفي أمثالهم قال الله - تعالى - «وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً» وأما إن كان العمل موافقاً للشريعة في الصورة الظاهرة، ولكن لم يخلص عامله القصد لله، فهو أيضاً مردود على فاعله، وهذا حال المرأئين والمنافقين ولهذا قال تعالى: «فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً»^(١).

وبذلك تكون الآيتان الكريمتان قد أبطلتا دعوى اليهود أن الجنة لهم دون غيرهم، وأثبتتا أن مزاعمهم هذه ما هي إلا من قبيل الأمانى والأوهام وكذبتهم في أن يكون عندهم أى برهان أو دليل على ما يدعون ثم أصدرتا حكماً عاماً وهو أن الجنة ليست خاصة لطائفة دون أخرى، وإنما هي لكل من أسلم وجهه لله وهو محسن.

ثم بين القرآن بعد ذلك أن أهل الكتاب قد دأبوا على تضليل بعضهم البعض، وأن الخلاف بينهم قد أدى إلى التنازع والتخاصم فقال:

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرِيُّ عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرِيُّ
لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ
الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾

فالآية الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك: «وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى»... إلخ، لزيادة بيان طبيعة أهل الكتاب، المعوجة، وأن رمى المخالف لهم بأنه ضال شنيئة فيهم.

والشئىء: يطلق على الموجود، أو ما يصح أن يعلم ويخبر عنه، وقد ينفى مبالغة في عدم الاعتداد به واليهود كفرت عيسى - عليه السلام - وما زالوا يزعمون أن المسيح المبشر به في التوراة لم يأت، وسيأتى بعد، فهم يعتقدون أن النصارى باتباعهم له ليسوا على أمر حقيقى من

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٥٤.

التدين، والنصارى تكفر اليهود لعدم إيمانهم بالمسيح الذى جاء لإتمام شريعتهم، ونشأ عن هذا النزاع عداوة اشتدت بها الأهواء والتعصب حتى صار كل فريق منهم يطعن فى دين الآخر، وينفى عنه أن يكون له أصل من الحق.

وجملة ﴿وهم يتلون الكتاب﴾ حالية، والكتاب للجنس. أى: قالوا ذلك وحالهم أنهم من أهل العلم والتلاوة للكتب، إذ اليهود يقرءون التوراة والنصارى يقرءون الإنجيل، وحق من حمل التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الله وآمن به ألا يكفر بالباقي، لأن كل واحد من الكتابين مصدق للثاني، شاهد بصحته وكذلك كتب الله جميعاً متواردة على تصديق بعضها البعض.

وقوله: ﴿كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم﴾ معناه: كما أن أهل الكتاب قد قال كل فريق منهم فيمن خالفه إنه ليس على شيء من الدين الحق. فكذلك قال الذين لا يعلمون، وهم مشركو العرب، فى شأن المسلمين: إنهم ليسوا على شيء من الدين الحق، فتشابهت قلوب هؤلاء وقلوب أولئك فى الزيغ والضلال.

والهدف الذى ترمى إليه هذه الجملة، هو أن إنكار اليهود والنصارى لرسالة محمد ﷺ لا ينبغى أن يثير شبهة على عدم صحتها، حيث يسبق إلى أذهان الضعفاء من الناس أن تلاوتهم للكتاب تجعلهم أعرف بالنبوة الصادقة من غيرها. فكان القرآن يقول: إن تلاوتهم للكتاب وحدها لا ينبغى أن تكون شبهة.

ألا ترون اليهود والنصارى وهم يتلون الكتاب كيف أنكروا كل فريق منها أن يكون الآخر على شيء حقيقى من التدين، فسبيلهم فى إنكار دين الإسلام كسبيل المشركين الذين أنكروه عن جهالة به.

وفى هذه الجملة توبيخ شديد لأهل الكتاب، حيث نظموا أنفسهم - مع علمهم - فى سلك من لا يعلم.

وقوله: ﴿فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾. صدر بالفاء، لأن التواعد بالحكم بينهم يوم القيامة، وإظهار ما أكتته ضمائرهم من الهوى والضلال، متفرع عن هذه المقالات ومسبب عنها، وهو خبر المقصود منه التوبيخ والوعيد.

والضمير المجرور بإضافة بين إليه راجع إلى الفرق الثلاث، وما كانوا فيه يختلفون يعم ما ذكر وغيره وقيل الضمير يعود على اليهود والنصارى.

والاختلاف: تقابل رأيين فيما ينبغى انفراد الرأى فيه.

ولم تصرح الآية الكريمة بماذا يحكم الله بينهم، لأنه من المعلوم أن من مظاهر حكم الله يوم القيامة إثابة من كان على حق، وعقاب من كان على باطل.

وبذلك تكون الآية الكريمة قد فضحت أهل الكتاب، حيث بينت كيف أن كل فريق منهم قد رمى صاحبه بالضلال، وفي هذا تثبيت للمؤمنين ونهى لهم عن أن يتهجوا تهجهم. ثم تحدث القرآن عن سوء عاقبة من يسعى في خراب بيوت الله، فقال:

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ
 اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ
 لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ
 وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾

ويرى بعض المفسرين أن هذه الآية نزلت في شأن الرومانيين الذين غزوا بيت المقدس وخرّبوه. ويرى آخرون أنها نزلت في كفار قريش حين منعوا رسول الله ﷺ أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية.

وكيفما كان سبب النزول، فالآية تشمل بدمها ووعيدها، كل من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها.

ومن أسم استفهام يراد منه النفي، أى: لا أظلم. والمساجد: جمع مسجد، وهو المكان الخاص للعبادة، مأخوذ من السجود، وهو وضع الجبهة على الأرض خضوعاً لله وتعظيماً. والظلم: الاعتداء على حق الغير، بالتصرف فيه بما لا يرضى به، ويطلق على وضع الشيء في غير ما يستحق أن يوضع فيه، والمعنيان واضحان هنا.

وذكر اسم الله كناية عما يؤدي فيها من العبادات، إذ لا تكاد عبادة تخلو من ذكر اسمه - تعالى -:

والسعى في الأصل: المشى بسرعة في معنى الطلب والعمل.

والخراب: ضد التعمير، ويستعمل بمعنى تعطيل المكان وخلوه مما وضع له.

قال القرطبي: «وخراب المساجد قد يكون حقيقياً، كتخريب بختنصر والرومان لبيت

المقدس حيث قذفوا فيه القاذورات وهدموه. ويكون مجازًا كمنع المشركين حين صدوا رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام، وعلى الجملة فتعطيل المساجد عن الصلاة وإظهار شعائر الإسلام فيها خراب لها^(١).

والمعنى: لا أحد أظلم ممن حال بين المساجد وبين أن يعبد فيها الله، وعمل في خرابها بالهدم كما فعل الرومان وغيرهم ببيت المقدس. أو بتعطيلها عن العبادة كما فعل كفار قريش، فهو مفرط في الظلم بالغ فيه أقصى غاية.

قال صاحب الكشف: «فإن قلت: فكيف قيل مساجد الله، وإنما وقع المنع والتخريب على مسجد واحد هو بيت المقدس أو المسجد الحرام؟ قلت لا بأس أن يجيء الحكم عامًا، وإن كان السبب خاصًا، كما تقول لمن آذى صالحًا واحدًا: ومن أظلم ممن آذى الصالحين، كما قال - عز وجل -: ﴿ويل لكل همزة﴾ والمنزول فيه هو الأحنس بن شريق^(٢).

وقوله - تعالى -: ﴿أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين﴾ معناه: ما ينبغي لأولئك الذين يحولون بين المساجد وذكر الله ويسعون في خرابها أن يدخلوها إلا خائفين من الله - تعالى - لمكانها من الشرف والكرامة بإضافتها إليه - تعالى - أو إلا خائفين من المؤمنين أن يبطشوا بهم، فضلًا عن أن يستولوا عليها ويمنعوا المؤمنين منها.

قال ابن كثير: «وفي هذا بشارة من الله للمسلمين بأنه سيظهرهم على المسجد الحرام، ويذل لهم المشركين حتى لا يدخل المسجد الحرام واحد منهم إلا خائفًا يخاف أن يؤخذ فيعاقب، أو يقتل إن لم يسلم، وقد أنجز الله هذا الوعد فمنع المشركين من دخول المسجد الحرام، وذلك أنه بعد أن تم فتح مكة للمسلمين أمر النبي ﷺ من العام القابل منادياً ينادى برحاب منى «ألا لا يحجن بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان، ومن كان له أجل فأجله إلى مدته». وعندما حج النبي ﷺ عام حجة الوداع لم يجترئ. أحد من المشركين أن يحج أو أن يدخل المسجد الحرام. وهذا هو الخزي في الدنيا لهم، المشار إليه بقوله - تعالى -: ﴿لهم في الدنيا خزي﴾ لأن الجزاء من جنس العمل^(٣).

ثم ختمت الآية الكريمة ببيان عاقبة هؤلاء الساعين في خراب مساجد الله فقال - تعالى -:
﴿لهم في الدنيا خزي، ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾. أى: لهم في الدنيا هوان وذلة بسبب ظلمهم وبغيهم، ولهم في الآخرة عذاب عظيم بخلدون معه في النار. وليس هناك أشقى ممن

(٣) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٠٨.

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٧٧.

(٢) تفسير الكشف ج ٢ ص ١٧٩.

يعيش دنياه في هوان وذلة، ثم ينتقل إلى آخره فيجد مصيره العذاب الأليم الذي لا يموت فيه ولا يحيا.

ثم أخذ القرآن في تسليية المسلمين الذين أخرجوا من مكة وفارقوا المسجد الحرام، مبيناً لهم أن الجهات كلها لله - تعالى - فقال:

وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فِثَّمْ وَجْهَ اللَّهِ إِيَّاكَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِ ۝١١٥

المشرق والمغرب: مكان شروق الشمس وغروبها، والمراد بها هنا جميع جهات الأرض. واللام في قوله: «ولله» تفيد معنى الملك.

والتولية: التوجه من جهة إلى أخرى. و(ثم) اسم إشارة للمكان.

والوجه: الجهة، فوجه الله الجهة التي ارتضاها وأمر بالتوجه إليها وهي القبلة.

والمعنى: أن جميع الأرض ملك لله وحده، ففي أى مكان من المشرق والمغرب توليتم شطر القبلة التي أمركم الله بها ورضيها لكم، فهناك جهته - سبحانه - التي أمرتم بها، والتي تبرا ذمكم باستقبالها.

ومعنى هذا: الإذن بإقامة الصلاة في أى مكان من الأرض دون أن تختص بها المساجد، ففي الحديث الشريف: «جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً».

وكان الآية تومى، إلى أن سعى أولئك الظالمين فى منع المساجد من ذكره - تعالى - وتخريبها، لا يمنع من أداء العبادة لله - تعالى - : لأن له المشرق والمغرب وما بينهما، فأينما حل الإنسان وتحرى القبلة المأمور بالتوجه إليها فهناك جهة الله المطلوب منه استقبالها.

وذيلت الآية بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ لإفادة سعة ملكه أو سعة تيسيره على عباده فى أمر الدين. أى: إن الله يسع خلقه جميعاً برحمته وتيسيره وجوده وهو عليم بأعمالهم لا يخفى عليه عمل عامل أينما كان وكيفما كان.

ثم حكى القرآن بعض الأقاويل الباطلة التي افتراها أصحاب القلوب المريضة فقال - تعالى - :

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ ۚ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ

وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قٰنِیْنُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ

وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾

قوله - تعالى - : ﴿وقالوا اتخذ الله ولدًا﴾ معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك وقالت اليهود ليست النصارى على شيء إلخ» .
واتخذ : من الاتخاذ وهو الصنع والجعل والعمل . والولد : يطلق على الذكر والأنثى ، والواحد والجمع .

والذين قالوا اتخذ الله ولدا هم اليهود والنصارى والمشركون ، فقد حكى الله عن اليهود أنهم قالوا : ﴿عزير ابن الله﴾ وحكى عن النصارى أنهم قالوا : ﴿المسيح ابن الله﴾ وحكى عن المشركين أنهم قالوا «الملائكة بنات الله» فيصح أن يكون الضمير في قالوا عائداً على الفرق الثلاث أو على بعضهم . فمن المعروف أن القرآن يجرى على الأسلوب المعروف في المخاطبات حيث يسند إلى القوم ما صدر من بعضهم فحين قال : ﴿وقالت اليهود عزير بن الله﴾ أصبح من السائق في صحة المعنى أن يكون هذا القول قد صدر من طائفة منهم :

وقوله : ﴿سبحانه﴾ تنزيه له عما هو نقص في حقه ومحال عليه من اتخاذ الولد ، لاقتضاء الوالدية : النوعية والجنسية والتناسل والافتقار ، والتشبيه والحدوث وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولداً ، وهو يرزقهم ويعافهم» .
وسبحان : مصدر لسبح بمعنى نزه ، وهو منصوب بفعل لم يسمع من العرب التصريح به معه ، والأصل : أسبحه سبحانه ، فحذف الفعل وأقيم المصدر مقامه ، وأضيف إلى ضمير المنزه .

وقوله : ﴿بل له ما في السموات والأرض﴾ إضراب عن مقالاتهم التي نسبوا بها إلى الله اتخاذ الولد ، وشروع في الاستدلال على بطلانها .

واللام في قوله : ﴿له﴾ للاختصاص الكامل وهو الملك الحقيقي ، و (ما) اسم موصول يراد منه الكائنات : ما يعقل وما لا يعقل ومن جملة هذه الكائنات من ادعوا أنه ولد لله .
والمقصود إثبات أن قولهم ﴿اتخذ الله ولداً﴾ زعم باطل ، فإن جميع ما احتوت عليه السموات والأرض مملوك لله يتصرف فيه كيف يشاء ، فلا حاجة إلى اتخاذ الولد ، إذ الولد إنما يسعى إليه الوالد ، أو يرغب فيه ليعتزبه أو ليحصى ذكره ، أو ليستعين به على القيام بأعباء الحياة . والله - تعالى - منزه عن أمثال هذه الأغراض التي لا تليق إلا بمن خلق ضعيفاً كالإنسان ثم إن الحكمة من التوالد بقاء النوع محفوظاً بتوارد أمثال الوالد حيث لا سبيل إلى بقائه بعينه ، أما الخالق - تعالى - فهو الواحد في ذاته وصفاته ، الباقي على الدوام ، كما قال تعالى :

﴿كل من عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾. وقوله - تعالى - : ﴿كل له قانتون﴾.

معناه : كل له مطيعون طاعة تسخير وانقياد، خاضعون لا يستعصى منهم شيء على مشيئته وإرادته : شاهدون بلسان الحال والمقال على وحدانيته من القنوت وهو لزوم الطاعة مع الخضوع، وإنما جاء ﴿قانتون﴾ بجمع المذكر المختص بالعقلاء، مع أن الخضوع لله يكون من العقلاء وغيرهم تغليبا للعقلاء على غيرهم، لأنهم أهل القنوت عن إرادة وبصيرة، ولأن ظهوره فيهم أكمل من ظهوره في غيرهم.

وفصلت جملة ﴿كل له قانتون﴾ عن سابقتها، لقصد استقلالها بالاستدلال على نفى أن يكون لله ولد، حتى لا يظن السامع أنها مكملة للدليل المسوق له قوله - تعالى - : ﴿له ما في السموات والأرض﴾.

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر قدرته فقال : ﴿بديع السموات والأرض﴾ أى : مبدعها ومنشئها بلا احتذاء ولا اقتداء. وبلا آلة ولا مادة، وبديع صفة مشبهة من أبدع، والذي ابتدعتها من غير أصل ولا مثال هو الله - تعالى - . وخص السموات والأرض بالإبداع، لأنها أعظم ما يشاهد من المخلوقات.

قال القرطبي : «قوله - تعالى - : ﴿بديع السموات والأرض﴾ فعيل للمبالغة. وارتفع على أنه خبر ابتداء محذوف، واسم الفاعل مبدع كبصير من مبصر. أبدعت الشيء لا عن مثال، فالله - تعالى - بديع السموات والأرض، أى منشئها وموجدتها، ومخترعها، على غير حد ولا مثال، وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل له مبدع، ومنه أصحاب البدع؛ وسميت البدعة بدعة لأن قائلها ابتدعتها من غير فعل أو مقال إمام...»^(١).

وقوله : ﴿وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ معناه : وإذا أراد - سبحانه - إحداث أمر من الأمور حدث فوراً. «وكن فيكون، إعلان من الكون بمعنى الحدوث. ويرى كثير من أهل السنة أن الجملة واردة على وجه التمثيل، لحدوث ما تتعلق به إرادته - سبحانه - بلا مهلة وبلا توقف. وليس المراد أنه إذا أراد إحداث أمر أتى بالكاف والنون، ففي الكلام استعارة تمثيلية.

ويرى آخرون أن الأمر يكن محمول على حقيقته، وأنه - تعالى - أجرى سنته في تكوين الأشياء أن يكونها بكلمة كن أزلا.

وبذلك نرى أن الآيتين الكريميتين قد حكنا بعض الشبهات الباطلة التي أوردها الضالون

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٨٦.

حول وحدانية الله وردت عليها بما يدحضها ويثبت كذبها. ثم أورد القرآن بعد ذلك الشبهات التي أثاروها حول نبوة محمد ﷺ وأجاب عنها بما يبطلها فقال تعالى :

وَقَالَ الَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ
قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهتْ قُلُوبُهُمْ
فَدَبِينَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾

عن ابن عباس قال : قال رافع بن حريملة اليهودى لرسول الله ﷺ يا محمد، إن كنت رسولا من الله كما تقول، فقل لله يكلمنا حتى نسمع كلامه فأنزل الله هذه الآية (١).
فلاية الكريمة معطوفة على قوله : ﴿وقالوا اتخذ الله ولداً..﴾.

ومعنى الآية الكريمة . ﴿وقال الذين لا يعلمون﴾ علماً نافعاً أمثال هؤلاء اليهود الذين طالبوك بالمطالب المتعنتة - يا محمد - ﴿لولا يكلمنا الله﴾ إما مشافهة، أو بواسطة الوحي إلينا لا إليك، أو يرينا حجة تقوم على صدق رسالتك، قالوا هذا على وجه العناد والجحود أن تكون الآيات التي أقامها الله على صدق رسالته آيات حقاً.

وقد رد الله تعالى عليهم بقوله : ﴿كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم﴾ أى : مثل هذا القول المتعنت، قال الجاحدون من أسلافهم الذين أرسل الله إليهم الرسل ليخرجوهم من الظلمات إلى النور وفي هذه الجملة تسلية للرسول ﷺ بأن ما لاقاه من قومه مثل ما لقيه الرسل من قبله .

﴿تشابهت قلوبهم﴾ أى تشابهت قلوب هؤلاء وأولئك في العناد والضلال.

﴿قد بينا الآيات لقوم يوقنون﴾ أى : جعلناها بينة واضحة في ذاتها لمن شأنهم الإخلاص في طلب الحق أينما كان، فيتجهون إليه عن طريق الأدلة الصحيحة بقلوب نقية من الأهواء موقنة بجلال الحق ووجوب الطاعة.

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٦١.

قال الإمام الرازي : وتقرير شبهتهم أن الحكيم إذا أراد تحصيل شيء، اختار أقرب الطرق إليه، وبما أن الله قد كلم موسى وكلمك يا محمد فلم لا يكلمنا مشافهة، أو يخصك بمعجزة يتجلى من ورائها صدق نبوتك، وهذا منهم طعن في أن القرآن معجزة، لأنهم لو أقرؤا بذلك لاستحال أن يقولوا ما قالوه.

فأجابهم الله عن هذه الشبهة بقوله ﴿كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم﴾ وحاصل هذا الجواب : أنا قد أيدنا قول محمد بالمعجزات، وبيننا صحة قوله بالقرآن وسائر الحجج، فكان طلب هذه الزوائد من باب التعنت. وعليه فلن تجاب مطالبكم لوجوه منها :

١ - لو كان في معلوم الله أنهم يؤمنون عند إنزال هذه الآيات لفعلها ولكنه علم أنه لو أعطاهم ما سألوه لازدادوا لجأجا.

٢ - أن حصول الدلالة الواحدة تمكن المكلف من الوصول إلى المطلوب، فإذا لم يكتف بها، كان طلبه من باب المعاندة.

٣ - ربما كانت كثرة المعجزات وتعاقبها تقدر في كونها معجزة لأن الخوارق متى تواترت كانت انخراق العادة عادة. فثبت أن عدم إسعافهم بهذه الآيات لا يقدر في النبوة^(١).

هذا، وبعض المفسرين يرى أن المراد «بالذين لا يعلمون» اليهود، وبعضهم يرى أن المراد بهم مشركو العرب وبعضهم يرى أن المراد بهم النصارى، ونحن نرى أن اللفظ صالح لأن يندرج تحته جميع هذه الطوائف قضاء لحق الموصول المفيد للتعميم، ولكننا نختار أن اليهود هم المقصودون قصداً أولاً من هذه الآية للأسباب الآتية :

١ - الآية ضمن سلسلة طويلة من الآيات السابقة عليها واللاحقة لها، وكلها تتحدث عن بني إسرائيل وأحوالهم وأخلاقهم.

٢ - جملة ﴿كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم﴾ قرينة على أن المقصود بالذين لا يعلمون هم اليهود المعاصرون للعهد النبوي، حيث كان أجدادهم يطلبون من موسى مثل هذه المطالب، لقد قالوا له : ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ وقالوا : ﴿أرنا الله جهرة﴾ وطلبوا منه كثيراً من المطالب المتعنتة.

٣ - الآية مدنية ومن سورة البقرة التي هي من أوائل ما نزل على الرسول ﷺ بالمدينة، ومن المعروف أن حديث القرآن المدني عن أهل الكتاب بصفة عامة، وعن اليهود بصفة خاصة، أكثر من حديثه عن مشركي العرب، لأن البيئة المدنية صلتهما بأهل الكتاب أشد وألصق.

٤ - سبب نزول الآية الذي ذكرناه يؤيد أن اليهود مقصودون قصداً أولاً في هذه الآية.
٥ - القائلون بأن المراد بالذين لا يعلمون مشركو العرب، دعموا قولهم بأن آيات القرآن التي تحكى عنهم أمثال هذه المقترحات مستفيضة. وكأنهم يستبعدون أن تصدر مثل هذه الأسئلة عن اليهود.

وردنا عليهم أن القرآن الكريم قد حكى عن اليهود أمثال هذه الأسئلة بدليل قوله تعالى : ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً﴾^(١).

٦ - الإمام ابن جرير رجح أن المراد ﴿بالذين لا يعلمون﴾ النصرارى، مستدلاً بأن ذلك في سياق خبر الله عنهم، فالآية السابقة على هذه الآية تقول.

﴿وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه، بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون﴾ والنصارى هم الذين قالوا ذلك.

وهذا الاستدلال لا نوافقه عليه لما يأتي :

(أ) لأن الآية ليست في سياق خبر الله عن النصرارى، وإنما هي في سياق خبر الله عن اليهود، الذين زحرت سورة البقرة ببيان مواقفهم وحجاجهم وأخلاقهم في أكثر من مائة آية سابقة ولاحقة من هذه السورة.

(ب) ليس النصرارى وحدهم هم الذين قالوا اتخذ الله ولداً وإنما اليهود أيضاً قالوا ذلك، قال تعالى : ﴿وقالت اليهود عزيز ابن الله، وقالت النصرارى المسيح ابن الله﴾^(١).

(ج) لم يأت الإمام ابن جرير بدليل واحد ينقض به رأى القائلين بأن المراد بالذين لا يعلمون اليهود، ولم يتعرض للنص الذي أورده ابن عباس في سبب نزول الآية بالتضعيف أو الإعلال، مع أنه انتقد رأى القائلين بأن المراد بهم مشركو العرب (بأنه قول لا برهان على حقيقته في ظاهر الكتاب).

هذا وبعد تلك الأدلة على ما ذهبنا إليه نعود فنقول مرة أخرى : إننا لا نمانع في أن يكون المراد بالذين لا يعلمون جميع الطوائف المشركة ولكننا نرجح أن اليهود هم المقصودون قصداً أولاً مهما دخل غيرهم معهم في السياق، وإن الآية قد نزلت للرد على مطالبهم المتعنتة واقتراحاتهم التي لا خير من ورائها، ومحاولاتهم الطعن في نبوة النبي ﷺ.

(١) سورة التوبة الآية ٣٠.

(١) سورة النساء الآية ١٣٥.

ثم ساق القرآن للنبي ﷺ ما يسلبه ويثبته فقال :

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ

بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ

هُدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ أَتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ

مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ

الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ

فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾

وقوله : ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً﴾ معناه : إنا أرسلناك يا محمد بالدين الصحيح المشتمل على الأحكام الصادقة، لتبشر بالشواب من آمن وعمل صالحاً، وتندر بالعقاب من كفر وعصى .

وصدرت الآية الكريمة بحرف التأكيد، لمزيد الاهتمام بهذا الخبر، وللتنويه بشأن الرسول ﷺ .

وجيء بالمسند إليه ضمير الجلالة، تشریفاً للنبي ﷺ فكان الله - تعالى - يشافهه بهذا الكلام بدون واسطة، ولذا لم يقل له إن الله أرسلك .

وقوله : ﴿بالحق﴾ متعلق بأرسلناك . والحق : مأخوذ من حق الشيء، أى : وجب وثبت، ويطلق الحق على الحكم الصادق المطابق للواقع، ويسمى الدين الصحيح حقاً لاشتماله على الأحكام الصادقة .

وقوله : ﴿بشيراً ونذيراً﴾ حالان، والبشير : المبشر، وهو المخبر بالأمر السار للمخبر به الذى لم يسبق له علم به . والنذير : المنذر، وهو المخبر بالأمر المخوف ليحذر منه .
وجملة ﴿ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾ معطوف على جملة ﴿إنا أرسلناك﴾ .

والجحيم : المتأجج من النار . وأصحابها : الملازمون لها . والسؤال : كناية عن المؤاخذة واللوم .

والمعنى : لا تذهب نفسك عليهم حسرات يا محمد، فإن وظيفتك أن تبشر وتذذر ولست بعد ذلك مؤاخذاً ببقاء الكافرين على كفرهم، ولست مسئولاً عن عدم اهتدائهم ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾.

وفى وصفهم بأنهم أصحاب الجحيم، إشعار بأنهم قد طبع على قلوبهم، فصاروا لا يرجى منها الرجوع عن الكفر.

وفى هذه الجملة مع قوله : «بشيراً ونذيراً» تسلية للرسول ﷺ حيث لم يؤمن به أولئك الجاحدون المعتنون.

ثم بين القرآن موقف أهل الكتاب من الدعوة الإسلامية فقال : ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾.

الملة : الطريقة المسلوكة، ثم جعلت اسماً لما شرعه الله لعباده على لسان نبيه ليتوصلوا إلى السعادة الدائمة، وقد تطلق على ما ليس حقاً من الأديان المنحرفة أو الباطلة، كما حكى القرآن عن يوسف عليه السلام - أنه قال :

﴿إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون﴾.

وأفرد القرآن الملة فقال - تعالى - ملتهم - «مع أن لكل من اليهود والنصارى ملة خاصة، لأن الملتين بالنظر إلى مخالفتها لدين الإسلام وما طرأ عليهما من التحريف بمنزلة واحدة، فاتباع إحداهما كاتباع الأخرى في قلة الانتفاع به.

ومعنى الغاية في قوله : «حتى تتبع ملتهم الكناية عن اليأس من اتباع أهل الكتاب لشريعة الإسلام، لأنهم لما كانوا لا يرضون إلا باتباعه ﷺ ملتهم وكان اتباع النبي ﷺ للملتهم مستحيلاً، فقد صار رضاهم عنه كذلك مستحيلاً، فالجملة الكريمة مبالغة في الإقنات من إسلامهم، وتنبه على أنه لا يرضيهم إلا ما لا يجوز وقوعه منه.

ثم لقن الله - تعالى - نبيه - ﷺ الجواب فقال : ﴿قل إن هدئ الله هو الهدى﴾. وهدى الله : دينه والهدى، بمعنى الهادى إلى طريق الفلاح في الدنيا والآخرة. أى : ما أنت عليه يا محمد من هدى الله الحق الذى يضعه فى قلب من يشاء هو الهدى الحقيقى لا ما يدعيه هؤلاء من الأهواء.

وإيراد الهدى معرفةً بأل مع اقترانه بضمير الفصل «هو» يفيد قصر الهداية على دين الله، وينفى أن يكون فى دين غير دين الله هدى. وإذا كانت الهداية مقصورة على الدين الذى جاء به محمد ﷺ فكيف يطمع أهل الكتاب فى أن يتبع ملتهم؟

ثم حذر القرآن من اتباع أهل الكتاب فقال: ﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم، مالك من الله من ولى ولا نصير﴾.

اللام فى قوله: ﴿ولئن﴾ تشعر بأن فى الجملة قسماً مقدراً روعى فى صدرها ليفيد تأكيد ما تضمنته من أن متبع أهواء أهل الكتاب لا يجد من الله ولياً ولا نصيراً.

والأهواء: جمع هوى، والمراد بها آرائهم المنحرفة عن الحق الصادرة من شهوات فى أنفسهم. والعلم: الدين: وسمى علماً لأنه يعلم بالأدلة القاطعة.

والولى: القريب والحليف. والنصير: كل من يعين غيره على من يناوئه ويبسط إليه يده بسوء.

والمعنى: ولئن اتبعت - يا محمد - آراءهم الزائفة، بعد الذى جاءك من العلم بأن دين الله هو الإسلام، أو من الدين المعلوم صحته بالبراهين الواضحة، مالك من الله من ولى يلى أمرك ولا نصير يدفع عنك عقابه.

وإنما أوتر خطابه ﷺ بذلك ليدخل دخولا أولياً من اتبع أهواءهم بعد الإسلام من المنافقين تمسكاً بولايتهم، وطمعاً فى نصرتهم.

وبعد أن ذكر القرآن فى الآيات السابقة أحوال الكافرين من أهل الكتاب أخذ فى بيان حال المؤمنين، فقال:

﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته﴾.

أى: يقرءونه قراءة حققة، مصحوبة بضبط لفظه، وتدبر معانيه، ولا شك أن ضبط لفظه يقتضى عدم تحريف ما لا يوافق أهواء أهل الكتاب، كالجمل الواردة فى نعت رسول الله ﷺ وأن تدبره يستدعى اتباعه والعمل به.

وجملة: ﴿يتلونه حق تلاوته﴾ حال من الضمير (هم) أو من الكتاب وهذه الحال من قبيل الأحوال التى تلابس صاحبها بعد وقوع عاملها، فإنهم إنما يتلون الكتاب بعد أن يؤتوه. وهى التى تسمى بالحال المقدرة أى: مقدراً وقوعها بعد وقوع عاملها.

والمراد بالذين أتوا الكتاب، مؤمنو أهل الكتاب. والمراد بالكتاب التوراة والإنجيل. أو هم أصحاب النبى ﷺ والكتاب: القرآن.

وأجاز بعضهم أن تكون الآية سيقت مدحاً لمن آمن من أهل الكتاب بالقرآن، فيكون الضمير فى يتلونه القرآن.

وقوله: ﴿أولئك يؤمنون به﴾ خبر عن قوله: ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾.

وفي ذكر الإشارة ووضعه في صدر الجملة المخبر بها، زيادة تأكيد لإثبات إيمانهم. وفي هذه الجملة تعريض بأولئك المعاندين الذين كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه، فكأن الآية التي معنا تقول: ﴿الذين آتيناها الكتاب﴾ وكان من حالهم أن قرءوه حق قراءته، يؤمنون به إيماناً لا ريبه فيه، بخلاف المعاندين المحرفين للكلم عن مواضعه. ثم بين - سبحانه - عاقبة الكافرين يكتبه فقال: ﴿ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون﴾. والكفر بالكتاب يتحقق بتحريفه وانكار بعض ما جاء فيه، أي ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون في الدنيا حيث لا يعيشون فيها عيش المؤمنين وهم الخاسرون في الآخرة، إذ سيفوتهم ما أعد الله لعباده من نعيم دائم، ومقام كريم. وكما بدأ القرآن حديثه مع اليهود بندائهم بأحب أسمائهم إليهم، فقد اختتمه - أيضاً - بهذا النداء فقال:

يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي
 أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَأَتَّقُوا يَوْمًا
 لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا
 شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

ففي هاتين الآيتين تكرير لتذكير بني إسرائيل بما سبق أن ذكروا به في صدر الحديث معهم في هذه السورة، وذلك لأهمية ما ناداهم من أجله وأهمية الشيء تقتضي تكرار الأمر به إبلاغاً في الحجة وتأكيداً للتذكيرة.

قال القاضي: ولما صدر القرآن قصة بني إسرائيل بذكر النعم والقيام بحقوقها والحذر من إضاعتها، والخوف من الساعة وأهوالها، كرر ذلك وختم به الكلام معهم، مبالغاً في النصح وإيداناً بأنه فذلكة القضية، والمقصود من القصة.

هذا وبعد أن ذكر الله - تعالى - في الآيات السابقة نعمه على بني إسرائيل، وبين كيف كانوا يقابلون النعم بكفر وعناد، ويأتون منكرات في الأقوال والأعمال، وختم الحديث معهم بإنذار بالغ. وتذكير بيوم لا يغني فيه أحد عن أحد شيئاً، بعد كل ذلك واصل القرآن حديثه عن

قصة إبراهيم - عليه السلام - لأنهم هم والمشركون ينتمون إليه ويقرون بفضله، فقال - تعالى - :

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ

فَاتَّمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا

يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾

والابتلاء : الاختبار. أى. اختبره ربه - تعالى - بما كلفه به من الأوامر والنواهي، ومعنى اختبار الله - تعالى - لعبده، أن يعامله معاملة المختبر مجازاً، إذ حقيقة الاختبار محالة عليه - تعالى - لعلمه المحيط بالأشياء والله - تعالى - تارة يجتبر عباده بالضرأ ليصبروا. وتارة بالسرأ ليشكروا وفي كلتا الحالتين تبدو النفس البشرية على حقيقتها.

وفي إسناد الابتلاء إلى الرب إشعار للتالى أو للسامع بأنه ابتلاه بما ابتلاه به تربية له، وتقوية لعزمه، حتى يستطيع النهوض بعظام الأمور.

وقد اختلف المفسرون في تعيين المراد بالكلمات التى اختبر الله بها نبيه إبراهيم - عليه السلام - على أقوال كثيرة.

قال ابن جرير : « ولا يجوز الجزم بشيء مما ذكره منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع. قال : ولم يصح فى ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذى يجب التسليم له، ولعل أرجح الآراء فى المراد بهذه الكلمات، أنها الأوامر التى كلفه الله بها، فأتى بها على أتم وجه ».

وقوله : ﴿فَاتَّمَّهُنَّ﴾ أى أتى بهن على الوجه الأكمل، وأداهن أداء تاماً يليق به - عليه السلام - ولذا مدحه الله بقوله : ﴿وإبراهيم الذى وفى﴾.

وجيء بالفاء فى ﴿فَاتَّمَّهُنَّ﴾ للدلالة على الفور والامثال. وذلك من شدة العزم، وقوة اليقين.

وفى إجمال القرآن لتلك الكلمات التى امتحن الله بها إبراهيم، وفى وصفه له بأنه أتمهن، إشعار بأنها من الأعمال التى لا ينهض بها الا ذو عزم قوى يتلقى أوامر ربه بحسن الطاعة وسرعة الامثال.

وقدم المفعول وهو لفظ إبراهيم؛ لأن المقصود تشريف إبراهيم بإضافة اسم الرب إلى اسمه مع مراعاة الإيجاز، فلذلك لم يقل وإذ ابتلى الله إبراهيم.

وجملة ﴿قال إني جاعلك للناس إماماً﴾ مستأنفة لبيان ما من الله به على إبراهيم من الكرامة ورفعته المقام، بعد أن ذكر - سبحانه - أنه عامله معاملة المختبر له، إذ كلفه بأمر شاقة فأحسن القيام بها.

جاعلك: من جعل يعنى صير. والإمام: القدوة الذى يؤتم به فى أقواله وأفعاله. والمراد بالإمامة هنا: الرسالة والنبوة، فإنها أكمل أنواع الإمامة، والرسول أكمل أفراد هذا النوع، وقد كان إبراهيم - عليه السلام - رسولا يقتدى به الناس فى أصول الدين ومكارم الأخلاق.

وقال: ﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾ ولم يقل: «إني جاعلك للناس رسولا، ليكون ذلك دالا على أن رسالته تنفع الأمة المرسل إليها بطريق التبليغ، وتنفع غيرهم من الأمم بطريق الاقتداء، فان إمامة إبراهيم - عليه السلام - قد رحل إلى آفاق كثيرة، فانتقل من بلاد الكلدان إلى العراق، وإلى الشام، وإلى الحجاز، وإلى مصر وكان فى جميع منازل أسوة حسنة لغيره. وقد مدح القرآن إبراهيم فى كثير من آياته، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾.

وجملة ﴿قال ومن ذريتي﴾ واقعة موقع الجواب عما من شأنه أن يخطر فى نفس السامع، فكأنه قال: وماذا كان من إبراهيم عندما تلقى من ربه تلك البشارة العظمى؟ فكان الجواب أن إبراهيم قد التمس الإمامة لبعض ذريته أيضاً.

أى: قال إبراهيم: واجعل يارب من ذريتي أئمة يقتدى بهم.

وقد رد الله - تعالى - على قول إبراهيم بقوله: ﴿قال لا ينال عهدى الظالمين﴾.

ولمّا قال إبراهيم ومن ذريتي ولم يقل وذريتي، لأنه يعلم أن حكمة الله من هذا العالم لم تجر بأن يكون جميع نسل أحد ممن يصلحون لأن يقتدى بهم فلم يسأل ما هو غير مألوف عادة، لأن سؤال ذلك ليس من آداب الدعاء.

أى: قال الله لإبراهيم: قد أجبتك وعاهدتك بأن أحسن إلى ذريتك لكن لا يصيب عهدى الذى عهدته إليك بالإمامة الذين ظلموا منهم، فالعهد هنا بمعنى الإمامة المشار إليها فى قوله: ﴿جاعلك للناس إماماً﴾.

وفى هذه الجملة الكريمة إيجاز بديع، إذ المراد منها إجابة طلب إبراهيم من الإنعام على بعض ذريته بالإمامة كما قال - تعالى -:

﴿وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب﴾ ولكنها تدل صراحة على أن الظالمين من ذريته ليسوا

أهلاً لأن يكونوا أئمة يقتدى بهم، وتشير إلى أن غير الظالمين منهم قد تنالهم النبوة، وقد نالت من ذريته إسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وغيرهم من الأنبياء.

قال - تعالى - : ﴿وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾ .
ثم تحدث القرآن بعد ذلك عن مكانة البيت الحرام، وعن قصة بنائه، وعن الدعوات الخاشعات التي كان إبراهيم يتضرع بها إلى الله عند رفعه البيت فقال :

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ
وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ
السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ
أَهْلَهُ مِن الشَّرَارِ مِنِّي ؕ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ
فَأُمْتِعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ اضْطَرْهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾
وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ
مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ
لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا
إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا
مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

وقوله - تعالى - : ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ معطوف على قوله - تعالى - :
﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ﴾ .

وجعلنا: بمعنى صيرنا. والبيت: المقصود به الكعبة، إذ غلب استعمال البيت فيها حتى صار اسماً لها.

ومثابة للناس: مرجعاً للناس يرجعون إليه من كل جانب، وهو مصدر ميمي من ثاب القوم إلى المكان رجعوا إليه. فهم يثوبون إليه ثوباً وثوباناً، أو معاذاً لهم يلجأون إليه أو موضع ثواب يثابون بحججه واعتماره.

والأمن: السلامة من الخوف، وأمن المكان: اطمئنان أهله به، وعدم خوفهم من أن ينالهم فيه مكروه فالبيت مأمّن، أى موضع أمن. وأخبر - سبحانه - بأنه جعله أمناً ليدل على كثرة ما يقع به من الأمن حتى صار كأنه نفس الأمن.

وكذلك صار البيت الحرام محفوظاً بالأمن من كل ناحية، فقد كان الناس في الجاهلية يقتتلون ويعتدى بعضهم على بعض من حوله، أما أهله فكانوا في أمان واطمئنان. قال تعالى: ﴿أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم﴾ وقال - تعالى - : ﴿فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً﴾.

وقد أقرت تعاليم الإسلام هذه الحرمة للبيت الحرام على وجه لا يضيع حقاً ولا يعطل حدّاً، وزادت في تكريمه وتشريفه بأن جعلت الحج إليه فريضة على كل قادر عليها.

قال الإمام ابن كثير: «ومضمون ما فسر به العلماء هذه الآية أن الله تعالى يذكر شرف البيت وما جعله موصوفاً به شرعاً وقدرًا من كونه مثابة للناس. أى: جعله محلاً لتشتاق إليه الأرواح وتحن إليه ولا تقضى منه وطراً ولو ترددت إليه في كل عام استجابة من الله - تعالى - لدعاء خليله إبراهيم في قوله تعالى: ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم﴾ ويصفه - تعالى - بأنه جعله أمناً من دخله أمن ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان آمناً، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كان الرجل يلقي قاتل أبيه أو أخيه فيه فلا يعرض له:

﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ الاتخاذ: الجعل، تقول اتخذت فلاناً صديقاً أى: جعلته صديقاً. والمقام في اللغة: موضع القدمين من قام يقوم، ومقام إبراهيم: هو الحجر الذى كان إبراهيم يقوم عليه عند بناء الكعبة لما ارتفع الجدار، وهو - على المشهور - تحت المصلى المعروف الآن بهذا الاسم.

ومعنى اتخذ مصلى منه: القصد إلى الصلاة عنده. فقد ورد في الحديث الصحيح الذى رواه الإمام مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ طاف بالبيت سبعا وصلّى خلف المقام ركعتين».

ومن العلماء من فسر مقام إبراهيم بالمسجد الحرام، ومنهم من أطلقه على الكعبة لأن إبراهيم كان يقوم عندها لعبادة الله تعالى.

قال الإمام ابن كثير: «وقد كان هذا المقام - أي الحجر الذي يسمى مقام إبراهيم - ملصقًا بجدار الكعبة قديمًا، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر على يمين الداخل من الباب في البقعة المستقلة هناك، وكان الخليل - عليه السلام - لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة.. ثم قال: وإنما أخره عن جدار الكعبة إلى موضعه الآن عمر - رضي الله عنه - ولم ينكر ذلك عليه أحد من الصحابة^(١) :

ثم قال - تعالى - : ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾.

عهدنا : أمرنا وأوحينا، و﴿أن﴾ مفسرة المأمور به أو الموصى به المشار إليه بقوله : ﴿عهدنا﴾ أي : أوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي.

وأضاف - سبحانه - البيت إليه للتشريف والتكريم ومعنى تطهيره : صيانته من كل ما لا يليق ببيوت الله من الأقدار والأرجاس والأوثان وكل ما كان مظنة للشرك، فالمقصود تطهيره من كل رجس حسي ومعنوي.

والطائفين : جمع طائف من طاف يطوف طوفًا وطوافًا إذا دار حول الشيء والمراد بهم : المتقربون إلى الله بالطواف حول الكعبة.

والعاكفين : جمع عاكف، من عكف على الشيء عكوفًا إذا أقام عليه ملازمًا له، والمراد بهم : المقيمون في الحرم بقصد العبادة، ويدخل في العبادة مدارس العلوم الدينية وما يساعد على فهمها.

والركع السجود : الركع جمع راع، والسجود : جمع ساجد.

والركوع والسجود من هيئات الصلاة وأركانها، فمعنى «والركع السجود» المصلون. فالآية الكريمة جمعت أصناف العابدين في البيت الحرام : وهم الطائفون وإن لم يكونوا مقيمين، كمن يأتون لحج أو عمرة ثم ينصرفون.

والعاكفون الذين يقيمون في الحرم بقصد الإكثار من العبادة في المسجد الحرام. والمصلون يتقربون إلى الله بالصلوات سواء أكانت فرائض أم نوافل.

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٧٠.

ولم يعطف السجود على الركع، لأن الوصفين متلازمان ولو عطف لبتوهم أنهما وصفان مفترقان.

ثم ساق القرآن بعد ذلك نماذج من الدعوات التي تضرع بها إبراهيم إلى ربه فقال: ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدًا آمنًا﴾ أى: أضرع إليك يا إلهي أن تجعل الموضع الذي فيه بيتك مكانًا يأنس إليه الناس، ويأمنون فيه من الخوف، ويجدون فيه كل ما يرجون من أمان واطمئنان.

والمشار إليه بقوله: ﴿هذا﴾ مكة المكرمة. والبلد كل قطعة من الأرض عامرة أو غامرة. والمقصود بالدعاء إنما هو أمن أهله لأن الأمن والخوف لا يلحقان البلد، وإنما يلحقان أهل البلد.

قال الإمام الرازي: وإنما قال هنا ﴿بلدًا آمنًا﴾ على التنكير، وقال في سورة إبراهيم ﴿رب اجعل هذا البلد آمنًا﴾ على التعريف لوجهين:

الأول: أن الدعوة الأولى وقعت ولم يكن المكان قد جعل بلدًا، كأنه قال: اجعل هذا الوادي بلدًا آمنًا. والدعوة الثانية وقعت وقد جعل بلدًا، فكأنه قال: اجعل هذا المكان الذي صيرته بلدًا ذا أمن وسلامة.

الثاني: أن تكون الدعوتان وقعتا بعد ما صار المكان بلدًا، فقوله: ﴿اجعل هذا بلدًا آمنًا﴾ تقديره: أجعل هذا البلد بلدًا آمنًا كقولك: كان اليوم يومًا حارًا، وهذا إنما تذكره للمبالغة في وصفه بالحرارة، لأن التنكير يدل على المبالغة فقوله: رب اجعل هذا البلد بلدًا آمنًا معناه: اجعله من البلدان الكاملة في الأمن. وأما قوله: ﴿رب اجعل هذا البلد آمنًا﴾ فليس فيه إلا طلب الأمن لا طلب المبالغة^(١).

أما الدعوة الثانية التي توجه بها إبراهيم إلى ربه من أجل أهل مكة فقد حكاها القرآن في قوله:

﴿وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾.

أى: كما أسألك يا إلهي أن تجعل هذا لبلد بلدًا آمنًا. أسألك كذلك أن ترزق المؤمنين من أهله من الثمرات ما يسد حاجاتهم، ويغنيهم من الاحتياج إلى غيرك. وقوله: «ارزق» مأخوذ من رزقه يرزقه إذا أعطاه ما ينتفع به من مأكول وغيره.

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١ ص ٤٧٦.

والثمرات : جمع ثمرة، وهى ما يحملها شجر أو زرع أو غيره من النبات. وإنما طلب إبراهيم - عليه السلام - من الله أن يجعل مكة بلدا آمنا، وأن يرزق أهلها من الثمرات بما يغنيهم لأن البلد إذا امتدت إليه ظلال الأمن، وكانت مطالب الحياة فيه ميسرة، أقبل أهله على طاعة الله بقلوب مطمئنة وتفرغوا لذلك بنفوس مستقرة.

وقال فى دعائه : ﴿من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾ لأن أهل مكة قد يكون من بينهم كافرون، فأراد تخصيص المؤمنين منهم بدعائه، لذا أتبع قوله : ﴿وارزق أهله﴾ بقوله : ﴿من آمن منهم﴾ على وجه البديل فصار المعنى وارزق المؤمنين من أهله على ما تقتضيه القاعدة العربية من أن البديل وهو هنا ﴿من آمن﴾ هو المقصود بطلب الرزق.

وخص إبراهيم المؤمنين بطلب الرزق لهم حرصاً على شيوع الإيمان بين سكان مكة، لأنهم إذا علموا أن دعوة إبراهيم إنما هى خاصة بالمؤمنين تجنبوا ما يبعدهم عن الإيمان، أو أنه خص المؤمنين بذلك تأدباً مع الله - تعالى - إذ سأله سؤالاً أقرب إلى الإجابة، ولعله استشعر من رد الله عليه عموم دعائه السابق إذ قال : ﴿ومن ذريتي﴾ فقال : ﴿لا ينال عهدى الظالمين﴾ أن غير المؤمنين ليسوا أهلاً لإجراء رزق الله عليهم.

واقصر على ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر فى التعبير عن المؤمنين لأن الإيمان بالله واليوم الآخر لا يقع على الوجه الحق إلا إذا صاحبه الإيمان بكتب الله ورسله وملائكته.

ثم بين - سبحانه - مصير الكافرين فقال: ﴿قال ومن كفر فأمته قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾.

الضمير فى ﴿قال﴾ يعود إلى الله - تعالى - ومن فى قوله ﴿ومن كفر﴾ منصوب بفعل مقدر دل عليه «فأمته». والمعنى : قال الله وأرزق من كفر وإيراد المتكلم قولاً من عنده معطوفاً على قول متكلم آخر مألوف فى اللغة العربية، ويحسن موقعه عندما يقتضى المقام إيجازاً فى القول، ولولا هذا العطف لكان المعنى متطلباً لأن يقال : قال الله أرزق من آمن ومن كفر.

و﴿أمته﴾ : من التمتع وهو إعطاء ما ينتفع به. و﴿قليلاً﴾ : وصف لمصدر محذوف فى النظم، والمعنى : أمته تمتعاً قليلاً. ووصف التمتع فى الدنيا بالقليلة، لأنه صائر إلى نفاذ وانقطاع.

و﴿أضطره﴾ أى الجثة وأسوقه بعد متاعه فى الدنيا إلى عذاب لا يمكنه الإنفكاك عنه وجملة «ثم أضطره إلى عذاب النار» احتراس من أن يغتر الكافر بأن تحويله النعم فى الدنيا يؤذن برضا الله فلذلك ذكر العذاب هنا.

﴿وبش﴾ فعل يستعمل لدم المرفوع بعده، وهو ما يسميه النحاة بالمخصوص بالذم، ووردت هنا لدم النار المقدرة في الجملة، والمعنى: بش المصير النار. أى أنها مصير سىء كما قال تعالى في آية أخرى.

﴿إنها ساءت مستقرًا ومقامًا﴾.

وقد أفادت الآية الكريمة أن الله يرزق الكافر في الدنيا كما يرزق المؤمن وإذا كان إمتاع المؤمن بالرزق لأنه أهل لأن ينعم عليه بكل خير، فإمتاع الكافر بالرزق له حكم منها استدراجه المشار إليه بقوله تعالى:

﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ ولو خص الله المؤمنين بالتوسعة في الرزق وحرم منها الكافرين لكان هذا التخصيص سائقًا للكافرين إلى الإيمان على وجه يشبه الإلجاء. وقد قضت حكمته - تعالى - أن يكون الإيمان اختياريًا حتى ينساق الإنسان من طريق النظر في أدلة عقلية يبصر بها أقوام ولا يبصر بها آخرون.

ثم حكى القرآن دعوة ثالثة تضرع بها إبراهيم إلى ربه فقال: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾.

القواعد: جمع قاعدة، وهى أساس البناء الموالى للأرض، وبها يكون ثبات البناء. ورفعها: إبرازها عن الأرض بالبناء عليها. والمراد بالبيت الكعبة.

والتقبل: القبول، وقبول الله للعمل أن يرضاه أو يثيب عليه.

والمعنى: واذكر يا محمد ما صدر من الرسولين الكريمين إبراهيم وإسماعيل فقد كانا وهما يقومان يرفع قواعد الكعبة يتضرعان إلى ويقولان: ياربنا تقبل منا أقوالنا وأعمالنا، إنك أنت السميع العليم.

وتصدير الدعاء بندائه - سبحانه - باسم الرب المضاف إلى ضميرهما مظهر من مظاهر خضوعهما، وإجلالهما لمقامه، والخضوع له - سبحانه -، وإجلال مقامه من أسنى الآداب التى تجعل الدعاء بمقربة من الاستجابة.

وعبر بالمضارع فقال: ﴿وإذ يرفع﴾ مع أن رفع القواعد كان قبل نزول الآية، وذلك ليخرجه في صورة الحاضر في الواقع لأهميته.

وختما دعاءهما بذكر اسمين من أسمائه الحسنى، ليؤكد أن رجاءهما في استجابة دعائهما وثيق، وأن ما عملاه ابتغاء مرضاته جدير بالقبول. لأن من كان سميحاً عليماً بنيات الداعين وصدق ضمائرهم، كان تفضله باستجابة دعاء المخلصين في طاعته غير بعيد.

ثم حكى القرآن جملة من الدعوات الخاشعات، التي توجه بها إبراهيم وإسماعيل إلى الله - تعالى - فقال: ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك﴾ :

مسلمين من الإسلام، وهو الخضوع والإذعان، وقد كانا خاضعين لله مذعنين في كل حال، وإنما طلبا الثبات والدوام على ذلك، والإسلام الذي هو الخضوع لله بحق وإنما يتحقق بعقيدة التوحيد، وتحرى مارسه الشارع في العبادات والمعاملات، والإخلاص في أداء ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه.

وقوله: ﴿ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾ معناه: واجعل ياربنا من ذريتنا أمة مخلصه وجهها إليك، مذعنة لأوامرك ونواهيك.

ومن (من) للتبويض، أو للتعين كقوله: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم﴾. وإنما خص الذرية بالدعاء لأنهم أحق بالشفقة، ولأنهم إذا صلحوا صلح بهم الأتباع؛ ولأن صلاح الذرية مرغوب فيه طبعاً، والدعاء لهم بالصلاح مرغوب فيه شرعاً، وقد حكى القرآن من دعاء الصالحين قوله - تعالى -:

﴿ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً﴾

﴿وأرنا مناسكنا﴾ أى: علمنا شرائع ديننا وأعمال حجنا، كالطواف والسعى والوقوف. أو متعبداتنا التي تقام فيها شرائعنا، كمنى، وعرفات، وتجوها.

والمناسك: جمع منسك - بفتح السين وكسرها - بمعنى الفعل ويعنى الموضع من النسك - مثلثة النون وبضمها وضم السين - وهو غاية العبادة والطاعة، وشاعت تسمية أعمال الحج بالمناسك كالطواف والسعى وغيرها.

﴿وتب علينا﴾ تسند التوبة إلى العبد فيقال: تاب فلان إلى الله ومعناها الندم على ما لايس من الذنب، والإقلاع عنه، والعزم على عدم العود إليه، ورد المظالم إن استطاع، أو نية ردها إن لم يستطع وتسند إلى الله فيقال: تاب الله على فلان، ومعناها حينئذ توفيقه إلى التوبة، أو قبولها منه. فمعنى ﴿وتب علينا﴾ وقفنا للتوبة أو تقبلها منا.

والتوبة تكون من الكبائر والصغائر، وتكون من ترك ما هو أولى أو من تقصير يؤدي إلى خطأ في الاجتهاد، وعلى أحد هذين الوجهين، تحمل التوبة التي يسأل الأنبياء والمرسلون ربهم قبولها أو التوفيق لها.

﴿إنك أنت التواب الرحيم﴾ التواب: كثير القبول لتوبة المنيين إليه، وقبول توبتهم يقتضى عدم مؤاخذتهم بما يأتونه من سيئات، ثم بعد تخلصهم من عقوبة الخطيئة أو المعاتبة عليها ينتظرون من رحمة الله أن تحفهم بإحسان.

وإبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - قد طلبا قبول توبتهما صراحة في قولهما ﴿وتب علينا﴾ ولوحا إلى طلب الرحمة بذكر اسمه الرحيم، إذ الرحمة صفة من أثرها الإحسان، فكأنهما قالا: تب علينا وارحمنا، وهذا من أكمل آداب الدعاء وأرجاها للقبول عند الله تعالى.

ثم ختم إبراهيم وإسماعيل دعواتهما بتلك الدعوة التي فيها خيرهم في الدنيا والآخرة، فقالا - كما حكى القرآن عنهما:

﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾.

الضمير في قوله: ﴿منهم﴾ يعود إلى الذرية أو الأمة المسلمة في قوله: ﴿ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾.

والرسول: من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه: وتلاوة الشيء: قراءته والمراد بقوله تعالى: ﴿يتلو عليهم آياتك﴾ يقرؤها عليهم قراءة تذكير وفي هذا إيماء إلى أنه يأتيهم بكتاب فيه شرع. والآيات: جمع آية، والمراد بها ما يشهد بوحدانية الله، وبصدق رسوله ﷺ فيما يبلغه عنه، أو المراد بها آيات القرآن الكريم فهو يتلوها عليهم ليحفظوها بألفاظها كما نزلت، ويتعبدوا بتلاوتها، وليعرفوا من فضل بلاغتها وروعة أساليبها وجهاً مشرقاً من وجوه إعجازها.

والكتاب: القرآن، وتعلمه يكون بيان معانيه وحقائقه، ليعرفوا ما أقامه لهم من دلائل التوحيد وما اشتمل عليه من أحكام وحكم ومواعظ وآداب.

والحكمة: العلم النافع المصحوب بالعمل الواقع موقعه اللائق به. ووضعها بجانب الكتاب يرجح أن المراد بها السنة النبوية المطهرة التي تنتظم أقوال النبي ﷺ وأفعاله، إذ بالكتاب وبالسنة يعرف الناس أصلح الأعمال، وأعدل الأحكام وأسنى الآداب، وتنتفع لهم طرق التفقه في أسرار الدين ومقاصده.

ويزكيهم: أى يطهرهم من أرجاس الشرك ومن كل ما لا يليق بالتبليس به ظاهراً أو باطناً. يقال: زكاه الله، أى طهره وأصلحه، ومنه زكاة المال لتطهره بها، وأصل الزكاة - بالمد - النماء والزيادة، يقال: زكا الزرع زكاء وزكوا، أى نما.

والمعنى: ونسألك ياربنا أن تبعث في الأمة المسلمة، أو في ذريتنا رسولا منهم يقرأ عليهم آياتك الدالة على وحدانيتك، ويعلمهم كتابك بأن يبين لهم معانيه، ويرشدهم إلى مافيه من حكم ومواعظ وآداب، كما يهديهم إلى الحكمة التي تتمثل في اتباع سنة نبيك - والتي بها يتم التفقه في الدين ومعرفة أسرار وحكمه ومقاصده، والتي يكمل بها العلم بالكتاب إنك يامولانا أنت العزيز الحكيم.

أى القادر الذى لا يغلب على أمره، العالم الذى يدبر الأمور على وفق المصلحة، ومن كان قادراً على كل ما يريد، عليهما بوجوه المصالح، كانت استجابته قريبة من دعاء الخير الصادر عن إخلاص وابتهاال.

وقد جاء ترتيب هذه الجمل فى أسمى درجات البلاغة والحكمة؛ لأن أول تبليغ الرسالة يكون بتلاوة القرآن ثم بتعليم معانيه، ثم بتعليم العلم النافع الذى تحصل به التزكية والتطهير من كل ما لا يليق التلبس به فى الظاهر، أو الباطن.

وقد سأل إبراهيم وإسماعيل ربهما أن تكون بعثة الرسول فى ذريتهما فيكون أمر الإيمان قريباً منهم، فإن نشأته بينهم، ومعرفة سيرته قبل الرسالة وشهادتهم له بالصدق والأمانة، وكل ذلك يحمل العقلاء على المبادرة إلى تصديقه فيما يبلغه عن ربه.

ولقد حقق الله تعالى دعوة هذين النبيين الكريمين، فأرسل فى ذريتهما رسولا منهم، وهو محمد ﷺ أرسله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً.

وقد أخبر ﷺ أنه دعوة إبراهيم، فقال: (أنا دعوة أبى إبراهيم، وبشارة عيسى بى، ورؤيا أمى التى رأت، وكذلك أمهات المؤمنين يرين).

ثم عرض القرآن بعد ذلك بالجاحدين والمعاندين الذين تركوا الحق الواضع الذى هو ملة إبراهيم فقال:

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ

مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا
وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ
قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ
وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا
وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٢٢﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ
الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ

إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا
وَحِيدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا
مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾ معناه : لا أحد من الناس يكره ملة إبراهيم وينصرف عنها إلى الشرك بالله، إلا من امتهن نفسه، واستخف بها وظلمها بسوء رأيه حيث ترك طريق الحق إلى طريق الضلالة.

يقال يرغب في كذا إذا أراهه، ورغب عن كذا إذا كرهه وانصرفت عنه نفسه والملة في الأصل الطريقة، وغلب إطلاقها على أصول الدين من حيث إن صاحبها يصل عن طريقها إلى دار السلام وسفه نفسه امتنها واستخف بها.

ثم بين الله - تعالى - منزلة نبيه إبراهيم - عليه السلام - وخطأ من يرغب عن طريقته المثلى فقال تعالى : ﴿ولقد اصطفينا في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ أى : ولقد اخترناه للرسالة وهداية الناس وإرشادهم في الدنيا، وإنه في الآخرة لمن الصالحين المستقيمين على الطريقة المثلى. فمن يرغب عن ملة من هذا شأنه إلى غيرها من طرق الضلال لا يماثله أحد في سفهه وسوء رأيه.

ثم بين الله تعالى كمال استقامة إبراهيم التي رفعتة إلى المنازل العليا فقال تعالى ﴿إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين﴾ أى : اصطفى الله - تعالى - إبراهيم لأنه أمره بطاعته وإسلام وجهه إليه في كل حال فبادر إلى الامثال وقال ﴿أسلمت لرب العالمين﴾ أى : أخلصت ديني لله الذى فطر الخلق جميعاً. كما حكى عنه القرآن الكريم نحو هذا القول في قوله تعالى : ﴿إني وجهت وجهي للذى فطر السموات والأرض حنيئاً وما أنا من المشركين﴾.

ويعد أن بين الله - تعالى - أن إبراهيم - عليه السلام - كان كاملاً في نفسه، أتبع ذلك بيان أنه كان - أيضاً - يعمل على تكميل غيره، ودعوته إلى توحيد الله تعالى. فقال - سبحانه - : ﴿ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾.

الضمير في «بها» يعود إلى الملة ذكرت قبل ذلك في قوله تعالى : ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم﴾ والمعنى : ووصى إبراهيم بنيه باتباع ملته ويعقوب كذلك أوصى بنيه باتباعها، فقال

كلّ منها لأبنائه : يابني إن الله اصطفى لكم دين الإسلام، الذي لا يقبل الله ديناً سواه ﴿ فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ أى : فآثبوا على الإسلام . واستقيموا على أمره حتى يدرككم الموت وأنتم مقيمون على هذا الدين الخنيف .

ثم أنكر القرآن الكريم على اليهود افتراءهم على يعقوب وزعمهم أنه كان على اليهودية التي أقاموا عليها تاركين دين الإسلام فقال تعالى : ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي ﴾ .

روى أن اليهود قالوا للنبي ﷺ ألسنت تعلم أن يعقوب أوصى بنيه باليهودية، فنزلت هذه الآية الكريمة (١).

والمعنى : ما كنتم - يامعشر اليهود - حاضرين وقت أن أشرف يعقوب على الموت، ووقت أن قال لبنيه حينئذ ﴿ ما تعبدون من بعدي ﴾ فكيف تدعون أنه كان على اليهودية التي أنتم عليها وأنه أوصى بها بنيه ؟ ومراد يعقوب - عليه السلام - من هذا السؤال أخذ الميثاق عليهم بالثبات على ملة أبيهم إبراهيم من بعده، لكي يسعدوا في دنياهم وأخراهم، وقد أجابوه بما يدل على رسوخ إيمانهم إذ قالوا : ﴿ نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهًا واحدًا ونحن له مسلمون ﴾ .

وهذا الجواب يتضمن أنهم متمسكون بملة إبراهيم - عليه السلام - وهي ملة لا تثلث فيها ولا تشبيه بمخلوق، وإنما هي أفراد الله - تعالى - بالعبودية والاستسلام له بالخضوع والانقياد . ثم حذر الله - تعالى - أهل الكتاب من ترك طاعته اتكالا على انتسابهم لأبائهم كانوا أنبياء أو صالحين فقال تعالى : ﴿ تلك أمة قد خلت، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ .

الإشارة (بتلك) إلى إبراهيم وبنيه، أى أن إبراهيم وذريته، أمة قد مضت وانقرضت، لها جزء ما كسبت من خير أو شر، ولا تسألون يوم القيامة عن أعمالهم في الدنيا فلا يقال لكم على وجه المحاسبة لم عملوا كذا وإنما ستسألون عن أعمالكم وحدها فأصلحوها وحسنوها، وآمنوا بمحمد ﷺ الذي هو دعوة إبراهيم - عليه السلام - وعلى دينه وملته .

فالآية الكريمة واردة لتقرير سنة من سنن الله العامة في خلقه وهي أن لكل نفس وحدها ثواب ما كسبت من خير وعليها وحدها يقع عقاب ما اكتسبت من شر . وبذلك تكون الآيات

(١) أسباب النزول للنيسابورى طبعة الحلبي ص ٢٢ .

الكريمة قد بينت بوضوح لبني إسرائيل وغيرهم أن ملة إبراهيم الإسلام وأنه هو ويعقوب - عليها السلام - قد أوصيا أبناءهما بأن يثبتوا على هذه الملة حتى الموت، وأن أبناء يعقوب قد عاهدوه عند موته أن يستمروا على ملته وملة إبراهيم عليهما السلام.

وهذا الذي بينته الآيات الكريمة يطابق ما دعاهم إليه محمد ﷺ وهو الإيمان بالله - تعالى - وتصديق رسوله واتباع تعاليم الإسلام.

وفي القرآن الكريم آيات أخرى صرحت بأن الإسلام اسم للدين الذي دعا إليه كل الأنبياء، وانتسب إليه أتباعهم، فنوح قال لقومه: ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾^(١).

وموسى قال لقومه: ﴿يا قوم إن كنتم آمتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾^(٢) والحواريون قالوا لعيسى - عليه السلام -: ﴿آمننا بالله وأشهد بأننا مسلمون﴾^(٣). بل إن فريقاً من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن أشرفت قلوبهم لدعوته وقالوا: ﴿آمننا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين﴾^(٤).

وإلى هنا تكون قد ذكرنا بعض الآيات الكريمة التي أرشدت إلى أن ما جاء به محمد ﷺ يطابق ما جاء به الأنبياء السابقون، فعليهم أن يؤمنوا به ويصدقوا، لأن كفرهم به كفر بجميع الرسل السابقين.

وقبل أن نختم هذا الموضوع ننبه إلى مسألة مهمة. وهي أن ما جاء به النبي ﷺ يطابق - كما قلنا - ما جاء به الأنبياء قبله في أصول الدين ووكلياته كتوحيد الله - تعالى - واختصاصه بالعبادة، وتصديق الأنبياء السابقين فيما أتوا به عن الله - تعالى - والإيمان بالبعث وما يكون فيه من نعيم وعذاب والحض على مكارم الأخلاق، أما ما عدا ذلك مما يتعلق بتفاصيل العبادات وأحكام المعاملات فإن الشرائع تختلف فيه بوجه عام حسب ما يتناسب وحالة الأمة التي بعث الله لها رسولا من لدنه كما قال تعالى ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾.

ومن هنا جاءت الشريعة الإسلامية بما لم يكن موجوداً في الشرائع السابقة، ومن مظاهر ذلك أن القرآن الكريم أعلن للناس، أن محمداً ﷺ من مميزات شريعته أنها أحلت للناس كل الطيبات وحرمت عليهم كل الخبائث ووضعت عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم وشرعت لهم أموراً تتعلق بعباداتهم ومعاملاتهم امتازت باليسر والتخفيف.

(٢) سورة يونس الآية ٨٤.

(٤) سورة القصص الآية ٥٣.

(١) سورة يونس الآية ٧٢.

(٣) سورة آل عمران الآية ٥٢.

ويعجبني في هذا المقام قول فضيلة أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبد الله دراز: (يجب أن يفهم - أن تعديل الشريعة المتأخرة للمتقدمة - ليس نفضاً لها، وإنما وقوفاً بها عند وقتها المناسب وأجلها المقدر).

مثل ذلك كمثّل ثلاثة من الأطباء جاء أحدهم إلى الطفل في الطور الأول من حياته، فقصر غذاءه على اللبن، وجاء الثاني من مرحلته التالية فقرر له طعاماً ليناً، وطعاماً نشويماً خفيفاً، وجاء الثالث في المرحلة التي بعدها فأمر له بغذاء قوى كامل.

لا ريب أن ها هنا اعترافاً ضمناً من كل واحد منهم بأن صاحبه كان موفقاً كل التوفيق في علاج الحالة التي عرضت عليه، نعم إن هناك قواعد صحية عامة في النظافة والتهوية والتدفئة ونحوها، لا تختلف باختلاف الأسنان فهذه لا تعديل فيها ولا تبديل، ولا يختلف فيها طب الأطفال والناشئين عن طب الكهول الناضجين.

هكذا الشرائع السماوية، كلها صدق وعدل في جملتها وتفصيلها، وكلها يصدق بعضها بعضاً من ألفها إلى يائها، ولكن هذا التصديق على ضربين.

تصديق للقديم مع الإذن ببقائه واستمراره، وتصديق له مع إبقائه في حدود ظروفه الماضية، ذلك أن التشريعات السماوية تحتوي على نوعين من التشريعات.

(تشريعات خالدة) لا تتبدل بتبديل الأصقاع والأوضاع (كالوصايا التسع ونحوها).
و(تشريعات موقوتة) بأجال طويلة أو قصيرة، فهذه تنتهي بانتهاء وفنها. وتجيء الشريعة التالية بما هو أوفق بالأوضاع الناشئة الطارئة.

فشريعة التوراة - مثلاً - عنيت بوضع المبادئ الأولية لقانون السلوك (لا تقتل).
(لا تسرق) فطابعتها البارز تحديد الحقوق وطلب العدل والمساواة.

وشريعة الإنجيل تجيء بعدها فتقرر هذه الأمور، ثم تترقى فتزيد آداباً مكملة (أحسن إلى من أساء إليك).

وأخيراً تجيء شريعة القرآن فتراها تقرر كلا المبدئين في نسق واحد ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾.

هكذا كانت الشرائع السماوية خطوات متصاعدة، ولبنات متراكمة في بنيان الدين والأخلاق وسياسة المجتمع. وكانت مهمة اللبنة الأخيرة منها أن أكملت البنيان وملأت ما بقي فيه من فراغ وأنها في الوقت نفسه كانت بمثابة حجر الزاوية الذي يمسك أركان البناء.
وصدق ربهول الله ﷺ حين صور الرسالات السماوية في جملتها أحسن تصوير فقال: « مثلى

ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بينا فأحسنه وجمله إلا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة. فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين» (١).

وبذلك يتبين لنا أن مطابقة الشريعة الإسلامية لغيرها من الشرائع السابقة إنما هي في الأصول والكليات، لا في الفروع والجزئيات.

ثم حكى القرآن بعد ذلك لونا من ألوان مزاعم أهل الكتاب ورد عليها بما يبطلها فقال:

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ
حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُلُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا
أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ
مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾
فَإِنِ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا
هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ
عَبِيدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ
وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ
نَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ

(١) من بحث قيم للمرحوم الشيخ محمد عبد الله دراز موضوعه (موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها) نشر بمجلة لواء الإسلام العدد ١١ السنة ١١ ص ٦٨، وكان فضيلته قد أعد هذا البحث لإلقائه في الندوة العالمية للإسلاميات، التي انعقدت في لاهور في أواخر سنة ١٩٥٧، إلا أن المنية عاجلته قبل الإنتهاء من الندوة - فرحة الله عليه ورضوانه.

وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ
 وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ
 بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ
 وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : « قال عبد الله بن سوريا الأعور لرسول الله ﷺ ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا - يا محمد - تهتد، وقالت النصارى مثل ذلك، فأنزل الله - عز وجل - ﴿ وقالوا كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا، قل بل ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين ﴾ (١) .

ومعنى الآية الكريمة : وقالت اليهود للنبي ﷺ وللمسلمين اتركوا دينكم واتبعوا ديننا تهتدوا وتصيبوا طريق الحق . وقالت النصارى مثل ذلك قل لهم - يا محمد - ليس الهدى فى اتباع ملتكم، بل الحق فى أن تتبع ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين، فانبعوا أنتم - يا معشر أهل الكتاب - ما اتبعناه لتكونوا حقًا سالكين ملة إبراهيم الذى لا تنازعون فى هداة .
 وقوله تعالى : ﴿ وقالوا كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا ﴾ حكاية لما زعمه كل من فريقى اليهود والنصارى من أن الهدى فى اتباع ملتهم .

و (أو) للتنويع، أى قال اليهود لغيرهم لا دين إلا اليهودية ولا يتقبل الله سواها، فاتبعوها تهتدوا . وقال النصارى لغيرهم كونوا نصارى تهتدوا، إلا أن القرآن الكريم ساق هذا المعنى بقوله : ﴿ وقالوا كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا ﴾ لمعرفة السامع أن كل فريق منهم يكفر الآخر، ويعد ديانتة باطلة، كما حكى القرآن عنهم ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء ﴾ .

ثم لقن الله - تعالى - نبيه ﷺ الرد الملزم لهم، فقال تعالى : ﴿ قل بل ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين ﴾ .

الملة : الدين، والحنيف فى الأصل المائل عن كل دين باطل إلى الدين الحق ووصف به

إبراهيم - عليه السلام - ليله عن الأديان الباطلة التي كانت موجودة في عهده إلى الدين الحق الذي أوحى الله به إليه.

وذهب بعض المفسرين إلى أن حنيفاً من الحنف وهو الاستقامة.

قال الإمام الرازي: «لأهل اللغة في الحنيف قولان:

الأول: أن الحنيف هو المستقيم، ومنه قيل للأعرج أحنف تافؤلاً بالسلامة، كما قالوا للديع سليم وللمهلكة مفازة، قالوا فكل من أسلم لله ولم ينحرف عنه في شيء فهو حنيف، وهو مروى عن محمد بن كعب القرظي.

الثاني: أن الحنيف المائل، لأن الأحنف هو الذي يميل كل واحد من قدميه إلى الأخرى بأصابعها. وتحنف إذا مال، فالمعنى: إن إبراهيم - عليه السلام - حنف إلى دين الله، أي مال إليه، فقوله: ﴿بل ملة إبراهيم حنيفاً﴾ أي: مخالفاً لليهود والنصارى.

والمعنى: قل يا محمد لليهود ليس الهدى في أن نتبع ملتكم، بل الهدى في أن نتبع ملة إبراهيم المائل عن كل دين باطل إلى الدين الحق، والذي ماكان من المشركين بأى صورة من صور الشرك»^(١).

وقوله تعالى: ﴿بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ أي: بل نتبع ملة إبراهيم حنيفاً. وقد تضمن هذا القول إبطال ما ادعاه كل من اليهود والنصارى، لأن حرف (بل) يؤق به في صدر الكلام لينفي ما تضمنته الجملة السابقة، والجملة السابقة هنا هي قول أهل الكتاب ﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾ فجاءت بل بعد ذلك لتنفي هذا القول، ولتثبت أن الهداية إنما هي في اتباع ما كان عليه إبراهيم - عليه السلام - وفي اتباع من سار على نهجه وهو محمد ﷺ.

وفي هاتين الجملتين وهما قوله تعالى: ﴿بل ملة إبراهيم حنيفاً﴾. ﴿وما كان من المشركين﴾ دعوة لليهود إلى اتباع ملة إبراهيم لاستقامتها، ولبعدها عن الشرك، وفي ذلك تعريض بأن ملتهم ليست مستقيمة، بل هي معوجة، وبأن دعواهم اتباع إبراهيم لا أساس لها من الصحة؛ لأنهم أشركوا مع الله آلهة أخرى، ونسبوا إلى الله تعالى ما لا يليق به.

قال الإمام الرازي - ما ملخصه: في الآية الكريمة جواب إلزامي لهم وهو قوله تعالى ﴿بل ملة إبراهيم حنيفاً﴾ وتقرير هذا الجواب: أنه إن كان طريق الدين التقليدي، فالأولى في ذلك اتباع ملة إبراهيم لأن هؤلاء المختلفين قد اتفقوا على صحة دين إبراهيم، والأخذ بالمتفق عليه، أولى من الأخذ بالمختلف فيه.

وإن كان طريقه الاستدلال والنظر. فقد سقنا الكثير من الدلائل على أن ما جاء به محمد ﷺ هو الموافق لما جاء به إبراهيم - عليه السلام - في أصول الدين^(١).

ثم أرشد الله - تعالى - المؤمنين إلى جواب جامع وكلمة سواء تفيد نيد التعصب جانباً وتدعو إلى اتباع الوحي الإلهي الذي أرسل الله به الرسل مبشرين ومنذرين بدون تفرقة بين أحد منهم، وهو يتضمن دعوة أهل الكتاب إلى الطريق الحق فقال تعالى: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون﴾

أى: قولوا أيها المؤمنون لأولئك اليهود الذين يزعمون أن الهداية في اتباع ملتهم، قولوا لهم: ليست الهداية في اتباع ملتكم فقد دخلها الشرك والتحريف، وإنما الهداية في أن نصدق بالله، وبالقرآن الكريم الذي أنزله الله إلينا ﴿وبما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾، وبالتوراة التي أنزلها الله على موسى وبالانجيل الذي أنزله الله على عيسى، ونحن في تصديقنا بالأنبياء لا نفرق بين أحد منهم فنؤمن ببعضهم ونكفر بالآخر كما فعلتم أنتم يا معشر اليهود وإنما نؤمن بهم جميعاً بدون تفرقة بينهم، ونحن لربنا مسلمون خاضعون بالطاعة. مدعون له بالعبودية.

قال الإمام الرازي: «فإن قيل: كيف يجوز الإيمان بإبراهيم وموسى وعيسى مع القول بأن شرائعهم منسوخة؟ قلنا: نحن نؤمن بأن كل واحد من تلك الشرائع كان حقاً في زمانه، فلا يلزم منا المناقضة، أما اليهود فإنهم لما اعترفوا بنبوة بعض من ظهر المعجز على يديه، وأنكروا نبوة محمد ﷺ مع قيام المعجز على يديه، فحينئذ يلزمهم المناقضة فظهر الفرق^(٢). وقوله تعالى: ﴿قولوا آمنا بالله﴾ خطاب للمؤمنين.

والأسباط: جمع سبط، وهو الحفيد، وهم أبناء يعقوب - عليه السلام - سموا بذلك لكونهم حفدة إبراهيم وإسحق - عليهما السلام - وكانوا اثني عشر سبطاً كما قال تعالى: ﴿وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً﴾، والمراد: الإيمان بما أنزل الله من الوحي على الأنبياء منهم.

قال الإمام القرطبي: والأسباط: ولد يعقوب، وهم اثنا عشر ولداً، ولكل واحد منهم أمة من الناس، واحدهم سبط، والسبط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في ولد إسماعيل، وسموا

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٣ ص ٩١.

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ١ ص ٤١٧.

الأسباط من السبط وهو التابع، فهم جماعة متتابعون، وقيل أصله من السبط «بالتحريك» وهو الشجر، أى هم فى الكثرة بمنزلة الشجر: الواحد سبطة، ويبين لك هذا ما روى عن ابن عباس، قال: كل الأنبياء من إسرائيل إلا عشرة: نوحا وشعيبا، وهودا وصالحا ولوطا وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمدًا - صلوات الله وسلامه عليهم جميعًا»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم﴾ معناه: وآمنا - أيضًا - بالتوراة التى أعطاهها الله - تعالى - لموسى، وبالإنجيل الذى أعطاه لعيسى، وبكل ما آتاه الله لأنبيائه تصديقًا لهم فى نبوتهم.

وعطف - سبحانه - عيسى على موسى بدون إعادة الفعل لأن عيسى جاء مصدقًا للتوراة، وما نسخ منها إلا أحكامًا سيرة، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم فى قوله حكاية عنه ﴿ومصدقًا لما بين يدي من التوراة، ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم﴾.

وقدم - سبحانه - الإيمان بالله على غيره لأن الإيمان بالأنبياء. وما أنزل إليهم متوقف على الإيمان بالله.

وقدم الإيمان بما أنزل إلينا - نحن معشر المسلمين - وهو القرآن الكريم لأن الإيمان به يجب أن يكون على وجهى الإجمال والتفصيل، أما ما أنزل على الأنبياء من قبل كالتوراة والإنجيل، فيكفى الإيمان به على وجه الإجمال.

وقوله تعالى: ﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾ معناه: لا نفرق بين جماعة النبيين، فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلتم يا معشر اليهود، إذ كفرتم بعيسى ومحمد ﷺ وفعلكم هذا فى حقيقته كفر بالأنبياء جميعا لأن من كفر بواحد منهم فقد كفر بالكل، ولذلك فنحن معشر المسلمين نؤمن بجميع الأنبياء بدون تفرقة أو استثناء.

ثم بين - سبحانه - أن أهل الكتاب إن آمنوا بما دعوتهم إليه معشر المسلمين، فقد أصابوا الهدى، وإن نأوا وأعرضوا فهم معاندون مستكبرون فقال تعالى:

﴿فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيهم الله وهو السميع العليم﴾.

والفاء التى صدرت بها الآية الكريمة لترتيب ما بعدها على ما قبلها. لأن قول المؤمنين «آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم إلخ.

من شأنه أن يرقق القلوب الجاحدة، ويستميل النفوس الشاردة، لبعده عن التعصب

والعناد، لأنه الحق الذي تؤيده العقول السليمة، وإذا لم يؤمنوا به فمرد ذلك إلى شدة عنادهم والتواء أفكارهم.

وقوله تعالى: ﴿فقد اهتدوا﴾ ترغيب لهم في اتباع الحق الذي اتبعه المؤمنون، أى: فإن آمنوا مثل إيمانكم فقد اهتدوا ورشدوا.

وكلمة: (مثل) في الآية الكريمة معناها، نفس الشيء وحقيقته. المراد فإن آمنوا بنفس ما آمنتم به فقد اهتدوا، ومنه قول العرب: «مثلك لا يبخل» والمراد أنت لا تبخل. ويرى بعض المفسرين أن كلمة «مثل» هنا على حقيقتها وهى الشبية والنظير، وأن المماثلة وقعت بين الإيمانيين، وأنها لا تقتضى تعدد ما أمرنا الله أن نؤمن به.

قال الإمام القرطبي: «المعنى: فإن آمنوا مثل إيمانكم، وصدقوا مثل تصديقكم فقد اهتدوا»^(١).

وقال ابن جرير: فإن صدقوا مثل تصديقكم بجميع ما أنزل عليكم من كتب الله وأنبيائه، فقد اهتدوا فالتشبيه إنما وقع بين التصديقين والاقرارين اللذين هما إيمان هؤلاء وإيمان هؤلاء، كقول القائل: (مر عمرو بأخيك مثل ما مرت به) يعنى ذلك (مر عمرو بأخيك مثل مرورى به) والتمثيل إنما دخل تمثيلاً بين المرورين لا بين عمرو وبين المتكلم، فكذلك قوله: ﴿فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به﴾ إنما وقع التمثيل بين الإيمانيين لا بين المؤمن به^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكمهم الله وهو السميع العليم﴾ بيان لحالهم عند إعراضهم عن دعوة الحق، ووعدهم من الله - تعالى - للنبي ﷺ والمؤمنين بالنصر عليهم، والعصمة من شرورهم.

والشقاق: المنازعة والمخالفة والتعادى وأصله من الشق وهو الجانب فكان كل واحد من الفريقين فى شق غير شق صاحبه.

وقيل: إن الشقاق مأخوذ من فعل ما يشق ويصعب فكان كل واحد من الفريقين يحرص على ما يشق على صاحبه.

والمعنى: وإن أعرض هؤلاء الذين زعموا أن الهداية ميلهم عن الإيمان الذى تدعوهم إليه - يا محمد - فاعلم أن إعراضهم سببه المخالفة والمعاندة والمعاداة إذ لا حجة أوضح من حجتك، وما داموا هم كذلك فسيكفيك الله شرهم، وينصرك عليهم، فهو سميع لما يقولونه

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٤٣.

(٢) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٤٣١.

فيك، عليم بما يبيتونه لك ولأتباعك من مكر وكيد، وهو الكفيل بكف بأسهم، وقطع دابرهم. وعبر - سبحانه - عن شدة مخالفتهم بقوله: «فإنما هم في شقاق» مبالغة في وصفهم بالشقاق حيث جعله مستوليا عليهم استيلاء الظرف على ما يوضع فيه.

ورتب قوله: ﴿فسيكفيهم الله﴾ على قوله ﴿فإنما هم في شقاق﴾ تثبيتاً للنبي ﷺ والمؤمنين لأن إعلامهم أن أهل الكتاب في مخالفة ومعاداة لهم قد يحملهم على الخوف منهم بسبب كثرتهم وقوتهم، فبشر الله - تعالى - نبيه ﷺ بأنهم مهما بلغت قوتهم فلن يستطيعوا أن يصلوا إليك بأذى. وأنه - سبحانه - سيكفيك شرهم.

وقد أوفى الله - تعالى - بوعده، فنصر نبيه ﷺ عليهم وعصمه من كيدهم بإلقاء العداوة بينهم وطرد من يستحق الطرد منهم، وقتل من لا بد من قتله بسبب خيائنه وغدره. فالآية الكريمة قد تضمنت وعداً للمؤمنين بالنصر، ووعيداً لليهود ومن على شاكلتهم بالهزيمة والخيبة. ثم بين - سبحانه - بعد ذلك - أن دين الله وهو الإسلام أولى بالاتباع فقال تعالى: ﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون﴾.

الصبغة فعلة من صبغ كالجلسة من جلس وهي في أصل اللغة. الحالة التي يقع عليها الصبغ وهو تلوين الأشياء - كالثياب وغيرها - بألوان معينة واستعملت الصبغة في الآية بمعنى الإيمان بما فصلته الآية الكريمة وهي قوله تعالى قبل ذلك ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوحى موسى وعيسى﴾. الخ الآية. وإنما أطلقت الصبغة على الإيمان بما ذكرته الآية مفصلاً، لأن الإيمان يمتزج بالقلوب امتزاج الصبغ بالمصبوغ، وتبدو آثاره على المؤمنين كما تبدو آثار الصبغ على المصبوع. ويقال: تصبغ فلان في الدين إذا أحسن دينه وتقيد بتعاليمه تقيداً تاماً.

وقوله: ﴿صبغة الله﴾ هكذا بالنصب على أنه وارد مورد المصدر المؤكد لقولهم (آمنا) فإنه في معنى صبغنا الله بالإيمان، وكأنهم قالوا صبغنا الله بالإيمان صبغته. وإيراد المصدر تأكيداً لفعل يوافقه في المعنى ويخالفه في اللفظ معهود في الكلام البليغ.

قال القاضي: قوله تعالى: ﴿صبغة الله﴾ متعلق بقوله: ﴿قولوا آمنا بالله﴾ إلى قوله: ﴿ونحن له مسلمون﴾ فوصف هذا الإيمان منهم بأنه صبغة الله، ليبين أن المباينة بين هذا الدين الذي اختاره الله وبين الدين الذي اختاره المبطلون ظاهرة جلية، كما تظهر المباينة بين الألوان والأصباغ لدى الحس السليم^(١).

(١) تفسير الرازي ج ١ ص ٥٢٢.

والاستفهام في قوله تعالى: ﴿ومن أحسن من الله صبغة﴾ للإنكار والنفي والمعنى: لا أحد أحسن من الله صبغة لأنه هو الذي يصيغ عباده بالإيمان ويطهرهم من أدران الكفر والضلال، فهي صبغة ثابتة لا تزول لأن الإيمان متى خالطت بشاشته القلوب لا يترد عنه أحد سخطة له. بخلاف ما يتلقنه أهل الكتاب عن أجارهم ورهبانهم من الأديان الباطلة فهو من الصيغة البشرية، التي تجعل من الدين الواحد أديانا مختلفة ومذاهب متنافرة.

وهذا التركيب «ومن أحسن من الله صبغة» يدل بحسب أصل الوضع اللغوي على نفي أن يكون ديننا أفضل من دين الله، ويبقى احتمال أن يوجد دين يساويه في الحسن، وهذا الاحتمال لم ينفه التركيب بحسب أصل الوضع ولكن مثل هذا التركيب صار أسلوبياً يفهم منه يعونة مقام المدح نفي مساواة دين للدين الله في الحسن، كما يفهم منه نفي أن يكون هناك دين أحسن منه. وأفضلية دين الله من جهة هدايته إلى الاعتقاد الحق، والأخلاق الكريمة، والآداب السمحة والعادات الصحيحة، والسياسة الرشيدة والمعاملات القائمة على رعاية المصالح.

وقوله تعالى: ﴿ونحن له عابدون﴾ عطف على آمنا بالله في قوله تعالى: ﴿قولوا آمنا بالله﴾ والمعنى: قل لهم يا محمد إننا نحن معاشر المسلمين نعبد الله وحده وصبغته هي صبغتنا ولا نعبد غيره فلا نتخذ الأبحار والرهبان أرباباً يزيدون في ديننا وينقصون ويحلون ويحرمون ويمحون من النفوس صبغة التوحيد، ليحلوا محلها بأهوائهم صبغة الشرك والكفر.

ثم أمر الله - تعالى - نبيه ﷺ أن يزيد في تذكيرهم ودحض حججهم فقال تعالى: ﴿قل أتحتاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون. أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى، قل. أأنتم أعلم أم الله؟ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله؛ وما الله بغافل عما تعملون. تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾.

ومعنى الآية الكريمة: قل يا محمد لأهل الكتاب الذين قالوا لك ولأصحابك ﴿كونوا هودا أو نصارى تهتدوا﴾ وزعموا أن دينهم هو المعتبر عند الله دون دينك، قل لهم: أتجادلوننا في دين الله وهو ملة الإسلام التي بعثني بها للعالمين هدى ورحمة، وترغمون أن الهداية فيما أنتم عليه من اليهودية والنصرانية، وتستبعدون عليه - تعالى - أن ينزل وحيه على من ليس منكم، بدعوى أنكم أقرب إلى الله منا، وأنكم أبناء الله وأحيائه، والحال أنه - سبحانه - هو ﴿ربنا وربكم﴾ أي خالقنا وخالقكم ورازقنا ورازقكم ومحاسبنا ومحاسبكم على ما يصدر منا ومنكم من أعمال.

وقوله تعالى: ﴿ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ معناه: لكل منا ومنكم أعمال يترتب عليها الثواب والعقاب، فكما أننا نتساوى معكم في أن الله ربنا وربكم فكذلك نتساوى معكم في

استحقاق الجزاء على الأعمال التي نعملها، فانظروا إلى أعمالنا وأعمالكم تجدوا أعمالنا خيراً من أعمالكم، لأننا نزيد عليكم الإخلاص لله في تلك الأعمال فلا تستبعدوا أن يؤهل أهل إخلاصه بإكرامهم بالنبوة.

فقوله تعالى: ﴿وهو ربنا وربكم، ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ حجتان مبطلتان لدعوى أهل الكتاب أنهم أحق لأن تكون النبوة فيهم لأن نسبة العباد إلى الله - تعالى - واحدة هو ربهم وهم عباده، والتفاضل في المنازل لديه إنما يكون بالأعمال الصالحة والإخلاص لله فيها، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، ويختص بوحيه من يراه أهلاً لذلك، وقد شاء - سبحانه - أن ينزل وحيه على محمد ﷺ النبي الأمي العربي، بدين عام خالد فيه الهداية والنور والفلاح في الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ونحن له مخلصون﴾ بيان لسبب أحقية المسلمين بالهداية والكرامة، والمعنى، ونحن - يا معشر المسلمين - لربنا موحدون، نخلص لله العبادة والعمل، ولا نشرك معه آلهة أخرى، أما أنتم فقد أشركتم وضللتم فقال بعضكم: «عزيز ابن الله» وقال بعضكم ﴿المسيح ابن الله﴾ فنحن أهدى منكم سيلاً، وأقوم قبلاً.

ولم يصف المسلمون أعمالهم بالحسن، ولا أعمال المخاطبين بالسوء تجنباً لنفور المخاطبين من سماع خطابهم، بل أوردوا كلامهم مورد قوله تعالى ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ كما أنهم لم يقولوا: ونحن مخلصون وأنتم مخطئون، بل اقتصروا على نسبة الإخلاص لأنفسهم، وفي ذلك تعريض لطيف بأن المخاطبين غير مخلصين لله، فإن إخبار الإنسان باشتراكه مع جماعة في أمر أو أمور، وإفراد نفسه بعد ذلك بأمر، يوميء إلى أن هذا الأمر الذي أثبتته لنفسه خاصة معدوم في أولئك الجماعة.

فمعنى الجملة: ونحن مخلصون في أعمالنا لله وحده، ولم نخلطها بشيء من الشرك كما فعل غيرنا.

وبعد أن أبطل القرآن الكريم محاجة أهل الكتاب في دين الله بغير حق وأنكر عليهم ذلك، عقبه بإبطال دعواهم أن أسلافهم من الأنبياء كانوا هوداً أو نصارى فقال تعالى: ﴿أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى، قل أنتم أعلم أم الله، ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون﴾.

وقوله تعالى: ﴿أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾ حرف «أم» فيه معادل للهمزة في قوله تعالى في الآية السابقة ﴿اتحاجوننا في الله﴾ على أحد الوجوه بمعنى أى الأمرين تأتون؟ المحاجة في حكمة الله أم ادعاء اليهودية والنصرانية على الأنبياء المذكورين في

هذه الآية والمراد من الاستفهام عنها إنكارها معاً، إنكار حجاجهم في دين الله، وإنكار قوهم إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى.
فكانه - سبحانه - يقول لنبيه ﷺ قل لهم : لا تجادلونا في دين الله بغير حق، ولا تقولوا إن الأنبياء كانوا على دينكم، فإن مجادلتكم وأقوالكم من قبيل المزاعم الباطلة التي لا سند لها من عقل أو نقل.

وقوله تعالى : ﴿ قل أأنتم أعلم أم الله ﴾ معناه قل لهم يا محمد إن زعموا أن الأنبياء المذكورين في الآية كانوا هودا أو نصارى : إن ما زعمتوه من أن إبراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب كانوا هودا أو نصارى هو على خلاف ما يعلمه الله، لأنه - سبحانه - قد أخبرنا بأنهم كانوا مسلمين مبرئين عن اليهودية والنصرانية، وأن يعقوب - عليه السلام - عندما حضرته الوفاة أوصى بنيه بأن يموتوا على الإسلام، وأن التوراة والإنجيل ما أنزلا إلا من بعد أولئك الأنبياء جميعاً، هكذا أخبرنا الله^(١) فهل أنتم أعلم بديانتهم أم الله ولا شك أنهم لن يستطيعوا أن يقولوا نحن أعلم، وإنما سيقولون الله اعلم، فإذا لمهم هذا القول : قلنا لهم إذا فدعواكم لا أساس لها من الصحة وبذلك تكون الجملة الكريمة قد قطعت حججهم بأجمع بيان وأحكامه.

وقوله تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ﴾ معناه لا أحد أشد ظلمًا ممن يكتم شهادة ثبتت عنده عن الله، تخبر بأن هؤلاء الأنبياء كانوا على الإسلام ولم يكونوا هودًا أو نصارى.

قال فضيلة أستاذنا السيد محمد الخضر حسين - رحمه الله - ما ملخصه : ولما أنزل قوله تعالى : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه : مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث. ﴾ إلى آخر الآية الكريمة، كان من أهل الكتاب من آمن به وأخبر بما في كتبهم من ذكره بصفته وعلاماته، وكان منهم من لا ينكر أن يكون قد ذكر في الكتابين. ولكنه يكابر ويقول : المقصود نبي لم يأت بعد وقد تصدى لجمع هذه البشائر من كتابي التوراة والإنجيل طائفة من أهل البحث والعلم في القديم والحديث، وبينوا وجه انطباقها على حال النبي ﷺ بحيث لا تأخذ الناظر الطالب للحق ريباً في أنه الرسول الذي بشرت الأنبياء بمبعثه وعموم رسالته، ومن هذه البشائر ما جاء في سفر

(١) والآيات تشهد بذلك منها قوله : ﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتون إلا وأنتم مسلمون. أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ﴾. إلى قوله تعالى : ﴿ ونحن له مسلمون ﴾، ومنها قوله تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ﴾.

الثنية من التوراة (أقيم لهم من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به).

والنبي المماثل لموسى - عليه السلام - في الرسالة والشريعة المستأنفة هو النبي محمد ﷺ وإخوة بني إسرائيل هم العرب، لأنها يجتمعان في إبراهيم - عليه السلام - وقوله: «وأجعل كلامي في فمه، يوافق حال النبي ﷺ من الأمية وعدم تعاطي الكتابة»^(١).
ثم ختمت الآية بالوعيد الشديد لهم على مزاعمهم الباطلة، فقال تعالى ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾.

الغفلة: السهو والنسيان، والمراد أنه - سبحانه - محيط بأعمال هؤلاء الذين كتموا الحق، لا تخفى عليه منها خافية وسيحاسبهم عليها حساباً عسيراً، ويعاقبهم على مزاعمهم الباطلة عقاباً أليماً، فالجملة الكريمة تهديد ووعيد لأهل الكتاب.

ثم حذر الله - تعالى - أهل الكتاب - في ختام الآيات - من التماذى في الكفر والمعصية، انكالا على انتسابهم لأباء كانوا من الأنبياء أو من الصالحين، فقال تعالى: ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾.

﴿تلك﴾ إشارة إلى أمة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط و(الأمة) المراد بها هنا الجماعة من الناس الذين يجمعهم أمر واحد وهو هنا الدين (قد خلت) أى مضت وانقرضت.

ومعنى الآية الكريمة: قل يا محمد لأهل الكتاب الذين زعموا أن الهداية في ملتهم وأن إبراهيم وآله كانوا هوداً أو نصارى، قل لهم: إن إبراهيم وآله يمثلون أمة مضت لسبيلها لها عند الله ما كسبت من خير وعليها ما اكتسبت من شر ولا ينفعها غير صالح أعمالها، ولا يضرها سوى سيئها، وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لهؤلاء الذين تفتخرون بهم، فمن الأولى أن يكون الأمر كذلك بالنسبة لكم فعليكم أن تسلكوا طريق الإيمان والعمل الصالح وأن تتركوا الاتكال على فضائل الآباء والأجداد فإن كل نفس يوم القيامة ستسأل عن أعمالها دون أعمال غيرها، كما بين ذلك قوله تعالى ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾.

فالمقصد الأول الذى ترمى إليه الآية الكريمة، هو تحذير المخاطبين من تركهم الإيمان والطاعة اعتماداً منهم على انتسابهم لأباء كانوا أنبياء أو صالحين، فإن هذا الاعتماد إنمّا هو نوع من الأمانى الكاذبة والأفكار الفاسدة وقد جاء فى الحديث الشريف (من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه).

وكان الآية تقول لأهل الكتاب في تأكيد: إن أمامكم ديناً دعيتم إلى اتباعه، واقرنت دعوته بالحجة فانظروا في دلائل صحته، وسمو حكمته، ولا تردوه بمجرد أن الأنبياء كانوا على ما أنتم عليه الآن، فإن دعواكم هذه لا تنفعكم ولو في حال تسليمها لكم، إذ لا يمنع اختلاف الشرائع باختلاف المصالح، وعلى حسب ما تقتضيه حكمة عالم الغيب والشهادة.

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد دحضت ما ادعاه اليهود من أن الهدى في إتباع ملتهم، وأقامت الحجج والشواهد على كذبهم وافتراءهم وأرشدتهم إلى الدين الحق، ودعتهم إلى الدخول فيه، ووبختهم على المحاجة في دين الله بغير علم، وحذرتهم من الانحراف عن الصراط المستقيم اعتماداً منهم على آباء لهم كانوا أنبياء أو صالحين، فإنه لن تجزى نفس عن نفس شيئاً يوم الدين.

ثم تحدث القرآن الكريم بعد ذلك عن قصة تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، وأورد الشبهات التي أثارها المشركون وأهل الكتاب - وعلى رأسهم اليهود - حول هذه المسألة، ورد عليها بما يدحضها ويبطلها.

ونظراً لأهمية هذا الموضوع فسيكون كلامنا عنه على النحو التالي:

أولاً: كيف كان المسلمون يتجهون في صلاتهم قبل تحويل القبلة إلى المسجد الحرام؟

ثانياً: ما الشبهات التي أثارها اليهود بعد تحويل القبلة إلى المسجد الحرام؟

ثالثاً: كيف مهد القرآن الكريم لهذا التحويل؟

رابعاً: تفسير الآيات الكريمة التي نزلت بشأن القبلة؟

خامساً: لماذا أطال القرآن الكريم حديثه عن تحويل القبلة مع أنها من الأمور الفرعية.

وإليك الإجابة عن كل سؤال من هذه الأسئلة.

أولاً: فرضت الصلاة على النبي ﷺ في مكة ليلة الإسراء والمعراج. ويرى بعض العلماء أن النبي ﷺ كان يستقبل في صلاته - وهو بمكة - بيت المقدس إلا أنه لم يكن يستدير الكعبة، بل كان يجعلها بينه وبين بيت المقدس، وذلك بأن يقف بين الركنين الأسود واليماني.

ويرى بعضهم أنه كان يستقبل في صلاته وهو بمكة المسجد الحرام. وهذا الرأي هو الذي نرجحه، لأن المسجد الحرام هو قبلة أبيه إبراهيم، ولأنه ﷺ عربي، وظهر بين قومه العرب، ولا شك أن اعتزازهم بالمسجد الحرام، أشد من اعتزازهم بأى مسجد آخر، إذن فالمصلحة والحكمة تفضيان بأن يستقبل المسلمون في صلاتهم بمكة الكعبة المشرفة.

ومهما يكن من خلاف بين العلماء في الجهة التي كان النبي ﷺ يستقبلها في صلاته وهو بمكة، فإن الأمر الذي لا خلاف فيه، أنه بعد الهجرة إلى المدينة لم يستقبل في صلاته سوى بيت المقدس بأمر من الله تعالى - وقد وردت أحاديث صحيحة في ذلك، منها ما أخرجه البخارى في صحيحه عن البراء بن عازب - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان رسول الله ﷺ تعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان معه فمر على أهل مسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ جهة مكة فداروا كما هم قبل البيت وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلى قبل بيت المقدس فلما ولى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك^(١).

ومنها ما أخرجه عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال: (بينما الناس بقاء في صلاة الصبح، إذ جاءهم أت فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة)^(٢).

وبذلك نرى أن النبي ﷺ كان يتوجه في صلاته وهو بالمدينة إلى بيت المقدس، قبل أن يأمره الله - تعالى - بالتحول إلى المسجد الحرام.

ثانياً: الشبهات التي أثارها اليهود بعد تحول المسلمين في صلاتهم إلى المسجد الحرام. قلنا إن الرسول ﷺ بعد هجرته إلى المدينة استقبل في صلاته بيت المقدس بأمر من الله - تعالى - تأليفاً لقلوب اليهود لأن بيت المقدس قبلتهم، ورمز وحدتهم، وقد فرحوا لصلاة الرسول ﷺ والمسلمين إليه، وكان أمل النبي أن يلبوا دعوته وأن يسارعوا إلى الدخول في الإسلام، ولكنهم عموا وسموا، وأخذوا يشيعون بين الناس أن النبي ﷺ قد اتبع قبلتهم وعماء قريب سيتبع ملتهم، واعتبروا اتجاه المسلمين في صلاتهم إلى بيت المقدس نوعاً من اقتباس الهدى منهم، فتأثر الرسول ﷺ من موقفهم الجحودى، وانبثقت في نفسه أمنية التحول إلى الكعبة، وأكثر من التضرع والابتهاج إلى الله كى يوجهه إلى قبلة أبيه إبراهيم.

وقد أجاب الله تعالى رجاء نبيه ﷺ فولاه القبلة التي يرضاها، وفرح المؤمنون لذلك لأن في توجيههم إلى البيت الحرام، تأليفاً لقلوبهم، فهو مثابتهم ومركز تجمعهم، وموطن أمنهم ومهوى أفتدتهم، وجامع وحدتهم وقد استقبلوا هذا التحويل بالسمع والطاعة لله ولرسوله ﷺ

(١) البخارى باب «الصلاة من الإيمان» من كتاب الإيمان ج ١ ص ١٧.

(٢) البخارى باب «ما جاء في القبلة» من كتاب الصلاة ج ١ ص ١٠٦.

أما اليهود ومن على شاكلتهم ممن في قلوبهم مرض فقد استقبلوه بالاستهزاء والاحود، وإثارة الشبهات، لبلبلة الأفكار، وتشكيك المسلمين في عقيدتهم .
ومما قاله المشركون في ذلك : إن محمدًا ﷺ قد تحير في دينه ، وبوشك أن يرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا .

ومما قاله المنافقون : ما بال المسلمين كانوا على قبلة ثم تركوها؟ .

ومما قاله اليهود - الذين تولوا كبر التشكيك في صحة التوجه إلى البيت الحرام - إن القبلة الأولى - وهي بيت المقدس - إن كانت على حق فقد تركتم أيها المسلمون الحق وإن كانت على باطل فعبادتكم السابقة باطلة، ولو كان محمد ﷺ نبيًا حقًا ما ترك قبلة الأنبياء قبله وتحول إلى غيرها وما فعل اليوم شيئًا وخالفه غدًا .

ومقصدهم الأول من وراء هذه المقالات المردلة، الطعن في شريعة الإسلام، وفي نبوة النبي (عليه الصلاة والسلام) .

ثالثًا : ولكن القرآن الكريم أفسد عليهم خطتهم، وأحبط مكرهم، فأخبر الله - تعالى - نبيه ﷺ بما سيقوله هؤلاء السفهاء جميعًا قبل أن يصدر عنهم، ومهد لتحويل القبلة بما يطمئن النفوس ويثبت الإيمان في القلوب وبهيمى الأفئدة لتقبل هذا الأمر العظيم، فذكر الله في الآيات السابقة على التحويل أنه إذا نسخ آية أتى بما هو خير منها أو مثلها، لأنه القادر على كل شيء، المالك للسموات والأرض تصرفًا وتدبيرًا، وهو أعلم بما يتعبد به عباده وما فيه الخير لهم .
ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك أن له المشرق والمغرب . ففي أى مكان توجه المصلى فثم وجه الله، ثم نبه - رسوله ﷺ بأنه لن يرضى عنه اليهود ولا النصارى حتى يتبع ملتهم . إشارة إلى أن المصلحة في التوجه إلى بيت المقدس قد انتهت وان الاستمرار على ذلك لن يكبح جماح نفوس لم تصبغ بهداية الله وتوفيقه .

ثم فصل القرآن بعد ذلك الحديث عن البيت الحرام وتعظيمه وشرفه فذكر أن الله - تعالى - قد جعله مثابة ومرجعًا للحجاج والعمار . يتفرقون عنه ثم يثوبون إليه على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار وكلما ازدادوا له زيارة زاد شوقهم إليه . وجعله - أيضًا - حرمًا آمنًا لهم . بينما يتخطف الناس من حولهم .

وأخبر - سبحانه - أنه قد عهد في بنائه إلى نبيين كريمين هما سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل - عليهما السلام - وأمرهما بتطهيره من كل رجس للطائفين والعاكفين والركع السجود .
وقد كانت الآيات الواردة في شأن المسجد الحرام قبيل الأمر بتحويل القبلة كفيلة بإعطاء صورة وافية لكل عاقل، بأن بيتًا له هذه القداسة جدير بأن يكون قبلة للناس في صلاتهم،

ولكن اليهود ومن في قلوبهم مرض، لم يكن إعراضهم عن الحق لشبهة في نفوسهم ينقصها الدليل، وإنما كان إعراضهم مرجعه العناد والمكابرة، وكلاهما يعمى ويصم، فلا غرابة أن نطقوا كفرًا، ولاكت ألسنتهم قبحًا وسفهاً.

إلا أن ما قالوه من شبهات حول تحويل القبلة، لم يجد آذانًا صاغية من المؤمنين، لأن الله - تعالى - قد مهد للتحويل - كما قلنا - بما يطمئن النفوس ولقن نبيه ﷺ الجواب على شبهاتهم قبل أن ينطقوا بها ليكون ذلك أقطع لحجتهم، كما قالوا في الأمثال: (قبل الرمي يراش السهم).

رابعًا: تفسير الآيات الكريمة التي نزلت في شأن تحويل القبلة إلى المسجد الحرام. لقد أنزل الله - تعالى - آيات كريمة من سورة البقرة في شأن صرف القبلة إلى البيت الحرام^(١)، لقن فيها المؤمنين الإجابة على معارضات اليهود وغيرهم، ونوه فيها بشأن الأمة الإسلامية، وبشرها بإجابة رجاء نبيها ﷺ إذ ولاء القبلة التي يرضاهما، وأراحه من التطلع إلى اهتداء اليهود وغيرهم من الجاحدين. ولوجاءهم بكل آية، لأن إعراضهم عن دعوته ليس عن شبهة يزيلها الدليل، ولكنه إعراض سببه الجحود والحقد، والجاحد والحاقد لا ينفع معها دليل أو برهان.

وقد كرر القرآن الكريم الأمر بالتوجه إلى الكعبة ثلاث مرات في ثلاث آيات، وعلق بكل أمر فائدة جديدة تناسبه، لأن أهمية هذا الحادث تستلزم تكرارًا في الخطاب ليرسخ في النفوس، ويستقر في المشاعر والقلوب.

هذا، وبعد تلك المقدمة الموجزة لما اشتملت عليه آيات تحويل القبلة من مقاصد، نحب أن نتعرض لتفسيرها بالتفصيل، فنقول قال الله تعالى:

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْتُمْ عَنْ قِبْلَتِكُمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٣﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا

(١) هذه الآيات من ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤.

جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ
 مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ
 هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ
 لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٢﴾ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ
 فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ
 الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ
 أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ
 عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾

تضمنت هذه الآيات الكريمة إعلام النبي ﷺ والمؤمنين أن فريقاً من الناس الذين خفت
 أحلامهم وضعفت عقولهم وعدلوا عما ينفعهم إلى ما يضرهم، سيقولون على سبيل الإنكار عند
 تحويل القبلة إلى المسجد الحرام، ما صرفهم عن القبلة التي كانوا عليها، وهي بيت المقدس.
 قال صاحب الكشاف: «فإن قلت، أي فائدة في الإخبار بقولهم قبل وقوعه؟ قلت: فائدته
 أن مفاجأة المكروه أشد، والعلم به قبل وقوعه أبعد من الاضطراب إذا وقع، لما يتقدمه من
 توطين النفس، وأن الجواب العتيد قبل الحاجة إليه أقطع للخصم وأرد لشغبه»^(١).
 والمراد بالسفهاء اليهود الذين استنكروا تحويل القبلة، ومن لف لفهم من المنافقين ومشركي
 العرب.

وإنما سماهم الله - تعالى - سفهاء لأنهم سفهوا الحق، وجحدوه، وأنكروا نبوة النبي ﷺ.
 مع علمهم بصدقه في رسالته.

وقد صرح البخارى - رحمه الله - بأن المراد بالسفهاء هم اليهود، فقد روى عن البراء بن
 عازب قال:

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٢٧.

كان رسول الله ﷺ يجب أن يتوجه إلى الكعبة، فأنزل الله - تعالى - ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾ فتوجه نحو الكعبة، وقال السفهاء من الناس - وهم اليهود - ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها.

ثم لقن الله - تعالى - نبيه ﷺ الجواب الذي يخرس به ألسنة المعترضين من اليهود وغيرهم، فقال تعالى: ﴿قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾.

أى قل لهم - يا محمد - إذا اعتراضوا على التحويل: إن الأمانة كلها لله ملكاً وتصرفاً وهي بالنسبة إليه متساوية، وله أن يخص بعضها بحكم دون بعض، فإذا أمرنا باستقبال جهة في الصلاة فلحكمة اقتضت الأمر وما على الناس إلا أن يمتثلوا أمره، والمؤمنون ما اتخذوا الكعبة قبلة لهم إلا امتثالاً لأمر ربهم، لا ترجيحاً لبعض الجهات من تلقاء أنفسهم فالله هو الذى يهدى من يشاء هدايته، إلى السبيل الحق، فيوجهه إلى بيت المقدس مدة حيث اقتضت حكمته ذلك، ثم إلى الكعبة، حيث يعلم المصلحة فيما أمر به.

ثم وصف الله - تعالى - الأمة الإسلامية، بأنها أمة خيرة عادلة مزكاة بالعلم والعمل فقال تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾.

والمعنى: ومثل ما جعلنا قبلكم - أيها المسلمون - وسطاً لأنها البيت الحرام الذى هو المثابة للناس، والأمن لهم، جعلناكم - أيضاً - ﴿أمة وسطاً﴾ أى: خياراً عدولاً بين الأمم ليتحقق التناسب بينكم وبين القبلة التى تتوجهون إليها فى صلواتكم، تشهدون على الأمم السابقة بأن أنبياءهم قد بلغوهم الرسالة، ونصحوهم بما ينفعهم، ولكى يشهد الرسول ﷺ عليكم بأنكم صدقتموه وأمتتم به.

أخرج البخارى عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ يدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يارب، فيقال له: هل بلغت ما أرسلت به؟ فيقول نعم، فيقال لأمته هل بلغكم. فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقال له: من يشهد لك. فيقول: محمد وأمته. فيشهدون أنه قد بلغ، فذلك قوله - جل ذكره - ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾^(١).

ثم بين الله - تعالى - الحكمة فى تحويل القبلة إلى الكعبة فقال تعالى:

﴿وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه﴾.

(١) صحيح البخارى، باب: «وكذلك جعلناكم أمة وسطا» من كتاب التفسير، ج ٦ ص ٢٦.

أى وما شرعنا التوجه إلى القبلة التي كنت عليها قبل وقتك هذا وهي بيت المقدس، إلا لتعامل الناس معاملة الممتحن المختبر، فنعلم من يتبع الرسول ويأتمر بأوامره في كل حال ممن لم يدخل الدين في قرارة نفسه، وإنما دخل فيه على حرف، بحيث يرتد عنه لأقل شبهة، وأدنى ملايسة كما حصل ذلك من ضعاف الإيمان عند تحويل القبلة إلى الكعبة والله - تعالى - عالم بكل شيء، ولكنه شاء أن يكون معلومه الغيبى مشاهدًا في العيان، إذ تعلق الشيء واقعًا في العيان، هو الذى تقوم عليه الحجة، وترتب عليه الثواب والعقاب.

ولذا قال صاحب الكشاف: فإن قلت: كيف قال لتعلم ولم يزل عالمًا بذلك؟ قلت؛ معناه لتعلمه علمًا يتعلق به الجزاء، وهو أن يعلمه موجودًا حاصلًا، ونحوه ﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ وقيل ليعلم رسول الله والمؤمنون، وإنما أسند علمهم إلى ذاته، لأنهم خواصه وأهل الزلفى عنده، وقيل معناه. ليميز التابع من الناكص كما قال - تعالى - : ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾ فوضع العلم موضع التمييز؛ لأن العلم يقع التمييز به (١).

ثم بين الله - تعالى - آثار تحويل القبلة في نفوس المؤمنين وغيرهم فقال تعالى: ﴿وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله.

أى: وإنما شرعنا لك - يا محمد - القبلة أولاً إلى بيت المقدس، ثم صرفناك عنها إلى الكمية ليظهر حال من يتبعك ويطيعك في كل حالة ممن لا يطيعك، وإن كانت هذه الفعلية - وهي تحويلنا لك من بيت المقدس إلى الكعبة - لكبيرة وشاقة، إلا على الذين خلق الله الهداية في قلوبهم فتلقوا أوامرنا بالخضوع والإذعان، وقالوا سمعنا وأطعنا كل من عند ربنا.

وقوله - تعالى - : ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم...﴾.

بشارة عظيمة للمؤمنين، وجواب لما جاشت به الصدور، وتكذيب لما ادعاه اليهود من أن عبادة المؤمنين في الفترة التي سبقت تحويل القبلة إلى الكعبة ضائعة وباطلة.

فقد أخرج البخارى من حديث البراء بن عازب - رضى الله عنه - أنه مات على القبلة قبل أن تحول رجال وقتلوا، فلم ندر ما تقول فيهم، فأنزل الله - تعالى - ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾.

وقال ابن عباس: كان رجال من أصحاب رسول الله ﷺ قد ماتوا على القبلة الأولى، منهم: أسعد بن زرارة، وأبو أمامة... وأناس آخرون فجاءت عشائهم فقالوا: يا رسول

الله : مات إخواننا وهم يصلون إلى القبلة الأولى وقد صرفك الله إلى قبلة إبراهيم، فكيف بإخواننا، فأنزل الله - تعالى - ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾.

وروى أن حبي بن أخطب وجماعة من اليهود قالوا للمسلمين : أخبرونا عن صلاتكم إلى بيت المقدس إن كانت على هدى لقد تحولتم عنه، وإن كانت على ضلالة فقد عبدتم الله بهامدة، ومن مات عليها فقد مات على ضلالة فقال المسلمون إنما الهدى فيما أمر الله - تعالى - والضلالة فيما نهى الله عنه فقالوا : فما شهادتكم على من مات منكم على قبلتنا؟ - وكان قد مات من المسلمين جماعة قبل تحويل القبلة - فانطلق عشائرتهم إلى النبي ﷺ فقالوا : يا رسول الله : كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله تعالى : ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم﴾.

والمعنى - وما كان الله - تعالى - ليذهب صلاتكم وأعمالكم الصالحة التي قمتم بها خلال توجهكم إلى بيت المقدس، لأنه - سبحانه - بعباده رءوف رحيم ولا يضيع أجر من أحسن عملاً.

ثم خاطب الله - تعالى - نبيه ﷺ ووعدته بأن القبلة التي سيؤمر بالتوجه إليها هي التي يحرص عليها ويرغب فيها.

قال الإمام ابن كثير: قال على بن أبي طلحة قال ابن عباس : كان أول ما نسخ في القرآن القبلة، وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود فأمره الله تعالى أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود فاستقبله رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، وكان يجب قبلة أبيه إبراهيم، فكان يدعو الله، وينظر إلى السماء، فأنزل الله - تعالى - ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوههم شطره﴾^(١).

والمعنى : قد شاهدنا - يا محمد - وعلمنا تردد وجهك، وتسريح نظرك إلى السماء تطلعا إلى نزول الوحي عليك، وتوقعاً لما ألقى في روعك من تحويل القبلة إلى الكعبة سعياً منك وراء استمالة العرب إلى الدخول في أحضان الإسلام، ومخالفة اليهود الذين كانوا يقولون : إنه يخالفنا في ديننا ويتبع قبلتنا، وها نحن قد أجبناك إلى ما طلبت وأعطيناك ما سألت، ووجهناك إلى قبلة تحبها وتميل إليها ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾.

أي : فاصرف وجهك وحوله نحو المسجد الحرام وجهته.

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٩٢.

ثم عمم القرآن الكريم هذا التشريع على الأمة الإسلامية جميعها. فقال تعالى :
﴿وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾.

أى : وحيثما كنتم وأينما وجدتم في بر أو بحر فولوا وجوهكم تلقاء المسجد الحرام ونحوه . وقد جاءت هذه الجملة موجهة إلى الأمة قاطبة لدفع توهم أن يكون الخطاب في الأول خاصاً بالنبي ﷺ ولأنه لما كان تحويل القبلة أمراً له خطره، خصهم بخطاب مفرد ليكون ذلك أكد وأبلغ .

فالآية الكريمة فيها أمر لكل مسلم أن يجعل الكعبة قبلة له، فيتوجه بصدرة إلى ناحيتها وجهتها حال تأديته الصلاة لربه، سواء أكان المصلى بالمدينة أم بمكة أو بغيرهما . وفي ذكر المسجد الحرام دون الكعبة، ما يؤذن بكفالة مراعاة جهتها ولذلك لم يقع خلاف بين العلماء في أن الكعبة قبلة كل أفق . وأن من عاينها فرض عليه استقبالها ومن غاب عنها فعليه أن يستقبل جهتها . فإن خفيت عليه تحرى جهتها ما استطاع .

وقد سقنا في مطلع هذا البحث بعض الأحاديث الصحيحة التي صرحت بأن الصحابة عندما بلغهم أن النبي ﷺ قد أمر بالتحويل إلى الكعبة استداروا إليها وهم في صلاتهم فجعلوها قبلتهم .

وما يشهد بقوة إيمانهم وعظيم امتثالهم لشرع الله ما جاء عن نويلة بنت مسلم أنها قالت .
« صلينا الظهر - أو العصر - في مسجد بني حارثة ، فاستقبلنا مسجد إيلياء - أى بيت المقدس - فصلينا ركعتين ، ثم جاء من يحدثنا أن رسول الله ﷺ قد استقبل البيت الحرام فتحول النساء مكان الرجال . والرجال مكان النساء . فصلينا السجدين الباقيتين ونحن مستقبلون البيت الحرام . فحدثني رجل من بني حارثة أن النبي ﷺ قال : « أولئك رجال يؤمنون بالغيب » (١) .

ثم بينت الآية الكريمة أن أهل الكتاب يعلمون أن التحويل إلى الكعبة هو الحق الذى لا ريب فيه فقال تعالى : ﴿وإن الذين أتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم ، وما الله بغافل عما يعملون﴾ .

أى : وإن اليهود الذين أنكروا استقبالكم الكعبة ، وانصرافكم عن بيت المقدس ، ليعلمون أن استقبالكم الكعبة حق ؛ لأن الذى أخبر به قد قامت الآيات البينات عندهم على أنه رسول من عند الله ، أو أنه يصلى إلى القبلتين ، وما وقفوا من تحويل القبلة هذا الموقف إلا لعنادهم ،

وما الله بغافلٍ عن أعمالهم بل هو محيط بها وسيحاسبهم عليها يوم القيامة حساباً عسيراً». - ثم أخبر الله - تعالى - عن كفر اليهود وغنادهم، وأنهم لن يتبعوا الحق ولو جاءهم الرسول ﷺ بكل آية. فقال تعالى:

وَلِينَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ
 آيَةٍ مَاتَبِعُوا قِيلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قَلْبَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ
 بِتَابِعٍ قِبَلَهُ بَعْضٌ وَلِينَ آتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ
 مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾
 الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ
 فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ
 رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّئُهَا
 فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا
 إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ
 وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا
 اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ
 شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ
 شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا
 مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأْتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ
 تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

والمعنى : ولئن جئت - يا محمد - اليهود ومن على طريقتهم في الكفر بكل برهان وحجة، بأن الحق هو ما جئتهم به، من فرض التحول من قبله بيت المقدس في الصلاة إلى قبله المسجد الحرام، ما صدقوا به، لأن تركهم اتباعك ليس عن شبهة يزيلها الدليل، وإنما هو عن مكابرة وعناد مع علمهم بما في كتبهم من أنك على الحق المبين.

وما أنت - يا محمد - بتابع قبلتهم، لأنك على الهدى وهم على الضلال وفي هذه الجملة الكريمة حسم لأطماعهم، وتقرير لحقية القبلة إلى الكعبة، بعد أن أشاعوا بأن النبي ﷺ لو ثبت على قبلتهم لكانوا يرجون أنه النبي المنتظر، فقطع القرآن الكريم آمالهم في رجوع النبي ﷺ إلى قبلتهم، وأخبر بأنه ليس يتابع لها.

ثم ذكر القرآن الكريم اختلاف أهل الكتاب في القبلة، وأن كل طائفة منهم لا تتبع قبلة الطائفة الأخرى فقال تعالى : ﴿وما بعضهم بتابع قبلة بعض﴾ أي : ما اليهود بمتبعين لقبلة النصارى ولا النصارى بمتبعين لقبلة اليهود، فهم مع اتفاقهم على مخالفتك، يختلفون في باطلهم وذلك لأن اليهود تستقبل بيت المقدس، والنصارى تستقبل مطلع الشمس.

ثم ساق القرآن الكريم بعد ذلك تحذيرًا للأمة كلها من اتباع أهل الكتاب، وجاء هذا التحذير في شخص النبي ﷺ فقال تعالى : ﴿ولئن اتبعت أهواءهم من بعدما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين﴾.

أي : لئن اتبعت - يا محمد - قبلتهم - على سبيل الفرض، والتقدير من بعد وضوح البرهان وإعلامي إياك بإقامتهم على الباطل، إنك إذا لمن الظالمين لأنفسهم، المخالفين لأمرى. فالآية الكريمة : وعيد وتحذير للأمة الإسلامية من اتباع آراء اليهود المنبعثة عن الهوى والشهوة، وسبق الوعيد والتحذير في صورة الخطاب للرسول ﷺ الذي لا يتوقع منه أن يتبع أهواء أهل الكتاب، تأكيدًا للوعيد والتحذير، فكأنه يقول :

لو اتبع أهواءهم أفضل الخليفة، وأعلاهم منزلة عندي، لجازيته مجازاة الظالمين، وأحق بهذه المجازاة وأولى من كانوا دونه في الفضل وعلو المنزلة إن اتبعوا أهواء المبطلين وهم اليهود ومن كان على شاكلتهم من المشركين.

قال صاحب الكشاف : «فإن قلت : كيف قال وما أنت بتابع قبلتهم ولهم قبلتان، لليهود قبلة وللنصارى قبلة؟»

قلت : كلتا القبلتين باطلة، مخالفة لقبلة الحق، فكانتا بحكم الاتحاد في البطلان قبلة واحدة»^(١).

- ثم بين القرآن الكريم أن أهل الكتاب يعرفون صدق الرسول ﷺ معرفة لا يخالطها شك فقال تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾.

أى: أن أحبار اليهود وعلماء النصارى يعرفون صدق رسالة النبي ﷺ ويعرفون أن توجهه إلى البيت الحرام حق، كما يعرفون أبناءهم فهو تشبيه للمعرفة العقلية الحاصلة من مطالعة الكتب السماوية، بالمعرفة الحسية في أن كلا منهما يقين لا اشتباه فيه.

قال الإمام ابن كثير: «يخبر الله أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاء به الرسول ﷺ كما يعرف أحدهم ولده، والعرب كانت تضرب المثل في صحة الشيء بهذا كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال لرجل معه صبي صغير «إبنك هذا»؟ قال نعم يا رسول الله أشهد به، قال: «أما إنه لا يخفى عليك ولا تخفى عليه» ويروى عن عمر أنه قال «لعبد الله بن سلام» أتعرف محمدًا ﷺ كما تعرف ولدك. قال نعم وأكثر، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته، وإني لا أدري ما كان من أم ولدى، فقبل عمر - رضى الله عنه - رأسه»^(١).

أى: وإن طائفة من أهل الكتاب مع ذلك التحقيق والإيقان العلمى من أنك على حق في كل شئوك ليتدادون في إخفائه وجحوده، وهم يعلمون ما يترتب على ذلك الكتمان من سوء المصير لهم في الدنيا والآخرة - ثم ثبت الله تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين، فأخبرهم بأن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الذى لا شك فيه.

أى: اعلم - يا محمد - أن ما أوحى إليك وأمرت به من التوجه إلى المسجد الحرام. هو الحق الذى جاءك من ربك، وأن ما يقوله اليهود وغيرهم من المشركين هو الباطل الذى لا شك فيه، فلا تكونن من الشاكين في كتمانهم الحق مع علمهم به، أو في الحق الذى جاءك من ربك وهو ما أنت عليه في جميع أحوالك ومن بينها التوجه إلى المسجد الحرام.

والشك غير متوقع من الرسول ﷺ، ولذلك قال المفسرون إن النهى موجه إلى الأمة في شخص نبيها ﷺ إذ كان فيها حديثو عهد بكفر يخشى عليهم أن يفتنوا بزخرف من القول يروج به أهل الكتاب شبهًا تعلق بأذهان من لم يرسخ الإيمان في قلوبهم.

وقد وضع ابن جرير - رحمه الله - هذا المعنى بقوله:

فإن قال لنا قائل: «أوكان النبي ﷺ شاكا في أن الحق من ربه أو في أن القبلة التى وجهه الله إليها حق من الله - تعالى - حتى نهى عن شك في ذلك فقليل له: ﴿فلا تكونن من الممترين﴾. قيل: ذلك من الكلام الذى تخرجه العرب مخرج الأمر أو النهى للمخاطب به، والمراد به غيره

كما قال جل ثناؤه: ﴿يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾ ثم قال ﴿واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ فخرج الكلام مخرج الأمر للنبي ﷺ والنهي له. والمراد به أصحابه المؤمنون به^(١).

- ثم قال تعالى: ﴿ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات﴾.

أى: ولكل أهل ملة فبلة يتجهون إليها في عباداتهم، فسارعوا أنتم جهدكم إلى ما اختاره الله لكم من الأعمال التي تكسبكم سعادة الدارين، والتي من جملتها التوجه إلى البيت الحرام.

ثم ساق الله - تعالى - وعداً لمن يطيع أمره، ووعداً لمن ينصرف عن الخير. فقال - تعالى -: ﴿أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً﴾.

أى: في أى بقعة يدرككم الأجل، وتموتون فيها، يجمعكم الله - تعالى - يوم القيامة. لتقفوا بين يديه للحساب، لأنه - سبحانه - قادر على جمعكم بعد مماتكم من قبوركم حيث كنتم، وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم، كما أنه - سبحانه - قدير على كل شيء، وما دام الأمر كذلك، فبادروا بالأعمال الصالحة شكراً لربكم، وحافظوا على قبلتكم، حتى لا تضلوا كما ضل اليهود ومن على طريقتهم في الكفر والعناد.

ثم أكد - سبحانه - حكم التحويل، وبين عدم تفاوت الأمر باستقبال المسجد الحرام في حالتي السفر أو الحضر. فقال - تعالى -: ﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾...

أى: ومن أى موضع خرجت وإلى أى مكان آخر سرت، فول - يا محمد - وجهك عند صلاتك إلى المسجد الحرام، وإن هذا التوجه شطره هو الحق الذى لا شك فيه عند ربك، فحافظوا على ذلك أيها المؤمنون وأطيعوا الله - تعالى - فى كل ما يأمركم به، ويتهاكم عنه، لأنه - سبحانه - ليس بساه عن أعمالكم، ولا بغافل عنها، ولكنه محصيا عليكم، وسيجازيكم الجزاء الذى تستحقونه عليها يوم القيامة.

ثم كرر - سبحانه - الأمر للمؤمنين بأن يتجهوا فى صلاتهم إلى المسجد الحرام فقال: ﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾.

أى: ومن أى مكان خرجت - يا محمد - فول وجهك تلقاء المسجد الحرام، وأينما كنتم أيها المؤمنون من أرض الله، فولوا وجوهكم فى صلاتكم تجاهه ونحوه.

(١) تفسير ابن جرير ج ٢ ص ٢٧.

وتلك هي المرة الثالثة التي تكرر فيها الأمر للمؤمنين بالتوجه إلى المسجد الحرام في صلاتهم، وهذا التكرير لتأكيد أمر القبلة وتشديده لأن تحول القبلة كان أول نسخ في الإسلام - كما قال كثير من العلماء - فاقضى الأمر تأكيده في نفوس المؤمنين حتى يستقر في مشاعرهم، ويذهب ما يثار حولها من شبهات أدراج الرياح، ولأن الله - تعالى - أناط بكل واحد من هذه الأوامر الثلاثة بالتحول ما لم ينط بالآخر من أحكام فاختلفت فوائدها، فكأنه - سبحانه - يقول لنبيه - ﷺ وللمؤمنين .

الزموا هذه القبلة لأنها هي القبلة التي ترضونها وترغبون فيها وطلما تمنيتموها، والزموها - أيضاً - لأنها هي القبلة التي لن تنسخ بعد ذلك .

والزموها - كذلك - لأن لزومكم إياها يقطع حجة اليهود الجاحدين، وغيرهم من المعاندين والخاصرين .

وقد اقترن هذا الأمر الثالث بالتوجه إلى المسجد الحرام في هذه الآية الكريمة بحكم ثلاث .

أولها : قوله تعالى : ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تحشوهم واخشون﴾ والمراد من الناس اليهود ومن لف لفهم من المناوئين للدعوة الإسلامية . والمعنى عليك - أيها النبي - ومن معك من المؤمنين أن تتجهوا في صلاتكم إلى الكعبة المشرفة، لكي تقطعوا دابر فتنة اليهود وحجتهم فقد قالوا لكم وقت اتجاهكم إلى بيت المقدس . إذا كان لكم أيها المسلمون دين يخالف ديننا فلماذا تتجهون إلى قبلتنا، إلى غير ذلك من أقوالهم الفاسدة فاتجاهكم إلى المسجد الحرام من شأنه أن يزيل هذه الحجة التي قد تبدو مقبولة في نظر ضعاف العقول .

وقوله تعالى : ﴿إلا الذين ظلموا﴾ استثناء من الناس، والمعنى :

لئلا يكون لأحد من اليهود حجة عليكم، إلا المعاندين منهم القائلين : ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا حباً لدين قومه، واشتياًقاً لمكة، وهؤلاء لا تخافون مطاعنهم بل اجعلوا خوفكم مني وحدي ولا تقيموا لما يشاغبون به في أمر القبلة وغيره وزنا، فإنني كفيلاً أن أرد عنكم كيدهم وأحبط سعيهم، فأنتم، أيها المؤمنون - ما توجهتم إلى بيت المقدس ثم إلى المسجد الحرام إلا بإذن ربكم وأمره، ففي الحالتين أنتم مطيعون لخالقكم - عز وجل - .

وقد أحسن صاحب الكشاف في شرحه للجمله الكريمة، وصرح بأنه يجوز أن يراد بالناس وبالذين ظلموا مشركو العرب فقال :

﴿إلا الذين ظلموا﴾ استثناء من الناس، ومعناه : لئلا يكون حجة لأحد من اليهود إلا

للمعاندین منهم، القائلین ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا ميلا إلى دين قومه وحبًا لبلده، ولو كان على الحق للزم قبلة الأنبياء قبله، فإن قلت: أى حجة كانت تكون للمنصفين منهم لو لم يحول حتى احترز من تلك الحجة، ولم يبال بحجة المعاندین؟.

قلت: كانوا يقولون ما له لا يحول إلى قبلة أبيه إبراهيم كما هو مذكور في نعته في التوراة؟ فإن قلت: كيف أطلق اسم الحجة على قول المعاندین؟

قلت: لأنهم يسوقونه سياق الحجة، ويجوز أن يكون المعنى: لثلا يكون للعرب عليكم حجة واعتراض في ترككم التوجه إلى الكعبة التي هي قبلة إبراهيم وإسماعيل أبي العرب إلا الذين ظلموا منهم وهم أهل مكة، حين يقولون بداله فرجع إلى قبلة آباءه، ويوشك أن يرجع إلى دينهم»^(١).

وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَلَأْتِمَّ نَعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ أى: ولوا وجوهكم شطر المسجد الحرام ﴿لثلا يكون للناس عليكم حجة﴾ ولتكون قبلتكم مستقلة عن قبلة اليهود وغيرهم، فالجملة الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - : ﴿لثلا يكون للناس عليكم حجة﴾.

وثالثها: قوله - تعالى - : ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أى: ولكي ترشدوا للصواب في كل أموركم فما ضلت عنه الأمم من الحق هديناكم إليه، وخصصناكم به ولهذا كانت أمتكم خير أمة أخرجت للناس.

والجملة الكريمة معطوفة على الجملة السابقة وهي قوله تعالى: ﴿وَلَأْتِمَّ نَعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾. وبذلك تكون الآيات الكريمة التي نزلت في شأن تحويل القبلة إلى المسجد الحرام قد ثبتت المؤمنين، ودحضت كل شبهة أوردها اليهود وغيرهم في هذه المسألة.

خامسًا: هذا، وفي ختام هذا البحث نحب أن نجيب على السؤال الخامس، وهو:

لماذا فصل القرآن الكريم الحديث عن تحويل القبلة فنقول:

لقد شرع الله - تعالى - تحويل القبلة إلى الكعبة بعد أن صلى المسلمون إلى بيت المقدس فترة من الزمان، وركز الأمر بتولية الوجوه إلى المسجد الحرام عند الصلاة، وأقام الأدلة الساطعة على أن ذلك التحويل هو الحق، وأتى بألوان من الوعيد لمن لم يتبع أوامره، وساق وجوهاً من التأكيدات تدل على عناية بالغة بشأنها.

والمقتضى لهذه العناية وذلك التفصيل - مع أن التوجه إليها فرع من فروع الدين - هو أن التحويل من بيت المقدس إلى المسجد الحرام. كان أول نسخ في الإسلام - كما قال بذلك كثير

من العلماء - والنسخ من مظان الفتنة والشبهة وتسويل الشيطان، فاقضى الأمر بسط الحديث في مسألة القبلة ليزدادوا إيماناً على إيمانهم.

ولأن هذا التحويل - أيضاً - جاء على خلاف رغبة اليهود، فإنهم كانوا يحرصون على استمرار المسلمين في التوجه إلى بيت المقدس، لأنه قبلتهم، فلما حصل التحويل إلى المسجد الحرام، اتخذوا منه مادة للطعن في صحة النبوة ليفتنوا ضعفاء العقيدة، وسلخوا لبلبله أفكار المسلمين كل وسيلة.

فزعوا أن نسخ الحكم بعد شرعه مناف للحكمة، ومباين للعقول، فلا يقع في الشرائع الإلهية، وساقوا من الشبهات والمفتريات ما بينا بعضه عند تفسيرنا للآيات الكريمة.

ويبدو أن شغبهم هذا، كان له آثاره عند ذوى النفوس المريضة وضعاف الإيمان فلهذا كله أخذت مسألة القبلة شأنًا غير شأن بقية الأحكام الفرعية، فكان مقتضى الحال أن يكون الحديث عنها مستفيضًا، ومدعمًا بالأدلة والبراهين، وهذا ما راعاه القرآن الكريم عند حديثه عن مسألة القبلة، فلقد قرر وكرر، ووعد وتوعد، ووضح وبين، ليدفع كل شبهة، وليجثت كل حجة، ويزيد المؤمنين إيمانًا على إيمانهم، وينهض بضعفاء الإيمان إلى منزلة الراسخين في العلم، ويهوى باليهود ومن حذا حذوهم في مكان سحيق، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وبعد أن أنهى القرآن حديثه عن نعمة تحويل القبلة أتبعه بالحديث عن نعمة جلييلة أخرى وهى نعمة ارسال الرسول فيهم لهدايتهم فقال - تعالى - :

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ
يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَأذْكُرُونِي
أذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾

وقوله - تعالى - : ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ .. إلخ متصل بما قبله، والكاف للتشبيه وهى فى موضع نصب على أنها نعت لمصدر محذوف وما مصدرية، والتقدير : لقد حولت القبلة إلى شطر المسجد الحرام لأتم نعمتى عليكم إتمامًا مثل إتمام نعمتى عليكم بإرسال

الرسول ﷺ فيكم، إجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل إذ قالوا ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم...﴾.

وقيل إن قوله - تعالى - : ﴿كما أرسلنا﴾ .. إلخ متصل بما بعده، فتكون الكاف للمقابلة، أى : كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يعلمكم الدين القويم، والخلق المستقيم ومنحتكم هذه النعمة فضلا منى وكرماً، فاذكرونى بالشكر عليها أذكركم برحمتى وثوابى. وقوله : ﴿فيكم﴾ متعلق «بأرسلنا» وقدم على المفعول تعجيلا بإدخال السرور : وقوله : ﴿منكم﴾ فى موضع نصب، لأنه صفة لقوله : ﴿رسولا﴾ والمخاطبون بهذه الآية الكريمة هم العرب.

وفى إرساله الرسول ﷺ فيهم وهو منهم نعمة تستوجب المزيد من الشكر، لأن إرساله منهم يسبقه معرفتهم لنشأته الطيبة وسيرته العطرة، ومن شأن هذه المعرفة أن تحملهم على المسارعة إلى تصديقه والإيمان به، ولأن فى إرساله فيهم وهو منهم شرف عظيم لهم، ومجد لا يعد له مجد، حيث جعل - سبحانه - خاتم رسله من هذه الأمة، ولأن المشهور من حالهم الأنفة الشديدة من الانقياد، فكون الرسول منهم ادعى إلى إيمانهم به وقبولهم لدعوته. وقوله : ﴿يتلو عليكم آياتنا﴾ صفة ثانية للرسول ﷺ.

والتلاوة : ذكر الكلمة بعد الكلمة على نظام متسق، وأصله من الإتياع ومنه تلاه، أى : تبعه. والمراد من الآيات : آيات القرآن الكريم، وتلاوتها قراءتها، فإن البصير بأساليب البيان العربى يدرك من مجرد تلاوة آيات القرآن كيف ارتفع إلى الذروة التى كان بها معجزة ساطعة.

وفى هذه الجملة - كما قال الألوسى - «إشارة إلى طريق إثبات نبوته - عليه الصلاة والسلام - لأن تلاوة الأُمى للآيات الخارجة عن طوق البشر باعتبار بلاغتها واشتمالها على الإخبار بالمغيبات والمصالح التى ينتظم بها أمر المعاد والمعاش أقوى دليل على نبوته»^(١) :

وعبر بقوله : ﴿يتلو﴾، لأن نزول القرآن مستمر، وقراءة النبى ﷺ له متوالية، وفى كل قراءة يحصل علم المعجزات للسامعين.

ويجوز أن يراد بالآيات : دلائل التوحيد والنبوة والبعث، وتلاوتها التذكير بها حتى يزداد المؤمنون إيماناً بصدقها.

وقوله : ﴿ويرذككم﴾ صفة ثالثة للرسول ﷺ، أى : ويظهركم من الشرك، ومن الأخلاق الذميمة. وإذا أشرفت النفوس بنور الحق، وتحملت بالأخلاق الحميدة، قوبت على تلقى ما يرد عليها من الحقائق السامية.

وقوله: ﴿ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾ صفة رابعة للرسول ﷺ. والمراد بالكتاب: القرآن، وتعليمه بيان ما يخفى من معانيه، فهو غير التلاوة، فلا تكرار بين قوله ﴿يتلو عليكم آياتنا﴾ وبين قوله ﴿ويعلمكم الكتاب﴾.

والحكمة: ما يصدر عنه ﷺ من الأقوال والأفعال التي جعل الله للناس فيها أسوة حسنة. قال بعضهم: وقدمت جملة ﴿ويزكيكم﴾ هنا على جملة ﴿ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾ عكس ما جاء في الآية السابقة في حكاية قول إبراهيم ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم﴾ لأن المقام هنا للامتثال على المسلمين، فقدّم ما يفيد معنى المنفعة الحاصلة من تلاوة الآيات عليهم وهي منفعة تزكية نفوسهم اهتماماً بها، وبعثاً لها بالحرص على تحصيل وسائلها وتعجيلها للبشارة بها. أما في دعوة إبراهيم فقد رتب الجمل على حسب ترتيب حصول ما تضمنته في الخارج، مع ما في ذلك التخالف من التفنن^(١).

وقوله - تعالى - : ﴿ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ صفة خامسة له ﷺ.

أى: «ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمونه مملا طريق إلى معرفته سوى الوحي. ومالم يكونوا يعلمونه وعلمهم إياه ﷺ وجوه استنباط الأحكام من النصوص أو الأصول المستمدة منها، وأخبار الأمم الماضية، وقصص الأنبياء، وغير ذلك مما لم تستقل بعلمه عقولهم. وبهذا النوع من التعليم صار الدين كاملا قبل انتهاء عهد النبوة.

ولقد كان العرب قبل الإسلام في حالة شديدة من ظلام العقول وفساد العقائد... فلما أكرمهم الله - تعالى - برسالة رسوله ﷺ وتلا عليهم الآيات، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، خرج منهم رجال صاروا أمثالا عالية في العقيدة السليمة، والأخلاق القويمة والأحكام العادلة، والسياسة الرشيدة لمختلف البيئات والنزعات.

قال الألويسي: وكان الظاهر أن يقول: «ويعلمكم الكتاب والحكمة ومالم تكونوا تعلمون» بحذف الفعل «يعلمكم» من الجملة الأخيرة، ليكون الكلام من عطف المفرد على المفرد، إلا أنه - تعالى - كرر الفعل للدلالة على أنه جنس آخر غير مشارك لما قبله أصلا، فهو تخصيص بعد التعميم مبين لكون إرساله ﷺ نعمة عظيمة، ولولاه لكان الخلق متحيرين في أمر دينهم لا يدرون ماذا يصنعون^(٢).

(١) تفسير التحرير والتنوير ج ٢ ص ٤٥ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور.

(٢) تفسير الألويسي ج ٢ ص ١٩.

ثم أمر الله عباده بأن يكثرُوا من ذكره وشكره على ما أسبغ عليهم من نعم فقال : ﴿فأذكروني أذكركم...﴾ .

ذكر الشيء : التلطف باسمه، ويطلق بمعنى استحضاره في الذهن، وهو ضد النسيان وذكر العباد لخالفهم قد يكون باللسان وقد يكون بالقلب وقد يكون بالجوارح . فذكرهم إياه بألستهم معناه : أن يحمده ويسبحوه ويمجده، ويقرءوا كتابه، مع استحضارهم لعظمته وجلاله . وذكرهم إياه بقلوبهم معناه أن يتفكروا في الدلائل الدالة على ذاته وصفاته وفي تكاليفه وأحكامه، وأوامره ونواهيه، وأسرار مخلوقاته، لأن هذا التفكير يقوى إيمانهم، ويصفي نفوسهم .

وذكرهم إياه بجوارحهم معناه : أن تكون جوارحهم وحواسهم مستغرقة في الأعمال التي أمروا بها، منصرفة عن الأفعال التي نهوا عنها، ولكون الصلاة مشتملة على هذه الثلاثة سماها الله - تعالى - ذكراً في قوله : ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع...﴾ .

وقوله : ﴿فأذكروني أذكركم﴾ أمر وجوابه، وفيه معنى المجازاة فلذلك جزم .

والمعنى : اذكروني بالطاعة والاستجابة لما أمرتكم به والبعد عما نهيتكم عنه أذكركم بالرعاية، والنصرة، وصلاح الأحوال في الدنيا، وبالرحمة وجزيل الثواب في الآخرة . فالذكر في قوله «أذكركم» مستعمل فيما يترتب على الذكر من المجازاة بما هو أوفى وأبقى، كما أن قوله «فأذكروني» المراد به : اذكروا عظمتي وجلالي ونعمي عليكم، لأن هذا التذكر هو الذي يبعث على استفراغ الوسع في الأقوال والأعمال التي ترضى الله .

قال صاحب المنار : وقال الأستاذ الإمام : هذه الكلمة - وهي قوله - تعالى - ﴿فأذكروني أذكركم﴾ - من الله - تعالى - كبيرة جداً، كأنه يقول : إنني أعاملكم بما تعاملونني به وهو الرب ونحن العبيد، وهو الغنى عنا ونحن الفقراء إليه . وهذه أفضل تربية من الله لعباده : إذا ذكروه ذكرهم بإدامة النعمة والفضل، وإذا نسوه نسيهم وعاقبهم بمقتضى العدل^(١) .

هذا، وقد وردت أحاديث متعددة في فضل الذكر والذاكرين، ومن ذلك ما رواه الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ يقول الله - تعالى - : أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني . فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي . وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير

منهم . وإن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعاً . وإن تقرب إلى ذراعاً تقربت إلى باعاً . وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» .

وروى مسلم عن أبي سعيد الخدرى وأبي هريرة : أنهما شهدا على النبي ﷺ أنه قال : لا يقعد قوم يذكرون الله - تعالى - إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده» .

قال الإمام النووى : واعلم أن فضيلة الذكر غير منحصرة في التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ونحو ذلك ، بل كل عامل لله - تعالى - بطاعة فهو ذاكِرُ الله - تعالى - .
وقوله - تعالى - : ﴿واشكروا لى ولا تكفرون﴾ معطوف على ما قبله .

والشكر في اللغة - كما يقول القرطبي - الظهور ، ومنه قولهم : دابة شكور إذا ظهر عليها من السمن فوق ما تعطى من العلف .

وحقيقته : عرفان الإحسان وإظهاره بالثناء على المحسن ، يقال شكره وشكر له كما يقال نصحه ونصح له .

وأصل الكفر في كلام العرب الستر والتغطية والجحود ، ويستعمل بمعنى عدم الإيمان فيتعدى بالباء فيقال : كفر بالله ، ويستعمل بمعنى عدم الشكر - وهو المراد هنا - فيتعدى بنفسه ، فيقال : كفر النعمة أى جحدها وكفر المنعم أى جحد نعمته ولم يقابلها بالشكر .

والمعنى : اشكروا لى ما أنعمت به عليكم من ضروب النعم ، بأن تستعملوا النعم فيما خلقت له ، وبأن تطيعوني في السر والعلن ، وحذار من أن تجحدوا إحسانى إليكم ، ونعمى عليكم فاسلبكم إياها .

قال - تعالى - : ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾^(١) .
وقدم - سبحانه - الأمر بالذكر على الأمر بالشكر ، لأن في الذكر اشتغالا بذاته - تعالى - ، وفي الشكر اشتغالا بنعمته ، والاشتغال بذاته أولى بالتقديم من الاشتغال بنعمته . وقوله ﴿ولا تكفرون﴾ تأكيد لقوله ﴿واشكروا لى﴾ .

وهذا تحذير لهذه الأمة حتى لا تقع فيما وقع فيه بعض الأمم السابقة التى ﴿كفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾ .

وبعد أن أمر - سبحانه - عباده بذكره وشكره ، وجه نداء إليهم بين لهم فيه ما يعينهم على ذلك ، كما بين لهم منزلة الشهداء ، وعاقبة الصابرين على البلاء فقال - تعالى - :

(١) سورة إبراهيم الآية ٦ .

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ

ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾
 وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ
 لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ
 وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ
 ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ
 ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ
 هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

الصبر: حبس النفس على احتمال المكاره، وتوطئتها على تحمل المشاق وتجنب الجزع.
 والمعنى: يامن آمنتم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، استعينوا على إقامة دينكم
 والدفاع عنه، وعلى فعل الطاعات وترك المعاصي، وعلى احتمال المكاره التي تجري بها الأقدار،
 استعينوا على كل ذلك بالصبر الجميل وبالصلاة المصحوبة بالخشوع والإخلاص والتذلل
 للخالق - عز وجل - فإن الإيمان الذي خالط قلوبكم يستدعى منكم القيام بالمصاعب،
 واحتمال المكاره، ولقاء الأذى من عدو أو سفيه، ولن تستطيعوا أن تتغلبوا على كل ذلك
 إلا بالصبر والصلاة.

ولقد استجاب النبي ﷺ لهذا التوجيه الرباني، وتأسى به أصحابه في ذلك، فقد أخرج
 الإمام أحمد - بسنده - عن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ «كان إذا حزبه أمر صلى» (١)
 أي: إذا شق عليه أمر لجأ إلى الصلاة لله رب العالمين.

وافتححت الآية الكريمة بالدعاء، لأن فيه إشعاراً بخبر مهم عظيم، فإن من شأن الأخبار
 العظيمة التي تهول المخاطب أن يقدم قبلها ما يبيء النفس لقبولها لتستأنس بها قبل أن تفجأها.

ولعل مما يشهد بأفضلية هذه الأمة على غيرها من الأمم، أن الله - تعالى - قد أمر بني إسرائيل في السورة نفسها بالاستعانة بالصبر والصلاة فقال: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ إلا أنه - سبحانه - قال لهم: ﴿وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾ ليشعرهم بضعف عزائمهم عن عظام الأعمال، ولم يقل - سبحانه - للمؤمنين ذلك في الآية التي معنا، للإيماء إلى أنهم قد يسر لهم ما يصعب على غيرهم، وأنهم هم الخاشعون الذين استثناهم الله هنالك.

وقوله - تعالى - : ﴿إن الله مع الصابرين﴾ بيان لحكمة الاستعانة بالصبر وهو الفوز والنصر. أى: إن الله مع الصابرين بمعونته ونصره، وتوفيقه وتسديده فهي معية خاصة، وإلا فهو - سبحانه - مع جميع خلقه بعلمه وقدرته.

وقال - سبحانه - : ﴿إن الله مع الصابرين﴾ ولم يقل «مع المصلين» لأن الصلاة المستوفية لأركانها وسننها وخشوعها لا تتم إلا بالصبر، فالمصلون بحق داخلون في قوله - تعالى - : ﴿إن الله مع الصابرين﴾.

ولم يقل «معكم» ليفيد أن معونته إنما تمدهم إذا صار الصبر وصفا لازما لهم. قال الأستاذ الإمام: إن من سنة الله: - تعالى - أن الأعمال العظيمة لا تتم ولا ينجح صاحبها إلا بالثبات والاستمرار، وهذا إنما يكون بالصبر، فمن صبر فهو على سنة الله والله معه، لأنه - سبحانه - جعل هذا الصبر سبباً للظفر، إذ هو يولد الثبات والاستمرار الذي هو شرط النجاح، ومن لم يصبر فليس الله معه، لأنه تنكب سنته، ولن يثبت فيبلغ غايته^(١). ثم نهى - سبحانه - المؤمنين عن أن يقولوا للشهداء أمواتاً فقال: ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات. بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾.

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : نزلت هذه الآية في قتلى غزوة بدر، قتل من المسلمين فيها أربعة عشر رجلاً: ست من المهاجرين وثمانية من الأنصار وكان الناس يقولون. مات فلان ومات فلان. فنهى الله - تعالى - أن يقال فيهم: إنهم ماتوا. وقيل إن الكفار والمنافقين قالوا: إن الناس يقتلون أنفسهم طلباً لمرضاة محمد من غير فائدة، فنزلت هذه الآية^(٢).

والسبيل: الطريق وسبيل الله: طريق مرضاته، وإنما قيل للجهد سبيل الله، لأنه طريق إلى ثواب الله وإعلاء كلمته. و«أموات» مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى: لا تقولوا هم

(١) تفسير المنار ج ٢ ص ٣٧.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ١٢٣.

أموات وكذلك قوله «أحياء خبر لمبتدأ محذوف أى : هم أحياء» .

قال الألوسى : «والجملة معطوفة على «لا تقولوا» اضراب عنه، وليس من عطف المفرد على المفرد ليكون في حيز القول ويصير المعنى بل قولوا أحياء، لأن المقصود إثبات الحياة لهم لا أمرهم بأن يقولوا في شأنهم إنهم أحياء وإن كان ذلك أيضًا صحيحًا» (١).

أى : لا تقولوا أيها المؤمنون لمن يقتل من أجل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه إنهم أموات، بمعنى أنهم تلفت نفوسهم وعدموا الحياة، وتصرمت عنهم اللذات، وأضحوا كالجمادات كما يتبادر من معنى الميت، بل هم أحياء - في عالم غير عالمكم كما قال - تعالى - : ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا، بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾ .

وقوله : ﴿ولكن لا تشعرون﴾ أى : لا تحسون ولا تدركون حالهم بالمشاعر، لأنها من شئون الغيب التى لا طريق للعلم بها إلا الوحي .

قال الألوسى ما ملخصه : ثم إن نهى المؤمنين عن أن يقولوا في شأن الشهداء أموات، إما أن يكون دفعًا لإيهام مساواتهم لغيرهم في ذلك البرزخ . . . وإما أن يكون صيانة لهم عن النطق بكلمة قالها أعداء الدين والمنافقون في شأن أولئك الكرام قاصدين بها أنهم حرموا من النعيم ولن يروه أبدًا . . . ثم قال : وقد اختلف في هذه الحياة التى يجيها أولئك الشهداء عند ربهم : فذهب كثير من السلف إلى أنها حقيقة بالروح والجسد ولكنها لا ندرکہا في هذه النشأة واستدلوا بسباق قوله - تعالى - : ﴿عند ربهم يرزقون﴾ وبأن الحياة الروحانية التى ليست بالجسد ليست من خواصهم فلا يكون لهم امتياز بذلك على من عداهم . وذهب البعض إلى أنها روحانية وكونهم يرزقون لا ينافي ذلك . . . وذهب البلخى إلى نفى الحياة عنهم وقال ؛ معنى ﴿بل أحياء﴾ إنهم يحيون يوم القيامة فيجزون أحسن الجزاء . فالآية على حد قوله - تعالى - ﴿إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم﴾ . . . وذهب بعضهم إلى إثبات الحياة الحكمية لهم بسبب ما نالوا من الذكر الجميل والثناء الجليل، كما روى عن على أنه قال : «هلك خزان الأموال والعلماء باقون ما بقى الدهر، أعيانهم مفقودة وآثارهم فى القلوب موجودة» .

ثم قال : «ولا يخفى أن هذه الأقوال - ما عدا الأولين - فى غاية الضعف، بل نهاية البطلان، والمشهور ترجيح القول الأول» .

والذى نراه أن الآية الكريمة قد نيهتنا إلى أن للشهداء مزية تجعلهم مفضلين عن سواهم من كثير من الناس، وهى أنهم فى حياة سارة، ونعيم مقيم عند ربهم، وهذه الحياة الممتازة تسمى بهم عن أن يقال فيهم كما يقال فى غيرهم إنهم أموات وإن كان المعنى اللغوى للموت حاصلًا لهم، ونحن نؤمن بهذه الحياة السارة لهم عند ربهم ونعتقد صحتها كما ذكرها الله - تعالى - إلا أننا نفوض كقيمتها وكنهها إليه - سبحانه - إذ لا يمكن إدراكها إلا من طريق الوحي، كما قال - تعالى - : ﴿ولكن لا تشعرون﴾ أى : لا تشعرون بحياتهم بعد مفارقتهم لهذه الدنيا، لأنها حياة من نوع معين لا يعلمها إلا علام الغيوب .

وبعد أن طلب - سبحانه - من عباده أن يستعينوا بالصبر والصلاة على احتمال المكاره، أردف ذلك بذكر بعض المواطن التى لا يمر فيها الإنسان بسلامة إلا إذا اعتصم بعرى الصبر فقال - تعالى - ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات﴾ .

وقوله : ﴿ولنبلونكم﴾ من البلو والبلاء وهو الامتحان والاختبار، وهو جواب لقسم محذوف والتقدير : والله لنبلونكم .

وقوله : ﴿ولنبلونكم﴾ عطف على قوله : ﴿واستعينوا﴾ الخ، عطف المضمون على المضمون، والجامع أن مضمون الأول طلب الصبر، ومضمون الثانية بيان مواطنه، والمراد : ولنعاملكم معاملة المختبر والمبتلى لأحوالكم :

والتنوين فى قوله : ﴿بشيء﴾ للتقليل . أى بقليل من كل واحد من هذه البليات والمحن وهى الخوف وما عطف عليه .

وإنما قلل - كما قال الزمخشري - ليؤذن أن كل بلاء وإن جل ففوقه ما يقل إليه وليخفف عليهم ويريمهم أن رحمته معهم فى كل حال لا تزييلهم، وأنه - سبحانه - يبتليهم من هذه المصائب بقدر ما يمتاز به الصابرون من غير الصابرين .

و ﴿الخوف﴾ غم يلحق النفس لتوقع مكروه، ومن أشد ما تضطرب له النفوس من الخوف، خشيتها أن تقع تحت يد عدو لاهم له إلا إيذاؤها بما تكره .

و ﴿الجوع﴾ ضد الشبع، والمراد منه القحط، وتعذر تحصيل القوت، والحاجة الملحة إلى طعام .

و ﴿الأموال﴾ جمع مال، وهو ما يملك مما له قيمة، وجرى للعرب عرف باستعماله فى النعم خاصة - وهى الإبل والبقر والغنم - .

و﴿الثمرات﴾: جمع ثمرة وهى حمل الشجر، وقد تطلق على الشجر والنبات نفسه.
والمعنى: ولنصيبينكم بشيء من الخوف وبشيء من الجوع، وبشيء من النقص فى الأنفس والأموال والثمرات، لىظهر هل تصبرون أو لا تصبرون، فترتب الثواب على الصبر والثبات على الطاعة، وترتب العقاب على الجزع وعدم التسليم لأمر الله - تعالى - .

ولقد حدث للمسلمين الأولين خوف شديد بسبب تألب أعدائهم عليهم كما حصل فى غزوة الأحزاب. وحدث لهم جوع أليم بسبب هجرتهم من أوطانهم، وقلة ذات يدهم حتى لقد كان النبى ﷺ يشد الحجر على بطنه. وحدث لهم نقص فى أموالهم بسبب اشتغالهم بإعلاء كلمة الله. وحدث لهم نقص فى أنفسهم بسبب قتالهم لأعدائهم. ولكن كل هذه الآلام لم تزدهم إلا إيماناً وتسليماً لقضاء الله وقدره، واستمساکاً بتعاليم دينهم

وهذا البلاء وتلك الآلام لا بد منها ليؤدى المؤمنون تكاليف العقيدة، كى تعز على نفوسهم بمقدار ما أدوا فى سبيلها من تكاليف، إذ العقائد الرخيصة التى لا يؤدى أصحابها تكاليفها لا يعز عليهم تركها عند الصدمة الأولى، وليعلم من جاء بعدهم من المؤمنين إذا ما أصابهم مثل هذه الأمور أن ما أصابهم ليس لنقصان من درجاتهم، وحط من مراتبهم، فقد أصيب بمثل ذلك أو أكثر من هم أفضل منهم وهم أصحاب النبى ﷺ.

قال الإمام الرازى: وأما الحكمة فى تقديم تعريف هذا الابتلاء. أى الإخبار به قبل وقوعه: ففيها وجوه:

أحدها: ليوطنوا أنفسهم على الصبر عليها إذا وردت فىكون ذلك أبعد لهم عن الجزع وأسهل عليهم بعد الورود.

وثانيها: أنهم إذا علموا أنه ستصل إليهم تلك المحن اشتد خوفهم، فىصير ذلك الخوف تعجيلاً للابتلاء، فىستحقون به مزيد الثواب.

وثالثها: أن الكفار إذا شاهدوا النبى ﷺ وأصحابه مقيمين على دينهم مستقرين عليه، مع ما كانوا عليه من نهاية الضر والمحنة والجوع - يعلمون أن القوم إنما اختاروا هذا الدين لقطعهم بصحته فىدعوهم ذلك إلى مزيد التأمل فى دلائله. ومن المعلوم الظاهر أن التبوع إذا عرفوا أن المتبوع فى أعظم المحن بسبب المذهب الذى ينصره، ثم رأوه مع ذلك مصراً على ذلك المذهب: كان ذلك أدعى لهم إلى اتباعه مما إذا رأوه مرفه الحال لا كلفة عليه فى ذلك المذهب.

ورابعها: أنه - تعالى - أخبر بوقوع ذلك الابتلاء قبل وقوعه فوجد مخبر ذلك الخبر على ما أخبر عنه. فكان إخباراً عن الغيب فكان معجزاً.

وخامسها: أن من المنافقين من أظهر متابعة الرسول طمعاً في المال وسعة الرزق، فإذا اختبره - سبحانه - بنزول هذه المحن، فعند ذلك يتميز المنافق عن الموافق.

وسادسها: أن إخلاص الإنسان حالة البلاء ورجوعه إلى باب الله - تعالى - أكثر من إخلاصه حال إقبال الدنيا عليه. فكانت الحكمة في هذا الابتلاء ذلك^(١).

ثم بعد أن بين - سبحانه - مواطن تضطرب فيها النفوس أردف ذلك يذكر عاقبة الصبر، وجزائه الأسنى، فقال: ﴿وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾.

الخطاب في قوله: ﴿وبشر﴾ للنبي ﷺ أو لكل من تتأق منه البشارة. والجملة عطف على «لنبلونكم» عطف المضمون على المضمون أى: الابتلاء حاصل لكم وكذا البشارة لكن لمن صبر.

و﴿المصيبة﴾ اسم فاعل من الإصابة، والمرأ بها الآلام الداخلة على النفس بسبب ما ينالها من الشدائد والمحن.

و﴿راجعون﴾ من الرجوع بمعنى مصير الشيء إلى ما كان عليه، يقال: رجعت الدار إلى فلان إذا ملكها مرة ثانية، وهو نظير العود والمصير.

والمعنى: وبشر يا محمد بالرحمة العظيمة والإحسان الجزيل، أولئك الصابرين الذين من صفاتهم أنهم إذا نزلت بهم مصيبة، في أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم، أو غير ذلك، قالوا: بألستهم وقلوبهم على سبيل التسليم المطلق لقضاء الله والرضا بقدره ﴿إنا لله﴾ أى: إنا لله ملكا وعبودية، والمالك يتصرف في ملكه ويقبله من حال إلى حال كيف يشاء، «وإنا إليه راجعون» أى: وإنا إليه صائرون يوم القيامة فيجازينا على ما أمرنا به من الصبر والتسليم لقضائه عند نزول الشدائد التي ليس في استطاعتنا دفعها.

فقولهم: ﴿إنا لله﴾ إقرار بالعبودية والملكية لله رب العالمين. وقولهم «وإنا إليه راجعون» إقرار بصحة البعث والحساب والثواب والعقاب يوم القيامة.

وليست هذه البشارة موجّهة إلى الذين يقولون بألستهم هذا القول مع الجزع وعدم الرضا بالقضاء والقدر، وإنما هذه البشارة موجّهة إلى الذين يتلقون المصائب بالسكينة والتسليم لقضاء الله لأول حلولها، يشير إلى هذا قوله - تعالى - : ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا﴾ فإنه يدل على أنهم يقولون ذلك وقت الإصابة «ويصرح بهذا قوله ﷺ «الصبر عند الصدمة الأولى».

وهذه الجملة الكريمة وهي قوله - تعالى - : ﴿الذين إذا أصابتهم﴾ . الخ وصف كريم لأولئك الصابرين، لأنها أفادت أن صبرهم أكمل الصبر، إذ هو صبر مقترن ببصيرة مستنيرة جعلتهم يقرون عن عقيدة صادقة أنهم ملك لله يتصرف فيهم كيف يشاء، ومن ربط نفسه بعقيدة أنه ملك لله وأن المرجع إليه، يكون بذلك قد هيأها للصبر الجميل عند كل مصيبة تفاجئه .

قال القرطبي : جعل الله هذه الكلمات وهي قوله - تعالى - : ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ ملجأ لذوى المصائب، وعصمة للممتحنين، لما جمعت من المعاني الميارقة، فإن قوله «إنا لله» توحيد وقرار بالعبودية والملك وقوله ﴿إنا إليه راجعون﴾ إقرار بالملك على أنفسنا والبعث من قبورنا، واليقين أن رجوع الأمر كله إليه كما هو له . قال سعيد بن جبير : لم تعط هذه الكلمات نبياً قبل نبينا، ولو عرفها يعقوب لما قال : يا أسفى على يوسف^(١) .

هذا، ولا يتنافى مع الصبر ما يكون من الحزن عند حصول المصيبة، فقد ورد في الصحيحين أن النبي ﷺ بكى عند موت ابنه إبراهيم وقال : العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون .

وإنما الذى ينافيه ويؤاخذ الإنسان عليه، الجزع المفضى إلى إنكار حكمة الله فيما نزل به من بأساء أو ضراء، أو إلى فعل ما حرمه الإسلام من نحو النياحة وشق الجيوب، ولطم الخدود .

ثم بين - سبحانه - ما أعده للصابرين من أجر جزيل فقال : ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة، وأولئك هم المهتدون﴾ .

﴿أولئك﴾ اسم إشارة، أتى به - سبحانه - للتنبيه على أن المشار إليه هم الموصوفون بجميع الصفات السابقة على اسم الإشارة، وأن الحكم الذى ورد بعد مترتب على هذه الأوصاف .

و ﴿الصلوات﴾ جمع صلاة . وصلاة الله على عباده إقباله عليهم . بالثناء والعطف والمغفرة . وجمعت مراعاة لكثرة ما يترتب عليها من أنواع الخيرات فى الدنيا والآخرة .

﴿الرحمة﴾ - كما هو مذهب السلف - صفة قائمة بذاته - تعالى - لا نعرف حقيقتها وإنما نعرف أثرها الذى هو الإحسان .

وعطف - سبحانه - الرحمة على الصلوات ليدل على أن بعد ذلك الإقبال منه على عباده إنعاماً واسعاً، وعطاء جزيلاً فى الدنيا والآخرة .

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٧٦ طبعة دار الكتب الطبعة الثانية سنة ١٣٧٣ هـ .

وجاءت الرحمة مفردة على أصل المصادر وهو الأفراد، والمقام في الآية يذهب يذهن السامع إلى كثرة الإنعام المترتب على الصبر الجميل.

والجملة ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾ استثنائية جواب عن سؤال تقديره: بماذا بشر الله الصابرين؟ فكان الجواب: أولئك عليهم صلوات... إلخ.

والمعنى: أولئك الصابرون المحتسبون الموصوفون بتلك الصفات الكريمة، عليهم مغفرة عظيمة من خالقهم، وإحسان منه - سبحانه - يشملهم في دنياهم وآخرتهم ﴿وأولئك هم المهتدون﴾ لطريق الصواب بالتسليم وقت صدمة المصيبة دون غيرهم ممن جزعوا عند صدمتها، حتى صدر عنهم ما لم يأذن به الله.

هذا، وفي فضل الصبر والصابرين وردت آيات كثيرة، وأحاديث متعددة أما الآيات فيزيد عددها في القرآن على سبعين آية منها قوله - تعالى - : ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا﴾ وقوله ﴿وليجزي الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ وقوله: ﴿وأولئك يؤتتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾ وقوله: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

وأما الأحاديث فمنها ما جاء في صحيح مسلم عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون. اللهم أجرني في مصيبتى واخلف لي خيراً منها إلا أجره الله في مصيبتى وأخلف له خيراً منها. قالت: فلما توفي أبو سلمة قلت: من خير من أبي سلمة: صاحب رسول الله؟ ثم عزم الله لي فقلتها: قالت: فتزوجني رسول الله ﷺ.

ومنها ما رواه الإمام أحمد بسنده عن أبي سنان قال: دفنت ابنا لي. وإني لفي القبر أخذ بيدي أبو طلحة «يعني الخولاني» فأخرجني وقال: ألا أبشرك؟ قال قلت: بلى. قال: حدثني الضحاك بن عبد الرحمن بن عوزب عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ قال الله - تعالى - : يا ملك الموت، قبضت ولد عبدى، قبضت قرة عينه وثمره فؤاده؟ قال: نعم. قال فماذا قال؟ قال حمدك واسترجع. قال الله - تعالى - : ابنوا له بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد.

ومنها ما رواه الشيخان عن أبي سعيد وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال: ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها.

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التي وردت في ثواب الاسترجاع وفي أجر الصابرين وفضلهم.

ثم تحدث - سبحانه - عن شعيرة من شعائر الحج فقال :

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ^ط
فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ
بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾

قال الألوسي : بعد أن أشار - سبحانه - فيما تقدم إلى الجهاد عقب ذلك ببيان معالم الحج ، فكأنه جمع بين الحج والغزو، وفيها شق الأنفس وتلف الأموال. وقيل لما ذكر الصبر عقبه يبحث الحج لما نيه من الأمور المحتاجة إليه^(١).

و﴿الصفاء﴾ في اللغة : الحجر الأملس، مأخوذ من صفا يصفو إذا خلص، واحده صفاة فهو مثل حصي وحصاة ونوى ونواة.

و﴿المروة﴾ في أصل اللغة : الحجر الأبيض اللين، وقيل : الحصاة الصغيرة. وهما - أي الصفا والمروة - قد جعلتا علمين لجبلين معروفين بمكة كانا على بعد ما يقرب من ألف ذراع من المسجد الحرام. والألف واللام فيهما للتعريف لا للجنس. ومع توسعة المسجد الحرام صاروا متصلين به.

و﴿الشعائر﴾ جمع شعيرة، من الإشعار بمعنى الإعلام، ومنه قولك شعرت بكذا، أي : علمت به.

وكون الصفا والمروة من شعائر الله، أي : أعلام دينه ومتعبداته. تعبدنا الله بالسعى بينهما في الحج والعمرة.

وشعائر الحج : معالمه الظاهرة للحواس، التي جعلها الله أعلاما لطاعته، ومواضع نسكه وعبادته، كالمطاف والسعى والموقف والمرمى والمنحر.

وتطلق الشعائر على العبادات التي تعبدنا الله بها في هذه المواضع، لكونها علامات على الخضوع والطاعة والتسليم لله - تعالى - .

(١) تفسير الألوسي ج ٢ ص ٣٤.

وأكدت الجملة الكريمة بأن لأن بعض المسلمين كانوا مترددين في كون السعى بين الصفا والمروة من شعائر الله، وكانوا يظنون أن السعى بينهما من أحوال الجاهلية، كما سنيين بعد قليل.

وقوله: ﴿فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾ تفرغ على كونها من شعائر الله وأن السعى بينهما في الحج والعمرة من المناسك. والحج لغة: القصد مطلقاً أو إلى معظم. وشرعاً: القصد إلى البيت الحرام في زمان معين بأعمال مخصوصة.

و﴿اعتمر﴾ أى: زار. والعمرة الزيارة مأخوذة من العمارة كأن الزائر يعمر البيت الحرام بزيارته. وشرعاً الزيارة لبيت الله المعظم بأعمال مخصوصة وهى: الإحرام والطواف والسعى بين الصفا والمروة.

و﴿الجناح﴾ - بضم الجيم - الإثم والحرج مشتق من جنح إذا مال عن القصد، وسمى الإثم به للميل فيه من الحق إلى الباطل.

و﴿يطوف﴾ أصلها يتطوف، فأبدلت التاء طاء، وأدغمت في الطاء فصارت «يطوف». والتطوف بالشيء كالطواف به، ومعناه: الإلمام بالشيء والمشى حوله.

وقد فسر النبی - ﷺ - الطواف بالنسبة للكعبة بالدوران حولها سبعة أشواط. وفسره بالنسبة للصفا والمروة بالسعى بينهما سبعة أشواط كذلك.

و«من» في قوله: ﴿فمن حج﴾ شرطية، «وحج» في محل جزم بالشرط، و﴿البيت﴾ منصوب على المفعولية، وجملة «فلا جناح عليه أن يطوف بهما» جواب الشرط.

والمعنى: إن الصفا والمروة من شعائر الله، أى: من المواضع التى يقام فيها أمر من أمور دينه وهو السعى بينهما ﴿فمن حج البيت﴾ أى: قصده بالأفعال المعينة التى شرعها الله ﴿أو اعتمر﴾ أى: أتى بالعمرة كما بيئتها تعاليم الإسلام «فلا جناح عليه أن يطوف بهما» أى: فلا إثم ولا حرج ولا مؤاخذة عليه فى الطواف بهما، لأنها مطلوبان للشارع، ومعدودان من الطاعات.

وهنا قد يقول قائل: إن بعض الذين يقرءون هذه الآية قد يشكل عليهم فهمها وذلك لأن قوله - تعالى - : ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ يدل على أن الطواف بهما مطلوب شرعاً طلباً أقل درجاته التذنب، وقوله - تعالى - : ﴿فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾ يقتضى رفع الأثم عن المتطوف بهما، والتعبير برفع الإثم عن الشيء يأتى فى مقام الدلالة على إباحته، وإذن فما الأمر الداعى إلى أن يقال فى هذه الشعيرة: لا إثم على من يفعلها بعد التصريح بأنها من شعائر الله؟ وللإجابة على هذا القول نقول. إن الوقوف على سبب نزول الآية الكريمة يرفع هذا

الاستشكال. وقد روى العلماء في سبب نزولها عدة روايات منها: ما رواه البخارى عن عروة بن الزبير قال: سألت عائشة - رضى الله عنها - قلت لها: أ رأيت قوله - تعالى - ﴿إِنْ الصَّافَا وَالْمَرُوءَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا...﴾ فوالله؛ ما على أحد جناح أن لا يطوف بالصفاء والمروة؟ قالت بشس ما قلت يا ابن أختي!! إن هذه الآية لو كانت كما أولتها لكانت: لا جناح عليه أن لا يطوف بهما، ولكن الآية أنزلت في الأنصار. كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية، التي كانوا يعبدونها عند المشلل. فكان من أهل يتحرج أن يتطوف بالصفاء والمروة. فلما أسلموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك؟ فقالوا: يا رسول الله: إنا كنا نتحرج أن تطوف بين الصفا والمروة، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية. قالت عائشة: وقد سن رسول الله ﷺ الطواف بينهما، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما^(١).

وهناك رواية لمسلم عن عروة عن عائشة تشبه ما جاء في رواية البخارى، وهناك رواية للنسائي عن زيد بن حارثة قال: كان على الصفا والمروة صتمان من نحاس يقال لهما «إساف ونائلة» كان المشركون إذا طافوا تمسحوا بهما.

وهناك رواية للطبراني وابن أبي حاتم بإسناد حسن من حديث ابن عباس قال: قالت الأنصار: إن السعى بين الصفا والمروة من أمر الجاهلية فأنزل الله هذه الآية^(٢).

فيؤخذ من هذه الروايات أن بعض المسلمين كانوا يتحرجون من السعى بين الصفا والمروة لأسباب من أهمها أن هذا السعى كان من شعائريهم في الجاهلية فقد كانوا يهلون - أى يجرمون - لمناة، ثم يسعون بينها ليتمسحوا بصنمين عليهما، وهم لا يريدون أن يعملوا في الإسلام شيئاً مما كان من أمر الجاهلية لأن دين الإسلام الذى خالط أعماق قلوبهم هزأرواحهم هزأً قوياً وجعلهم ينظرون بجفوة وازدراء واحتراس إلى كل ما كانوا عليه في الجاهلية من أعمال تنافى مع تعاليم دينهم الجديد، فنزلت هذه الآية الكريمة لتزيل التحرج الذى كان يتردد في صدورهم من السعى بين الصفا والمروة.

وهذا يدل على قوة إيمانهم، وصفاء يقينهم، وتحرزهم من كل قول أو عمل يشم منه رائحة التعارض مع العقيدة التي جعلتهم يخلصون عبادتهم لله الواحد القهار.

وقوله ﴿ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم﴾ تذييل قصد منه الإتيان بحكم كلى في أفعال الخيرات كلها، وقيل إنه تذييل لما أفادته الآية من الحث على السعى بين الصفا والمروة.

(١) أخرجه البخارى في كتاب الحج ج ٢ ص ١٩٣.

(٢) راجع تفسير القاسمى ج ٢ ص ٣٤٤.

و ﴿تطوع﴾ من التطوع وهو فعل الطاعة فريضة كانت أو نافلة، وقيل هو التطوع بالنفل خاصة.

﴿وشاكر﴾ من الشكر، والشاكر في اللغة هو المظهر للإنعام عليه، وذلك محال في حق الله - تعالى -، إذ هو المنعم على خلقه، فوجب حمل شكر الله لعباده على معنى مجازاتهم على ما يعملون من خيرات، وإثابتهم على ذلك بالثواب الجزيل.

قال الإمام الرازي: وإنما سمي - سبحانه - المجازاة على الطاعة شكرًا لوجه: الأول: أن اللفظ خرج مخرج التلطف مع العباد مبالغة في الإحسان إليهم، كما في قوله - تعالى -: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا﴾ وهو - سبحانه - لا يستقرض من عوز، ولكنه تلطف في الاستدعاء كأنه قيل: من ذا الذي يعمل عمل المقرض. بأن يقدم فيأخذ أضعاف ما قدم.

الثاني: أن الشكر لما كان مقابلًا للإنعام أو الجزاء عليه، سمي كل ما كان جزاء شكرًا على سبيل التشبيه.

الثالث: كأنه يقول: أنا وإن كنت غنيًا عن طاعتك، إلا أنى أجعل لها من الموقع بحيث لو صح على أن أنتفع بها لما ازداد وقعه على ما حصل. وبالجمله فالمقصود أن طاعة العبد مقبولة عند الله، وواقعة موقع القبول في أقصى الدرجات^(١).

و ﴿من﴾ شرطية.
و ﴿تطوع﴾ فعل الشرط، و ﴿خيرًا﴾ منصوب على نزع الخافض، وأصله بخير؛ لأن تطوع يتعدى بالباء ولا يتعدى بنفسه ثم حذفت الباء في نظم الكلام نحو: تمرّون الديار فلم تعوجوا. أو هو منصوب على أنه نعت لمصدر محذوف أى: تطوعًا خيرًا، وجملة ﴿فإن الله شاكر عليم﴾ دليل على جواب الشرط، إذ التقدير، ومن تطوع خيرًا جوزى فإن الله شاكر عليم. والمعنى: ومن تطوع بالخيرات وأنواع الطاعات، أو من أتى بالحج أو العمرة طاعة لله، أو من أتى بها مرة بعد مرة زيادة على المقرّوض أو الواجب عليه، فاز بالثواب الجزيل، والنعيم المقيم؛ لأن من صفاته - سبحانه - مجازاة من يحسنون العمل، وهو عليم بكل ما يصدر عن عباده، ولن يضيع أجر من أحسن عملا.

هذا، وقد اختلفت أقوال الفقهاء في حكم السعى بين الصفا والمروة.

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٤ ص ١٨٢ طبعة عبد الرحمن محمد.

فمنهم من يرى أنه من أركان الحج كالإحرام والطواف والوقوف بعرفة. وإلى هذا الرأي ذهب الشافعي وأحمد بن حنبل ومالك في أشهر الروايتين عنه ومن حججهم أنه من أفعال الحج، وأن النبي ﷺ قد اهتم به ويادر إليه، فقد روى الشيخان عن عمرو بن دينار قال: سألتنا ابن عمر عن رجل طاف بالبيت العمرة، ولم يطف بين الصفا والمروة أياق امرأته؟ فقال: قدم النبي ﷺ فطاف بالبيت سبعا وصلى خلف المقام ركعتين، وطاف بين الصفا والمروة. وقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة.

ومنهم من يرى أنه واجب يجبر بالدم، وإلى هذا الرأي ذهب الحنفية ومن حججهم أنه لم يثبت بدليل قطعي فلا يكون ركناً.

ومنهم من يرى غير ذلك كما هو موضح في كتب الفقه.

ثم حض - سبحانه - على إظهار الحق وبيانه، وتوعد بالعقاب الشديد من يعمل على إخفائه وكتمانه.

فقال - تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ

يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ

لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ

﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ

عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ

كُفَّارًا أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمُ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ

﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾

قال الألوسي: أخرج جماعة عن ابن عباس قال: سأل معاذ بن جبل، وسعد بن معاذ، وخارجه بن زيد نفرًا من أحبار يهود عما في التوراة من صفات النبي ﷺ ومن بعض الأحكام فكتموا، فأنزل الله - تعالى - فيهم هذه الآية ﴿إن الذين يكتُمون﴾... إلخ (١).

والكتم والكتمان : إخفاء الشيء قصدًا مع مسيس الحاجة إليه وتحقق الداعى إلى إظهاره .
 وكنتم ما أنزل الله يتناول إخفاء ما أنزله ، وعدم ذكره للناس وإزالته عن موضعه ووضع شيء
 آخر موضعه ، كما يتناول تحريفه بالتأويل الفاسد عن معناه الصحيح جرياً مع الأهواء ، وقد فعل
 أهل الكتاب ولاسيما اليهود - كل ذلك . فقد كانوا يعرفون بما بين أيديهم من آيات أن رسالة
 محمد ﷺ حق ، ولكنهم كتموا هذه المعرفة حسداً له على ما آتاه الله من فضله ، كما أنهم حرفوا
 كلام الله وأولوه وتأويلوا فاسداً تبعاً لأهوائهم .

والمراد « بما أنزلنا » ما اشتملت عليه الكتب السماوية السابقة على القرآن من صفات النبى
 ﷺ ومن هداية وأحكام .

والمراد بالكتاب جنس الكتب ، فيصح حمله على جميع الكتب التى أنزلت على الرسل
 - عليهم السلام - . وقيل : المراد به التوراة .

و ﴿البيئات﴾ جمع بيعة ، والمراد بها الآيات الدالة على المقاصد الصحيحة بوضوح ، وهى
 ما نزل على الأنبياء من طريق الوحي .

والمراد « بالهدى » ما يهدى إلى الرشد مطلقاً فهو أعم من البيئات ، إذ يشمل المعانى المستمدة
 من الآيات البيئات عن طريق الاستنباط ، والاجتهاد القائم على الأصول المحكمة .
 و « اللعن » الطرد والإبعاد من الرحمة . يقال : لعنه ، أى : طرده وأبعده ساخطاً عليه ، فهو
 لعين وملعون .

والمعنى : إن الذين يخفون عن قصد وتعمد وسوء نية ما أنزل الله على رسله من آيات
 واضحة دالة على الحق ، ومن علم نافع يهدى إلى الرشد ، من بعد ما شرحناه وأظهرناه للناس
 فى كتاب يتلى ، أولئك الذين فعلوا ذلك ﴿يلعنهم الله﴾ بأن يبعدهم عن رحمته ﴿ويلعنهم
 اللاعنون﴾ أى ويلعنهم كل من تتأتى منه اللعنة - كالملائكة والمؤمنين - بالدعاء عليهم بالطرد
 من رحمة الله لكتمانهم لما أمر الله بإظهاره .

وجملة ﴿إن الذين يكتمون...﴾ إلخ ، مستأنفة لبيان سوء عاقبة الكاتمين لما أمر الله
 بإظهاره ، وأكدت « بيان » للاهتمام بهذا الخبر الذى ألقى على مسامع الناس .

وعبر فى ﴿يكتمون﴾ بالفعل المضارع ، للدلالة على أنهم فى الحال كاتمون للبيئات والهدى ،
 ولو وقع بلفظ الماضى لتوهم السامع أن المقصود به قوم مضوا ، مع أن المقصود إقامة الحجة على
 الحاضرين .

وقوله : ﴿من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب﴾ متعلق بيكتمون ، وقد دلت هذه الجملة

الكريمة على أن معصيتهم بالكتمان في أحط الدرجات وأقبحها؛ لأنهم عمدوا إلى ما أنزل الله من هدى، وجعله بينا للناس في كتاب يقرأ، فكتموه قصداً مع تحقق المقتضى لإظهاره، وإنما يفعل ذلك من بلغ الغاية في سفاهة الرأى، وخبث الطوية.

واللام في قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ للتعليل، أى: بيناه في الكتاب لأجل أن ينتفع به الناس، وفي هذا زيادة تشنيع عليهم فيما أتوه من كتمان، لأن فعلهم هذا مع أنه كتمان للحق، فهو في الوقت نفسه اعتداء على مستحقه الذى هو في أشد الحاجة إليه.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ يفيد نهاية الغضب عليهم، حتى لكأنهم تحولوا إلى ملعنة ينصب عليها اللعن من كل مصدر، ويتوجه إليها من كل من يستطيع اللعن ويؤديه.

والآية الكريمة وإن كانت نزلت في أهل الكتاب بسبب كتمانهم للحق، إلا أن وعيدها يتناول كل من كتم علماً نافعاً، أو غير ذلك من الأمور التى يقضى الدين بإظهارها، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ومن شواهد هذا العموم ما جاء في صحيح البخارى عن أبي هريرة قال: إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة ولولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثاً ثم تلا قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿الرَّحِيمِ﴾^(١).

قال ابن كثير: وقد ورد في الحديث المسند من طرائق يشد بعضها بعضاً عن أبي هريرة وغيره، أن رسول الله ﷺ قال: «من سئل عن علم فكتمه أجلم يوم القيام بلجام من نار»^(٢).

هذا، وينبغى أن يعلم أن الإسلام وإن كان ينهى نهياً قاطعاً عن كتم العلم الذى فيه منفعة للناس، إلا أنه يوجب على أتباعه - وخصوصاً العلماء - أن يحسنوا ما ينشرونه على الناس من علم، ففي الحديث الشريف: حدثوا الناس بما يفهمون أتحبون أن يكذب الله ورسوله.

كما أنه يوجب عليهم أن يضعوا العلم في موضعه المناسب لمقتضى حال المخاطبين، فليس كل ما يعلم يقال، بل أحياناً يكون إخفاء بعض الأحكام مناسباً لأن إظهاره قد يستعمله الطغاة والسفهاء فيما يؤذى الناس، وفي صحيح البخارى أن الحجاج قال لأنس بن مالك حدثني بأشد عقوبة عاقبها النبي ﷺ فذكر له أنس حديث العرنين الذين قتلوا الرعاة واستاقوا الإبل، حيث قطع النبي ﷺ أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم وتركهم في الحرة حتى ماتوا. فلما بلغ الحسن

(١) أخرجه البخارى في كتاب العلم. باب حفظ العلم ج ١ ص ٤٠.

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٠.

البصرى ذلك قال : وددت أنه لم يحدثه ؟؟ انهم يتلففون من ظاهره ما يوافق هواهم فيجعلونه ذريعة لهم فيما يعاملون به الناس من الظلم .

ومما يشهد بفقہ بعض العلماء وحسن إدراكهم ، ووضعهم العلم في موضعه المناسب : ما جاء في بعض الكتب أن سلطان قرطبة سأل يحيى بن يحيى الليثي عن حكم يوم أظفره في رمضان عامداً لأن شهوته غلبته على وطء بعض جواريه ، فأفتاه بأن من الواجب عليه أن يصوم ستين يوماً ، وكان بعض الفقهاء جالساً فلم يجترأ على مخالفة يحيى . فلما انفض المجلس قيل له : لم خصصت الحكم بأحد المخيرات وكتمت العتق والإطعام ؟ فقال - رحمه الله - لو فتحنا هذا الباب لو طيء كل يوم وأعتق أو أطعم ، فحملته على الأصعب لثلاثا يعود .

فالإمام يحيى عند ما كتّم عن السلطان الكفارتين الآخرين - وهما الأعتاق والإطعام - لا يعتبر مسيئاً ؛ لأنه قد أعمل دليل دفع مفسدة الجرأة على حرمة فريضة الصوم^(١) . وهكذا نرى أن إظهار العلم عند تحقق المقتضى لإظهاره ، ووضعها في موضعه اللائق به بدون خشية أو تحريف يدل على قوة الإيمان ، وحسن الصلة بالله - تعالى - : ﴿وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾ .

وبعد هذا الوعيد الشديد لأولئك الكاتمين لما أمر الله بإظهاره ، أورد القرآن في أعقاب ذلك آية تفتح لهم نافذة الأمل ، وتبين لهم أنهم إذا تابوا وأنابوا قبل الله توبتهم ورحمهم ، فقال - تعالى - : ﴿إلا الذين تابوا﴾ أى : رجعوا عن الكتمان وعن سائر ما يجب أن يتاب عنه ، وندموا على ما صدر عنهم ﴿وأصلحوا﴾ ما أفسدوه بالكتمان بكل وسيلة ممكنة ﴿وبينوا﴾ للناس حقيقة ما كتّموه ﴿فأولئك أتوب عليهم﴾ أى : أقبل توبتهم ، وأفيض عليهم من رحمتي ومغفرتي ، ﴿وأنا التواب الرحيم﴾ أى : المبالغ في قبول التوبة ونشر الرحمة .

فالآية الكريمة قد فتحت للكاتمين لما يجب إظهاره باب التوبة وأمرتهم بولوجه ، وأفهمتهم أنهم إذا فعلوا ما ينبغى وتركوا ما لا ينبغى وأخلصوا لله نياتهم ، فإنه - سبحانه - يقبل توبتهم ، ويغسل حوبتهم ، أما إذا استمروا في ضلالهم وكفرهم ، ومضوا في هذا الطريق المظلم حتى النهاية بدون أن يحدثوا توبة ، فقد بين القرآن مصيرهم بعد ذلك فقال : ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار﴾ أى : إن الذين كفروا وكتّموا ما من شأنه أن يظهر ، كإخفائهم النصوص المشتملة على البشارة بالنبي ﷺ واستمروا على هذا الكفر والإخفاء حتى ماتوا .

﴿أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾ أى : أولئك الذين وصفوا بما ذكر عليهم

(١) تفسير التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور ج ٢ ص ١٦ .

اللجنة المستمرة من الله والطرده من رحمته، وعليهم كذلك اللعنة الدائمة من الملائكة والناس أجمعين عن طريق الدعاء عليهم بالإبعاد من رحمة الله.

وعبر عن أصحاب ذلك الكتمان بالذين كفروا، ليحضرهم في الأذهان بأشنع وصف وهو الكفر، وليتناول الوعيد الذي اشتملت عليه الآية الكريمة كل كافر ولو بغير معصية الكتمان.

وجملة ﴿وماتوا وهم كفار﴾ حالية، و﴿أجمعين﴾ تأكيد بالنسبة إلى الكل لا للناس فقط. والمراد بالناس جميعهم مؤمنهم وكافرهم، إذ الكفار يلعن بعضهم بعضاً يوم القيامة كما جاء في قوله - تعالى - : ﴿ويوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً﴾. وقيل المراد بهم المؤمنون خاصة لأنهم هم الذين يعتد بلعنهم.

وقوله : ﴿خالدين فيها﴾ الخلود البقاء إلى غير نهاية، ويستعمل بمعنى البقاء مدة طويلة. وإذا وصف به عذاب الكافر أريد به المعنى الأول، أى : البقاء إلى غير نهاية والظاهر أن الضمير في قوله ﴿فيها﴾ يعود إلى اللعنة لأنها هي المذكورة في الجملة. وقيل إنه يعود إلى النار لأن اللعن إبعاد من الرحمة وإيجاب للعقاب والعقاب يكون في النار. وقوله ﴿لا يخفف عنهم العذاب﴾ أى : أن المقدار الذى استحقوه من العذاب لا يتفاوت بحسب الأوقات شدة وضعفاً، وإنما هم في عذاب سرمدى أليم، كما قال - تعالى - : ﴿إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون. لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون﴾ والزيادة في قوله - تعالى - : ﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾ حملها بعض العلماء على معنى استمرار العذاب، فهي إشارة إلى الخلود فيه لا إلى الزيادة في شدته. وقوله : ﴿خالدين فيها﴾ إشارة إلى دوام العذاب وعدم انقطاعه. وقوله : ﴿لا يخفف عنهم﴾ إشارة إلى كلفيته وشدته.

وقوله : ﴿ولا هم ينظرون﴾ أى : لا يمهلون ولا يؤخرون من العذاب كما كانوا يمهلون في الدنيا. من الإنظار بمعنى التأخير والإمهال. أو من النظر بمعنى الانتظار يقال : نظرته وانتظرته، أى : أخرته وأمهلته ومنه قوله - تعالى - : ﴿وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة﴾.

أو من النظر بمعنى الرؤية، أى : لا ينظر الله إليهم نظر رحمة ورضا ولطف كما ينظر إلى عباده الصالحين، لأنهم بكتماهم للحق، وكفرهم بالله، استحقوا ما استحقوا من العذاب المهين. ﴿وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾.

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد حذرت الناس بأسلوب تأديبي حكيم من كتمان الحق، ومن الكفر بالله، وفتحت أمامهم باب التوبة ليدخلوه بصادق النية، وصالح العمل، وتوعدت من يستمر في ضلاله وطغيانه بأقسى أنواع العذاب، وأغلظ ألوانه.

وبعد أن حذر - سبحانه - من كتمان الحق، عقب ذلك ببيان ما يدل على وحدانيته، وعلى أنه هو المستحق للعبادة والخضوع فقال - تعالى - :

وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾
 إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
 وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ
 مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا
 مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ
 بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

قوله : ﴿ وإلهكم إله واحد ﴾ معطوف على قوله : ﴿ إن الذين يكتُمون ما أنزلنا ﴾ عطف
 القصة على القصة، والجامع - كما قال الألوسي - أن الأولى - وهي قوله : ﴿ إن الذين
 يكتُمون ﴾ مسوقة لإثبات نبوة النبي ﷺ وجملة ﴿ وإلهكم إله واحد ﴾ لإثبات وحدانية الله
 - تعالى - .

والإله في كلام العرب هو المعبود مطلقاً ولذلك تعددت الآلهة عندهم . والمراد به في الآية
 الكريمة المعبود بحق بدليل الإخبار عنه بأنه واحد .

والمعنى : وإلهكم الذي يستحق العبادة والخضوع إله واحد فرد صمد، فمن عبد شيئاً دونه،
 أو عبد شيئاً معه، فعبادته باطلة فاسدة، لأن العبادة الصحيحة هي ما يتجه بها العابد إلى
 المعبود بحق الذي قامت البراهين الساطعة على وحدانيته وهو الله رب العالمين .

قال بعضهم : « والإخبار عن إلهكم بإله تكرير ليجرى عليه الوصف بواحد، والمقصود
 وإلهكم واحد لكنه وسط إله بين المبتدأ والخبر لتقرير معنى الألوهية في المخبر عنه، كما تقول :
 عالم المدينة عالم فائق، وليجيء ما كان أصله خيراً مجيء النعت فيفيد أنه وصف ثابت
 للموصوف لأنه صار نعتاً، إذ أصل النعت أن يكون وصفاً ثابتاً، وأصل الخبر أن يكون وصفاً
 حادثاً، وهذا استعمال متبع في فصيح الكلام أن يعاد الاسم أو الفعل بعد ذكره ليبنى عليه

وصف أو متعلق كقوله: ﴿وَإِذَا مَرُوا بِاللَّغْوِ مَرُوا كِرَامًا﴾ (١).

وجملة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ مقررة لما تضمنته الجملة السابقة من أن الله واحد لا شريك له، ونافية عن الله - تعالى - الشريك صراحه، ومثبتة له مع ذلك الإلهية الحقّة، ومزجيّة لما عسى أن يتوهم من أن في الوجود إلهاً سوى الله - تعالى - لكنه لا يستحق العبادة. ومعناها: إن الله إله، وليس شيء مما سواه بإله.

وهذه الجملة الكريمة خبر ثان للمبتدأ وهو (إلهكم) أو صفة أخرى للخبر وهو (إله) وخبر (لا) محذوف أى لا إله موجود إلا هو، والضمير (هو) في موضع رفع بدل من موضع لامع اسمها.

وقوله: (الرحمن الرحيم) خبر مبتدأ محذوف، وقيل غير ذلك من وجوه الإعراب. والمعنى: وإلهكم الذى يستحق العبادة إله واحد، لا إله مستحق لها إلا هو، هو الرحمن الرحيم.

أى: المنعم بجلائل النعم ودقائقها، وهو مصدر الرحمة، ودائم الإحسان. وأق - سبحانه - بهذين اللفظين في ختام الآية، لأن ذكر الإلهية والوحدانية يحضر في ذهن السامع معنى القهر والغلبة وسعة المقدرة وعزة السلطان، وذلك مما يجعل القلب في هيبة وخشية، فناسب أن يورد عقب ذلك ما يدل على أنه مع هذه العظمة والسلطان، مصدر الإحسان ومولى النعم، فقال: (الرحمن الرحيم)، وهذه طريقة القرآن في الترويح على القلوب بالتبشير بعد ما يثير الخشية، حتى لا يعترها اليأس أو القنوط.

وبعد أن أخبر - سبحانه - بأنه هو الإله الذى لا يستحق العبادة أحد سواه، عقب ذلك بإيراد ثمانية أدلة تشهد بوحدانيته وقدرته، وتشتمل على آيات ساطعات، وبيّنات واضحات، تهدي أصحاب العقول السليمة إلى عبادة الله وحده، وإلى بطلان ما يفعله كثير من الناس من عبادة مخلوقاته.

ويشتمل الدليل الأول والثاني على أنه - سبحانه - هو المستحق للعبادة في قوله - تعالى - : ﴿إِن فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

الخلق: هو الإحداث للشيء على غير مثال سابق. وهو هنا بمعنى المخلوق. إذ الآيات التى تشاهد إنما هي في المخلوق الذى هو السموات والأرض.

والسموات : جمع سماء، وهى كل ما علا كالسقف وغيره، إلا أنها إذا أطلقت لم يفهم منها سوى الأجرام المقابلة للأرض، وهى سبع كما ورد ذلك صريحاً فى بعض الآيات التى منها قوله - تعالى - : ﴿الله الذى خلق سبع سموات﴾.

وجمعت السموات لأنها طبقات ممتازة كل واحدة من الأخرى بذاتها الشخصية، كما يدل عليه قوله - تعالى - : ﴿فسواهن سبع سموات﴾ ولأن أفرادها قد يوهم بأنها واحدة مع أن القرآن صريح. فى كونها سبعاً.

وجاءت الأرض مفردة - وهى لم تحيء فى القرآن إلا كذلك - لأن المشاهدة لا تقع إلا على أرض واحدة، ومن هنا حمل بعض أهل العلم تعددها الذى يتبادر من ظاهر قوله - تعالى - : ﴿الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن﴾ على معنى أنها طبقات لا ينفصل بعضها عن بعض.

ومن الآيات الدالة على وحدانية الله وقدرته فى خلق السموات ارتفاعها بغير عمد كما يرى ذلك بالمشاهدة، وتزيينها بالمصابيح التى جعلها الله زينة للسماء ورجوماً للشياطين، ووجودها بتلك الصورة العجيبة الباهرة التى لا ترى فيها أى تفاوت أو اضطراب ومن الآيات الدالة على وجود الله ووحدانيته وقدرته فى خلق الأرض، فرشها بتلك الطريقة الرائعة التى يتيسر معها للإنسان أن يتقلب فى أرجائها، ويمشى فى مناكبها، وينتفع بما يحتاج إليه منها أينما كان، وتفجيرها بالأنهار، وعمارتها بحدائق ذات ثمار تختلف ألوانها ويتفاضل أكلها.

وفى القرآن الكريم عشرات الآيات التى تتحدث عن نعم الله على عباده فى خلق السموات والأرض، وعن مظاهر قدرته ووحدانيته فى إيجادهما على تلك الصورة، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿يأيتها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون. الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم﴾.

وقوله - تعالى - : ﴿الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾.

وقوله - تعالى - : ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً. والله أنبتكم من الأرض نباتاً. ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً. والله جعل لكم الأرض ساطعاً. لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً﴾.

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة الدالة على وجود الله وقدرته ووحدانيته. ويتمثل الدليل الثالث على قدرته - سبحانه - ووحدانيته في قوله تعالى: ﴿واختلاف الليل والنهار﴾، والاختلاف: افتعال من الخلف، وهو أن يحىء شىء عوضاً عن شىء آخر يخلفه على وجه التعاقب. والمراد أن كلا من الليل والنهار يأتي خلفاً من الآخر وفي أعقابهما، ويجوز أن يكون المراد باختلافهما، في أنفسهما بالطول والقصر، واختلافهما في جنسهما بالسواد والبياض.

﴿والليل﴾: هو الظلام المعاقب للنهار، واحدته ليلة كتمر وتمرة.

﴿والنهار﴾: هو الضياء المتسع، وأصله الاتساع، ومنه قول الشاعر:

ملكته بها كفى، فأنهزت فتقها يرى قائم من دونها ما وراءها

أى: أوسعت فتقها.

وقد جعل الله الليل للسكون والراحة والعبادة لمن وفقه الله لقضاء جانب منه في مناجاته - سبحانه -، وجعل النهار للعمل وابتغاء الرزق.

قال - تعالى - : ﴿وجعلنا الليل لباساً. وجعلنا النهار معاشاً﴾.

وقد أضيف الاختلاف لكل من الليل والنهار، لأن كل واحد منهما يخلف الآخر فتحصل منه فوائد سوى فوائد الآخر، بحيث لو دام أحدهما لانقلب النفع ضرراً.

قال - تعالى - : ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة، من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون. قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة، من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون. ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾.

ومن العظمت التي تؤخذ من هذا الاختلاف أن مدد الليل والنهار تختلف فلكل منها مدة يستوفيهما من السنة بمقتضى نظام دقيق مطرد.

قال - تعالى - : ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون﴾. وكون الليل والنهار يسيران على هذا النظام الدقيق المطرد الذي لا ينخرم دليل على أن الاختلاف تدبير من إله قادر حكيم لا يدخل أفعاله تفاوت ولا اختلال.

وإذا كان لهذا الاطراد أسباب تحدث عنها العلماء، فإن الذي خلق الأسباب وجعل بينها وبين هذا الاختلاف تلازماً إنما هو الإله الواحد القهار.

أما المظهر الرابع من المظاهر الدالة على هذا الكون على قدرته - سبحانه - ووحدانيته

وألوهيته، فقد تحدثت عنه الآية في قوله - تعالى - : ﴿والفلك التي تجرى في البحر بما ينعف الناس﴾ .

(الفلك) : ما عظم من السفن، ويستعمل لفظ الفلك للواحد والجمع . والظاهر أن المراد به هنا الجمع بدليل قوله - تعالى - : ﴿التي تجرى في البحر﴾ ولو كان هذا اللفظ للمفرد لقال : الذي يجرى، كما جاء في قوله - تعالى - : ﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون﴾ والجملة الكريمة معطوفة على خلق السموات والأرض .

قال صاحب المنار : وكان الظاهر أن تأتي هذه الجملة في آخر الآية ليكون ما للإنسان فيه صنع على حدة وما ليس له فيه صنع على حدة . والنكتة في ذكرها عقيب آية الليل والنهار، هي أن المسافرين في البر والبحر هم أشد الناس حاجة إلى تحديد اختلاف الليل والنهار ومراقبته على الوجه الذي ينتفع به، والمسافرون في البحر أحوج إلى معرفة الأوقات وتحديد الجهات، لأن خطر الجهل عليهم أشد، وفائدة المعرفة لهم أعظم، ولذلك كان من ضروريات رباني السفن معرفة علم النجوم، وعلم الليل والنهار من فروع هذا العلم . قال - تعالى - : ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر﴾ فهذا وجه العلاقة بين ذكر الفلك وما قبله^(١) .

و«ما» في قوله : ﴿بما ينعف الناس﴾ مصدرية، والباء للسببية أي : تجرى بسبب نفع الناس ولأجله في التجارة وغيرها . أو موصولة والباء للحال، أي تجرى مصحوبة بالأعيان التي تنفع الناس . وخص - سبحانه - النفع بالذكر وإن كانت السفن تحمل ما ينعف وما يضر؛ لأن المراد هنا عد النعم، ولأن الذي يحمل فيها ما يضر غيره هو في الوقت نفسه يقصد منفعة نفسه . ومن وجوه الاستدلال بالفلك التي تجرى في البحر بما ينعف الناس على وجود الله وقدرته، أن هذه الفلك وإن كانت من صنع الناس إلا أن الله - تعالى - هو الذي خلق الآلات والأجزاء التي صارت بها سفناً، وهو الذي سخر لبحر لتجري فيه مقبلة ومدبرة مع شدة أهواله إذا هاج، وهو الذي جعلها تشق أمواجه شقاً حتى تصل إلى بر الأمان، وهو الذي رعاها برعايته وهي كنقطة صغيرة في ذلك الماء الواسع، ووسط تلك الأمواج المتلاطمة حتى وصلت إلى ساحل السلامة وهي حاملة الكثير مما ينعف الناس من الأطعمة والأشربة والأمتعة المختلفة، فسبحانه من إله قادر حكيم .

الدليل الخامس والسادس على أنه - سبحانه - هو المستحق للعبادة يتمثل في قوله - تعالى -

(١) تفسير المنار ج ٢ ص ٥٩ .

في هذه الآية : ﴿وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبث فيها من كل دابة﴾ .

والمراد بالسماء : جهة العلو، أى : وما أنزل من جهة السماء من ماء، و«من» في قوله : ﴿من السماء﴾ ابتدائية، وفي قوله : ﴿من ماء﴾ بيانية، وهما ومجرورهما متعلقان بأنزل .
والمراد بإحياء الأرض : تحرك القوى النامية فيها، وإظهار ما أودع الله فيها من نبات وزهور وثمار وغير ذلك .

والمراد بموتها : خلوها من ذلك باستيلاء اليبوسة والقحط عليها .

قال - تعالى - : ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ .

(والبث) : التفريق والنشر لما كان خافيا، ومنه بث الشكوى أى : نشرها وإظهارها، وكل شئ بثته فقد فرقته ونشرته، والضمير في قوله : «فيها» يعود إلى الأرض .

(والدابة) : اسم من الدبيب والمشي ببطء، كل ما يمشى فوق الأرض فهو بحسب الوضع اللغوى يطلق عليه دابة . والظاهر أن المراد بالدابة هنا هذا المعنى العام، لا ما يجرى به العرف الخاص باستعماله في نوع خاص من الحيوان كذوات الأربع .

وجملة ﴿وما أنزل الله من السماء من ماء...﴾ معطوفة على ما قبلها، وجملة ﴿وبث فيها من كل دابة﴾ معطوفة على قوله : ﴿فأحيا به الأرض بعد موتها﴾ .

والمعنى : وإن فيما أنزله الله من جهة السماء من ماء مبارك، عمرت به الأرض بعد خرابها، وانتشرت فيها أنواع الدواب كلها، لدليل ساطع على قدرة الله ووحدانيته .

ذلك لأنه هو وحده الذى أنزل المطر من السماء ولو شاء لأمسكه مع أن الماء من طبعه الانحدار، وهو وحده الذى جعل الأرض التى نعيش عليها تنبت من كل زوج بهيج بسبب ما أنزل عليها من ماء، وهو وحده الذى نشر على هذه الأرض أنواعاً من الدواب مختلفة في طبيعتها وأحجامها، وأشكالها وألوانها، وأصواتها، ومآكلها، وحملها، وتناسلها، ووجوه الانتفاع بها، وغير ذلك من وجوه الاختلاف الكثيرة، مما يشهد بأن خالق هذه الكائنات إله واحد قادر حكيم .

أما الدليل السابع والثامن في هذه الآية على قدرته - سبحانه - ووحدانيته واستحقاقه للعبادة فهما قوله - تعالى - : ﴿وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض﴾ .

الرياح جمع ريح وهى نسيم الهواء .

وتصريفها : تقلبيها في الجهات المختلفة، ونقلها من حال إلى حال، وتوجيهها على حسب إرادته - سبحانه - ووفق حكمته. فتهب تارة صبًا، أى من مطلع الشمس، وتارة دبورًا، أى : من جهة الغرب، وأحيانًا من جهة الشمال أو الجنوب وقد يرسلها - سبحانه - عاصفة ولينة، حارة أو باردة، لواقع بالرحمة حينًا وبالعذاب آخر. و﴿تصريف﴾ مصدر صُوف مضاف للمفعول والفاعل هو الله، أى : وتصريف الله الرياح. أو مضاف للفاعل والمفعول السحاب، أى : وتصريف الرياح السحاب.

وجاءت هذه الجملة الكريمة بعد إحياء الأرض بالمطر وبث الدواب فيها للتناسب بينهما، وتذكيرًا بالسبب إذ بالرياح تكون حياة النبات والحیوان وكل دابة على الأرض، ولو أمسك - سبحانه - الرياح عن التصريف لما عاش كائن على ظهر الأرض.

﴿والسحاب﴾ : عطف على ما قبله، وهو اسم جنس واحده سحابة، سمي بذلك لانسحابه في الجو أو لجر الرياح له.

و﴿المسخر﴾ : من التسخير وهو التذليل والتيسير، ومعنى تسخيره - كما قال الألوسي - أنه لا ينزل ولا يزول مع أن الطبع يقتضى صعوده إن كان لطيفًا وهبوطه إن كان كثيفًا - و﴿المسخر﴾ صفة للسحاب باعتبار لفظه، وقد يعتبر معناه فيوصف بالجمع كما في قوله : ﴿سحابًا ثقلاً﴾.

والظرف «بين» يجوز أن يكون منصوبًا بقوله المسخر فيكون ظرفًا للتسخير، ويجوز أن يكون حالًا من الضمير المستتر في اسم المفعول فيتعلق بمحذوف أى : كائنًا بين السماء والأرض. وجاء ذكر السحاب بعد تصريف الرياح لأنها هي التي تثيره وتجمعه، وهي التي تسوقه إلى حيث ينزل مطرًا في الأماكن التي يريد الله إحياءها.

قال - تعالى - : ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابًا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفًا فترى الودق يخرج من خلاله﴾.

ولا شك أن هذا التصريف للرياح مع أنها جسم لطيف لا يمك ولا يرى، وهي مع ذلك في غاية القوة بحيث تقلع الأشجار وتحرب الديار، وهذا التسخير للسحاب بحيث يبقى معلقًا بين السماء والأرض مع حمله للمياه العظيمة التي تسيل بها الأودية المتسعة... لا شك أن كل ذلك من أعظم الأدلة على أن لهذا الكون مدبرًا قادرًا حكيمًا هو الله رب العالمين. وقوله : ﴿لآيات لقوم يعقلون﴾ اسم ﴿إن﴾ لقوله - تعالى - في أول الآية : ﴿إن في خلق السموات والأرض﴾ ودخلت اللام على الاسم وهو ﴿لآيات﴾ لتأخره عن الخبر والتنكير للتعظيم والتفخيم كما وكيفًا.

أى: إن فيما ذكره الله من مخلوقاته العجيبة، وكائناته الباهرة، لدلائل ساطعة، وآيات واضحة ترشد من يعقلون ويتدبرون فيها، إلى أن لهذا الكون إلهاً واحداً قادراً حكيمًا مستحقاً للعبادة والخضوع والطاعة.

وموقع هذه الآية الكريمة من سابقتها كموقع الحجة من الدعوى، ذلك أن الله - تعالى - أخبر في الآية السابقة أن الإله واحد لا إله غيره وهى قضية قد تلفاها كثير من الناس بالإنكار، فناسب أن يأتي في هذه الآية الكريمة بالحجج والبراهين التي لا يسع الناظر فيها بتدبر وتفكير إلا التسليم عن اقتناع بوحداية الله - تعالى - وقدرته.

قال الإمام الرازى: واعلم أن النعم على قسمين: نعم دنيوية ونعم دينية وهذه الأمور الثمانية، التي عدها الله - تعالى - نعم دنيوية في الظاهر، فإذا تفكر العاقل فيها، واستدل بها على معرفة الصانع، صارت نعمًا دينية، لكن الانتفاع بها من حيث إنها نعم دنيوية لا يكمل إلا عند سلامة الحواس وصحة المزاج فكذا الانتفاع بها من حيث إنها نعم دينية لا يكمل إلا عند سلامة العقول وانفتاح بصر الباطن، فلذلك قال: ﴿آيات لقوم يعقلون﴾^(١).

وقال الألوسى: أخرج ابن أبي الدنيا وابن مردويه عن عائشة - رضى الله عنها - أن النبي ﷺ لما قرأ هذه الآية قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها».

ثم قال الألوسى: ومن تأمل في تلك المخلوقات التي وردت في هذه الآية وجد كلا منها مشتملا على وجوه كثيرة من الدلالة على وجوده - تعالى - ووحدايته وسائر صفاته الموجبة لتخصيص العبادة له، ومجمل القول في ذلك أن كل واحد من هذه الأمور المعدودة قد وجد على وجه خاص من الوجوه الممكنة دون ما عدها، مستنبا لآثار معينه، وأحكام مخصوصة... وفي الآية إثبات الاستدلال بالحجج العقلية، وتنبيه على شرف علم الكلام وفضل أهله، وربما أشارت إلى شرف علم الهيئة^(٢).

والحق أن هذه الآية الكريمة قد توجهت في تثبيت عقيدة وحداية الله وقدرته وألوهيته إلى تنبيه الحواس والمدارك والمشاعر إلى ما في هذا الكون المشاهد المنظور من آيات ودلائل على حقية الخالق - عز وجل - بالعبادة.

وهذه الطريقة من تنبيه الحواس والمدارك جديدة بأن تفتح الأبصار والبصائر على عجائب هذا الكون، تلك العجائب التي أصبحت عند كثير من الناس شيئاً مألوفاً بسبب عدم تدبرهم

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٤ ص ٢٢٩.

(٢) تفسير الألوسى ج ٢ ص ٣٣.

لما فيها من عظات وعبر وصدق الله إذ يقول ﴿وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾.

ورحم الله القائل : ألا إن الله كتابين : كتاباً مخلوقاً وهو الكون، وكتاباً منزلاً وهو القرآن . وإنما يرشدنا هذا إلى طريق العلم بذلك بما أوتينا من العقل . فمن أطاع فهو من الفائزين ، ومن أعرض فأولئك هم الخاسرون .

وبعد أن ذكر - سبحانه - جانباً من الآيات الدالة على ألوهيته ووحدانيته أردف ذلك ببيان حال المشركين ، وما يكون منهم يوم القيامة من تدابر وتقاطع وتحسر على ما فرط منهم فقال - تعالى - :

وَمِنَ

النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ
الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾
إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ
وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا
لَنَّا كَرِهْنَا لَنَكْرِهَنَّ أَمْثَلًا مِمَّا كَرِهْنَا لَكُمْ يُرِيبُهُمُ اللَّهُ
أَعْمَلُهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾

﴿الأنداد﴾ : جمع ند، وهو مثل الشيء الذي يضاده وينافره ويتباعد عنه . وأصله من ند البعير يند نداءً ونداداً وندوداً، أى : نفر وذهب على وجهه شاردًا . ويرى بعض العلماء أن المراد بالأنداد هنا الأصنام التي اتخذها المشركون آلهة للتقرب بها إلى الله، وقيل : المراد بها الرؤساء الذين كانوا يطيعونهم فيما يملونه لهم ويحرمونه عليهم . والأولى أن يكون المراد بهذه الأنداد كل مخلوق أسند إليه أمر اختص به الله - تعالى - من نحو التحليل، والتحريم وإيصال النفع وغير ذلك من الأمور التي انفرد بها الخالق - عز وجل - .

والمعنى : أن من الناس من لا يعقل تلك الآيات التي دلت على وحدانية الله وقدرته، وبلغت

بهم الجهالة أنهم يخضعون لبعض المخلوقات خضوعهم لله بزعم أنها مشابهة ومماثلة ومناظرة له - سبحانه - في النفع والضرر، ويجبون تعظيم تلك المخلوقات وطاعتها والتقرب إليها والانقياد لها حبا يشابه الحب اللازم عليهم نحو الله - تعالى - أو يشابه حب المؤمنين لله، و﴿من﴾ في قوله: ﴿ومن الناس﴾ للتبويض، والجار والمجرور خبر مقدم و﴿من﴾ في قوله: ﴿من يتخذ﴾ في محل رفع مبتدأ مؤخر، و«من دون الله، حال من ضمير يتخذ و﴿أنداداً﴾ مفعول به ليتخذ.

قال الجمل: وجملته ﴿يجبونهم كحب الله﴾ فيها ثلاثة أوجه:

أحدها: أن تكون في محل رفع صفة لمن في أحد وجهيها، والضمير المرفوع يعود عليها باعتبار المعنى بعد اعتبار اللفظ في يتخذ.

والثاني: أن تكون في محل نصب صفة لأنداداً والضمير المنصوب يعود عليهم والمراد بهم الأصنام، وإنما جمعوا جمع العقلاء لمعاملتهم معاملة العقلاء. أو أن يكون المراد بهم من عبد من دون الله عقلاء وغيرهم ثم غلب العقلاء على غيرهم.

الثالث: أن تكون في محل نصب على الحال من الضمير في يتخذ، والضمير المرفوع عائد على ما عاد عليه الضمير في يتخذ وجمع حملا على المعنى^(١).

ثم مدح - سبحانه - عباده المؤمنين فقال: ﴿والذين آمنوا أشد حبا لله﴾ أي: والذين آمنوا وأخلصوا لله العبادة أشد حبا له - سبحانه - من كل ماسواه، ومن حب المشركين للأنداد، ذلك لأن حب المؤمنين لله متولد عن أدلة يقينية، وعن علم تام، ببديع حكمته - سبحانه - وبالغ حجته، وسعة رحمته، وعدالة أحكامه، وعزة سلطانه، وتفردته بالكمال المطلق، والحب المتولد عن هذا الطريق يكون أشد من حب المشركين لمعبوداتهم لأن حب المشركين لمعبوداتهم متولد عن طريق الظنون والأوهام والتقاليد الباطلة.

والتصريح بالأشدية في قوله: ﴿أشد حبا لله﴾ أبلغ من أن يقال أحب لله؟ إذ ليس المراد الزيادة في أصل الفعل - كما يقول الألوسي - بل المراد الرسوخ والثبات. وقيل: عدل عن أحب إلى أشد حبا، لأن «أحب» شاع في الأشد محبوبة فعدل عنه احترازا عن اللبس. ولقد ضرب المؤمنون الصادقون أروع الأمثال في حبه لله - تعالى - لأنهم ضحوا في سبيله بأرواحهم وأمواهم وأبنائهم وأغلى شيء لديهم، ولأنهم لم يعرفوا عملا يرضيه إلا فعلوه، ولم يعرفوا عملا يغضبه إلا اجتنبوه.

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ١٣٢.

ثم أخبز - سبحانه - عما ينتظر الظالمين من سوء المصير فقال: ﴿ولو يرى الذين ظلموا إذ
يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب﴾ «لو» شرطية، وجوابها محذوف لقصد
التهويل ولتذهب النفس في تصويره كل مذهب «والقوة» القدرة والسلطان.

والمعنى: ولو يرى أولئك المشركون حين يشاهدون العذاب المعد لهم يوم القيامة أن القدرة
كلها لله وحده، وأن عذابه الذي يصيب به المنتخبين في ظلمات الشرك شديد، لو يعلمون
ذلك، لرأوا ما لا يوصف من الهول والفضاعة، ولوقعوا فيما لا يكاد يوصف من الحسرة
والندامة.

وكان الظاهر بمقتضى تقدم ذكرهم أن يقال: ولو يرون إذ يرون. ولكن وضع الموصول
وصلته موضع الضمير، ليحضر في ذهن السامع أنهم صاروا بانحاذهم الأنداد من الظالمين،
وليُشعر بأن سبب رؤيتهم العذاب الشديد هو ذلك الظلم العظيم.

وعبر بالماضي في قوله: «إذ يرون العذاب» لتحقق الوقوع، وكل ما كان كذلك فإنه يجري
مجرى ما وقع وحصل.

وجملة ﴿أن القوة لله جميعاً﴾ سدت مسد مفعولى يرى، وانتصب لفظ ﴿جميعاً﴾ على التوكيد
للقوة. أى. جميع جنس القوة ثابت لله، وهو مبالغة في عدم الاعتداد بقوة غيره، فمفاد جميع
هنا مفاد لام الاستغراق في قوله: ﴿الحمد لله﴾.

وجملة ﴿وأن الله شديد العذاب﴾ معطوفة على ما قبلها، وفائدتها المبالغة في تفضيع الخطب،
وتهويل الأمر، فإن اختصاص القوة به - تعالى - لا يوجب شدة العذاب لجواز تركه عفواً مع
القدرة عليه.

هذا، وقد قرأ نافع وابن عمر «ولو ترى» بالتاء على الخطاب للنبي ﷺ أو لكل من يتأتى له
الخطاب.

أى: لو ترى ذلك أيها الرسول الكريم أو أيها المخاطب لرأيت أمراً عظيماً في الفضاعة
والهول.

وقوله - تعالى - : ﴿إذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا...﴾ بدل من قوله: ﴿إذ يرون
العذاب﴾. أو مفعولاً به بتقدير اذكر.

و﴿تبراً﴾ من التبرؤ وهو التخلص والتنصل والتباعد، ومنه برئت من الدين أى: تخلصت
منه، وبرأ المريض من مرضه، أى: تخلص من مرضه.

والمراد بالذين اتبعوا: أئمة الكفر الذين يحلون ويحرمون ما لم يأذن به الله.

والمراد بالذين اتبعوا: أتباعهم وأشياعهم الذين يتلقون جميع أقوالهم بالطاعة والخضوع بدون تدبر أو تعقل.

وجملة ﴿ورأوا العذاب﴾ حال من الأتباع والمتبوعين، والضمير يعود على الفريقين. أى: تبرؤا جميعاً من بعض في حال رؤيتهم للعذاب.

وجملة ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾ معطوفة على تبرأ، أورأوا.

والباء في ﴿بهم﴾ للسببية أى: وتقطعت بسبب كفرهم الأسباب التي كانوا يرجون من ورائها النجاة، وقيل للملابسة أى: تقطعت الأسباب ملتبسة بهم فخابت آمالهم وسقطوا صرعى.

و﴿الأسباب﴾ جمع سبب، وهو في الأصل الحبل الذي يرتقى به الشجر ونحوه، ثم سمي به كل ما يتوصل به إلى غيره، عينا كان أو معنى. فيقال للطريق سبب، لأنك بسلوكة تصل إلى الموضع الذي تريده، ويقال للمودة سبب لأنك تتواصل بها إلى غيرك، والمراد بالأسباب هنا: الوشائج والصلات التي كانت بين الأتباع والمتبوعين في الدنيا، من القرابات والمودات والأحلاف والاتفاق في الدين... إلخ.

والمعنى: واذكر أيها العاقل لتعتبر وتتعظ يوم القيامة، ذلك اليوم الهائل الشديد الذي يتصل فيه الرؤساء من مرءوسيهم، والاتباع من متبوعيهم حال رؤيتهم جميعاً للعذاب وأسبابه ومقدماته وما أعد لهم من شقاء وآلام، وقد ترتب على كل ذلك أن تقطع ما بين الرؤساء والأذنان من روابط كانوا يتواصلون بها في الدنيا، وصار كل فريق منهم يلعن الآخر ويتبرؤ منه.

قال بعض العلماء: وفي قوله: ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾ استعارة تمثيلية إذ شبهت هيئتهم عند خيبة أملهم حين لم يجدوا النعيم الذي تعبوا لأجله مدة حياتهم وقد جاء إبانة في ظنهم فوجدوا عوضه العذاب، بحال المرتقى إلى النخلة ليحتمى الثمر الذي كد لأجله طول السنة فتقطع به السبب - أى الحبل - عند ارتقائه فسقط هالكا، فكذلك هؤلاء قد علموا جميعاً حينئذ أن لانجاة لهم، فحالم كحال الساقط من علولا ترجى له سلامة. وهى تمثيلية بديعة تشتمل على سبعة أشياء كل واحد منها يصلح لأن يكون مشبها بواحد من الأشياء التي تشتمل عليها الهيئة المشبهة بها وهى:

تشبيه المشرك في عبادته الأصنام بالمرتقى بجامع السعى، وتشبيه العبادة وقبول الآلهة منه بالحبل الموصل، وتشبيه النعيم والثواب بالثمرة في أعلى النخلة لأنها لا يصل إليها المرء إلا بعد طول وهو مدة العمر، وتشبيه العمر بالنخلة في الطول، وتشبيه الحرمان من الوصول للنعيم

بتقطع الحبل، وتشبيه الخيبة بالبعد عن الثمرة، وتشبيه الوقوع في العذاب بالسقوط المهلك ..»^(١).

ثم بين - سبحانه - ما قاله الأتباع على سبيل الحسرة والندم فقال: ﴿وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تבעوا منا﴾.

الكرة: الرجعة والعودة. يقال: كر يكر كراً: أى: رجع. و (لو) للتمنى. وقوله ﴿فتتبرأ منهم﴾ منصوب بعد الفاء بأن مضمرة في جواب التمنى الذى أشربته لو، والكاف في قوله ﴿كما تبعوا منا﴾ في محل نصب نعت لمصدر محذوف أى تبرأ مثل تبرئهم.

والمعنى: وقال الذين كانوا تابعين لغيرهم في الباطل بدون تعقل أو تدبر ليت لنا رجعة إلى الحياة الدنيا فتتبرأ من هؤلاء الذين اتبعناهم وأضلونا السبيل كما تبعوا منا في هذا اليوم العصيب، ولنشفى غيظنا منهم لأنهم خذلونا وأوردونا موارد التهلكة والعذاب الأليم. وقوله - تعالى - : ﴿كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم﴾ تذييل لتأكيد الوعيد، وبيان لحال المشركين في الآخرة.

قال الألوسى: وقوله: ﴿كذلك﴾ في موضع المفعول المطلق لما بعده، والمشار إليه الإراء المفهوم من قوله: ﴿إذ يرون﴾ أى: كإراء العذاب المتلبس بظهور أن القوة لله والتبرى وتقطع الأسباب وتمنى الرجعة، يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم. وجوز أن يكون المشار إليه المصدر المفهوم مما بعد والكاف مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الضخامة. أى: مثل ذلك الإراء الفظيع يريهم على حد ما قيل في قوله - تعالى - : ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾^(٢). والمراد بأعمالهم: المعاصى التى ارتكبوها وفى مقدمتها اتباعهم لمن أضلوهم.

و﴿حسرات﴾ جمع حسرة، وهى أشد درجات الندم والغم على ما فات. يقال: حسر يحسر حسراً فهو حسير، إذ اشتدت ندامته على أمر فاته.

قال الرازى: وأصل الحسر الكشف. يقال حسر ذراعيه أى: كشف والحسرة انكشاف عن حال الندامة. والحسور الإعياء لأنه انكشاف الحال عما أوجبه طول السفر. قال - تعالى - : ﴿ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون﴾^(٣).

والمعنى: كما أرى الله - تعالى - المشركين العذاب وما صاحبه من التبرؤ وتقطع الأسباب

(١) تفسير التحرير والتنوير ج ٢ ص ٩٣ للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور.

(٢) تفسير الألوسى ج ٢ ص ٣٦.

(٣) تفسير الفخر الرازى ج ٤ ص ٢٣٨.

بينهم، يريهم - سبحانه - أعمالهم السيئة يوم القيامة فتكون حسرات تتردد في صدورهم كأنها شرر الجحيم.

ثم ختم - سبحانه - الآية ببيان عاقبة أمرهم فقال: ﴿وما هم بخارجين من النار﴾. أى: وما هم بخارجين من تلك النار التي عوقبوا بها بسبب شركهم، بل هم مستقرون فيها استقراراً أبدياً، وقد جاءت الجملة اسمية لتأكيد نفى خروجهم من النار، وبيان أنهم مخلدون فيها كما قال - تعالى - في آية أخرى: ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها﴾. وهكذا يسوق لنا القرآن ما يدور بين التابعين والمتبوعين يوم القيامة من تنصل وتحسر وتحاصم بتلك الطريقة المؤثرة، حتى لكأنك أمام مشهد مجسم، ترى فيه الصور الشاخصة حاضرة. وذلك لون من ألوان بلاغة القرآن في عرضه للحقائق، حتى تأخذ سبيلها إلى النفوس الكريمة، وتؤق ثمارها الطيبة في القلوب السليمة.

ثم وجه القرآن نداء عاما إلى البشر أمرهم فيه بأن يتمتعوا بما أحله لهم من طيبات، ونهاهم عن اتباع وساوس الشيطان فقال - تعالى -:

يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوْا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا
خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ
بِالسُّوْءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

﴿كلوا﴾ صيغة أمر واردة في معنى الإباحة.

﴿والحلال﴾ ما أذن الله في تناوله من مطعومات أو مشروبات.

قال الرازي: وأصله من الحل الذي هو نقيض العقد، ومنه حل بالمكان إذا نزل، لأنه حل شد الارتحال للنزول، وحل الدين إذا وجب لانحلال العقدة بانقضاء المدة، وحل من إحرامه، لأنه حل عقدة الإحرام. ثم قال: واعلم أن الحرام قد يكون حراما لحبثه - في ذاته - كالهيئة والدم ولحم الخنزير، وقد يكون حراما لوصف عارض كملك الغير إذا لم يأذن في أكله - فحرمته لتعلق حق الغير به - فالحلال هو الخالي عن هذين القيدين^(١).

(١) تفسير الفخر الرازي - بتصرف وتلخيص جـ ٥ ص ٢.

﴿والطيب﴾ : هو المستلذ المستطاب الذي تقبل عليه النفوس الطاهرة وتنسبط لتناوله، وإنما تنسبط النفوس الطاهرة لتناول طعام غير قدر ولا موقع في تهلكة، إذ القدر ينفر منه الطبع السليم، والموقع في تهلكة يمجه العقل القويم.

و ﴿من﴾ في قوله : ﴿مما في الأرض﴾ للتبعيض، لأن بعض ما في الأرض كالحجارة - مثلا - لا يؤكل، ولأنه ليس كل ما يؤكل يجوز أكله فلذلك قال : ﴿حلالا طيباً﴾ .
وقوله : ﴿حلالا﴾ مفعول به لقوله : «كلوا» أو حال مما في الأرض، أى : كلوه حال كونه حلالا . أو صفة لمصدر محذوف، أى : كلوه أكلا حلالا .

وقوله : ﴿طيبا﴾ صفة مقررة ومؤكدة لمعنى يستفاد من قوله : ﴿حلالا﴾ وهو طهارة المأكول وخلوه من القذارة، وعدم إيقاعه في ضرر.

قال الألوسي : «وفائدة وصف الحلال بالطيب تعميم الحكم كما في قوله - تعالى - : ﴿وما من دابة في الأرض﴾ ليحصل الرد على من حرم بعض الحلالات فإن النكرة الموصوفة بصفة عامة تعم، بخلاف غير الموصوفة»^(١).

والمعنى : يأيها الناس لقد أباح الله لكم أن تأكلوا من كل ما تحويه الأرض من المطعومات التي أحلت لكم، والتي تستلذها النفوس الكريمة، والقلوب الطاهرة، فتمتعوا بهذه الطيبات في غير سرف أو غرور، واشكروا الله - تعالى - على ما رزقكم من نعم .

ولقد أمر الله عباده في كثير من الآيات أن يتمتعوا بما أحله لهم من طيبات ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ .

وفي صحيح مسلم عن عياض المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته : «ألا إن ربى أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني، يومى هذا. يقول الله - تعالى - : كل مال نحلته - أى منحه - عبادى فهو لهم حلال، وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطاناً . . . » . وعن ابن عباس قال : تليت هذه الآية عند النبي ﷺ ﴿يأيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا﴾ فقام سعد بن أبي وقاص فقال : يا رسول الله، ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة، فقال : يا سعد ! أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذي نفس محمد بيده، إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه أربعين يوما، وأيما عبد نبت لحمه

من السحت والربا فالنار أولى به»^(١).

وليس من الورع ولا الزهد المرضى عنه شرعا ترك بعض المباحات، فإن الله سوى في المباح بين الفعل والترك، ومن يجعل ترك المباح من الورع، والورع مندوب، فكأنه يقول: إن الترك راجح على الفعل، وهو غير ما حكم الله به.

وكان الحسن البصرى - وهو من أجل التابعين - يقوم عوج من يعدون من الزهد المحمود الامتناع عن تناول بعض المباحات كالأطعمة اللذيذة.

يحكى عنه أنه شهد يوما وليمة، فرأى رجلا يرفع يده عندما قدمت الحلوى فقال له الحسن: كل يالكع فلنعمه الله عليك في الماء البارد أعظم من نعمته في هذه الحلوى.

ودخل عليه مرة أحد الزهاد فقال له الحسن: أتحب الخبيص - وهو طعام لذيذ - فقال الزاهد: لا أحبه ولا أحب من يحبه!! فأقبل الحسن على جلسائه وقال لهم: أترونه مجنوناً.

والخلاصة: أنه لا ورع في ترك المباح الذى أحله الله من حيث فيه متعة للنفس، فذلك هو التنطع في الدين، وإنما الورع في ترك الإكثار من تناول تلك المباحات، لأن الإكثار منها قد يؤدي إلى الوقوع فيما نهى الله عنه.

هذا، وقد أورد بعض المفسرين آثاراً تدل على أن هذه الآية نزلت في قوم معينين. قال الألوسى: نزلت في المشركين الذين حرموا على أنفسهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وقيل نزلت في قوم من ثقيف وبنى عامر ابن صعصعة وخزاعة وبنى مدلج حيث حرموا التمر والاقط على أنفسهم^(٢).

والذى نراه أن الخطاب في الآية لجميع المكلفين من البشر، وأنها واردة لتفنيذ آراء الذين يجرمون على أنفسهم مطعمات لم يقم دليل من الشارع على تحريمها، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ثم قال - تعالى - : ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾.

الخطوات: جمع خطوة كغرفة وقيل جمع خطوة كقبضة، وهى فى الأصل ما بين القدمين عند المشى، وتستعمل على وجه المجاز فى الآثار.

أى: كلوا أيها الناس من الطيبات التى أحلها الله لكم. ولا تتبعوا آثار الشيطان وزلاته

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٠٤ طبعة عيسى الحلبي.

(٢) تفسير الألوسى ج ٢ ص ٢٨.

ووساوسه وطرقه التي يجرم بها الحلال ويحلل الحرام والتي يقذفها في صدور بعض الناس فتجعلهم ينتقلون من الطاعات إلى المعاصي.

وفي الجملة الكريمة استعارة تمثيلية، إذ أن السائر في طريق إذا رأى آثار خطوات السائرين تتبع ذلك المسلك ظناً منه بأن ما سار فيه السائر قبله إلا لأنه موصل للمطلوب، فشيء المقتدى الذي لا دليل معه سوى المقتدى به وهو يظن مسلكه موصلاً، بالذي يتبع خطوات السائرين، وشاعت هذه الاستعارة حتى صاروا يقولون هو يتبع خطا فلان بمعنى يقتدى به.

وقوله: ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ تعليل للنهي عن اتباع الشيطان و«مبين» من أبان بمعنى بان وظهر، وقيل: من أبان بمعنى أظهر، أى: مظهر للعداوة

والمعنى: «ولا تتبعوا خطواته لأن عداوته ظاهرة لكم بحيث لا تخفى على أى عاقل. وقوله - تعالى - : ﴿إنما يأمركم بالسوء والفحشاء﴾ استئناف لبيان كيفية عداوته، وتفصيل لأنواع شروره ومفاسده.

والسوء فى الأصل: مصدر ساء يسوء سوءاً ومساءة إذا أحزنه، والمراد به هنا، كل ما يغضب الله - تعالى - من المعاصي، لأنها تسوء صاحبها وتحزنه فى الحال أو المآل. والفحشاء والفاحشة والفحش: ما عظم قبحه مر الأقوال والأفعال. وروى عن ابن عباس أنه فسر السوء بما لاحد فيه، والفحشاء بما فيه حد. والأمر فى الأصل: الطلب بالقول، واستعمل فى تزيين الشيطان المعصية، لأن تزيينها فى معنى الدعوة إليها.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: كيف كان الشيطان آمراً مع قوله ﴿ليس لك عليهم سلطان﴾؟

قلت: شبه تزيينه وبعثه على الشر بأمر الأمر، كما تقول: أمرتنى نفسى بكذا، وتحتة رمز إلى أنكم منه بمنزلة المأمورين لطاعتكم له وقبولكم وساوسه، ولذلك قال: ﴿ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولأمرنهم فليغيرن خلق الله﴾ وقال - تعالى - : ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾ لما كان الإنسان يطيعها فيعطيهما ما اشتته^(١).

وقوله: ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ معطوف على ما قبله. أى: يأمركم الشيطان بالسوء والفحشاء، ويأمركم أن تقولوا على الله ما لا تعلمون.

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢١٣.

والقول على الله بغير علم من مظاهره أن يقول قائل : لقد أحل الله كذا وحرم كذا بدون دليل شرعى يعتمد عليه .

قال الإمام ابن القيم : «والقول على الله بغير علم يعم القول عليه - سبحانه - في أسمائه وصفاته وأفعاله، وفي دينه وشرعه، وقد جعله - سبحانه - من أعظم المحرمات، بل جعله في المرتبة العليا منها، فقال - تعالى - : ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش، ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغى بغير الحق، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ وقال - تعالى - : ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون. متاع قليل ولهم عذاب أليم﴾ فتقدم إليهم - سبحانه - بالوعيد على الكذب عليه في أحكامه، وقولهم لما لم يحرمه : هذا حرام، ولما لم يحله : هذا حلال. وهذا بيان منه - سبحانه - أنه لا يجوز للعبد أن يقول : هذا حلال وهذا حرام إلا بما علم أنه - سبحانه - أحله وحرمه»^(١).

وقال بعض العلماء : وقد يخطر على بالك أن تقرير الأئمة المجتهدين لبعض الوقائع أحكاماً من طريق الاستنباط، قد يستندون في ذلك إلى دليل يفيد الظن بالحكم، ولا يصل إلى أن يفيد العلم به، فيكون إفتاؤه من قبيل القول على الله بغير علم، ويزاح هذا الخاطر بأنه قد انضم إلى ذلك الدليل الظنى أصل انعقد عليه الإجماع وأصبح مقطوعاً به، وهو أن كل مجتهد بحق يكون حكم الشرع في حقه أو حق من يتابعه هو الحكم الذى أداه إليه اجتهاده، وبمراعاة هذا الأصل المقطوع به لم يكن المجتهد المشهود له بالرسوخ في العلم قائلًا على الله ما لا يعلم»^(٢).

هذا، ومن الآيات الكثيرة التى وردت في القرآن الكريم في التحذير من الشيطان ووساوسه قوله - تعالى - : ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة﴾ .
وقد أُرشدنا النبي ﷺ إلى أن الإكثار من ذكر الله خير معين للإنسان للتغلب على وساوسه

(١) من كتاب «أعلام الموقعين» لابن القيم. نقلا عن تفسير القاسمي ج ٢ ص ٢٧٠.

(٢) تفسير القرآن الكريم لفضيلة الإمام محمد الخضر حسين، مجلة لواء الإسلام. السنة الرابعة. العدد السادس.

الشیطان فقال فی حدیثه الطویل الذی رواه الترمذی والنسائی وابن حبان عن الحارث الأشعری : « وأمرکم بذکر الله كثيراً، فإن مثل ذلك کمثل رجل طلبه العدو سراعاً فی أثره، فأتى حصناً فأحرز نفسه فیهِ، وكذلك العبد لا ینجو من الشیطان إلا بذکر الله .

وبعد أن نهى - سبحانه - الناس عن إتباع خطوات الشیطان، وبین لهم مظاهر عداوته لهم، أردف ذلك بیان حال طائفة من الناس لم یستمعوا لهذا النصیح، بل اتبعوا خطوات الشیطان فقلدوا آباءهم فی الشرك والجهالة فقال - تعالی - :

وَإِذْ أَقِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ
ءَابَاءَنَا أُولُو كَأَن ءَابَاءُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا
يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾

أى : وإذا قيل لأولئك الذین اقتفوا خطوات الشیطان، وقالوا على الله بدون علم ولا برهان، إذا قيل لهم : اتبعوا ما أنزل الله من قرآن، أعرضوا عن ذلك وقالوا بل نتبع ما وجدنا علیه آباءنا من عبادة الأصنام والخضوع للرؤساء

فالضمیر فی قوله - تعالی - : ﴿ لهم ﴾ یعود على طائفة من شملهم الخطاب بقوله - تعالی - فی الآیة السابقة : ﴿ یا ایها الناس کلوا مما فی الأرض حلالاً طیباً ولا تتبعوا خطوات الشیطان ﴾ وهم الذین لم یتستجیبوا لنداء الله بل ساروا فی ركب الشیطان، واقتفوا آثاره، ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ﴾ . القائل لهم ذلك هو النبی ﷺ والمسلمون .

والمراد بما أنزل الله : القرآن الکریم، وما أوحاه الله إلى نبيه ﷺ من هدايات . وعدل - سبحانه - من خطابهم إلى الغیبة للتنبیه على أنهم لفرط جهلهم وحمقهم صاروا لیسوا أهلاً للخطاب، بل ینبغى أن یصرف عنهم إلى من یعقله .

و﴿ بل ﴾ فی قوله - تعالی - : ﴿ بل نتبع ﴾ للإضراب الإبطالی، أى : أضربوا عن قول الرسول لهم ﴿ اتبعوا ما أنزل الله ﴾ إضراب إعراض بدون حجة، إلا بأنه مخالف لما ألفوا علیه آباءهم من أمور الشرك والضلال .

وقوله - تعالی - : ﴿ أولو کان آباؤهم لا یعقلون شیئاً ولا یهتدون ﴾ رد علیهم، و بیان لبطلان الاعتماد فی الدین على مجرد تقلید الآباء .

والهمزة للاستفهام الإنکاری، والواو للحال، والمعنى : أیتبعون ما وجدوا علیه آباءهم

والحال أن آباءهم لا يعقلون شيئاً من أمور الدين الصحيح، ولا يهتدون إلى طريق الصواب. قال الألوسي: وفي الآية دليل على المنع من التقليد لمن قدر على النظر، وأما أتباع الغير في الدين بعد العلم - بدليل ما - أنه محق فاتباع في الحقيقة لما أنزل الله - تعالى - وليس من التقليد المذموم في شيء وقد قال - سبحانه - ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾^(١). وبعد أن بين - سبحانه - فساد ما عليه أولئك المشركون المقلدون من غير نظر ولا استدلال، أردف ذلك بضرب مثل لهم زيادة في قبيح شأنهم والزراية عليهم فقال - تعالى - :

وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعُقُ
بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عَمِيٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾

و﴿مثل﴾ الصفة والشأن، وأصل المثل بمعنى المثل: النظير والشبيه، ثم أطلق على القول السائر المعروف، لمماثلة مضره - وهو الذي يضرب فيه - لمورده - وهو الذي ورد فيه أولاً - ولا يكون إلا فيما فيه غرابة. ثم استعير للصفة أو الحال أو القصة، إذا كان لها شأن عجيب وفيها غرابة.

و﴿ينعق﴾ من النعيق وهو الصياح. يقال: نعق الراعي بالغنم ينعق نعقاً ونعاقاً ونعقائاً، صاح بها وزجرها.

والدعاء والنداء قيل بمعنى واحد أي أن ثانيهما تأكيد للأول، وقيل: الدعاء للقريب والنداء للبعيد.

والظاهر أن المراد بهما نوعان من الأصوات.

وأولهما: وهو الدعاء معناه: الصياح بالبهائم لتأق.

وثانيهما: وهو النداء معناه: الصياح بها لتذهب.

قال الإمام الرازي ماملخصه: وللعلماء من أهل التأويل في هذه الآية طريقتان:

أحدهما: تصحيح المعنى بالإضمام في الآية.

والثاني: إجراء الآية على ظاهرها من غير إضمام.

(١) تفسير الألوسي ج ٢ ص ٤١.

أما الذين أضمروا فذكروا وجوها :

الأول : كأنه قال : ومثل من يدعو الذين كفروا إلى الحق كمثل الذى ينطق، فصار الناقع الذى هو الراعى بمنزلة الداعى إلى الحق. وهو الرسول ﷺ وسائر الدعاة إلى الحق، وصار الكفار بمنزلة الغنم المنعوق بها، ووجه الشبه أن البهيمة تسمع الصوت ولا تفهم المراد، وهؤلاء الكفار كانوا يسمعون صوت الرسول ﷺ وألفاظه، وما كانوا ينتفعون بها وبمعانيها.

الثانى : ومثل الذين كفروا فى دعائهم أهتتهم من الأوثان كمثل الناقع فى دعائه ما لا يسمع كالغنم وما يجرى مجراها من البهائم. فشبه الأصنام - فى أنها لا تفهم - بهذه البهائم، فإذا كان ولا شك أن من دعا بهيمة عد جاهلاً، فمن دعا حجراً أولى بالذم. والفرق بين هذا القول والذى قبله أن هاهنا المحذوف هو المدعو، وفى القول الذى قبله المحذوف هو الداعى.

أما إجراء الآية على ظاهرها من غير إضمار فتقديره، ومثل الذين كفروا فى قلة عقولهم فى عبادتهم لهذه الأوثان كمثل الراعى إذا تكلم مع البهائم، فكما أنه يقضى على ذلك الراعى بقلة العقل فكذا ههنا.

ثم قال - رحمه الله - ومثل هذا المثل يزيد السامع معرفة بأحوال الكفار، ويحقر إلى الكافر نفسه إذا سمع ذلك، فيكون كسراً لقلبه، وتضييقاً لصدره، حيث صيره كالبهيمة فيكون فى ذلك نهاية الزجر والردع لمن يسمعه عن أن يسلك مثل طريقه فى التقليد^(١).

وقوله - تعالى - : ﴿صم بكم عمى﴾ زيادة فى تبييتهم وتقريعهم، أى : هم صم عن استماع دعوة الحق، بكم عن إجابة الداعى إليها، عمى عن آيات صدقها وصحتها، فهم لإعراضهم عن الهدى لهم إلى ما ينفعهم وينجيهم من العذاب صاروا بمنزلة من فقد حواسه، فأصبح لا يسمع ولا ينطق ولا يبصر.

وقوله : ﴿فهم لا يعقلون﴾ وارد مورد النتيجة بعد البرهان، بجانب كونه توبيخاً لهم، لأنهم بفقدهم أهم طرق الإدراك وهما السمع والبصر، وأهم وسيلة للثقافة وهى استطلاع الحقائق من طريق المحاوراة والتكلم، صاروا بعد كل ذلك بمنزلة من فقد عقله الاكتسابى، فأصبح لا يفقه شيئاً؛ لأن العقل الذى يكتسب به الإنسان المعارف والحقائق يستعين استعانة كبرى بهذه الحواس الثلاث.

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٥ ص ٨ بتصرف وتلخيص.

وبعد هذا البيان البليغ لحال الذين يتخذون من دون الله أندادًا، ولحال الكافرين المقلدين لأبائهم في الضلال بدون تدبر أو تعقل، بعد كل ذلك وجهت السورة الكريمة نداء إلى المؤمنين بينت لهم فيه - وفيها سيأتي بعده من آيات - كثيرًا من التشريعات والآداب والأحكام التي هم في حاجة إليها فقال - تعالى - :

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ
وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ
عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ بِهِ
لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾

الطيبات من الأطعمة : المستلذات، ويجوز حملها على ما طاب من الرزق بتحليل الله له .
وما رزقناكم : ما أوصلناه إليكم من الرزق، - وهو ما ينتفع به .

أى : يا من آمنتم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر كلوا من ألوان الطيبات التي
أحللناها لكم، ولا تعرضوا لما حرمناه عليكم .

وكان الخطاب هنا للمؤمنين خاصة، لأنهم أحق بالفهم، وأجدر بالعلم وأحرى بالاهتداء،
وأولى بالتكريم والتشريف .

ومفعول ﴿كلوا﴾ محذوف، أى : كلوا رزقكم حال كونه بعض طيبات ما رزقناكم .
ثم أمرهم - سبحانه - بشكره على هذه الطيبات التي أباحها لهم فقال : ﴿واشكروا لله إن
كنتم إياه تعبدون﴾ .

وهذه الجملة الكريمة معطوفة على جملة ﴿كلوا﴾ .

والشكر : هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم لموجدها، ووضعها في الموضع الذي
أمر به .

أى : تمتعوا بنعم الله، واعترفوا له بها على وجه التعظيم، بأن تمثلوا ما أمر به، وتجنبوا
ما نهى عنه، إن كنتم تخصونه بالعبادة حقًا، وتفردونه بالطاعة صدقًا .

قال الألوسي : وجلة ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ بمنزلة التعليل لطلب الشكر، كأنه قيل : «واشكروا له لأنكم تحضونه بالعبادة، وتخصيصكم إياه بالعبادة، يدل على أنكم تريدون عبادة كاملة تليق بكبريائه، وهي لا تتم إلا بالشكر، لأنه من أجل العبادات»^(١).

وجواب الشرط محذوف دل عليه المذكور والتقدير : إن كنتم إياه تعبدون فكلوا واشكروا لله .

ولقد أمر الله - تعالى - عباده أن يشكروه في آيات كثيرة ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ .

وقال - تعالى - : ﴿ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم﴾ .

وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري أن رسول الله ﷺ قال : «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر» وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال : «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها» قال صاحب المنار : قال الأستاذ الإمام : لا يفهم هذه الآية حق فهمها إلا من كان عارفاً بتاريخ الملل عند ظهور الإسلام وقبله، فإن المشركين وأهل الكتاب كانوا فرقاً وأصنافاً، منهم من حرم على نفسه أشياء معينة بأجناسها أو أصنافها كالبحيرة والسائبة عند العرب، وكبعض الحيوانات عند غيرهم وكان المذهب الشائع في النصراني أن أقرب ما يتقرب به إلى الله - تعالى - تعذيب النفس، وحرمانها من الطيبات المستلذة، واحتقار الجسد ولوازمه، واعتقاد أنه لا حياة للروح إلا بذلك... ثم قال : وقد تفضل الله على هذه الأمة بأن جعلها أمة وسطاً تعطى الجسد حقه والروح حقها، فأحل لنا الطيبات لتتسع دائرة نعمه الجسدية علينا، وأمرنا بالشكر عليها ليكون لنا منها فوائد روحانية عقلية، فلم نكن جنسانين محضاً كالأنعام، ولا روحانيين خلصاً كالملائكة، وإنما جعلنا أناسي كملة بهذه الشريعة المعتدلة، فله الحمد والشكر والثناء الحسن»^(٢).

وقوله - تعالى - : ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله﴾ بيان لما حرمه الله - تعالى - علينا من المطاعم رعاية لمنفعتنا.

و﴿الميتة﴾ في عرف الشرع : ما مات حتف أنفه، أو قتل على هيئة غير مشروع، فيدخل فيها : المنخقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما عدا عليها السبع، ويدخل في حكم الميتة ما قطع

(١) تفسير الألوسي ج ٢ ص ٤١ .

(٢) تفسير المنار ج ٢ ص ٩٦ .

من جسم الحيوان الحى للحديث الذى أخرجه أبو داود والترمذى عن أبي واقد الليثى ، أن رسول الله ﷺ قال : ما قطع من البهيمة وهى حية فهو ميتة» .
وكان الأكل من الميتة محرماً ، لفساد جسمها بذبول أجزائه وتعفنها ، ولأنها أصبحت بحالة تعافها الطباع السليمة لقدارتها وضررها .

قال الألوسى : وأضاف - سبحانه - الحرمة إلى العين - مع أن الحرمة من الأحكام الشرعية التى هى من صفات فعل المكلف وليست مما تتعلق بالأعيان - إشارة إلى حرمة التصرف فى الميتة من جميع الوجوه بأخصر طريق وأوكده ، حيث جعل العين غير قابلة لتعلق فعل المكلف بها إلا ما خصه الدليل كالتصرف بالمذبوح ، وخرج عن حكم الميتة السمك والجراد ، للحديث الذى أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : أحلت لنا ميتتان ودمان : السمك والجراد والكبد والطحال وللعرف أيضاً ، فإنه إذا ما قال القائل : أكل فلان الميتة لم يسبق الوهم إليها نعم حرم بعضهم ميتة السمك الطافي وما مات من الجراد بغير سبب ، واستدل بعموم الآية على تحريم الأجنة وتحريم ما لا نفس له سائلة خلافاً لمن أباحه^(١) .
والدم المحرم : ما يسيل من الحيوان الحى كثيراً كان أم قليلاً وكذلك يحرم من دم الحيوان ما جرى منه بعد تذكيتة ، وهو الذى عبر عنه القرآن بالمسفوح فى قوله - تعالى - : ﴿ قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً . ﴾ .

والدم المسفوح : هو الدم الجارى المهرق من البهيمة بعد ذبحها .

أما الدم المتبقى فى أجزاء لحم البهيمة بعد تذكيتها فلا شئ فيه .

قال القرطبى : وأما الدم فمحرم ما لم تعم به البلوى ، ومعفو عما تعم به البلوى . والذى تعم به البلوى هو الدم فى اللحم وعروقه . . . وقد روت عائشة - رضى الله عنها - قالت : كنا نطبخ البرمة على عهد رسول الله ﷺ تعلوها الصفرة من الدم فنأكل ولا ننكره» لأن التحفظ من هذا إصر وفيه مشقة ، والإصر والمشقة فى الدين موضوع . وهذا أصل فى الشرع^(٢) .

وقد عرف عن بعض العرب فى الجاهلية أنهم كانوا يأخذون الدم من البهائم عند ذبحها ، فيضعونه فى أمعائها ثم يشوونها بالنار ويأكلونها ويسمون ذلك بالفصيد .

قال بعضهم : والحكمة فى تحريم الدم أنه تستقدره النفوس الكريمة ، ويفضى شربه أو أكله إلى الإضرار بالنفس ، وفضلاً عن ذلك فإن تعاطيه يورث ضراوة فى الإنسان ، وغلظة فى الطباع

(١) تفسير الألوسى ج ٢ ص ٤١ .

(٢) تفسير القرطبى ج ٢ ص ٢٢٢ .

فيصير كالحيوان المفترس، وهذا مناف لمقصد الشريعة التي جاءت لإتمام مكارم الأخلاق .
 وحرمة الخنزير شاملة للحمه وشحمه وجلده . وإنما خص لحمه بالذكر، لأنه الذي يقصد بالأكل، ولأن سائر أجزاء الخنزير كالتابعة للحمه . وبعض الفقهاء يرى أنه لا بأس من الانتفاع بشعر الخنزير في الخرازة - أى : خياطة الجلود وغيرها - ، وبعضهم كره ذلك .
 ومن الحكم في تحريم لحم الخنزير قذارته، واشتماله على دودة تضر ببدن آكله وقد أثبت ذلك العلم الحديث .

وما يقوله قوم من أن وسائل العلم الحديث قد تقدمت، وصار في الإمكان التغلب على ما في لحم الخنزير من أضرار هذا القول مردود بأن العلم الحديث قد احتاج إلى ثلاثة عشر قرناً ليكتشف آفة واحدة في لحم الخنزير، فمن ذا الذي يجزم بأنه ليس هناك آفات أخرى في هذا اللحم لم يعرفها العلم حتى الآن؟

إن الشريعة التي سبقت العلم الحديث بأكثر من ثلاثة عشر قرناً أولى بالاتباع، وأجدر بالطاعة فيما أحلته وحرمته مما يقوله الناس، لأنها من عند الله العليم بشئون عباده، الخبير بما ينفعهم وبما يضرهم .

وقوله : ﴿وما أهل به لغير الله﴾ معطوف على ما قبله من المحرمات . و﴿أهل﴾ من الإهلال، وهو رفع الصوت عند رؤية الهلال، ثم استعمل لرفع الصوت مطلقاً، ومنه إهلال الصبي، والإهلال بالحج . وكانوا في الجاهلية إذا أرادوا ذبح ما قربوه إلى آلهتهم سموها عليها أسماءها - كالكالات والعزى - ورفعوا بها أصواتهم، وسمى ذلك إهلالاً .

فالمراد بما أهل به لغير الله : ما ذبح للأصنام وغيرها، ومنه ما يذبحه المجوسى للنار . ومنه عند جمهور العلماء : ذبائح أهل الكتاب إذا ذكر عليها اسم عزيز أو عيسى، لأنها مما أهل به لغير الله .

وذهب جماعة من التابعين إلى تخصيص الغير بالأصنام، وإلى حل ذبائح أهل الكتاب مطلقاً، لعموم قوله - تعالى - في سورة المائدة وهي من آخر السور نزولاً : ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم﴾ أى ذبائحهم، وهو - سبحانه - يعلم ما يقولون .

وروى الحسن بن علي - رضى الله عنه - أنه قال : إذا ذكر الكتابي اسم غير الله على ذبيحته وأنت تسمع فلا تأكل، فإذا غاب عنك فكل، فإن الله قد أحل ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون .

وقد روى البخارى عن عائشه - رضى الله عنها - قالت : إن قوماً قالوا للنبي ﷺ : إن قوماً يأتوننا باللحم لا ندرى أذكر اسم الله عليه أم لا؟ فقال : سموا عليه أنتم وكلوه . قالت :

وكانوا حديثي عهد بكفر.

فكان المحرم ليس ما لم يعلم أن اسم الله ذكر عليه، بل المحرم ما علم أن غير اسم الله من الأوثان والأنداد ونحو ذلك قد ذكر عليه.

فأنت ترى أن تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير كان لاستقذار الأكل من هذه الثلاثة، أى : لعللة ذاتية فيها، أما تحريم ما أهل به لغير الله فليس لعللة فيه، ولكن للتوجه به إلى غير الله. وهى علة روحية تنافى سلامة القلب، وطهارة الروح، ووحدة المتجه فما ذكر عليه سوى اسم الله من الذبائح ملحق بالنجاسة المادية والقذارة الحقيقية، وفي ذلك حض للناس على إخلاص العبادة لله - تعالى -، وزجر لهم عن التقرب إلى أحد سواه.

وقوله - تعالى - : ﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه﴾ بيان لحالات الضرورة التي يباح للإنسان فيها أن يأكل من تلك المحرمات.

و﴿اضطر﴾ من الاضطرار وهو الاحتياج إلى الشيء. يقال : اضطره إلى هذا الشيء. أى : أحوجه وأجأه إليه مأخوذ من الإضرار، وهو حمل الإنسان على أمر بكرهه، وقهره عليه بقوة يتاله بدفعها الهلاك.

و﴿باغ﴾ من البغاء وهو الطلب. تقول : بغيته بغاء وبغيا وبغية أى : طلبته. و﴿عاد﴾ اسم فاعل بمعنى متعدد، تقول. عدا طوره إذا تجاوز حده وتعداه إلى غيره فهو عاد، ومنه قوله - تعالى - في شأن قوم لوط : ﴿بل أنتم قوم عادون﴾. و﴿غير﴾ منصوب على الحال من الضمير المستتر في ﴿اضطر﴾ وهى هنا بمعنى النفى ولذا عطف عليها لا.

والمعنى : فمن أوجأته ضرورة إلى أكل شيء من هذه المحرمات : حالة كونه غير باغ : أى غير طالب للمحرم وهو يجد غيره، أو غير طالب له لإشباع لذته، أو غير طالب له على جهة الاستئثار به على مضطر آخر، أو غير ساع في فساد ﴿ولا عاد﴾ أى : وغير متجاوز ما يسد الجوع، ويحفظ الحياة ﴿فلا إثم عليه﴾ أى : فلا إثم عليه في أكله من هذه المحرمات.

وبهذا نرى لونا من ألوان سماحة الإسلام ويسره في تشريعاته، التي أقامها الله - تعالى - على رفع الحرج، ودفع الضرر، قال - تعالى - : ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ وقال - تعالى - : ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾.

وقوله : ﴿إن الله غفور رحيم﴾ تذييل قصد به الامتنان. أى : إن الله - تعالى - موصوف بهذين الوصفين الجليلين، ومن كان كذلك كان من شأنه أن يعفو عن الخطايا، ويغفر الذنوب،

ويشعر لعباده ما فيه يسر لا ما فيه عسر.

هذا، وظاهر هذه الآية الكريمة يقتضى أنه ليس هناك محرم من المطعومات سوى هذه الأربعة، لكننا نعلم في الشرع أن هناك مطعومات أخرى قد حرم على المسلم تناولها كلحوم الحمر الأهلية، فعلى هذا تكون لفظة «إنما» متروكة الظاهر في العمل - كما قال الإمام الرازي - أى: أن الحصر فيها غير مقصود وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - في سورة الأنعام: ﴿قل لا أجد فيها أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دمًا مسفوحًا أو لحم خنزير فإنه رجس، أو فسقًا أهل لغير الله به، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم﴾ (١).

ثم تحدث القرآن عن سوء عاقبة الذين يكتُمون ما أمر الله بإظهاره وتوعدهم بأقسى ألوان العذاب فقال - تعالى -:

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ
الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِءً مِّنْ أَقْلِيلٍ أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ
فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ
أَشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا
أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ
بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

الكتم والكتمان: إخفاء الشيء قصدًا مع تحقق الداعى إلى إظهاره.

وقد تحدث القرآن - قبل هذه الآيات بقليل - في قوله - تعالى - ﴿إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى﴾ عن المصير الأليم الذى توعد الله به أولئك الكاتمين لما أمر الله بإظهاره، وأعاد الحديث عن سوء عاقبتهم هنا؛ لكى يندرهم مرة بعد أخرى حتى يقلعوا عن هذه الرذيلة التى هى من أبشع الرذائل وأقبحها، ولكى يغرس في قلوب الناس - وخصوصا

(١) الآية ١٤٥. وراجع كتابنا «تفسير سورة الأنعام» في معنى الآية ص ٣٠٨.

العلماء - الشجاعة التي تجعلهم يجهرون بكلمة الحق في وجوه الطغاة لا يخافون لومة لائم، ويبلغون رسالات الله دون أن يخشوا أحدًا سواه، ويبينون للناس ما أمرهم الله ببيانه بطريفة سليمة أمينة خالية من التحريف الكاذب، والتأويل الباطل.

قال الإمام الرازي: قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في رؤساء اليهود وأحبارهم. كانوا يأخذون من أتباعهم الهدايا، فلما بعث الله نبيه محمدًا ﷺ خافوا انقطاع تلك المنافع فكتموا أمره - عليه السلام - وأمر شرائعه فنزلت هذه الآية.

ثم قال الإمام الرازي: والآية وإن نزلت في أهل الكتاب لكنها عامة في حق كل من كتم شيئًا من باب الدين يجب إظهاره، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب^(١).

والمراد بالكتاب، التوراة، أو جنس الكتب السماوية التي بشرت بالنبي ﷺ.

﴿من﴾ في قوله: ﴿من الكتاب﴾ بمعنى في أي: يكتُمون ما أنزل الله في كتابه من صفة النبي ﷺ ونعته ووقت بعثته.

وقيل للبيان، وهي حال من العائد على الموصول والتقدير: أنزل الله حال كونه من الكتاب والعمل فيه أنزل.

وقوله: ﴿ويشترون به ثمنًا قليلًا﴾ معطوف على يكتُمون.

أي: يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب مما يشهد بصدق النبي ﷺ ويأخذون من سفلتهم في مقابل ذلك عرضًا قليلًا من أعراض الدنيا.

والضمير في قوله: ﴿به﴾ يعود إلى ما أنزل الله، أو إلى الكتمان الذي يدل عليه الفعل ﴿يكتُمون﴾ أو إلى الكتاب.

ووصف هذا الثمن الذي يأخذونه في مقابل كتمانهم بالقلّة، لأن كل ما يؤخذ في مقابلة إخفاء شيء مما أنزله الله فهو قليل حتى ولو كان ملء الأرض ذهبًا.

وقوله - تعالى - : ﴿أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار﴾ وما عطف عليه، بيان للعذاب المهين الذي أعد لهم بسبب كتمانهم لما أمر الله بإظهاره وبيعهم دينهم بدنياهم.

أي: أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا ما يؤدي بهم إلى النار وبئس القراز كما قال - تعالى - في حق آكلة مال اليتامى: ﴿إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرًا﴾.

وفي هذه الجملة الكريمة تمثيل لحالة أولئك الكفار الحاصلة من أكلهم ذلك الثمن القليل

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٥ ص ٢٨، بتصرف.

المفضى بهم إلى النار، بحالة من يأكل النار نفسها. ووجه الشبه بين الحالتين : أنه يترتب على أكل ذلك المال الحرام من تقطيع الأمعاء وشدة الألم، ما يترتب على أكل النار ذاتها، إلا أن العذاب الحاصل من أكل النار يقع عندما تمتلئ منها بطونهم، والعذاب الحاصل من أكل المال الحرام يقع عند لقاء جزائه وهو الإحراق بالنار.

وجيء باسم الإشارة في أول هذه الجملة لتمييز أولئك الكافرين أكمل تمييز حتى لا يخفى أمرهم على أحد، وللتنبية على أن ما ذكر بعد اسم الإشارة من عقوبات سببه ما فعلوه قبل ذلك من سيئات.

وخص - سبحانه - بالذكر الأكل في بطونهم من بين وجوه انتفاعهم بما يأخذونه من مال حرام، للإشعار بسقوط همتهم ودناءة نفوسهم حتى إنهم ليخفون ما أمر الله بإظهاره من حقائق وهدايات، نظير ملء بطونهم.

وقوله : ﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة﴾ أى : لا يكلمهم كلاما تطمئن به نفوسهم، وتشرح له صدورهم وإنما يكلمهم بما يجزيهم ويفجعهم بسبب سوء أعمالهم كقوله - لهم : ﴿أخسؤا فيها ولا تكلمون﴾. أو أن نفى تكليمه لهم كتابة عن غضبه عليهم، لأن من عادة الملوك أنهم عند الغضب يعرضون عن المغضوب عليه. ولا يكلمونه، كما أنهم عند الرضا يقبلون عليه بالوجه والحديث.

وقوله : ﴿ولا يزيكهم﴾ أى : ولا يطهرهم من دنس الكفر والذنوب بالمغفرة، من التزكية بمعنى التطهير. يقال : زكاه الله، أى : طهره وأصلحه.

وتستعمل التزكية بمعنى الثناء، ومنه زكى الرجل صاحبه إذا وصفه بالأوصاف المحمودة وأثنى عليه، فيكون معنى ﴿ولا يزيكهم﴾ لا يثنى عليهم - سبحانه - ومن لا يثنى عليه الله فهو معذب.

فهؤلاء الذين كتموا الحق نظير شيء قليل من حطام الدنيا، فقدوا رضا الله عنهم وثناؤه عليهم وتطهيره لهم.

ثم ختم - سبحانه - الآية ببيان سوء منقلبهم، وشدة ألم العذاب الذى ينالهم فقال - تعالى - ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أى. موجه مؤلم.

قال الألوسى : وقد جاءت هذه الأخبار مرتبة بحسب المعنى، لأنه لما ذكر - سبحانه - اشتراءهم بذلك - الثمن القليل - وكان كناية عن مطاعمهم الخبيثة الفانية، بدأ أولا فى الخبر بقوله : ﴿ما يأكلون فى بطونهم إلا النار﴾. وابتنى على كتمانهم واشترائهم بما أنزل الله ثمنا

قليلا، أنهم شهود زور وأخبار سوء، آذوا بهذه الشهادة الباطلة رسول الله ﷺ وألموه فقوبلوا بقوله - سبحانه - : ﴿ولا يزيكهم وهم عذاب أليم﴾^(١).

ثم بين - سبحانه - ما هم عليه من جهل وغباء وسوء عاقبة فقال : ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة﴾.

الاشتراء : استبدال السلعة بالثمن. والمعنى : أولئك الذين تقدم الحديث عنهم وهم الكافرون لما أنزل الله قد بلغ بهم الغباء وانطماس البصيرة أنهم باعوا الهدى والإيمان ليأخذوا في مقابلتهما الكفر والضلال، وباعوا ما يوصلهم إلى مغفرة الله ورحمته ليأخذوا في مقابل ذلك عذابه ونقمته، فما أخسرها من صفقة، وما أغبى هؤلاء الكافرين الذين فعلوا ذلك نظير عرض من أعراض الدنيا الفانية، فخسروا بما فعلوه دنياهم وآخرتهم.

وقوله - تعالى - : ﴿فما أصبرهم على النار﴾ معناه : فما أდومهم على عمل المعاصي التي تؤدي بهم إلى النار حتى لكانهم بإصرارهم على عملها يجلبون النار إليهم جلبًا. ويقصدون إليها قصدًا بدون مبالاة أو تفكير.

والمراد من التعجب في هذه الآية وأشباهاها، الإغلام بحالهم وأنه ينبغي أن يتعجب منها كل أحد، وذلك لأن المعنى الظاهر من الجملة التعجب من صبر أولئك الكفار على النار، والتعجب انفعال - يحدث في النفس عند الشعور بأمر يجهل سببه وهو غير جائز في حقه - تعالى - لأنه لا يخفى عليه شيء، ومن هنا قال العلماء : إن فعل التعجب في كلام الله المراد منه التعجب، أي : جعل الغير يتعجب من ذلك الفعل، وهو هنا صبرهم على النار، فيكون المقصود تعجب المؤمنين من جراءة أولئك الكافرين لما أنزل الله على اقترافهم ما يلقى بهم في النار، شأن الواثق من صبره على عذابها المقيم.

وشبيه هذا الأسلوب في التعجب - كما أشار صاحب الكشاف - أن تقول لمن يتعرض لما يوجب غضب السلطان : ما أصبرك على القيد والسجن فانت لا تريد التعجب من صبره، وإنما تريد إفهامه أن التعرض لما يغضبه لا يقع إلا بمن شأنه الصبر على القيد والسجن، والمقصود بذلك تحذيره من التمادى فيما يوجب غضب ذلك السلطان.

قال الجمل ما ملخصه وما في قوله ﴿فما أصبرهم﴾ - وفي مثل هذا التركيب - فيها أوجه : أحدها : وهو قول سيويه والجمهور أنها نكرة تامة غير موصولة ولا موصوفة وأن معناها التعجب فإذا قلت. ما أحسن زيدًا، فمعناه : شيء صير زيدًا حسنًا.

(١) تفسير الألويسي ج ٢ ص ٤٤.

والثاني : وإليه ذهب الفراء : أنها استفهامية صحبها معنى التعجب ، نحو : « كيف تكفرون بالله » .

والثالث : ويعزى للاخفش : أنها موصولة .

والرابع ويعزى له أيضاً : أنها نكرة موصوفة وهى على هذه الأقوال الأربعة فى محل رفع بالابتداء وخبرها على القولين الأولين الجملة الفعلية بعدها ، وعلى قولى الاخفش يكون الخبر محذوفاً (١) .

ثم بين - سبحانه - أن سبب استحقاقهم للعذاب الأليم ، هو ارتكابهم لما نهى الله عنه عن قصد وسوء نية فقال : ﴿ ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق ﴾ .

أى : ذلك العذاب الأليم حل بهم بسبب أن الله أنزل التوراة مصحوبة ببيان الحق الذى من جملته التبشير ببعثة النبى محمد ﷺ فكتبوا هم هذا الحق وامتدت إليه أيديهم الأثيمة بالتحريف والتأويل إثارة لمطامع دنيوية على هدى الله الذى هو أساس كل سعادة .

فاسم الإشارة ﴿ ذلك ﴾ يعود على مجموع ما سبق بيانه من أكل النار ، وعدم تكليم الله إياهم ، وعدم تزكيتهم . الخ .

والباء فى قوله : ﴿ بأن ﴾ للسببية ، والمراد بالكتاب : التوراة .

ثم ختم - سبحانه - الحديث عن هؤلاء الكافرين للحق بقوله : ﴿ وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفي شقاق بعيد ﴾ .

اختلفوا : خالف بعضهم بعضاً ، وأصله من اختلاف الطريق ، تقول اختلفوا فى الطريق . أى : جاء بعضهم من جهة والبعض الآخر من جهة أو جهات أخرى . ثم استعمل فى الاختلاف فى المذاهب والاعتقاد .

والكتاب : التوراة ، أو التوراة والإنجيل ، إذ يصح أن يراد جنس الكتاب والمقام يقتضى صرفه إلى هذين الكتابين ، وقد أبعد فى التأويل من قال بأن المراد به القرآن لأن الحديث عن أهل الكتاب الذين كتبوا ما فى كتبهم من بشارات بالرسول ﷺ واختلافهم فى الكتاب من مظاهره : إيمانهم ببعضه وكفرهم بالبعض الآخر ، وتحريفه عن مواضعه وتأويله على غير ما يراد منه .

والشقاق : الخلاف ، كأن كل واحد من المختلفين فى شق غير الشق الذى يكون فيه الآخر ،

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ١٤٠ .

وإذا وصف الخلاف بالبعد فهم منه أنه بعيد عن الحق، يقال: قال فلان قولاً بعيداً، أى بعيداً من الصواب.

والمعنى: ذلك العذاب الأليم حل بأولئك الأشقياء بسبب كتمانهم لما أنزله الله في كتابه من الحق، وإن الذين اختلفوا في شأن ما أنزله الله في كتبه فأظهروا منها ما يناسب أهواءهم وأنحفوا ما لا يناسبها - لفي بعد شديد عن الحق والصواب:

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ذكرت ألواناً من العقوبات الأليمة التي توعدها الله بها كل من يكتُم أمراً نهى الله عن كتمانها، لكي يقلع كل من يتأني له الخطاب عن هذه الرذيلة وفاء للعهد الذي أخذه الله على الناس بصفة عامة، وعلى أولى العلم بصفة خاصة.

ثم ساق القرآن الكريم آية جامعة لأنواع البر، ووجوه الخير، تهدي المتمسك بها إلى السعادة الدنيوية والأخروية فقال - تعالى -:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ
الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ
وَالنَّبِيِّنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ
الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذْ عَاهَدُوا
وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ
صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

﴿البر﴾: اسم جامع لكل خير، ولكل طاعة وقرية يتقرب بها العبد إلى خالقه - عز وجل -.

قال الراغب: «البر - بفتح الباء - خلاف البحر، وتصور منه التوسع فاشتق منه البر - بكسر الباء - بمعنى التوسع في فعل الخير، وينسب ذلك إلى الله - تعالى - تارة نحو: ﴿إنه هو البر الرحيم﴾ وإلى العبد تارة فيقال: بر العبد ربه، أى توسع في طاعته فالبر من الله

الثواب، ومن العبد الطاعة»^(١).

وتولية الوجوه قبل الشيء معناه: التوجه إليه بجعل الوجه متجها إلى جهته فلفظ «قيل» بمعنى جهة وهو منصوب على الظرفية المكانية.

﴿والمشرق﴾: الجهة التي تشرق منها الشمس، والمغرب: الجهة التي تغرب فيها.

قال الإمام الرازي: اختلف العلماء في أن هذا الخطاب عام أو خاص. فقال بعضهم: أراد بقوله: ﴿ليس البر﴾ أهل الكتاب لما شددوا في الثبات على التوجه نحو بيت المقدس فقال - تعالى - ليس البر هذه الطريقة ولكن البر من آمن بالله. وقال بعضهم: بل المراد مخاطبته المؤمنين لما ظنوا أنهم قد نالوا البغية بالتوجه إلى الكعبة من حيث كانوا يجوبون ذلك فحوظوا بهذا الكلام وقال بعضهم: بل هو خطاب للكل، لأن عند نسخ القبلة وتحويلها حصل من المؤمنين الاعتباط بهذه القبلة، وحصل منهم التشدد في تلك القبلة حتى ظنوا أنه الفرض الأكبر في الدين، فبعثهم الله - تعالى - بهذا الخطاب على أستيفاء جميع العبادات والطاعات، وبين أن البر ليس بأن تولوا وجوهكم شرقاً وغرباً، وإنما البر. كيت وكيت. وهذا أشبه بالظاهر إذ لا تخصيص فيه، فكأنه - تعالى - قال: ليس البر المطلوب هو أمر القبلة، بل البر المطلوب هو هذه الخصال التي عدّها^(٢).

وهذا القول الثالث - الذي يرى أصحابه أن الخطاب للكل، والذي قال عنه الإمام الرازي: هذا أشبه بالظاهر - هذا القول، هو الذي تسكن إليه النفس؛ لأنه لا يوجد نص صحيح يخصص الخطاب لطائفة معينة من الناس ولأن المقصود من الآية الكريمة إنما هو إفهام الناس في كل زمان ومكان أن مجرد تولية الوجه إلى قبلة مخصوصة ليس هو البر الكامل الذي يعنيه الإسلام، وإنما البر الكامل يتأتى في استجابة الإنسان لتلك الخصال الشريفة التي اشتملت عليها الآية، تلك الخصال التي تجعل المستمسكين بها على صلة طيبة بخالقهم وعلى صلة طيبة بغيرهم، - كما سنبين ذلك عند تعليقنا على هذه الآية الكريمة -.

والمعنى: ليس البر - الذي هو كل طاعة يتقرب بها الإنسان إلى خالقه - في تولية الوجه عند الصلاة إلى جهة المشرق والمغرب، وإنما البر الذي يجب الاهتمام به لأنه يؤدي إلى السعادة والفلاح - يكون في الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وفي انفاق المال في وجوه الخير، وفي اتباع ما ذكرته الآية الكريمة من خصال جليلة.

هذا وقد قرأ حمزة وحفص عن عاصم ﴿ليس البر﴾ بنصب البر على أنه خبر ليس، واسمها

(١) المفردات في غريب القرآن ص ٤٠ للراغب الأصفهاني.

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ٥ ص ٣٨.

قوله - تعالى - : ﴿أن تولوا﴾ أى : ليس توليتكم وجوهكم قبل المشرق والمغرب البر كله .
وقرأ الباقون ﴿ليس البر﴾ برفع البر على أنه اسم ليس، وخبرها قوله - تعالى - : ﴿أن تولوا﴾ أى ليس البر كله توليتكم وجوهكم قبل المشرق والمغرب .

قال الطبرسى : وكلا المذهبين حسن، لأن كل واحد من اسم ليس وخبرها معرفة، فإذا اجتمعا فى التعريف تكافأ فى كون أحدهما اسما والآخر خيراً كما تنكأفاً النكرتان^(١) .

وقوله - تعالى - : ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين﴾ إلخ بيان لما هو البر الذى يجب أن تتجه إليه الأفكار، وتستجيب له النفوس .

و﴿لكن﴾ حرف استدارك، البر : اسمها . وقوله ﴿من آمن﴾ وقع فى اللفظ موقع الخبر عن قوله ﴿البر﴾ والخبر فى المعنى لفظ مقدر مضاف إلى من آمن، يفهم من سياق الجملة، والمعنى مع ملاحظة المقدر : ولكن البر بر من آمن بالله .

وهذا اللون من الإيجاز الذى حذف فيه المضاف معهود فى كلام البلغاء إذ تجدهم يقولون السخاء حاتم، والشعر زهير . أى : السخاء سخاء حاتم، والشعر شعر زهير .

وقيل : إن البر هنا بمعنى البار فجعل المصدر فى موضع اسم الفاعل، كما يقال : ماء غور أى : غائر، ورجل صوم أى : صائم .

وقيل : إن المحذوف هو لفظ مضاف إلى البر . أى : ولكن ذا البر من آمن بالله .
وقد ابتدأت الآية حديثها عن خصال البر بالإيمان بالله، لأنه أساس كل بر . وأصل كل خير، والإيمان بالله : هو التصديق بأنه هو الواحد الفرد الصمد، الذى لا تعنو الوجوه إلا له، ولا تتجه القلوب بالعبادة إلا إليه، ومتى رسخ هذا الإيمان فى النفوس ارتفع بها إلى مكانة التكريم التى أرادها الله - تعالى - لبنى آدم وصانها عن الذلة والاستكانة وأعطاهما نبراس الهداية والسداد فى كل نواحي الحياة .

ثم ذكرت الإيمان باليوم الآخر، وهو التصديق بالبعث وما يقع بعده من حساب وثواب وعقاب على الوجه الذى وصفته نصوص الشريعة بأجلى بيان .

والإيمان باليوم الآخر من ثماره أنه يغرس فى النفوس محبة الخير، والحرص على إسداء المعروف وينفرها من اقتراف الشرور وارتكاب الآثام .

ولقد تحدث القرآن عن الإيمان بالله واليوم الآخر فى عشرات الآيات، وأقام الأدلة الساطعة، والبراهين القاطعة على وحدانية الله وعلى أنه هو صاحب الكمال المطلق، كما أقام

(١) تفسير الطبرسى ج ٢ ص ٩٢ طبعة مكتبة الحياة ببيروت سنة ١٩٨٠ .

الحجج والبراهين على أن البعث حق وضرب الأمثال لذلك، وسفه عقول المنكرين له. ثم ذكرت الإيمان بالملائكة والملائكة : أجسام لطيفة نورانية، قادرون على التشكل في صورة حسنة مختلفة، وصفهم القرآن بأنهم ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾.

ووجه دخول التصديق بهم في حقيقة الإيمان، أن الله وسطهم في إبلاغ وحيه لأنبيائه، وبين ذلك في كتابه، وتحدث الصادق المصدوق ﷺ عنهم في كثير من أحاديثه، فمن لم يؤمن بالملائكة على هذا الوجه الذي جاءت به الشريعة فقد انكر الوحي، إذ الإيمان بهم أصل للإيمان بالوحي، فيلزم من إنكارهم إنكار الوحي، وهو يستلزم إنكار النبوة وإنكار الدار الآخرة.

ثم ذكرت الآية الإيمان بالكتاب. والمراد به القرآن لأنه المقصود بالدعوة، ولأنه هو الأمين على الكتب قبله، فما وافقه منها كان حقاً وما خالفه كان باطلاً.

والإيمان به يستلزم الإيمان بجميع الكتب المنزلة من عند الله على أنبيائه، لأنه هو الذي أخبرنا بذلك وأمرنا بذلك وأمرنا بأن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله.

ثم ذكرت الإيمان بالنبين، أي : التصديق بأنهم رجال اصطفاهم الله - تعالى - لتلقى هدايته وكتبه وتبليغها للناس بصدق وأمانة وسلامة بصيرة.

والنبيون الذين يجب الإيمان بهم : كل من ثبتت نبوته عن طريق القرآن الكريم أو الحديث الصحيح، وكل من أنكر نبوة نبي قد ثبتت نبوته فقد خرج عن طريق الإيمان.

ولقد قام الدليل القاطع على أن محمداً ﷺ هو خاتم النبيين والمرسلين، وكل من ادعى غير ذلك فهو من الضالين المضلين.

وقد جمعت هذه الأمور الخمسة التي ذكرتها الآية كل ما يلزم أن يصدق به الإنسان، لكي يكون ذا عقيدة سليمة، تصل به إلى الفلاح والسعادة.

ثم ذكرت الآية بعد بيان أصول الإيمان أصول الأعمال الصالحة فقالت. ﴿وآتى المال على حبه، ذوى القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل والسائلين، وفى الرقاب﴾.

وهذه الجملة معطوفة على قوله - تعالى - : ﴿من آمن بالله﴾.

والضمير في قوله ﴿على حبه﴾ يعود إلى المال، أى : أعطى المال وبذله عن طيب خاطره حالة كونه محباً له راغباً فيه. لأن الإعطاء والبذل في هذه الحالة يدل على قوة الإيمان، وصفاء الوجدان، ويسمى بصاحبه إلى أعلا الدرجات. قال - تعالى - : ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾.

وقد بين النبي ﷺ أن أفضل الصدقة ما كان في حال الصحة، لأن الإنسان في هذه الحالة

يكون مظنة الحاجة إلى المال فقد أخرج البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ قال : يارسول الله ، أى الصدقة أعظم أجراً ؟ قال : « أن تصدق وأنت صحيح صحيح ، تحشى الفقر وتأمل الغنى ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت : لفلان كذا وكذا وقد كان لفلان .

وقيل الضمير يعود إلى الله - عز وجل - أى : يعطون المال على حب الله وطلباً لمرضاته .
وقيل يعود إلى الايتاء الذى دل عليه قوله - تعالى - ﴿ وآتى المال ﴾ فكأنه قال : يعطى ويجب الاعطاء رغبة فى ثواب الله .

والمراد بذوى القربى : أقرباء المعطى للمال . والمعنى : وأعطى المال مع محبته لهذا المال لأقاربه المحتاجين لأنهم أولى بالمعروف ، ولأن إعطائهم إحسان وصله رحم ، ولذلك جاء ذكرهم فى الآية مقدماً على بقية الأصناف التى تستحق العطف والإحسان .

روى الإمام أحمد والترمذى والنسائى وغيرهم عن سليمان بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الصدقة على المسكين صدقة . وعلى ذى الرحم اثنتان : صدقة وصله » .

﴿ واليتامى ﴾ : جمع يتيم ، وهو من فقد أباه بالموت ولم يبلغ الحلم . وهؤلاء اليتامى فى حاجة إلى الإحسان إليهم بعد ذوى القربى متى كانوا محتاجين ، لشدة عجزهم عن كسب ما يسد حاجتهم .

﴿ والمساكين ﴾ جمع مسكين ، وهو من لا يملك شيئاً من المال ، أو يملك ما لا يكفى حاجاته وهذا النوع من الناس فى حاجة إلى العناية والرعاية ؛ لأنهم فى الغالب يفضلون الاكتفاء بالقليل على إراقة وجهه وهم بالسؤال . وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ليس المسكين الذى يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان والتمر والتمران . قالوا : فما المسكين يارسول الله ؟ قال الذى لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ، ولا يسأل الناس شيئاً » .

﴿ وابن السبيل ﴾ : هو المسافر المنقطع عن ماله . وسمى بذلك - كما قال الأوسى - لملازمته السبيل - أى الطريق - فى السفر ، أو لأن الطريق تبرزه فكأنها ولدته وكان أفرادها لانفرادها عن أحبائه ووطنه وأصحابه فهو أبداً يتوق إلى الجمع ، ويشتاق إلى الربع ، والكريم يحن إلى وطنه حين الشارف^(١) إلى عطنه^(٢) .

وهذا النوع من الناس فى حاجة إلى المساعدة والمعونة حتى يستطيع الوصول إلى بلده ، وفى

(١) الشارف : من الدواب المسن . أه المعجم الوسيط ج ١ ص ٤٧٩

(٢) العطن : مبارك الأبل ومرىض الغنم عند الماء . المعجم الوسيط ج ٢ ص ٦٠٩ .

هذا تنبيه إلى أن المسلمين وإن اختلفت أوطانهم ينبغي أن يكونوا في التعاطف والتعاون على متاعب الحياة كالأسرة الواحدة.

﴿والسائلين﴾ : جمع سائل، وهو الطالب للإحسان والمعروف. ويحمل حاله على أنه في حاجة إلى المعاونة، لأن السؤال علامة الحاجة غالباً.

والرقاب : جمع رقبة وهي في الأصل العنق، وتطلق على البدن كله كما تطلق العين على الجاسوس. فصح حمل الرقاب على الأسارى والأرقاء.

وقوله : ﴿وفي الرقاب﴾ متعلق بآتى، أى : آتى المال على حبه في تخليص الأسرى من أيدي العدو وبفدائهم، وتخليص الأرقاء بشرائهم وإعتاقهم. وهذه الأصناف الستة التي ذكرت في تلك الآية الكريمة ﴿وآتى المال على حبه..﴾ إلخ.

ليس المقصود من ذكرها الاستيعاب والحصر، ولكنها ذكرت كأمثلة ونخصت بالذكر لأنها أحوج من غيرها إلى العون والمساعدة.

والذى يراجع القرآن الكريم يجده قد عنى عناية كبرى بالفقراء والمساكين وجميع أصناف المحتاجين حتى لا تكاد سورة من سوره تخلو من الحث على الإنفاق عليهم، وبذل العون في مساعدتهم - وأيضاً - هناك عشرات الأحاديث في الحض على مد يد العون إلى ذوى القرابة والمعسرين، وذلك لأن المجتمعات تحيا وتنهض بالتراحم، وتذل وتشقى بالتقاطع والتدابير بين أبنائها.

ثم ذكرت الآية ألواناً أخرى من البر تدل على قوة الإيمان وحسن الخلق فقالت : ﴿وأقام الصلاة وآتى الزكاة﴾ وإقامة الصلاة أداؤها في مواقيتها مستوفية لأركانها وسننها وخشوعها على الوجه الشرعى الذى أمر الله به، والمراد بالزكاة هنا، الزكاة المفروضة على الوجه الذى فصلته السنة المطهرة. وإبتاؤها : يكون بإعطائها لمستحقيها من الفقراء والمساكين وغيرهم ممن ذكرهم الله فى قوله - تعالى - : ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل، فريضة من الله والله عليم حكيم﴾.

وفى ذكر الزكاة المفروضة بعد ذكر إيتاء المال على حبه لذوى القربى واليتامى.. الخ دليل على أن فى الأموال حقوقاً لذوى الحاجات سوى الزكاة، وذلك لأنه من المعروف بين أهل العلم أن الحاجة إذا بلغت بطائفة من أبناء الأمة حد الضرورة، يجب على الأغنياء منها أن يسعوا فى سدها ولو بما زاد على قدر الزكاة.

والأغنياء الذين يكتفون بدفع الزكاة، ولا يمدون يد المساعدة لسد حاجة المحتاجين، وتفريج كرب المكروبين، ودفع ضرورة البائسين، ليسوا على البر الذى يريده الله من عباده المتقين.

ومسألة «هل في المال حق سوى الزكاة» من المسائل التي تناوها بعض العلماء بالشرح والتفصيل^(١).

وقوله: ﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾ معطوف على قوله ﴿من آمن﴾ فإنه في قوة قولك، ومن أوفوا بعهدهم، وأوثر صيغة اسم الفاعل للدلالة على وجوب استمرار الوفاء. الوفاء بالعهد يشمل ما عاهد المؤمنون عليه الله من الإذعان لكل ماجاء به الدين، ويشمل ما يعاهد به الناس بعضهم بعضاً مما لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً. والموفون بعهدهم هم الذين إذا وعدوا أنجزوا، وإذا حلفوا بروا في أيمانهم، وإذا قالوا صدقوا في قولهم، وإذا ائتمنوا أدوا الأمانة، وقد وعدهم الله على ذلك بأجزل الثواب، وأعلى الدرجات.

وفي قوله - تعالى - : ﴿إذا عاهدوا﴾ إشارة إلى أن إيفاءهم بالعهد لا يتأخر عن وقت حصول العهد.

ثم ختم - سبحانه - خصال البر بقوله: ﴿والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس﴾. البأساء من البؤس، وهي ما يصيب الناس في الأموال كالفقر والاحتياج. يقال: بشس يبأس بؤساً وبأساً أى اشتدت حاجته.

والضراء من الضر، وهي ما يصيبهم في أنفسهم كالأمراض والأسقام يقال: ضره وأضره وضاره وضراً، ضد نفع: والألف في البأساء والضراء للتأنيث.

وحين البأس، أى: ووقت القتال في سبيل الله لإعلاء كلمته، يقال: بؤس ببؤس بأساً فهو بثيس، أى: شجاع شديد.

وقوله: ﴿والصابرين﴾ معطوف في المعنى على ﴿من آمن﴾ كقوله ﴿والموفون﴾ إلا أنه جاء منصوباً على المدح بتقدير - أخص أو أمدح - وغير سبكه عما قبله، تنبيهاً على فضيلة الصبر ومزيته على غيره من الفضائل حتى لكأنه ليس من جنس ما سبقه من فضائل، وهذا الأسلوب يسمى عند علماء اللغة العربية بالقطع، وهو أبلغ من الإتياع. ولا ريب في أن صفة الصبر على الشدائد والآلام وحين القتال في سبيل الله، جديرة بأنه ينه لمزيد فضلها، إذ هي أصل لكثير من المكارم كالعفاف عما في أيدي الناس، والتسليم للقضاء الذي لا مرد له، والإقدام الذي يحمي به الدين وتسلم به النفوس والأموال والأعراض:

وليس الصبر هو الخضوع والاستكانة والاستسلام من غير مقاومة ولا عمل وإنما الصبر جهاد

(١) راجع تفسير الفخر الرازي ج ٥ ص ٤٤، وتفسير الألوسي ج ٢ ص ٤٧.

ومحاولة للتغلب على المصاعب، ومع الاحتفاظ برباطة الجأش والثقة بحسن العاقبة. وقد خصت الآية ثلاث حالات بالصبر؛ لأن هذه الحالات هي أبرز الأشياء التي يظهر فيها هلع المهالين وجزع الجازعين، كما يتميز فيها أصحاب النفوس القوية المطمئنة من غيرهم. وجاءت كلمة «حين» في قوله: ﴿وحين البأس﴾ مشيرة إلى أن مزية الصبر في القتال إنما تظهر حين يلتقى الجمعان، وتدور رحى الحرب، لأن بعض الناس قد يكون قوياً في بدنه، وقد يحشر نفسه في زمرة الأبطال المقاتلين، ولكنه عندما يرى الأعناق تتساقط من حوله تخور قواه، ويلوذ بالقرار، أو يستسلم للعدو. وفي هذه الحالة تسلب عنه صفة الصابرين حين البأس. وتحق عليه صفة الضعفاء الجبناء.

وقد جاءت أنواع الصبر في الآية على وجه الترقى من الشديد إلى الأشد، وذلك لأن الصبر على المرض أصعب من الصبر على الفقر، والصبر حين البأس أصعب من الصبر على المرض. ثم ختمت الآية حديثها عن هؤلاء الجامعين لهذه الخصال بقوله تعالى: ﴿وأولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾.

أولئك اسم إشارة للجمع، وقد أشير به إلى من تقدم ذكرهم من الجامعين لخصال البر والصدق توصف به الأقوال المطابقة للواقع، وتوصف به الأعمال الواقعة على الوجه الذي يرضى الله - تعالى - .

والمتقون من الاتقاء وهو الخذر، ويطلق المتقى في كلام الشارع على الانسان الذي صان نفسه عن كل ما يغيض الله، وامثل لأوامره ونواهيه.

أى: أولئك الذين تقدم ذكرهم من المحرزين لخصال البر هم الصادقون في إيمانهم وفي كل أحوالهم، وأولئك هم المتقون لعذاب الله - تعالى - بسبب امتثالهم لأوامره، واجتنابهم لما نهى عنه.

واسم الإشارة ﴿أولئك﴾ جىء به لإحضارهم في أذهان المخاطبين وهم متصفون بتلك المناقب الجليلة.

وفي تكرير الإشارة زيادة تنويه بشأنهم وفضلهم. وجاء الإخبار عنهم بأنهم الصادقون المتقون، لتشيرهم بأنهم قد بلغوا بإحرازهم لتلك الخصال السابقة الغاية التي يطمح إليها أرباب البصائر المنتيرة، والنفوس المتقيمة، والقلوب السليمة، وهي مقام الصدق والتقوى الذي يرتفع بصاحبه إلى السعادة في الدنيا، والنعيم الدائم في الآخرة.

هذا وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على خمسة عشر نوعاً من أنواع البر الذي يهدى إلى الحياة

السعيدة في الدنيا، وإلى رضا الله - تعالى - في الآخرة، وذلك لأنها قد أرشدت إلى أن البر أنواع ثلاثة جامعة لكل خير: بر في العقيدة، وبر في العمل، وبر في الخلق.

أما بر العقيدة فقد بيته أكمل بيان في قوله - تعالى - : ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين﴾.

فقد جمعت في هذه الجملة الكريمة مالا يتم الإيمان إلا بتحقيقه.

وأما بر العمل فقد وضحته أبلغ توضيح في قوله - تعالى - : ﴿وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب﴾.

ولاشك أن إنفاق المال في تلك الوجوه من شأنه أن يسعد الأفراد والجماعات والأمم، ويكون مظهرًا من أفضل مظاهر العمل الصالح الذى يرضى الله - تعالى - .

وأما بر الخلق فقد ذكرته بأحكم عبارة في قوله - تعالى - : ﴿وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس﴾.

وذلك لأن التمسك بهذه الفضائل. أداء الصلاة وإيتاء الزكاة. والوفاء بالعهود، والتذرع بالصبر - يدل على صفاء الإيمان وطهارة الوجدان وحسن الخلق وكمال الاستقامة.

وهكذا تجمع آية واحدة من كتاب الله بين بر العقيدة وبر العمل وبر الخلق، وتربط بين الجميع برباط واحد لا ينفصم، ونضع على هذا كله عنوانًا واحدًا «البر» وتمدح من استجمع أنواعه بالصدق والتقوى.

فلهذا الاستقراء البديع، وذلك التوجيه السديد، الذى يشهد أن هذا القرآن من عند الله ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا﴾.

وبعد أن بين - سبحانه - أن البر الجامع لألوان الخير يتجلى فى الإيمان بالله واليوم الآخر. . . وفى بذل المال فى وجوه الخير، وفى المحافظة على فرائضه - سبحانه - وفى غير ذلك من أنواع الطاعات التى ذكرتها الآية السابقة بعد كل ذلك شرع - سبحانه - فى بيان بعض الأحكام العملية الجليلة التى لا يستغنى عنها الناس فى حياتهم، وبدأ هذه الأحكام بالحديث عن حفظ الدماء لماله من منزلة ذات شأن فى إصلاح العالم - فقال - تعالى - :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ

عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبِ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى

يَا لَأَنْتَى فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاِتِّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ
إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مِّنْ أَعْتَدَى
بَعْدَ ذَلِكَ فَلهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ
يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

﴿كتب﴾ من الكتب، وهو في الأصل ضم أديم إلى أديم بالخياطة. وتعرف في ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط، وأطلق على المضموم في اللفظ وإن لم يكتب بالخط، ومنه الكتابة، ويطلق الكتب والكتاب والكتابة على الإيجاب والفرص؛ لأن الشأن فيها وجب ويفرض أن يراد ثم يقال ثم يكتب، ومنه «كتب عليكم الصيام» أي: فرض عليكم. ﴿والقصاص﴾: العقوبة بالمثل من قتل أو جرح. وهو - كما قال القرطبي - مأخوذ من قص الأثر وهو اتباعه ومنه القاص لأنه يتبع الأثار والأخبار وقص الشعر اتباع أثره، فكان القاتل سلك طريقاً من القتل فقص أثره فيها ومشي على سبيله في ذلك، ومنه ﴿فارتدا على آثارهما قصصاً﴾ وقيل: القص القطع. يقال: قصصت ما بينهما. ومنه أخذ القصاص؛ لأنه يجرحه مثل جرحه أو يقتله به. يقال أقص الحاكم فلاناً من فلان به فأمثله فأمثل منه، أي: اقتص منه» (١)

فمادة القصاص تدل على التساوى والتماثل والتتبع.

والقتل جمع قتيل، والقتيل من يقتله غيره من الناس.

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا فرض عليكم وأوجب القصاص بسبب القتل. بأن تقتلوا القاتل عقوبة له على جريمته مع مراعاة المساواة التي قررها الشارع الحكيم، فلا يجوز لكم أن تقتلوا غير القاتل، كما لا يجوز لكم أن تسرفوا في القتل بأن تقتلوا القاتل وغيره من أقرابه.

فمعنى القصاص هنا أن يقتل القاتل لأنه في نظر الشريعة مساو للمقتول فيقتل به. وقد بين العلماء أن القصاص يفرض عند القتل الواقع على وجه التعمد والتعدى، وعند مطالبة أولياء القتيل بالquod - أي القصاص - من القاتل.

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٤٥ طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٧٣ هـ.

ولفظ «في» في قوله - تعالى - : ﴿فِي الْقَتْلِ﴾ للسببية، أى : فرض عليكم القصاص بسبب القتل. كما في قوله ﷺ «دخلت امرأة النار في هرة» أى بسببها.

وصدرت الآية بخطاب ﴿الذين آمنوا﴾، تقوية لداعية إنفاذ حكم القصاص الذى شرعه الخبير بنفوس خلقه، لأن من شأن الإيمان الصادق أن يحمل صاحبه على تنفيذ شريعة الله التى شرعها لإقامة الأمان والاطمئنان بين الناس، ولسد أبواب الفتن التى تحل عرا الألفة والمودة بينهم.

وقد وجه - سبحانه - الخطاب إلى المؤمنين كافة مع أن تنفيذ الحدود من حق الحاكم لإشعارهم بأن عليهم جانباً من التبعة إذا أهمل الحكام تنفيذ هذه العقوبات التى شرعها الله.

وإذا لم يقيمها بالطريقة التى بينتها شريعته، وإشعارهم كذلك بأنهم مطالبون بعمل ما يساعد الحكام على تنفيذ الحدود بالعدل. وذلك بتسليم الجانى إلى المكلفين بحفظ الأمان، وأداء الشهادة عليه بالحق والعدل، وغير ذلك من وجوه المساعدة.

وقوله - تعالى - : ﴿الْحَرِّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدَ بِالْعَبْدِ، وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ بيان لمعنى المساواة فى القتل المشار إليها بلفظ القصاص فالجملة تنتم لمعنى الجملة السابقة، ومفادها أنه لا يقتل فى مقابل المقتول سوى قاتله، لأن قتل غير الجانى ليس بقصاص بل هو اعتداء يؤدى إلى فتنة فى الأرض وفساد كبير.

وقد يفهم من مقابلة ﴿الْحَرِّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدَ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ أنه لا يقتل صنف بصنف آخر، وهذا الفهم غير مراد على إطلاقه، فقد جرى العمل منذ عهد رسول الله ﷺ على قتل الرجل بالمرأة.

قال القرطبي : «أجمع العلماء على قتل الرجل بالمرأة، والمرأة بالرجل»^(١).

والخلاف فى قتل الحر بالعبد. فبعض العلماء يرى قتل الحر بالعبد، وبعضهم لا يرى ذلك، ولكل فريق أدلته التى يمكن الرجوع إليها فى كتب الفقه.

والغرض الذى سيقى من أجله الآية الكريمة، إنما هو وجوب تنفيذ القصاص بالعدل والمساواة وإبطال ما كان شائعاً فى الجاهلية من أن القبيلة القوية كانت إذا قتلت منها القبيلة الضعيفة شخصاً لا ترضى حتى تقتل فى مقابلة من الضعيفة أشخاصاً. وإذا قتلت منها عبداً تقتل فى مقابلة حراً أو أحراراً، وإذا قتلت منها أنثى قتلت فى نظيرها رجلاً أو أكثر. فترتب على

(١) تفسير القرطبي جـ ٢ ص ٢٤٨.

ذلك ان يتشتر القتل، ويشيع الفساد، وقد حكى لنا التاريخ كثيراً مما فعله الجاهليون في هذا الشأن.

قال الإمام البيضاوى عند تفسيره لهذه الآية : كان في الجاهلية بين حين من أحياء العرب دماء وكان لأحدهما طول على الآخر فأقسموا لنقتلن الحر منكم بالعبد، والذكر بالأثني، فلما جاء الإسلام تحاكموا إلى رسول الله - ﷺ فنزلت هذه الآية. وهي لا تدل على أنه لا يقتل الحر بالعبد والذكر بالأثني، كما لا تدل على عكسه، فإن المفهوم يعتبر حيث لم يظهر للتخصيص غرض سوى اختصاص الحكم^(١).

ثم أورد - سبحانه - بعد إيجابه للقصاص العادل - حكماً يفتح باب التراضي، بين القاتل وأولياء المقتول، بأن أباح لهم أن يسقطوا عنه القصاص إذا شأوا ويأخذوا في مقابل ذلك الدية، فقال - تعالى - : ﴿فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان﴾. عفى : من العفو وهو الإسقاط. والعفو عن المعصية، ترك العقاب عليها. والذي عفى له هو القاتل، و﴿أخيه﴾ الذي عفا هو ولي المقتول. والمراد بلفظ ﴿شيء﴾ القصاص، وهو نائب فاعل ﴿عفى﴾.

والمعنى : أن القاتل عمدًا إذا أسقط عنه أخوه ولى دم القاتل القصاص، راضياً أن يأخذ منه الدية بدل القصاص، فمن الواجب على ولى الدم أن يتبع طريق العدل في أخذ الدية من القاتل بحيث لا يطالبه بأكثر من حقه، ومن الواجب كذلك على القاتل أن يدفع له الدية بالطريق الحسنى، بحيث لا يماطله ولا يبخسه حقه.

فقوله - تعالى - : ﴿فاتباع بالمعروف﴾ وصية منه - سبحانه - لولى الدم أن يكون رقيقاً في مطالبته القاتل بدفع الدية.

وقوله : ﴿وأداء إليه بإحسان﴾ وصية منه - سبحانه - للقاتل بأن يدفع الدية لولى الدم بدون تسويف أو مماطلة.

وفي هذه الوصايا تحقيق لصفاء القلوب، وشفاء لما في الصدور من آلام، وتقوية لروابط الأخوة الإنسانية بين البشر.

وبعضهم فسر العفو بالعتاء فيكون المعنى : فمن اعطى له وهو ولى المقتول من أخيه وهو القاتل شيئاً وهو الدية، فعلى ولى المقتول اتباعه بالمعروف، وعلى القاتل أداء إليه بإحسان.

وسمى القرآن الكريم القاتل أخاً لولى المقتول، تذكيراً بالأخوة الإنسانية والدينية، حتى يهز

(١) تفسير البيضاوى ص ٣٦.

عطف كل واحد منهما إلى الآخر، فيقع بينهم العفو، والاتباع بالمعروف، والأداء بإحسان.
قال صاحب الكشاف: فإن قلت: عفى يتعدى بعن لا باللام فما وجه قوله ﴿فمن عفى له﴾؟ قلت: يتعدى بعن إلى الجاني وإلى الذنب فيقال: عفوت عن فلان وعن ذنبه. قال - تعالى - : ﴿عفا الله عنك﴾ وقال: ﴿عفا الله عنها﴾. فإذا تعدى إلى الذنب والجاني معاً قيل: عفوت لفلان عما جنى، كما تقول: غفرت له ذنبه وتجاوزت له عنه. وعلى هذا ما في الآية، كأنه قيل: فمن عفى عن جنايته فاستغنى عن ذكر الجناية^(١).

وجاء التعبير بلفظ شيء منكرًا لإفادة التقليل. أى: فمن عفى له من أخيه ما يسمى شيئاً من العفو والتجاوز ولو أقل قليل، تم العفو وسقط القصاص، ولم تجب إلا الدية، وذلك بأن يعفو بعض أولياء الدم، لأن القصاص لا يتجزأ.

وفي ذلك تحييب من الشارع الحكيم لولى الدم، في العفو وفي قبول الدية، إذ العفو أقرب إلى صفاء القلوب، وتجميع النفوس على الإخاء والتعاطف والتسامح. وفيه - أيضاً - إبطال لما كان عليه أهل الجاهلية من التعيير من قبول أخذ الصلح في قتل العمد، وعدم ذلك لوئاً من بيع دم المقتول بثمن بخس. قال بعضهم يحرض قومه على الثأر.

فلاتأخذوا عقلاً من القوم إننى أرى العار يبقى والمعاقل تذهب
وقال شاعر آخر يذكّر قومًا لم يقبلوا الصلح عن قتيل لهم:

فلو أن حيا يقبل المال فدية لسقنا لهم سيئاً من المال مفعماً
ولكن أبى قوم أصيب أخوهم رضا العار فاخترأوا على اللبن الدما
ثم بين - سبحانه - أنه يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر فقال: ﴿ذلك تخفيف من ربكم ورحمة﴾.

أى: ذلك الذى شرعناه لكم من تيسير أمر القصاص بأداء الدية إلى ولى القتل إذا رضى طائعاً مختاراً، أردنا منه التخفيف عليكم إذ فى الدية تخفيف على القاتل بإبقاء حياته وإنقاذها من القتل قصاصاً، وفيها كذلك نفع لولى القتل، إذ هذا المال الذى أخذه نظير عفوهِ يستطيع أن ينتفع به فى كثير من مطالب حياته.

وهذا نرى أن الإسلام قد جمع فى تشريعه الحكيم لعقوبة القتل بين العدل والرحمة. إذ جعل القصاص حقاً لأولياء المقتول إذا طالبوا به لا ينازعهم فى ذلك منازع وهذا عين الإنصاف والعدل.

وجعل الدية عوضاً عن القصاص إذا رضوا بها باختيارهم، وهذا عين الرحمة واليسر. وبالعدالة والرحمة تسعد الأمم وتطمئن في حياتها؛ إذ العدالة هي التي تكسر شره النفوس، وتغسل غل الصدور، وتردع الجاني عن التمادي في الاعتداء، لأنه يعلم علم اليقين أن من وراء الاعتداء قصاصاً عادلاً.

والرحمة هي التي تفتح الطريق أمام القلوب لكي تلتئم بعد التصدع وتتلاقى بعد التفرق، وتتوadd بعد التعادي، وتتسامى عن الانتقام إلى ما هو أعلى منه وهو العفو. فلهذا التشريع الحكيم الذي ما أحوج العالم إلى الأخذ به، والتمسك بتوجيهاته.

ثم ختم - سبحانه - الآية بالوعيد الشديد لمن يتعدى حدوده، ويتجاوز تشريعه الحكيم فقال: ﴿فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم﴾.

أى: فمن تجاوز حدوده بعد هذا التشريع الحكيم الذي شرعناه بأن قتل القاتل بعد قبول الدية منه، أو بأن قتل غير من يستحق القتل فله عذاب شديد الألم؛ من الله - تعالى - لأن الاعتداء بعد التراضي والقبول يدل على نكث العهد، ورقة الدين، وانحطاط الخلق.

ثم بين - سبحانه - الحكمة في مشروعية القصاص توطئاً للنفوس على الانقياد له، وتقوية لعزم الحكام على إقامته فقال - تعالى - : ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ أى: ولكم في مشروعية القصاص حياة عظيمة، فالتنوين للتعظيم.

قال صاحب الكشاف، وذلك أنهم كانوا يقتلون الجماعة بالواحد، وكم قتل مهلهل بأخيه كليب حتى كاد يفنى قبيلة بكر بن وائل. وكان يقتل بالمقتول غير قاتله فتثور الفتنة ويقع بينهم التناحر فلما جاء الإسلام بشرع القصاص كانت فيه حياة أى حياة، أو نوع من الحياة وهي الحياة الحاصلة بالارتداد عن القتل لوقوع العلم بالاقتصاص من القاتل، لأنه إذا هم بالقتل فعلم أنه يقتص منه ارتدع فسلم صاحبه من القتل وسلم هو من القود فكان القصاص سبب حياة نفسين^(١).

هذا وقد نقل عن العرب ما يدل على أنهم تحدثوا عن حكمة القصاص ومن أقوالهم في هذا الشأن: «قتل البعض إحياء للجميع، وأكثروا القتل ليقل القتل» وأجمعوا على أن أبلغ الأقوال التي عبروا بها عن هذا المعنى قولهم «القتل أنفى للقتل» وقد أجمع أولو العلم على أن قوله - تعالى - : ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ أبلغ من هذه العبارة التي نطق بها حكماء العرب، بمقدار ما بين كلام الخالق وكلام المخلوق، وذكروا أن الآية تفوق ما نطق به حكماء العرب من وجوه كثيرة من أهمها:

(١) تفسير الكشاف ج١ ص ٢٢٣.

١ - أن الآية جعلت سبب الحياة القصاص وهو القتل على وجه التساوى، أما العبارة العربية فقد جعلت سبب الحياة القتل، ومن القتل ما يكون ظلمًا، فيكون سببًا للفناء لا للحياة، وتصحيح هذه العبارة أن يقال: القتل قصاصًا أنفى للقتل ظلمًا.

٢ - أن الآية جاءت خالية من التكرار اللفظي، فعبرت عن القتل الذى هو سبب الحياة بالقصاص. والعبارة كرر فيها لفظ القتل فمسها بهذا التكرار من الثقل ما سلمت منه الآية.

٣ - أن الآية جعلت القصاص سببًا للحياة التى تتوجه إليها الرغبة مباشرة، والعبارة العربية جعلت القتل سببًا لنفى القتل الذى تترتب عليه الحياة.

٤ - الآية مبنية على الإثبات والمثل على النفى، والإثبات أشرف لأنه أول والنفى ثان له.

٥ - أن تنكير حياة فى الآية يفيد تعظيمًا، فبدل على أن فى القصاص حياة متطاوله كما فى قوله - تعالى - : ﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة﴾ ولا كذلك المثل. فإن اللام فيه للجنس، ولذا فسروا الحياة فيها بالبقاء.

٦ - تعريف ﴿القصاص﴾ بلام الجنس الدالة على حقيقة هذا الحكم المشتملة على الضرب والجرح والقتل - وغير ذلك، والمثل لا يشمل ذلك.

٧ - أن الآية مع أفضليتها عن المثل من حيث البلاغة والشمول واللفظ والمعنى أقل حروفًا من المثل.

هذه بعض وجوه أفضلية الآية على المثل، وهناك وجوه أخرى ذكرها العلماء فى كتبهم^(١).

وفى قوله: ﴿يا أولى الألباب﴾ تنبيه بحرف النداء على التأمل فى حكمة القصاص.

﴿والألباب﴾: جمع لب وهو العقل الخالص من شوائب الأهوام، أو العقل الذكى الذى يستبين الحقائق بسرعة وفتنة، ويستخرج لطائف المعانى من مكانها ببراعة وحسن تصرف.

وخص النداء بأولى الألباب مع أن الخطاب بحكمة القصاص شامل لهم ولغيرهم لأنهم الذين يتدبرون عواقب الأمور، ويعرفون قيمة الحياة ويقدرّون حكم التشريع قدرها.

وفى هذا النداء تنبيه على أن من ينكرون مصلحة القصاص وأثره النافع فى تثبيت دعائم الأمن، يعيشون بين الناس بعقول غير سليمة، ولا يزال الناس يشاهدون فى كل عصر ما يشبه القتل فى صدور أولياء القتل من أحقاد طاغية، لولا أن القصاص يخفف من سطوتها لتمادت بهم فى تقاطع وسفك دماء دون الوقوف عند حد.

(١) راجع تفسير الألوسى جـ ٢ ص ٥١.

وختمت الآية بهذه الجملة التعليلية ﴿لعلكم تتقون﴾ زيادة في إقناع نفوسهم بأمر القصاص، أى: شرعنا لكم هذه الأحكام الحكيمة لتتقوا القتل حذرًا من القصاص، ولتعيشوا آمنين مطمئنين، ومتوادين متحابين.

وهذا البيان الحكيم تكون الآيتان الكريمتان قد أرشدتا إلى ما يحمى النفوس، ويحقى الدماء، ويردع المعتدين عن الاعتداء، ويغرس بين الناس معاني التسامح والإخاء، ويقيم حياتهم على أساس من الرحمة والعدالة وحسن القضاء.

وبعد أن بين - سبحانه - ما يتعلق بالقصاص أتبعه بالحديث عن الوصية، ليرشد الناس إلى ما ينبغى أن تكون عليه، وليبطل ما كان من عوائد الجاهلية من وصايا جائرة فقال - تعالى - :

كُتِبَ عَلَيْكُمْ

إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ

وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ

بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾

فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ

عَلَيْهِ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

وقوله - تعالى - : ﴿كتب عليكم﴾ قد استفاض في عرف الشرع بمعنى وجب عليكم. و«حضور الموت» يقع عند معاينة الإنسان للموت. ولعجزه في هذا الوقت عن الإيضاء فسر بحضور أسبابه، وظهور أماراته، من نحو العلل المخوفة والهزم البالغ. وقد شاع عند العرب استعمال السبب كناية عن المسبب، ومن ذلك قول شاعرهم:

يأبها الراكب المزجى مطيته سائل بنى أسد ما هذه الصوت (١)
وقل لهم بادروا بالعدر والتمسوا قولاً ييرثكم إني أنا الموت

(١) الصوت مذكر، وقد أنثه الشاعر هنا لأنه أراد به الضوضاء والجلبة على معنى الصيحة - كما أفاده المعلق على القرطبي نقلًا عن لسان العرب.

والخير: المال، وقالوا إنه هنا مختص بالمال الكثير، لأن مقام الوصية يشعر بذلك، ولم يرد نص من الشارع في تقدير ما يسمى مالا كثيراً، وإنما وردت آثار من بعض الصحابة والتابعين في تقديره بحسب اجتهادهم، وبالنظر إلى ما يسمى بحسب العرف مالا كثيراً فقال بعضهم: من ألف درهم إلى خمسمائة درهم، وقال بعضهم: من ألف درهم إلى ثمانمائة درهم. والحق أن هذا التقدير يختلف باختلاف الأشخاص والأزمان والعرف.

ويرى بعض العلماء أن الوصية مشروعة في المال قليلة وكثيرة.

قال القرطبي: والوصية عبارة عن كل شيء يؤمر بفعله ويعهد به في الحياة وبعد الموت، وخصها العرف بما يعهد بفعله وتنفيذه بعد الموت والجمع وصايا كالقضايا جمع قضية. والوصي يكون الموصى والموصى إليه. وأصله من وصى مخففاً. وتوآصى النبات توآصياً إذا اتصل وأرض واصية: متصلة النبات. وأوصيت له بشيء. وأوصيت إليه إذا جعلته وصيك. والاسم الوصاية والوصاية - بالفتح وبالكسر - وتوآصى القوم: أوصى بعضهم بعضاً^(١).

والمعنى: كتب عليكم أيها المؤمنون أنه إذا ظهرت على أحدكم أمارات الموت: من مرض ثقيل، أو شيخوخة مضعفة، وكان عنده مال كثير قد جمعه عن طريق حلال، أن يوصي بجانب منه لوالديه وأقاربه رعاية لحقهم وحاجتهم، وأن تكون وصيته لهم بالعدل الذي لا مضارة فيه بين الأقارب، والوصية على هذا الوجه تعتبر حقاً واجباً على المتقين الذين اتخذوا التقوى والخشية من الله طريقاً لهم.

فالآية الكريمة استئناف لبيان الوصية بعد الحديث عن القصاص، وفصل القرآن الحديث عن الوصية عن سابقه للإشعار بأنه حكم مستقل جدير بالأهمية.

وقد جاء الحديث عن الوصية بتلك الطريقة الحكيمة، لتغيير ما كان من عادات بعض أهل الجاهلية، فإنهم كانوا كثيراً مانعون القريب من الإرث توهماً منهم أنه يتمنى موت قريبة ليرثه، وربما فضلوا بعض الأقارب على بعض فيؤدى ذلك إلى التباغض والتحاسد، وربما فضلوا - أيضاً - الوصية لغير الأقارب للفخر والتباهى، فشرع الإسلام لاتباعه ما يقوى الروابط ويمنع التحاسد والتعادي.

قال الجمل: وكتب فعل ماض مبني للمجهول، وحذف الفاعل للعلم به وهو الله - تعالى - وفي القائم مقام الفاعل ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون الوصية، أى: كتب عليكم الوصية، وجاز تذكير الفعل لكون القائم

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٥٩.

مقام الفاعل مؤنثاً مجازياً ولوجود الفصل بينه وبين مرفوعه.

والثاني: أنه الإيضاء المدلول عليه بقوله: «الوصية» للوالدين، أى: كتب هو، أى الإيضاء.

والثالث: أنه الجار والمجرور. وهذا يتجه على رأى الأخفش والكوفيين وعليه فيكون قوله: ﴿عليكم﴾ فى محل رفع، ويكون فى محل النصب على القولين الأولين وجواب كل من ﴿إذا﴾ و﴿إن﴾ محذوف. أى: كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً فليوص^(١). والباء فى قوله: ﴿بالمعروف﴾ للملابسة، والجار والمجرور فى موضع الحال من الوصية. والمراد بالمعروف هنا العدل الذى جاءت به الشريعة، بأن لا يتجاوز بالوصية الثلث، وأن لا يوصى للاغنياء ويترك الفقراء أو يوصى للقريب ويترك الأقرب مع أنه أشد فقراً ومسكناً. وقوله: ﴿حقاً﴾ مصدر مؤكد للحدث الذى دل عليه ﴿كتب﴾ وعامله إما ﴿كتب﴾ أو فعل محذوف تقديره حق أى: حق ذلك حقاً.

وقوله: ﴿على المتقين﴾ صفة له. أى حقاً كائناً على المتقين.

وخص هذا الحق بالمتقين ترغيباً فى الرضا به، لأن ما كان من شأن المتقى فهو أمر نفيس جدير أن يتأسى به الناس، ومن أهمله فقد حرم من الدخول فى زميرهم، وخسر بذلك خسارة عظيمة.

قال بعض العلماء: وقد وردت هذه الآية فى الوصية للوالدين والأقربين، والمعروف عند الأمة مند عهد السلف أن الوصية لا تصح لوارث، والوالدان لهما نصيب مفروض فى الموارث ومقتضاه عدم صحة الوصية لهما؟

ويزيح هذا الاشكال من طريق التفسير أن فريقاً من أهل العلم وهم جمهور المفسرين ذهبوا إلى أن الآية قد نسخ منها حكم الوصية للوارث. وإيضاح وجه النسخ أن آية الموارث نزلت بعد آية الوصية فقامت مقامها فى الوصية للوارث ودل على هذا المعنى صراحة الحديث الشريف وهو قوله ﷺ: «إن الله أعطى كل ذى حق حقه، ألا لا وصية لوارث».

وهذا الحديث وإن لم يبلغ مبلغ الحديث المتواتر الذى يصح نسخه للقرآن بنفسه، فقد امتاز عن بقية أخبار الأحاد بأن الأمة تلقته بالقبول، وأخذوا فى العمل به من غير مخالف، فأخذ بهذا قوة الحديث المتواتر فى الرواية واعتمدوا عليه فى بيان أن آية الموارث قامت بتقدير الأنصاء فى الميراث مقام آية ﴿إذا حضر أحدكم الموت﴾ فى الوصية للوارث. وروى البخارى فى صحيحه

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ١٤٤.

عن ابن عباس - رضى الله عنه - قال : كان المال للولد وكانت الوصية للوالدين ، فنسخ الله من ذلك ما أحب ، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس ، وجعل للمرأة الثمن والربع ، وللزوج الشطر والربع .

ومن أهل العلم من لم يستطيعوا أن يهملوا حديث « لا وصية لوارث » لاستفاضته بين الأمة وتلقيهم له بالقبول ، فقرروا العمل به وأبطلوا الوصية لوارث ولكنهم ذهبوا مع هذا إلى أن آية الوصية للوالدين محكمة غير منسوخة وتأولوها على وجوه منها أن المراد من قوله : ﴿ للوالدين ﴾ الوالدان اللذان لا يرثان لما نعت من الإرث كالكفر والاسترقاق ، وقد كانوا حديثى عهد بالإسلام يسلم الرجل ولا يسلم أبواه وقد أوصى الله بالإحسان إليهما^(١) .

ثم تواعد - سبحانه - من يبدل الوصية بطريقة لم يأذن بها الله فقال - تعالى - : ﴿ فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه ﴾ .

بدله : غيره . وتغيير الوصية يتأتى بالزيادة فى الموصى به أو النقص منه أو كتمانها ، أو غير ذلك من وجوه التغيير للموصى به بعد وفاة الموصى .

سمعه : أى علمه وتحققه ، وكفى بالسمع عن العلم لأنه طريق حصوله . والضمائر البارزة فى « بدله وسمعه وإثمه ويبدلونه » عائدة على القول أو على الكلام الذى يقوله الموصى والذى دل عليه لفظ الوصية أو على الإيصاء المفهوم من الوصية ، وهو الإيصاء أو القول الواقع على الوجه الذى شرعه الله .

والمعنى : فمن غير الإيصاء الذى أوصى به المتوفى عن وجهه ، بعدما علمه وتحققه منه ، فإنما إثم ذلك التغيير فى الإيصاء يقع على عاتق هذا المبدل ، لأنه بهذا التبديل قد خان الأمانة ، وخالف شريعة الله ، ولن يلحق الموصى شيئاً من الإثم لأنه قد أدى ما عليه بفعله للوصية كما يريدنا الله - تعالى - .

وقد ختمت الآية بقوله - تعالى - : ﴿ إن الله سميع عليم ﴾ للإشعار بالوعيد الشديد الذى توعد الله به كل من غير وبدل هذا الحق عن وجهه ، لأن الله - تعالى - لا يخفى عليه شئ من حيل الناس الباطلة ، فهو - سبحانه سميع لوصية الموصى ، عليم بما يقع فيها من تبديل وتحريف .

ثم استثنى - سبحانه - حالة يجوز فيها التغيير فقال ، « فمن خاف من موص جنفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه » .

(١) تفسير القرآن الكريم لفضية استاذنا المرحوم الشيخ محمد الحضر حسين . مجلة لواء الإسلام السنة الرابعة : العدد العاشر .

خاف: من الخوف، وهو في الأصل حالة تعترى النفس عند الانقباض من شر يتوقع حصوله على سبيل الظن أو على سبيل العلم.

والجنف: الميل والجور. يقال: جنف في وصيته وأجنف، مال وجار، فهو جنف وأجنف. وقيل: أجنف مختص بالوصية وجنف في مطلق الميل عن الحق. ويقال: جنف وجنف عن طريقه جنفاً وجنوفاً.

والإثم: العمل الذي يبغضه الله. يقال: أثم فهو آثم وأثيم.

قال بعضهم: والمراد بالجنف هنا: الميل عن الحق في الوصية خطأ، بقرينة مقابلته بالإثم وهو الميل عن الحق فيها عمداً.

هذا، ويرى جمهور العلماء أن هذه الآية الكريمة واردة في الوصي يرى أن الموصي قد حاد في وصيته عن حدود العدل، فللوصي حينئذ أن يصلح فيها بحيث يجعلها متفقة مع ما شرعه الله، وهو في هذه الحالة لا إثم عليه لأنه قد غير الباطل بالحق وعلى هذا الرأي يكون المعنى: أن الوصي إذا رأى في الوصية ميلاً عن الحق خطأ أو عمداً وأصلح بين الموصي لهم يردهم إلى الوجه المشروع فلا إثم عليه في التغيير في الوصية. والضمير في قوله: ﴿بينهم﴾ عائد على الموصي لهم.

ويرى آخرون أن هذه الآية واردة في شأن كل من يبغى الإصلاح من الناس، بأن يرى الموصي يوصي، فظهر له - أي هذا المصلح - أن الموصي قد جانب العدل والصواب في وصيته، فيأخذ في الإصلاح، بأن يرشده بأن فعله هذا لا يتفق مع شريعة العدل التي أمر بها الله، ويحاول قدر استطاعته أن يزيل ما حدث من خلاف بين الموصي والموصي لهم.

وعلى هذا الرأي يكون المعنى: إن خرج الموصي في وصيته عن حدود العدالة، ورأى أمارات ذلك منه من يريد الإصلاح من الناس، وتوقع أن شراً سياترتب على هذه الوصية التي فيها جور، أو شاهد نزاعاً بين الموصي لهم بسبب ذلك، فلا إثم على هذا المصلح في أن يصلح بين الموصي والموصي لهم، وأن يرشد الموصي إلى سلوك طريق العدل والحق. وعليه فيكون الضمير في قوله: ﴿بينهم﴾ يعود على الموصي والموصي لهم.

ويبدو لنا أن الرأي الأول أقرب إلى الصواب، لأن سياق الآية يؤيده، إذ هي بمنزلة الاستثناء من قوله - تعالى -: ﴿فمن بدله بعد ما سمعه﴾. وهذا إنمّا يكون بعد موت الموصي لا في حياته.

وقوله: ﴿إن الله غفور رحيم﴾ تذييل أتى به - سبحانه - للوعد بالثواب للمصلح على إصلاحه، فإن من يغفر الذنوب ويرحم المذنبين تكون مغفرته ورحمته أقرب إلى من يقصد بعمله الإصلاح ولو اعتمد على ظن غالب أو أخطأ وجه الصواب فيما أتى من أعمال.

وبهذا تكون الآيات الكريمة قد بينت للناس حكماً آخر من أحكامها السامية، يتعلق بالوصية في الأموال، وفي هذا الحكم دعوة إلى التواضع والتكافل، وغرس لأواصر المودة والمحبة بين الأبناء والآباء وبين الأقارب بعضهم مع بعض.

وبعد أن تحدثت السورة الكريمة عن القصاص وعن الوصية أتبعتهما بالحديث عن عبادة عظيمة من العبادات التي جعلها الله - تعالى - ركناً من أركان الإسلام وهي صوم رمضان، فقال - سبحانه - :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ
 عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ
 لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمُ وَعَلَىٰكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

الصيام مصدر صام كالقيام مصدر قام، وهو في اللغة : الإمساك وترك التنقل من حال إلى حال، فيقال للصائم صوم لأنه إمساك عن الكلام ومنه قوله - تعالى - مخبراً عن مريم : ﴿إني

نذرت للرحمن صومًا ﴿ أى : سكوتًا عن الكلام . وصوم الريح ركودها وإساکها عن الهبوب .
وتقول العرب : صام النهار وصامت الشمس عند قيام الظهيرة لأنها كالمسكة عن الحركة .
أما الصيام فى عرف الشرع فهو - كما يقول الألوسى - إمساك عن أشياء مخصوصة على وجه
مخصوص فى زمان مخصوص بمن هو على صفات مخصوصة .

وقد فرض الله - تعالى - على المسلمين صيام شهر رمضان فى شهر شعبان من السنة الثانية
للهجرة، وعده النبى ﷺ أحد أركان الإسلام الخمسة، فقد روى البخارى - بسنده - عن ابن
عمر - رضى الله عنهما - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : بنى الإسلام على خمس : شهادة
أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم
رمضان .

وأل فى الصيام للعهد الذهبى، فقد كان العرب يعرفون الصوم، فقد جاء فى الصحيحين
عن عائشة قالت : كان يوم عاشوراء يومًا تصومه قريش والجاهلية .

والتشبيه فى قوله - تعالى - : ﴿ كما كتب على الذين من قبلكم ﴾ راجع إلى أصل إيجاب
الصوم وفريضته . أى : أن عبادة الصوم كانت مكتوبة ومفروضة على الأمم السابقة، ولكن
بكيفية لا يعلمها إلا الله، إذ لم يرد نص صحيح عن رسول الله ﷺ يبين لنا فيه كيف كان صيام
الأمم السابقة على الأمة الإسلامية .

وقيل إن التشبيه راجع إلى وقت الصوم وقدره، فقد روى عن مجاهد أنه قال : كتب الله -
عز وجل - صوم شهر رمضان على كل أمة .

وهذا القول ليس له دليل، ولذا قال القاضى أبو بكر بن العربى : المقطوع به أن التشبيه فى
الفرضية خاصة، وسائر الوجوه مجرد احتمال .

ولفظ « كما » فى قوله - تعالى - : ﴿ كما كتب على الذين من قبلكم ﴾ فى موضع نصب على
المصدر، أى : فرض عليكم الصيام فرضًا كالذى فرض على الذين من قبلكم .

ومن فوائد هذا التشبيه، الاهتمام بهذه العبادة والتنويه بشأنها إذ شرعها - سبحانه - لأتباع
النبى ﷺ ولأتباع الرسل الذين سبقوه فى الدعوة إلى توحيد الله، وهذا مما يقتضى وفرة ثوابها،
ودوام صلاحها .

كذلك من فوائد تسهيل هذه العبادة على المسلمين؛ لأن الشىء الشاق تخف مشقته على
الإنسان عند ما يعلم أن غيره قد أداه من قبله .

والفائدة الثالثة من هذا التشبيه إثارة العزائم والهمم للنهوض بهذه العبادة، حتى لا يكونوا

مقصرين في أدائها، بل يجب عليهم أن يؤدوها بقوة تفوق من سبقهم لأن الأمة الإسلامية قد وصفها سبحانه بأنها خير أمة أخرجت للناس وهذه الخيرية تقتضى منهم النشاط فيما كلفهم الله بأدائه من عبادات.

وقوله: ﴿لعلكم تتقون﴾ جملة تعليلية جيء بها لبيان حكمة مشروعية الصيام فكأنه - سبحانه - يقول لعباده المؤمنين: فرضنا عليكم الصيام كما فرضناه على الذين من قبلكم، لعلكم بأدائكم لهذه الفريضة تنالون درجة التقوى والخشية من الله، وبذلك تكونون ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه. ولا شك أن هذه الفريضة ترتفع بصاحبها إلى أعلى عليين متى أداها بأدائها وشروطها، ويكفى أن الرسول ﷺ قد قال في شأن الصوم: «الصوم جنة»^(١) أى: وقاية. إذ في الصوم وقاية من الوقوع في المعاصي، ووقاية من عذاب الآخرة، ووقاية من العلل والأمراض الناشئة عن الإفراط في تناول بعض الأطعمة والأشربة.

وقوله: ﴿أياماً معدودات﴾ أى: معينات بالعد أو قليات، لأن القليل يسهل عده فيعد والكثير يؤخذ جزافاً.

والمراد بهذه الأيام المعدودات شهر رمضان عند جمهور العلماء.

قالوا: وتقريره أنه - تعالى - قال أولاً ﴿كتب عليكم الصيام﴾ وهذا محتمل ليوم ويومين ثم بينه بقوله ﴿أياماً معدودات﴾ فزال بعض الاحتمال ثم بينه بقوله: ﴿شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن﴾ فعلى هذا الترتيب يمكن جعل الأيام المعدودات بعينها شهر رمضان، وإذا أمكن ذلك فلا وجه لحملة على غيره^(٢).

وإنما عبر عن رمضان بأيام وهى جمع قلة ووصف بمعدودات وهى جمع قلة - أيضاً - تهوينا لأضره على المكلفين، وإشعاراً لهم بأن الله - تعالى - ما فرض عليهم إلا ما هو فى وسعهم وقدرتهم.

وقيل: إن المراد بالأيام المعدودات غير رمضان، وذكروا أن المراد بها ثلاثة أيام من كل شهر وهى الأيام البيض الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر مضافاً إليها يوم عاشوراء. ثم نسخ ذلك بوجوب صوم شهر رمضان.

والمعتمد بين المحققين من العلماء هو القول الأول، لأنه - كما قال الإمام الرازى - لا وجه لحملة على غيره، والقول بالنسخ زيادة لا دليل عليها.

(١) قطعة من حديث رواه البخارى فى كتاب الصوم ج ٣ ص ٣١.

(٢) تفسير الرازى ج ٥ ص ٧٨.

وقوله : ﴿أَيَّامًا﴾ منصوب على الظرفية، أو بفعل مضمر مقدر أى : صوموا أيَّامًا. وقوله : ﴿فمن كان منكم مريضًا أو على سفر فعدة من أيامٍ آخر﴾ زيادة بيان ليسر شريعة الإسلام بعد أن أخبرهم - سبحانه - بأن الصوم المفروض عليهم إنما هو أيام معدودات، وتعجيل بتطمين نفوس السامعين لثلا يظنوا وجوب الصوم عليهم في كل حال.

والمرض : الخروج عن الاعتدال الخاص بالإنسان، بأن يصاب بانحراف في جسده يجعله في حالة وجع أو اضطراب بدني.

قال القرطبي : وللمريض حالتان :

إحدهما : ألا يطيق الصوم بحال فعليه الفطر واجبًا.

الثانية : أن يقدر على الصوم بضرر ومشقة فهذا يستحب له الفطر . . فالفطر مباح في كل مرض إلا المرض اليسير الذي لا كلفة معه في الصيام^(١).

وقوله : ﴿أو على سفر﴾ قال الألوسي معناه : أو راكب سفر مستعل عليه متمكن منه، بأن اشتغل به قبل الفجر، ففيه إيماء إلى أن من سافر في أثناء اليوم لم يفطر. واستدل بإطلاق السفر على أن السفر القصير وسفر المعصية مرخص للإفطار. وأكثر العلماء على تقييده بالمباح وبما يلزمه العسر غالبًا وهو السفر إلى المسافة المقدرة في الشرع^(٢).

والعدة فعلة من العد، وهى بمعنى المعدود، كالطحن بمعنى المطحون ومنه عدة المرأة. والمعنى : لقد فرضنا عليكم الصوم أيها المؤمنون، وجعلناه كما هو الشأن في كل ما شرعناه متمسًا باليسر لا بالعسر، ومن مظاهر ذلك أننا فرضنا عليكم صوم أيام معدودات وهى أيام شهر رمضان، ولم نفرض عليكم صوم الدهر. وأننا شرعنا لمن كان مريضًا مرضًا يضره الصوم أو يعسر معه، أو كان على سفر يشق عليه معه الصوم، شرعنا له أن يفطر وأن يصوم بدل الأيام التى أفطرها أيَّامًا آخر مساوية لها فى العدد.

قال الإمام الرازى : قال القفال : أنظروا إلى عجيب ما نبه الله عليه من سعة فضله ورحمته فى هذا التكليف، إذ أنه بين فى أول الآية أن لهذه الأمة فى هذا التكليف أسوة بالأمم المتقدمة، والغرض منه ما ذكرناه من أن الأمور الشاقة إذا عمت خفت. ثم ثانيا بين وجه الحكمة فى إيجاب الصوم وهو أنه سبب لحصول التقوى فلو لم يفرض الصوم لفات هذا المقصود الشريف، ثم بين ثالثا أنه مختص بأيام معدودة فإنه لو جعله أبدًا أو أكثر الأوقات لحصلت المشقة العظيمة. ثم بين

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٧٦ بتصرف وتلخيص.

(٢) تفسير الألوسى ج ٢ ص ٥٨.

رابعا : أنه خصه من الأوقات بالشهر الذى أنزل فيه القرآن لكونه أشرف الشهور بسبب هذه الفضيلة . ثم بين خامسا : إزالة المشقة في إلزامه فأباح تأخيره لمن شق عليه من المسافرين والمرضى إلى أن يصيروا إلى الرفاهية والسكون . فهو - سبحانه - راعى في إيجاب الصوم هذه الوجوه من الرحمة فله الحمد على نعمه كثيرا^(١) .

هذا، وقد نص الفقهاء على أن الافطار مشروع على سبيل الرخصة للمريض والمسافر، وهما بالخيار في ذلك إن شاء أفطرا وإن شاء صام، إلا أن أكثر الفقهاء قالوا : الصوم أفضل لمن قوى عليه .

والذى نراه أن الله - تعالى - قد أباح الفطر في رمضان بسبب المرض أو السفر، لأن كلا منهما مظنة المشقة والحرج . والحكم الشرعى يوجد حيث توجد مظنة وينتفى حيث تنتفى . وعلى المسلم أن يقدر حال نفسه، فإذا أيقن أو غلب على ظنه أن مرضه أو سفره ليس في الصوم معه مشقة أو عسر صام عملا بقوله - تعالى - : ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ . وإذا أيقن أو غلب على ظنه أن مرضه أو سفره يجعل الصوم شاقا عليه أفطر عملا بقوله - تعالى - : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ فالمسألة ترجع إلى ضمير الفرد ودينه واستفتاء قلبه .

والثابت عن رسول الله ﷺ أنه صام في السفر وأفطر، وخير بعض أصحابه بين الصوم والفطر . فقد روى البخارى ومسلم عن أبي الدرداء - رضى الله عنه - قال : خرجنا مع النبى ﷺ «وفي إحدى روايتى مسلم - في شهر رمضان -، في يوم حار، حتى ليضع الرجل يده على رأسه من شدة الحر وما فينا صائم إلا ما كان من النبى ﷺ وابن رواحه» .

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن قزعة قال : أتيت أبا سعيد الخدرى فسألته عن الصوم في السفر فقال : سافرنا مع رسول الله ﷺ إلى مكة ونحن صيام، قال : فنزلنا منزلا فقال رسول الله ﷺ إنكم قد دنوتم من عدوكم والفطر أقوى لكم، فكانت رخصة . فمننا من صام ومنا من أفطر . ثم نزلنا منزلا آخر فقال : إنكم مصبحو عدوكم والفطر أقوى لكم فأفطروا . وكانت عزمة فأفطرتنا . ثم قال : ولقد رأيتنا نصوم مع رسول الله ﷺ بعد ذلك في السفر .

وروى الشيخان عن أنس بن مالك قال : كنا نساغر مع النبى ﷺ فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم .

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة .

وهناك مسألة أخرى تعرض لها الفقهاء بالحديث وهى مسألة قضاء الأيام التى أفطرها

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٥ ص ٨٠ .

المريض أو المسافر هل يقضيها متتابعة أو متفرقة وهل يقضيها على الفور أو على التراخي؟ وجمهور الفقهاء على أن للمفطر في رمضان بسبب المرض أو السفر أن يقضى ما أفطره متتابعاً أو متفرقاً؛ لأن قوله - تعالى - : ﴿فعدة من أيام أخر﴾. دل على وجوب القضاء من غير تعيين لزمان، لأن اللفظ - كما قال القرطبي - مسترسل على الأزمان لا يختص ببعضها دون بعض. وله كذلك أن يقضى ما عليه على الفور أو على التراخي على حسب ما يتيسر له. ففى الصحيحين عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : يكون على الصوم من رمضان فما أستطيع أن أقضيه إلا في شعبان، وذلك لمكان رسول الله ﷺ وهذا نص وزيادة بيان للآية».

ويرى داود الظاهري أن على المفطر في رمضان بسبب المرض أو السفر أن يشرع في قضاء ما أفطره في اليوم الثاني من شوال المعاقب له، وأن يتابع أيام القضاء. والمعتمد بين العلماء هو قول الجمهور لقوة أدلته التي سبق بيانها.

وقوله - تعالى - : ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ بيان لحكم آخر من أحكام الشريعة فيما يتعلق بصوم رمضان يتجلى فيه تيسير الله على عباده فيما شرع لهم من عبادات.

ومعنى ﴿يطيقونه﴾ يقدرون عليه ويتحملونه بمشقة وتعب، لأن الطاقة اسم للقدرة على الشيء مع الشدة والمشقة، والوسع اسم للقدرة على الشيء على جهة السهولة. قال الراغب : والطاقة اسم لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقة، وذلك تشبيه بالطوق المحيط بالشيء، ومنه ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾ أى ما يصعب علينا مزاولته، وليس معناه : «لا تحملنا ما لا قدرة لنا به»^(١).

والعرب لا تقول فلان أطاق الشيء إلا إذا كانت قدرته عليه في نهاية الضعف بحيث يتحمله بمشقة وعسر. فلا يقال - مثلاً - فلان يطيق حمل نواة أو ريشة أو عشرة دراهم من حديد، وإنما يقال : هو يطيق حمل قنطارين من الحديد أو حمل الأمتعة الثقيلة. وللعلماء أقوال في المراد بقوله - تعالى - : ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ أشهرها :

١ - إن هذا راجع إلى المقيم الصحيح خيره الله - تعالى - بين الصوم وبين الفداء، وكان ذلك في بدء الإسلام فرض عليهم الصوم ولم يتعودوه فاشتد عليهم، فرخص لهم في الإقطار والفدية، ثم نسخ ذلك وأوجب الله عليهم الصوم.

ويشهد لهذا القول ما جاء في الصحيحين عن سلمة بن الأكوع قال : لما نزلت هذه الآية

(١) مفردات القرآن ص ٣١٢ للراغب الأصفهاني.

«وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين» كان من أراد أن يفطر ويفتدى، حتى نزلت الآية بعدها ففسختها.

وفي رواية للإمام مسلم من طريق آخر عن سلمة - أيضًا - قال : كنا في رمضان على عهد رسول الله ﷺ من شاء أفطر فافتدى بطعام مسكين حتى أنزلت هذه الآية ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾.

٢ - ويرى بعض العلماء أن قوله - تعالى - : ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾ إلخ، ليس بمنسوخ بل هو محكم، وأنه نزل في شأن الشيخ الكبير الهرم، والمرأة العجوز، إذا كانا لا يستطيعان الصيام فعليهما أن يفطرا وأن يطعما عن كل يوم مسكيناً.

وأصحاب هذا الرأي يستدلون بما رواه البخارى عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية : ليست بمنسوخة هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فعليهما أن يطعما مكان كل يوم مسكيناً.

٣ - وهناك رأى ثالث لبعض العلماء يرى أصحابه أن قوله - تعالى - ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ ليس بمنسوخ - أيضًا - بل هو محكم، وأن معنى الآية عندهم : وعلى الذين يطيقونه، أى : يقدرّون على الصيام بمشقة شديدة إذا أرادوا أن يفطروا أن يطعموا عن كل يوم يفطرونه مسكيناً. (بأن يقدموا له نصف صاع من بر أو صاعاً من تمر أو شعير، أو قيمة ذلك).

ولم يقصروا ذلك على الرجل الكبير والمرأة العجوز - كما فعل أصحاب الرأى الثانى - وإنما أدخلوا في حكم الذين يقدرّون على الصوم بمشقة وتعب المرضع والحامل إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما ومن في حكمها ممن يشق عليهم الصوم مشقة كبيرة.

وأصحاب هذا الرأى يستدلون على ما ذهبوا إليه بمنطوق الآية، إذا أن الوسع اسم للقدرة على الشيء على جهة السهولة، والطاقة اسم للقدرة عليه مع الشدة والمشقة - كما سبق أن بينا -، كما يستدلون - أيضًا - على ما ذهبوا إليه بقراءة ﴿يطيقونه﴾ - بضم الياء الأولى وتشديد الياء الثانية - أى يتجشمون، ويتكلفونه بمشقة وتعب، وقد انتصر بعض العلماء لهذا الرأى بناء على أن منطوق الآية يؤيده.

كما انتصر بعضهم للرأى الأول بناء على أن الاحاديث الصحيحة تسانده وعلى أنه هو الأقرب إلى روح الشريعة الإسلامية في التدرج في تشريع التكليف التي فيها مشقة على الناس، كما انتصر بعضهم للرأى الثانى الذى روى عن ابن عباس.

وهناك أقوال أخرى في الآية رأينا أن نضرب عنها صفحاً لضعفها.

وقوله: ﴿فمن تطوع خيراً فهو خير له﴾ حض من الله - تعالى - لعباده على الإكثار من عمل الخير.

والتطوع: السعى في أن يكون الإنسان فاعلاً للطاعة باختياره بدون إكراه والخير: مصدر خار إذا حسن وشرف، وهو منصوب لتضمين تطوع معنى أتى، أو على أنه صفة لمصدر محذوف أى تطوعاً خيراً.

والمعنى: فمن تطوع خيراً بأن زاد على القدر المفروض في الفدية، أو أطعم أكثر من مسكين، أو جمع بين الإطعام والصوم، فتطوعه سيكون خيراً عند الله - سبحانه - لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

وقوله: ﴿وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ ترغيب في الصوم وتحبيب فيه. أى: وأن تصوموا أيها المطيقون للصوم، أو أيها المكلفون جميعاً خير لكم من كل شيء سواه، إن كنتم تعلمون فوائد الصوم في حياتكم، وحسن جزائه في آخرتكم.

روى النسائي وابن خزيمة عن أبي أمامه رضى الله عنه قال: قلت يا رسول الله مرني بعمل قال: عليك بالصوم فإنه لا عدل له - أى لا يعادل ثوابه بشيء - فقلت يا رسول الله مرني بعمل، فقال: عليك بالصوم فإنه لا عدل له. فقلت: يا رسول الله مرني بعمل أدخل به الجنة. فقال: عليك بالصوم فإنه لا مثل له^(١).

وقوله: ﴿شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾ كلام مستأنف لبيان تلك الأيام المعدودات التى كتب علينا الصوم فيها وأنها أيام شهر رمضان الذى يستحق كل مدح وثناء لتشرفه بنزول الكتب السماوية فيه.

قال الإمام ابن كثير: يمدح - تعالى - شهر الصيام من بين سائر الشهور بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم، فقد ورد في الحديث بأنه الشهر الذى كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء فعن وائلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال: أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان^(٢).

و﴿الشهر﴾ مأخوذ من الشهرة، يقال: شهر الشيء يشهر شهرةً وشهراً إذا ظهر بحيث لا يتعذر علمه على أحد، ومنه يقال: شهرت السيف إذا سلته قال بعضهم: وسمى الهلال

(١) الترغيب والترهيب للمنذرى ج ٢ ص ٨٥ من «كتاب الصوم».

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢١٦.

شهرًا لشهرته وبيانه، وبه سمي الشهر شهرًا .

و﴿رمضان﴾ اسم لهذا الشهر الذي فرض علينا صيامه، وهو مأخوذ - كما قال القرطبي - من رمض الصائم يرمض إذا حر جوفه من شدة العطش والرمضاء : شدة الحر، ومنه الحديث : صلاة الأوابين إذا رمضت الفصال - أي صلاة الضحى - قيل : إن العرب لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التي وقعت فيها، فوافق هذا الشهر أيام رمض الحر فسمى بذلك. وقيل إنما سمي رمضان لأنه يرمض الذنوب، أي : يحرقها بالأعمال الصالحة^(١).

وقوله : ﴿شهر رمضان﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي شهر رمضان أي : الأيام المعدودات، وقوله : ﴿الذي أنزل فيه القرآن﴾ صفة للشهر.

ويجوز أن يكون قوله ﴿شهر﴾ مبتدأ وخبره الموصول بعده، أو خبره قوله ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ وصح وجود الفاء في الخبر لكون المبتدأ موصوفًا بالموصول الذي هو شبه بالشرط. وقرئ بالنصب على أنه مفعول لفعل محذوف. أي : صوموا شهر رمضان. و«القرآن» هو كلام الله المعجز المنزل على محمد ﷺ المكتوب في المصاحف المنقول بالتواتر المتعبد بتلاوته.

والمراد بإنزال القرآن في شهر رمضان إبتداء إنزاله فيه، وكان ذلك في ليلة القدر. بدليل قوله - تعالى - ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ أي بدأنا إنزال القرآن في هذه الليلة المباركة، إذ من المعروف أن القرآن استمر نزوله على النبي ﷺ ما يقرب من ثلاث وعشرين سنة. وقيل المراد بذلك، أنزل في فضله القرآن، قالوا : ومثله أن يقال : أنزل الله في أبي بكر الصديق كذا آية، يريدون أنزل في فضله.

وقيل المراد أنزل في إيجاب صومه على الخلق القرآن، كما يقال : أنزل الله في الزكاة كذا وكذا، يريد في إيجابها وأنزل في الخمر كذا يريد في تحريمها.

قال الألوسي : وقوله - تعالى - : ﴿هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾ حالان لآزمان من القرآن والعامل فيهما أنزل. أي : أنزل وهو هداية للناس بإعجازه المختص به كما يشعر بذلك التنكير، وآيات واضحات من جملة الكتب الإلهية الهادية إلى الحق والفارقة بين الحق والباطل باشماله على المعارف الإلهية والأحكام العملية، كما يشعر بذلك جعله بينات منها، فهو هاد بواسطة أمرين، مختص وغير مختص، فالهدى ليس مكرراً، وقيل : مكرر تنويهاً

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٩١ بتصرف وتلخيص.

وتعظيمًا لأمره وتأكيدًا لمعنى الهداية كما تقول: عالم نحري»^(١).

وقوله: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ يصح أن يكون شهد بمعنى حضر. كما يقال: فلان شهد بدرًا، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ أى: حضرها، فيكون المعنى: فمن حضر منكم دخول الشهر أو حلوله بأن كان مقيمًا وليس عنده ما يمنعه من الصوم كمرض ونحوه، فليصمه؛ لأن صيامه ركن من أركان الدين، وعليه يكون لفظ «الشهر» منصوب على الظرفية.

ويصح أن يكون شهد بمعنى علم كقوله - تعالى - : ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾. فيكون المعنى: فمن علم منكم هلال الشهر وتيقن من ظهوره فليصمه.

وعليه يكون لفظ «الشهر» منصوب على أنه مفعول به بتقدير المضاف المحذوف و﴿من﴾ موصولة أو شرطية وهو الأظهر و﴿منكم﴾ في محل نصب على الحال من الضمير في شهد فيتعلق بمحذوف أى: كائناً منكم. والضمير في «منكم» يعود على الذين آمنوا، أى كل من حضر منكم الشهر فليصمه و(أل) في الشهر للعهد.

وأعيد ذكر الرخصة في قوله - تعالى - ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر، لثلاث يتوهم من تعظيم أمر الصوم في نفسه وأنه خير، أنه قد صار متحتمًا بحيث لا تتناوله الرخصة بوجه من الوجوه أو تتناوله ولكنها مفضولة، وفي ذلك عناية بأمر الرخصة وأنها محبوبة له - تعالى -

وقوله - تعالى - : ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ بيان لحكمة الرخصة. أى: شرع لكم - سبحانه - الفطر في حالتى المرض والسفر، لأنه يريد بكم اليسر والسهولة. ولا يريد بكم العسر والمشقة. قال - تعالى - : ﴿يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً﴾ وقال - تعالى - : ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري حين بعثهما إلى اليمن: يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا.

وقوله - تعالى - : ﴿ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون﴾ معطوف على قوله: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ إذ هذه الجملة الأربع تعليل لما قبلها من قوله: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ إلى قوله: ﴿عدة من أيام أخر﴾. والمعنى: شرع لكم - سبحانه - ما شرع من أحكام الصيام، ورخص لكم الفطر في حالتى

(١) تفسير الألبوسى ج ٢ ص ٦١.

المرض والسفر، لأنه يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر، ولأنه يريد منكم أن تكملوا عدة الشهر بأن تصوموا أيامه كاملة فتحصلوا خيراته ولا يفوتكم شيء من بركاته، ومن لم يستطع منكم أداء الصوم في هذا الشهر لعذر فعليه قضاء ما فاتته منه في أيام آخر ويريد منكم أن تكبروه - سبحانه - أى تحمدوه وتعظموه، فهو وحده الذى هداكم إلى تلك الأحكام النافعة التى فيها صلاحكم وسعادتكم ويريد منكم أن تشكروه بأن تواظبوا على الثناء عليه، وعلى استعمال نعمه فيما خلقت له فهو - سبحانه - الرؤوف الرحيم بعباده، إذ شرع لهم ما فيه اليسر لا ما فيه العسر.

وقد دلت الآية الكريمة على الأمر بالتكبير إذ جعلته مما يريده الله - تعالى - ولهذا جاءت السنة باستحباب التحميد والتسبيح والتكبير بعد الصلوات المكتوبات، وفي عيى الفطر والأضحى يكون تكبير الله - تعالى - هو مظهرهما الأعظم. وبذلك تكون الآيات الكريمة قد بينت أكمل بيان وأحكمه فضل الصوم، وحكمة مشروعيته ومظاهر رحمة الله بعباده في هذه الفريضة، وقد ذكرت أن المسلم له بشأن هذه الفريضة حالة من حالات ثلاث :

الحالة الأولى : إذا كان المسلم في شهر رمضان كله أو بعضه مريضاً بمرض عارض غير مزمن يرجى الشفاء منه، أو مسافراً تتوفر فيه شروط الفطر، فله أن يفطر وأن يقضى بعد رمضان الأيام التى أفطرها بدليل قوله - تعالى - : ﴿فمن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾ .

الحالة الثانية : إذا كان المسلم في شهر رمضان مريضاً بمرض مزمن لا يرجى شفاؤه والصوم فيه مشقة عليه، أو كان شيخاً كبيراً أو امرأة عجوزاً ولا يستطيعان الصوم، فقد أباح الشارع لهؤلاء أن يفطروا وأن يطعموا عن كل يوم مسكيناً، لأن هذه الاعذار لا يرجى زوالها، ولا ينتظر أن يكون المبتلى بعذر منها بعد رمضان خيراً منه في رمضان، لذا أوجب الشارع على هؤلاء الفدية دون القضاء، بدليل قوله - تعالى - : ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ .

الحالة الثالثة : إذا كان المسلم في شهر رمضان سليماً مقياً وليس عنده عذر يمنعه من الصوم، فقد أوجب الله عليه أداء هذه الفريضة بقوله - تعالى - : ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ ويحرم عليه أن يفطر، وإن أفطر لغير عذر شرعى كان من الخاسرين في الدنيا والآخرة، ففى الحديث الشريف الذى رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « من أفطر يوماً من رمضان من غير رخصة ولا مرض لم يقضه - أى لم يجزه - صوم الدهر كله وإن صامه »^(١).

(١) الترغيب والترهيب للمندرى ج ٢ ص ١٠٨ .

أى : لو حصل منه صوم طول حياته فلن يدرك ثواب ما ضيع بسبب فطره بغير عذر شرعى .

والأحاديث في الترغيب في صوم شهر رمضان، وفي الترهيب من الفطر فيه كثيرة متنوعة .
ثم بين - سبحانه - أن العباد إذا حافظوا على فرائضه، واستجابوا لأوامره، وابتعدوا عن نواهيه، فإنه - عز وجل - لا يرد لهم طلباً ولا يجيب لهم رجاء فقال :

وَإِذَا سَأَلَكَ

عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ

فَلَيْسَ تَسْتَجِيبُوا لِي وَلِيَوْمُ مُنْوَئِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

قال الإمام البيضاوى في وجه اتصال هذه الآية بما قبلها من آيات الصيام : واعلم أنه - تعالى - لما أمرهم بصوم الشهر ومراعاة العدة وحثهم على القيام بوظائف التكبير والشكر عقبه بهذه الآية الدالة على أنه خير بأحوالهم سميع لأقوالهم، مجيب لدعائهم، مجاز على أعمالهم تأكيداً له وحثاً عليه «

وروى المفسرون في سبب نزول هذه الآية الكريمة روايات منها ما أخرجه بن جرير وابن أبي حاتم أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ فقال : أقریب ربنا فنناجیه - أى : ندعوه سرا - أم بعيد فننادیه؟ فسكت رسول الله ﷺ فأنزل الله هذه الآية (١) .

ومنها ما رواه ابن مردويه - بسنده - عن الحسن قال : سأل بعض الصحابة رسول الله ﷺ أين ربنا؟ فأنزل الله - تعالى - هذه الآية (٢) .

والمعنى : وإذا سألك عبادى يا محمد عن قرى وبعدى فقل لهم : إنى قریب منهم بعلمى ورحمتى وقد رتق وإجابتى لسؤالهم . قال - تعالى - : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ :

وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعري أنه قال : كنا مع النبى ﷺ فى سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير . فقال النبى ﷺ : ایها الناس اربعوا على أنفسكم - أى أرفقوا بها - فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا، إنكم تدعون سميماً بصاً . هـ معكم، والذى تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته (٣) .

(٣) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢١٨ .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢١٨ .

(٢) تفسير البيضاوى ص ٣٩ .

فقوله - تعالى - : ﴿فإني قريب﴾ تمثيل لكمال علمه - تعالى - بأفعال عباده وأقوالهم، وإطلاعه على سائر أحوالهم بحال من قرب مكانه منهم إذ القرب المكانى محال على الله - تعالى - .

وفي الآية الكريمة التفات عن خطاب المؤمنين كافة بأحكام الصيام، إلى خطاب النبي ﷺ بأن يذكرهم ويعلمهم ما يجب عليهم مراعاته في سائر عبادتهم من الإخلاص والأدب والتوجه إلى الله وحده بالسؤال.

ولم يصدر الجواب بقل أو فقل كما وقع في أجوبة مسائلهم الواردة في آيات أخرى، نحو ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا﴾ بل تولى - سبحانه - جوابهم بنفسه إشعاراً بفرط قربه منهم، وحضوره مع كل سائل بحيث لا تتوقف إجابته على وجود واسطة بينه وبين السائلين من ذوى الحاجات.

والمراد بالعباد الذين أضيفوا إلى ضمير الجلالة هم المؤمنون لأن الحديث عنهم، ولأن سياق الآيات في بيان أحكام الصوم وفضائله وهو خاص بالمؤمنين، وقد أضيفوا إلى ضمير الجلالة لتشريفهم وتكريمهم.

وقوله - تعالى - : ﴿أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ تقرير للقرب وتحقيق له، ووعد للداعي بالإجابة متى صدر الدعاء من قلب سليم، ونفس صافية، وجوارح خاشعة، ولقد ساق لنا القرآن في آيات كثيرة أمثلة لعباد الله الذين توجهوا إليه بالسؤال، فأجاب الله سؤالهم، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له﴾ وقوله - تعالى - : ﴿وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين. فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه﴾ وقوله - تعالى - : ﴿وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر﴾.

وورد في الحديث ما يدل على أن العبد إذا دعا الله - تعالى - بما فيه خير، لم يجب عند الله دعاؤه، ولكن لا يلزم أن يعطيه - سبحانه - نفس ما طلبه، لأنه هو الأعلم بما يصلح عباده. روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدرى أن النبي ﷺ قال : «ما من مسلم يدعو الله - عز وجل - بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال : إما أن يعجل إليه دعوته، وإما أن يدخرها له في الأخرى، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها».

وقوله - تعالى - : ﴿فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون﴾ توجيه منه - سبحانه - إلى ما يجعل الدعاء مرجو القبول والإجابة.

والاستجابة : هى الإجابة بعناية واستعداد، والسين والتاء للمبالغة.

والرشد : الاهتداء إلى الخير وحسن التصرف في الأمر من دين أو دنيا يقال : رشد ورشد يرشد ويرشد رشدًا، أى اهتدى.

والمعنى : لقد وعدتكم يا عبادى بأن أجيب دعاءكم إذا دعوتوني، وعليكم أنتم أن تستجيبوا لأمرى، وأن تقفوا عند حدودى، وأن تثبتوا على إيمانكم بي، لعلكم بذلك تصلون إلى ما فيه رشدكم وسعادتكم في الحياتين العاجلة والآجلة. وأمرهم - سبحانه - بالإيمان بعد الأمر بالاستجابة، لأنه أول مراتب الدعوة، وأولى الطاعات بالاستجابة.

قال الحافظ ابن كثير: وفي ذكره - تعالى - هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام إرشاد إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة بل وعند كل فطر، كما روى أبو داود الطيالسي في مسنده عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة فكان عبد الله بن عمرو إذا أفطر جمع أهله وولده ودعا. وروى ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو قال: قال النبي ﷺ: «إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد» وكان عبد الله يقول إذا أفطر: اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن تغفر لي» وروى الإمام أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم، يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة وتفتح لها أبواب السماء ويقول: بعزق لأنصرك ولو بعد حين»^(١).

هذا والحديث عن الدعاء وعن فضله وعن آدابه وشروطه وفوائده وجوامعه وغير ذلك مما يتعلق به قد بسطناه في غير هذا المكان فليرجع إليه من شاء^(٢).

وبعد هذا الحديث المؤثر عن الدعاء، عاد القرآن إلى الحديث عن أحكام الصيام، وعن مظاهر رحمة الله بعباده فيما شرع لهم فقال - تعالى -:

أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَأَتَعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢١٩.

(٢) راجع كتاب (الدعاء) للمؤلف طبع مجمع البحوث: الكتاب السادس والخمسون.

الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ
إِلَى الْآيِلِ وَلَا تَبْشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ
تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ



روى بعض المفسرين في سبب نزول هذه الآية الكريمة أحاديث تفيد أن المسلمين كانوا عند ما فرض صيام شهر رمضان. إذا أفطروا يأكلون ويشربون ويقربون النساء ما لم يناموا، فإذا ناموا حرم عليهم بعد ذلك الطعام والشراب وقربان النساء حتى يفطروا من الغد.

ومن الأحاديث التي وردت في هذا المعنى ما أخرجه الإمام أحمد وابن جرير وابن حاتم عن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه. قال: كان الناس في رمضان إذا صام الرجل فنام حرم عليه الطعام والشراب والنساء حتى يفطر من الغد فرجع عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - من عند النبي ﷺ ذات ليلة وقد سمر عنده، فأراد امرأته فقالت إني قد نمت، فقال ما نمت ثم واقعها، وصنع كعب مثل ذلك. فغدا عمر بن الخطاب إلى النبي ﷺ فأخبره فنزلت (١).

ومنها ما رواه البخارى عن البراء قال: كان أصحاب محمد ﷺ إذا كان الرجل صائماً فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي. وإن قيس بن صرمة الأنصارى كان صائماً وفي رواية: كان يعمل في النخيل بالنهار وكان صائماً. فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال لها: أعندك طعام؟ قالت: لا، ولكن أنطلق فأطلب لك وكان يومه يعمل، فغلبته عيناه فجاءته امرأته فلما رآته قالت: خيبة لك. فلما انتصف النهار غشى عليه، فذكر ذلك للنبي ﷺ فنزلت هذه الآية ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾ ففرحوا فرحاً شديداً، ونزلت ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾ (٢).

وجمهور المفسرين - كما يقول الإمام الرازى - على أن هذه الآية من قبيل النسخ، لأنها قد نسخت ما كان حاصلها في أول فرضية الصيام من أن الصائم إذا نام بعد فطره لا يحل له الأكل أو الشرب أو الجماع إلى أن يفطر من الغد.

(١) تفسير الألوسى ج ٢ ص ٦٤.

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣١٤.

ويرى بعض العلماء أن الآية ليست من قبيل النسخ وإنما هي إرشاد إلى ما شرعه الله - تعالى - لعباده خلال شهر الصوم من إباحتهم غشيان أزواجهن ليلاً. ومن جواز الأكل والشرب، حتى يتبين لهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، وكان الصحابة كانوا يتخرجون عن ذلك ظناً منهم أنه من تنمة الصوم، ورأوا أن لا يصبر لأنفسهم عن الأكل والشرب والجماع ليلاً، فبين الله لهم أن ذلك حلال لا حرج فيه.

وأصحاب هذا الرأي يستشهدون لذلك بما رواه البخاري عن البراء قال: لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله - تعالى - ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم﴾^(١). فالقصد من الآية الكريمة عند هؤلاء رفع ما توهمه بعض الصحابة من أن الأكل أو الشرب أو الجماع لا يجوز ما داموا قد ناموا بعد فطرهم؛ لأن الله - تعالى - رءوف رحيم بهم، ولم يشرع لهم ما فيه حرج أو مشقة عليهم.

وعلى كلا القولين فالآية الكريمة تسوق لنا لونا من ألوان رحمة الله - تعالى - بعباده فيما شرع لهم من فرائض وأحكام.

والمراد بليلة الصيام: الليلة التي يصبح فيها الإنسان صائماً دون تحديد ليلة معينة من شهر رمضان، فالإضافة لأدنى ملائمة.

قال الجمل وقوله: ﴿ليلة الصيام﴾ منصوب على الظرف، وفي الناصب له ثلاثة أقوال: أحدها: وهو المشهور عند المعربين أنه أحل، وليس بشيء، لأن الإحلال ثابت قبل ذلك الوقت.

الثاني: أنه مقدر مدلول عليه بلفظ الرث تقديره: أحل لكم أن ترفثوا ليلة الصيام.

الثالث: أنه متعلق بالرث وذلك على رأى من يرى الاتساع في الظرف والمجوررات^(٢).

والرث في الأصل: الفحش من القول، وكلام النساء حين الجماع، كنى به عن المباشرة للزومه لها غالباً. يقال رثت في كلامه - كنصر وفرح وكرم - وأرثت، إذا أفحش فيه. والمراد به في الآية الجماع والمباشرة.

وعدى بإلى - مع أن المستعمل الشائع أن يقال: رثت بالمرأة - لتضمنه معنى الإفضاء كما في

قوله - تعالى -: ﴿وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾.

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣١٤.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ١٤٩.

والمعنى : أحل الله لكم في ليالي صومكم الإفشاء إلى نسائكم ومباشرتهن وقوله - تعالى - ﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾ وارد مورد المقتضى لإباحة مباشرة النساء في ليالي الصيام، ذلك أن كلا من الزوجين يسكن إلى صاحبه، ويكون من شدة القرب منه كالثوب الملابس له وكانت العرب تسمى المرأة لباساً، وهذه حال تقوى معها الدواعى إلى المباشرة، فمن رفقته - تعالى - بعباده أن أحلها لهم ليلة الصيام.

قال الراغب : جعل اللباس كناية عن الزوج لكونه سترًا لنفسه ولزوجه أن يظهر منها سوء، كما أن اللباس ستر عنه أن يبدو منه السوء.

وقال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما موقع قوله : ﴿هن لباس لكم﴾ قلت : هو استئناف كاليان لسبب الإحلال، وهو أنه إذا كانت بينكم وبينهن مثل هذه المخالطة والملابسة قل صبركم عنهن وصعب عليكم اجتنابهن، فلذلك رخص لكم في مباشرتهن^(١).

وفي هذا التعبير القرآني ما فيه من اللطافة والأدب وسمو التصوير لما بين الرجل وزوجه من شدة الاتصال والمودة واستتار كل واحد منها بصاحبه.

وقوله - تعالى - : ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم﴾ جملة معترضة بين قوله : ﴿أحل لكم ليلة الصيام﴾ وبين قوله : ﴿فالآن باشروهن﴾ إلخ. وقد جرى بها لبيان حالهم بالنسبة إلى ما فرط منهم، وليبيان مظهر من مظاهر لطف الله بهم، ورحمته إياهم.

وقوله : ﴿تختانون﴾ قال الراغب : الاختيان مرادة الخيانة، ولم يقل تختنون أنفسكم لأنه لم تكن منهم الخيانة بل كان منهم الاختيان، فإن الاختيان تحرك شهوة الإنسان لتحرى الخيانة وذلك هو المشار إليه بقوله - تعالى - : ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾^(٢).

والمعنى : علم الله - تعالى - أنكم كنتم تراودون أنفسكم على مباشرة نسائكم ليلاً، وعلى الأكل بعد النوم، قبل أن يظهر الفجر الصادق، بل إن بعضكم قد فعل ذلك، فكان من رحمة الله بكم أن أباح الأكل والشرب والجماع في ليالي الصوم، وأن قبل توبتكم وعفا عنكم، أى : محا أثر ما فعلتموه من الأكل والجماع قبل أن يأذن لكم بذلك.

وجملة ﴿تاب عليكم﴾ معطوفة على محذوف، والتقدير : فتبتم فتاب عليكم.

والذين لا يرون أن الآية ناسخة لحكم سابق عبر عن وجهة نظرهم صاحب النار فقال : وقوله - تعالى - : ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾ أى : تنتقصونها بعض ما أحل الله

(١) تفسير الكشاف للزخشري ج ١ ص ٢٣٠.

(٢) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص ١٦٣.

لها من اللذات توها أن من قبلكم كان كذلك فيكون بمعنى التخون أى : النقص من الشيء أو معناه : تخونون أنفسكم إذ تعتقدون شيئاً ثم لا تلتزمون العمل به فهو مبالغة من الخيانة التي هي مخالفة مقتضى الأدلة ولم يقل تختانون الله كما قال في آية أخرى « لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم » للإشعار بأن الله - تعالى - لم يحرم عليهم بعد النوم في الليل ما حرمه على الصائم في النهار، وإنما ذهب بهم اجتهادهم إلى ذلك فهم قد خانوا أنفسهم في اعتقادها، فكانوا كمن يتغشى امرأته ظاناً أنها أجنبية، فعصيانه بحسب اجتهاده لا بحسب الواقع، فهم على أية حال كانوا عاصين بما فعلوا محتاجين إلى التوبة والعفو ولذلك قال ﴿فتاب عليكم وعفا عنكم﴾^(١).

وقوله - تعالى - : ﴿فالآن باشروهن﴾ الأمر فيه للإباحة وهو مرتب على قوله : ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾.

ولفظ ﴿الآن﴾ يطلق حقيقة على الوقت الذي أنت فيه، وقد يقع على الماضي القريب منك وعلى المستقبل القريب الوقوع تنزيلاً له منزلة الحاضر وهو المراد هنا. و ﴿باشروهن﴾ من المباشرة وأصلها اتصال البشرة بالبشرة، وكنى بها القرآن عن الجماع الذي يستلزمها.

وقوله - تعالى - : ﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ تأكيد لما قبله. والابتغاء الطلب والمعنى : لقد أبحنا لكم الإفشاء إلى نسائكم في ليالي رمضان بعد أن كان محرماً عليكم فضلاً منا ورحمة بكم فالآن باشروهن واطلبوا من وراء هذه المباشرة ما كتبه لكم الله من الذرية الصالحة ومن التعفف عن إتيان الحرام.

وفي هذا إشعار بأن النكاح شرع ليبتغى به النسل حتى يتحقق ما يريد به الله - تعالى - من بقاء النوع الإنساني، ومن صيانة المرء نفسه عن الوقوع في فاحشة الزنا. وقوله - تعالى - : ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾ معطوف على باشروهن.

والمقصود من الخيط الأبيض : أول ما يبدو من الفجر الصادق المعترض في الأفق قبل إنشاره.

والمقصود من الخيط الأسود : ما يمتد مع بياض الفجر من ظلمة الليل.

(١) تفسير المنار ج ٢ ص ١٧٦.

والمعنى : لقد أبحننا لكم مباشرة النساء في ليالي الصوم، وأبحننا لكم كذلك أن تأكلوا وأن تشربوا في هذه الليالي حتى يتبين لكم بياض الفجر من سواد الليل.

قال الإمام الرازي : ﴿والفجر﴾ مصدر قولك : فجرت الماء أفجره فجراً، وفجرته تفجيراً، قال الأزهرى : الفجر أصله الشق، فعلى هذا الفجر في آخر الليل هو انشقاق ظلمة الليل بنور الصبح.

وقد وردت روايات صحيحة تفيد أن قوله : ﴿من الفجر﴾ قد تأخر نزوله عن الجمل السابقة له . ففي الصحيحين عن سهل بن سعد قال أنزلت ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود ولم ينزل من الفجر﴾ فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود، ويأكل حتى يتبين له رؤيتها، فأنزل الله بعده ﴿من الفجر﴾ فعلموا أنه يعني الليل والنهار.

وروي أيضاً عن عدى بن حاتم قال : لما نزلت هذه الآية ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾ عمدت إلى عقالين لى أسود وأبيض فجعلتهما تحت وسادتي وجعلت أنظر في الليل إليهما فلا يتبين لى، فعمدت إلى رسول الله ﷺ فذكرت ذلك فقال : «إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار» ونزل قوله - تعالى - : ﴿من الفجر﴾.

وشبه بياض النهار وسواد الليل بالخيطين : الأبيض والأسود لأن أول ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق وما يمتد معه من غبش الليل يكون كالخيط الممدود.

وفي الإتيان بلفظ التفعّل في قوله : ﴿حتى يتبين . .﴾ إشعار بأنه لا يكفي إلا التبين الواضح لا مجرد التوهم، فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله ﷺ : «لا يغرنكم نداء بلال ولا هذا البياض حتى يبدو الفجر - أو قال - حتى ينفجر الفجر».

وقوله : ﴿من الفجر﴾ بيان للخيط الأبيض . واكتفى به عن بيان الخيط الأسود، لأن بيان أحدهما بيان للثاني، ويجوز أن تكون «من» للتبعيض، أى : من بعض الفجر.

وقوله - تعالى - : ﴿ثم أمّوا الصيام إلى الليل﴾ بيان لإنهاء وقت الصيام بعد أن بينت الجملة السابقة بدايته . أى : ابدءوا صومكم من طلوع الفجر وانتهوا منه بدخول الليل عند غروب الشمس، إذ الليل لبس بوقت الصيام.

قال الإمام الرازي : كلمة ﴿إلى﴾ لإنهاء الغاية، فظاهر الآية : أن الصوم ينتهى عند دخول الليل، وذلك لأن غاية الشيء مقطعه ومنتهاه وإنما يكون مقطعاً ومنتهى إذا لم يبق بعد ذلك . وقد تحيىء هذه الكلمة لا لإنهاء كما في قوله - تعالى - : ﴿إلى المرافق﴾ إلا أن ذلك على

خلاف الدليل، والفرق بين الصورتين أن الليل ليس من جنس النهار فيكون الليل خارجاً عن حكم النهار، والمرافق من جنس اليد فيكون داخلاً فيه».

وفي الصحيحين عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من هنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم».

وكان من عادته ﷺ تعجيل الفطر، فقد روى الشيخان عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر».

وقد أخذ العلماء من هذه الآية ومن عمل الرسول ﷺ وقوله، أن من واصل الإمساك عن المفطرات في الليل فلا ثواب له على هذا الإمساك، لأنه لم يقع في الوقت الذي رسمه الشارع لعبادة الصوم، بل يعد هذا المواصل فاعلاً لمحذور، فلا بد للصائم من تناول شيء من المفطرات بعد غروب الشمس ولو قليلاً من الماء. فقد روى الترمذي عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ يفطر قبل أن يصل على رطبات فإن لم تكن رطبات فتميرات، فإن لم تكن تميرات حسا حسوات من ماء، والوصال - بمعنى أن يصوم الشخص اليوم وما بعده من غير أن يتناول مفطراً في الليل الفاصل بينهما - وردت في النهي عنه أحاديث كثيرة، ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «لا تواصلوا، قالوا: إنك تواصل يا رسول الله. قال: لست كأحد منكم إني أطعم وأسقى. أو قال: إني أظل يطعمني ربي ويسقيني».

وروى الإمام أحمد عن ليلي امرأة بشير بن الخصاصية قالت: أردت أن أصوم يومين مواصلة فمنعني بشير وقال: إن رسول الله ﷺ نهى عنه وقال: يفعل ذلك النصارى ولكن صوموا كما أمركم الله ثم أتموا الصيام إلى الليل، فإذا كان الليل فأفطروا».

وقوله: «ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد» استثناء من عموم إباحة المباشرة، وذلك لأنه لما أطلق في الجملة السابقة الإذن في مباشرة النساء ليلة الصيام بقوله: «فالآن باشروهن» كان هذا الإطلاق مظنة لأن يؤخذ منه أن المعتكف كالصائم في أنه يجوز له أن يباشر زوجته ليلاً لا نهاراً، فبين - سبحانه - بهذه الجملة أن المعتكف يحرم عليه أن يباشر النساء في الليل والنهار.

قال القرطبي: والاعتكاف في اللغة: الملازمة، يقال عكف على الشيء إذا لازمه مقبلاً عليه. قال الشاعر:

وظل بنات الليل حولي عكفا عكوف البواكى بينهن صريع

ولما كان المعتكف ملازماً للعمل بطاعة الله مدة اعتكافه لزمه هذا الاسم وهو في عرف

الشرع : ملازمة طاعة مخصوصة في وقت مخصوص على شرط مخصوص في موضع مخصوص .
وأجمع العلماء على أنه ليس بواجب وهو قربة من القرب ونافلة من النوافل عمل بها رسول الله
ﷺ وأصحابه وأزواجه، ويلزمه إن ألزمه نفسه، ويكره الدخول فيه لمن يخاف عليه العجز عن
الوفاء بحقوقه .

وأجمع العلماء على أنه لا يكون إلا في المسجد واختلفوا في المراد بالمسجد في قوله - تعالى - :
﴿ في المساجد ﴾ فذهب قوم إلى أن الآية خرجت على نوع من المساجد وهو ما بناه نبي كالمسجد
الحرام والمسجد النبوي وبيت المقدس، وقال آخرون لا اعتكاف إلا في مسجد تجمع فيه
الجمعة، وقال آخرون الاعتكاف في كل مسجد جائز^(١) .

والمشار إليه في قوله - تعالى - : ﴿ تلك حدود الله فلا تقربوها ﴾ الأحكام التي سبق تقريرها
من إيجاب وتحريم وإباحة .

والحدود جمع حد، وهو في اللغة الحاجز بين الشئين المتقابلين ليمنع من دخول أحدهما في
الأخر . ومنه سمي الحديد حديدًا لأنه يمنع وصول السلاح إلى البدن .

وسميت الأحكام التي شرعها الله حدودًا لأنها تحجز بين الحق والباطل .

أي : تلك الأحكام التي شرعناها لكم من إيجاب الصوم، وتحريم الأكل والشرب والجماع
في نهاره، وإباحة ذلك في ليله، هي حدود الله التي لا يحل لكم مخالفتها أو مجاوزتها .

وعبر - سبحانه - عن النهي عن مخالفة تلك الأحكام بقوله : ﴿ فلا تقربوها ﴾ مبالغة في
التحذير من مخالفتها، لأن النهي عن القرب من الشئ نهى عن إتيانه بالأولى والآية ترشد بقولها
﴿ فلا تقربوها ﴾ إلى اجتناب ما فيه شبهة كما ترشد إلى ترك الأشياء التي تقضى في غالب أمرها
إلى الوقوع في حرام .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف قيل ﴿ فلا تقربوها ﴾ مع قوله : ﴿ فلا تعتدوها ومن
يتعد حدود الله ﴾ قلت : من كان في طاعة الله والعمل بشرائعه فهو متصرف في حيز الحق فنهى
أن يتعداه . لأن من تعداه وقع في حيز الباطل، ثم بولغ في ذلك فنهى أن يقرب الحد الذي هو
الحاجز بين حيزي الحق والباطل لثلاثا يدان الباطل، وأن يكون في الوساطة متباعدًا عن الطرف
فضلا عن أن يتخطاه كما قال رسول الله ﷺ : « إن لكل ملك حمى، وحمى الله محارمه، فمن
رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه » فالرتع حول الحمى وقربان حيزه واحد . ويجوز أن يريد

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣٣٢ بتصرف وتلخيص .

بحدود الله محارمه ومناهيه خصوصاً، لقوله - تعالى - : ﴿ولا تبشروهن﴾ وهى حدود لا تقرب»^(١).

ثم ختم - سبحانه - هذه الآية الكريمة بقوله : ﴿كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾.

أى : مثل ذلك البيان الجامع الذى بين الله به حدوده التى أمركم بالتزامها ونهاكم عن مخالفتها، يبين لكم آياته، أى : أدلته وحججه لكى تصونوا أنفسكم عما يؤدى بكم إلى العقوبة، وتكونوا ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه.

وبذلك تكون الآية الكريمة قد ختمت الحديث عن الصوم، ببيان مظاهر رفق الله بعباده، ورعايته لمصالحهم ومنافعهم، بأسلوب بليغ جمع بين الترغيب والترهيب، والإباحة والتحریم، وغير ذلك من أنواع الهداية والإرشاد إلى ما يسعد الناس فى دينهم ودنياهم.

وبعد أن أنهى القرآن حديثه عن الصيام، وما يتعلق به من أحكام، أردف ذلك بالنهى عن أكل الحرام، لأنه يؤدى إلى عدم قبول العبادات من صيام واعتكاف ودعاء وغير ذلك فقال - تعالى - :

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ

بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَآئِلِ الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ

أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

والخطاب فى الآية الكريمة موجه إلى المؤمنين كافة فى كل زمان ومكان. والمراد بالأكل مطلق الأخذ بغير وجه حق، وعبر عنه بالأكل، لأن الأكل أهم وسائل الحياة، وفيه تصرف الأموال غالباً.

والباطل فى اللغة : الزائل الذاهب، يقال : بطل يبطل بطولا وبطلانا. أى ذهب ضياعاً وخسراً. وجمع الباطل أباطيل. ويقال : بطل الأجير يبطل بطالة إذا تعطل واتبع اللهو. والمراد هنا : كل ما لم ييجح الشرع أخذه من المال وإن طابت به النفس، كالربا والميسر وثنم الخمر، والرشوة، وشهاد الزور، والسرقه، والغصب، ونحو ذلك مما حرمه الله - تعالى - . والباء للسببية، والجار والمجرور متعلق بالفعل قبله، وكذلك قوله : ﴿بينكم﴾.

والمعنى : لا يأخذ بعضكم مال بعض، ويستولى عليه بغير حق، متذرعاً بالأسباب الباطلة، والحيل الزائفة، وما إلى ذلك من وجوه التعدي والظلم.

وفي قوله - تعالى - : ﴿أموالكم﴾ - مع أن أكل المال يتناول مال الإنسان ومال غيره - في هذا القول إشعار بوحدة الأمة وتكافلها، وتنبيه إلى أن احترام مال غيرك وحفظه هو عين الاحترام والحفظ لما لك أنت، ففي هذه الإضافة البليغة تعليل للنهي، وبيان لحكمة الحكم، إذ استحلال الإنسان لمال غيره مجرى هذا الغير على استحلال مال ذلك الإنسان المتعدي، وإذا فشا هذا السلوك في أمة من الأمم أدى بها إلى الضعف والتعادي والتباغض.

فما أحكم هذا التعبير، وما أجمل هذا التصوير.

وقوله : ﴿وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾ بيان لصورة أخرى قبيحة من صور أكل أموال الناس بالباطل وقوله : ﴿وتدلوا بها إلى الحكام﴾ معطوف على ﴿لا تأكلوا﴾.

والإدلاء في الأصل : إرسال الدلو في البئر للاستقاء. ثم جعل كل إلقاء قول أو فعل إدلاء؛ ومنه أدلى فلان بحجته، أى : أرسلها ليصل إلى مراده.

والمراد بالإدلاء هنا : الدفع والإلقاء بالأموال إلى الغير من أجل الوصول إلى أمر معين. والحكام : جمع حاكم، وهو الذى يتصدى للفصل بين الناس في خصوماتهم وقضاياهم.

والفريق : القطعة المعزولة من جملة الشيء، ومنه قيل للقطعة من الغنم تشذ عن معظمها فريق.

والإثم : الفعل الذى يستحق صاحبه الذم والعقاب. وجمعه آثام.

والمعنى : لا يأخذ بعضكم أموال بعض - أيها المسلمون - ولا يستولى عليها بغير حق، ولا تدلوا بها إلى الحكام، أى ولا تلقوا أمرها والتحاكم فيها إلى القضاة لا من أجل الوصول إلى الحق، وإنما من أجل أن تأخذوا عن طريق التحاكم قطعة من أموال غيركم متلبسين بالإثم الذى يؤدي إلى عقابكم، حال كونكم تعلمون أنكم على باطل، ولا شك أن إتيان الباطل مع العلم بأنه باطل أدعى إلى التوبيخ من إتيانه على جهالة به.

فعلى هذا الوجه يكون المراد بالإدلاء بالأموال إلى الحكام طرحها أمامهم ليقضوا فيها، وليتوسل بعض الخصوم عن طريق هذا القضاء إلى أكل الأموال بالباطل حين عجزوا عن أكلها بالمغالبة.

وهناك وجه آخر تحتمله الآية احتمالاً قريباً، وبه قال كثير من العلماء وهو أن المراد بالإدلاء

بالأموال إلى الحكام، إلقاؤها إليهم على سبيل الرشوة ليصلوا من وراء ذلك إلى أن يحكموا لصالحهم بالباطل، وعليه يكون المعنى.

لا يأخذ بعضكم أموال بعض أيها المسلمون، ولا تلقوا ببعضها إلى حكام السوء على سبيل الرشوة، لتتوصلوا بأحكامهم الجائرة إلى أكل فريق من أموال الناس بغير حق. ولا غرابة في أن يعنى القرآن في سياسته الرشيدة بالتحذير من جريمة الرشوة؛ فإنها المعول الذي يهدم صرح العدل من أساسه وبها تفقد مجالس القضاء حرمتها وكرامتها، وتصير تلك المجالس موطنًا للظلم لا للعدل.

وخص القرآن الكريم هذه الصورة بالنهي - وهي صورة الإدلاء بالأموال إلى الحكام - مع أنه قد ذكر ما يشملها بقوله: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ لأنها على وجهي تفسيرها شديدة الشناعة، جامعة لمنكرات كثيرة، كالظلم، والتباغض والرشوة، والغصب وغير ذلك. والحق، أن هذه الآية الكريمة أصل من الأصول التي يقوم عليها إصلاح المعاملات، وقد أخذ العلماء منها حرمة أكل أموال الناس بالباطل، وحرمة إرشاء الحكام ليقضوا للراشي بما لا يرضونه، وقد لعن النبي ﷺ الجميع في الحديث الذي أخرجه الترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله الراشي والمرتشي والرائش» وهو الوسطة الذي يمشی بينهما.

كما أخذوا منها أن حكم الحاكم على ما يقتضيه الظاهر من أمر القضية لا يحل في الواقع حرامًا، ولا يحرم حلالًا، والدليل على ذلك ما أخرجه الشيخان عن أم سلمة - رضى الله عنها - عن رسول الله ﷺ أنه سمع خصومة بباب حجرته، فخرج إليهم فقال: إنما أنا بشر. وإنه ليأتيني الخصم. فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنه قد صدق، فأقضى له بذلك. فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليركها».

قال الإمام ابن كثير: فدللت هذه الآية الكريمة وهذا الحديث على أن حكم الحاكم لا يغير الشيء في نفس الأمر، فلا يحل في نفس الأمر حرامًا ولا يحرم حلالًا، وإنما هو ملزم في الظاهر، فإن طابق في نفس الأمر فذاك وإلا فللحاكم أجره وعلى المحتال وزره. ولهذا قال - تعالى - في آخر الآية ﴿وأنتم تعلمون﴾. أى تعلمون بطلان ما تدعونه وترجونه في كلامكم^(١).

وبذلك تكون الآية الكريمة قد رسمت طريق الحق لمن يريد أن يسير فيه ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم﴾.

ثم انتقل القرآن إلى الحديث عن الأهلة لما لها من صلة بالصيام وبالقتال في الأشهر الحرم وبمواقيت الحج فقال - تعالى - :

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٢٥.

﴿يَسْأَلُونَكَ﴾

عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ
بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِنْ اتَّقَىٰ
وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

ورد في سبب نزول هذه الآية روايات منها ما أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي العالية قال :
«بلغنا أن بعض الناس قالوا : يارسول الله ، لم خلقت الأهله فتزلت .»

والأهله : جمع الهلال ، وهو الكوكب الذى ييزغ فى أول كل شهر ، ويسمى هلالا لثلاث
ليال أو لسبع ليال من ظهوره ، ثم يسمى بعد ذلك قمرا إلى أن يعود من الشهر الثانى .
قال بعضهم : وهو مشتق من استهل الصبى إذا بكى وصاح حين يولد ، ومنه أهل القوم
بالحج إذا رفعوا أصواتهم بالتلبية ، وسمى بذلك لأنه حين يرى يهل الناس بذكره أو بالتكبير ،
ولهذا يقال أهل الهلال واستهل^(١) .

والمواقيت : جمع ميقات بمعنى الوقت ، وهو ما يقدر لعمل من الأعمال وقيل : الميقات منتهى
الوقت .

والمعنى : يسألك بعض الناس عن الحكمة من خلق الأهله ، قل لهم - يا محمد - إن الله -
تعالى - قد خلقها لتكون معالم يوقت ويحدد بها الناس صومهم ، وزكاتهم ، وحجهم ، وعدة
نساءهم ، ومدد حملهن ، ومدة الرضاع ، وغير ذلك مما يتعلق بأمر معاشهم .
قال - تعالى - : ﴿هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد
السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ .

وخص الحج بالذكر مع أن الأهله مواقيت لعبادات أخرى كالصوم والزكاة للتنبية على أن
الحج مقصور وقت أدائه على الزمن الذى عينه الله - تعالى - وأنه لا يجوز نقله إلى وقت آخر كما
كانت العرب تفعل ، إذ كانوا ينقلون ماشاؤوا من الأشهر الحرم الأربعة التى من جملتها

(١) تفسير الألوسى ج ٢ ص ٧١ .

ذو الحجة إلى شهر آخر غير حرام، وهو النسيء المشار إليه بقوله - تعالى - : ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾.

وخص الشارع المواقيت بالأهلة وأشهرها دون الشمس وأشهرها، لأن الأشهر الهلالية تعرف برؤية الهلال ومحاقه، وذلك ما لا يخفى على أحد من الخاصة أو العامة أينما كانوا، بخلاف الأشهر الشمسية. فإن معرفتها تنبني على النظر في حركات الفلك وهي لا تتيسر إلا للعارفين بدقائق علم الفلك.

هذا، ومن الروايات التي وردت في سبب نزول هذه الآية ما رواه أبو نعيم وابن عساكر عن ابن عباس قال: نزلت في معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم قالا: يارسول الله. ما بال الهلال يبدو - أو يطلع - دقيقاً مثل الخيط ثم يزيد حتى يعظم ويستدير، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان، لا يكون على حال واحد؟ فنزلت.

وعلى هذه الرواية يكون الجواب بقوله - تعالى - : ﴿قل هي مواقيت للناس والحج﴾ من قبيل أسلوب الحكيم، وهو إجابة السائل بغير ما يتطلبه سؤاله، بتنزيل سؤاله منزلة غيره، تنبيهها له على أن ذلك الغير هو الأولى بالسؤال لأنه هو المهم بالنسبة له.

فأنت ترى هنا أن السائلين قد سألوا عن سبب اختلاف الأهلة بالزيادة والنقصان، فأجيبوا ببيان الحكمة من خلقها، فكانه - سبحانه - يقول لهم: عليكم أن تسألوا عن الحكمة والفائدة من خلق الأهلة لأن هذا هو الأليق بحالكم وهو ما أجبتمكم عليه، لا أن تسألوا عن سبب تزايدها في أول الشهر وتناقصها في آخره، لأن هذا من اختصاص علماء الهيئة، وأنتم لستم في حاجة إلى معرفة ذلك في هذا الوقت.

ولعلماء البلاغة كلام جيد في مزايا ما يسمونه بأسلوب الحكيم، فقد قال السكاكي ما ملخصه: «ولهذا النوع - أعني إخراج الكلام لا على مقتضى الظاهر - أساليب متفنتة، ولكل من تلك الأساليب عرق في البلاغة يتشرب من أفانين سحرها، ولا كأسلوب الحكيم فيها. وهو تلقى المخاطب بغير ما يترقب، أو السائل بغير ما يتطلب، كما قال - تعالى - : ﴿يسألونك عن الأهلة﴾ الآية. قالوا في السؤال. ما بال الهلال يبدو دقيقاً. ألخ فأجيبوا بما ترى. وإن هذا الأسلوب الحكيم لربما صادف المقام فحرك من نشاط السامع ما سلبه حكم الوقور، وأبرزه في معرض المسحور، وهل ألان شكيمة «الحجاج الثقفي» لذلك الرجل الخارجي، وسل سخيمته، حتى أثر أن يحسن على أن يسئ غير أن سحره بهذا الأسلوب؟ إذ توعدده الحجاج بالقيد في قوله «لأهملنك على الأدهم» فقال الخارجي متغايا: مثل الأمير بحمل على الأدهم الأشهب. مبرراً وعيداً في معرض الوعد، متوصلاً أن يريه بالطف وجه: أن رجلاً مثله جدير

بأن يعد لا أن يوعد».

وقوله - تعالى - : ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها﴾ هذا القول الكريم نهى لجماعة المسلمين عن عادة كانوا يفعلونها في الجاهلية، وهى أنهم كانوا إذا عادوا من حجهم أو أحرموا لا يدخلون من أبواب بيوتهم، بل كانوا يدخلون من نقب ينقبونه في ظهور بيوتهم.

أخرج البخارى عن أبى إسحاق قال : سمعت البراء - رضى الله عنه - يقول : نزلت هذه الآية فينا . كانت الأنصار إذا حجوا فجاءوا لم يدخلوا من قبل أبواب بيوتهم ولكن من ظهورها . فجاء رجل من الأنصار فدخل من قبل بابه فكأنه غير بذلك فنزلت : ﴿وليس البر﴾ إلخ .

والمعنى : وليس من البر ما كنتم تفعلونه في الجاهلية من دخولكم البيوت من ظهورها عند إحرامكم أو عودتكم من حجكم، ولكن البر الحق الجامع لخصال الخير يكون في تقوى الله بأن تمتثلوا أوامره وتجتنبوا نواهيه، وإذا ثبت ذلك فعليكم أن تأتوا البيوت من أبوابها عند إحرامكم أو رجوعكم من حجكم.

وفى الأمر بأتیان البيوت من أبوابها إشعار بأن إتيانها من ظهورها باسم الدين غير مأذون فيه، وكل ما يفعل باسم الدين وليس له فى الدين من شاهد فهو بدعة، وكل بدعة ضلالة.

وفى الآية الكريمة تعريض بمن يسأل النبى ﷺ عما هو ليس من العلم المختص بالنبوة، ولا تتوقف معرفته على الوحي، فهذا السائل فى سؤاله مثله كمثل من يدخل البيت من ظهره لا من بابه.

قال بعضهم : وذلك لأن العلم على ضربين : علم دنيوى يتعلق بأمر المعاش - كمعرفة الصنائع ومعرفة حركات النجوم ومعرفة المعادن والنبات، وقد جعل الله لنا سبيلا إلى معرفة ذلك على غير لسان نبيه ﷺ.

وعلم شرعى يتعلق بالعبادات والمعاملات والعقيدة ولا سبيل إلى أخذه إلا من الصادق المصدوق ﷺ.

فلما جاءوا يسألون النبى ﷺ عما أمكنهم معرفته من غير جهته أجابهم . ثم بين لهم أن البر فى التقوى وذلك يكون بالعلم والعمل المختص بالدين^(١).

قال صاحب الكشاف : فإن قلت . ما وجه اتصال قوله - تعالى - : ﴿وليس البر﴾ إلخ بما

(١) تفسير القاسمى ج ٢ ص ٤٧٣ بتصرف.

قبله؟ قلت: كأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الأهله وعن الحكمة في نقصانها وتماها: إن كل ما يفعله الله - تعالى - لا يكون إلا عن حكمة ومصصلحة لعباده فدعوا السؤال عنه وانظروا في واحدة تفعلونها أنتم مما ليس من البر في شيء وأنتم تحسبونها برا. ويجوز أن يكون ذلك على طريق الاستطراد لما ذكر أنها مواقيت للحج، لأنه كان من أفعالهم في الحج. ويحتمل أن يكون هذا لتعكيسهم في سؤالهم وأن مثلهم كمثل من يترك باب البيت ويدخله من ظهره. والمعنى: ليس البر وما ينبغي أن تكونوا عليه بأن تعكسوا في مسائلكم، ولكن البر ير من اتقى ذلك وتجنبه ولم يجسر على مثله ثم قال: ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ أى: باشروا الأمور من وجوها التي يجب أن تباشر عليها ولا تعكسوا، والمراد وجوب توطين النفوس وربط القلوب على أن جميع أفعال الله حكمة وصواب^(١).

وقوله - تعالى - : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أمر بالتقوى التي تتضمن القيام بجميع الواجبات واجتناب البدع والمنكرات. أى: افعلوا ما أمركم الله به، واجتنبوا ما نهاكم عنه، لتكونوا من المفلحين، وهم الفائزون بالحياة المطمئنة في الدنيا والنعيم الخالد في الآخرة. وبذلك تكون الآية الكريمة قد رددت عقول الناس إلى النظر والتأمل في سنن الله وفي خلفه على النحو الذى ينشئ التقوى في النفوس، ويوجه إلى العمل الصالح الذى يرضى الله - تعالى - .
وبعد أن أمر - سبحانه - المؤمنين بطاعته وتقواه، وحضهم على الجهاد في سبيله إذ هو من أجل مظاهرها، وبصرهم بحكمته وأدابه فقال - تعالى - :

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ

وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾

وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَفَّفْنَاهُمُ وَأَخْرَجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْنَاكُمْ وَالْفَنَاءُ

أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ

فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ أَنْهَوْا

فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ

الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ
بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرْمَتِ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا
عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ
الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ
وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

قال ابن كثير: قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله - تعالى - ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ قال: هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله ويكف عن من كف عنه حتى نزلت سورة براءة^(١).

ويرى بعض العلماء أن هذه الآيات قد وردت في الأذن بالقتال للمحرمين في الأشهر الحرم إذا فوجئوا بالقتال بغياً وعدواناً. فهي متصلة بما قبلها أتم الاتصال، لأن الآية السابقة بينت أن الأهلة مواقيت للناس في عباداتهم ومعاملاتهم عامة وفي الحج خاصة وهو في أشهر هلالية مخصوصة كان القتال فيها محرماً في الجاهلية. فقد أخرج الواحدي عن ابن عباس أن هذه الآيات نزلت في صلح الحديبية، وذلك أن رسول الله ﷺ صده المشركون عن البيت الحرام - ثم صالحوه فرضى على أن يرجع عامه القابل ويحلوا له مكة ثلاثة أيام يطوف ويفعل ما يشاء فلما كان العام القابل تجهز هو وأصحابه لعمرة القضاء وخافوا ألا تفي لهم قريش، وأن يصدوهم عن المسجد الحرام بالقوة ويقاتلوهم وكره أصحابه قتالهم في الحرم والشهر الحرام فأنزل الله - تعالى الآيات^(٢).

والقتال والمقاتلة: محاولة الرجل قتل من يحاول قتله، والتقاتل محاولة كل واحد من المتعادين قتل الآخر.

قال أبو حيان: وقوله: ﴿في سبيل الله﴾ السبيل هو الطريق. واستعير لدين الله وشرائعه لأن المتبع لذلك يصل به إلى بغيته الدينية والدنيوية، فشبّه بالطريق الموصل للإنسان إلى ما يقصده، وهذا من استعارة الأجرام للمعانى ويتعلق ﴿في سبيل الله﴾ بقوله: ﴿وقاتلوا﴾ وهو

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٢٦.

(٢) تفسير المنار ج ٢ ص ٢٠٨.

ظرف مجازي، ، لأنه لما وقع القتال بسبب نصرة الدين صار كأنه وقع فيه، وهو على حذف مضاف والتقدير في نصرة دين الله^(١).

والمراد بالقتال في سبيل الله : الجهاد من أجل إعلاء كلمته حتى يكون أهل دينه الحق أعزاء لا يسومهم أعداؤه ضيماً، وأحراراً في الدعوة إليه وإقامة شرائعه العادلة في ظل سلطان مهيب .
أى : قاتلوا أيها المؤمنون لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه أعداءكم الذين أعدوا أنفسهم لقتالكم ومناجرتكم وتحققتم منهم سوء النية، وفساد الطوية.

فالأية الكريمة تهييج للمؤمنين وإغراء لهم على قتال أعدائهم بدون تردد أو تهييب، وإرشاد لهم إلى أن يجعلوا جهادهم من أجل نصرة الحق، لا من أجل المطامع أو الشهوات .
فقد روى الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي موسى - رضى الله عنه - أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه - أى : ليتحدث الناس بشجاعته وليظهر بينهم - أى ذلك في سبيل الله ؟ فقال رسول الله - ﷺ : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله .
والأحاديث في الدعوة إلى أن يكون الجهاد في سبيل الله من أجل إعلاء كلمته كثيرة متعددة .
وقوله ﴿ولا تعتدوا﴾ نهي عن الاعتداء بشق صورته ويدخل فيه دخولا أوليا الاعتداء في القتال .
والاعتداء : مجاوزة الحد فيما أمر الله به أو نهى عنه .

أى : قاتلوا في سبيل الله من يناصبكم القتال من المخالفين، ولا تتجاوزوا في قتالهم إلى من ليس شأنهم قتالكم، كنسائهم، وصبيانهم ورهبانهم، وشيوخهم الطاعنين في السن إلى حد الهرم، ويلحق هؤلاء المريض والمقعد والأعمى والمجنون . وقد وردت في النهي عن قتل هؤلاء الأحاديث النبوية ووصايا الخلفاء الراشدين لقواد جيوشهم، فهؤلاء يتجنب قتالهم إلا من قامت الشواهد على أن له أثراً من رأى أو عمل في الحرب، يؤازر به المحاربين لينتصروا على المجاهدين .

قال ابن كثير : ولهذا جاء في صحيح مسلم عن بريدة أن رسول الله ﷺ كان يقول : « أغزوا في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، أغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع وفي الصحيحين عن ابن عمر قال : وُجِدَتْ امرأة في بعض المغازي مقتولة فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان»^(٢).

(١) تفسير البحر المحيط ج ٢ ص ٦٥ لأبي حيان .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٢٦ .

وقوله: ﴿إن الله لا يحب المعتدين﴾ كالتعليل لما قبله في النهي عن مجاوزة ما حده الله - تعالى - في قتال المخالفين.

ومحبة الله لعباده: صفة من صفاته - تعالى - من أثرها الرعاية والإنعام. وإذا نفى الله - تعالى - محبته لطائفة من الناس فهو كناية عن بغضه لهم، واستحقاقهم لعقوبته.

وقوله: ﴿واقتلوهم حيث ثقتموهم﴾ الضمير المنصوب فيه يعود على قوله: ﴿الذين يقاتلونكم﴾ في الآية السابقة.

و﴿ثقتموهم﴾: أدركتموهم وظفرتم بهم. يقال: ثقف الشيء إذا ظفر به ووجده على جهة الأخذ والغلبة ومنه رجل ثقف إذا كان سريع الأخذ لأقرانه. قال الشاعر:

فإما تثقفوني فاقتلوني فمن أثقف فليس إلى خلود

ويقال - أيضاً - رجل ثقف: إذا كان محكماً لما يتناوله من الأمور.

والمعنى: عليكم أيها المسلمون أن تقتلوا هؤلاء الذين اذنا لكم بقتالهم حيث وجدتموهم وظفرتم بهم، فأنهم قد بادءوكم بالعدوان، وتمنوا لكم كل شر وسوء.

وقوله: ﴿وأخرجوهم من حيث أخرجوكم﴾ معطوف على ما قبله.

وحيث ظرف مكان. والمكان الذي أخرجوهم منه هو مكة، فإن المشركين من قريش قد أنزلوا بالمسلمين الأولين من صنوف الأذى ما جعلهم يتركون مكة ويهاجرون إلى بلاد الحبشة أولاً. ثم إلى المدينة المنورة ثانياً.

أي: اقتلوا هؤلاء الذين قاتلوكم في أي مكان لقيتموهم فيه، وأخرجوهم من المكان الذي أخرجوكم منه وهو مكة.

وفي هذا تهديد للمشركين، وإغراء للمسلمين بهم، ووعد بفتح مكة وقد أنجز الله - تعالى - وعده ففتح المسلمون مكة في السنة الثامنة من الهجرة.

وقوله - تعالى - : ﴿والفتنة أشد من القتل﴾. دفع لما قد يقع من بعض المسلمين من استعظام قتل المشركين في مكة.

والفتنة في الأصل: مصدر فتن الصائغ الذهب والفضة إذا أذابها بالنار ليستخرج الزائف منهم ثم استعملت في الابتلاء والامتحان والصرف عن الشيء، وأكثر استعمالها في التضليل والصد عن الدين، ثم على الكفر.

ويبدو أن المراد منها هنا ما كان يفعله المشركون مع المسلمين من التعذيب والصد عن الدين، والإخراج من الوطن، وغير ذلك من صنوف الأذى.

والمعنى : لا تقصروا في قتل المشركين الذين يقاتلونكم، والذين أخرجوكم من دياركم، فإن فنتتهم لكم بالإيذاء والتعذيب والصد عن الدين، أشد ضررا من قتلهم في أى مكان وجدوا به.

وبعضهم فسر الفتنة هنا بالشرك، أو بالرجوع إلى الكفر، أو بعذاب الآخرة، وقد بين ذلك صاحب الكشاف بقوله. وقوله : «والفتنة أشد من القتل» أى : المحنة والبلاء الذى ينزل بالإنسان يتعذب به أشد عليه من القتل وقيل لبعض الحكماء : ما أشد من الموت : قال : الذى يتمنى فيه الموت، جعل الإخراج من الوطن من الفتن والمحن التى يتمنى عندها الموت، ومنه قول القاتل :

القتل بحد السيف أهون موقعا على النفس من قتل بحد فراق

وقيل : «الفتنة» عذاب الآخرة قال - تعالى - ﴿ذوقوا فنتتكم﴾ وقيل : الشرك أعظم من القتل فى الحرم، وذلك أنهم كانوا يستعظمون القتل فى الحرم ويعيبون به المسلمين. فقيل : والشرك الذى هم عليه أشد وأعظم مما يستعظمونه ويجوز أن يراد : وفتنتهم إياكم بصدكم عن المسجد الحرام أشد من قتلهم إياهم فى الحرم، أو من قتلهم إياكم إن قتلوكم فلا تبالوا بقتالهم»^(١).

وإلى هنا تكون الآية الكريمة قد أذنت للمؤمنين فى قتل الذين يناجزونهم القتال دفعا لشهرهم أينما وجدوا.

ثم ساق الآية جملة أخرى نهت فيها المؤمنين عن قتال المشركين عند المسجد الحرام مراعاة لحرمته. مادام المشركون لم يقاتلهم بالقتال عنده، أما إذا فاتهم بالقتال فيه، فقد أصبح من حق المؤمنين أن يدافعوا عن أنفسهم، وأن يقاتلوا أعداءهم. وهذه الجملة هى قوله - تعالى - : ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم﴾.

أى : لا تقاتلوا أيها المؤمنون أعداءكم عند المسجد الحرام احتراما له حتى يبدأ المشركون قتالكم عنده فإن بدءوكم بالقتال فيه فلا حرج عليكم فى قتلهم عنده، لأن المنتهك حرمة المسجد الحرام إنما هو البادىء بالقتال فيه وهم المشركون، ولستم أنتم أيها المؤمنون لأن موقفكم إنما هو موقف المدافع عن نفسه.

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد حفظت للمسجد الحرام حرمة وهيبته ومكانته السامية لأن حرمة لذاته، وحرمة سائر الحرم من أجله، إلا أنها أذنت للمسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم إذا

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٣٦.

ما هاجهم المشركون عنده أو فيه .

قال ابن كثير ما ملخصه : وقد دلت الآية على الأمر بقتال المشركين في الحرم إذا بدأوا بالقتال فيه دفعا لوصولتهم، كما بايع النبي ﷺ أصحابه يوم الحديبية تحت الشجرة على القتال، لما تألبت عليه بطون قريش ومن والاهم من أحياء ثقيف والأحابيش عامئذ، ثم كف الله القتال بينهم فقال : ﴿وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾ (١).

وقال ﷺ لخالد بن الوليد ومن معه يوم الفتح : إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدهم حصداً حتى توافوني على الصفا . . فما عرض لهم أحد إلا أناموه وأصيب من المشركين نحو اثني عشر رجلاً (٢).

ولم يقل - سبحانه - فإن قاتلوكم فقاتلوهم، وإنما قال ﴿فإن قاتلوكم فاقتلوهم﴾ تبشيراً للمؤمنين بالغلبة عليهم، وإشعاراً بأن هؤلاء المشركين من الخذلان والضعف بحالة أمر الله المؤمنين معها بقتلهم لا بقتالهم فهم لضعفهم لا يحتاجون من المؤمنين إلا إلى القتل . وقوله : ﴿كذلك جزاء الكافرين﴾ تذييل لما قبله . واسم الإشارة ذلك يعود إلى قتل المقاتلين أينما وجدوا .

والجزاء : ما يقع في مقابلة الإحسان أو الإساءة، فيطلق على ما يثاب به المحسن، وعلى ما يعاقب به المسيء . والمراد به في الآية العقاب .

أى : مثل هذا الجزاء العادل من القتل والردع يجازى الله الكافرين الذين قاتلوا المؤمنين وأخرجوهم من ديارهم .

ثم فتح القرآن للكافرين الذين قاتلوا المسلمين التوبة فقال : ﴿فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم﴾ .

الانتهاء : أصله مطاوع نهي . يقال : نهاء فانتهى ثم توسع فيه فأطلق على الكف عن الشيء، لأن النهي هو طلب ترك الشيء .

أى : فإن انتهوا عن الكفر وعن مقاتلتكم فكفوا عنهم ولا تتعرضوا لهم فإن الله غفور رحيم . وكل من تاب من كفر أو معصية فشان الله معه أن يغفر له ويرحمه .

ونظير هذه الآية قوله - تعالى - : ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾ (٣) وإنما قلنا فإن انتهوا عن الكفر وعن القتال لأن سياق الحديث عن الكافرين المقاتلين للمؤمنين،

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٢٧ .

(٢) تفسير القاسمي ج ٢ ص ٤٧٦ .

(٣) تفسير الألوسي ج ٢ ص ٧٦ .

فيكون حمل الانتهاز على الأمرين معا أولى من حمله على القتال فحسب.

وقوله - تعالى - : ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله﴾ معطوف على جملة ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ والضمير «هم» يعود على الذين يقاتلون المسلمين وهم من سبق الحديث عنهم.

والمراد من ﴿الفتنة﴾ الشرك وما يتبعه من أذى المشركين للمسلمين واضطهادهم وتعذيبهم. قال الألوسي : ويؤيده أن مشركي العرب ليس في حقهم إلا الإسلام أو السيف. لقوله - سبحانه - : ﴿تقاتلونهم أو يسلمون﴾.

وفي الصحيحين عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قال : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله». والدين في اللغة : العادة والطاعة ثم استعمل فيما يتعبد به الله - تعالى - سواء أكان ما تعبد به صحيحاً أم باطلاً.

والمراد هنا: الدين الصحيح الذي شرعه الله لعباده على لسان نبيه محمد ﷺ ليتوصلوا به إلى الصلاح في الحال والفلاح في المال.

والمعنى : قاتلوا أولئك المشركين حتى تزيلوا الشرك، وحتى تكسروا شوكتهم ولا يستطيعوا أن يفتنوا طائفة من أهل الدين الحق، وحتى يكون الدين الظاهر في الأرض هو الدين الذي شرعه الله - تعالى - على لسان نبيه محمد ﷺ.

وقد تحقق ذلك بالقتال الذي دار بين المسلمين والمشركين في أكثر من عشرين غزوة قادها النبي ﷺ بنفسه، وفي أكثر من أربعين سرية بعث فيها أصحابه، وكانت ثمار هذه المعارك أن انتصر الحق وزهق الباطل. وقبل أن يلتحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى كان الدين الظاهر في جزيرة العرب هو دين الإسلام الذي جاء به الرسول ﷺ.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ والعدوان في أصل اللغة : الاعتداء والظلم الذي هو من الأفعال المحرمة والمراد به في الآية القتل حيث يرتكب جزاء للظالمين.

والفاء في قوله ﴿فإن انتهوا﴾ للتعقيب. وقوله : ﴿فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ قائم مقام جواب الشرط، لأنه علة الجواب المحذوف.

والمعنى : فإن امتنعوا عن قتالكم ولم يقدموا عليه، وأذعنوا لتعاليم الإسلام، فكفوا عن

قتالهم، لأنهم قد انتفى عنهم وصف الظلم، وما دام قد انتفى عنهم هذا الوصف فلا يصح أن تقاتلوهم، إذ القتال إنما يكون للظالمين تأديباً لهم ليرجعوا عن ظلمهم.

ففي الجملة الكريمة إيجاز بالحذف، واستغناء عن المحذوف بالتعليل الدال عليه.

قال الإمام الرازي: أما قوله - تعالى - : ﴿فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ ففيه وجهان:

الأول: فإن انتهوا فلا عدوان أي: فلا قتل إلا على الذين لا يتتهون عن الكفر، فإنهم بإصرارهم على كفرهم ظالمون لأنفسهم قال - تعالى - : ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾.

فإن قيل: لم سمي ذلك القتال عدواناً مع أنه في نفسه صواب؟ قلنا: لأن ذلك القتل جزء العدوان فصح إطلاق اسم العدوان عليه، كقوله - تعالى - : ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾.

الثاني: إن تعرضتم لهم بعد انتهائهم عن الشرك والقتال كنتم أنتم ظالمين، فتسلط عليكم من يعتدى عليكم^(١).

وقوله - تعالى - : ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام﴾ بيان للحكمة في إباحة القتال في الأشهر الحرم، وإيذان بأن مراعاة حرمة الشهر الحرام إنما هي واجبة في حق من يصون حرمة، أما من هتكها فقد صار بسبب انتهاكه لحرمة الشهر الحرام محلاً للقصاص والمعاقبة في الشهر وفي غيره.

وسمى الشهر الحرام لأنه يحرم فيه ما يحل في غيره من القتال ونحوه، والتعريف فيه - على الراجح - للجنس فهو يشمل الأشهر الحرم جميعها وهي أربعة: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب.

قال - تعالى - : ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم، ذلك الدين القيم، فلا تظلموا فيهن أنفسكم؛ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة، واعلموا أن الله مع المتقين﴾^(٢).

قال القرطبي: نزلت في عمرة القضاء، وذلك أن رسول الله ﷺ خرج معتمراً حتى بلغ الحديبية في ذي القعدة سنة ست، فصدّه المشركون كفار قريش عن البيت فانصرف ووعده - سبحانه - أنه سيدخله فدخله في ذي القعدة سنة سبع وقضى نسكه ونزلت هذه الآية^(٣).

والمعنى: هذا الشهر الحرام الذي تؤدون فيه عمرة القضاء، بذلك الشهر الحرام الذي صدكم المشركون فيه عن دخول المسجد الحرام، فإذا بدعوا بانتهاك حرمة بقتالكم فيه، فلا

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٥ ص ١٤٦.

(٢) سورة التوبة الآية ٣٦.

(٣) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣٥٥.

تبالوا أن تقاتلوهم فيه دفاعاً عن أنفسكم، إذ هم البادئون بهتك حرمة.

وقوله: ﴿والحرمات قصاص﴾ متضمن لإقامة الحجة على الحكم السابق والحرمات: جمع حرمة، وهي ما يحفظ ويرعى ولا يتهك.

والقصاص: المساواة. أي، وكل حرمة يجرى فيها القصاص. فمن هتك أية حرمة اقتص منه بأن تهتك له حرمة.

والمراد: أن المشركين إذا أقدموا على مقاتلتكم - أيها المؤمنون - في الحرم أو في الشهر الحرام، فقاتلوهم أنتم أيضاً على سبيل القصاص والمجازاة بالمثل، حتى لا يتخذوا الأشهر الحرم ذريعة للغدر والإضرار بكم.

ثم أكد - سبحانه - هذا المعنى بقوله: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾.

أي: فمن اعتدى عليكم وظلمكم فجازوه باعتدائه وقابلوه بمثل ما اعتدى عليكم بدون حيف أو تجاوز للحد الذي أباحه الله لكم.

وسمى جزاء الاعتداء اعتداء على سبيل المشاكلة.

قال الألوسي: واستدل الشافعي بالآية على أن القاتل يقتل بمثل ما قتل به من محدد أو خنق أو حرق أو تجويع أو تغريق. حتى لو ألقاه في ماء عذب لم يلق في ماء ملح. واستدل بها أيضاً على أن من غضب شيئاً وأتلفه لزمه رد مثله، ثم إن المثل قد يكون من طريق الصورة - كما في ذوات الأمثال - وقد يكون من طريق المعنى كالقيم فيما لا مثل له^(١).

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالأمر بالتقوى والخشية منه فقال: ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾.

أي: اتقوا الله وراقبوه في الانتصار لأنفسكم، وترك الاعتداء فيما لم يرخص لكم فيه، واعلموا أن الله مع الذين يمثلون أمره ويحبتون نبيه بالنصر والرعاية والتأييد.

ثم أمر الله - تعالى - المؤمنين ببذل المال من أجل إعلاء كلمته، ونصرة دينه، فقال: ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾.

قال الإمام الرازي: الإنفاق هو صرف المال إلى وجوه المصالح فلذلك لا يقال في المضيع: إنه منفق. فإذا قيد الإنفاق بذكر سبيل الله، فالمراد به طريق الدين، لأن السبيل هو الطريق،

(١) تفسير الألوسي ج ١ ص ٧٧.

وسبيل الله هو دينه، فكل ما أمر الله به في دينه من الإنفاق فهو داخل في الآية سواء أكان إنفاقاً في حج أو في صلة رحم أو غير ذلك، إلا أن الأقرب في هذه الآية - وقد تقدم ذكر الجهاد - أنه يراد به الإنفاق في الجهاد، وقوله ﴿في سبيل الله﴾ كالتنبيه على العلة في وجوب هذا الإنفاق، وذلك لأن المال مال الله فيجب انفاقه في سبيله، ولأن المؤمن إذا سمع ذكر الله اهتز ونشط فيسهل عليه إنفاق المال^(١).

﴿وتلقوا﴾ من الإلقاء وهو طرح الشيء من اليد.

قال الجمل: والباء في قوله: ﴿بأيديكم﴾ تحتل وجهين:

أحدهما: أنها زائدة في المفعول به لأن ألقى يتعدى بنفسه، قال - تعالى - : ﴿فألقى عصاه﴾.

والثاني: أن يضمن ألقى معنى فعل يتعدى بالباء فيتعدى تعديته فيكون المفعول به في الحقيقة هو المجرور بالباء تقديره، ولا تفضوا بأيديكم إلى التهلكة كقوله: أفضيت بجنبي إلى الأرض أى: طرحته على الأرض^(٢).

والمراد بالأيدى: الأنفس، من باب ذكر الجزء وإرادة الكل، لأن أكثر ظهور أفعال النفس تكون عن طريق اليد.

والتهلكة: الهلاك والموت. أو كل شيء تصير عاقبته إليه. مصدر هلك يهلك هلكاً وهلاكاً وتهلكة.

والجملة الكريمة معطوفة على جملة ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم...﴾ الخ، لأنهم لما أمروا بقتال عدوهم، وكان أوفر منهم عدة وعدداً، كلفهم بالاستعداد له عن طريق إنفاق الكثير من أموالهم في سبيل إعلاء كلمة الله لأن هذا الإنفاق من أقوى الوسائل التي توصل إلى النصر.

والمعنى: عليكم، أيها المؤمنون - أن تقاتلوا في سبيل الله من قاتلكم، وأن تنفقوا من أجل إعلاء كلمة الله أموالكم، ولا تلقوا أنفسكم فيما فيه هلاككم في دين أو دنيا، بسبب ترككم الجهاد وبخلكم عن الإنفاق فيه مع القدرة على ذلك.

ويشهد لهذا المعنى ما أخرجه الترمذى وغيره عن أبي عمران قال: كنا بمدينة الروم القسطنطينية - فأخرجوا إلينا صفا عظيماً من الروم. فخرج إليهم من المسلمين مثلهم فحمل

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٥ ص ١٤٨ بتصرف وتلخيص.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ١٥٥.

رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم، فصاح الناس وقالوا: سبحان الله يلقي بيديه إلى التهلكة!! فقام أبو أيوب الأنصاري فقال: يا أيها الناس إنكم لتؤولون هذه الآية هذا التأويل، وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار. لما أعز الله الإسلام وكثرنا صروه، فقال بعضنا لبعض سرًا - دون رسول الله ﷺ إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعز الإسلام، وكثرنا صروه، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله - تعالى - على نبيه يرد علينا ما قلناه ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾. فكانت التهلكة الإقامة على الأموال، وإصلاحها، وتركنا الغزو.

قال الراوى: فما زال أبو أيوب شاخصًا في سبيل الله حتى دفن بأرض الروم.

فالآية الكريمة تأمر المؤمنين بأن يبذلوا أموالهم في الجهاد في سبيل الله بصفة خاصة، وفي كل موطن من مواطن الخير بصفة عامة، لأن عدم البذل في سبيل الخير يؤدي إلى ضعف الأمة واضملاها.

ثم ختم - سبحانه - الآية بالترغيب في الإحسان فقال: ﴿وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾ أى: أحسنوا كل أعمالكم وأتقنوها، لأنه - سبحانه - يحب المحسنين في كل شئوهم، ويشبههم على ذلك بما يسعدهم في دينهم ودنياهم.

هذا، وتأمل معى - أيها القارئ الكريم - في هذه الآيات تراها قد رسمت أحكم منهاج وأعدله في شأن الحرب والسلم.

إنها تأمر المؤمنين أن يجاهدوا أعداءهم الذين بدؤهم بالقتال، وأن يقتلوهم حيث وجدوهم. ويخرجوهم من حيث أخرجوهم، كما تأمرهم أن يبذلوا أموالهم في سبيل الله بدون إمساك أو بخل، وهذا من أقوى أنواع الحض على الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله.

ولكنها في الوقت نفسه تنهاهم عن الاعتداء، وتنهاهم عن القتال في الأشهر الحرم وفي الأماكن المقدسة إلا إذا قاتلهم المشركون فيها، كما تنهاهم عن قتالهم إذا ما انتهوا عن عدوانهم وكفرهم، لأن شريعة القرآن تستجيب لداعى السلم متى كف المعتدون عن العدوان، وأحترموا كلمة الإسلام.

وبذلك نرى أن القتال في الإسلام ليس من أجل الغنائم، أو الاستغلال أو الاستعباد، أو التباهى.. كلا ليس لأجل شئ من هذا، وإنما هو من أجل الدفاع عن الحق وأهله، حتى تكون كلمته هى العليا وكلمة الباطل هى السفلى، وبهذا تسعد الإنسانية، وتنال ما تصبو إليه من عزة وفلاح.

وبعد هذا الحديث المحكم عن القتال في سبيل الله، وبيان أحكامه بالنسبة للأشهر الحرم وللبيت الحرام، ساق القرآن في بضع آيات جملة من الأحكام والآداب التي تتعلق بفريضة الحج، إذ القتال جهاد لحماية الأمة الإسلامية من الخارج، والحج جهاد لتهديب النفس وحماية الأمة من الداخل عن طريق تجميع أبنائها على اختلاف ديارهم في مكان واحد ليشهدوا منافع لهم، وليتعاونوا على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان. استمع إلى سورة البقرة وهي تحدثك عن بعض أحكام الحج وآدابه فتقول:

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ
 فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ
 الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ۚ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ
 مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَن تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ
 فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ
 إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ۚ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي
 الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

تعتبر هذه الآية الكريمة من أجمع الآيات التي وردت في القرآن الكريم مبينة ما يتعلق بأحكام الحج وآدابه، وسنحاول - بعون الله - أن نبين ما اشتملت عليه من آداب سامية، وتوجيهات حكيمة، بأسلوب هو إلى الإيجاز أقرب منه إلى الإسهاب والإطناب، قاصدين عدم التعرض لتفريعات الفقهاء واختلافاتهم إلا بالقدر الذي يقتضيه المقام.

والحج في اللغة: القصد يقال حج فلان الشيء: إذا قصده مرة بعد أخرى.

وفي الشرع: القصد لزيارة بيت الله الحرام في وقت مخصوص بأفعال مخصوصة، وبكيفية مخصوصة، بينها الشريعة الإسلامية.

والعمرة في اللغة: الزيارة، مأخوذة من العمارة التي هي ضد الخراب ثم أطلقت على الزيارة التي يقصد بها عمارة المكان.

وفي الشرع : زيارة بيت الله الحرام للتقرب إليه، وقد بين النبي ﷺ أركانها وشروطها وكيفيةها.

وقد كانت شعيرة الحج والعمرة معروفتين عند العرب قبل الإسلام، ولكن بأفعال وبكيفية فيها الكثير من الأباطيل والأوهام، فجاءت شريعة الإسلام فوضعت لها أفضل الأحكام، وأسمى الآداب، وأمر النبي ﷺ المسلمين أن يسيروا في أدائها على الطريقة التي سار عليها فقال : «خذوا عني مناسككم».

قال ابن كثير : «وقد ثبت أن رسول الله ﷺ اعتمر أربع عمر كلها في ذى القعدة عمرة الحديبية في ذى القعدة سنة ست، وعمرة القضاء في ذى القعدة سنة سبع، وعمرة الجعرانة في ذى القعدة سنة ثمان، وعمرته التي مع حجته أحرم بها معاً في ذى القعدة سنة عشر. وما اعتمر في غير ذلك بعد هجرته»^(١).

وقد اختلف العلماء في المقصود من الإتمام في قوله - تعالى - : ﴿وَأَتَمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ فبعضهم يرى أن المراد بإتمامها : إقامتها وإيجادهما وإنشاءهما فيكون المعنى : أقيموا الحج والعمرة لله : أي أدوها واثتوا بها. فالأمر في «أتموا» منصب على الإنشاء والأداء. فهو كقوله - تعالى - : ﴿ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ وأصحاب هذا الرأي يرون أن العمرة واجبة كالحج، لأن الله - تعالى - أمر بها معاً، ولأن الرسول ﷺ قال : «تابعوا بين الحج والعمرة...». وإلى هذا الرأي أتجه سعيد بن جبير، وعطاء، وسفيان الثوري، والشافعية.

ويرى كثير من الصحابة والتابعين والفقهاء كالأحناف والمالكية - أن المراد بإتمامها : الإتيان بها تامين بمناسكها المشروعة لوجه الله - تعالى - وأن على المسلم إذا شرع فيهما أو في أحدهما أن يتمه ويأتى به كاملاً، كما فعل النبي ﷺ وأصحابه في عمرة القضاء. فيكون المعنى : اثتوا بالحج والعمرة كاملي الأركان والشروط والآداب خالصين لوجه الله - تعالى -.

فالأمر على هذا الرأي منصب على الإتمام لا على أصل الأداء.

وأصحابه يرون أن العمرة ليست واجبة كالحج لعدم قيام الدليل على وجوبها، وليس في الآية ما يفيد الوجوب، بل فيها ما يفيد وجوب الإتمام إن شرع فيهما أو في أحدهما. وفرضية الحج إنما ثبتت بقوله - تعالى - : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾. وأيضاً، فإن أركان العمرة وأفعالها تدخل في ثنايا أفعال الحج وأركانه، ولذلك ورد في الحديث

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٣٠.

الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة » إلى غير ذلك من الأدلة التي ساقها كل فريق لتدعيم رأيه .

ومجمل القول أن فرضية الحج مجمع عليها بين العلماء، وأما فرضية العمرة ففيها خلاف، انتصر كثير من العلماء فيه للرأى القائل بأنها ليست فرضاً كالحج، بل هي سنة .

وقد كانت فرضية الحج في السنة التاسعة من الهجرة على أرجح الروايات . ويرى بعض العلماء أن الحج قد فرض قبل ذلك، إلا أن تنفيذه لم يتم إلا في السنة التاسعة عندما أرسل النبي ﷺ أبا بكر أميراً على الحج، وكان ذلك تمهيداً لحجه ﷺ سنة عشر .

وقد أمر - سبحانه - بإتمام الحج والعمرة لله دون غيره لأن العرب كانت تقصد الحج للاجتماع والتظاهر، والتفاخر، وقضاء الحوائج، وحضور الأسواق، دون أن يكون لله - تعالى - فيه حظ يقصد، ولا قربة تعتقد، فأمر - سبحانه - المسلمين أن ينزهوا عباداتهم - وخصوصاً الحج - عن الأقوال السيئة، والأفعال القبيحة، وأن يقصدوا بأداء ما كلفهم الله به الإخلاص والطاعة له - سبحانه - .

وبعد أن أمر الله - تعالى - عباده بأن يتموا الحج والعمرة له، أردف ذلك ببيان ما يجب عليهم عمله فيما لو حال حائل بينهم وبين إتمامها فقال : ﴿ فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ والإحصار والحصر في اللغة : بمعنى الحبس والمنع والتضييق سواء أكان بسبب عدو أو مرض أو جور سلطان أو ما يشبه ذلك . قال - تعالى - في شأن قتال المشركين : ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحَرَامُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصِرُوهُمْ ﴾ (١) أى : ضيقوا عليهم المتنافذ . ويقال للذى لا ييوج بسره : حصر؛ لأنه حبس نفسه عن البوح بسره .

ويرى بعض علماء اللغة أن الإحصار يكون الحبس والمنع فيه من ذات الشخص كالمرض وذهاب النفقة، وأما الحصر فيكون الحبس والمنع فيه لا من ذات الشخص، بل بسبب أمر خارجي كالعدو ونحوه .

﴿ والهدى ﴾ : - بتخفيف الياء وتشديدها - مصدر بمعنى المفعول، أى : المهدى والمراد به ما يهدى إلى بيت الله الحرام من الإبل والبقرة والشاة ليذبح تقرباً إلى الله - تعالى - .
 ﴿ استيسر ﴾ هنا بمعنى يسر وتيسر أى : ما أمكن تحصيله من الهدى بدون مشقة أو تعب .
 والمعنى : أتموا - أيها المؤمنون - الحج والعمرة لله متى قدرتم على ذلك، فإن ﴿ أحصرتكم ﴾

(١) سورة التوبة الآية ٥ .

أى، منعتهم بعد الإحرام من الوصول إلى البيت الحرام بسبب عدو أو مرض أو نحوهما، فعليكم إذا أردتم التحلل من الإحرام أن تذبحوا ما تيسر لكم من الهدى.

وبعض العلماء - كالشافعية والمالكية - يرون أن المراد بالإحصار في الآية ما كان بسبب عدو، كما حدث للمسلمين في صلح الحديبية، أما إذا كان الإحصار بسبب مرض، فإن الحاج أو المعتمر يبقى على إحرامه حتى يبرأ من مرضه ثم يذهب إلى البيت فيطوف به سبعا، ويسعى بين الصفا والمروة، وبهذا يتحلل من عمرته أو حجه، ولا يتحلل بالذبح، إذ التحلل بالذبح عندهم لا يكون إلا في حالة الإحصار بسبب العدو. أما الأحناف فيرون أن الإحصار سواء أكان بسبب عدو أو مرض أو ما يشبههما فإنه يسوغ التحلل بالذبح، إذ الآية عندهم تعم كل منع، وعلى من أحصر أن يقضى الحج أو العمرة فيما بعد.

وفي هذه الجملة الكريمة تقرير للمبادئ التي جاءت بها شريعة الإسلام تلك المبادئ التي تتوخى في كل شئونها التيسير لا التعسير، والرفق لا التشديد قال - تعالى - : ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾^(١) وقال - تعالى - : ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾^(٢). ثم قال - تعالى - : ﴿ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله﴾.

حلق الرأس أو تقصيرها علامة على الانتهاء من الإحرام، كما أن التسليم علامة الانتهاء من الصلاة، أو علامة قطعها عند الاضطرار إلى ذلك. والحلق بالنسبة للرجال أفضل من التقصير، فقد أخرج الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «اللهم اغفر للمحلقين. قالوا: يارسول الله وللمقصرين. قال: اللهم اغفر للمحلقين. قالوا: يارسول الله وللمقصرين. قال: وللمقصرين»^(١). أما بالنسبة للنساء فيكفي التقصير.

والمحل : اسم لزمان الحلول أو مكانه. يقال : بلغ الدين محله إذا حل وقت أدائه، كما يقال : بلغ الشخص محله إذا وصل إلى المكان الذي ينزل به. قال الألوسي : وكون المراد بالمحل هنا المكان هو الظاهر في الآية.

والمعنى : أتموا الحج والعمرة لله، فإن منعتهم من إتمامها وأنتم محرمون فعليكم إذا أردتم التحلل أن تذبحوا ما تيسر لكم من الهدى، ولا تتحللوا من إحرامكم بالحلق حتى تعلموا أن الهدى المبعوث قد بلغ مكانه الذي يجب أن يراق فيه دمه، وهو الحرم.

(١) سورة البقرة الآية ١٨٥.

(٢) سورة الحج الآية ٧٨.

(١) الترغيب والترهيب للمنذرى ج ٢ ص ٢٠٨.

وهذا رأى الأحناف، فقد قرروا أن المراد بالمحل البيت الحرام، فهو اسم مكان، لأن الله - تعالى - قد قال في آية أخرى: ﴿ثم محلها إلى البيت العتيق﴾^(١)، وعليه فلا يجوز للمحصر أن يملق ويتحلل إلا بعد أن يصل الهدى الذي يرسله إلى البيت الحرام ويذبح.

أما جمهور الفقهاء فيرون أن محل الهدى للمحصر هو المكان الذي حدث فيه الإحصار، ودليلهم أن الرسول ﷺ قد نحر هو وأصحابه هديهم بالحديبية وهي ليست من الحرم، وذلك عندما منعه المشركون من دخول مكة.

وقد أجاز الأحناف على ذلك بأن محصر رسول الله ﷺ كما يقول الألوسي -^(٢) كان في طريق الحديبية بأسفل مكة، والحديبية متصلة بالحرم.

وعلى رأى جمهور الفقهاء يكون المعنى: ولا تتحللوا من إحرامكم بالحلقة حتى تذبحوا الهدى في الموضع الذي أحصرتم فيه، فإذا تم الذبح فاحلقوا وتحللوا. والخطاب على كلا المعنيين يكون للمحصرين، لأنه أقرب مذكور.

ويرى المحققون من العلماء أن رأى جمهور الفقهاء أكثر اتفاقاً مع السنة النبوية، وفيه تسهيل على المحصرين، والمناسب لهم هو التيسير لا التعسير، ولا شك أن ذبحهم هديهم في مكان إحصارهم أيسر لهم، وحملوا قوله - تعالى - : ﴿ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله﴾ على أنه خطاب عام لجميع المكلفين لا فرق بين محصر وغير محصر، وأن المقصود من الجملة الكريمة هو البيان العام لمكان التحلل وزمانه، أما مكان الذبح عند الإحصار فقد بينه النبي ﷺ بذبحه هديه في الحديبية وهي ليست من الحرم عند المحققين.

قال الإمام الرازى: ومنشأ الخلاف البحث في تفسير هذه الآية، فقد قال الشافعى وغيره: المحل في هذه الآية اسم للزمان الذى يحصل فيه التحلل وقال أبو حنيفة: إنه اسم للمكان^(٣).

وبعد أن بين - سبحانه - أن الحلقة لا يجوز للمحصر ما دام مستمراً على إحرامه، أردف ذلك بيان بعض الحالات التى يجوز فيها للمحصر أن يملق رأسه مع استمراره على إحرامه فقال - تعالى - : ﴿فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه، ففدية من صيام أو صدقة أو نسك﴾.

أى: فمن كان منكم - أيها المحرمون - مريضاً بمرض يضطر معه إلى الحلقة، أو كان به أذى

(١) سورة الحج الآية ٣٣.

(٢) تفسير الألوسى ج ٢ ص ٨١.

(٣) تفسير الفخر الرازى ج ٥ ص ١٦٣.

من رأسه كجراحة وحشرات مؤذية، فعليه إن حلق فدية من صيام أو صدقة أو نسك.
وقوله: ﴿فقدية﴾ مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف. أى: فعليه فدية، وأيضاً ففيه إضمار
آخر والتقدير: فحلق فعليه فدية.

والفدية: هي العوض عن الشيء الجليل النفيس. ولا ريب أن محرمات الحج والعمرة أمور
لها جلالها وعظمتها.

وعبر - سبحانه - هنا بالفدية دون الكفارة، لأن الذي به مرض أو أذى من رأسه لم يرتكب
ذنباً أو إثماً حتى يكفر عنه.

قال القرطبي: والنسك: جمع نسيكه، وهي الذبيحة ينسكها العبد لله - تعالى - وتكون
من الإبل والبقر والغنم - ويجمع - أيضاً - على نسائك. والنسك: العبادة في الأصل، ومنه
قوله - تعالى - : ﴿وأرنا مناسكنا﴾ أى: متعبداتنا. وقيل: أصل النسك في اللغة الغسل؛
ومنه نسك ثوبه إذا غسله، فكان العابد غسل نفسه من أدران الذنوب بالعبادة. وقيل: النسك
سبائك الفضة التي خلصت من الخبث، كل سبيكة منها نسيكة، فكان العابد خلص نفسه
من دنس الآثام^(١).

وقوله - تعالى - : ﴿من صيام أو صدقة أو نسك﴾ بيان لجنس الفدية.

وقد بين النبي ﷺ مقدار هذه الفدية، فقد روى الشيخان عن كعب بن عجرة الأنصاري
قال: حملت إلى النبي ﷺ والقمل يتناثر على وجهي فقال: ما كنت أرى أن الجهد قد بلغ بك
هذا. .. أما تجد شاة؟ قلت: لا!! قال: صم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين
نصف صاع من طعام واحلق رأسك. فنزلت في خاصة وهي لكم عامة.

فقد بين النبي ﷺ مقدار الفدية في هذا الحديث، وعامة العلماء يرون أن المحرم لعذر كهذا
يخير في هذا المقام، إن شاء صام وإن شاء تصدق وإن شاء ذبح شاة وتصدق بها على المساكين.
قال ابن كثير: ولما كان لفظ القرآن في بيان الرخصة جاء بالأسهل فالأسهل، ولما أمر النبي
ﷺ كعب بن عجرة بذلك أرشده أولاً إلى الأفضل فقال: أما تجد شاه؟ فكل حسن في
مقامه^(٢).

وبعد أن بين - سبحانه - كيفية التحلل عند الإحصار، وكيفية التحلل الجزئي من بعض

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣٨٦.

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٣٣.

المحرمات عند المرض، عقب ذلك ببيان كيفية التحلل في حالة الأمن فقال: ﴿فإذا أمتمتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتن، تلك عشرة كاملة﴾.

وقوله: ﴿فإذا أمتمتم﴾ الأمن ضد الخوف. أى: فإذا زال خوفكم وثبت أمنكم والجملة معطوفة على قوله ﴿أحصرتم﴾ وجرىء بإذا لأن فعل الشرط وهو ﴿أمتمتم﴾ مرغوب فيه. وقوله: ﴿فمن تمتع﴾ جواب إذا. والتمتع في اللغة - كما قال الإمام الرازى - التلذذ. يقال: تمتع بالشيء إذا تلذذ به. والمتاع كل شيء يتمتع به، وأصله من قوهم: حبل ممتع، أى: طويل. وكل من طالت صحبته مع الشيء فهو ممتع به^(١).

والمراد بالتمتع في الآية المعنى الشرعى بأن يجمع المسلم بين العمرة والحج في عام واحد في أشهر الحج، بأن يحرم بالعمرة أولاً ثم بالحج.

وسمى هذا النوع من الإحرام تمتعاً، لأن المحرم به يجمع بين متعة الروح ومتعة الجسد. لأنه يحرم بالعمرة أولاً ويقوم بمناسكها وتلك متعة روحية وبعد الانتهاء من أدائها يتحلل فيجوز له أن يقرب النساء ويمس الطيب حتى يحرم بالحج وتلك متعة بدينية. وهناك نوعان آخران من الإحرام.

أحدهما: الأفراد ومعناه: أن يحرم بالحج فقط ولا يجمع معه العمرة، وإنما يأتي بها في وقت آخر.

وثانيهما: القرآن ومعناه: أن يجمع بين العمرة والحج في إحرام واحد، بأن يبقى على إحرامه ويأتى بمناسك الحج والعمرة بالإحرام نفسه.

والمعنى: فإذا ثبت أمنكم - أيها المسلمون - عند أدائكم للحج والعمرة، فمن تمتع منكم بالعمرة إلى الحج، بأن أحرم بها في أشهر الحج، ثم بعد الانتهاء من أعمالها تحلل بأن حلق رأسه، وبأشهر أهله إن كانوا معه، وانتظر متحللاً وصار من حقه أن يفعل كل ما يفعله من ليس محرماً إلى وقت الإحرام بالحج، فعليه في هذه الحالة أن يذبح ما تيسر له من الهدى من غنم أو بقر أو إبل ليكون هذا الذبح شكراً لله حيث وفقه - سبحانه - للجمع بين النسكين مع التمتع بينهما بأفعال المتحلل، فمن لم يجد ما يذبحه فعليه أن يصوم ثلاثة أيام في وقت الحج وأن يصوم سبعة أيام بعد فراغه منه.

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٥ ص ١٦٧ طبعة عبد الرحمن محمد.

وقوله: ﴿فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام...﴾ معطوف على ﴿فمن تمتع بالعمرة...﴾ لأن ﴿فمن تمتع﴾ مع جوابه وهو ﴿فما استيسر...﴾ مقدر فيه معنى فمن تمتع واجداً الهدى، فعطف عليه فمن لم يجد أى الهدى.

وقد جعل - سبحانه - الصيام بدلا عن الهدى زيادة في الرخصة والرحمة وزيادة في الرفق والتيسير فقد جعله على مرحلتين:

إحداهما: - وهى الأقل - تكون في وقت الحج، ويفضل كثير من الفقهاء أن يصوم سادس ذى الحجة وسابعه وثامنه.

وثانيتها: - وهى الأكثر - تكون بعد الرجوع إلى أهله حيث يطمئن ويستقر وتذهب مشقة السفر فيصوم سبعة أيام.

وبعض الفقهاء يرى جواز الصيام عند الأخذ في الرجوع بعد الفراغ من أعمال الحج، ويرجح الوجه الأول ما رواه الشيخان من حديث ابن عمر وفيه: «فمن لم يجد هديا فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله»^(١).

والإشارة في قوله - تعالى - : ﴿تلك عشرة كاملة﴾ إلى الثلاثة والسبعة. ومميز العدد محذوف أى: أيام. والجملة مؤكدة لما أفاده قوله: ﴿فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعت﴾ وفائدة هذا التأكيد دفع توهم أن الواو بمعنى أو، أو أن السبعة كناية عن مطلق كثرة العدد، وبذلك يتقرر الحكم نصاً، ويتبين أن الذى يجل محل النسك إنما هو العشرة الكاملة وليس بعضها.

ووصف العشرة بأنها كاملة، للتنبؤ به أن هذا الصوم طريق الكمال لأعمال الحج، وأن الحاج إذا نسى بعضها لا يكون حجه تاما حتى يصوم ما أمره الله - تعالى - به.

وقوله: ﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ الإشارة فيه تعود إلى التمتع المفهوم من قوله - تعالى - : ﴿فمن تمتع بالعمرة إلى الحج...﴾ الخ.

أى: ذلك التمتع الذى يتمتع فيه المحرم بين التمسك، إنما هو للشخص الذى ليس أهله من المقيمين في مكة وما حولها، لأن المقيمين في مكة وما حولها يفردون ولا يجتمعون، إذ العمرة في إمكانهم أن يؤدوها طول أيام السنة.

وقد شرع - سبحانه - التمتع ليكون تيسيراً ورفقاً للمقيمين بعيداً عن مكة هذا رأى الأحناف.

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٣٤.

ويرى الشافعية : أن أهل مكة وما حولها يقرون ويتمتعون كغيرهم من أهل الأفاق، وأن اسم الإشارة في الجملة الكريمة يعود إلى النسك وما يقوم مقامه من الصوم لأنه أقرب مذكور. وعلى رأيهم يكون المعنى : ذلك الذبح لما تيسر من الهدى والصيام لمن لم يتيسر له الهدى وإنما هو على سكان الأفاق، لا على سكان مكة وما حولها، لأن سكان مكة وما حولها قد أحرموا لتمتعهم من الميقات فلا يجب عليهم شيء.

والمراد بحاضري المسجد الحرام : أهل مكة وأهل الحل الذين منازلهم داخل الموقيت عند الحنفية. وقال المالكية : هم أهل مكة خاصة. وقال الشافعية : هم أهل مكة ومن كان بينه وبين مكة مسافة لا تقصر فيها الصلاة. ولكل أدلته المفصلة في كتب الفقه.

ثم ختم - سبحانه - الآية بالأمر بتقواه وبالتحذير من عقابه فقال : ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب﴾.

أى : واتقوا الله في كل ما يأمركم به وينهاكم عنه، واعلموا أن الله شديد العقاب لمن لم يخشه ولم يلتزم حدوده.

وفي هذا الأمر بالتقوى في ختام هذه الآية التي تحدثت عن الحج إشعار بأن هذه الفريضة ليست العبرة فيها بما عمله الجوارح وإنما العبرة بما تتركه في القلوب من توبة صادقة، وصيانة للنفس عن اقتراف المحارم.

وفي قوله : ﴿واعلموا﴾ اهتمام بالخبر، وتحقيق لمضمونه، وترهيب من العقاب مع الترغيب بالثواب، فقد جرت عادة الناس أنهم يصلحون بالثواب والعقاب.

هذا، وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على بعض الأحكام التي تتعلق بالحج والعمرة، والمتدبر في هذه الأحكام يراها قد امتازت بأحكام ضروب التوجيه، وأيسر أنواع التكليف.

ثم بين - سبحانه - وقت الحج وما يجب على المسلم عند أدائه لهذه الفريضة من آداب فقال - تعالى - :

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ
وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ
يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ
يَأْتُوا لِيَأْتِيَ الْأَبْيَابَ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ

تَبَتَّغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ
عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ
وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ
لِمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ
النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾
فَإِذَا قَضَيْتُمْ مِنْ سِكِّكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ
ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ
يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا وَمَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ
خَلْقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا
حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾
أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾
﴿٢٠٣﴾ وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي
يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى
وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٤﴾

وقوله : ﴿الحج أشهر معلومات﴾ .

أى : وقت الحج أشهر معلومات أو أشهر الحج أشهر معلومات فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه .

وجعلت النسبة إلى الحج نفسه لا إلى وقته ، للإشعار بأن هذه الأشهر لكونها تؤدي فيها هذه الفريضة قد اكتسبت تقديساً وبركة منها ، حتى لكان هذه الأشهر هي الفريضة نفسها .

قال القرطبي ما ملخصه : وأشهر الحج هي شوال وذو القعدة والعشرة الأولى من ذى الحجة . وقيل هي شوال وذو القعدة وذو الحجة كله وفائدة الفرق تعلق الدم ؛ فمن قال : إن ذى الحجة كله من أشهر الحج لم يوجب دماً على من أخرج طواف الإفاضة إلى آخر ذى الحجة لأنه وقع في أشهر الحج ، ومن قال بأن وقت الحج ينقضى بالعشرة الأولى من ذى الحجة يوجب الدم عليه لتأخيره عن وقته . ولفظ الأشهر قد يقع على شهرين وبعض الثالث ، لأن بعض الشهر ينزل منزلة كله ، كما يقال : رأيتك سنة كذا ولعله إنما رآه في ساعة منها^(١) .

وعبر - سبحانه - عن هذه الأشهر بأنها معلومات ، لأن العرب كانوا يعرفون أشهر الحج من كل عام منذ عهد إبراهيم - عليه السلام - وقد جاء الإسلام مقررًا لما عرفوه . أو المراد بكونها معلومات أنها مؤقتة بأوقات معينة لا يجوز تقديمها ولا تأخيرها عنها ، وهو يتضمن بطلان النسيء الذى كان يفعله الجاهليون تبعًا لأهوائهم .

وقوله : ﴿فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج﴾ بيان لما يجب أن يتحلى به المسلم من فضائل عند أدائه لهذه الفريضة .

قال الإمام الرازى : ومعنى ﴿فرض﴾ في اللغة ألزم وأوجب . يقال : فرضت عليك كذا ، أى أوجبتة . وأصل معنى الفرض في اللغة الحز الذى يقع فيه الوتر ، ومنه فرض الصلاة وغيرها لأنها لازمة للعبد كلزوم الحز للقدح ففرض هنا بمعنى أوجب وألزم^(٢) .

والرفث في الأصل : الفحش من القول . والمراد به هنا الجماع . أو الكلام المتضمن لما يستقبح ذكره من الجماع ودواعيه .

قال القرطبي : وأجمع العلماء على أن الجماع قبل الوقوف بعرفة مفسد للحج وعليه حج قابل والهدى .

والفسوق : الخروج عن طاعة الله بارتكاب المعاصي ، ومن ذلك السباب وفعل محظورات الإحرام ، وغير ذلك مما نهى الله عنه ،

والجدال على وزن فعال من المجادلة وهي مشتقة من الجدل وهو القتل ومنه : زمام مجدول . وقيل : هي مشتقة من الجدالة التي هي الأرض . فكأن كل واحد من الخصمين يقاوم صاحبه حتى يغلبه ، فيكون كمن ضرب به الجدالة .

والمراد النهي عن المماراة والمنازعة التي تؤدي إلى البغضاء وتغير القلوب .

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٤٠٥ .

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ٥ ص ١٧٨ .

والمعنى : أوقات الحج أشهر معلومات فمن نوى وأوجب على نفسه فيهن الحج وأحرم به فعله أن يجتنب الجماع للنساء ودواعيه؛ وأن يتعد عن كل قول أو فعل يكون خارجاً عن آداب الإسلام، ومؤدياً إلى التنازع بين الرفقاء والإخوان، فإن الجميع قد اجتمعوا على مائدة الرحمن، فعليهم أن يجتمعوا على طاعته، وأن يتعاونوا على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

روى الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه ».

قال الألويسي : وقال - سبحانه - ﴿ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ﴾ بالإظهار ولم يقل فيه مع أن المقام يقتضى الإضمار، لإظهار كمال الاعتناء بشأنه، وللإشعار بعلّة الحكم، فإن زيارة البيت المعظم والتقرب بها إلى الله - تعالى - من موجبات ترك الأمور المذكورة المدنسة لمن قصد السير والسلوك إلى ملك الملوك. وإيثار النفي للمبالغة في النهي، والدلالة على أنها حقيقة بأن لا تكون فإن ما كان منكراً مستقبلاً في نفسه منهيّاً عنه مطلقاً فهو للمحرم بأشرف العبادات وأشقها أنكر وأقبح^(١).

والضمير في قوله : ﴿ فيهن ﴾ للأشهر، لأنه جمع لغير العاقل فيجرى على التأنيث. وجملة ﴿ فلا رفث ﴾ . . . إلخ في محل جزم جواب من الشرطية والرباط بين جملة الشرط والجواب ما في معنى ﴿ فلا رفث ﴾ من ضمير يعود على « من »، لأن التقدير فلا يرفث. ويجوز أن تكون جملة ﴿ فلا رفث ﴾ . . . وما عطف عليها في محل رفع خبر لمن على أنها موصولة.

وقد أخذ الشافعية من هذه الآية أنه لا يجوز الإحرام بالحج في غير أشهر الحج لأن الإحرام به في غير أشهره يكون شروئاً في العبادة في غير وقتها فلا تصح ويرى الأحناف والحنابلة، أنه يجوز الإحرام بالحج قبل أشهره ولكنه مع الكراهة : والإمام مالك لا يرى كراهة في ذلك.

ويبدو أن رأى الشافعية هنا أرجح، لأن قوله - تعالى - : ﴿ فمن فرض فيهن الحج ﴾ . . . يشهد لهم، فقد جعل - سبحانه - هذه الأشهر وعاء لهذه الفريضة وظرفاً لها.

وقوله : ﴿ وما تفعلوا من خير يعلمه الله ﴾ حض على فعل الخير عقيب النهي عن فعل الشر. أى : اتركوا الأقوال والأفعال القبيحة، وسارعوا إلى الأعمال الصالحة خصوصاً في تلك

الأزمة والأمكنة المفضلة، والله - تعالى - لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، وهو - سبحانه - سيجازيكم على فعل الخير بما تستحقون من جزاء.

ثم قال - تعالى - : ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾.

قال الإمام الرازي : في هذه الجملة الكريمة قولان :

أحدهما : أن المراد وتزودوا من التقوى - أى الأعمال الصالحة - والدليل عليه قوله بعد ذلك ﴿فإن خير الزاد التقوى﴾ وتحقيق الكلام فيه أن الإنسان له سفران : سفر في الدنيا وسفر من الدنيا، فالسفر في الدنيا لا يبد له من زاد وهو الطعام والشراب والمال . . الخ . والسفر من الدنيا لا يبد له أيضاً من زاد وهو معرفة الله ومحبته والإعراض عما سواه، وهذا الزاد خير من الزاد الأول لأن زاد الدنيا يخلصك من عذاب منقطع وزاد الآخرة يخلصك من عذاب دائم . . قال الأعمش مقرأً هذا المعنى :

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ولا تبت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثلها وأنت لم ترصد بما كان أرصدا

والقول الثانى : أن هذه الآية نزلت في أناس من أهل اليمن كانوا يجنون بغير زاد ويقولون إنا متوكلون، ثم كانوا يسألون الناس، وربما ظلموا الناس وغضبهم فأمرهم الله - تعالى - أن يتزودوا بالمال والطعام الذى يغنيهم عن سؤال الناس^(١).

والذى نراه أن الجملة الكريمة تسع القولين. فهى تدعو الناس إلى أن يتزودوا بالزاد المعنوى النفسى الذى يسعدهم ألا وهو تقوى الله وامثال أوامره واجتناب نواهيه والاكتثار من العمل الصالح وفي الوقت نفسه هى تأمرهم - أيضاً - بأن يتزودوا بالزاد المادى الحقيقى الذى يغنيهم عن سؤال الناس، ويصون لهم ماء وجوههم.

وبذلك نكون قد استعملنا اللفظ في حقيقته ومجازه، وهو استعمال شائع مستساغ عند كثير من العلماء.

ثم ختم - سبحانه - الآية بتأكيد أمر التقوى ووجوب الإخلاص فقال : ﴿واتقون يا أولى الألباب﴾ والألباب : جمع لب وهو العقل واللب من كل شيء : هو الخالص منه . وسمى به العقل، لأنه اشرف ما فى الإنسان.

أى : أخلصوا لى يا أصحاب العقول السليمة، والمدارك الواعية، لأنكم لما كنتم كذلك كان وجوبها عليكم أثبت، وإعراضكم عنها أقبح. ورحم الله القائل :

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٥ ص ٨٤ بتلخيص.

ولم أر في عيوب الناس عيباً كنعق القادرين على التمام
والجملة الكريمة ليست تكراراً لسابقتها، لأن الأولى حث على التقوى وهذه حث على
الإخلاص فيها.

ثم بين - سبحانه - أن التزود بالزاد الروحي لا يتنافى مع التزود بالزاد المادي متى توافرت
التقوى، فقال - تعالى - : ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾ .
الجناح : أصله من جنح الشيء إذا مال : يقال جنحت السفينة إذا مالت إلى أحد جانبيها .
والمراد بالجناح هنا الإثم والذنب، لأنه لما كان الإثم يميل بالإنسان عن الحق إلى الباطل سمي
جناحاً .

والابتغاء : الطلب بشدة، وجملة ﴿أن تبتغوا﴾ في موضع جر بتقدير في .
والفضل : الزيادة وتكون في الخير والشر إلا أنه جرى العرف أن يعبر عن الزيادة الحسنة
بالفضل وعن الزيادة القبيحة بالفضول .

والمراد به هنا: المال الحلال المكتسب عن طريق التجارة المشروعة أو غيرها من وجوه الرزق
الحلال .

أى : لا إثم ولا حرج عليكم في أن تطلبوا رزقا حلالا ومالا طيبا عن طريق التجارة أو
غيرها من وسائل الكسب المشروعة في موسم الحج .

وقد ذكر المفسرون أن الناس كانوا يتحاشون من التجارة في الحج، حتى إنهم كانوا يتجنبون
البيع والشراء في العشر الأوائل من ذي الحجة، فنزلت هذه الآية لتخبرهم أنه لا حرج عليهم
في ذلك .

روى البخارى عن ابن عباس قال : كان ذو المجاز^(١) وعكاظ متجر الناس في الجاهلية
فلما جاء الإسلام كأنهم كرهوا ذلك حتى نزلت ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من
ربكم﴾ .

وقال ابن كثير: وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة التيمي قال : قلت لابن عمر : إنا نُكْرِى
فهل لنا من حج ؟ قال : أليس تطوفون بالبيت وترمون الجمار وتحلقون رءوسكم وتقضون
المناسك قال : قلت بلى . فقال ابن عمر : جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن الذى سألتنى فلم

(١) ذو المجاز : مكان خلف جبل عرفات . وعكاظ : مكان في واد بينه وبين الطائف ليلة وبينه وبين مكة
ثلاث ليال ومجنة : مكان يمر الظهران . وهذه الأماكن تسمى بأسواق العرب .

يجبه حتى نزل عليه جبريل بهذه الآية ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾ فدعاه النبي ﷺ فقال له «أنتم حجج»^(١).

فالآية الكريمة صريحة في إباحة طلب الرزق لمن هو في حاجة إلى ذلك في موسم الحج، بشرط ألا يشغله عن أداء فرائض الله.

ثم قال - تعالى - : ﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام﴾.

الفاء في قوله : فإذا لتفصيل بعض ما أجمل من قبل في قوله ﴿فمن فرض فيهن الحج﴾ . وأفضتم . اندفعتكم بكثرة متزاحمين . وذلك تشبيه لهم بالماء إذا كثر ودفع بعضه بعضاً فانشر وسال من حافتي الوادي والإناء والإفاضة في الحديث الاندفاع فيه يكثر وتصرف في وجوهه ومنه قوله - تعالى - ﴿إذ تفيضون فيه﴾ . فأصل هذه الكلمة الدفع للشئء بكثرة حتى يتفرق . والتقدير : أفضتم أنفسكم فحذف المفعول للعلم به .

والمراد : خروجهم من عرفات بشئء من السرعة في تكاثر وازدحام متجهين إلى المزدلفة . وعرفات : اسم للجبل المعروف ، قيل سمي بذلك لأن الناس يتعارفون به فهم يجتمعون عليه في وقت واحد فيجري التعارف بينهم .

وقد اتفق العلماء على أن الوقوف بعرفات هو ركن الحج الأكبر ففي الحديث الشريف «الحج عرفة» ويكون ذلك في اليوم التاسع من ذي الحجة .

قال القرطبي : أجمع أهل العلم على أن من وقف بعرفة يوم عرفة قبل الزوال ثم أفاض منها قبل الزوال أنه لا يعتد بوقوفه ذلك قبل الزوال . وأجمعوا على تمام حج من وقف بعرفة بعد الزوال وأفاض نهاراً قبل الليل إلا مالك بن أنس فإنه قال : لا بد أن يأخذ من الليل شيئاً ، وأما من وقف بعرفة بالليل فإنه لا خلاف بين الأمة في تمام حجه . والحجة للجمهور مطلق قوله : ﴿فإذا أفضتم من عرفات﴾ : فإنه لم يختص ليلاً من نهار . وحديث عروة بن مضرس قال : أتيت النبي ﷺ وهو في الموقف من جمع - أي من المزدلفة - فقلت : يا رسول الله ، جئتك من جبل طيء أكللت مطيتي وأتعبت نفسي . . . فهل لي من حج يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ «من صلى معنا صلاة الغداة بجمع وقد أتى عرفات قبل ذلك ليلاً أو نهاراً فقد تم حجه»^(٢) .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٤٠ .

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٤١٥ .

ومن في قوله: ﴿من عرفات﴾ ابتدائية. أى، فإذا أفضتم خارجين من عرفات إلى المشعر الحرام.

والمشعر الحرام: هو المزدلفة وقيل هو موضع بها. والمشعر: اسم مشتق من الشعور أى: العلم، أو من الشعار أى: العلامة.

ووصف المشعر بوصف الحرام لأنه من أرض الحرم، وهو منسك له حرمة وتقديس. والمزدلفة من الازدلاف وهو القرب وسميت بذلك لأن الحجاج يزدلفون إليها من عرفات ليبيتوا بها قاصدين الاقتراب من منى.

وتسمى المزدلفة - أيضاً - «جمع» لاجتماع الناس في هذا المكان أو جمعهم فيه بين صلاتي المغرب والعشاء جمع تأخير. وتسمى كذلك «قزح».

ويرى الحنفية والشافعية أن الوقوف بالمزدلفة واجب وليس بركن، ومن فاته لا يبطل حجه ويجب عليه دم.

ويرى أكثر المالكية أن الوقوف بها سنة مؤكدة.

ويرى بعض التابعين وبعض الشافعية أن الوقوف بها ركن كالوقوف بعرفات

والمعنى: فإذا سرتم - يامعشر الحجاج - من عرفات متدافعين متزاحمين متجهين إلى المزدلفة فأكثروا من ذكر الله - تعالى - بالتلبية والتهليل والدعاء بقلوب محبته، ونفوس صافية، لأن ذكر الله - تعالى - في تلك المواطن المقدسة والأوقات الفاضلة من شأنه أن يرفع الدرجات، ويوصل إلى أعلا المقامات.

ثم قال - تعالى - : ﴿واذكروه كما هداكم﴾ الكاف للتشبيه. ومعنى التشبيه في مثل هذا التركيب المشابهة في التساوى في الحسن والكمال. كما تقول: اخذمه كما أكرمك تعنى: لا تنقص خدمتك عن إكرامه.

والمعنى: اذكروا الله - تعالى - ذكراً حسناً مماثلاً لهدايته لكم، وأنتم تعلمون أن هذه الهداية شأنها عظيم فبسببها خرجتم من الظلمات إلى النور، فيجب عليكم أن تكثروا من ذكر الله ومن الشاء عليه.

قال الالوسي: و «ما» تحتمل أن تكون مصدرية فمحل ﴿كما هداكم﴾ النصب على المصدرية، بحذف الموصوف. أى: ذكراً مماثلاً لهداكم.. وتحتمل أن تكون كافة فلا محل لها من الإعراب. والمقصود من الكاف مجرد تشبيه مضمون الجملة بالجملة، لذا لا تطلب عاملاً تفضى بمعناه إلى مدخولها. وقيل: إن الكاف للتعليل، وما مصدرية. أى، اذكروه وعظموه لأجل

هدايته السابقة منه - تعالى - لكم^(١).

و﴿إن﴾ في قوله : ﴿وإن كنتم من قبله لمن الضالين﴾ هي المخففة من الثقيلة والضمير في ﴿من قبله﴾ يعود إلى الهدى المأخوذ من ما المصدرية وما دخلت عليه والمراد بالضلال هنا : الجهل بالإيمان وبالتكاليف التي كلف الله بها عباده.
أى : اذكروا الله - تعالى - ذكراً مشابهاً لهدايته لكم ، وإنكم لولا هذه الهداية لبقيتم على ضلالكم وجهلكم بالدين الحق ، ولكن الله - تعالى - من عليكم بهذه الهداية فأكثروا من ذكره وشكره عليها.

وبعد أن تحدث - سبحانه - عن الإفاضة من عرفة إلى المزدلفة وأمر بالإكثار من ذكره ، عقب ذلك ببيان الطريقة المثلى للإفاضة فقال : ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ :

أى : أفيضوا من عرفة لا من المزدلفة . وهناك قولان في المخاطب بهذه الآية . أحدهما : أن الخطاب فيها لقريش وحلفائها ، وذلك لأنهم كانوا يترفعون على الناس ، فلا يقفون معهم على عرفات ، وإنما يقفون وحدهم بالمزدلفة ، وكانوا يقولون : نحن قطين الله - أى سكان حرمه فينبغى لنا أن نعظم الحرم - وهو المزدلفة - ولا نعظم شيئاً من الحل - وهو عرفات - .

روى البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - قالت ، كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة ، وكانوا يسمون الحمس ، وكان سائر العرب يقفون بعرفات ، فلما جاء الإسلام أمر الله - نبيه ﷺ أن يأتى عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها فذلك قوله : ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ .

والمعنى : أفيضوا يا معشر قريش من المكان الذى يفيض منه الناس وهو عرفة ، واتركوا ما تفعلونه من الإفاضة من المزدلفة ، فالمقصود إبطال ما كانت تفعله قريش .

والثانى : أن الخطاب فى الآية لجميع الناس ، أمرهم الله - تعالى - فيه أن يفيضوا من حيث أفاض الناس .

والمراد بالناس فى الآية إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - فإن سنتها كانت الإفاضة من عرفة لا من المزدلفة .

قال بعضهم : وإيقاع اسم الجمع على الواحد جائز إذا كان رئيساً يقتدى به كما في قوله - تعالى - : ﴿الذين قال لهم الناس﴾ يعنى «نعيم بن مسعود» .

والذى نراه أن القول الثانى أولى بالقبول، لأن المغزى الذى تهدف إليه الآية فى معناها الخاص والعام هو دعوة الناس جميعاً إلى التجمع فى مكان واحد ليشعروا بالإخاء والمساواة عند أدائهم لفريضة الحج بدون تفرقة بين كبير وصغير، وغنى وفقير، وقرشى وغير قرشى، ويدخل فى النهى دخولا أولياً تلك الحالة التى كانت عليها قريش . وقد قال العلماء : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

و«ثم» للتفاوت المعنوى بين الإفاضتين - أى الإفاضة من عرفات والإفاضة من مزدلفة - لبيان البعد بينهما، إذ أن إحداهما صواب والأخرى خطأ .

أى : لا تفيضوا من المزدلفة لأنه خطأ جسيم، واجعلوا أفاضتكم من عرفات لأن هذا العمل هو الصواب الذى يحبه الله ويرضاه .

وقوله : ﴿واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ معطوف على ﴿أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ أى : استغفروا الله من ذنوبكم ومما سلف منكم من أخطاء فإن المؤمن كلما قويت روحه، وصفت نفسه أحسن بأنه مقصر أمام نعم خالقه التى لا تحصى . ومن أكثر من التوبة والاستغفار غفر الله له ما فرط منه، لأنه - سبحانه - كثير الغفران، واسع الرحمة .

ثم بين - سبحانه - ما يجب عليهم عمله بعد فراغهم من أعمال الحج فقال - تعالى - : ﴿فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً﴾ .

المناسك : جمع منسك مشتق من نسك نسكاً من باب نصر إذا تعبد . والمراد هنا العبادات التى تتعلق بالحج .

قال ابن كثير : عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : كان أهل الجاهلية يقفون فى الموسم - بين مسجد منى وبين الجبل بعد فراغهم من الحج يذكرون فضائل آبائهم - فيقول الرجل منهم . كان أبى يطعم الطعام ويحمل الديات . . . ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم فأنزل الله - تعالى - على نبيه ﷺ هذه الآية^(١) .

والمعنى : فإذا فرغتم من عبادتكم، وأديتم أعمال حجكم، فتوفروا على ذكر الله وطاعته كما كنتم تتوفرون على ذكر مفاخر آبائكم، بل عليكم أن تجعلوا ذكركم لله - تعالى - أشد وأكثر من ذكركم لمآثر آبائكم، لأن ذكر مفاخر الآباء إن كان كذباً أدى إلى الخزى فى الدنيا والعقوبة

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٤٣ بتصرف يسير .

في الآخرة. وإن كان صدقاً فإنه في الغالب يؤدي إلى العجب وكثرة الغرور، أما ذكر الله بإخلاص وخشوع فثوابه عظيم، وأجره كبير. وفضلاً عن ذلك فإن المرء إذا كان لا ينسى أباه لأنه سبب وجوده فأولى به ثم أولى ألا ينسى الذي خلق أباه وهو الله رب العالمين. فالمقصود من الآية الكريمة الحث على ذكر الله - تعالى - والنهي عن التفاخر بالأحساب والأنساب.

و«أو» هنا في معنى الإضراب والترقى إلى أعلى، لأنه.. سبحانه أمرهم أولاً بأن يذكروه ذكراً يماثل ذكرهم لأبائهم ثم ترقى بهم إلى ما هو أعلى من ذلك وأسمى فطالبهم بأن يكون ذكرهم له - سبحانه - أكثر وأعظم من ذكرهم لأبائهم.

قال صاحب الكشاف: وقوله: ﴿أو أشد ذكراً﴾ في موضع جر عطف على ما أضيف إليه الذكر في قوله: «كذكركم» كما تقول كذكر قریش آباءهم أو قوم أشد منهم ذكراً. أو في موضع نصب عطف على ﴿آباءكم﴾ بمعنى، أو أشد ذكراً من آباءكم.

وبعد أن أمر - سبحانه - الناس بذكره، بين أنهم بالنسبة لدعائه وسؤاله فريقان، أما الفريق الأول فقد عبر عنه بقوله: ﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق﴾.

أى: من الناس نوع يقول في دعائه يا ربنا آتنا ما نرغبه في الدنيا فنحن لا نطلب غيرها، وهذا النوع ليس له في الآخرة من ﴿خلاق﴾ أى: نصيب وحظ من الخير.

وهذا النوع من الناس هو الذي استولى عليه حب الدنيا وشهواتها ومتعها فأصبح لا يفكر إلا فيها، ولا يهتم إلا بها، صارفاً نظره عن الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب.

والفاء في قوله: ﴿فمن الناس﴾ للتفصيل، لأن ما بعدها تقسيم للناس إلى فريقين.

وحذف مفعول ﴿آتنا﴾ للدلالة على تعميم المطلوب فهم يطلبون كل ما يمكن أن تصل إليه أيديهم من متاع الدنيا بدون تمييز بين حلال أو حرام. وأما الفريق الثاني فقد عبر - سبحانه - عنه بقوله: ﴿ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾.

أى: يقولون يا ربنا اعطنا حسنة في الدنيا أى: حالاً حسنة في الدنيا تكون معها أبداننا سليمة، ونفوسنا آمنة، ومعيشتنا ميسرة بحيث لا نحتاج إلى أحد سواك، ولا نذل إلا لك، وامنحنا حالاً حسنة في الآخرة بأن تجعلنا يوم لقائك ممن رضيت عنهم، ورضوا عنك. وأبعدنا يوم القيامة من عذاب النار. ولم يذكر - سبحانه - قسماً ثالثاً من الناس وهو الذي يطلب الآخرة

فقط، ولا يطلب الدنيا، لأن الإسلام دين لا يرضى لاتباعه أن ينسوا حظوظهم من الدنيا، ولا يقر الانقطاع عن زيتها التي أخرجها الله لهم، وإنما يريد لهم أن يكونوا من العاملين بقوله تعالى - : ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾.

وبين - سبحانه - أن هذا النوع الثاني من الناس قد التمس من خالقه أن يقيه عذاب النار مع أن هذا الدعاء مندرج تحت حسنة الآخرة، وذلك لأن هذا النوع من الناس لقوة إيمانه، وصفاء وجدانه، وشدة خشيته من ربه يغلب الخوف على الرجاء، فهو يستصغر حسناته مهما كثرت بجانب نعم الله وفضله، ويلج في الدعاء وفي الطلب أملاً في الاستجابة.

وقد أجمع العلماء على أن هذه الآية الكريمة من جوامع الدعاء، وورد في فضل الدعاء بها أحاديث كثيرة منها ما رواه البخاري عن أنس بن مالك قال كان النبي ﷺ يقول : « اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ».

وروى ابن أبي حاتم عن عبد السلام بن شداد قال : كنت عند أنس بن مالك فقال له ثابت : إن إخوانك يحبون أن تدعو لهم . فقال : « اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » وتحدثوا حتى إذا أرادوا القيام قال : يا أبا حمزة إن إخوانك يريدون القيام فادع الله لهم فقال : أتريدون أن أشقق لكم الأمور !! إذا آتاكم الله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ووقاكم عذاب النار فقد آتاكم الخير كله^(١).

قال الإمام الرازي : اعلم أن الله - تعالى - بين أولاً تفصيل مناسك الحج، ثم أمر بعدها بالذكر فقال : ﴿ فإذا أفضتكم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ﴾ ثم بين أن الأولى أن يترك ذكر غيره وأن يقتصر على ذكره - سبحانه - ثم بين بعد ذلك كيفية الدعاء فقال : ﴿ فممن الناس من يقول . . . ﴾ وما أحسن هذا الترتيب فإنه لا بد من تقديم العبادة لكسر النفس وإزالة ظلماتها ثم بعد العبادة لا بد من الاشتغال بذكر الله - تعالى - لتنوير القلب وتجلي نور جلاله . ثم بعد ذلك الذكر يشتغل الرجل بالدعاء، فإن الدعاء إنما يكمل إذا كان مسبوقةً بالذكر كما حكى عن إبراهيم - عليه السلام - أنه قدم الذكر فقال : ﴿ الذي خلقتني فهو يهدين ﴾ ثم قال : ﴿ رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين ﴾ فقدم الذكر على الدعاء^(٢).

ثم بين - سبحانه - جزاء هذا الفريق الثاني فقال : ﴿ أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب ﴾.

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٤٤ .

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ٥ ص ٢٠٤ .

فاسم الإشارة يعود إلى الفريق الثاني باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت الجميلة وكانت الإشارة للبعيد لبيان علو منزلتهم، وسمو درجاتهم ولم يعطف على ما قبله لأنه كالنتيجة له .
وقيل : إن الإشارة تعود إلى الفريقين . أى : لكل من الفريقين نصيب من عمله على قدر ما نواه . ويضعفه أن الله - تعالى - قد ذكر قبل ذلك عاقبة الفريق الأول بقوله : ﴿وما له في الآخرة من خلاق﴾ .

والمعنى : أولئك الذين جمعوا في دعائهم بين طلب حسنى الدنيا والآخرة لهم نصيب جزيل، وحظ عظيم من جنس ما كسبوا من الأعمال الصالحة، أو من أجل ما كسبوا من الفعال الطيبة .
فحرف الجر «من» يصح أن يكون للابتداء أو للتبويض .
وفي هذه الجملة الكريمة وعد من الله لعباده أنهم متى تضرعوا إليه بقلب سليم، أجاب لهم دعاءهم، وأعطاهم سؤالهم .

قال القرطبي : وقوله : ﴿والله سريع الحساب﴾ من سريع يسرع - مثل عظم يعظم - فهو سريع . و«الحساب» مصدر كالمحاسبة، وقد يسمى المحسوب حساباً . والحساب : العد . ويقال : حسب يحسب حساباً وحساباً وحساباً أى : عد .

والمعنى في الآية : أن الله - تعالى - سريع الحساب لا يحتاج إلى عد ولا إلى عقد ولا إلى أعمال فكر كما يفعله الحساب، ولهذا قال وقوله الحق ﴿وكفى بنا حاسبين﴾ . فالله - تعالى - عالم بما للعباد وما عليهم فلا يحتاج إلى تذكر وتأمل .

وقيل : سريع المجازاة للعباد بأعمالهم . وقيل لعل بن أبي طالب : كيف يحاسب الله العباد في يوم؟ قال : كما يرزقهم في يوم . ومعنى الحساب : تعريف الله عباده مقادير الجزاء على أعمالهم وتذكيره إياهم بما قد نسوه . وقيل : معنى الآية سريع بمعنى يوم الحساب، فالمقصود بالآية الإنذار بيوم : القيامة^(١) .

وقوله : ﴿واذكروا الله في أيام معدودات﴾ معطوف على قوله - تعالى - ﴿فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً﴾ وما بينها اعتراض .

والمراد بالأيام المعدودات أيام التشريق الثلاثة التي بعد يوم النحر . والتشريق : تقديد اللحم .

قال القرطبي : ولا خلاف بين العلماء أن الأيام المعدودات في هذه الآية هي أيام منى، وهى أيام التشريق، وأن هذه الثلاثة الأساء واقعة عليها، وهى أيام رمى الجمار^(٢) .

(٢) تفسير القرطبي ج ٣ ص ١ .

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٤٣٥

فالأية الكريمة تأمر الحجاج وغيرهم من المسلمين أن يكثرُوا من ذكر الله في هذه الأيام المباركة، لأن أهل الجاهلية كانوا يشغلونها بالتفاخر ومغازلة النساء «ويزعمون أن الحج قد انتهى بانتهاء يوم النحر وهو اليوم العاشر من ذى الحجة.

ولقد بين لنا النبي ﷺ أن هذه الأيام ينبغي أن تعمر بذكر الله وبشكره على نعمه. روى الأمام مسلم عن نبيشة الهذلي قال: قال رسول الله ﷺ «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر لله».

وروى البخارى عن ابن عمر: أنه كان يكبر بمنى تلك الأيام، وخلف الصلوات، وعلى فراشه وفي فسطاطه. وفي مجلسه، وفي ممشاه، في تلك الأيام جميعاً. ومن الذكر في تلك الأيام التكبير مع كل حصة من حصى الجمار كل يوم من أيام التشريق. فقد أخرج البخارى عن ابن عمر أن النبي ﷺ كبر مع كل حصة.

ويرى جمهور الفقهاء أن هذه الأيام يحرم فيها الصيام، لأنها أيام أكل وشرب وذكر لله. والمعنى. اذكروا الله، أى: كبروه في أدبار الصلوات وعند ذبح القرابين، وعند رمى الجمار وغيرها في تلك الأيام المحدودات التي هي موسم من مواسم العبادة والطاعات، فإن الإكثار من ذكر الله يرفع الدرجات، ويمسح السيئات.

ثم قال - تعالى - : ﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى﴾. تعجل واستعجل يجيئان مطاوعين بمعنى عجل، يقال: تعجل الأمر واستعجل. ويأتیان متعديين فيقال: تعجل الذهاب واستعجله ويرى الزمخشري أن المطاوعة أوفق لقوله - تعالى - : ﴿ومن تأخر﴾.

وإيضاح ذلك: أنه يجب على الحاج المبيت بمنى الليلة الأولى والثانية من ليالى أيام التشريق، ليرمى كل يوم بعد الزوال إحدى وعشرين حصة يرمى عند كل جرة سبع حصيات. ثم من رمى في اليوم الثانى وأراد أن ينفر ويترك المبيت بمنى في الليلة الثالثة ورمى يومها بعد الزوال - كما يرى الشافعية - وبعده أو قبله - كما يرى الحنفية - فلا إثم عليه في عدم مبيته بمنى في الليلة الثالثة.

أى: فمن تعجل فسافر في اليومين الأولين فلا إثم عليه في التعجيل، ومن بقى إلى تمام اليوم الثالث فلا إثم عليه كذلك إذا اتقى كل منها الله ووقف عند حدوده.

فالتقييد بالتقوى للتنبيه إلى أن العبرة في الأفعال إنما هي بتقوى القلوب وطهارتها وسلامتها. قال الألوسى: وقوله ﴿لمن اتقى﴾ خبر لمبتدأ محذوف، واللام إما للتعليل أو للاختصاص.

أى : ذلك التخيير المذكور لأجل المتقى لئلا يتضرر بترك ما يقصده من التعجيل والتأخر أو ذلك المذكور من أحكام مطلقاً مختصة بالمتقى لأنه هو الحاج على الحقيقة . والمراد من التقوى على التقديرين تجنب ما يؤثم من فعل أو ترك^(١) . . .» .

ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - : ﴿واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾ اتقوا الله في كل ما تأتون وما تذكرون، واعلموا أنكم ستجمعون بعد تفرقكم وتساقون إلى خالقكم يوم القيامة ليجازيكم على أعمالكم .

وقد ختمت الآيات التي تحدثت عن فريضة الحج بهذا الختام المكون من عنصرين، أحدهما : تقوى الله .

والثاني : العلم اليقيني بالحشر، للإشعار بأنهما خلاصة التدين، وثمره العبادات بكل أنواعها وكل طرقها، وإذا خلت أية عبادة من هذين العنصرين كانت صورة لا روح فيها . وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد سافت لنا بعض أحكام الحج وآدابه ومناسكه بأسلوب يهدى القلوب، ويسعد النفوس، ومن شأن من يعمل بهذه الآيات أن يكون ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه .

وبعد أن بين - سبحانه - فريضة الحج وما اشتملت عليه من أحكام وآداب، وبين أصناف الناس في أدعيتهم التي تكشف عن خبايا قلوبهم، ومعادن نفوسهم، بعد أن بين ذلك أعقبه بالحديث عن صنفين من الناس فقال :

وَمِنْ

النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ
عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ، وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى
فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ
لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ

(١) تفسير الألوسي ج ٢ ص ٩٤ .

بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ
النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ
رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد بينت صنفين من الناس
أولهما: يمثل الأشرار.

والثاني: يمثل الأخيار.

أما الصنف الأول فقد وصفه الله - تعالى - بخمس صفات، الصفة الأولى حكاها في قوله:
﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا﴾.

يعجبك: من الإعجاب بمعنى الاستحسان، تقول. أعجبنى هذا الشيء، أى، استحسنته
وعظم في نفسى. و «من» للتبعيض.

والمعنى: ومن الناس فريق يروقك منطقتهم، ويعجبك بيانهم، ويحسن عندك مقالهم. فأنت
معجب بكلامهم الحلو الظاهر، المر الباطن، وأنت في هذه الدنيا لأنك تأخذ الناس
بظواهرهم، أما في الآخرة فلن يعجبك أمرهم لأنهم ستتكشف حقائقهم أمام الله الذى لا تخفى
عليه خافية، وسيعاقبهم عقاباً أليماً لإظهارهم القول الجميل وإخفائهم الفعل القبيح.
وعلى هذا التفسير يكون قوله: ﴿في الحياة الدنيا﴾ متعلقاً بـ يعجبك.

وبعضهم يجعل قوله ﴿في الحياة الدنيا﴾ متعلقاً بالقول فيكون المعنى عليه ومن الناس فريق
يعجبك قولهم إذا ما تكلموا في شئون الدنيا ومتعها لأنها منتهى آمالهم، ومبلغ علمهم، وأصل
حبهم، ومن أحب شيئاً أجاد التعبير عنه، أما الآخرة فهم لا يحسنون القول فيها، لأنهم
لا يهتمون بها، بل هم غافلون عنها، ومن شأن الغافل عن شيء ألا يحسن القول فيه.

ويبدولنا أن تعلق الجار والمجرور بـ يعجبك أرجح، لأنه يتفق مع السياق إذ سياق الحديث في
شأن الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، ويخدعون الناس بمعسول بيانهم مع أن
نفوسهم مريضة، وليس في شأن الذين يحسنون الحديث عن شئونها المختلفة، بل إن بعض
الذين يحسنون الحديث في شئون الدنيا لم يضيعوا أحرارهم وإنما عمروها بالعمل الصالح، فهم
جامعون بين حسنى الدنيا والآخرة.

والصفة الثانية من صفات هذا النوع المنافق من الناس بينه القرآن بقوله ﴿ويشهد الله على ما في قلبه﴾ أى : يقرن معسول قوله، وظاهر تودده، بإشهاد الله على أن ما في قلبه مطابق لما يجرى على لسانه.

وكأن هذا النوع المنافق قد رأى من الناس تشككاً في قوله، لأن من عادة المنافقين أن يبدو من فلتات لسانهم ما يدل على ما هو مخبوء في نفوسهم فأخذ يوثق قوله بالآيمان الباطلة بأن يقول لمن ارتاب فيه : الله يشهد أنى صادق فيما أقول . . إلى غير ذلك من الأقوال التى يقصد بها تأكيد قوله وصدقه فيما يدعيه، فالمراد بإشهاد الله : الحلف به أن ما في قلبه موافق لقوله .
وجملة ﴿ويشهد الله﴾ حالية أو مستأنفة أو معطوفة على قوله ﴿يعجبك﴾.

وقوله - تعالى - : ﴿وهو ألد الخصام﴾ صفة ثالثة من صفات هذا النوع من الناس .

قال القرطبي : الألد : الشديد الخصومة والعداوة . . ولددته - بفتح الدال - الده - بضمها - إذا جادلته فغلته . والألد مشتق من اللديدين وهما صفحتا العنق، أى : فى أى جانب أخذ من الخصومة غلب . والخصام فى الآية مصدر خاصم . وقيل جمع خصم كصعب وصعاب . والمعنى، أشد المخاصمين خصومة، وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ « إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم »^(١).

أى : إن هذا النوع من الناس يثير الإعجاب بحسن بيانه، ويضلهم بحلاوة لسانه، ويحلف بالآيمان المغلظة أنه لا يقول إلا الصدق، ويمجادل عما يقوله بالباطل بقوة وعنف ومغالبة، فهو بعيد عن طباع المؤمنين الذين إذا قالوا صدقوا، وإذا جادلوا اتبعوا أحسن الطرق وأهداها .

ثم وصفه الله - تعالى - بصفة رابعة فقال : ﴿وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾.

تولى : من التولية بمعنى الإدبار والانصراف، ومتعلق تولى محذوف تقديره : تولى عنك . وسعى : من السعى وهو المشى السريع وهو مستعار هنا لإيقاع الفتنة والتخريب . والفساد كما قال الراغب - خروج الشيء عن الاعتدال قليلا كان الخروج عنه أو كثيراً، ويضاده الصلاح يقال فسد فساداً وفسوداً إذا خرج عن الاستقامة^(٢).

والحرث : مصدر يحرث، أى : أثار الأرض لإعدادها للزراعة، ثم أطلق وأريد به المحروث وهو الأرض، ثم أطلق وأريد به ما يترتب على ذلك من الزروع والثمار وهو المراد هنا .

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ١٦ .

(٢) المفردات فى غريب القرآن ص ٣٧٩ للراغب الأصفهاني .

والنسل : كما يقول القرطبي - ما خرج من كل أنثى من ولد. وأصله الخروج والسقوط، ومنه نسل الشعر ينسل إذا سقط. ومنه ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون﴾ أى : يخرجون مسرعين.

والمعنى : وإذا أعرض عنك هذا النوع من الناس وولاك دبره أسرع فى الإفساد بينهم، وتفريق كلمتهم، وإتلاف كل ما يقع تحت يده من الزروع والثمار والحيوان وما به قوام الحياة والأحياء.

فإهلاك الحرث والنسل كناية عن إتلافه لما به قوام أحوال الناس ومعيشتهم، وعن إيذائه الشديد لهم.

وبعض العلماء يرى أن «تولى» مشتق من الولاية : يقال : ولى البلد وتولاه، أى صار واليًا له، أميراً عليه. والمعنى على هذا الرأى.

وإذا صار - هذا النوع من الناس - واليًا على قوم اجتذبهم إليه ببريق قوله، وبمعسول لفظه، وبأيمانه الفاجرة، ومجادلته الباطلة، حتى إذا ما التف الناس حوله سعى بينهم بالفساد، وعمل على تقاطعهم وتباغضهم، وحكم فيهم بالباطل، ظنًا منه أن هذا الخلق وذلك السلوك سيجعلهم دائمًا طوع إرادته.

قال الإمام الرازى : والقول الأول أقرب إلى نظم الآية، لأن المقصود بيان نفاق هذا النوع من الناس، وهو أنه عند الحضور يقول الكلام الحسن ويظهر المحبة، وعند الغيبة يسعى فى إيقاع الفتنة والفساد^(١).

وقوله ﴿والله لا يحب الفساد﴾ أى لا يرضى عن الذى منه الإفساد فى الأرض، ويظهر للناس الكلام الحسن وهو يبطن لهم الفعل السئ، لأنه - سبحانه - أوجد الناس ليصلحوا فى الأرض لا ليفسدوا فيها. فالجملة الكريمة تحذير منه - سبحانه - للمفسدين، ووعيد لهم على خروجهم عن طاعته.

أما الصفة الخامسة لهذا النوع من الناس فهى قوله - تعالى - : ﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم﴾. أى : وإذا قيل لهذا المنافق على سبيل النصيح والإرشاد اتق الله واترك ما أنت فيه من نفاق وخداع وخروج عن طاعة الله، استولت عليه العزة - أى حمية الجاهلية - مقترنة بالإثم ومصاحبة له، فهى ليست العزة المحمودة ولكنها الكبرياء المبعوضة. والباء على هذا المعنى للمصاحبة والاقتران.

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٥ ص ٢١٩.

قال الجمل. والباء على هذا تكون في محل نصب على الحال وفيها حينئذ وجهان :
أحدهما : أن تكون حالا من العزة أى ملتبسة بالإثم

والثاني : أن تكون حالا من المفعول . أى، أخذته حال كونه ملتبسا بالإثم، وفي قوله العزة بالإثم التتميم وهو نوع من علم البديع، وهو عبارة عن إرداف الكلمة بأخرى ترفع عنها اللبس وتقربها من الفهم، وذلك أن العزة تكون محمودة ومذمومة فمن مجيئها محمودة قوله - تعالى - : ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ فلو أطلقت لتوهم فيها بعض من لا دراية له أنها محمودة، فقييل بالإثم توضيحاً للمراد لرفع اللبس، ويجوز أن تكون الباء للتعدي - وهو قول الزمخشري - فإنه قال : أخذته بكذا إذا حملته عليه وألزمته إياه . أى : حملته العزة التي فيه وحمية الجاهلية على الإثم الذي ينهى عنه وألزمته ارتكابه، ويجوز أن تكون للسببية بمعنى أن إثمه كان سبباً لأخذ العزة له^(١).

أى : استولت عليه حمية الجاهلية بسبب الإثم الذى استحوز على قلبه فأنساه كل ما يوصل إلى الصلاح والاستقامة.

و«ال» فى العزة للعهد . أى : العزة المعهودة المعروفة عند أهل الجاهلية التى تمنع صاحبها من قبول النصيحة .

قال الأستاذ الإمام محمد عبده مرجحاً ما ذهب إليه من أن «تولى» بمعنى الولاية والإمارة : «وهذا الوصف ظاهر جداً فى تفسير التولى بالولاية والسلطة، فإن الحاكم الظالم المستبد يكبر عليه أن يرشد إلى مصلحة، أو يجذر من مفسدة، لأنه يرى أن هذا المقام الذى ركبه وعلاه يجعله أعلى الناس رأياً وأرجحهم عقلاً، بل الحاكم المستبد الذى لا يخاف الله - تعالى - يرى نفسه فوق الحق كما أنه فوق أهله فى السلطة، فيجب أن يكون أفن رأيه خيراً من جودة آرائهم، وإفساده نافلاً مقبولاً دون إصلاحهم، فكيف يجوز لأحد منهم أن يقول له : اتق الله فى كذا...»^(٢).

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة من هذه صفاته فقال : ﴿فحسبه جهنم ولبس المهاد﴾ .
الفاء هنا للإفصاح، لأنها تفصح عن شرط محذوف تقديره : إذا كانت هذه حالة المعرض عن النصيح أنفة وتكبراً ﴿فحسبه جهنم﴾ أى : كافيه جهنم جزاء له ﴿ولبس المهاد﴾ أى : ولبس الفراش الذى يستقر عليه بسبب غروره وفجوره.

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ١٦٤ .

(٢) تفسير المنار ج ٢ ص ٢٥١ .

وقوله : ﴿فحسبه جهنم﴾ جملة من مبتدأ وخبر، وقوله ﴿ولبئس المهاد﴾ جواب قسم مقدر. أى : والله . والمخصوص بالذم محذوف لظهوره وتعيينه وهو جهنم . والمهاد جمع مهد وهو المكان المهيأ للنوم، والتعبير عن جهنم بالمهاد من باب التهكم والاستهزاء بهذا النوع المغرور المفسد من الناس

هذا وقد أورد بعض المفسرين روايات في سبب نزول هذه الآيات منها أنها نزلت في الأخنس ابن شريق الثقفي أقبل على النبي ﷺ فأظهر الإسلام وزعم أنه يحبه وأقسم بالله على ذلك، غير أنه كان منافقاً خبيث الباطن، فخرج من عند النبي ﷺ فمر بزرع لقوم من المسلمين فأحرق الزرع وقتل بعض الماشية فنزلت.

قال الإمام الرازى ما ملخصه بعد أن ساق هذه الرواية وغيرها : واختيار أكثر المحققين من المفسرين أن هذه الآيات عامة في حق كل من كان موصوفاً بهذه الصفات المذكورة... ولا يمتنع أن تنزل الآية في الرجل ثم تكون عامة في كل من كان موصوفاً بتلك الصفات، ونزولها على السبب الذى حكيناه لا يمنع من العموم، بل نقول فيها ما يدل على العموم وهو من وجوه.

أحدها : أن ترتب الحكم على الوصف المناسب مشعر بالعلية، فلما ذم الله - تعالى - قومًا وصفهم بصفات توجب استحقاق الذم، علمنا أن الموجب لتلك المذمة هو تلك الصفات، فيلزم أن كل من كان موصوفاً بتلك الصفات أن يكون مستوجباً للذم .
وثانيها : أن الحمل على العموم أكثر فائدة، وذلك لأنه يكون زجرًا لكل المكلفين عن تلك الطريقة المذمومة.

وثالثها : أن هذا أقرب إلى الاحتياط، لأننا إذا حملنا الآية على العموم دخل فيه ذلك الشخص، وأما إذا خصصناه بذلك الشخص لم يثبت الحكم في غيره، فثبت بما ذكرنا أن حمل الآية على العموم أولى^(١).

هذا، وفي هذه الآيات الكريمة زجر شديد ووعيد أليم للمنافقين الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ويفسدون في الأرض ولا يصلحون، ويكادون يسطون بالذين ينصحونهم ويتلون عليهم آيات الله لأن المنافقين ما كثروا في أمة إلا وجعلوا بأسها بينها شديداً، روى ابن جرير عن نوف البكالى قال : إني لأجد صفة ناس من هذه الأمة في كتاب الله المنزل : قوم يحتالون على الدنيا بالدين، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمر من الصبر، يلبسون للناس

(١) تف ر الفخر الرازى ج ٥ ص ٢١٦ .

مسوك - أى جلود - الضأن وقلوبهم قلوب الذئاب يقول الله - تعالى - فعلى يجترثون ويوغترو، حلفت بنفسى لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم حيران».

قال ابن كثير: قال القرطبي الذى روى هذا القول عن نوف: تدبرت هذه الصفات فى القرآن فإذا هى فى المنافقين ووجدتها فى قوله - تعالى - ﴿ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا﴾^(١).

والحق أنه ما ابتليت أمة بتفشى هذا النوع من الناس فيها إلا فسد حالها وهان شأنها وكانت عاقبة أمرها خسرا.

أما النوع الثانى من الناس وهم الأخيار الصادقون فقد عبر عنهم القرآن بقوله - تعالى - : ﴿ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله، والله رءوف بالعباد﴾.

﴿يشرى نفسه﴾ أى: يبيعهما بيدها فى طاعة الله وإعلاء كلمته، وتحقيقه أن المكلف قد بذل نفسه بمعنى أنه أطاع الله - تعالى - وحافظ على فرائضه، وجاهد فى سبيله، من أجل أن ينال ثواب الله ومرضاته، فكان ما بذله من طاعات بمثابة السلعة، وكان هو بمنزلة البائع، وكان قبول الله - تعالى - منه ذلك وإثابته عليه فى معنى الشراء.

وقوله: ﴿ابتغاء مرضاة الله﴾ الابتغاء الطلب الشديد للشيء، والرغبة القوية فى الحصول عليه، وهو فى الآية مفعول لأجله.

أى: ومن الناس نوع آخر قد باع نفسه وبذلها فى طاعة الله طلباً لرضوانه، وأملاً فى مثوبته وغفرانه.

فهذا النوع التقى المخلص من الناس، يقابل النوع المنافق المفسد الذى سبق الحديث عنه.

قال بعضهم: وكان مقتضى هذه المقابلة أن يوصف هذا الفريق الثانى بالعمل الصالح مع عدم التعويض والتبجح بالقول، أو مع مطابقة قوله لعمله وموافقة لسانه لما فى قلبه. والآية قد تضمنت هذا الوصف وإن لم تنطق به، فإن من يبيع نفسه لله لا يبغي ثمناً لها سوى مرضاته لا يتحرى إلا العمل الصالح وقول الحق مع الإخلاص فى القلب فلا يتكلم بلسانين ولا يقابل الناس بوجهين. ويكون هو المؤمن الذى يعتد القرآن بإيمانه^(٢).

وقال أحد العلماء: ومرضاة مصدر ميمي بمعنى الرضا. ولا شك أنه التعبير بالمصدر الميمي دون المصدر الأصيل له معنى يدركه السامع بذوقه، ولم نجد النحويين ولا البلاغيين تعرضوا

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٤٦.

(٢) تفسير المنار ج ٢ ص ٢٥٢.

ليبان التفرقة بين المصدر الميمى وغيره والذي يتبدى لنا ونظنه تفرقة بينهما، أن المصدر الميمى يصور المعنى المصدرى واقعاً قائماً متحققاً في الوجود، أما المصدر غير الميمى فيصور المعنى مجرداً فإذا كانت كلمة مقال بمعنى القول، فإن التعبير بالقول يصور معنى مجرداً من غير نظر إلى كونه تحقق وجوده أولاً. أما كلمة مقال فتصور معنى وجد وتحقق، أو في صورة الموجود المتحقق، وعلى ذلك معنى «ابتغاء مرضاة الله» أنهم يبيعون أنفسهم طالبين طلباً موثقاً رضا الله - سبحانه - حقيقة واقعة مؤكدة، ويتصورون رضاه - سبحانه - حقيقة قائمة قد حلت بهم، فيشتد طلبهم وافتداؤهم للحق بأموالهم وأنفسهم»^(١).

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله - : ﴿والله رءوف بالعباد﴾ أى، رفيق رحيم بهم، ومن مظاهر ذلك أنه لم يكلفهم بما هو فوق طاقتهم، وإنما كلفهم بما تطيقه نفوسهم، وأنه أسخغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة في الدنيا مع تقصيرهم فيما أمرهم به أو نهاهم عنه، وأنه كافأهم بالنعيم المقيم على العمل القليل، وأنه جعل العاقبة للمتقين لا للمفسدين، إلى غير ذلك من مظاهر رأفته التي لا تحصى.

هذا، وقد أورد المفسرون روايات متعددة في سبب نزول هذه الآية منها أنها نزلت في صهيب بن سنان الرومى، وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة منعه المشركون أن يهاجر بماله، وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر أذنوا له، فنخلص منهم وأعطاهم ماله فأنزل الله فيه هذه الآية. فتلقيه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة فقالوا له: ربح البيع يا صهيب، فقال لهم وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم وما ذاك؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية. ويروى أن الرسول ﷺ قال له عندما رآه: «ربح البيع، ربح البيع» مرتين^(٢).

وهناك روايات أنها نزلت فيه وفي عمار بن ياسر وفي خباب بن الأرت وفي غيرهم من المؤمنين المجاهدين.

والذى نراه - كما سبق أن بينا - أن الآية الكريمة تتناول كل من أطاع الله - تعالى - وبذل نفسه في سبيل إعلاء كلمته، ويدخل في ذلك دخولا أولياً من نزلت فيهم الآية، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يرى جمهور العلماء.

وبذلك نرى أن الآيات الكريمة قد بينت لنا نوعين من الناس: أحدهما خاسر، والآخر رابح، لكى نتبع طريق الرابحين، ونهجر طريق الخاسرين ﴿ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى

(١) تفسير الآية الكريمة لفضلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة - بمجلة لواء الإسلام. السنة الخامسة - العدد

الخامس.

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٤٧

الله المصير ﴿٢٠٧﴾ .

وبعد أن عرض القرآن هذين النوعين اللذين نجدهما في كل زمان ومكان، وجه نداء إلى المؤمنين دعاهم فيه إلى الاستجابة التامة لخالقهم فقال - تعالى - :

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَدْخُلُوا
 فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ
 إِنَّهُ دَلَّكُمْ عَلَى صِدْقٍ ﴿٢٠٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ
 مَا جَاءَ تَكُفُّرًا فَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
 ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ
 وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾
 سَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَلَكُمُ ءَاتَيْنَهُمْ مِنْ ءَايَةٍ يُبَدِّلُ نِعْمَةَ
 اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زَيْنٌ لِلَّذِينَ
 كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ
 اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾

﴿السلم﴾ - بكسر السين وفتحها مع إسكان اللام - بمعنى واحد، ويطلقان على الإسلام وعلى المسألة. وبعضهم فرق بين اللفظين فجعل «السلم» بكسر السين - للإسلام، و«السلم» - بفتحها - للمسألة، وأنكر المبرد هذه التفرقة.

قال الفخر الرازي: وأصل هذه الكلمة من الانقياد. قال - تعالى - : ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لربِّ الْعَالَمِينَ﴾. والإسلام إنما سمي إسلاما لهذا المعنى. وغلب اسم السلم على الصلح وترك الحرب، وهذا أيضا راجع إلى هذا المعنى. لأن عند الصلح يتفاد كل واحد إلى صاحبه ﴿١﴾.

و﴿كافة﴾ أى جميعاً. وهى فى الأصل صفة من كف بمعنى منع، واستعملت بمعنى الجملة والجميع بعلاقة أنها مانعة من التفرق وهى حال من قوله: ﴿السلم﴾ أى: يأياها المؤمنون ادخلوا فى الإسلام والتزموا بكل تعاليمه، ونفذوا جميع أحكامه وآدابه، واعمّلوا بكل أوامره ونواهيه، ولا تكونوا ممن يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض. فالمقصود التزام جميع شرائع الإسلام وأحكامه وآدابه.

وبعضهم يرى أن قوله: ﴿كافة﴾ حال من فاعل ادخلوا وهو ضمير الجماعة والمعنى عليه: ادخلوا فى الإسلام جميعاً، وانقادوا لأحكامه مجتمعين غير متفرقين، لأنه الدين الذى ألقى الله به بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً.

وسواء أكان لفظ ﴿كافة﴾ حالاً من ﴿السلم﴾ أو من فاعل ﴿ادخلوا﴾ فالمقصود من الآية دعوة المؤمنين إلى التمسك بجميع شعب الإسلام وشرائعه مع التزامهم برباط الإخاء الذى ربط الله به بين قلوبهم بسبب اتباعهم لهذا الدين الحنيف.

وإذا كان المراد بكلمة ﴿السلم﴾ المسألة والمصالحة كان المعنى: يأياها الذين آمنوا إن إيمانكم يوجب عليكم فيما بينكم أن تكونوا متصالحين غير متعادين، متحابين غير متباغضين، متجمعين غير متفرقين، كما أنه يوجب عليكم بالنسبة لغيركم ممن هو ليس على دينكم أن تسالموه متى سالمكم، وأن تحاربوه متى اعتدى عليكم، فإن دينكم ما جاء للحرب والخصام وإنما جاء للهداية وللسلام العزيز القوى الذى يرد الاعتداء بمثله.

هذا هو المعنى الذى نراه ظاهراً فى الآية، وهو ما سار عليه المحققون من المفسرين. وبعضهم ذكر أن الخطاب فى الآية لمؤمنى أهل الكتاب، لما روى عن ابن عباس أنه قال: نزلت فى عبد الله بن سلام وأصحابه، وذلك أنهم حين آمنوا بالنبى ﷺ وآمنوا بشرائعه وشرائع موسى عليه السلام - فعظموا السبب وكرهوا لحم الإبل وألبانها بعد أن أسلموا، فأنكر عليهم المسلمون، فقالوا، إنا نقوى على هذا وهذا؛ وقالوا للنبى ﷺ إن التوراة كتاب الله فدعنا فلنعمل بها فأنزل الله هذه الآية. فالخطاب لمؤمنى أهل الكتاب^(١).

وبعضهم ذكر أن المراد بالآية المنافقون والتقدير: يأياها الذين آمنوا بألسنتهم ادخلوا بكليتكم فى الإسلام ولا تتبعوا خطوات الشيطان. وهذان القولان ضعفهما ظاهر، إذ لا سند لهما يعتمد عليه، ولا يؤيدهما سياق الآية الكريمة، لأن الآية الكريمة صريحة فى دعوة المؤمنين إلى التمسك بجميع تعاليم الإسلام، وإلى الإخاء الجامع ونبذ التفرق والاختلاف والاعتداء.

(١) تفسير الألوسى ج ٢ ص ٩٧.

وقوله: ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ تحذير لهم مما يصددهم عن الدخول في السلم.

أى: أدخلوا في السلم واحذروا أن تتبعوا مدارج الشيطان وطرقه إنه لكم عدو ظاهر العداوة بحيث لا تخفى عداوته على عاقل.

والخطوات. جمع خطوة - بفتح الحاء وضمها - وهى ما بين قدمي من يخطو.

وفى قوله: ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ إشعار بأن الشيطان كثيرًا ما يجر الإنسان إلى الشر خطوة فخطوة ودرجة فدرجة حتى يجعله يألفه ويقتحمه بدون تردد، وبذلك يكون ممن استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله. والعاقل من الناس هو الذى يتعد عن كل ما هو من نزغات الشيطان ووساوسه، فإن صغير الذنوب قد يوصل إلى كبيرها، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

وقوله: ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ جملة تعليلية، مؤكدة للنهى ومبينة لحكمته.

وقوله: ﴿فإن زلتم من بعدما جاءكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾ تفریع على النهى، وترهيب من العقاب الذى سيصيب المتبعين للشيطان.

قال القرطبي: وأصل الزلل فى القدم، ثم استعمل فى الاعتقادات والآراء وغير ذلك. يقال: زل يزل زلا وزلا وزلولا، أى: دحضت قدمه.

والبيئات: جمع بيعة، وهى الأدلة والمعجزات، ومجيئها: ظهورها.

والمعنى: فإن تنحيتم عن طريق الحق، وعدلتم عنه إلى الباطل، من بعد أن ظهرت لكم الأدلة المفرقة بين الصواب والخطأ، والتى تدعوكم إلى اتباع طريق الحق، فاعلموا أن الله ﴿عزيز﴾ لا يقهر ولا يعجزه الانتقام ممن زل ﴿حكيم﴾ لا يترك ما تقتضيه الحكمة وإنما يضع الأمور فى مواضعها.

وجىء فى الشرط بيان، لندرة حصول الزلل من المؤمنين، إذ الشأن فيهم ذلك.

وقوله: ﴿فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾ جواب الشرط.

وقوله: ﴿من بعدما جاءكم البينات﴾ قطع لعذرهم حتى لا يقولوا يوم الحساب إننا زلنا لأننا لا نعرف الحق من الباطل. وفى الآية دليل على أن عقوبة العالم بالذنوب أعظم من عقوبة الجاهل به - كما قال القرطبي -.

وقال الفخر الرازى ما ملخصه: «وقوله: ﴿فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾ نهاية فى الوعيد،

لأنه يجمع من ضروب الخوف مالا يجمعه الوعيد بذكر العقاب. وربما قال الوالد لولده: إن عصيتي فأنت عارف بي وأنت تعلم قدرق عليك وشدة سطوق. فيكون هذا الكلام في الزجر أبلغ من ذكر الضرب وغيره. فإن قيل: أفهذه الآية مشتملة على الوعد كما أنها مشتملة على الوعيد؟ قلنا: نعم من حيث أتبعه بقوله: ﴿حكيم﴾ فإن اللائق بالحكمة أن يميز بين المحسن والمسيء، فكما يحسن من الحكيم إيصال العذاب إلى المسيء فكذلك يحسن منه إيصال الثواب إلى المحسن، بل هذا أليق بالحكمة وأقرب للرحمة^(١).

وبعد أن أمر الله المؤمنين بالدخول في السلم كافة، ونهاهم عن الزلل عن طريقه المستقيم، عقب ذلك بتهديد الذين امتنعوا عن الدخول في السلم فقال: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل...﴾

ينظرون: أى ينتظرون. يقال: نظرته وانتظرته بمعنى واحد.

وظلل: جمع ظلة. كظلم جمع ظلمة - وهى ما أظلك من شعاع الشمس وغيره.

والغمام: اسم جنس جمعى لغمامة، وهى السحاب الرقيق الأبيض، سمي بذلك لأنه يغم، أى يستر. ولا يكون الغمام ظلة إلا حيث يكون متراكبًا والاستفهام للإنكار والتوبيخ.

والمعنى: ما ينتظر أولئك الذين أبوا الدخول في الإسلام من بعد ما جاءتهم البيئات، إلا أن يأتيهم الله يوم القيامة في ظلل كائنة من الغمام الكثيف العظيم ليحاسبهم على أعمالهم، وتأتيهم ملائكته الذين لا يعلم كثرتهم إلا هو - سبحانه -

وإتيان الله - تعالى - إنما هو بالمعنى اللائق به - سبحانه - مع تنزيهه عن مشابهة الحوادث، وتفويض علم كفيته إليه - تعالى - وهذا هو رأى علماء السلف.

وقوله: ﴿وقضى الأمر﴾ معناه على هذا الرأى: أتم - سبحانه - أمر العباد وحسابهم فأثيب الطائع وعوقب العاصى، ولم تعد لدى العصاة فرصة للتوبة أو تدارك ما فاتهم. وقد ارتضى هذا الرأى عدد من المفسرين منهم ابن كثير فقد قال فى معنى الآية: يقول الله - تعالى - مهددًا للكافرين بمحمد ﷺ ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة﴾ يعنى: يوم القيامة تفصل القضاء بين الأولين والآخرين، فيجزى كل عامل بعمله: إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر!! ولهذا قال - تعالى - ﴿وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور﴾^(٢).

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٥ ص ٢٣١.

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٤٨.

أما علماء الخلف فيؤولون إتيان الله بما يتناسب مع ذاته - سبحانه - ، ولذا فسروا إتيانه بأمره أو بأسه في الدنيا.

وقد عبر صاحب الكشاف عن وجهة نظر هؤلاء بقوله : « إتيان الله : إتيان أمره وبأسه كقوله ﴿أو يأتي أمر ربك﴾ ﴿فجاءهم بأسنا﴾ ويجوز أن يكون المأتى به محذوفاً، بمعنى أن يأتيهم الله ببأسه أو بنقمته للدلالة عليه بقوله - قبل ذلك - « فإن الله عزيز حكيم ». فإن قلت : لم يأتيهم العذاب في الغمام ؟ قلت : لأن الغمام مظنته الرحمة ، فإذا نزل منه العذاب كان الأمر أظفح وأهول ؛ لأن الشر إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أغم كما أن الخير إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أسر ، فكيف إذا جاء الشر من حيث يحتسب الخير ؛ ولذلك كانت الصاعقة من العذاب المستفزع لمجيئها من حيث يتوقع الغيث : ﴿وقضى الأمر﴾ أى : تم أمر إهلاكهم وتدميرهم وفرغ منه ^(١).

وقال الجمل ما ملخصه : وقوله : ﴿إلا أن يأتيهم الله﴾ استئناف مفرغ من مقدر، أى ليس لهم شيء ينتظرونه إلا إتيان العذاب وهذا مبالغة في توبيخهم وقوله : ﴿والملائكة﴾ بالرفع عطفاً على اسم الجلالة أى ، وتأتيهم الملائكة فإنهم وسائط في إتيان أمره - تعالى - ، بل هم الآتون ببأسه على الحقيقة . وقرأ الحسن وأبو جعفر : والملائكة بالجر عطفاً على ظلل ، أى إلا أن يأتيهم في ظلل وفي الملائكة . وقوله ﴿وقضى الأمر﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن يكون معطوفاً على يأتيهم داخلًا في حيز الانتظار ويكون ذلك من وضع الماضي موضع المستقبل والأصل ويقضى الأمر؛ وإنما جرى به كذلك لأنه محقق كقوله : ﴿أتى أمر الله﴾.

والثاني : أن يكون جملة مستأنفة برأسها أخبر الله - تعالى - بأنه قد فرغ من أمرهم فهو من عطف الجمل وليس داخلًا في حيز الانتظار ^(٢).

ثم ختم - سبحانه - هذه الآية بقوله : ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ أى إليه وحده - سبحانه - لا إلى غيره ولا إلى أحد معه تصير الأمور خيرا وشرها وسيجازى الذين أساءوا بما عملوا وسيجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

فالجملة الكريمة تذييل قصد به تأكيد قضاء أمره، ونفاذ حكمه، وتمام قدرته . ثم بين - سبحانه - أن كفر الكافرين ليس سببه نقصان الدليل على صحة إيمان المؤمنين،

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٥٣ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ١٦٦ .

وإنما سببه الجحود والحسد وإيثار الهوى على الهدى، بدليل أن بنى إسرائيل قد آتاهم الله آيات بينات تهندي إلى الإيمان ومع ذلك كفروا بها. استمع إلى القرآن وهو يصور موقفهم بعد تهديده للكافرين في الآية السابقة فيقول: ﴿سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة...﴾. قال الفخر الرازي: اعلم أنه ليس المقصود: سل بنى إسرائيل ليخبروك عن تلك الآيات فتعلمها؛ وذلك لأن الرسول ﷺ كان عالماً بتلك الأحوال بإعلام الله - تعالى - إياه، بل المقصود منه المبالغة في الزجر عن الإعراض عن دلائل الله - تعالى - .

أى: سل هؤلاء الحاضرين أنا لما آتيناهم أسلافهم آيات بينات فأنكروها، لاجرم استوجبوا العقاب من الله - تعالى - ، وذلك تنبيه لهؤلاء الحاضرين على أنهم لوزلوا عن آيات الله لوقوعا في العذاب كما وقع أولئك المتقدمون فيه. والمقصود من ذكر هذه الحكاية أن يعتبروا بغيرهم...»^(١).

و﴿سل﴾ فعل أمر من سأل وأصله أسأل فنقلت فتحة الهمزة إلى السين قبلها وصارت ساكنة فحذفت. ولما فتحت السين لم يكن هناك حاجة إلى همزة الوصل فحذفت أيضاً. و﴿كم﴾ إما خبرية والمسئول عنه محذوف، والجملة ابتدائية لا محل لها من الإعراب مبينة لاستحقاقهم التقرير والتوبيخ. كأنه قيل «سل بنى إسرائيل» عن طغيانهم وجحودهم للحق بعد وضوحه فقد آتيناهم آيات كثيرة بينة ومع ذلك أعرض كثير منهم عنها. وإما استفهامية والجملة في موضع المفعول الثاني لقوله «سل» وقيل: في موضع المصدر، أى: سلهم هذا السؤال. وقيل: في موضع الحال. أى: سلهم قائلاً: كم آتيناهم. والاستفهام للتقرير بمعنى حمل المخاطب على الإقرار - بأنه قد خالف ما تقتضيه الآيات من الإيمان بالله - تعالى - .

فالمراد بهذا السؤال تقريرهم على جحودهم الحق بعد وضوح الآيات لا معرفة إجابتهم كما إذا أراد واحد منا توبيخ أحد فيقول لمن حضره: سله كم أنعمت عليه؟ ومن الآيات البينات والمعجزات الواضحات التي أظهرها الله - تعالى - لبنى إسرائيل على أيدي أنبيائهم ليؤمنوا بهم: عصا موسى التي ألقاها فإذا هي حية تسعى؛ والتي ألقاها فإذا هي تلقف ما صنعها السحرة، والتي ضرب بها البحر ﴿فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على وحدانية الله وصدق من جرت على يديه هذه الخوارق، ومع ذلك فمنهم من قال لموسى ﴿أرنا الله جهرة﴾ ومنهم من كفر وعبد العجل..

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٦ ص ٣.

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة الجاحدين لآياته فقال: ﴿ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب﴾.

التبديل: جعل شيء بدلا عن آخر، ونعمة الله هنا تتناول آياته الدالة على صدق رسله، كما تتناول ما أسبغ الله على عباده من صحة ومال وعقل وغير ذلك من نعمه الظاهرة والباطنة. أى: ومن يبدل نعم الله بعد ما وصلت إليه واتضحت له، بأن كفر بها مع أنها تدعو إلى الإيمان، وجحد فضلها مع أنها تستلزم منه الشكر لمسديها من يبدل ذلك التبديل فإن الله سيعاقبه عقاباً شديداً.

وقوله: ﴿من بعد ما جاءته﴾ زيادة توبيخ لهم، وأنهم مستحقون لأشد ألوان العذاب، لأنهم قد كفروا بآيات الله وجحدوا نعمه بعد معرفتها والوقوف على تفاصيلها. فهو كقوله - تعالى -: ﴿وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾. فهو تبديل عن معرفة لا عن جهل أو خطأ. وقوله: ﴿فإن الله شديد العقاب﴾ تعليل للجواب أقيم مقامه.

أى: ومن يبدل نعمة الله عاقبه أشد عقوبة لأنه شديد العقاب فلا يفلت منه أحد. ويحتمل أن يكون هذه الجملة هي الجواب بتقدير الضمير أى شديد العقاب له. والعقاب هو الجزاء عن جناية وجرم، وهو مأخوذ - كما يقول القرطبي - من العقب، كأن المعاقب يمشى بالمحازاة للجاني في آثار عقبه، ومنه عقبه الراكب - أى الموضع الذى يركب منه -، فالعقاب والعقوبة يكونان بعقب الذنب وقد عاقبه بذنبه^(١).

فالآية الكريمة وعيد شديد لكل من يبدل نعم الله، ويترك شكرها.

وبعد أن ذكر القرآن حال من يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته، أتبعه بذكر الأسباب التى حملت أولئك الأشقياء على البقاء فى كفرهم وجحودهم فقال - تعالى -: ﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا﴾... الآية.

التزيين: جعل الشيء زينا أى، شديد الحسن. والحياة نائب فاعل، زين، ولم تلحق تاء التأنيث بالفعل لأن نائب الفاعل مجازى التأنيث ولوجود الفاصل بين الفعل ونائب الفاعل. والمعنى، أن الحياة الدنيا قد زينت للكافرين فأحبوها وتهافتوا عليها تهافت الفراش على النار، وصارت متعتها وشهواتها كل تفكيرهم، أما الآخرة فلم يفكروا فيها، ولم يهينوا أنفسهم للقاءها.

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٨.

قال القرطبي : والمزين هو خالقها ومخترعها وخالق الكفر، ويزينها أيضاً الشيطان بوسوسته وإغوائه وخص الذين كفروا بالذكر لقبولهم التزيين جملة وإقبالهم على الدنيا وإعراضهم عن الآخرة بسببها. وقد جعل الله ما على الأرض زينة لها ليللو الخلق أيهم أحسن عملاً، فالمؤمنون الذين هم على سنن الشرع لم تفتنهم الزينة، والكفار تملكهم لأنهم لا يعتقدون غيرها^(١).
وقوله : ﴿يسخرون من الذين آمنوا﴾ معطوف على جملة ﴿زين للذين كفروا...﴾

أو خبر لمبتدأ محذوف أي وهم يسخرون وتكون الواو للحال.
ويسخرون : يضحكون ويهزأون. يقال . سخرت منه وسخرت به وضحكت منه وضحكت

به .

أي أن الذين كفروا لا يكتفون بجبههم الشديد لزينة الحياة الدنيا وشهواتها وإنما هم بجانب ذلك يسخرون من المؤمنين لزهدهم في متع الحياة، لأن الكفار يعتقدون أن ما يمضي من حياتهم في غير متعة فهو ضياع منها، وأنهم لن يبعثوا ولن يحاسبوا على ما فعلوه في دنياهم، أما المؤمنون فهم يتطلعون إلى نعيم الآخرة الذي هو أسمى وأبقى من نعيم الدنيا.

وجيء بقوله : ﴿زين﴾ ماضياً للدلالة على أنه قد وقع وفرغ منه. وجيء بقوله ﴿يسخرون﴾ مضارعاً للدلالة على تجدد سخريتهم من المؤمنين وحدثها بين وقت وآخر. قال - تعالى - : ﴿إن الذين أجزموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون. وإذا مروا بهم يتغامزون...﴾

وقد ذكر بعض المفسرين في سبب نزول هذه الآية روايات منها : أنها نزلت في المنافقين عبد الله بن أبي وحزبه، كانوا يتنعمون في الدنيا أو يسخرون من ضعفاء المؤمنين وفقراء المهاجرين، ويقولون : أنظروا إلى هؤلاء الذين يزعم محمد ﷺ أنه يغلب بهم. ومنها. أنها نزلت في أبي جهل ورؤساء قريش كانوا يسخرون من فقراء المسلمين كعمار وخباب وابن مسعود وغيرهم بسبب ما كانوا فيه من الفقر والصبر على البلاء. والحق أنه لا مانع من نزولها في شأن كل الكافرين الذين يسخرون من المؤمنين.

وقوله : ﴿والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة﴾ رد منه - سبحانه - على هؤلاء الكفار الذين يسخرون من المؤمنين، والذين يرون أنفسهم أنهم في زينتهم ولذاتهم أفضل من المؤمنين في نزاهتهم وصبرهم على بأساء الحياة وضرائها.

أى، والذين اتقوا الله - تعالى - وصانوا أنفسهم عن كل سوء فوق أولئك الكافرين مكانة ومكانا يوم القيامة، لأن تقواهم قد رفعتهم إلى أعلى عليين، أما الذين كفروا فإن كفرهم قد هبط بهم إلى النار وبئس القرار.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: لم قال «من الذين آمنوا» ثم قال: ﴿والذين اتقوا﴾؟ قلت: ليريك أنه لا يسعد عنده إلا المؤمن التقى، وليكون بعثاً للمؤمنين على التقوى إذا سمعوا ذلك^(١).

وقيدت الفوقية بيوم القيامة للنصيص على دوامها، لأن ذلك اليوم هو مبدأ الحياة الأبدية، ولإدخال السرور والتسلية على قلوب المؤمنين حتى لا يتسرب اليأس إلى قلوبهم بسبب إيذاء الكافرين لهم في الدنيا.

وقوله: ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ تذييل قصد به تشریف المؤمنين، وبيان عظم ثوابهم.

أى: والله يرزق من يشاء بغير حساب من المرزوق. أو بلا حصر وعد لما يعطيه. أو أنه لا يخاف نفاذ ما فى خزائنه حتى يحتاج إلى حساب لما يخرج منها. فهو - سبحانه - الذى يعطى ويمنع، وليس عطاؤه فى الدنيا دليل رضاه عن المعطى فقد يعطى الكافر وهو غير راض عنه، أما عطاؤه فى الآخرة فهو دليل رضاه عن أعطاه.

قال الأستاذ الإمام: إن الرزق بلا حساب ولا سعى فى الدنيا إنما يصح بالنسبة إلى الأفراد، فإنك ترى كثيراً من الأبرار وكثيراً من الفجار أغنياء موسرين متمتعين بسعة الرزق، وكثيراً من الفريقين فقراء معسرين، والمتقى يكون دائماً أسعد حالاً وأكثر احتمالاً، ومحللاً لعناية الله به فلا يؤلمه الفقر كما يؤلم الفاجر لأنه يجد فى التقوى مخرجاً من كل ضيق... وأما الأمم فأمرها على غير هذا، فإن الأمة التى ترونها فقيرة ذليلة لا يمكن أن تكون متقية لأسباب نعم الله وسخطه... وليس من سنة الله أن يرزق الأمة العزة والثروة وهى لا تعمل، وإنما يعطيها بعملها ويسلبها بزللها...»^(٢).

ثم بين - سبحانه - أحوال الناس، وأنهم فى حاجة إلى الرسل ليشروهم وينذروهم ويحكموا بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه فقال - تعالى -:

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٥٥.

(٢) تفسير المنار ج ٢ ص ٢٧٤ بتلخيص.

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ
 وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ
 فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ
 مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
 لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣١٣﴾

قال الفخر الرازي : اعلم أنه - تعالى - لما بين في الآية المتقدمة أن سبب إصرار هؤلاء الكفار على كفرهم هو حب الدنيا، بين في هذه الآية أن هذا المعنى غير مختص بهذا الزمان، بل كان حاصلًا في الأزمنة المتقدمة، لأن الناس كانوا أمة واحدة قائمة على الحق ثم اختلفوا، وما كان اختلافهم إلا بسبب البغى والتحاسد والتنازع في طلب الدنيا^(١).

و﴿الامة﴾ القوم المجتمعون على الشيء الواحد يقتدى بعضهم ببعض مأخوذ من أم بمعنى قصد لأن كل واحد من أفراد القوم يؤم المجموع ويقصده في مختلف شؤونه. وللعلماء أقوال في معنى قوله - تعالى - ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين﴾.

القول الأول الذي عليه جمهور المفسرين أن المعنى : كان الناس أمة واحدة متفقين على توحيد الله - تعالى - مقرين له بالعبودية مجتمعين على شريعة الحق ثم اختلفوا ما بين ضال ومهدت، فبعث الله إليهم النبيين ليبشروا من اهتدى منهم بجزيل الثواب، ولينذروا من ضل بسوء العذاب، وليحكموا بينهم فيما اختلفوا فيه بالحكم العادل، والقول الفاضل. قال القفال : ويشهد لصحة هذا الرأي قوله - تعالى - ﴿فبعث الله النبيين...﴾^(٢) فهذا يدل على أن الأنبياء - عليهم السلام - إنما بعثوا حين الاختلاف، ويتأكد هذا بقوله :

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٦ ص ١١.

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ٦ ص ١٢.

«وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلّفوا» ويتأكد أيضًا بما نقل عن ابن مسعود أنه قرأ ﴿كان الناس أمة واحدة فاختلّفوا فبعث الله النبيين..﴾.

و«كان» على هذا الرأى على بابها من المضى، وعدم استمرار الحكم، وعدم امتداده إلى المستقبل، لأن الناس كانوا مهتدين ثم زالت الهداية عنهم أو عن كثير منهم بسبب اختلافهم فأرسل الله - تعالى - رسله هدايتهم.

القول الثانى يرى أصحابه أن المعنى : كان الناس أمة واحدة مجتمعين على الضلال والكفر فبعث الله النبيين هدايتهم..

و«كان» على هذا الرأى - أيضًا - على بابها من المضى والانقضاء، ولا تحتاج على هذا الرأى إلى تقدير كلام محذوف، وهو ثم اختلفوا فبعث.. إلخ.

ومن العلماء الذين رجحوا القول الأول الإمام ابن كثير فقد قال : عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلّفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين.. وهكذا قال قتادة ومجاهد. وقال العوفى عن ابن عباس (كان الناس أمة واحدة) يقول كانوا كفارًا (فبعث الله النبيين) والقول الأول عن ابن عباس وهو أصح سندًا ومعنى؛ لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام فبعث الله إليهم نوحًا - عليه السلام - فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض^(١).

أما الرأى الثالث فقد قرره الإمام القرطبى بقوله : ويحتمل أن تكون «كان» للثبوت، والمراد الإخبار عن الناس الذين هم الجنس كله أنهم أمة واحدة فى خلّوهم عن الشرائع، وجهلهم بالحقائق، لولا من الله عليهم وتفضله بالرسل إليهم. فلا يختص «كان» على هذا التأويل بالمضى فقط، بل معناه معنى قوله : ﴿وكان الله غفورًا رحيمًا﴾^(٢).

وهذا الرأى قد اختاروه الأستاذ الإمام محمد عبده فى تفسيره للآية الكريمة ووافقه عليه بعض العلماء الذين كتبوا فى تفسير هذه الآية. قال الأستاذ الإمام ما ملخصه.

«خلق الله الإنسان أمة واحدة أى مرتبًا بعضها ببعض فى المعاش لا يسهل على أفرادها أن يعيشوا فى هذه الحياة الدنيا إلا مجتمعين يعاون بعضهم بعضًا، فكل واحد منهم يعيش ويحيا بشيء من عمله لكن قواه النفسية والبدنية قاصرة عن توفير جميع ما يحتاج إليه، فلا بد من انضمام قوى الآخرين إلى قوته... وهذا معنى قولهم : «الإنسان مدنى بطبعه» يريدون بذلك أنه لم يوهب من القوى ما يكفى للوصول إلى جميع حاجاته إلا بالاستعانة بغيره.. ولما كان

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٥٠.

(٢) تفسير القرطبى ج ٣ ص ٣١.

الناس كذلك كان لا بد لهم من الاختلاف بمقتضى فطرهم، وكان من رحمة الله أن يرسل إليهم مبشرين ومنذرين.

وترتيب بعثة الرسل على وحدة الأمة في الآية التي نفسرها يكون على هذا المعنى :
إن الله قضى أن يكور الناس أمة واحدة يرتبط بعضهم ببعض ولا سبيل لعقولهم وحدها إلى الوصول إلى ما يلزم لهم في توفير مصالحهم ودفع المضار عنهم، لتفاوت عقولهم، واختلاف فطرهم، وحرمانهم من الإلهام الهادى لكل منهم إلى ما يجب عليه نحو صاحبه، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأيدهم بالدلائل القاطعة على صدقهم، وعلى أن ما يأتون به إنما هو من عند الله - تعالى - القادر على إثباتهم وعقوبتهم...»^(١).

وقال فضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة ما ملخصه : وإن هذا الرأى الذى اختاره الأستاذ الإمام هو الذى نختاره، وعلى هذا التأويل لا يكون ثمة حاجة إلى تقدير محذوف، لأن ذات حالهم من كونهم لا علم لهم بالشرائع ولا تهتدى عقولهم إلى الحقائق بنفسها توجب البعث، ولأن تلك الحال التى تكون على الفطرة وحدها توجب الاختلاف فتوجب بعث النبيين.. ثم إن نفس كل إنسان فيها نزوع إلى الاجتماع، وحيث كان الاجتماع فلا بد من نظام يربط، وشرع يحكم.

وعلى هذا التأويل أيضا تكون الفاء في قوله : ﴿فبعث...﴾ - وهى التى يقول عنها النحويون إنها للترتيب والتعقيب - فى موضعها من غير حاجة إلى تقدير، لأن كون الناس أمة واحدة اقتضت الرسالة واقتضت الاختلاف.

و«كان» على هذا التأويل تدل على الاستمرار والثبوت، لأن الناس بمقتضى فطرهم دائما فى حاجة إلى شرع الساء لا يهتدون إلا به.

ثم قال فضيلته : وقد يقول قائل : إن جعل «كان» للاستمرار يفيد أن وحدة الناس فى الفطرة وتأديها إلى التناحر يقتضى بعث النبيين إلى يوم القيامة، وأنه لا بد من نبى لعصرنا، ونحن نسلم بالاعتراض ولا ندفع إيراده ونقول : نعم إنه لا بد من قيام رسالة إلى يوم القيامة وهى رسالة محمد ﷺ التى جاءت بكتاب تتجدد به الرسالة والبعث إلى أن تفتى الأرض ومن عليها وهذا الكتاب هو القرآن الكريم الذى لا تبلى جدته، والذى تكفل الله بحفظه، وبإعجازه إلى يوم القيامة، والذى من يقرؤه فكأنما يتلقاه عن النبى ﷺ»^(٢).

(١) تفسير المنار ج ٢ ص ٢٨٢ بتصرف وتلخيص.

(٢) تفسير الآية الكريمة لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة. مجلة لواء الإسلام السنة الخامسة من العدد

هذه هي أشهر الأقوال في معنى قوله - تعالى - ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين﴾ وهناك أقوال أخرى لم نذكرها لضعفها .

وقوله - تعالى - : ﴿ وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ معطوف على ﴿ فبعث ﴾ ، والمراد بالكتاب الجنس .

والمعنى : وأنزل - سبحانه - مع هؤلاء النبيين الذين بعثهم مبشرين ومنذرين كلامه الملتبس بالحق والجامع لما يحتاجون إليه من أمور الدين والدنيا، لكي يفصلوا بواسطته بين الناس فيما اختلفوا من شئون دينيه ودنيويه .

وذكر - سبحانه - الكتاب بصيغة المفرد للإشارة إلى أن كتب النبيين وإن تعددت إلا أنها في جوهرها كتاب واحد لاشتغالها على شرع واحد في أصله، وإذا كان هناك خلاف بينها ففي تفاصيل الأحكام وفروعها لا في جوهرها وأصولها، وقوله : ﴿ بالحق ﴾ متعلق بأنزل، أو حال من الكتاب أى ملتبسا شاهدها به .

والضمير في قوله : ﴿ ليحكم .. ﴾ يجوز أن يعود إلى الله - تعالى - أو إلى النبيين، أو إلى الكتاب . ورجح بعضهم عودته إلى الكتاب لأنه أقرب مذكور . والجملة تعليلية للإنزال المذكور . وفي إسناد الحكم إلى الكتاب تنبيه للناس إلى أن من الواجب عليهم أن يرجعوا إليه عند كل اختلاف . لأن هذا هو المقصد الأساسي من إنزال الكتب السماوية .

وللأستاذ الإمام محمد عبده كلام نفيس في هذا المعنى فقد قال - رحمه الله - ما ملخصه : « الحكم مسند إلى الكتاب نفسه، فالكتاب ذاته هو الذي يفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه، وفيه نداء للحاكمين بالكتاب أن يلزموا حكمه، وألا يعدلوا عنه إلى ما تسوله الأنفس وتزينه الأهواء . . . ولوساغ للناس أن يؤولوا نصا من نصوص الكتب على حسب ما تنزع إليه عقولهم بدون رجوع إلى بقية النصوص، لما كان لإنزال الكتب فائدة، ولما كانت الكتب في الحقيقة حاكمة، بل كانت متحكمة فيها الأهواء، فنعود المصلحة مفسدة، وينقلب الدواء علة، ولهذا رد الله الحكم إلى الكتاب نفسه لا إلى هوى الحاكم به . . . ونسبة الحكم إلى الكتاب هي كنسبة النطق والهدى والتبشير إليه في قوله - تعالى - : ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ﴾ وقوله - تعالى - : ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين .. ﴾

ثم بقول - رحمه الله - « يتخذ الواحد منهم كلمة من الكتاب أو أثراً مما جاء به وسيلة إلى تسخير غيره لما يريد، وذلك قطع الكلمة أو الأثر عن بقية ما جاء في الكتاب والآثار الأخرى والى اللسان أو تأويله بغير ما قصد منه؛ وما هم المؤول أن يعمل بالكتاب وإنما كل ما يقصد هو أن يصل إلى مطلب لشهوته، أو عضد لسطوته، سواء أهدمت أحكام الله أم قامت، واعوجت

السييل أم استقامت، ثم يأتي ضال آخر يريد أن ينال من هذا ما نال غيره، فيحرف ويؤول حتى يجد المخدوعين بقوله، ويتخذهم عوناً على الخادع الأول، فيقع الاختلاف والاضطراب، وآلة المختلفين في ذلك هو الكتاب^(١)

ثم بين - سبحانه - الأسباب التي أدت إلى اختلاف الناس في الكتاب الذي أنزله لهدايتهم فقال ﴿وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم﴾.

والضمير في قوله: ﴿فيه﴾ وفي قوله: ﴿أوتوه﴾ يعود إلى الكتاب، والمعنى عليه: وما اختلف في شأن الكتاب الهادي الذي لا لبس فيه، المنزل لإزالة الاختلاف، إلا الذين أوتوه، أي علموه ووقفوا على تفاصيله، ولم يكن اختلافهم لا لتباس عليهم من جهته وإنما كان خلافاً من بعد ما ظهرت لهم الدلائل الواضحة الدالة على صدقه، وما حملهم على هذا الاختلاف إلا البغي والظلم والحسد الذي وقع بينهم.

والمراد بالذين اختلفوا فيه أهل الكتاب اليهود والنصارى، واختلافهم في الكتاب يشمل تصديقهم ببعضه وتكذيبهم بالبعض الآخر، كما يشمل اختلافهم في تفسيره وتأويله وتنفيذ أحكامه وعدم تنفيذها، وذهاب كل فريق منهم مذهباً يخالف مذهب الآخر في أصول الشرع لا في فروعه.

وعبر عن الإنزال بالإيتاء - كما يقول الألوسي - للتنبيه من أول الأمر على كمال تمكنهم من الوقوف على ما فيه من الحق، فإن الإنزال لا يفيد ذلك، وقيل: عبر به ليختص الموصول بأرباب العلم والدراسة من أولئك المختلفين، وخصهم بالذكر لمزيد شناعة فعلهم ولأن غيرهم تبع لهم^(٢).

وقوله: ﴿من بعد ما جاءتهم البينات﴾ متعلق باختلاف، وفيه زيادة تشنيع عليهم لأنهم قد اختلفوا فيه بعد أن قامت أمامهم الحجج الناصعة الدالة على الحق.

وقوله: ﴿بغياً﴾ مفعول لأجله لاختلفوا ﴿وبينهم﴾ متعلق بمحذوف صفة لقوله ﴿بغياً﴾. أي أن داعى الاختلاف هو البغي والحسد الذي وقع بينهم، فجعل كل فريق منهم مخطئاً الآخر، ويجرح رأيه.

وفي هذا التعبير إشارة إلى أن البغي قد باض وفرخ عندهم، فهو يحوم عليهم، ويدور

(١) تفسير المنار ج ٢ ص ٢٨٤، ٢٨٦.

(٢) تفسير الألوسي ج ٢ ص ١٠٢.

بينهم، ولا طمع له في غيرهم، ولا ملجأ له سواهم، لأنهم أربابه الذين تمكنوا منه، وتمكن منهم بقوة ورسوخ.

وبعضهم جعل الضمير في قوله: ﴿فيه﴾ يعود إلى الحق، والضمير في قوله: ﴿أوتوه﴾ يعود إلى الكتاب. أى: وما اختلف في الحق إلا الذين أوتوا الكتاب

ويرى بعض العلماء أن عودة الضمير في كليهما إلى الحق أو إلى الكتاب جائز، وأن المعنى على التقديرين واحد، لأن الكتاب أنزل ملاسًا للحق ومصاحبًا له، فإذا اختلف في الكتاب اختلف في الحق الذى فيه وبالعكس على طريقة قياس المساواة فى المنطق والجملة الكريمة تحذير شديد من الوقوع فيما وقع فيه غيرهم من اختلاف يؤدى إلى البغى والتنازع والإعراض عن الحق.

ثم بين - سبحانه - حال المؤمنين بعد بيانه لحال الغاوين فقال - تعالى ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه﴾.

أى: فهدى الله الذين آمنوا وصدقوا رسله إلى الحق الذى اختلف فيه أهل الضلالة، وذلك الهدى بفضل توفيقه لهم وتيسيره لأمرهم.

والفاء فى قوله: ﴿فهدى﴾ فصيحة لأنها أفصحت عن كلام مقدر وهو المعطوف عليه المحذوف.

والتقدير: إذا كان هذا شأن الضالين المختلفين فى الحق، فقد هدى الله بفضلته الذين آمنوا إلى الصواب.

وبين - سبحانه - أن الذين رزقهم الهداية هم الذين آمنوا، للإشعار بأن سبب هدايتهم للحق هو إيمانهم وتقواهم، واستجابتهم للداعى الذى دعاهم إلى الطريق المستقيم.

وأسند الهداية إليه - سبحانه - لأنه هو خالقها، ولأن قلوب العباد بيديه فهو يقبلها كيف يشاء، وهذا لا يتناقى أن للعبد اختياراً وكسباً فهو إذا سار فى طريق الحق رزقه الله النور المشرق الذى يهديه، وإن سار فى طريق الضلالة واستحب العمى على الهدى سلب الله عنه توفيقه بسبب إيثاره الضلالة على الهداية.

وقوله - تعالى - فى ختام هذه الآية: ﴿والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ تذييل قصد به بيان كمال سلطانه، وتمام قدرته.

أى: والله وحده هو الهادى من يشاء من عباده إلى طريق الحق الذى لا يضل سالكه، فليس لأحد سلطان بجوار سلطانه، ولو أراد أن يكون الناس جميعاً مهديين لكانوا، ولكن حكمته

اقتضت أن يختبرهم ليطهر الخبيث من الطيب، فيجازى كل فريق بما يستحقه.

قال ابن كثير: وفي صحيح البخارى ومسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلى يقول: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم».

وفي الدعاء المأثور: اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ولا تجعله ملتبسا علينا فنضل واجعلنا للمتقين إماما^(١).

وبذلك نرى أن الآية قد بينت أن الناس لا يستغنون عن الدين الذى شرعه الله لهم على لسان رسله - عليهم الصلاة والسلام -، وأن الأشرار من الناس هم الذين يحملهم البغى على الاختلاف فى الحق بعد ظهوره لهم، أما الأخيار منهم فهم الذين اهتدوا بتوفيق الله وتيسيره إلى طريق الخير والصواب ﴿والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾.

وبعد أن ذكر - سبحانه - حال الناس، واختلاف سفهائهم على أنبيائهم، واهتداء عقلائهم إلى الحق، عقب ذلك بدعوة المؤمنين إلى الاقتداء بمن سبقهم فى الصبر والثبات. فقال - تعالى -:

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا
يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِ الْبِئْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ
وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرَ اللَّهِ
أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾

قال القرطبي: قال قتادة والسدى وأكثر المفسرين: نزلت هذه الآية فى غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد والشدة والحر والبرد وسوء العيش وأنواع الشدائد، وكانوا كما قال - تعالى -: ﴿إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر﴾.

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٥٠.

وقيل نزلت في حرب أحد، ونظيرها - في آل عمران ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾ . وقالت فرقة : نزلت الآية تسلية للمهاجرين حين تركوا ديارهم وأمواهم بأيدي المشركين، وآثروا رضا الله ورسوله، وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله، وأسر قوم من الأغنياء النفاق فأنزل الله ذلك تطيبيا لقلوبهم^(١).

وما ذكره المفسرون في سبب نزول هذه الآية الكريمة لا يمنع عمومها، وأنها تدعو المؤمنين في كل زمان ومكان إلى التذرع بالصبر والثبات تأسيا بمن سبقهم من المتقين حتى يفوزوا برضوان الله - تعالى - ونصره.

و﴿أم﴾ هنا يرى بعضهم أنها للاستفهام الإنكارى، ويرى بعض آخر أنها أم المتصلة، ويرى فريق ثالث أنها أم المنقطعة.

قال الجمل : وحسب هنا من أخوات ظن تنصب مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر، وأن وما بعدها سادة مسد المفعولين عند سيويه، ومسد الأول عند الأخفش والثاني محذوف، ومضارعها فيه وجهان : الفتح وهو القياس والكسر^(٢).

و﴿لما﴾ تدل على النفي مع توقع حصول المنفى بها، كما في قول النابغة :
أزف الترحل غير أن ركابنا لما نزل برحالنا وكأن قد

فنفى بلما ثم قال : وكان قد، أى وكأنه قد زالت.

و﴿البأساء﴾ ما يصيب الناس في الأموال كالفقر. والضراء : ما يصيبهم في الأنفس كالمرض مشتقان من البؤس والضر.

و﴿زلزلوا﴾ من الزلزلة وهى شدة التحريك وتكون في الأشخاص وفي الأحوال. فيقال : زلزلت الأرض، أى تحركت واضطربت، ومعنى زلزلوا : خوفوا وأزعجوا واضطربوا.

والمعنى على أن ﴿أم﴾ للاستفهام الإنكارى : أظنتم أيها المؤمنون أنكم تدخلون الجنة بمجرد الإيمان دون أن يصيبكم ما أصاب الذين سبقوكم من شدائد في الأنفس والأموال، ومن مخاوف أزعجتهم وأفزعتهم حتى بلغ الأمر برسولهم وبالمؤمنين معه أن يقولوا وهم في أقصى ما تحتمله النفوس البشرية من آلام : متى نصر الله !!؟

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٣٤.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ١٦٩.

لا - أيها المؤمنون - إني أنهاكم أن تظنوا هذا الظن، وأمركم أن تتيقنوا من أن الظفر بدخول الجنة يستلزم منكم التأسى بمن سبقكم من المتقين في الصبر والثبات.

والمعنى على أن ﴿أم﴾ هنا هي المتصلة - أي المشعرة بمحذوف دل عليه الكلام - : قد حلت من قبلكم أمم أوتوا الكتاب واهتدوا إلى الحق فأذاهم الناس أذى شديدا فصبروا على ذلك أفصبرون مثلهم على المكاره وتثبتون ثباتهم على الشدائد؟ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة دون أن يصيبكم ما أصابهم؟

والمعنى على أن ﴿أم﴾ هنا منقطعة - أي تدل على الإضراب والاستفهام معا - : لقد أوذيتم أيها المؤمنون في سبيل دينكم أذى عظيماً، فعليكم أن تصبروا وأن تثبتوا كما فعل الذين من قبلكم، أم حسبتم أن تدخلوا الجنة دون ابتلاء وصبر.. أي : بل أحسبتم.. إن كان هذا هو حسابكم فهو حساب باطل لا ينبغي لكم.

وقوله - تعالى - : ﴿مستهم البأساء..﴾ استئناف وقع جواباً عما ينساق إليه الذهن، كأنه قيل : كيف مثل أولئك الذين خلوا ومضوا؟ فكان الجواب مستهم البأساء.. الخ. ومستهم أي : حلت بهم. وعبر بمستهم للإشعار بأن تلك الشدائد قد أصابتهم بالألام التي اتصلت بحواسهم وأجسادهم ولكنها لم تضعف إيمانهم إذ حقيقة المس اتصال الجسم بجسم آخر.

قال صاحب الكشاف : وقوله : ﴿وزلزلوا﴾ أي : أزعجوا إزعاجاً شديداً شبيها بالزلزلة بما أصابهم من الأهوال والافراع «حتى يقول الرسول» أي : إلى الغاية التي قال الرسول ومن معه فيها ﴿متى نصر الله﴾ أي بلغ بهم الضجر ولم يبق لهم صبر حتى قالوا ذلك. ومعناه طلب النصر وتمنيه، واستطالة زمان الشدة. وفي هذه الغاية دليل على تناهي الأمر في الشدة وتماديته في العظم؛ لأن الرسل لا يقادر قدر ثباتهم واصطبارهم وضبطهم لأنفسهم، فإذا لم يبق لهم صبر حتى ضجوا كان ذلك الغاية في الشدة التي لا مطمع وراءها^(١).

والمراد بالرسول - كما يقول الألوسي - الجنس لا واحد بعينه. وقيل : شعياً، وقيل : أشعياً، وقيل اليسع. وعلى التعيين يكون المراد من الذين خلوا قوما بأعيانهم وهم أتباع هؤلاء الرسل^(٢).

وقوله - تعالى - : ﴿ألا إن نصر الله قريب﴾ استئناف على تقدير القول. أي فقيل لهم حينئذ

(١) تفسير الكشاف ج ١ صفحة ٢٥٦.

(٢) تفسير الألوسي ج ٢ صفحة ١٠٤.

التمسوا من الله النصر بعد تلك الشدائد والأهوال التي نزلت بهم : ألا إن نصر الله قريب .
تطبيقاً لأنفسهم ، وبعثاً للأمال في قلوبهم .

وفي هذه الجملة الكريمة ألوان من المؤكدات والمبشرات بالنصر القريب ، ويشهد لذلك التعبير بالجملة الاسمية بدل الفعلية فلم يقل - مثلاً - ستنصرون والتعبير بالجملة الاسمية يدل على التوكيد . ويشهد لذلك أيضاً تصدير الجملة بأداة الاستفتاح الدالة على تحقيق مضمونها وتقريره ، ووقوع إن المؤكدة بعد أداة الاستفتاح ، وإضافة النصر إلى الله القادر على كل شيء والذي وعد عباده المؤمنين بالنصر فقال ، إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد :

هذا ، والمتأمل في الآية الكريمة يراها قد بينت للمؤمنين أن طريق الجنة محفوف بالمكاره ، وصدق رسول الله ﷺ في قوله : « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات » . وأنهم لكي يصلوا إلى الجنة عليهم أن يتأسوا بالسابقين في جهادهم وصبرهم على الأذى ، فقد اقتضت سنة الله أن يجعل هذه الحياة نزالاً موصولاً بين الأخيار والأشرار ، ونزاعاً مستمراً بين الأطهار والفجار ، وكثيراً ما يضيق البغاة على المؤمنين ، وينزلون بهم ما ينزلون من صفوف الاضطهاد إلا أن الله - تعالى - قد تكفل بأن يجعل العاقبة للمتقين .

ولقد حكى لنا التاريخ أن المؤمنين السابقين قد صبروا أجمل الصبر وأسماء في سبيل إعلاء كلمة الله .

روى البخارى عن خباب بن الأرت - رضى الله عنه - قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعونا ؟ فقال : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ، فيجاء بالمشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ، فما يصدده ذلك عن دينه . والله ليرى الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون (١) .

وبذلك نرى أن السورة الكريمة من قوله - تعالى - ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ﴾ إلى هنا ، قد بينت لنا أقسام الناس في هذه الحياة ، ودعت المؤمنين إلى أن يتمسكوا بجميع تعاليم الإسلام ، وأن يزهّدوا في زينة الحياة التي شغلت المشركين عن كل شيء سواها ، وأن يشكروا الله على هدايته إياهم إلى الحق الذي اختلف غيرهم فيه ، وأن يوطنوا أنفسهم على تحمل الآلام لكي يحقق الله لهم الآمال .

(١) صحيح البخارى كتاب الإكراه . باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر ج ٩ ص ٢٦ .

ثم أرشد الله - تعالى - المؤمنين بعد ذلك إلى أن مما يعينهم على دفع الأذى وعلى دحر أعدائهم أن يبذلوا أموالهم في طاعة الله ، وأن يعدوا أنفسهم للقتال في سبيله فقال - تعالى - :

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ^ط قُلْ
مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ
وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾
كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا
شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ
الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ
عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ يُقِنُّونَكُمْ
حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ
مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ
أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ
هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ
هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ
اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

قال الألوسی : عن ابن جریج قال : سأل المؤمنون رسول الله ﷺ أين يضعون أموالهم فأُنزل الله - تعالى - قوله : ﴿يسألونك ماذا ينفقون﴾ . الآية . وعن ابن عباس قال : كان عمرو بن الجموح شيخاً كبيراً وعنده مال كثير فقال يا رسول الله : بماذا نتصدق، وعلى من ننفق؟ فنزلت الآية .

والمعنى : يسألك أصحابك يا محمد أى شىء ينفقونه من أصناف الأموال؟ قل لهم : ما أنفقتم من أموالكم فاجعلوه للوالدين قبل غيرهما ليكون أداء لحق تربيتها ووفاء لبعض حقوقها، وللأقربين وفاء لحق القرابة والرحم ولليتامى لأنهم فقدوا الأب الحانى الذى يسد عوزهم، والمساكين لفقرتهم واحتياجهم، وابن السبيل لأنه كالفقير لغيبة ماله وانقطاعه عن بلده .

قال الإمام الرازى : فهذا هو الترتيب الصحيح الذى رتبته الله - تعالى - فى كيفية الإنفاق . ثم لما فصل هذا التفصيل الحسن الكامل أردفه بعد ذلك بالإجمال فقال : ﴿وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم﴾ أى : وكل ما فعلتموه من خير إما مع هؤلاء المذكورين وإما مع غيرهم حسبة الله وطلباً لجزييل ثوابه وهرباً من أليم عقابه فإن الله به عليم فيجازيكم احسن الجزاء عليه . . . (١) .

وظاهر الآية - كما يقول الألوسی - أن السؤال عن المنفق فأجاب ببيان المصرف صريحاً، لأنه أهم لأن اعتداد النفقة باعتباره . وأشار - سبحانه - إجمالاً إلى بيان المنفق فإن قوله ﴿من خير﴾ يتضمن كونه حاللاً إذ لا يسمى ما عده خيراً، وإنما تعرض لذلك - أى لبيان المنفق عليه - وليس فى السؤال ما يقتضيه، لأن السؤال للتعلم لا للجدل، وحق المعلم فيه أن يكون كطبيب رفيق يتحرى ما فيه الشفاء، طلبه المريض أم لم يطلبه . ولما كانت حاجتهم إلى من ينفق عليه كحاجتهم إلى ما ينفق بين الأمرين، (وهذا كمن به صفراء فاستأذن طبيباً، فى أكل العسل فقال له : كله مع الخل) . فالكلام إذاً من أسلوب الحكيم . ويحتمل أن يكون فى الكلام - أى فى كلام السائلين - ذكر المصرف - أيضاً - كما فى سؤال عمرو بن الجموح إلا أنه لم يذكره فى الآية للإيجاز فى النظم تعويلاً على الجواب، فتكون الآية جواباً لأمرين مسؤل عنهما . والاقتصار فى بيان المنفق على الإجمال من غير تعرض للتفصيل كما فى بيان المصرف للإشارة إلى كون الثانى أهم . وهل تخرج الآية بذلك عن كونها من أسلوب الحكيم أولاً؟ قولان أشهرهما الثانى (٢) .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٦ ص ٢٦ .

(٢) تفسير الألوسی ج ٢ ص ١٠٥ .

ولم يتعرض - سبحانه - هنا لبقية المحتاجين كالسائلين والغارمين إما اكتفاء بذكرهم في مواضع أخرى، وإما بناء على دخولهم تحت عموم قوله - تعالى - : في آخر الآية ﴿وما فعلوا من خير فإن الله به عليم﴾ فإنه شامل لكل خير واقع في أى مصرف كان.

قال الجمل و «ذا» اسم موصول بمعنى الذى والعائد محذوف، و «ما» على أصلها من الاستفهام ولذلك لم يعمل فيها يسألونك، وهى مبتدأ وإذا خبره، والجمله محلها النصب يسألون. والمعنى يسألونك أى الشيء الذى ينفقونه»^(١).

وقوله : ﴿وما فعلوا من خير فإن الله به عليم﴾ تذييل قصد به الحض على فعل الخير، لأن المؤمن عندما يشعر بأن الله يرى عمله ويجازيه عليه بما يستحقه، يشجعه ذلك على الاستمرار في عمل الخير. وإذا كان بعضنا يكثر من عمل الخير عندما يعلم أن شخصا ذا جاه يسره هذا العمل، فكيف يكون الحال عندما يعلم المؤمن التقى أن الذى يرى عمله ويكافئه عليه هو الله الذى لا تحفى عليه خافية، والذى يعطى من يشاء بغير حساب.

قال بعض العلماء : وقد اختلف في هذه الآية. فقيل إنها منسوخة بآية الزكاة وهى قوله - تعالى - : ﴿إنما الصدقات للفقراء...﴾. وقيل - وهو الأولى - إنها غير منسوخة، وهى لبيان صدقة التطوع فإنه متى أمكن الجمع فلا نسخ»^(٢).

وقوله : ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم﴾ حض لهم على بذل النفس في سبيل إعلاء كلمة الله، بعد أن حضهم في الآية السابقة على بذل المال.

والكره - بضم الكاف - بمعنى الكراهية بدليل قوله - تعالى - : ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً.﴾ أى أن القتال لشدة ويلاته، وما فيه من إزهاق الأرواح كأنه الكراهة نفسها فهو من وضع المصدر موضع اسم المفعول مبالغة، وقرئ وهو كره لكم - بفتح الكاف - فيكون فيه معنى الإكراه، لأن الكره بالفتح ما أكرهت عليه. وقيل هما لغتان بمعنى واحد وهو الكراهية.

ويرى كثير من المفسرين أن القتال إنما كان مكروها للنفس لما فيه من التعرض للجراح وقطع الأطراف، وإزهاق الأرواح والإنسان ميال بطبعه إلى الحياة، وأيضاً لما فيه من إخراج المال ومفارقة الوطن والأهل، والحيولة بين المقاتل وبين طمأنينته ونومه وطعامه، فهو مهما يكن أمره فيه ويلات وشدائد، ومشقات تتلوها مشقات، ولكن كون القتال مكروها للنفس لا يناق الإيمان ولا يعنى أن المسلمين كرهوا فرضيته، لأن امتثال الأمر قد يتضمن مشقة، ولكن إذا

(١) حاشية الجمل ج ١ ص ١٧٠.

(٢) تفسير آيات الأحكام ج ١ ص ١١٤ لفضيلة الأستاذ محمد على السائس.

عرف الثواب هان في جنبه اقتحام المشقات . ولا شك أن القتال في سبيل الله - مع ما فيه من صعاب وشدائد - ستكون عاقبته العزة في الدنيا، والسعادة في الأخرى .

ويرى بعضهم أن كره المسلمين للقتال ليس سببه ما فيه من شدائد ومخاطر وتضحيات بدليل أنهم كانوا يتنافسون خوض غمراته، وإنما السبب في كراهيتهم له هو أن الإسلام قد غرس في نفوسهم رقة ورحمة وسلاماً وجباً، وهذه المعاني جعلتهم يحبون مصابرة المشركين ويكرهون قتالهم أملاً في هدايتهم، ورجاء في إيمانهم، ولكن الله - تعالى - كتب على المسلمين قتال أعدائهم لأنه يعلم أن المصلحة في ذلك، فاستجاب المؤمنون بصدق وإخلاص لما فرضه عليهم .
رهبم .

ويبدو لنا أن الرأي الأول أقرب إلى ظاهر الآية، لأن القتال فريضة شاقة على النفس البشرية، بحسب الطبع والقرآن لا يريد أن ينكر مشقتها، ولا أن يهون من أمرها، ولا أن ينكر على النفس البشرية إحساسها الفطري بكراهيتها، ولكنه يعالج الأمر من جانب آخر، بأن يقرر أن من الفرائض ما هو شاق ولكن وراءه حكمة تهون مشقتها، وتسهل صعوبته، وتحقق به خيراً محبوباً قد لا يراه النظر الإنساني القصير . وقد بين القرآن هذه الحكمة في قوله ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم﴾ .

أى : وعسى أن تكرهوا شيئاً كالقتال في سبيل الله - تعالى - وهو خير لكم إذ فيه إحدى الحسنيين : إما الظفر والغنيمة - في الدنيا مع ادخار الجزاء الأخرى وإما الشهادة والجنة، وعسى أن تحبوا شيئاً كالفعود عن الجهاد وهو شر لكم في الواقع لما فيه من الذل ووقوعكم تحت طائلة الأعداء .

قال الفخر الرازي : معنى الآية أنه ربما كان الشيء شاقاً عليكم في الحال، وهو سبب للمنافع الجليلة في المستقبل، ولأجله حسن شرب الدواء المر في الحال لتوقع حصول الصحة في المستقبل، وترك الجهاد، وإن كان يفيد - أى بحسب ظنكم - في الحال صون النفس عن خطر القتل وصون المال عن الإنفاق ولكن فيه أنواع من المضار منها : أن العدو إذا علم ميلكم إلى الدعة والسكون قصد بلادكم وحاول قتلكم . . . والحاصل أن القتال في سبيل الله سبب لحصول الأمن من الأعداء في الدنيا وسبب لحصول الثواب العظيم للمجاهد في الآخرة . . .^(١)

وقال القرطبي : والمعنى : عسى أن تكرهوا ما في الجهاد من المشقة وهو خير لكم في أنكم

تغلبون وتظفرون وتغنمون وتؤجرون ومن مات منكم مات شهيدا، وعسى أن تحبوا الدعة وترك القتال وهو شر لكم في أنكم تغلبون ويذهب أمركم.

وهذا صحيح لا غبار عليه، كما اتفق في بلاد الأندلس، تركوا الجهاد وجبنوا عن القتال وأكثروا من الفرار، فاستولى العدو على البلاد، وأى بلاد؟! وأسروا وقتلوا وسبوا واسترقوا، فإنا لله وإنا إليه راجعون!! ذلك بما قدمت أيدينا وكسبته!! وقال الحسن في معنى الآية: لا تكرهوا الملمات الواقعة؛ فلرب أمر تكرهه فيه نجاتك، ولرب أمر تحبه فيه عطفك، وأنشد أبو سعيد الضرير:

رب أمر تتقيه جر أمراً ترتضيه
خفى المحبوب منه وبدا المكروه فيه^(١)

وهذا الكلام الذى كتبه الإمام القرطبي من مئات السنين يثير في النفس شجوناً وآلاماً، فإن المسلمين ما هانوا وضعفوا إلا عند ما تركوا الجهاد في سبيل الله، وتناقلوا إلى الأرض، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، وآثروا متع الدنيا وشهواتها على الحياة العزيزة الكريمة.

وقال الإمام ابن كثير عند تفسيره للآية: هذا إيجاب من الله - تعالى - للجهاد على المسلمين وأن يكفوا شر الأعداء من حوزة الإسلام. قال الزهري: الجهاد واجب على كل أحد غزا أو قعد. فالقاعد عليه إذا استعين به أن يعين، وإذا استغيث به أن يغيث، وإذا استنقر أن ينفّر، ولهذا ثبت في الصحيح «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزوات ميتة جاهلية، وقال: ﷺ يوم الفتح: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنقرتم فانفروا»^(٢).

وقد أجمع العلماء على أنه إذا نزل العدو بساحة البلاد وجب القتال على كل المسلمين، كل على حسب قدرته.

وقد ختم - سبحانه - هذه الآية الكريمة بقوله: ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ أى: والله يعلم ما هو خير لكم وما هو شر لكم في الواقع وأنتم لا تعلمون ذلك، فبادروا إلى ما يأمركم به لأنه لا يأمركم إلا بما علم فيه خيراً لكم، وانتهوا عما نهاكم عنه لأنه لا ينهاكم إلا عما هو شر لكم، ومفعولاً يعلم وتعلمون محذوفان دل عليها ما قبلها. أى: يعلم الخير والشر وأنتم لا تعلمونها. والمقصود من هذه الجملة الكريمة الترغيب في الجهاد، والامتنال لما شرعه الله - تعالى - سواء أعرفت حكمته أم لم تعرف، لأن العليم بالحكم والمصالح هو الله رب العالمين.

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٣٩.

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٥٢.

وبذلك نرى أن القرآن الكريم لا ينكر على الناس مشاعرهم الطبيعية، وأحاسيسهم الفطرية من كراهية للقتال، ولكنه يربى نفوسهم على الاستجابة لأوامر الله العليم بالغايات المطلع على العواقب، الخبير بما فيه خيرهم ومصالحهم، وبهذه التربية الحكيمة بذل المؤمنون نفوسهم وأموالهم في سبيل رضا خالقهم عن طواعية واختيار، لا عن قسر وإجبار.

وبعد أن حرض الله - تعالى - المؤمنين على بذل أموالهم وأنفسهم في سبيله عقب ذلك ببيان حكم القتال في الأشهر الحرم فقال - تعالى - : ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه، قل قتال فيه كبير﴾... إلخ.

وقد ذكر كثير من المفسرين ومن أصحاب السير في سبب نزول هذه الآية قصة ملخصها : أن النبي ﷺ بعث عبد الله بن جحش ومعه اثنا عشر رجلاً كلهم من المهاجرين، وأعطاه كتاباً محتوماً وأمره ألا يفتحه إلا بعد أن يسير يومين، ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به ولا يستكره أحدًا من أصحابه. فسار عبد الله يومين ثم فتح الكتاب فإذا فيه «إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل بنخلة - مكان بين مكة والطائف - فترصد بها عيراً لقريش وتعلم لنا من أخبارهم».

فقال عبد الله : سمعا وطاعة!! وأخبر أصحابه بذلك وأنه لا يستكرههم فمن أحب الشهادة فيلنض من كره الموت فليرجع فأما أنا فناهض! فنهضوا جميعاً، فلما كانوا في أثناء الطريق أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما يعتقبانه. فتخلفا في طلبه، ومضى عبد الله ببقية أصحابه حتى وصلوا نخلة فمرت عير لقريش في طريقها لمكة وكانت في حراسة عمرو بن الحضرمي وعثمان بن المغيرة، وأخويه نوفل والحكم به كيسان. فتشاور المسلمون وقالوا : نحن في آخر يوم من رجب. لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن في الحرم فليمتنعن منكم به، ولئن قتلتموهن لتقتلنهم في الشهر الحرام!! فترددوا وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، فرمى «واقد بن عبد الله» عمرو بن الحضرمي يسهم فقتله، وأسروا عثمان والحكم، وأفلت منهم نوفل فأعجزهم.

وقيل كان ذلك في أول ليلة من رجب وقد ظنوها آخر ليلة من جمادى، فإقدامهم على ما أقدموا عليه كان على سبيل الخطأ.

ثم أقبل عبد الله ومن معه بالعين والأسيرين حتى قدموا على رسول الله وقد عزلوا من ذلك الخمس فأنكر رسول الله ﷺ ما فعلوه وقال لهم : «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام» وعنهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا. وقالت قريش قد استحلب محمد وأصحابه القتال في الشهر الحرام، واشتد ذلك على المسلمين، حتى أنزل الله تعالى قوله : ﴿يسألونك عن الشهر الحرام

قتال فيه قل قتال فيه كبير. ﴿١﴾.

والمعنى : يسألونك يا محمد عن حكم القتال في الشهر الحرام، قل لهم . القتال فيه أمر كبير مستنكر، وذنب عظيم مستقبح، لأن فيه اعتداء على الشهر الحرام المقدس، وانتهاك لمحارم الله - تعالى - .

والسائلون قيل هم المؤمنون؛ وقد سألوا عن حكم ذلك على سبيل التعليم والتماس المخرج لما حصل منهم . وقيل هم المشركون وسؤالهم على سبيل التعيير للنبي ﷺ وأصحابه، حيث أقدم بعضهم وهو عبد الله ومن معه على القتال فيه فرد الله عليهم بأن القتال فيه كبير ولكن ما فعله هؤلاء المشركون من صد عن سبيل الله وكفر به . . . الخ أكبر من ذلك بكثير.

فالجواب تشريع إن كان السؤال من المسلمين . وتبكيك وتوبيخ إن كان من المشركين، لأنهم توقعوا أن يجيبهم بإباحة القتال فيه فيثيروا الشبهات حول الإسلام والمسلمين، فلما أجابهم بأن القتال فيه كبير وأن ما فعلوه من جرائم في حق المسلمين أكبر وأعظم كتبوا وألقموا حجراً .

والمراد بالشهر الحرام الأشهر الحرم جميعها وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب . وسميت بذلك لحرمة القتال فيها، فأل في الشهر للجنس . وقيل للعهد والمراد بالشهر الحرام شهر رجب الذي حدثت فيه قصة عبد الله بن جحش وأصحابه . وقوله «قتال فيه» بدل اشتمال من الشهر الحرام، و«قتال» مبتدأ و«كبير» خبر و«فيه» ظرف صفة لقتال مخصصة له .

قال الإمام الرازي : فإن قيل : لم نكر القتال في قوله - تعالى - : «قتال فيه» ومن حق النكرة إذا تكررت أن تجيء باللام حتى يكون المذكور الثاني هو الأول، لأنه لو لم يكن كذلك كان المذكور الثاني غير الأول كما في قوله - تعالى - : «فإن مع العسر يسرا» . إن مع العسر يسرا» .

قلنا : نعم ما ذكرتم من أن اللفظ إذا تكرر وكانا نكرتين كان المراد بالثاني غير الأول . والقوم أرادوا بقولهم : «يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه» ذلك القتال المعين الذي أقدم عليه عبد الله وأصحابه فقال - تعالى - : «قل قتال فيه كبير» . وفيه تنبيه على أن القتال الذي يكون كبيراً ليس هو القتال الذي سألتهم عنه؛ بل هو قتال آخر؛ لأن هذا القتال كان الغرض به نصرته الإسلام وإذلال الكفر فكيف يكون هذا من الكبائر؟ إنما القتال الكبير هو الذي يكون الغرض فيه هدم الإسلام وتقوية الكفر؛ فكان اختيار التنكير في اللفظين لأجل هذه الدققة . ولو أنه

(١) تفسير بن كثير - بتصرف وتلخيص - ج ١ ص ٢٥٤، وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٤٠ .

وقع التعبير عنها أو عن أحدهما بلفظ التعريف لبطلت هذه الفائدة. فسيحان من له تحت كل كلمة من كلمات هذا الكتاب - بل تحت كل حرف منه - سر لطيف لا يهتدى إليه إلا أولو الألباب»^(١).

ثم أخذ القرآن يعدد على المشركين جرائمهم التي كل جريمة منها أكبر من القتال في الشهر الحرام الذي فعله المؤمنون لدفع الضرر عن أنفسهم أو لجهلهم بالمليقات فقال - تعالى - : ﴿وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَكَفَرَ بِهِ، وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَإِخْرَاجَ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرَ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

أى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين نحن نوافقكم على أن القتال في الشهر الحرام كبير، ثم قل لهم أيضاً على سبيل التوبيخ إن ما فعلتموه أنتم من صرفكم المسلمين عن طاعة الله وعن الوصول إلى حرمه، ومن شرككم بالله في بيته، ومن إخراجكم لأهله منه أعظم وزراً عند الله من القتال في الشهر الحرام.

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة إدخال الطمأنينة على قلوب المؤمنين بسبب ما وقع من عبد الله بن جحش ومن معه، وتبكيك المشركين على جرائمهم التي أولها يتمثل في قوله ه تعالى - : ﴿وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى : منع من يريد الإسلام من دخوله، وأبتدأ - سبحانه - بيان صدهم عن سبيله للإشارة إلى أنهم يعاندون الحق في ذاته.

وثانيها قوله : ﴿وَكَفَرَ بِهِ﴾ أى : كفر بالله - تعالى - وهو معطوف على ما قبله. وثالثها قوله : ﴿وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ وهو معطوف على سبيل الله أى : وصد عن سبيل الله وعن المسجد الحرام بمنعهم المؤمنين من الحج والاعتماد.

ورابعها قوله : ﴿وَإِخْرَاجَ أَهْلِهِ مِنْهُ﴾ أى : وإخراج النبي - ﷺ - وأصحابه من مستقرهم حول المسجد الحرام بمكة وهم القائمون بحقوقه، كل ذلك «أكبر» جرماً، وأعظم إثماً «عند الله» من القتال في الشهر الحرام.

قال الجمل : فقوله «أكبر» خبر عن الثلاثة أعنى : صد وكفر وإخراج وفيه حينئذ احتمالان :

أحدهما : أن يكون خبراً عن المجموع.

وثانيهما : أن يكون خبراً عنها باعتبار كل واحد كما تقول : زيد وبكر وعمرو أفضل من خالد أى : كل واحد منهم على انفراده أفضل من خالد، وهذا هو الظاهر. والمفضل عليه محذوف أى : أكبر مما فعلته السرية»^(٢).

(٢) تفسير الجمل ج ١ ص ١٧٣.

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٦ ص ٣٢.

ثم أضاف - سبحانه - إلى جرائمهم السابقة جريمة خامسة فقال: ﴿والفتنة أكبر من القتل﴾ أى: ما فعله المشركون من إنزال الشدائد بالمؤمنين تارة بإلقاء الشبهات وتارة بالتعذيب ليحملوهم على ترك عقيدتهم أكبر إثما من القتل في الشهر الحرام، لأن الفتنة عن الدين تفضي إلى القتل الكثير في الدنيا وإلى استحقاق العذاب الدائم في الآخرة.

وقيل المراد بالفتنة هنا الكفر. أى: كفركم بالله أكبر من القتل في الشهر الحرام. وأصل الفتنة: عرض الذهب على النار، لاستخلاصه من الغش، ثم استعملت في الشرك وفي الامتحان بأنواع الأذى والاضطهاد.

ويعزى إلى عبد الله بن جحش أنه قال ردا على المشركين عندما قالوا: استحل محمد وأصحابه القتال في الشهر الحرام.

تعدون قتلا في الحرام عظيمة	وأعظم منه لو يرى الرشد راشد
صدودكم عما يقول محمد	وكفر به، والله راء وشاهد
وإخراجكم من مسجد الله أهله	لثلا يرى لله في البيت ساجد
فإننا وإن عيرَ ثَمُونَا بقتله	وأرجف بالإسلام باغ وحاسد
سقينا من ابن الحضرمي رماحنا	بنخلة لما أوقد الحرب واقد
دمًا، وابن عبد الله عثمان بيننا	ينازعه غل من القد عاند

وقوله - تعالى - : ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾ بيان لشدة عداوة الكفار للمؤمنين ودوامها.

أى: ولا يزال المشركون يقاتلونكم أيها المؤمنون ويضمرون لكم سوء ويداومون على إيذائكم لكي يرجعوكم عن دين الإسلام إلى الكفر إن استطاعوا ذلك وقدروا عليه. والتعبير بقوله «ولا يزالون» المفيد للدوام والاستمرار للإشعار بأن عداوة المشركين للمسلمين لا تنقطع، وأنهم لن يكفوا عن الإعداد لقتالهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، فعلى المؤمنين ألا يغفلوا عن الدفاع عن أنفسهم.

و﴿حتى﴾ للتعليل أى: ﴿لا يزالون يقاتلونكم لكي يردوكم عن دينكم﴾ أو بمعنى إلى، أى: إلى أن يردوكم عن دينكم. والرد: الصرف عن الشيء والإرجاع إلى ما كان عليه قبل ذلك: فغاية المشركين أن يردوا المسلمين بعد إيمانهم كافرين.

وقوله: ﴿إن استطاعوا﴾ يدل - كما يقول الزمخشري - على استبعاد استطاعتهم رد المسلمين

عن دينهم، وذلك كقول الرجل لعدوه: إن ظفرت بي فلا تبق على. وهو واثق من أنه لن يظفر به. ويشهد لذلك التعبير بأن المفيدة للشك.

وفائدة التقييد بالشرط «إن» التنبيه على سخافة عقول المشركين، وكون دوام عداوتهم للمؤمنين لن تؤدي إلى النتيجة التي يتمنونها وهي رد المسلمين عن دينهم، لأن لهذا الدين ربا مجمي، وأتباعه يفضلون الموت على الرجوع عنه.

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة من يرتد عن الإسلام فقال: ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر، فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

ويرتدد يفعل من الرد وهو الرجوع عن دينه إلى الكفر.

﴿حبطت أعمالهم﴾ أى: بطلت وفسدت وأصله من الحبط، بفتح الباء - وهو أن تأكل الدابة أكلاً كثيراً تنتفخ معه بطونها فلا تنتفع بما أكلت ويفسد حالها وربما تموت من ذلك. شبه - سبحانه - حال من يعمل الأعمال الصالحة ثم يفسدها بارتداده فتكون وبالاً عليه، بحال الدابة التي أكلت حتى أصابها الحبط ففسد حالها.

والمعنى: ومن يرتدد منكم عن دين الإسلام، فيمت وهو كافر دون أن يعود إلى الإيمان، فأولئك الذين ارتدوا وماتوا على الكفر بطلت جميع أعمالهم الصالحة، وصارت غير نافعة لهم لا في الدنيا بسبب انسلاخهم عن جماعة المسلمين، ولا في الآخرة بسبب ردتهم وموتهم على الكفر، وأولئك الذين هذا شأنهم أصحاب النار هم فيها خالدون خلوداً أبدياً كسائر الكفرة، ولا يغني عنهم إيمانهم السابق على الردة شيئاً.

وجيء بصيغة الافتعال من الردة وهي مؤذنة بالتكلف، للإشارة إلى أن من باشر الدين الحق وخالطت بشاشته قلبه كان من المستبعد عليه أن يرجع عنه، فهذا المرتد لم يكن مستقراً على هذا الدين الحق وإنما كان قلقاً مضطرباً غير مستقر حتى انتهى به الأمر بموته على الكفر لتكلفه الدخول في الدين الحق دون الثبات عليه.

وفي قوله: ﴿منكم﴾ إشعار بأنه لا يتصور أن تتحقق بغية المشركين وهي أن يردوا المسلمين جميعاً عن دينهم. بل أقصى ما يتصوره العقلاء أن ينالوا ضعيف الإيمان فيردوه إلى دينهم، فيكون الله - تعالى - قد نفى خبثه عن هذا الدين، إذ لا خير في هؤلاء المشركين ولا فيمن عاد إليهم بعد إيمانه، والكل مأواهم النار وبئس القرار.

قال الجمل: ومن شرطية في محل رفع بالابتداء، يرتدد فعل الشرط، ومنكم متعلق

بمحذوف لأنه حال من الضمير المستكن في يرتدد؛ ومن للتبويض، والتقدير: ومن يرتدد في حال كونه كائناً منكم أى بعضكم، وعن دينه متعلق بمرتدد، وقوله فيمت وهو كافر عطف على الشرط والفاء مؤذنة بالتعقيب، وقوله: ﴿وهو كافر﴾ جملة حالية من ضمير يمت. وقوله: فأولئك جواب الشرط. وقوله: وأولئك أصحاب النار مستأنف لمجرد الإخبار بأنهم أصحاب النار أو معطوف على جواب الشرط..»^(١).

وفي الإتيان باسم الإشارة «أولئك» في الموضوعين تنبيه إلى أنهم أحرىء بتلك العقوبات الأليمة بسبب ردتهم وموتهم على الكفر.

وفي التنصيص على حبوط أعمالهم في الدنيا والآخرة زيادة مذمة لهم، فهم في الدنيا - بسبب ردتهم - تسلب عنهم آثار كلمة الشهادتين من حرمة الأنفس والأموال والأعراض والصلاة عليهم بعد الموت، وألدفن في مقابر المسلمين، ومن طلاق زوجته المسلمة منه ومن عدم التوارث إلى غير ذلك من حقوق المسلمين، أما في الآخرة فشأنهم شأن الكافرين في ملازمتهم للنار. هذا، ومن الأحكام التي أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة.

١ - حرمة القتال في الشهر الحرام، والجمهور على أن هذا الحكم منسوخ، وأنه لا حرج في قتال المشركين في الأشهر الحرم لقوله - تعالى - : ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ فإن المراد بالأشهر الحرم هنا: هي أشهر العهد الأربعة التي أبيع للمشركين السياحة فيها في الأرض، لا الأشهر الحرم الأربعة المعروفة، فالتقييد بها يفيد أن قتلهم بعد انسلاخها مأمور به في جميع الأزمنة والأمكنة. وأيضاً لأن الرسول ﷺ غزا هوازن وثقيف وأرسل بعض أصحابه إلى أوطاس ليحارب من فيها من المشركين، وكان ذلك في بعض الأشهر الحرم، ولو كان القتال فيهن حراماً لما فعله النبي ﷺ.

قال الألوسي: وخالف عطاء في ذلك، فقد روى عنه أنه سئل عن القتال في الشهر الحرام فحلف بالله - تعالى - ما يجلب للناس أن يغزوا في الحرم ولا في الشهر الحرام إلا أن يقاتلوا فيه وجعل ذلك حكماً مستمراً إلى يوم القيامة، والأمة اليوم على خلافه في سائر الأمصار^(٢).

وقد رجح بعض العلماء ما ذهب إليه عطاء فقال: ومهما يكن فإن القتال في الأشهر الحرم حرام في حال الاختيار والابتداء فلا يصح البدء بالغزو فيه. ولقد قال جابر: كان رسول الله ﷺ لا يقاتل في الشهر الحرام إلا أن يُغزى أو يغزو حتى إذا حضر ذلك أقام حتى ينسلخ.

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ١٧٤.

(٢) تفسير الألوسي ج ٢ ص ١٠٨.

ولقد قال بعض العلماء : إن تحريم القتال في الشهر الحرام منسوخ بقوله - تعالى - : ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ وبقاتل النبي ﷺ أهل الطائف فيه . والحقيقة أنه لم يثبت ناسخ صريح في النسخ فإن قوله - تعالى - : ﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾ العموم فيه بالنسبة للمقاتلين لا بالنسبة لزمان القتال ، وأن النبي ﷺ لم يبتدئ قتالا في الشهر الحرام مختاراً قط ، والتحريم في الاختيار والابتداء كما بينا لا في البقاء والاضطرار ، لذا قال - سبحانه - : ﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ ، ولأن الأشهر الحرم نص عليها في خطبة الوداع وكل ما جاء فيها غير منسوخ^(١).

٢ - كذلك من الأحكام التي أخذها العلماء من الآية أن الردة تحبط العمل في الدنيا سواء أ مات المرتد على كفره أم عاد إلى الإسلام قبل موته بدليل قوله - تعالى - في آية أخرى ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ فقد علق الحبوب بمجرد الشرك ، والخطاب وإن كان للنبي ﷺ فالمراد أمته لاستحالة الشرك عليه . وعلى هذا الرأي سار المالكية والأحناف .

ويرى الشافعية أن الردة تحبط العمل في الدنيا متى مات المرتد كافراً ، لأن الآية تقول : ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم﴾ ويظهر أثر الخلاف فيمن حج مسلماً ، ثم أرتد ثم أسلم ، فالأحناف والمالكية يوجبون عليه إعادة الحج لأن الردة أحبطت حجه . والشافعية يقولون : لا حج عليه لأن حجه قد سبق والردة لا تحبط العمل إلا إذا مات الشخص كافراً .

ولكل فريق أدلته المبسوطة في كتب الفقه .

وبعد أن بين - سبحانه - عاقبة من يرتد عن دينه أتبع ذلك ببيان عاقبة المؤمنين الصادقين فقال - تعالى - : ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله ، أولئك يرجون رحمة الله ، والله غفور رحيم﴾ .

قال الإمام الرازي : في تعلق هذه الآية بما قبلها وجهان :

الأول : أن عبد الله بن جحش قال : يارسول الله : هب أنه لا عقاب علينا فيما فعلنا ، فهل نطمع منه أجراً وثواباً؟ فنزلت الآية ، لأن عبد الله كان مؤمناً وكان مهاجراً ، وكان مجاهداً بسبب هذه المقاتلة .

وفي الثاني : أنه تعالى لما أوجب الجهاد قبل بقوله : ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم﴾

(١) تفسير الآية الكريمة لفضييلة الشيخ محمد أبو زهرة مجلة لواء الإسلام السنة الخامسة : العدد العاشر

وبين أن تركه سبب للوعيد أتبع ذلك بذكر من يقوم به وجزاؤه فقال: ﴿إن الذين آمنوا، والذين هاجروا﴾ ولا يكاد يوجد وعيد إلا ويعقبه وعد^(١).

والمعنى: إن الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، واستقاموا على طريق الحق، وأذعنوا لحكمه، واستجابوا لأوامر الله ونواهيه: ﴿والذين هاجروا﴾ أى: تركوا أموالهم وأوطانهم من أجل نصره دينهم: ﴿وجاهدوا في سبيل الله﴾ لإعلاء كلمته ﴿أولئك﴾ الموصوفون بتلك الصفات الثلاثة ﴿يرجون رحمة الله﴾. أى: يؤملون تعلق رحمته - تعالى - بهم، أو ثوابه على أعمالهم ﴿والله غفور رحيم﴾ أى: واسع المغفرة للتائبين المستغفرين، عظيم الرحمة بالمؤمنين المحسنين.

قال القرطبي: «والهجرة معناها الانتقال من موضع إلى موضع، والقصد ترك الأول إيثاراً للثاني. والهجرة ضد الوصل، والاسم الهجرة. وجاهد مفاعله من جهد إذا استخرج الجهد. والاجتهاد والتجاهد: بذل الوسع والمجهود، والجهاد - بالفتح - الأرض الصلبة. وإنما قال ﴿يرجون﴾ وقد مدحهم، لأنه لا يعلم أحد في هذه الدنيا أنه صائر إلى الجنة ولو بلغ في طاعة الله كل مبلغ لأمرين:

أحدهما: أنه لا يدري بماذا ختم له.

والثاني: لثلا يتكل على عمله، والرجاء أبداً معه خوف كما أن الخوف معه رجاء^(٢). وجرىء بهذه الأوصاف الثلاثة مترتبة على حسب الواقع إذا الإيمان يكون أولاً ثم المهاجرة من أرض الظالمين إذا لم يستطع دفع ظلمهم، ثم الجهاد من أجل إعلاء كلمة الحق. وأفرد الإيمان بموصول وحده لأنه أصل الهجرة والجهاد، وجمع الهجرة والجهاد في موصول واحد لأنها فرعان عنه.

وبذلك نرى أن هذه الآية الكريمة قد دعت المؤمنين إلى بذل أموالهم وأنفسهم في سبيل نصره الحق بأحكم أسلوب، وبرأتهم مما أثاره المشركون حولهم من شبهات، وحذرتهم من السير في طريقهم، وبشرتهم بحسن العاقبة متى استجابوا لتعاليم دينهم، واعتصموا بحبله. وبعد هذا الحديث الجامع عن البذل والتضحية، ساق القرآن في آيتين ثلاثة أسئلة وأجاب عنها بما يشفى الصدور، ويصلح النفوس.

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٢ ص ٤١.

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٥١.

فقال تعالى :

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ
وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا
أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ
كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿١١٦﴾
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي تَمْتَلِكُ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ
خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ
الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٣٠﴾﴾

قوله : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ﴾ . . السائلون هم المؤمنون وسؤالهم إنما هو عن الحكم الشرعى من حيث الحل والتحريم . لا عن الحقيقة والذات فإنهم يعرفون حقيقة الخمر والميسر وذاتهما .

قال القرطبي : والخمر مأخوذة من خمر إذا ستر، ومنه خمار المرأة لأنه يستر وجهها - وكل شيء غطى شيئاً فقد خمره . ومنه « خمروا أنفسكم ، فالخمر تخمر العقل ، أى : تغطيه وتستره . . فلما كانت الخمر تستر العقل وتغطيه سميت بذلك ، وقيل إنما سميت الخمر خمرًا ؛ لأنها تركت حتى أدركت كما يقال : قد اختمر العجين ، أى : بلغ إدراكه . وخمر الرأى ترك حتى يتبين فيه الوجه . وقيل : إنما سميت الخمر خمرًا لأنها تخالط العقل من المخامرة وهى المخالطة ومنه قولهم : دخلت فى خمار الناس - بفتح الخاء وضمها - أى : اختلطت بهم . فالمعانى الثلاثة متقاربة . فالخمر تركت وخرت حتى أدركت ، ثم خالطت العقل . ثم خمرته ، والأصل الستر^(١) .

ويرى كثير من العلماء أن هذه الآية هى أول آية نزلت فى الخمر . ثم نزلت الآية التى فى سورة النساء ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾ ثم نزلت الآية التى فى سورة المائدة ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ .

والدليل على ذلك ما رواه أبو داود وغيره عن عمر بن الخطاب أنه قال « اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا » فنزلت هذه الآية ﴿يسألونك عن الخمر﴾ فدعى عمر فقرئت عليه فقال : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا» .

فنزلت الآية التي في النساء ﴿يأيتها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ فكان منادى رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة - نادى أن : لا يقربن الصلاة سكران . فدعى عمر فقرئت عليه ، فقال : « اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا» . فنزلت الآية التي في المائدة ، فدعى عمر فقرئت عليه ، فلما بلغ ﴿فهل أنتم متهون﴾ قال عمر : « انتهىنا»^(١) .

وبهذا الرأي قال ابن عمر والشعبي ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

ويرى بعض العلماء أن أول آية نزلت في الخمر هي قوله - تعالى - في سورة النحل : ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا﴾ .

وعلى هذا الرأي سار صاحب الكشاف وتبعه بعض العلماء ، فقد قال : نزلت في الخمر أربع آيات ، نزل بركة قوله - تعالى - : ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا﴾ فكان المسلمون يشربونها وهي حلال لهم . ثم إن عمر ومعاذا ونفرا من الصحابة قالوا : يارسول الله ، أفتنا في الخمر فإنها مذهبة للعقل مسلبة للمال ، فنزلت : ﴿قل فيها إثم كبير ومنافع للناس﴾ فشربها قوم وتركها آخرون . ثم دعا عبد الرحمن بن عوف ناسا منهم فشربوا وسكروا فقام بعضهم يصلى فقرأ : قل يأيتها الكافرون أعبدوا تعبدون فنزلت : ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ فقل من يشربها ثم دعا عتبان بن مالك قوماً فيهم سعد بن أبي وقاص فلما سكروا افتخروا وتناشدوا شعرا فيه هجاء للأنصار فضرب أحد الأنصار سعداً بلحى بغير فشجه ، فشكا إلى رسول الله ﷺ ذلك . فقال عمر : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فنزلت «إنما الخمر والميسر . . إلخ الآية» . . فقال عمر : انتهىنا يارب»^(٢) .

وأصحاب الرأي الأول يقولون : إن آية سورة النحل وهي قوله - تعالى - : ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا﴾ ليس لها علاقة بموضوع الخمر ، ويفسرون السكر بأنه ما أحله الله مما لا يسكر وأنه هو الرزق الحسن وأن العطف بينها من باب عطف التفسير .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ صفحة ٢٥٦ .

(٢) تفسير الكشاف في ج ١ صفحة ٢٥٩ .

ولقد كان موقف الصحابة من هذا التحريم لما يشتهونه ويحبونه من الخمر والميسر، يمثل أسمى ألوان الطاعة والاستجابة لأوامر الله ونواهيه، فعندما بلغهم تحريم الخمر أراقوا ما عندهم منها في الطرقات. بل وحطموا الأواني التي كانت توضع فيها الخمر امتثالاً وطاعة لله - تعالى - .

وهكذا نرى قوة الإيمان التي غرسها الإسلام في نفوس أتباعه عن طريق تعاليمه السامية، وتربيته الحكيمة.. تغلبت على ما أحبته النفوس وأزالت من القلوب ما ألفتها الطبائع.

هذا وجهور العلماء على أن كلمة «خمر» تشمل كل شراب مسكر سواء أكان من عصير العنب أم من الشعير أم من التمر أم من غير ذلك، وكلها سواء في التحريم قل المشروب منها أو كثر سكر شاربه أو لم يسكر.

ومن أدلتهم ما وراه الإمام مسلم عن ابن عمر - أن رسول الله ﷺ قال : كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام، ومن شرب الخمر في الدنيا ومات وهو يدمنها لم يتب منها لم يشربها في الآخرة»^(١).

ومن أدلتهم أيضاً أصل الاشتقاق للغوى لكلمة خمر، فقد عرفنا أنها سميت بهذا الاسم لمخامرتها العقل وستره، فكل ما خامر العقل من الأشربة وجب أن يطلق عليه لفظ خمر سواء أكان من العنب أم من غيره.

وقال الأحناف ووافقهم بعض العلماء كإبراهيم النخعي وسفيان الثوري وابن أبي ليلى : إن كلمة خمر لا تطلق إلا على الشراب المسكر من عصير العنب فقط، أما المسكر من غيره كالشراب من التمر أو الشعير فلا يسمى خمر بل يسمى نبيذاً. وقد بنوا على هذا أن المحرم قليله وكثيره إنما هو الخمر من العنب. أما الأنبذة فكثيرها حرام وقليلها حلال.

وقد رجح العلماء رأى الجمهور وضعفوا ما ذهب إليه الأحناف ومن وافقهم.

قال ابن العربي : وتعلق أبو حنيفة بأحاديث ليس لها خطم ولا أزمة فلا يلتفت إليها. والصحيح ما روى الأئمة أن أنسا قال : « حرمت الخمر يوم حرمت وما بالمدينة خمر الأعتاب إلا قليل، وعامة خمرها البسر والتمر » أخرجه البخارى، واتفق الأئمة على رواية أن الصحابة إذ حرمت الخمر لم يكن عندهم يومئذ خمر عنب، وإنما كانوا يشربون خمر النبيذ فكسروا دناتهم - أى أواني الخمر - وبادروا إلى الامتثال لا اعتقادهم أن ذلك كله خمر» أى وأقرهم رسول الله ﷺ على ذلك^(٢).

(١) أخرجه مسلم في كتاب الأشربة ج ٦ ص ١٠٠.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ج ١ صفحة ١٤٩.

وقال الألوسي : وعندى أن الحق الذى لا ينبغي العدول عنه أن الشراب المتخذ مما عدا العنب كيف كان وبأى اسم سمي متى كان بحيث يسكر من لم يتعوده حرام، وقليله ككثيره، ويحد شاربه ويقع طلاقه ونجاسته غليظة. وفي الصحيحين أنه ﷺ سئل عن النقيع - وهو نبيذ العسل - فقال : « كل شراب أسكر فهو حرام » وروى أبو داود « نهى رسول الله ﷺ عن كل مسكر ومفتّر » وصح « ما أسكر كثيره فقليله حرام » والأحاديث متضاربة على ذلك. ولعمري إن اجتماع الفساق في زماننا على شرب المسكرات مما عدا « الخمر » ورغبتهم فيها، فوق اجتماعهم على شرب « الخمر » ورغبتهم فيه بكثير، وقد وضعوا لها أسماء - كالعنبرية والإكسير - ونحوهما ظنا منهم أن هذه الأسماء تخرجها من الحرمة وتبيح شربها للأمة - وهيئات هيئات - فالأمر وراء ما يظنون وإنا لله وإنا إليه راجعون^(١).

بعد هذه الكلمة التمهيدية عن الآية، وعن مدلول كلمة خمر نتقل إلى معنى كلمة « الميسر » فنقول : الميسر : القمار - بكسر القاف - وهو فى الأصل مصدر ميمى من يسر، كالموعد من وعد. وهو مشتق من اليسر بمعنى السهولة، لأن المال يجيء للكاسب من غير جهد، أو هو مشتق من يسر بمعنى جزر. ثم أصبح علما على ما يتقارم عليه كالجزور ونحوه.

قال القرطبي نقلا عن الأزهري : الميسر : الجزور الذى كانوا يتقارمون عليه، سمي ميسراً؛ لأنه أجزاء، فكأنه موضع التجزئة، وكل شيء جزأته فقد يسرته. والياسر : الجازر لأنه يجزئ لحم الجزور. . ويقال للضاريين بالقداح والمتقارمين على الجزور : ياسرون، لأنهم جازرون إذ كانوا سببا لذلك^(٢).

وصفة الميسر الذى كانت تستعمله العرب أنهم كانت لهم عشرة أقداح يقال لها الأزلام أو الأقلام، فكانوا إذا أرادوا أن يقامروا أحضروا بعيرا وقسموه ثمانية وعشرين قسما وترك ثلاثة من تلك الأقداح غفلا لا علامة عليها وكانت تسمى : السفيح، والمنيح، والوغد. ومن طلع له واحد منها لا يأخذ شيئا من الجزور. أما السبعة الأخرى فهى الرابحة وهى الفذولة سهم واحد، والتوأم وله سهمان، والرقيب وله ثلاثة، والجلس وله أربعة، والنافس وله خمسة والمسبل وله ستة، والمعلى وله سبعة فيكون المجموع ثمانية وعشرين سهما.

تلك صورة تقريبية لقمار العرب كما أوردها بعض المفسرين^(٣).

(١) تفسير الألوسي ج ٢ صفحة ١١٣.

(٢) تفسير القرطبي ج ٣ صفحة ٥٢.

(٣) راجع تفسير الألوسي ج ٢ ص ١١٣، وتفسير القرطبي ج ٢ ص ٥٨.

ولا شك أنه يدخل في حكمها من حيث الحرمة ما كان مشابها لها في المخاطرة والرهان وأخذ الأموال بدون مقابل مشروع، أو ضياعها فيما حرمه الله.

ومعنى الآية الكريمة: يسألك أصحابك يا محمد عن حكم شرب الخمر ولعب الميسر، قل لهم على سبيل الإرشاد والإعلام: في تعاطيها ﴿إثم كبير﴾ أى: ذنب عظيم، وضرر شديد وذلك لما فيها من القبائح المنافية لمحاسن الشرع من الكذب، والأذى، وشيوع العداوة والبغضاء بين الناس، واستلاب أموالهم بغير حق.

وقوله: ﴿ومنافع للناس﴾ أى وفيها منافع دنيوية للناس إذ الخمر تدر على المتاجرئين فيها أرباحا مالية، والميسر يؤدي إلى إصابة بعض الناس للمال بدون تعب.

وأطلق - سبحانه - الإثم وقيد المنافع بأنها للناس، للتنبيه على أن الإثم في الخمر والميسر ذاتي، ففيها في ذاتها رجس كبير، وخطر وبيل، وأن ما فيها من منافع ضئيل ولا يتجاوز بعض الناس، فهي منافع خاصة وليست عامة، ويشهد لهذا قوله - تعالى - بعد ذلك.

﴿وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ أى أن المفسد والأضرار التي تترتب على تعاطيها، أعظم من المنافع التي تنشأ عن تعاطيها، إذ تعاطيها يؤدي إلى منفعة بعض الناس، أما مضارهما فكثيرة، من ذلك أن تعاطي الخمر يضعف الضمير، ويفسد الأخلاق، ويميت الحياء، ويفقد الرشد ويتلف المال، ويغري بالتنازع بين الناس، ويتسبب - كما قال الأطباء الثقة - في كثير من الأمراض كأمراض الكبد والرثتين والقلب.. إلخ.

وإن شئت المزيد من معرفة مضار الخمر فراجع ما كتبه العلماء والمتخصصون في ذلك^(١).

أما تعاطي الميسر فمن مضاره - كما يقول الأستاذ الإمام محمد عبده - إفساد التربية بتعويد النفس الكسل، وانتظار الرزق من الأسباب الوهمية، وإضعاف القوة العقلية، بترك الأعمال المفيدة في طرق الكسب الطبيعية، وإهمال المقامرين للزراعة والتجارة والصناعة التي هي أركان العمران، وتخريب البيوت فجأة بالانتقال من الغنى إلى الفقر في ساعة واحدة، فكم من عشيرة كبيرة نشأت في العز والغنى وانحصرت ثروتها في رجل أضعاعها عليها في ليلة واحدة؛ فأصبحت غنية وأمست فقيرة^(٢).

إذن فالمنافع الدنيوية التي تعود إلى بعض الناس من تعاطي الخمر والميسر لا تساوى شيئاً

(١) راجع على سبيل المثال «تفسير الجواهر» في معنى الآية للمرحوم طنطاوى جوهرى وتفسير المنار ج ٢

ص ٣٢١.

(٢) تفسير المنار ج ٢ ص ٢٣٠.

بجانب تلك المضار الجسيمة التي تعود على أفراد الأمة في دينهم وعقولهم وأجسامهم وأموالهم وتربطهم، وصدق الله إذ يقول: ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾.

ثم يأتي بعد ذلك السؤال الثاني الذي ورد في هاتين الآيتين وهو قوله - تعالى - :
﴿وَسَأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾.

ومناسبة هذا السؤال لما قبله أنهم بعد أن نهوا عن إنفاق أموالهم في الوجوه المحرمة كتعاطي الخمر والميسر، سألوا عن وجوه الإنفاق الحلال، وعن مقدار ما ينفقون فأجيبوا بهذا الجواب الحكيم.

قال الألوسي : أخرج ابن إسحاق عن ابن عباس أن نفراً من الصحابة حين أمروا بالنفقة في سبيل الله أتوا النبي ﷺ فقالوا : إنا لا ندرى ما هذه النفقة التي أمرنا بها في أموالنا وما الذي ننفقه منها فأنزل الله - تعالى - ﴿وَسَأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ وكان الرجل قبل ذلك ينفق ماله حتى لا يجد ما يتصدق ولا ما يأكل^(١).

وأصل العفوف في اللغة الزيادة. قال - تعالى - : ﴿ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا﴾ أي زادوا على ما كانوا عليه من العدد. ويطلق على ما سهل وتيسر مما يكون فاضلاً عن الكفاية. يقال : خذ ما عفا لك. أي ما تيسر. كما يطلق على الترك قال - تعالى - : ﴿عفا الله عما سلف﴾ أي تركه وتجاوز عنه.

والمراد به هنا : ما يفضل عن الأهل ويزيد عن الحاجة، إذ هذا القدر الذي يتيسر إخراجه ويسهل بذله، ولا يتضرر صاحبه بتركه.

والمعنى، وسألوكم ما الذي يتصدقون به من أموالهم في وجوه البر، فقل لهم تصدقوا بما زاد عن حاجتكم، وسهل عليكم إخراجه، ولا يشق عليكم بذله.

وفي هذه الجملة الكريمة إرشاد حكيم إلى التعاون والتراحم بين أفراد المجتمع، وتوجيه إلى المنهاج الوسط الذي يأبى التبذير وينفر من التقدير، وفي أحاديث الرسول ﷺ ما يؤيد هذا الإرشاد والتوجيه، ومن ذلك ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول».

وأخرج مسلم عن جابر أن النبي ﷺ قال : «ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء

(١) تفسير الألوسي ج ٢ ص ١١٥.

فأهلك، فإن فضل عن أهلك شيء فلذى قرباتك، فإن فضل عن ذى قرباتك شيء فهكذا وهكذا».

إلى غير ذلك من الأحاديث التي وردت في هذا المعنى.

وللأستاذ الإمام كلام جيد في هذا المقام، فقد قال - رحمه الله - ما ملخصه: إن الأمة المؤلفة من مليون فرد إذا كانت تبذل من فضل مالها في مصالحها العامة كإعداد القوة وتربية الناشئة. تكون أعز وأقوى من أمة مؤلفة من مائة مليون فرد لا يبذلون شيئاً في مثل ذلك؛ لأن الواحد من الأمة الأولى يعد بأمة، إذ هو يعتبر نفسه جزءاً منها وهي كل له، بينما الأمة الثانية لا تعد بواحد لأن كل فرد من أفرادها يخذل الآخر. وفي الحقيقة أن مثل هذا الجمع لا يسمى أمة، لأن كل واحد من أفرادها يعيش وحده وإن كان في جانبه أهل الأرض، فهو لا يتصل بمن معه ليمدهم ويستمد منهم»^(١).

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة﴾.

أى: مثل هذا البيان الحكيم الذى بينه الله لكم فيما سألتكم عنه يبين لكم في سائر كتابه آياته وأحكامه وحججه لى تتفكروا وتتدبروا فيما ينفعكم في دنياكم وآخرتكم، بأن تعملوا في الدنيا العمل الصالح الذى يجعلكم تظفرون برضا الله في آخركم.

قال صاحب الكشاف: «وقوله: ﴿في الدنيا والآخرة﴾ إما أن يتعلق بتفكرون، فيكون المعنى: لعلكم تفكرون فيما يتعلق بالدارين فتأخذون بما هو أصلح لكم كما بينت لكم أن العفو أصلح من الجهد في النفقة وتتفكرون في الدارين فتؤثرون أبقاهما وأكثرهما منافع. ويجوز أن يكون إشارة إلى قوله ﴿وإثمها أكبر من نفعها﴾ فيكون المعنى: لتفكروا في عقاب الإثم في الآخرة والنفع في الدنيا حتى لا تختاروا النفع العاجل على النجاة من العقاب الأليم. وإما أن يتعلق بيبين على معنى: يبين لكم الآيات في أمر الدارين وفيما يتعلق بهما لعلكم تفكروا»^(٢).

أما السؤال الثالث والأخير الذى ورد في هاتين الآيتين فهو قوله تعالى ﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير، وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾.

أخرج أبو داود والحاكم والنسائي وغيرهم عن ابن عباس قال:

(١) تفسير المنار ج ٢ ص ٢٣٨.
(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٦٣.

لما نزل قوله - تعالى - : ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾ وقوله - تعالى - : ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾ انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه . وشرابه من شرابه ، فجعل يفضل له الشيء من طعامه وشرابه ، فيحبس له حتى يأكله أو يفسد ، فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله - تعالى - ﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾ فخلطوا طعامهم وشرابهم بشرابهم^(١) .

والمعنى : ويسألونك يا محمد عن القيام بأمر اليتامى أو التصرف في أموالهم أو عن أموالهم وكيف يكونون معهم فقل لهم : إن المطلوب هو إصلاحهم بالتهذيب والتربية الرشيدة . والمعاملة الحسنة ، وإصلاح أموالهم بالمحافظة عليها وعدم إنفاقها إلا في الوجوه المشروعة فهذا الإصلاح المفيد لهم ولأموالهم خير من مجانبتهم ، وتركهم ، ولذا قال - تعالى - بعد ذلك : ﴿وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾ أى : وإن تعاشرهم وتضموهم إليكم فاعتبروهم إخوانكم في العقيدة والإنسانية ، وعاملوهم بمقتضى ما تفرضه الأخوة من تراحم وتعاطف ومساواة .

والجملة الكريمة معطوفة على ما قبلها . و«إصلاح» مبتدأ وسوغ الابتداء به مع أنه نكرة وصفه بالجار والمجرور «لهم» و«خير» خبره ، وقوله : ﴿فإخوانكم﴾ الفاء واقعة في جواب الشرط ، وإخوانكم خبر لمبتدأ محذوف والتقدير فهم إخوانكم ، والجملة في محل جزم على أنها جواب الشرط .

وقوله : ﴿والله يعلم المفسد من المصلح﴾ وعد ووعيد ، وترغيب في الإصلاح وترهيب من الإفساد ، أى : والله يعلم المفسد لشئون هؤلاء اليتامى من المصلح لها ، كما أنه - سبحانه - لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، وسيجازى كل إنسان على حسب عمله ، فاحذروا الإفساد ولا تتحروا غير الإصلاح .

ثم قال - تعالى - : ﴿ولو شاء الله لأعنتكم﴾ العنت : الشدة والمشقة والتضييق . يقال : أعنته في كذا يعنته إعناتاً ، إذا أجهده وألزمه ما يشق عليه .

أى : ولو شاء الله لضيق عليكم وأخرجكم بتحريم مخالطة هؤلاء اليتامى ، وبغير ذلك مما يشرع لكم ، ولكنه - سبحانه - وسع عليكم وخفف فأباح لكم مخالطتهم بالتي هي أحسن ، فاشكروه على ذلك .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿إن الله عزيز حكيم﴾ أى : إن الله - تعالى - غالب

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٥٦ .

على أمره لا يعجزه أمر من الأمور التي من جملتها إعناتكم قادر على أن يعز من أعز اليتامى ويدل من سذلم، حكيم في كل تصرفاته وأفعاله، فلا يضع الأشياء إلا في مواضعها.

وقد استدلل العلماء بهذه الآية على جواز التصرف في أموال اليتامى على وجه الإصلاح، وعلى أن للولي أن يخالط اليتيم بنفسه في المصاهرة والمشاركة وغير ذلك مما تقتضيه المصلحة.

وقد وردت أحاديث متعددة في رعاية اليتيم وإصلاح أحواله ومن ذلك ما رواه البخارى عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى وفرق بينهما».

وروى الطبراني عن أبي الدرداء. قال: أتى النبي ﷺ رجل يشكو قسوة قلبه، فقال له النبي ﷺ أتحب أن يلين وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم، وامسح رأسه، وأطعمه من طعامك يلن قلبك وتدرك حاجتك.

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين الكريميتين قد اشتملتا على أفضل ألوان الإصلاح للأفراد والجماعات في مطاعمهم ومشاربهم ونفقتهم وعلاقتهم بغيرهم ولا سيما اليتامى الذين فقدوا الأب الحاني، والقلب الرحيم، ومن شأن الأمة التي تعمل بهذا التوجيه السامي الحكيم أن تنال السعادة في دنياها. ورضاه الله - في آخرها.

ثم تحدثت السورة بعد ذلك في اثنتين وعشرين آية^(١) عن بعض أحكام وآداب الزواج والمعاشرة، والإيلاء والطلاق، والعدة، والنفقة، والرضاعة، والخطبة، والمتعة، وغير ذلك مما يتعلق بصيانة الأسرة وتقويتها، وبنائها على أفضل الدعائم، وأحكم الروابط، إذ الأسرة هي اللبنة الأساسية في بناء المجتمع، ومن مجموعها يتكون، فإذا صلحت الوحدات والمكونات صلح البنيان، وإذا تصدعت تصدع.

ولقد ابتدأت الآيات التي معنا حديثها عن الأسرة بالحديث عن الزواج لأنه أعمق الروابط وأقواها ومنه تتأتى الذرية، لذا جعل أساس الاختيار فيه هو التدين السليم، والخلق القويم، الذي يسعد ولا يشقى، ويبني ولا يهدم، ويحفظ ولا يضيع. . ولا يتأتى ذلك إلا باختيار المسلمة الصالحة والإعراض عن المشركة الكافرة.

استمع إلى القرآن الكريم وهو يبين ذلك فيقول:

(١) من الآية ٢٢١ وهي، ﴿ولا تنكحوا المشركات..﴾ إلخ قوله: ﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾ الآية ٢٤٢.

وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ ۚ وَلَا أُمَّةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ
 مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ
 يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ
 يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۗ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۗ
 وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

قوله - تعالى : ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾ النكاح في اللغة الضم وتداخل أجزاء الشيء بعضها في بعض . ثم أطلق على العقد الذي به تكون العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة مشروعة .

والمشرك في لسان الشرع : من يدين بتعدد الآلهة مع الله - تعالى - وأصله من الإشراك بمعنى أن تجعل الشيء بينك وبين غيرك شركة، فمن يعبد مع الله - تعالى - إلها آخر يعد مشركاً، وهو في الآخرة من الخاسرين .

ويرى كثير من العلماء أن إطلاق كلمة : مشرك، ومشركين، ومشركات في القرآن الكريم تعنى عبدة الأوثان، وأنها صارت في استعمال القرآن حقيقة عرفية فيهم، ولم يطلقها القرآن على اليهود والنصارى وإنما عبر عنهم بهذا الاسم أو بأهل الكتاب، أو بوصف الكفر دون الشرك كما في قوله - تعالى - : ﴿لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل﴾ وعليه فالمراد بالمشركات والمشركين في الآية عبدة الأوثان .

وذهب بعضهم إلى أن لفظ المشركات يشمل بمقتضى عمومها المرأة الوثنية، واليهودية، والنصرانية .

وقد ترتب على هذا الخلاف في إطلاق كلمة «مشرك» أن أصحاب الرأي الأول قالوا : إن النهي في الآية إنما هو عن زواج المشركات اللاتى يعبدون الأوثان ولا كتاب لهن، وأنه يجوز - مع الكراهة - أن يتزوج المسلم الكتابية، لأن القرآن يقول : ﴿اليوم أحل لكم الطيبات، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم، وطعامكم حل لهم، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ . الآية (١) . ولأنه قد جاءت الروايات بأن بعض الصحابة قد تزوج بكتبايات . فعثمان بن عفان تزوج نصرانية ثم أسلمت، وطلحة بن

عبيد الله وحذيفة بن اليمان تزوجا يهوديتين.

أما من قال بالرأى الثاني فيرى حرمة الزواج بالوثنية واليهودية والنصرانية لأن لفظ المشركات يشملهن جميعا. وأصحاب هذا الرأى - كما يقول الألوسى - يجعلون آية المائدة وهى قوله - تعالى - : ﴿والمحصنات من المؤمنات﴾ . . . منسوخة بالآية التى معنا نسخ الخاص بالعام . . . وإلى هذا الرأى ذهب الإمامية وبعض الزيدية^(٢).

وروى عن عمر وعبد الله ابنه - رضى الله عنهما - أنها حرما ذلك وفى رواية أنها كرهاه. وهى الأصح.

قال القرطبى : وروى عن عمر أنه فرق بين طلحة بن عبيد الله وحذيفة بن اليمان وبين كتابيتين وقال : نطلق يا أمير المؤمنين ولا تغضب. فقال : لو جاز طلاقكما لجاز نكاحكما ولكن أفرق بينكما صغرة قماء. قال ابن عطية وهذا لا يستند جيدا، وأسند منه أن عمر أراد التفريق بينهما فقال له حذيفة : أتزعم أنها حرام فأخلى سبيلها يا أمير المؤمنين؟ فقال : لا أزعم أنها حرام ولكن أخاف أن تعاطوا المومسات منهن.

ثم قال القرطبى : وكان ابن عمر إذا سئل عن نكاح الرجل النصرانية أو اليهودية. قال حرم الله المشركات على المؤمنين ولا أعرف شيئا من الإشراك أعظم من أن تقول المرأة ربها عيسى أو عبد من عباد الله. قال النحاس : وهذا قول خارج عن قول الجماعة الذين تقوم بهم الحجة، لأنه قال بتحليل نكاح نساء أهل الكتاب من الصحابة والتابعين جماعة منهم عثمان وطلحة وابن عباس . . . ومن التابعين سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد . . . وفقهاء الأمصار عليه، وأيضا فيمتنع أن تكون هذه الآية من سورة البقرة ناسخة للآية التى فى سورة المائدة، لأن البقرة من أول ما نزل بالمدينة والمائدة من آخر ما نزل، وإنما الآخر ينسخ الأول - أو يخصصه - وأما قول ابن عمر فلا حجة فيه، لأن ابن عمر - رضى الله عنه - كان متوقفا، فلما سمع الآيتين فى واحدة التحليل وفى أخرى التحريم ولم يبلغه النسخ توقف، ولم يؤخذ عنه ذكر النسخ وإنما تؤول عليه، وليس يؤخذ بالناسخ والمنسوخ بالتأويل^(٢).

والذى نراه أن زواج المسلم بالكتابية جائز لأن القرآن صريح فى ذلك، ولأن عمر - رضى الله عنه - أقر بأنه ليس بحرام، فتكون آية المائدة مخصصة لآية البقرة على فرض عمومها، ومبينة لحكم جديد خاص بالكتابيات، وهو الجواز ولكن هذا الجواز لا يمنع كراهته، لأن الزواج بالكتابية كثيرا ما يؤثر فى إضعاف العاطفة الدينية عند المسلم، وعند الأطفال الذين

(١) تفسير الألوسى ج ٢ ص ١١٨

(٢) تفسير القرطبى ج ٣ ص ٦٨ بتصرف وتلخيص.

يكونون ثمرة لهذا الزواج، لأنهم يخرجون إلى الحياة وقد رضعوا الميل إلى دين أمهم، ولأن المرأة الكتابية التي تقبل الزواج بالمسلم كثيراً ما تكون منحرفة في سلوكها وأن الدافع لها إلى هذا الزواج إنما هو المال أو الجمال أو الجاه وليس الدين أو الخلق، لأنه لو كان الدافع ذلك لرضيت بالإسلام ديناً، وبآدابه خلقاً لها، وما أحكم قول عمر لحذيفة: «لا أزعم أنها حرام ولكن أخاف أن تعاطوا المومسات منهن».

هذه خلاصة لآراء العلماء في هذه المسألة ومن أراد المزيد فليرجع إلى أقوالهم في مظانها^(١).

والمعنى: أنها كم أيها المؤمنون أن تتزوجوا بالنساء المشركات حتى يؤمن بالله - تعالى - ويذعن لتعاليم الإسلام وآدابه.

وقوله: ﴿ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم﴾ تعليل للنهي، وبيان لفضل المؤمنات على المشركات، ولفضل طهارة النفس على جمال الجسم، والمراد بالأمة هنا الأئمة المملوكة من الرقيق، وبالمشركة الحرة الجميلة بقرينة المقابلة.

أى: ولأئمة رقيقة مؤمنة مع ما بها من الرق وقلة الجاه والجمال خير في التزوج بها من امرأة حرة مشركة ولو أعجبتكم بجمالها ونسبها وغير ذلك من منافع دنيوية، لأن ما يتعلق بالمنافع الدنيوية يجب أن يقدم على المنافع الدنيوية، ولأن الزواج ارتباط روحي بين قلبين، ومن العسير أن يتم هذا الترابط بين قلب يخلص لله في عبادته، وقلب لا يدين بذلك.

وصدرت الجملة بلام الابتداء الشبيهة بلام القسم في إفادة التأكيد مبالغة في الحمل على الانزجار، وقد أمر النبي ﷺ أتباعه أن يجعلوا الدين أساس رغبتهم في الزواج، فقد أخرج الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «تنكح المرأة لأربع: لملها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك».

وعن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنها - قال: قال رسول الله ﷺ «لا تتزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن، ولا تتزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن، ولكن تزوجوهن على الدين، ولأمة سوداء ذات دين أفضل».

والأحاديث النبوية في هذا المعنى كثيرة.

ثم قال - تعالى - : ﴿ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا﴾ أى: لا تتزوجوا أيها المؤمنون النساء المؤمنات للرجال المشركين حتى يتركوا ما هم عليه من شرك ويدخلوا في دين الإسلام، فإذا فعلوا ذلك حل لكم أن تزوجوهن النساء المسلمات، لأنهم بدخولهم في الإسلام قد أصبحوا إخواناً لكم.

(١) راجع - على سبيل المثال - تفسير الفخر الرازى ج ٦ ص ٥٧، وتفسير القرطبي ج ٣ ص ٦٦.

والنهي هنا يتناول المشرك الذى يعبد الأوثان ويتناول غيره ممن لا يدين بالإسلام كأهل الكتاب، لأن القرآن قد جعل الإيمان غاية للنهي، فإذا لم يكن هناك إيمان من الرجل لم يكن له أن يتزوج من المرأة المؤمنة، لأن الله - تعالى - يقول فى آية أخرى: ﴿يأياها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن، وآتوهن ما أنفقوا، ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾.

فهذه الآية صريحة فى أن زواج المسلمة بالكافر لا يجوز، وكلمة كافر تشمل أهل الكتاب بدليل قوله - تعالى - : ﴿لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داوود وعيسى بن مريم﴾. . . وقوله تعالى ﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم﴾.

قال الفخر الرازى: لا خلاف هاهنا فى أن المراد به - أى بلفظ المشركين - الكل، ، وأن المؤمنة لا يحل تزويجها من الكافر البتة على اختلاف أنواع الكفرة^(١).

وقوله: ﴿ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم﴾ بيان لفضل الإيمان على الشرك، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ولأمة مؤمنة خير من مشركة﴾ إذ نسبة المؤمن أو المؤمنة إلى هذا الدين الذى ارتضاه الله لعباده أفضل وأجل من الانتساب إلى أى شىء آخر.

ثم بين - سبحانه - علة النهى عن الزواج بالمشركين والمشركات فقال - تعالى - : ﴿أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه﴾.

أى: أولئك المذكورون من المشركين والمشركات يدعون من يقارنهم ويعاشرهم إلى الأقوال والأفعال والعقائد التى تقضى بصاحبها إلى دخول النار فى الآخرة والله - تعالى - يدعو عباده على ألسنة رسله إلى الأقوال والأعمال والعقائد التى توصل إلى جنته ومغفرته.

فالمراد بالدعاء إلى النار الدعاء إلى أسبابها وإلى ما يوصل إليها، وكان الاقتران بهؤلاء المشركين والمشركات سببا فى الوصول إليها، لأن الزواج من شأنه الألفة والمودة والمحبة وشدة الاتصال، وكل ذلك يجعل المسلم أو المسلمة يتقبلان ما عليه المشرك أو المشركة من فسوق وعصيان لله - تعالى - بل ربما بمرور الأيام لا يكتفيان بالتقبل بل يستحسنان فعلها، وبذلك تنحل عرا الإسلام من نفس المسلم والمسلمة عروة فعروة، حتى لا يبقى منه سوى الاسم، كما نشاهد ذلك فى كثير من المسلمين الذين تزوجوا بغير مسلمات.

والمقصود من قوله - تعالى - : ﴿والله يدعو إلى الجنة﴾ إغراء المؤمنين بالتمسك بتعاليم

دينهم، وتنفيهم من الاقتران بغير من يكون على شاكلتهم في الدين، لأن من يخالفهم في عقيدتهم طريقه يغير طريقهم، وهدفه يخالف هدفهم، وعاقبته تباين عاقبتهم.

والدعاء إلى الجنة والمغفرة المراد به الدعاء إلى أسبابها كما في الجملة السابقة المقابلة وقيده - سبحانه - الدعاء إلى الجنة والمغفرة بقوله ﴿بإذنه﴾ أى بأمره وإرادته وعلمه، لأنه - سبحانه - هو المالك لكل شيء، ولا يقع في ملكه إلا ما يريد ويقدره.

قال بعض العلماء ما ملخصه : وقد يقول قائل : هذه الدعوة إلى النار قد تكون أيضاً في زواج المسلم بالكتابية، كما هي في زواج المسلم بالمشركة، وكان مقتضى هذا أن يحرم زواج المسلم بغير المسلمة مطلقاً، كما حرم زواج المسلمة بغير المسلم مطلقاً، وإن لذلك الكلام موضعه، ولذلك أجمع الفقهاء على كراهة زواج المسلم بالكتابية، بل زعم بعض العلماء أن زواج المسلم من الكتابية محرم كزواجه من المشركة.

ولكن الجمهور لا يقطعون بالتحريم أمام النص القاطع بالحل، ولا يعملون العلة ليهمل النص، بل يرون علة التحريم لا تتوافر في الكتابية توافرها في المشركة، فإن المشركة لا ترتبط بأى قانون خلقى يعصمها من الزلل.. أما الكتابية فإن مجموع الفضائل الإنسانية.. لا تزال باقية في تعاليم دينها فيمكن الاحتكام إليها.

والقرآن في جده مع أهل الكتاب كان يلاحظ إمكان التفاهم معهم على قواعد يمكن حملهم على الإقرار بها كما في قوله - تعالى - : ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً﴾.. الآية.

وأمرنا أن نجادلهم بالتي هي أحسن فقال : ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم﴾.. الآية.

فكان من اطراد تلك المعاملة الحسنة المقربة غير المبعدة، أن أباح الإسلام الزواج من الكتابيات.

بيد أنه يلاحظ في إباحة الزواج من الكتابيات أمران :

أولهما : أن النص القرآنى المبيح خاص بالمحصنات منهن، إذ قال - سبحانه - ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ والمحصنات - في أظهر التفسير - هن العفيفات، فأولئك الذين يعمدون إلى المنحرفات منهن في أخلاقهن وعقولهن ولا يتخيرون، خارجون عن موضع الإباحة فيما أحسب، لأن الله أحل المحصنات وهم استحلوا المنحرفات.

ثانيهما : أن ولى الأمر إذا رأى خطراً على الدولة الإسلامية أو على المجتمع الإسلامى له أن

يمنع الناس من ذلك الزواج بوضع عقوبات لمن يقدم عليه سدا للذريعة ومنعا للشر، وذلك من باب السياسة الشرعية، لا من باب تحريم ما أحل الله، لأن الحل قائم على أصله، والمنع وارد على الضرر الذي يلحق المسلمين، إذ في ذلك من الاعتداء على جماعتهم ما فيه، كما أن أصل الأكل حلال، ولكن اغتصاب أموال الناس لنأكلها حرام، ولذلك سارت الدولة على منع بعض رجالها من الزواج بالأجنبيات^(١).

وقوله - تعالى - في ختام الآية : ﴿ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون﴾ معطوف على يدعو إلى الجنة. أى أنه - سبحانه - يدعو الناس إلى ما يوصلهم إلى جنته ومغفرته ويبين لهم آياته وأوامره ونواهيها في شئون الزواج وفي غير ذلك من الأحكام لكي يتعظوا ويعتبروا ويتذكروا ما أمرهم الله به فيعملوه، وما نهاهم عنه فيتركوه.

وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد رسمت للناس أقوم السبل، لكي يعيشوا في ظل أسرة فاضلة، تظلمها السعادة، ويسودها الأمان والاطمئنان ويتعاون أفرادها على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

وبعد أن أمر الله - المسلم بأن يجعل التدين وحسن الخلق محط اختياره في الزواج، اتبع ذلك بإرشاده إلى بعض الآداب التي يجب عليه أن يسلكها مع زوجته حتى تكون علاقتها قائمة على ما يقتضيه الطبع السليم والخلق القويم وحتى تكون في أعلى درجات التطهر والتزهر والعفاف فقال - تعالى - :

وَيَسْأَلُونَكَ

عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ

وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ

أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾

نِسَاءُكُمْ حَرَّتْ لَكُمْ فَأْتُوا حَرَّتَكُمْ أَنْتُمْ وَقَدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ

وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوَةٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾

(١) تفسير القرآن الكريم لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد أبو زهرة مجلة لواء الإسلام السنة الخامسة العدد ١٢ سنة ١٩٥٢.

روى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت أى لا يسكنون معهم - فسأل الصحابة النبي ﷺ فأنزل الله - تعالى - : ﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى﴾ . الآية فقال رسول الله - ﷺ - أصنعوا كل شيء إلا النكاح . فبلغ ذلك اليهود فقالوا : ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه . فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا : يا رسول الله، إن اليهود تقول كذا وكذا، أفلا نجامعهن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد عليها - أى غضب - فاستقبلتها هدية من لبن إلى النبي ﷺ فأرسل في آثارهما فسقاها، فعرفا أن لم يجد عليهما^(١).

والمحيض : الحيض مصدر حاضت المرأة تحيض حيضاً ومحاضاً ومحيضاً فهي حائض، وأصله السيلان . يقال حاض الوادى إذا سال، ومنه الحوض لسيلان الماء إليه . ثم أطلق الحيض على ما يقذفه رحم المرأة من دم في أوقات مخصوصة على وجه مخصوص . والأذى : الشيء الذى يتأذى منه الإنسان ويصيبه الضرر بسببه .

والسؤال كان من بعض الصحابة، لأنه لقوة إيمانهم كانوا يحبون أن يعرفوا حكم الإسلام في شئونهم الخاصة والعامة، ولأنهم وجدوا أن اليهود وغيرهم يعاملون المرأة في حال حيضها معاملة غير كريمة فسألوا رسول الله ﷺ عن هذا الأمر الذى يتصل بأدق العلاقات بين الرجل والمرأة وهو حكم مباشرة النساء في حال الحيض، فأجابهم الله - تعالى - جواباً شافياً .

والمعنى : ويسألك أصحابك يا محمد عن حكم مباشرة النساء في حال الحيض فقل لهم معلماً وموجهاً : إن الحيض أى الدم الذى يلفظه رحم المرأة في وقت معين أذى يتأذى به الإنسان تأذياً حسياً جسدياً، فرائحته يتأذى منها من يشمها، وهو في ذاته شيء متقدر تعافه النفوس، وتفر منه الطباع .

وقوله : ﴿فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن﴾ بيان للحكم المتفرع على تلك الحالة التى يتأذى منها وهى حالة الحيض .

والاعتزال : التباعد، وهو هنا كناية عن ترك الجماع والمباشرة، كما أن النهى عن قربهن كناية عن النهى عن جماعهن، يقال : قرب الرجل امرأته إذا جامعها .

و﴿يطهرن﴾ من الطهر - بضم الطاء - بمعنى النقاء من الوسخ والقذر - .

والمعنى : عليكم أيها المؤمنون أن تمتنعوا عن مباشرة النساء في زمن حيضهن، ولا تجامعهن

حتى يطهرن من ذلك، لأن غشيانهن في هذه الحالة يؤديكم بسبب عدم نقاء المحل الذي يكون فيه الغشيان للمرأة، والمرأة أيضاً تتأذى من مباشرتها في زمن الحيض لأنها لا تكون في حالة تستسيغ معها المباشرة، فجهازها التناسلي في حالة اضطراب، وهيتها العامة في حالة تجعلها من شأنها أن تنفر من الجماع، والولد الذي يأتي عن طريق الجماع في حالة الحيض - على فرض إتيانه في هذه الحالة - كثيراً ما يأتي مشوهاً ضعيفاً، لأن النطفة إذا اختلطت بدم الحيض، أخذت البويضات في التخلق قبل وقت صلاحيتها للتخلق النافع الذي يكون وقته بعد انتهاء فترة الحيض وقد قال بذلك الأطباء الثقات^(١). وعرفه العرب القدامى بالتجربة، قال أبو كبير الهزلي.

ومبرأ من كل عُبرٍ حَيْضَةٍ وفساد مرضعة وداءٍ معضل^(٢)

وقد أجمع العلماء - كما بينا - على أن المراد بالاعتزال هو اجتناب المباشرة، إلا أنهم اختلفوا فيما يجب اعتزاله من المرأة بعد ذلك.

فبعضهم يرى اعتزال جميع بدن المرأة، وحثهم أن الله أمر باعتزال النساء ولم يخصص من ذلك شيئاً دون شيء.

وبعضهم يرى اعتزال موضع الأذى - أي مكان خروج الدم - لقول النبي ﷺ «اصنعوا كل شيء إلا النكاح».

وبعضهم يرى اعتزال ما بين السرة إلى الركبة من المرأة وله ما سوى ذلك، لقول عائشة: كانت إحدانا إذا كانت حائضة أمرها النبي ﷺ أن تأتزر ثم يباشرها. وقوله: «ولا تقربوهن حتى يطهرن» تأكيد لحكم الاعتزال وتقرير له، وتنبية على أن المراد به عدم جماعهن لاعدم القرب منهن أو مخالطتهن أو الأكل معهن كما كان يفعل اليهود وبعض العرب.

والدليل على ذلك ما جاء في الصحيحين عن عائشة - رضی الله عنها - قالت: «كنت أرجل رأس رسول الله ﷺ وأنا حائض».

وروى البخاري عن عائشة - أيضاً - قالت: كان رسول الله ﷺ يتكئ في حجرى وأنا حائض ثم يقرأ القرآن^(٣).

(١) راجع تفسير «التحرير والتنوير» ج ٢ ص ٣٥٠ للشيخ محمد بن عاشور.

(٢) غير الحِيضَة: جمع غبيرة وهي آخر الشيء. يريد أن يقول: إن أم هذا الممدوح لم تحمل به في آخر مدة الحيض لذا جاء مستقيم الحلقة.

(٣) صحيح البخاري: كتاب الحيض ج ١ ص ٨٢.

وروى مسلم عنها أيضاً قالت : كنت أشرب وأنا حائض ، ثم أناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع فيّ فيشرب .

وقوله : ﴿ حتى يطهرن ﴾ بيان لغاية الاعتزال . وقرأ حمزة الكسائي ﴿ حتى يطهرن ﴾ بفتح الطاء والهاء مع التشديد .

ومعناه عند جمهور الفقهاء ولا تجامعوهن حتى يغتسلن ، لأن القراءتين معناهما واحد ، ولأن الله - تعالى - قد علق الإتيان على التطهر فقال : ﴿ فإذا تطهرن فأتوهن ﴾ والتطهر هو الاغتسال . فالمرأة إذا انقطع حيضها لا يحل للزوج مجامعتها إلا بعد الاغتسال .

ويرى الأحناف أن معنى ﴿ حتى يطهرن ﴾ أى حتى ينقطع الدم ، لأنه إذا كان سبب الأذى هو الدم فانقطاعه طهور منه ، وبناء على ذلك فيجوز للرجل أن يباشر زوجته قبل أن تغتسل متى انقطع دمها لأقصى مدة الحيض ، وهو عشرة أيام . أخذًا بالقراءة المشهورة ﴿ يطهرن ﴾ بالتخفيف . أما إذا انقطع الدم قبل ذلك فلا تحل مباشرتها إلا بالتأكد من زوال الدم بعمل من جانبها وهو الاغتسال الفعلى ، لأن قراءة ﴿ يطهرن ﴾ بالتشديد عندهم معناها يغتسلن . وقال بعض الفقهاء يكفي في حلها أن تتوضأ عند انقطاع الدم .

ولكل فريق أدلته المبسوطة في كتب الفقه .

وفي هاتين الجملتين الكرمتين ﴿ فاعتزلوا النساء في الحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن ﴾ من سمو التعبير ، وبديع الكناية ما يغرس في نفس السامع حسن الأدب ، ويصون سمعه عن الألفاظ التي يجافي سماعها الأذواق السليمة ، وما أوحج المسلمين إلى التأسى بهذا الأدب الذي يحفظ عليهم مروءتهم وكرامتهم .

ثم قال - تعالى - : ﴿ فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ﴾ أى : فإذا تطهرن من الحيض فجامعوهن في المكان الذي أمركم الله بتجنبه في الحيض وهو القبل ولا تتعدوه إلى غيره .

والأمر في قوله - تعالى - : ﴿ فأتوهن ﴾ المراد به إباحة المباشرة ، لأن من المقرر عند العلماء أن الأمر بعد النهي يكون للإباحة ، خصوصاً إذا كان الموضوع موضع حل وإباحة لا موضع تكليف وإلزام ، وليس المراد به الحتم واللزوم ، لأن الإتيان مبنى على الرغبة والطاقة وشبه هذا التعبير قوله - تعالى - : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض ﴾ وقوله : ﴿ وإذا حللتهم فاصطادوا ﴾ .

قال الجمل : ومن في قوله : « من حيث » فيها قولان :

أحدهما : أنها لا ابتداء الغاية ، أى من الجهة التي تنتهى إلى موضع الحيض .

والثاني : أن تكون بمعنى في أى المكان الذى نهيتم عنه في الحيض . ورجح بعضهم هذا بأنه ملائم لقوله ﴿فاعتزلوا النساء في المحيض﴾^(١).

وعلى كلا القولين فالمقصود أن يأتى الرجل زوجته في المكان الفطرى الطبيعى لتلك العلاقة الجنسية، وهو القبل إذ هو مكان البذر والإنسال، ولا يخرج عن ذلك إلا الذين أصيبوا بشذوذ في عقولهم، وضعف في دينهم ..

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾
والتواب صيغة مبالغة من تائب بمعنى راجع إلى ربه إذا زل وهفا.
والمطهر : هو الإنسان المنتزه عن الفواحش والأقذار.

أى : إن الله - تعالى - يحب عباده الذين يكثرون الرجوع إليه إذا ما ظلموا أنفسهم بسيئة من السيئات، والذين يصونون أنفسهم وينزهونها عن المعاصى والآثام، ويرضى عنهم في الدنيا والآخرة.

قال الألوسى : ﴿إن الله يحب التوابين﴾ مما عسى ييدر منهم من ارتكاب بعض الذنوب كالإتيان في الحيض المستدعى لعقاب الله - تعالى - فقد أخرج الإمام أحمد والترمذى والنسائى عن أبي هريرة عن النبى - ﷺ قال : «من أتى حائضاً فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ وهو جار مجرى الترهيب فلا يعارض ما أخرجه الطبرانى عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله، أصبت امرأتى وهى حائض فأمره رسول الله - ﷺ - أن يعتق نسمة» وهذا إذا كان الإتيان في أول الحيض والدم أحمر، أما إذا كان في آخره والدم أصفر فينبغى أن يتصدق بنصف دينار كما دلت عليه الآثار^(٢).

ثم قال - تعالى - : ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾.
روى الشيخان عن جابر قال : كانت اليهود تقول : إذا أتى الرجل امرأته من دبرها في قبلها ثم حملت كان ولدها أحول . فأنزل الله - تعالى - قوله : ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ الآية .
والحرث في الأصل : تهيئة الأرض بالحراثة لإلقاء البذر فيها . وقد تطلق كلمة الحرث على الأرض المزروعة كما في قوله - تعالى - ﴿أن اغدوا على حرثكم﴾ أى على حديقتكم لجمع ما فيها من ثمار.

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ صفحة ١٧٩ .

(٢) تفسير الألوسى ج ٢ صفحة ١٢٤ وبتلخيص قليل .

وشبهت المرأة بالأرض لأن كليهما يمد الوجود للإنسان بأسباب بقاءه، فالزوجة تمدّه بعناصر تكوينه، والأرض تمدّه بأسباب حياته.

﴿أنى شئتم﴾ بمعنى كيف شئتم، أو متى شئتم في غير وقت الحيض.

والمعنى: نساؤكم هن مزرع لكم ومنبت للولد، أعدهن الله لذلك كما أعد الأرض للزراعة والإنبات، فأتوهن إذا تطهرن من الحيض في موضع الحرث كيف شئتم مستلقيات على ظهورهن أو غير ذلك مادمتن تؤدون شهوتكم في صمام واحد وهو الفرج.

وفي هذه الجملة الكريمة إشعار بأن المقصد الأول من الزواج إنما هو النسل، ويشير إلى ذلك قوله ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ إذ من شأن الحرث الصالح الانتاج وإشعار كذلك بما شرعه الله للزوجين من مؤانسة ومباسة ويشير إلى ذلك قوله - تعالى - : ﴿فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾.

ويرى صاحب الكشف أن التشبيه بين ما يلقي في الأرحام من النطفة وبين البذر الذي يلقي في الأرض من حيث إن كلا منها ينمو في مستودعه ويكون به البقاء والتوالد، فقد قال - رحمه الله - :

﴿نساؤكم حرث لكم﴾ مواضع الحرث لكم. وهذا مجاز شبهن بالمحارث تشبيها لما يلقي في أرحامهن من النطف التي منها النسل بالبذور، وقوله: ﴿فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ تمثيل، أى فأتوهن كما تأتون أراضيكم التي تحرثونها من أى جهة شئتم، لا تحظر عليكم جهة دون جهة. والمعنى: جامعوهن من أى شق أردتم بعد أن يكون المأتى واحدا وهو موضع الحرث.

ثم قال: وقوله - تعالى - : ﴿هو أذى، فاعتزلوا النساء﴾ وقوله ﴿من حيث أمركم الله﴾ وقوله ﴿فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ من الكنايات اللطيفة والتعريضات الحسنة. وهذه وأشباهها في كلام الله آداب حسنة على المؤمنين أن يتعلموها ويتأدبوا بها ويتكلفوا مثلها في محاورتهم ومكاتبتهم.

فإن قلت: ما موقع قوله ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ مما قبله؟ قلت: موقعه موقع البيان والتوضيح لقوله: ﴿فأتوهن من حيث أمركم الله﴾ يعنى أن المأتى الذى أمركم الله به هو مكان الحرث ترجمة له وتفسيرا، أو إزالة للشبهة ودلالة على أن الغرض الأصيل في الإتيان هو طلب النسل لا قضاء الشهوة فلا تأتوهن إلا من المأتى الذى يتعلق به هذا الغرض^(١).

ثم ختم الله - تعالى - الآية بقوله: ﴿وقدموا لأنفسكم، واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين﴾.

أى: عليكم أيها المؤمنون أن تقدموا في حاضركم لمستقبلكم من الأعمال الصالحة ما ينفعكم

(١) تفسير الكشف ج ١ صفحة ٢٦٦.

في دنياكم وآخرتكم، بأن تختاروا في زواجكم ذات الدين، وأن تسيروا في حياتكم الزوجية على الطريقة التي رسمها لكم خالقكم وعليكم كذلك أن تقوه بأن تصونوا أنفسكم عن كل ما نهاكم عنه، وأن تعلموا علم اليقين أنكم ستلقونه فيحاسبكم على أعمالكم ويجازيكم عليها بما تستحقون.

وقوله: ﴿وبشر المؤمنين﴾ بشارة طيبة لمن آمن وعمل صالحا، وتلقى ما كلفه الله - تعالى - بالطاعة والامتثال.

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين قد أرشدتنا المسلم إلى أفضل الوسائل، وأقوى الدعائم التي يقوم عليها صرح الحياة الزوجية السعيدة، والتي عن طريقها تأتي الذرية الصالحة الرشيدة، وأن الإسلام في تعاليمه لا يحاول أن ينكر أو يحطم غرائز الإنسان وضرورياته، وإنما الإسلام يعترف بغرائز الانسان وضرورياته ثم يعمل على تهذيبها وتقويمها بالطرق التي من شأنه إذا ما اتبعها أن يظفر بالسعادة والطمأنينة في دنياه وأخراه.

وبعد أن بينت لنا السورة الكريمة حكم المباشرة في فترة الحيض تابعت حديثها عن شئون الأسرة فذكرت حكم الإيلاء أى الحلف بالامتناع عن المباشرة بعد أن قدمت له بالجديث عن الحلف في ذاته. استمع إلى السورة الكريمة وهي تحكى ذلك فتقول:

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا
وَتَتَّقُوا وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾
لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ
قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ
أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءَ وَإِنْ فَاءَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَوْا
الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾

العرضة: فعله - بضم الفاء - بمعنى مفعول كالقبضة والغرفة، وهي اسم لكل ما يعترض الشيء فيمنع من الوصول إليه، واشتقاقها من الشيء الذى يوضع فى عرض الطريق فيصير مانعا للناس من السلوك والمرور يقال فلان عرضة دون الخير أى حاجز عنه. وتطلق كذلك على النصبه التي تتعرض للسهام وتكون هدفا لها، ومنه قولهم: فلان عرضة

للناس إذا كانوا يقعون فيه ويعرضون له بالمكروه. قال الشاعر:
دعوني أنح وجدًا كنوح الحمائم ولا تجعلوني عرضة للوائم
يريد أتركوني أنح من الشوق ولا تجعلوني معرضًا للوم اللوائم.

والأيمان: جمع يمين وتطلق بمعنى الحلف والقسم، واصل ذلك أن العرب كانوا إذا أرادوا توثيق عهودهم بالقسم يقسمونه وضع كل واحد من المتعاهدين يمينه في يمين صاحبه، و«تبروا» من البر وهو الأمر المستحسن شرعاً.

والمعنى على الوجه الأول: لا تجعلوا الحلف بالله - أيها المؤمنون - حاجزاً ومانعاً عن البر والتقوى والإصلاح بين الناس، وذلك أن بعض الناس كان إذا دعى إلى فعل الخير وهو لا يريد أن يفعله يقول: حلفت بالله ألا أفعله فنهاهم الله - تعالى - عن سلوك هذا الطريق.

وهذا المعنى هو الذى رجحه كثير من المفسرين لأنه هو المناسب لما يجيء بعد ذلك من قوله - تعالى - : ﴿لِلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِنْ نَسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ ووجه المناسبة أن الله - تعالى - يكره للمؤمن أن يجعل الحلف به مانعاً من رجوعه إلى أهله؛ ولأن هناك أحاديث كثيرة تحض من حلف على ترك أمر من أمور الخير أن يكفر عن يمينه وأن يأتي الأمر الذى فيه خير، ومن هذه الأحاديث ما جاء فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ إني والله إن شاء الله، لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذى هو خير وتحللتها^(١).

وروى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: من حلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذى هو خير^(٢).

وشبيهه بهذه الآية فى النهى عن الحلف على ترك فعل الخير قوله - تعالى - فى شأن سيدنا أبى بكر عندما أقسم ألا ينفق على قريبه الذى خاض فى شأن ابنته عائشة ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصْفَحُوا أَلَا تحبون أن يغفر الله لكم﴾^(٣).

فالآية على هذا الوجه تنهى المؤمن عن المحافظة على اليمين إذا كانت هذه اليمين مانعة من فعل الخير.

واللام فى قوله: ﴿لأيمانكم﴾ متعلق بعرضة، وقوله ﴿أن تبروا وتتقوا وتصلحوا﴾ مفعول

(٣) سورة النور الآية ٢٢.

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٦٦.

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٦٦.

لأجله أى : لا تجعلوا الحلف بالله سبباً في الامتناع عن عمل البر والتقوى والإصلاح بين الناس .

والمعنى على أن عرضة بمعنى النصبة التي تتعرض للسهام : لا تجعلوا - أيها المؤمنون - اسم الله - تعالى - هدفاً لأيمانكم فبتبدلوه بكثرة الحلف به في كل حق وباطل، وذلك لأجل البر والتقوى والإصلاح بين الناس، فإن من شأن الذي يكثر الحلف أن تقل ثقة الناس به وبأيمانه، وقد ذم الله - تعالى - من يكثر الحلف بقوله ﴿ولا تطع كل حلاف مهين﴾ وأمر بحفظ الأيمان فقال : ﴿واحفظوا أيمانكم﴾ .

قال الإمام الرازي : والحكمة في الأمر بتقليل الأيمان، أن من حلف في كل قليل وكثير بالله انطلق لسانه بذلك، ولا يبقى لليمين في قلبه وقع، فلا يؤمن إقدامه على اليمين الكاذبة، فيختل ما هو الغرض الأصلي في اليمين، وأيضاً كلما كان الإنسان أكثر تعظيماً لله . كان أكمل في العبودية، ومن كمال التعظيم أن يكون ذكر الله - تعالى - أجلاً وأعلى عنده من أن يشهد به في غرض دنيوي، وأما قوله بعد ذلك ﴿أن تبروا﴾ فهو علة لهذا النهي . أى : إرادة أن تبروا والمعنى إنما نهيتهم عن هذا - أى عن الإكثار من الحلف - لما أن توفى ذلك من البر والتقوى والإصلاح، فتكونون يا معشر المؤمنين بسبب عدم إكثاركم من الأيمان - برة أتقياء مصلحين^(١) .

وهذا الوجه أيضاً استحسنته كثير من العلماء، ولا تنافي بينهما؛ لأن الله - تعالى - ينهانا عن أن نجعل القسم به مانعاً من فعل الخير، كما ينهانا في الوقت نفسه عن أن نكثر من الحلف به في عظيم الأمور وحقيرتها .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿والله سميع عليم﴾ أى : سميع لأقوالكم وأيمانكم عند النطق بها عليم بأحوالكم ونياتكم فحافظوا على ما أمركم به، وانتهوا عما نهاكم لتنالوا رضاه ومثوبته .

وقوله - تعالى - : ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ استئناف بياني، لأن الآية السابقة لما أفادت النهي عن التسرع في الحلف، أو عن اتخاذ الأيمان حاجزاً عن عمل الخير، كانت نفوس السامعين مشوقة إلى حكم اليمين التي تجرى على الألسنة بدون قصد .

والمؤاخذة : مفاعلة من الأخذ بمعنى المحاسبة أو المعاينة أو الإلزام بالوفاء بها .
واللغو من الكلام : الساقط الذي لا يعتد به ولا يصدر عن فكر وروية مصدر لغا يلغو ويلغى .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٦ ص ٨٠ .

والمعنى : لا يعاقبكم الله - تعالى - ولا يلزمكم بكفارة ما صدر عنكم من الأيمان اللاغية فضلاً منه - سبحانه - وكرماً .

واليمين اللغو هي التي لا يقصدها الخالف، بل تجرى على لسانه عادة من غير قصد، وقد ذكر العلماء صوراً لها منها - كما يقول ابن كثير :

مارواه عطاء عن عائشة أنها قالت : « اللغو في اليمين هو كلام الرجل في بيته كلا والله وبلى والله » وفي رواية عن الزهري عن عروة عنها أنها قالت : « اللغو في اليمين هو ما يكون بين القوم يتدارعون في الأمر - أى يتناقشون ويتذكرون فيه - فيقول هذا لا والله وبلى والله وكلا والله لا تعقد عليه قلوبهم » أى تجرى على ألسنتهم ألفاظ اليمين ولكن بدون قصد يمين : - ومنها ما جاء عن عروة عنها أنها كانت تتأول هذه الآية يعنى قوله - تعالى - : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ﴾ وتقول : هو الشيء يحلف عليه أحدكم لا يريد منه إلا الصدق فيكون على غير ما حلف عليه .

ثم بين - سبحانه - اليمين التي هي موضع المحاسبة والمعاقبة فقال : ﴿ ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ﴾ .

أى : لا يؤاخذكم الله في اليمين التي لم تصدر عن روية وتفكير ولكن يؤاخذكم أى يعاقبكم في الآخرة بما قصدته قلوبكم وتعمدتم فيه الكذب في اليمين، بأن يحلف أحدكم على شيء كذب ليعتقد السامع صدقه، وتلك هي اليمين الغموس - أى التي تغمس صاحبها في النار - ويدخل فيها الأيمان التي يحلفها شهود الزور والكاذبون عند التقاضى ومن يشابههم في تعمد الكذب .

ويرى جمهور العلماء أن هذه اليمين لا كفارة فيها وإنما كفارتها التوبة الصادقة ورد الحقوق إلى أصحابها إن ترتب على اليمين الكاذبة ضياع حق أو حكم يبطل .

ويرى الإمام الشافعى أنه يجب فيها فوق ذلك الكفارة .

والباء في قوله : ﴿ بما ﴾ للسببية، وما مصدرية أى، لا يؤاخذكم باللغو ولكن يؤاخذكم بالكسب، أو موصولة والعائد محذوف أى ولكن يؤاخذكم بالذى كسبته قلوبكم .

وقوله : ﴿ والله غفور حلیم ﴾ تذييل لتأكيد معنى عدم المؤاخذة في اللغو. أى والله غفور حيث لم يؤاخذكم باللغو حلیم حيث لم يعاجل المخطئين بالعقوبة .

ويعد بيان هذه الأحكام في الأيمان العامة، عقب - سبحانه - ذلك ببيان حكم اليمين الخاصة فقال : ﴿ للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءو فإن الله غفور رحيم .

وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم ﴿٥٠﴾ و﴿يؤلون﴾ : من الإيلاء مصدر آلى يؤالى ويؤلى إيلاء بمعنى حلف. قال الشاعر:

قليل الألياء حافظ ليمينه وإن سبقت منه الألية برت

وقد خص الإيلاء في الشرع بالحلف على ترك مباشرة الزوجة. وكانوا في الجاهلية يحلفون ألا يقربوا نساءهم السنة والأكثر إضرارا بهن.

و﴿التريص﴾ التلبث والانتظار والترقب. قال الشاعر:

تريص بها ريب المنون لعلها تطلق يوما أو يموت حليلها

و﴿فأءو﴾ معناه رجعوا. والفىء في اللغة هو رجوع الشيء إلى ما كان عليه من قبل، ولهذا قيل لما تزيله الشمس من الظل ثم يعود فيء. وقيل لما رده الله على المسلمين من مال المشركين فيء كأنه كان لهم فرجع إليهم.

قال الشاعر:

ففاءت ولم تقض الذى أقبلت له ومن حاجة الإنسان ما ليس قاضيا

و﴿عزموا﴾ من العزم وهو عقد القلب على الشيء، والتصميم عليه. يقال عزم على الشيء يعزم عزمًا وعزيمة.. إذا عقد نيته عليه.

و﴿الطلاق﴾ هو حل عقد النكاح الذى بين الرجل والمرأة، وأصله من الانطلاق، وهو الذهاب. يقال: طلقت المرأة تطلق - من باب نصر - طلاقًا، إذا أصبحت مخلاة بدون رجل بعد أن كانت في عصمة رجل معين.

قال الفخر الرازى: كان الرجل في الجاهلية لا يريد المرأة ولا يجب أن يتزوجها غيره، فيحلف أن لا يقربها، فكان يتركها بذلك لا أيما ولا ذات يعل والغرض منه مضارة المرأة. ثم إن أهل الإسلام كانوا يفعلون ذلك - أيضًا - فأزال الله، تعالى - ذلك، وأمهل الزوج مدة حتى يتروى ويتأمل فإن رأى المصلحة في ترك هذه المضارة فعلها، وإن رأى المصلحة في المفارقة عن المرأة فارقها.

ومعنى الآيتين الكريميتين: أن الله - تعالى - جعل للذين يحلفون على ترك مباشرة أزواجهم مدة يراجعون فيها أنفسهم، ويتظنون فيها ما يستقر عليه أمرهم، وهذه المدة هي أربعة أشهر، فإن رجعوا عما حلفوا عليه من ترك مباشرة الزوجة، ورأوا أن المصلحة في الرجوع فإن الله - تعالى - يغفر لهم ما فرط منهم. وإن استمروا على ترك مباشرة نساءهم، وأصروا على ذلك بعد انقضائها فإن شرع الله - تعالى - يحكم بالتفريق بينهما، لأن الحياة الزوجية لا تقوم على البغض والكراهية والهجران، وإنما تقوم على المحبة والمودة والرحمة.

وقوله : ﴿للذين يؤلون﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم . وتربص مبتدأ مؤخر، وقدم الخبر على المبتدأ للاهتمام بهذه التوسعة التي وسع الله بها عليهم، فهي مدة كافية لأن يراجع المرء فيها نفسه، ويعود إلى معاشرة زوجه خلالها.

وعدى فعل الإيلاء بمن مع أن حقه أن يتعدى بعلى، لأنه تضمن هنا معنى البعد كأنه قال : للذين يؤلون متباعدين من نسائهم.

و﴿من نسائهم﴾ على حذف المضاف، أو من إقامة العين مقام الفعل المقصود منه المبالغة أى، للذين يؤلون من مباشرة نسائهم.

وأضيف التربص إلى الظرف ﴿أربعة أشهر﴾ على الاتساع إذ الأصل تربصهن في أربعة أشهر. وقوله : ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ دليل الجواب. أى فإن فاؤا إلى زوجاتهم وحثوا في أيمانهم التي حلفوها بالابتعاد عنهن، بأن كفروا عنها وتابوا إلى ربهم فحنتهم مغفور لهم لأنه - سبحانه - غفور لمن تاب من بعد ظلمه وأصلح، رحيم بعباده في كل أوامره وتكاليفه.

وجواب الشرط في قوله ﴿وإن عزموا الطلاق﴾ محذوف والتقدير وإن عزموا الطلاق فقد وجب عليهم ما اعتزموه، والطلاق منصوب على نزع الخافض لأن عزم يتعدى بعلى.

وفي قوله : ﴿فإن الله سميع عليم﴾ وعيد شديد لمن يحلف على ترك مباشرة امرأته أو يمسكها بقصد إيذائها ومضارتها.

أى فإن الله - تعالى - سميع لكل ما كان من الزوج الخالف، عليم بما يقع منه من مضار أو غيرها، وسيجزيه يوم القيامة بما يستحقه.

قال القرطبي ما ملخصه : وقد جعل الله للزوج مدة أربعة أشهر في تأديب المرأة بالهجر، وقد آلى النبي ﷺ من أزواجه شهرا تأديبا لهن - عندما طالبته بزيادة النفقة - وقد قيل : الأربعة الأشهر هي التي لا تستطيع أن تصبر عنه أكثر منها، وقد روى أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - سأل بعض النساء عن مقدار صبر المرأة عن زوجها فقلن أربعة أشهر، فجعل عمر مدة الرجل في الغزو أربعة أشهر، فإذا مضت أربعة أشهر استرد الغازين ووجه بقوم آخرين، وهذا - والله أعلم - يقوى اختصاص مدة الإيلاء بأربعة أشهر^(١).

وعلى أية حال فإن الطبائع تختلف في مثل هذه الأمور، والأربعة الأشهر مدة كافية ليختبر الرجل نفسه وميوله، فإذا أن يعود إلى معاشرة زوجه بالطريقة التي شرعها الله، وإما أن تعاد إلى الزوجة حريتها بالطلاق، ليبدأ كلاهما حياة زوجية جديدة مع شخص آخر. فذلك أكرم

(١) تفسير القرطبي ج ٣ صفحة ١٠٧ بتصرف وتلخيص.

للزوجة وأعف وأصون، وأنفع للرجل كذلك وأشرف. وقد اختار الله هذه المدة وهو الأعلم بحكمة اختياره فعلياً أن تتقبل ما شرعه لنا طائعين خاشعين.

هذا وجهه - العلماء على أن الطلاق لا يقع بانتهاء هذه المدة، وإنما بانتهائها يأمره الحاكم بالفيئة، فإن تقبل أمر الحاكم بالرضا أمهله مدة يمكنه الفيئة فيها، وإن لم يتقبله بالرضا أمره بالطلاق، فإن طلق فيها وإلا طلقها الحاكم منه.

وعليه فإن الفاء في قوله - تعالى - : ﴿فَإِنْ فَاءٌ﴾ لترتيب الحكم الذي يحصل بعد مدة التريص.

وقال الأحناف إن الطلاق يقع بمجرد انتهاء هذه المدة وهي الأربعة الأشهر، والرجوع إنما يكون خلالها فلا زيادة فوقها، ويكفي في مراجعته لنفسه تلك المدة، ومادام لم يرجع إلى معاشرته امرأته خلالها فقد أثر فراقها، ولا يصح أن نعطيها أية مهلة من الوقت بعدها. وعليه تكون الفاء عندهم للتفصيل، أى تفصيل ما يحصل من الزوج في هذه المدة.

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد نهت المسلم عن اتخاذ الحلف بالله حاجزاً بينه وبين فعل الخير، وأمرته بأن يحفظ لسانه عن الإكثار من الحلف بالله في الأمور الصغيرة والكبيرة، وحذرت من تعمد الأيمان الكاذبة التي تؤدي إلى غضب الله - تعالى - لأن اليمين الكاذبة الفاجرة من كبائر الذنوب، وحذرت كذلك من أن يهجر زوجته بقصد إيذاها والإضرار بها، لأن الحياة الزوجية يجب أن تقوم على المودة والرحمة، وأرشدته إلى أن أقصى مدة لهجر الزوجة بقصد تأديبها وعلاج اعوجاجها هي أربعة أشهر يراجع فيها نفسه، فإما أن يعود إليها ويكفر عن يمينه، وإما أن يقع بينها الفراق ﴿وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته﴾.

وبهذه الأحكام السامية يكون الإسلام قد شرع للرجل والمرأة ما ينفعهما ويصون كرامتهما، ويحفظ لهما حريتهما وحسن استمتاعهما بالحياة.

ثم ساقَت السورة في خمس آيات أحكام الطلاق، وفصلت أحواله، وبينت مراته، وذكرت ما ينبغى أن يكون عليه من عدل وتسامح حتى لا يقع ظلم أو جور على أحد الزوجين. استمع إلى القرآن الكريم وهو يبين ذلك بأسلوبه الحكيم المؤثر فيقول:

وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ

بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي

أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنْنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِعَوْلِهِنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ

فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ
 وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ
 فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ
 تَأْخُذُوا بِمَمَاءٍ اتَّيَمُّوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ
 اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ
 بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ
 هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ
 زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ
 يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾
 وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ
 سَرَّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْتُدَنَّ وَأَمَّنْ يَفْعَلْ
 ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ، وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا
 نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ
 يُعِظُكُمْ بِهَا وَعُوتُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾
 وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ
 أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ
 مِنْكُمْ يَوْمَئِذٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ
 يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

وقوله - تعالى - : ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ معطوف على ما قبله لشدة المناسبة، وللاتحاد في الحكم وهو التربص الذي سبقت الإشارة إليه في قوله ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر﴾.

والتربص : التأنى والتريث والانتظار.

والقروء : جمع قرء - بضم القاف وفتحها - .

قال الطبرسي : وأصله في اللغة يحتمل وجهين :

أحدهما : الاجتماع ومنه القرآن لاجتماع حروفه . . فعلى هذا يقال أقرأت المرأة فهى مقرءة إذا حاضت، وذلك لاجتماع الدم في الرحم .

والوجه الثانى : أن أصل القراء الوقت الجارى فى الفعل على عادة، يقال : هذا قارىء الرياح أى وقت هبوبها^(١).

والمعنى : أن على المطلقات أن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء بدون نكاح ثم لها أن تتزوج بعد ذلك إن شاءت .

والمراد بالمطلقات هنا المدخول بهن من ذوات الحيض غير الحوامل، لأن غيرهن قد بين الله - تعالى - عدتهن فى مواضع أخرى .

والمتوفى عنها زوجها بين الله عدتها بقوله : ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾^(٢).

ومن لا يحضن لياس من الحيض، أو لأنهن لم يرين الحيض فقد بين الله - تعالى - عدتهن بقوله : ﴿واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر، واللائى لم يحضن﴾^(٣) أى : واللائى لم يحضن فعدتهن كذلك ثلاثة أشهر .

وذوات الحمل بين الله - تعالى - عدتهن بقوله : ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾^(٤).

وغير المدخول بها لعدة عليها لقوله - تعالى - : ﴿يأياها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها﴾^(٥).

(١) تفسير «مجمع البيان» ج ٢ صفحة ٢٢٦ للطبرسي .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٣٤

(٣) و (٤) سورة الطلاق الآية ٤ .

(٥) سورة الأحزاب الآية ٤٩ .

وقوله : ﴿يتربصن بأنفسهن﴾ جملة خبرية اللفظ إنشائية المعنى أى «ليتربصن» وإخراج الأمر فى صورة الخبر - كما يقول الزمخشرى - « تأكيد للأمر، وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتهاله، فكأنهن امثلن الأمر بالتربص. فهو يخبر عنه موجوداً. ونحوه قولهم فى الدعاء : «رحمك الله» أخرج فى صورة الخبر ثقة بالاستجابة. كأنما وجدت الرحمة فهو يخبر عنها وبنائه على المبتدأ مما زاده أيضاً فضل توكيد. ولو قيل : «ويتربص المطلقات» لم يكن بتلك الوكادة»^(١).

وفى قوله - تعالى - : ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن﴾ ما فيه من الابداع فى الإشارة والنزاهة فى العبارة والسمو فى المعنى، وذلك لأن المرأة المطلقة كثيراً ما تشعر بعد طلاقها بأنها فى حاجة إلى أن تثبت أن إخفاقها فى حياتها الزوجية السابقة ليس لنقص فيها، أو لعجز عن إنشاء حياة زوجية أخرى، وهذا الشعور قد يدفعها إلى التسرع والاندفاع من أجل إنشاء هذه الحياة، وهنا تبرز طريقة القرآن الحكيمه فى معالجة النفوس، إنه يقول للمطلقة : إن التطلع إلى إنشاء حياة زوجية أخرى ليس عيباً، ولكن الكرامة توجب عليها الانتظار والتريث، إذ لا يليق بالحره الكريمة أن تنتقل بين الأزواج تنقلا سريعا. . وأيضاً فإن نداء الفطرة، وتعاليم الشريعة توجبان عليها الانتظار مدة ثلاثة قروء، لكى تستبرىء رحمها، حتى إذا كان هناك حمل نسب إلى الأب الشرعى له.

وفى قوله - تعالى - : ﴿يتربصن بأنفسهن﴾ إشعار بأن هذا التربص يجب أن يكون من ذات أنفسهن وليس من عامل خارجى، فشان الحره الكريمة المؤمنة أن تحجز نفسها بنفسها عن كل ما يتنافى مع الكرامة والشرف، فقد تجوع الحره ولكنها لا تأكل بثديها - كما يقولون - .

وقد أشار صاحب الكشاف إلى المعنى بقوله : فإن قلت وما معنى ذكر الأنفس - هنا - ؟ قلت : فى ذكر الأنفس تهيج لمن على التربص وزيادة بعث، لأن فيه ما يستتكنف منه فيحملهن على أن يتربصن. وذلك أن أنفس النساء طوامح إلى الرجال. فأمرن أن يقمن أنفسهن، ويغلبنها على الطموح، ويجبرنها على التربص»^(٢).

وقوله - تعالى - : ﴿ثلاثة قروء﴾ نصب ثلاثة على النيابة عن المفعول فيه، لأن الكلام على تقدير مضاف، أى مدة ثلاثة قروء. فلما حذف المضاف خلفه المضاف إليه فى الإعراب. هذا وللعلماء رأيان شهيران فى المراد بقوله - تعالى - : ﴿ثلاثة قروء﴾.

(١) تفسير الكشاف ج ١ صفحة ٢٧١.

(٢) تفسير الكشاف ج ١ صفحة ٢٧١.

فالأحناف والحنابلة ومن قبلهم عمر وعلى وابن مسعود وغيرهم يرون أن المراد بالقروه هنا الحيضات والمعنى عندهم : أن المطلقات عليهن أن يكتن بعد طلاقهن من أزواجهن مدة ثلاث حيضات بدون زواج ثم بعد ذلك هن أن يتزوجن إن شئن .

ومن أدلتهم : ان النبي ﷺ قد فسر القرء بمعنى الحيض فقد جاء في الحديث الذي رواه أبو داود والنسائي عن فاطمة بنت أبي حبيش أن رسول الله ﷺ قال لها : «دعى الصلاة أيام أقرائك» (١) .

ولا شك أن المراد بالقرء في هذا الحديث الحيض، لأنه هو الذي لا تصح معه الصلاة . أما المالكية والشافعية ومن قبلهم عائشة وعبد الله بن عمر وزيد بن ثابت والزهرى وغيرهم فيرون أن المراد بالقروه هنا الأطهار، أى الأوقات التى تكون بين الحيضتين للنساء . ومعنى الآية عندهم : أن على المطلقات أن يكتن بعد طلاقهن من أزواجهن ثلاثة أطهار بدون زواج ثم بعد ذلك يتزوجن إذا شئن .

ومن أدلتهم : أن الله - تعالى - يقول : ﴿فطلقوهن لعدتهن﴾ وقد بينت السنة النبوية أن الطلاق لا يكون فى الحيض، فلا يتصور أن يكون الطلاق فى العدة إلا إذا فسرنا القرء بالطهر لا بالحيض . وروى عن عائشة أنها قالت : هل تدرؤن الأقرء؟ الأقرء الأطهار (٢) .

قال صاحب المنار قال الأستاذ الإمام : والخطب فى الخلاف سهل، لأن المقصود من هذا التربص العلم ببراءة الرحم من الزوج السابق، وهو يحصل بثلاث حيض كما يحصل بثلاث أطهار . ومن النادر أن يستمر الحيض إلى آخر الحمل فكل من القولين موافق لحكمة الشرع فى المسألة (٣) .

ثم قال - تعالى - : ﴿ولا يجمل هن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن﴾ . أى : ولا يجمل للنساء المطلقات أن يكتمن أمانة الله التى خلقها فى أرحامهن من ولد لكى ينسبه إلى غير أبيه، أو من حيض أو طهر لكى تطول العدة، ويمتد الإنفاق من الأزواج عليهن . فإن هذا الكتمان كذب على الله، وخيانة للأمانة التى أودعها الله فى أحشائهن وأمرهن بالوفاء بها، سيحاسب الله من يفعل ذلك منهن حساباً شديداً، ويعاقبه عقاباً أليماً .

وقوله : ﴿إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ تحريض هن على عدم الكتمان وعلى الاخبار

(١) تفسير الألوسى ج٢ صفحة ١٣١ .

(٢) تفسير الفخر الرازى ج٦ صفحة ٩٤ .

(٣) تفسير المنار ج١ صفحة ٢٧١ .

الصادق حتى تستقيم الأحكام، وتتقرر الحقوق، وتحذير لمن من الكتمان ومن اتباع الهوى والشيطان أى: أن على المطلقات ألا يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن جرين على ما يقتضيه الإيمان، إذ الإيمان يبعث على الصدق ويدعو إلى المحافظة على الأمانة، فإن لم يفعلن ذلك وكتمن ما خلق الله في أرحامهن، كن ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر إيماناً حقيقياً، لأن من شأن المؤمنات الكاملات في إيمانهن ألا يفعلن ذلك.

قال الإمام الرازى: أما قوله ﴿إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ فليس المراد أن ذلك النهى - عن الكتمان - مشروط بكونها مؤمنة، بل هذا كما تقول للرجل الذى يظلم: إن كنت مؤمناً فلا تظلم. تريد إن كنت مؤمناً فينبغى أن يمنعك إيمانك عن ظلمى، ولا شك أن هذا تهديد شديد للنساء.. والآية دالة على أن كل من جعل أميناً فى شيء فخان فيه فأمره عند الله شديد^(١).

هذا، وقد قرر الفقهاء أن القول فيما يتعلق بعدة المرأة ابتداء وانتهاء مرجعه إليها، لأنه أمر يتعلق بها ولا يعلم إلا من جهتها، إلا أنهم مع ذلك قرروا مدة ينتهى قولها عنده، ولا يعمل بقولها إن نقصت عن تلك المدة. فلو ادعت - أنها قد انقضت عدتها بعد شهر من طلاقها لا يقبل قولها.

وللفقهاء كلام طويل فى هذه المسألة مبسوط فى كتب الفقه فليرجع إليه من شاء ذلك.

ثم قال - تعالى - : ﴿وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك إن أرادوا إصلاحاً﴾.

قال القرطبى: البعولة جمع البعل وهو الزوج، سمي بعلا لعلوه على الزوجة بما قد ملكه من زوجيتها، ومنه قوله - تعالى - : ﴿أتدعون بعلاً﴾ أى رباً، لعلوه فى الربوبية.. والبعولة أيضاً مصدر البعل. وبعل الرجل يبعل - كمنع يمنع - أى صار بعلاً. والمباعدة والبعل: الجماع، ومنه قوله ﷺ لأيام التشريق: ﴿إنها أيام أكل وشرب وبعل﴾^(١).

والمعنى: وأزواج المطلقات طلاقاً رجعيّاً أحق بردهن ومراجعتهن فى ﴿ذلك﴾ أى فى وقت التريص قبل انقضاء العدة ﴿إن أرادوا إصلاحاً﴾ أى إن أرادوا بهذه المراجعة الإصلاح للإضرار، كما سأتق فى قوله - تعالى - : ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرراً لتعتدوا﴾.

قال القرطبى: وأجمع العلماء على أن الحر إذا طلق زوجته الحرة وكانت مدخولاً بها تطليقة أو

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٦ صفحة ٩٨.

(٢) تفسير القرطبى ج ٣ صفحة ١١٩ - بتلخيص.

تطليقتين، أنه أحق برجعتهما ما لم تنقض عدتها وإن كرهت المرأة، فإن لم يراجعها المطلق حتى انقضت عدتها فهي أحق بنفسها وتصير أجنبية منه، ولا تحل له إلا بخطبة ونكاح مستأنف بولي وإشهاد ليس على صفة المراجعة، وهذا اجماع من العلماء^(١).

وفي هذه الجملة الكريمة بيان لبعض الحكم السامية التي أرادها الله - تعالى - من وراء مشروعية العدة. فالله - تعالى - جعل للمطلق فرصة - هي مدة ثلاثة قروء - لكي يراجع نفسه، ويتدبر أمره، لعله خلال هذه المراجعة وذلك التدبر يرى أن الخير في بقاء زوجته معه فيراجعها، رعاية لرابطة المودة والرحمة التي جعلها الله - تعالى - بين الزوجين.

وقوله - تعالى - : ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ شرط المقصود منه حض المطلق على أن ينوى بإرجاعه لمطلقته إصلاح أحوالها، بإرشادها إلى ما من شأنه أن يجعل حياتها الزوجية مستمرة لا منقطعة، أما إذا راجعها على نية الكيد والأذى والمضارة ففي هذه الحالة يكون آثمًا وسيعاقبه الله على ذلك بما يستحقه.

قال الألوسي : وليس المراد من التعليق اشتراط جواز الرجعة بإرادة الإصلاح حتى لو لم يكن قصده لا تجوز، للإجماع على جوازها مطلقاً، بل المراد تحريضهم على قصد الإصلاح حيث جعل كأنه منوط به ينتفى بانتفائه^(٢).

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿وَلَهُن مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهُن بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

أى : وللنساء على الرجال مثل ما للرجال على النساء. فليؤد كل واحد منهما إلى الآخر ما يجب عليه نحوه بالمعروف.

والمراد بالمماثلة - كما يقول الألوسي - المماثلة في الوجوب لا في جنس الفعل، فلا يجب عليه إذا غسلت ثيابه أو خبزت له أن يفعل لها مثل ذلك، ولكن يقابله بما يليق بالرجال^(٣).

أى أن الحقوق والواجبات بينهما متبادلة، وأنها متماثلان في أن كل واحد منهما عليه أن يؤدي نحو صاحبه ما يجب عليه بالمعروف أى بما عرفته الطباع السليمة ولم تنكره، ووافق ما أوجبه الله على كل منهما في شريعته. فالباء في قوله ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ للملاسة.

وقد بين النبي ﷺ في أحاديث متعددة حقوق الرجال على النساء، وحقوق النساء على الرجال، ومن ذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله أن رسول ﷺ قال في

(١) تفسير القرطبي ج ٣ صفحة ١٢٠.

(٢) و (٣) تفسير الألوسي ج ٢ صفحة ١٣٤.

خطبته في حجة الوداع : اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله . واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه . فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، وهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف .»

وروى الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : لا يحل لامرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه ، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه .»

وأخرج أبو داود عن معاوية بن حيدة قال : قلت لرسول الله ، ما حق زوجة أحدنا عليه ؟ قال : أن تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ، ولا تقبح ، ولا تهجر إلا في البيت .»

ولقد قام السلف الصالح بأداء هذه الحقوق على أحسن وجه فقد روى عن ابن عباس أنه قال : إني لأحب أن أترين لامرأتى كما تترين لى لأن الله . تعالى - يقول : ﴿ وهن مثل الذى عليهم بالمعروف ﴾ .

أى : أن يحب أن يؤنسها وأن يدخل السرور على قلبها كما أنها هى تحب أن تفعل له ذلك . ولكن لا يفهم أحد أن المراد بهذا المثلية المساواة من كل الوجوه قال - تعالى - : ﴿ وللرجال عليهن درجة ﴾ والرجال : جمع رجل . يقال : رجل بين الرجلين أى القوة . وهو أرجل الرجلين أى أقواهما . وفرس رجيل أى قوى على المشى . وارتجل الكلام أى قوى عليه من غير حاجة فيه إلى فكرة وروية ، وترجل النهار أى قوى ضياؤه . فأصل كلمة الرجل مأخوذة من الرجولية بمعنى القوة .

والدرجة فى الأصل : ما يرتقى عليه من سلم ونحوه ، والمراد بها هنا المزية والزيادة أى : لهن عليهم مثل الذى لهم عليهن ، وللرجال على النساء مزية وزيادة فى الحق ، بسبب حمايتهم لهن ، وقيامهم بشئونهن ونفقتهن وغير ذلك من واجبات .

قال بعض العلماء : وإذا كانت الأسرة لا تتكون إلا من ازدواج هذين العنصرين - الرجل والمرأة - فلا بد أن يشرف على تهذيب الأسرة ويقوم على تربية ناشئتها وتوزيع الحقوق والواجبات فيها أحد العنصرين . وقد نظر الإسلام إلى هذا الأمر نظرة عادلة ، فوجد أن الرجل أملك لزام نفسه ، وأقدر على ضبط حسه ، ووجده الذى أقام البيت بماله وأن انهاره خراب عليه فجعل له الرياسة ، ولذا قال - سبحانه - : ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم . . . ﴾ .

هذه هى الدرجة التى جعلها الإسلام للرجل ، وهى درجة تجعل له حقوقاً وتجعل عليه

واجبات أكثر، فهي موائمة كل المواهمة لصدر الآية، فإذا كان للرجل فضل درجة فعليه فضل واجب»^(١).

وقوله: ﴿والله عزيز حكيم﴾ أى غالب فى انتقامه ممن عصاه، حكيم فى أمره وشرعه وسائر ما يكلف به عباده. فعلى الرجل والمرأة أن يطلبوا عزمها فيما شرعه الله فهو الملجأ والمعاذ لكل ذى حق مهضوم، وعليهما كذلك أن يتمسكا بما كلفها به، لأنه ما كلفها إلا بما تقتضيه الحكمة، ويؤيده العقل السليم.

وبعد أن بين - سبحانه - فى هذه الآية شرعية الطلاق ومداه إذا طلق الرجل امرأته المدخول بها طلبة رجعية، ووضع المنهاج العادل الذى يجب أن يتبعه الرجال والنساء. . بعد أن بين ذلك أتبعه ببيان الحد الذى ينتهى عنده ما للرجل من حق المراجعة فقال - تعالى - : ﴿الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾.

قال الإمام ابن كثير: هذه الآية رافعة لما كان عليه الأمر فى ابتداء الإسلام: من أن الرجل كان أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة ما دامت فى العدة، فلما كان هذا فيه ضرر على الزوجات، قصرهم الله - تعالى - على ثلاث طلاقات، وأباح الرجعة فى المرة والثنتين، وأبانها بالكلية فى الثالثة فقال: الطلاق مرتان... الآية^(٢).

وروى ابن أبى حاتم عن هشام بن عروة عن أبيه أن رجلا قال لامرأته: لا أطلقك أبداً ولا أويك أبداً. قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلق حتى إذا دنا أجلك - أى قاربت عدتك أن تنتهى - راجعتك. فأنت المرأة إلى رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك فأنزل الله - تعالى - : ﴿الطلاق مرتان﴾ - الآية.

والطلاق - كما يقول القرطبي - هو حل العصمة المنعقدة بين الأزواج بالفاظ مخصوصة. وأل فى قوله: ﴿الطلاق مرتان﴾ للعهد الذكرى.

أى: الطلاق الرجعى المشار إليه فى قوله - تعالى - : ﴿والمطلقات يتربصن﴾ مرتان، وأمر المطلق بعد إحدى هاتين الطلقتين يدور بين حالتين إما إمساك بمعروف بمعنى أن يراجعها على نية الإبقاء على العلاقة الزوجية، والمعاملة الحسنة وإما تسريح بإحسان بمعنى أن يتركها حتى تنتهى عدتها، ويطلق سراحتها بدون ظلم أو إساءة إليها، كما قال - تعالى - : ﴿وسرحوهن سراحا جميلا﴾.

(١) تفسير القرآن الكريم لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبوزهرة. مجلة لواء الإسلام السنة السادسة العدد ٣

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٧١

قال القرطبي: والتسريح: إرسال الشيء، ومنه تسريح الشعر ليخلص البعض من البعض، وسرح الماشية أرسلها..»

وعلى هذا التفسير يكون المراد بالطلاق في الآية الطلاق الرجعي وبالمرتين حقيقة الثنية، ويكون وقت الإمساك أو التسريح هو ما بعد الطلقة الأولى أو الثانية بصفة خاصة، وفي كل الأوقات بصفة عامة. وعلى هذا التفسير سار كثير من العلماء.

ويرى بعضهم أن المراد بالطلاق في الآية الطلاق الشرعي، وبالمرتين التكرار لا العدد، وأن المراد من التسريح بالإحسان هو الطلقة الثالثة، أي بعد الطلقتين الأوليين يتروى في الأمر فيمسك بالمعروف أو يطلق الطلقة الثالثة. وقد ذكر هذا الرأي صاحب الكشاف فقال:

﴿الطلاق﴾ بمعنى التطلق كالسلام بمعنى التسليم، أي التطلق الشرعي تطلقه بعد تطلقه على التفريق دون الجمع والإرسال دفعة واحدة، ولم يرد بالمرتين الثنية ولكن التكرير، كقوله «ثم ارجع البصر كرتين» أي كرة بعد كرة لا كرتين اثنتين، ونحو ذلك من الثاني التي يراد بها التكرير كقولهم: لبيك وسعديك.. وقوله: ﴿فإمسك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ تحيير لهم بعد أن علمهم كيف يطلقون بين أن يمسكوا النساء بحسن العشرة وبين أن يسرحوهن السراح الجميل الذي علمهم إياه.. وروى أن سائلا سأل النبي ﷺ رأيت قول الله - تعالى - : ﴿الطلاق مرتان﴾ فأين الثالثة، فقال ﷺ «التسريح بإحسان»^(١).

والفاء في قوله - تعالى - : ﴿فإمسك..﴾ للتفريع، وإمسك خبر لمبتدأ محذوف والتقدير: فالشأن أو فالأمر إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان.

قال الفخر الرازي: والحكمة في إثبات حق الرجعة: أن الإنسان ما دام يكون مع صاحبه لا يدري أنه هل تشق عليه مفارقتها أولا؟ فإذا فارقه فعند ذلك يظهر، فلو جعل الله - تعالى - الطلقة الواحدة مانعة من الرجوع لعظمت المشقة على الإنسان بتقدير أن يظهر المحبة بعد المفارقة، ثم لما كان كمال التجربة لا يحصل بالمرّة الواحدة، فلا جرم أثبت - سبحانه - حق المراجعة بعد المفارقة مرتين، وعند ذلك يكون قد جرب الإنسان نفسه في تلك المفارقة مرتين وعرف حال قلبه في ذلك الباب. فإن كان الأصلح إمساكها راجعها وأمسكها بالمعروف، وإن كان الأصلح له تسريحها سرحها على أحسن الوجوه، وهذا التدرج والترتيب يدل على كمال رحمته ورأفته بعباده..»

هذا، ويرى بعض العلماء كابن تيمية وابن القيم أن الرجل إذا أوقع الطلاق دفعة واحدة،

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٧٣.

بأن قال لزوجته أنت طالق ثلاث مرات، فطلاقه لا يكون إلا طليقة واحدة، لأن اقتران الطلاق بكلمة ثلاثاً لا يجعله ثلاث مرات بل هو مرة واحدة كمن يقول: أحلف بالله ثلاثاً فهو يمين واحدة.

ويرى الأئمة الأربعة أن طلاق هذا الرجل في مثل هذه الصورة يقع ثلاثاً، لأنهم يرون أن الطلاق المقترن بالعدد لفظاً أو إشارة يكون ثلاثاً أو اثنين على حسب ما اقترن به. ولأن عمر - رضي الله عنه - أفق بذلك. فقد أخرج مسلم وأبو داود والنسائي والحاكم عن ابن عباس قال: «كان الطلاق الثلاث على عهد رسول الله ﷺ وعلى عهد أبي بكر، وستين من خلافة عمر واحدة، فقال عمر: إن الناس قد استعجلوا في أمر لهم فيه أناة فلو أمضيته عليهم» فأمضاه.

وهذه المسألة مبسولة بأدلتها في كتب الفقه وبعض كتب التفسير.

ثم قال - تعالى - : ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله، فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾.

قال الراغب: الخوف: توقع مكروه عن أمانة مظنونة أو معلومة، كما أن الرجاء والطمع توقع محبوب عن أمانة مظنونة أو معلومة. ويضاد الخوف الأمن...».

والجناح: الإثم من جناح بمعنى مال عن القصد - وسمى الإثم به للميل فيه من الحق إلى الباطل - . يقال جناحت السفينة أى مالت إلى أحد جانبيها. والافتداء: تخليص النفس بمال يبذل لتخليصها ودفع الأذى عنها. وأصله من الفدى والفداء بمعنى حفظ الإنسان نفسه عن الشدة بما يبذله من أجل ذلك^(١).

والمعنى: ولا يجوز لكم أيها المطلقون أن تأخذوا من زوجاتكم في مقابلة الطلاق شيئاً مما أعطيتموهن من صداق أو من غيره من أموال، لأن هذا الأخذ يكون من باب الظلم الذي نهى الله عنه، وليس من باب العدل الذي أمر الله به.

ثم استثنى - سبحانه - صورة يجوز فيها الأخذ فقال: ﴿إلا أن يخافا﴾. إلخ أى: لا يجوز لكم أن تأخذوا في حالة من الأحوال إلا في حالة أن يخاف الزوجان كلاهما أو أحدهما ألا يقيما حدود الله ففي هذه الحالة يجوز الأخذ وحدود الله هي ما أوجبه - سبحانه - للرجل على زوجته. ولها عليه.

ثم خاطب - سبحانه - الحكام وجماعة المؤمنين المتوسطين للإصلاح بين الزوجين فقال:

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني من ص ١٦١، ص ١٠٠، ص ٣٧٤

﴿فإن خفتم ألا يقيما﴾ أى الزوجان ﴿حدود الله﴾ التى حدها لهم وأمرهم باتباعها فى حياتهم الزوجية «فلا جناح عليهما فيما افترت به» أى : فلا إثم على الزوج فى أخذ ما أعطته له الزوجة من مال مقابل انفصالها عنه، ولا إثم عليها كذلك فى هذا الإعطاء، لأنها ما داماً قد وصلا إلى هذه الحالة من التنافر، وما دامت الزوجة قد أصبحت تفضل أن تعطيه من المال ما تفدى به نفسها من البقاء فى عصمته، ما داماً قد أصبحت كذلك. ففوق الفراق بينهما أولى وأجدى ﴿وإن يتفرقا يغنى الله كلا من سعته﴾

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لمن الخطاب فى قوله : ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا﴾ إن قلت : إنه للأزواج لم يطابقه قوله : ﴿فإن خفتم ألا يقيما حدود الله﴾ وإن قلت إنه للأئمة والحكام فهؤلاء ليسوا بأخذين منهم ولا بمؤتئين؟ قلت : يجوز الأمران جميعاً : أن يكون أول الخطاب للأزواج وآخره للأئمة والحكام، ونحو ذلك غير عزيز فى القرآن وغيره. ويجوز الخطاب كله للأئمة والحكام، لأنهم الذين يأمرون بالأخذ والإيتاء عند الترافع إليهم فكأنهم الأخذون والمؤتون»^(١).

والمراد بقوله : ﴿مما آتيتموهن﴾ أى من المهور وتخصيصها بالذكر وإن شاركها فى الحكم سائر أموالهن إما لرعاية العادة وإما للتنبية على أنه إذا لم يحل لهم أن يأخذوا مما أعطوهن فى مقابلة البضع عند خروجه عن ملكهم فلأن لا يحل لهم أن يأخذوا مما لا تعلق له بالبضع أولى وأحرى.

وقوله : ﴿شيئاً﴾ مفعول به لتأخذوا. التنوين للتقليل أى : لا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً ولو كان المأخوذ شيئاً غاية فى القلة، لأن هذا الأخذ يجا فى الإحسان الذى أمرتم به. وقريب من هذه الآية فى النهى عن الأخذ قوله - تعالى - :

﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً، أتأخذونه بهتاً أو إثماً مبيناً﴾.

وأن والفعل فى قوله ﴿إلا أن يخافا﴾ فى موضع نصب على الحال أى إلا خائفين. وقوله : ﴿أن لا يقيما﴾ فى موضع نصب على المفعول به ليخافا والتقدير إلا أن يخافا ترك حدود الله.

وهذه الآية قد اعتبرها العلماء أصلاً فى جواز الخلع.

قال ابن كثير: وقد ذكر ابن جرير: أن هذه الآية نزلت فى شأن ثابت بن قيس، ففى

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٧٤.

صحيح البخارى عن ابن عباس : أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله إن زوجى ثابت بن قيس - ما أعيب عليه فى خلق ولا دين ، ولكن أكره الكفر فى الإسلام - أى أكره عدم الوفاء بحقه لبغضى له . فقال لها رسول الله ﷺ أتردين عليه حديثه ؟ - وهى المهر الذى أمهرها - قالت : نعم ، قال رسول الله ﷺ لثابت : اقبل الحديقة وطلقها تطليقة^(١) . قالوا : ففرق رسول الله ﷺ بينهما بطريق الخلع فكان أول خلع فى الإسلام .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾ .

أى : تلك الأحكام العظيمة الحكيمة المتقدمة التى بيئتها لكم فى شأن الطلاق والرجعة والخلع وغير ذلك حدود الله التى حددها ، فلا يجوز لكم أن أن تخالفوها ، ومن يتعد هذه الحدود فأولئك هم الظالمون لأنفسهم بتعريضها لسخط الله وعقابه .

وكانت الإشارة للبعيد ﴿تلك﴾ لبيان سمو قدر هذه الأحكام ، وعظم منزلتها ، وجلال ما فيها من مصالح واضحة لأصحاب العقول السليمة .

وسميت هذه الأحكام حدودًا للإشارة إلى أنها فواصل بين الحق والباطل ، والظلم والعدل والمنفعة والمضرة . إذ الحد هو الحاجز بين الشيئين الذى يمنع اختلاط أحدهما بالآخر . يقال : حددت كذا أى جعلت له حدًا يميزه . وحد الدار ما تتميز به عن غيرها ..

وفى إضافة هذه الحدود إليه - سبحانه - إشعار بأن مخالفتها إنما هى مخالفة له - سبحانه - وأن هذه الحدود لا يتطرق إليها الريب لأنها صادرة من العليم الخبير الذى أحسن كل شئ خلقه .

والفاء فى قوله : ﴿فلا تعتدوها﴾ للتفريع أى : إذا كانت هذه الأحكام حدود الله فلا يصح لكم أن تتجاوزوها لأن تجاوزها يؤدى إلى سوء العقبى .

وعبر فى قوله : ﴿فأولئك هم الظالمون﴾ بفاء السببية وباسم الإشارة وبضمير الفصل وبالجملة الاسمية لتأكيد معنى السببية وللإشارة إلى أن الظلم شأن من شئونهم وصفة يتميزون بها عن غيرهم .

وقد جاء - سبحانه - بكل هذه المؤكدات فى تلك الجملة الكريمة لكبح جماح غرور الإنسان ، وتحذيره من الانقياد لهواه وأوهامه ، فكثيرًا ما يتوهم بعض الناس أن أحكام الله ليست ملائمة لمقتضى الزمان الذى يعيشون فيه ، ويحاولون إخضاع شرع الله - تعالى -

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٧٤ .

لمصالحهم وشهواتهم، أو يتركون ما شرعه الله بتلك الحجة الواهية الساقطة. وأنت ترى هنا أن القرآن قال: ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها...﴾ ﴿بينما قال هناك في ختام آية الصوم ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها...﴾﴾^(١) وذلك لأن الكلام هنا في شأن الأسرة وما يسودها أحياناً من خلافات، واصطدامات، واضطرابات.. والخشية هنا إنما هي من تعدى هذه الحدود التي حددها الله في أى مرة من مرات هذا الخلاف.. فجاء التحذير من التعدى لا من المقاربة، بينما هناك كان الحديث عن محظورات مشتبهة مستلذة تريدها النفس لترضى شهوق البطن والفرج، فجاء التحذير من مجرد الاقتراب من هذه الحدود التي حددها الله إلقاء لضعف الإرادة أمام جاذبيتها.

فسبحان من هذا كلامه ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾. ثم بين - سبحانه - أحكام الطلاق المكمل للثلاث، بعد بيانه لأحكام الطلاق الرجعى وأحكام الخلع فقال - تعالى - : ﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره﴾. أى : فإن طلق الرجل زوجته طليقة ثالثة بعد الطلقتين اللتين أباح الله له مراجعتها بعد كل منها في أثناء العدة، فإنه في هذه الحالة تكون زوجته محرمة عليه، ولا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره نكاحاً شرعياً صحيحاً، بأن يدخل بها، ويباشرها مباشرة شرعية كما يباشر الأزواج وزوجاتهم.

فالمراد بالنكاح في قوله تعالى ﴿حتى تنكح زوجاً غيره﴾ الزواج بشخص آخر يدخل بها دخولا صحيحاً. ويؤيد هذا المعنى ويؤكد ما جاء في الحديث المشهور الذى أخرجه البخارى وغيره عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : جاءت امرأة رفاعة القرظى إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله إن رفاعة طلقنى فبت طلاقى. وإني نكحت بعده عبد الرحمن بن الزبير القرظى، وإن ما معه مثل الهدبة، فقال رسول الله ﷺ : لعلك تريدان أن ترجعى إلى رفاعة؟ لا حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك»^(٢).

وواضح من ذوق العسيلة أن يدخل بها ويجماعها. وعلى هذا انعقد إجماع الفقهاء. ولم يلتفتوا إلى ما نسبته بعضهم إلى سعيد بن المسيب من أنه أجاز للمرأة أن تعود إلى زوجها الأول بعد عقد زواجها على الثانى دون أن يدخل بها. وحملوا هذا المنسوب إلى سعيد بن المسيب على أنه من شواذ الفتيا التى لا وزن لها لمخالفتها لنص حديث صحيح لعله لم يبلغه.

(١) الآية ١٨٧ من هذه السورة.

(٢) صحيح البخارى فى كتاب الطلاق الثلاث ج ٧ ص ٥٥.

ثم قال - تعالى - : ﴿فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيا حدود الله﴾
 أى : فإن طلق الزوج الثانى تلك المرأة التى سبق طلاقها من الزوج الأول، فلا إثم عليها وعلى زوجها الأول فى أن يرجع كل منهما إلى صاحبه بعقد جديد بعد انقضاء العدة ما دام يغلب على ظنهما أنها سيقيمان حدود الله، ويؤدى كل واحد منهما ما يجب عليه نحو صاحبه بأمانة وإخلاص.

وقوله : ﴿أن يتراجعا﴾ فى موضع جر بإضمار حرف الجر أى فى أن يتراجعا وقوله ﴿أن يقيا﴾ فى موضع نصب على أنه سد مسد مفعولى ظن.

قال صاحب الكشاف : ولم يقل : إن علما أنها يقيمان حدود الله لأن اليقين مغيب عنها لا يعلمه إلا الله . ومن فسر الظن ها هنا بالعلم فقدوهم ولأن الإنسان لا يعلم ما فى الغد وإنما يظن ظناً^(١).

ثم ختم - سبحانه - هذه الآية بقوله : ﴿وتلك حدود الله بينها لقوم يعلمون﴾.

أى : وتلك الأحكام المذكورة عن الطلاق وعن غيره مما كلف الله به عباده بينها ويوضحها بتلك الطرق الحكيمة لقوم يعلمون الحق، ويعملون بمقتضى علمهم.

وبهذا نرى أن الآية الكريمة قد بينت أنه لا يحل للمرأة التى طلقت من زوجها أن تعود إليه بعد الطلقة الثالثة إلا بعد أن تتزوج آخر زواجاً صحيحاً يدخل بها فيه وبجماعها ثم يطلقها وتنقضى عدتها منه.

ومن حكم هذا التشريع الحكيم ردع الأزواج عن الاستخفاف بحقوق زوجاتهم، وزجرهم عن التساهل فى إيقاع الطلاق، فإن الرجل الشريف الطبع، العزيز النفس إذا علم أن زوجته لن تحل له بعد الطلقة الثالثة إلا إذا افترشها شخص آخر توقف عن إيقاع الطلاق، وتباعد عن التسرع والاندفاع وحاول أن يصلح ما بينه وبين أهله بالمعالجة الحكيمة التى تتميز بسعه الصدر وضبط النفس.

هذا، وقد ساق الإمام ابن كثير سبعة أحاديث فى النهى عن نكاح المحلل - وهو أن يعقد رجل على امرأة قد طلقت ثلاثاً من زوجها بقصد إحلالها لهذا الزوج لا بقصد الزواج الدائم ثم يدخل بها دخولا صورياً وليس شرعياً - ومن هذه الأحاديث ما رواه الإمام أحمد والترمذى والنسائى عن عبد الله بن مسعود قال : لعن رسول الله ﷺ المحلل والمحلل له، وأكل الربا وموكله ۞

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٧٦ بتلخيص.

وعن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ «ألا أخبركم بالتيس المستعار؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: هو المحلل لعن الله المحلل والمحلل له».

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ سئل عن نكاح المحلل فقال: لا، إلا نكاح رغبة - لا نكاح دلسة أى لا نكاح غش وتدليس - ولا استهزاء بكتاب الله - ثم يذوق عسيلتها. . . .
وجاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثاً فتزوجها أخ له من غير مؤامرة منه - أى من غير مشورة ورغبة منه - ليحلها لأخيه فهل تحمل للأول؟ فقال: لا إلا نكاح رغبة. كنا نعد هذا سفاحاً على عهد رسول الله ﷺ.

ثم قال ابن كثير: والمقصود أن الزوج الثانى يكون راغباً فى المرأة قاصداً لدوام عشرتها كما هو المشروع من التزويج. واشترط الإمام مالك مع ذلك أن يطأها الثانى وطأ مباحاً فلو وطئها وهى محرمة أو صائمة أو معتكفة أو حائض. . . لم تحمل للأول بهذا الوطء والمراد بالعسيلة الجماع لما رواه الإمام أحمد والنسائى عن عائشة أن رسول الله ﷺ - قال: «ألا إن العسيلة الجماع»^(١).

وبعد أن بين - سبحانه - فى الآية السابقة أن الزوج مخير بين الإمساك والتسريح فى مدة العدة، عقب ذلك ببيان أن هذا التخيير من حقه حتى آخر وقت فى العدة، وذلك لتذكيره بأن الإمساك أفضل من التسريح، وأن عليه ألا يلجأ إلى الطلاق إلا إذا سدت طرق الإصلاح والمعالجة، وأنه إذا اختار الطلاق فعليه أن يسلك فيه طريق الحق والعدل لا طريق الباطل والجور.

قال - تعالى: ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن، فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف، ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه﴾.

قال الراغب: الأجل: المدة المضروبة للشيء. قال - تعالى - ﴿لتبلغوا أجلاً مسمى . . .﴾
- أى مدة معينة - والبلوغ والبلاغ الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى مكاناً كان أو زماناً أو أمراً من الأمور المقدره، وربما يعبر به عن المشاركة عليه وإن لم ينه. فمن الانتهاء قوله - تعالى - : ﴿حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة﴾. . . وأما قوله: ﴿فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف﴾ فللمشاركة فإنها إذا انتهت إلى أقصى الأجل لا يصح للزوج مراجعتها وإمساكها.
والمراد بالأجل هنا عدة المرأة. وبلوغها قرب انتهائها.

والضرار - كما يقول الرازى - هو المضارة. قال - تعالى - : ﴿والذين اتخذوا مسجداً

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٧٨.

ضراراً ﴿ أى اتخذوا المسجد ضرراً ليضاروا المؤمنين، ومعناه يرجع إلى إثارة العداوة، وإزالة الألفة، وإيقاع الوحشة، وموجبات النفرة. ».

والمعنى : وإذا طلقتم - أيها المؤمنون - نساءكم طلاقاً رجعيّاً، ﴿ فبلغن أجهلن ﴾ أى فشارت عدتهن على الانتهاء، وقاربت الانقضاء، فعليكم أن تتدبروا ملياً في أمركم، فإن رأيتم الأصلح في بقائهن معكم فنفذوا ذلك وأمسكوهن بمعروف. أى بما هو المعروف من شرع الله الحكيم، وبما تقره الأخلاق الحسنة والعقول السليمة. وإن رأيتم أنه لا رغبة لكم في البقاء معهن فسرحوهن بمعروف أى فأمضوا الطلاق، وتفارقوا بالطريقة التي يرضاها الحق - سبحانه - بأن تؤدوا لهن حقوقهن. ولا تذكروهن بسوء بعد انفصالكم عنهن، فهذا شأن الأتقياء الصالحين فقد سئل بعضهم، لم طلقت امرأتك؟ فقال: إن العاقل لا يذكر ما بينه وبين أهله.

قال القرطبي : معنى ﴿ بلغن ﴾ قاربن بإجماع من العلماء، ولأن المعنى يضطر إلى ذلك، لأنه بعد بلوغ الأجل لا خيار له في الإمساك، وهو في الآية التي بعدها بمعنى الانتهاء، لأن المعنى يقتضى ذلك، فهو حقيقة في الثانية، مجاز في الأولى - أى التي معنا - .

ثم نهي - سبحانه - عن الإمساك الذي يكون معه الضرر فقال. ﴿ ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ﴾ أى لا تراجعوهن إرادة الضرر بهن والإيذاء لهن لتعتدوا عليهن، والجملة الكريمة تأكيد للأمر بالإمساك بمعروف، وتوضيح لمعناه، وزجر صريح عما كان يفعله بعضهم من مراجعته لامرأته قبل انتهاء عدتها لا لقصد الإبقاء على الزوجية وإنما القصد إطالة عدة الزوجة، أو لقصد أن تفتدى نفسها منه بالمال : و﴿ ضراراً ﴾ منصوب على الحال في تمسكوهن أو على أنه مفعول لأجله. واللام في قوله : ﴿ لتعتدوا ﴾ هي لام العاقبة أى لتكون عاقبة أمركم الاعتداء. وحذف متعلق « لتعتدوا » ليتناول الاعتداء عليهن وعلى أحكام الله - تعالى - .

وقوله : ﴿ ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ﴾ وعيد شديد لمن يقدم على ما نهى الله عنه. أى : ومن يراجع مطلقة بقصد الإضرار بها والاعتداء عليها فقد ظلم نفسه ظملاً مؤكداً، لأنه سيرضها لعقاب الله وسخط الناس.

وجعل ظلمهم لنسائهم ظملاً لأنفسهم، لأن عملهم هذا سيؤدى إلى اختلال المعاشرة الزوجية واضطرابها، وشيوع العداوة والبغضاء بين الزوجين وبين أهلها. ثم كرر - سبحانه - تحذير المخالفين لشريعته، وذكرهم بالوان نعمه عليهم ليستجيبوا لأمره فقال : ﴿ ولا تتخذوا آيات الله هزواً، واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ﴾ . آيات الله : أحكامه التي شرعها في شأن الطلاق وغيره.

والهزاء - بضمّتين - مصدر هزأ به إذا سخر ولعب وهو هنا مصدر بمعنى اسم المفعول أى : مهزوءاً بها. وقوله ﴿هزوا﴾ مفعول ثانٍ لتتخذوا. والمراد بالحكمة هنا. السنة النبوية المطهرة.

والموعظة والعظة : النصح والتذكير بالخير. بما يرقق القلوب، ويحذر النفوس مما نهى الله عنه.

أى : ولا تتخذوا - أيها الناس - آيات الله التي شرعها لكم في شأن الطلاق وغيره مهزوءاً بها بأن تعرضوا عنها، وتتهاونوا في المحافظة عليها، والتمسك بتعاليمها، ومن مظاهر ذلك أن بعض الناس كان يكثر من التلطف بالطلاق متوهماً أن ذلك لا يضر، أو كان يتخذ المراجعة وسيلة لإيذاء المرأة.

قال القرطبي : وفي موطأ مالك أنه بلغه أن رجلاً قال لابن عباس : «إني طلقت امرأتى مائة مرة فماذا ترى على؟ فقال ابن عباس : طلقت منك بثلاث، وسبع وتسعون اتخذت بها آيات الله هزوا»^(١).

والجملة الكريمة نهى أريد به الأمر بضده، أى جدوا في العمل بأوامر الله وآياته، وارعوها حق رعايتها.

وقوله : ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾. إلخ أى تذكروها في هدايتكم إلى الإسلام، وفي مشروعية الزوجية وفي غير ذلك مما لا يحصى من النعم وتدبروا نعم الله عليكم فقابلوها بالشكر، واستعملوها فيما خلقت له، وتذكروا كذلك ما أنزل الله عليكم بواسطة رسولكم محمد ﷺ من الكتاب وهو القرآن الذي يهدى للتي هي أقوم، ومن الحكمة وهي السنة النبوية المطهرة، بما جاء فيها من توجيهات سامية، وآداب عالية.

و «ما» في قوله : ﴿وما أنزل عليكم﴾ موصولة والعائد محذوف أى ما أنزله و «من» في قوله : ﴿من الكتاب﴾ بيانية، وجملة ﴿يعظكم به﴾ حال من فاعل أنزل أو من مفعوله، والضمير في ﴿به﴾ يعود على الكتاب والحكمة بعد تأويلهما بالمذكور. وجعل ضميرهما واحداً لأنها في مؤداهما وغايتها شيء واحد، فالسنة ليست تابعة إلا من الكتاب ومنه أخذت قوتها وسلطانها.

وقوله - سبحانه - : في ختام الآية ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾ تذكير لهم بتقوى الله وخشيته ومراقبته، وتحذير لهم من مخالفة أمره.

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ١٥٦.

أى : صونوا أنفسكم عن كل ما يغضب الله - تعالى - فيما يتعلق بأمور الزوجية وفي غيرها مما شرعه لكم، واعلموا أنه - سبحانه - عليم بكل شيء، عليم بما تسرونه وما تعلنونه، وسيحاسب كل إنسان بما قدمت يداه ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله﴾ .
ثم بين - سبحانه - ما ينبغي اتباعه عند حصول الطلاق وإمضائه حتى لا يقع ظلم أو جور فقال - تعالى - : ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف﴾ .

قال القرطبي : تعضلوهن معناه تحبسوهن، ودجاجة معضل أى : قد احتبس بيضها، وقيل : العضل التضيق والمنع وهو راجع إلى معنى الحبس . يقال : أعضل الأمر : إذا ضاقت عليك فيه الحيل . قال الأزهري : وأصل العضل من قولهم : عضلت الناقة إذا نشب ولدها فلم يسهل خروجه . ويقال أعضل الأمر إذا اشتد، وداء عضال أى شديد عسر البرء أعيا الأطباء . . . ﴿^(١)

والمعنى : وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن أى : انقضت عدتهن وخلت الموانع من زواجهن، فلا تمنعهن من الزواج بمن يردن الزواج به، متى حصل التراضى بين الأزواج والزوجات على ما يحسن فى الدين، وتقره العقول السليمة، ويجرى به العرف الحسن .
والمراد ببلوغ الأجل هنا بلوغ أقصى العدة، بخلاف البلوغ فى الآية التى قبل هذه، فإن المراد به المشاركة والمقاربة كما أشرنا من قبل لأن المعنى يحتم ذلك، والخطاب هنا للأزواج وللأولياء ولكل من له تأثير على المرأة المطلقة، وذلك لأن منع الزوجة من الزواج بعد انقضاء عدتها قد يكون من جانب الزوج السابق، لاسيما إذا كان صاحب جاه وسلطان وسطوة، فإنه يعز عليه أن يتزوج مطلقته أحد بعده فيمنعها من الزواج .

وقد يكون المنع من جانب الأولياء، وقد أورد المفسرون آثاراً تشهد لذلك منها - كما يقول الألوسى - ما أخرجه البخارى والترمذى والنسائى وابن ماجه وأبو داود من طرق شتى عن معقل بن يسار قال : كانت لى أخت فأتانى ابن عم لى فأنكحتها إياه، فكانت عنده ما كانت ثم طلقها تطليقة، ولم يراجعها حتى انقضت العدة، فهويها وهوته ثم خطبها مع الخطاب . فقلت له : أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها ثم جئت تخطبها، والله لا ترجع إليك أبداً، وكان رجلاً لا بأس به، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه، فعلم الله - تعالى - حاجته إليها وحاجتها إلى بعْلِها فأنزل هذه الآية . ففى نزلت فكفرت عن يمينى وأنكحتها إياه . . . ﴿^(٢)

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ١٥٩ .

(٢) تفسير الألوسى ج ١ ص ١٤٤ .

وعبر - سبحانه - عن الرجال الذين هم محل الرضا من النساء بالأزواج فقال ﴿فلا تعضلوهم أن ينكحن أزواجهن﴾ مع أن الزواج لم يتحقق بعد، للإشارة إلى الحقيقة المقررة الثابتة، وهى أن من يقع اختيارها عليه، ولم يكن اقترانها به فيه ما يشينها أو يشين أسرته، فمن الواجب ألا يمانع أحد في إتمام هذا الزواج، بل على الجميع أن يقروه وينفذوه، لأن شريعة الله والفترة الإنسانية يقضيان بذلك.

وقوله: ﴿أن ينكحن﴾ تقديره: من أن ينكحن فهو في محل جر عند الخليل والكسائي وفي محل نصب عند غيرهما، وقوله: ﴿إذا تراضوا﴾ ظرف لأن ينكحن أو لقوله: ﴿فلا تعضلوهم﴾، وقوله: ﴿بالمعروف﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل تراضوا، أو هو نعمت لمصدر محذوف أى تراضياً كائناً بالمعروف أو هو متعلق بتراضوا. أى تراضوا بما يحسن في الدين والمروءة، وفيه إشعار بأن المنع من التزوج بغير كفاء أو بما دون مهر المثل ليس من العضل المنهى عنه.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله ﴿ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر، ذلكم أزكى لكم وأطهر، والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾.

أى: ذلك القول الحكيم، والتوجيه الكريم المشتمل على أفضل الأحكام وأسماها يوعظ به، ويستجيب له من كان منكم عميق الإيمان بالله - تعالى - وبثوابه وبعقابه يوم القيامة. ذلكم الذى شرعه الله لكم - أيها المؤمنون - من ترك عضل النساء والإضرار بهن وغير ذلك من الأحكام ﴿أزكى لكم وأطهر﴾ أى أعظم بركة ونفعاً، وأكثر تطهيراً من دنس الآثام، فإن المرأة إذا عوملت معاملة كريمة، ولم تظلم في رغباتها المشروعة، التزمت في سلوكها العفاف والخلق الشريف، أما إذا شعرت بالظلم والامتهان فإن هذا الشعور قد يدفعها إلى ارتكاب ما نهى الله عنه. والله تعالى يعلم ما فيه مصلحتكم ومنفعتكم، وأنتم لا تعلمون ذلك، فامثلوا ما أمركم به واجتنبوا ما نهاكم عنه تفوزوا وتسعدوا.

والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى ما فصل من أحكام وما أمر به من أفعال والخطاب لكل من يصلح للخطاب من المكلفين.

وخصص الوعظ بالمؤمنين لأنهم هم الذين ينتفعون به، وترق معه قلوبهم وتخشع له نفوسهم.

وأى - سبحانه - بضمير الجمع ﴿ذلكم﴾ بعد أن قال في صدر الجملة ﴿ذلك﴾ للإشارة إلى أن حماية المرأة من الهوان ومنع التضييق عليها في اختيار زوجها واجب على جميع المؤمنين، وأن فائدة ذلك ستعود عليهم جميعاً ما دام هذا الاختيار في حدود الآداب التى جاء بها الإسلام.

وقوله: ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ رد على كل معترض على تطبيق شريعة الله، أو متهاون في ذلك بدعوى أنها ليست صالحة للظروف التي يعيش ذلك المعترض أو هذا المتهاون فيها، لأن شرع الله فيه النفع الدائم والمصلحة الحقيقية، والنتائج المرضية، لأنه شرع من يعلم كل شيء ولا يبجل شيئاً، ويعلم ما هو الأنفع والأصلح للناس في كل زمان ومكان، ولم يشرع لهم - سبحانه - إلا ما فيه مصلحتهم ومنفعتهم، وما دام علم الله - تعالى - هو الكامل، وعلم الإنسان علم قاصر، فعلياً أن نتبع شرع الله في كل شئونا، ولنقل لأولئك المعترضين أو المتهاونين: سيروا معنا في طريق الحق فذلكم ﴿أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾.

وبعد: فهذه خمس آيات قد تحدثت عن جملة من الأحكام التي تتعلق بالطلاق، وإذا كان الإسلام قد شرع الطلاق عند الضرورة التي تحتها مصلحة الزوجين، فإنه في الوقت نفسه قد وضع كثيراً من التعاليم التي يؤدي اتباعها إلى الإبقاء على الحياة الزوجية، وعلى قيامها على المودة والرحمة، ومن ذلك:

١ - أنه أرشد أتباعه إلى أفضل السبل لاختيار الزوج، بأن جعل أساس الاختيار الدين والتقوى والخلق القويم، لأنه متى كان كل من الزوجين متحلياً بالإيمان والتقوى، استقرت الحياة الزوجية بينهما، وقامت على المودة والرحمة وحسن المعاشرة.

٢ - أنه أمر كلا الزوجين بأن يبذل كل واحد منها قصارى جهده في أداء حق صاحبه، وإدخال السرور على نفسه، فإذا ما نجم خلاف بينهما فعليهما أن يعالجاه بالحكمة والعدل، وأن يجعل الأناة والصبر رائدتهما، فإن الحياة الزوجية بحكم استمرارها وتشابك مطالبها لا تخلو من اختلاف بين الزوجين.

٣ - دعا الإسلام إلى إصلاح ما بين الزوجين إن ابتدأت العلاقة تسير في غير طريق المودة، فقال - تعالى - : ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير...﴾ كما دعا أولى الأمر أن يتدخلوا للإصلاح بين الزوجين عند نشوب الشقاق بينهما أو عند خوفه فقال - تعالى - : ﴿وإن خفتن شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً﴾.

٤ - نهى الإسلام عن إيقاع الطلاق على الزوجة في حال حيضها، أو في حال طهرها باسرها فيه، لأن المرأة في هاتين الحالتين قد تكون على هيئة لا تجعل الرجل مشوقاً إليها... وأباح له أن يوقع الطلاق في طهر لم يجامعها فيه، لأن إيقاعه في هذه الحالة يكون دليلاً على استحكام النفرة بينهما.

٥ - نهى الإسلام عن الطلاق البات بالنسبة للمرأة المدخول بها، وأمر الزوج بأن يجعل طلاقه رجعيًا، وأعطاه فرصة طويلة تقرب من ثلاثة أشهر ليراجع خلالها نفسه، فإن وجد الخير في مراجعة زوجته راجعها بقصد الإصلاح واستمرار الحياة الزوجية، وإن وجد الخير في غير ذلك تركها حتى تنقضي عدتها وفارقها بالمعروف عملاً بقوله - تعالى - : ﴿فإمسك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾.

٦ - جعل الإسلام الطلاق بيد الرجل، لأنه هو الذى وقعت عليه معظم أعباء الزواج، وهو الذى سيتحمل ما سيترتب على الطلاق من تكاليف، ولا شك أنه بمقتضى هذه التكاليف وبمقتضى حرصه على استقرار حياته، سيتأني ويتروى فلا يوقع الطلاق إلا إذا كان مضطراً إلى ذلك.

كما أن الإسلام أباح للمرأة أن تفتدى نفسها من زوجها، أو ترفع أمرها للقاضي ليفرق بينها وبينه إذا تيقنت من استحالة استمرار الحالة الزوجية بينهما لأى سبب من الأسباب. وفي هذه الحال فللقاضي أن يفرق بينهما إذا رأى أن المصلحة تقتضى ذلك.

٧ - أباح الإسلام للرجل الذى طلق امرأته ثلاثاً أن يعود إليها من جديد، وذلك بعد طلاقها من رجل آخر يكون قد تزوجها زواجاً شرعياً وانقضت عدتها منه، وفي ذلك ما فيه من التأديب لهما، والتهديب لسلوكهما.

٨ - وردت أحاديث متعددة تنهى عن إيقاع الطلاق إلا عند الضرورة وتتوعد المرأة التى تطلب من زوجها أن يطلقها بدون سبب معقول بالعذاب الشديد، ومن ذلك ما رواه أبو داود والترمذى عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال : «أيا امرأة سألت زوجها طلاقها من غير ما بأس - أى من غير عذر شرعى أو سبب قوى - فحرام عليها رائحة الجنة». وروى أبو داود وغيره عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : أبغض الحلال إلى الله الطلاق»^(١).

هذه بعض التشريعات التى وضعها الإسلام لصيانة الحياة الزوجية من التصدع والانهار، ومنها نرى أن الإسلام وإن كان قد شرع الطلاق، إلا أنه لا يدعو إليه إلا إذا كانت مصلحة الزوجين أو أحدهما تقتضيه وتستلزمه.

وبعد أن بين - سبحانه - حقوق الزوجين فى حالتى اجتماعهما واقترافهما، أردف ذلك ببيان حقوق الأطفال الذين يكونون ثمرة لهذا الزواج. فقال تعالى :

(١) الترغيب والترهيب للمنذرى ج ٣ ص ٨٣.

وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ
 حَوْلِينَ كَامِلِينَ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ
 وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ
 وَالِدَةٌ بَوْلِدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ
 فَإِنْ أَرَادَا فِصَاً لَعَنَّ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ
 أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا
 آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٣٠﴾

والمراد بالوالدات الأمهات سواء أكن في عصمة أزواجهن أم مطلقات لأن اللفظ عام في الكل ولا يوجد ما يقتضى تخصيصه بنوع من الأمهات. ويرى بعض المفسرين أن المراد بالوالدات هنا خصوص المطلقات لأن سياق الآيات قبل ذلك في أحكام الطلاق، ولأن المطلقة عرضة لإهمال العناية بالولد وترك إرضاعه.

وحولين أى عامين. وأصل الحول - كما يقول الراغب - تغير الشيء وانفصاله عن غيره. والحول: السنة اعتباراً بانقلابها ودوران الشمس في مطالعها ومغاريها. قال - تعالى - : ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين﴾. ومنه حالت السنة تحول وحالت الدار تغيرت، وأحال فلان بمكان كذا أى أقام به حولا^(١).

وعبر عن الأمهات بالوالدات، للإشارة إلى أنهن اللائي ولدن أولادهن، وأنهن الوعاء الذى خرجوا منه إلى الحياة، ومنهن يكون الغذاء الطبيعى المناسب لهذا المولود الذى جاء عن طريقهن.

وقوله: ﴿يرضعن أولادهن﴾ جملة خبرية اللفظ إنشائية المعنى، إذ التقدير ليرضعن. أى: عليهن إرضاع أولادهن.

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص ١٣٧.

وعبر عن الطلب بصيغة الخبر، للإشعار بأن إرضاع الأم لطفلها عمل توجبه الفطرة، وتنادى به طبيعة الأمومة.

قال الجمل : وهذا الأمر للندب وللوجوب، فهو يكون للندب عند استجماع شروط ثلاثة، قدرة الأب على استئجار المروض، ووجود من يرضعه غير الأم، وقبول الولد للبن الغير. ويكون للوجوب عند فقد أحد هذه الشروط^(١).

وليس التحديد بالحولين للوجوب، لأنه يجوز الفطام قبل ذلك، بدليل قوله : ﴿لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ وإنما المقصود بهذا التحديد قطع التنازع بين الزوجين إذا تنازعا في مدة الرضاع، فإذا اتفق الأب والأم على أن يفظما ولدهما قبل تمام الحولين كان لهما ذلك إذا لم يتضرر الولد بهذا الفطام، وإن أراد الأب أن يفظمه قبل الحولين ولم ترض الأم أو العكس لم يكن لأحدهما ذلك. قال القرطبي ما ملخصه : وقد انتزع مالك - رحمه الله - ومن تابعه وجماعة من العلماء من هذه الآية أن الرضاعة المحرمة الجارية مجرى النسب إنما هي ما كان في الحولين، لأنه بانقضاء الحولين تمت الرضاعة، ولا رضاعة بعد الحولين معتبرة.. لقوله - تعالى - : ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين﴾ فهذا يدل على ألا حكم لما ارتضع المولود بعد الحولين. وروى سفيان عن عمرو بن دينار عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « لا رضاع إلا ما كان في الحولين » وهذا الخبر مع الآية ينفي رضاعة الكبير وأنه لا حرمة له. وقد روى عن عائشة القول به، وروى عن أبي موسى الأشعري أنه كان يرى رضاع الكبير. وروى عنه الرجوع عنه. وسيأتي تحقيق هذه المسألة في سورة النساء^(٢).

وفي وصف الحولين بكاملين، تأكيد لرفع توهم أن يكون المراد حولا وبعض الثاني، لأن إطلاق التثنية والجمع في الأزمان والأسنان على بعض المدلول إطلاق شائع عند العرب. فيقولون : هو ابن سنتين، ويريدون سنة وبعض الثانية.

وفي هذه الجملة الكريمة ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين﴾ بيان لمظهر من مظاهر رعاية الله - تعالى - للإنسان منذ ولادته، بل منذ تكوينه في بطن أمه جنيناً، فقد أمر - سبحانه - الأمهات أن يقمن بإرضاع أولادهن في تلك المدة، لأن لبن الأم هو أفضل غذاء لطفلها في هذه الفترة، وأسلم وسيلة لضمان صحته وغموه، ولصيانته من الأمراض النفسية والعقلية، فقد أثبت الأطباء الثقة أن الطفل كثيراً ما يصاب بأمراض جسمية ونفسية وعقلية

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ١٨٨.

(٢) تفسير القرطبي ج ٣ ص ١٦٢.

نتيجة رضاعته من غير أمه، كما أثبتوا أن عناية الأم بطفلها في هذه الفترة عن طريق إرضاعه ورعايته، تؤدي إلى تحسن أحواله...

وقوله: ﴿لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ بيان لمن توجه إليه الحكم. أى هذا الحكم لمن أراد إتمام الرضاع، فإذا أراد الأبوان أن ينقضا مدة الرضاع عن الحولين كان لهما ذلك. فالجملة الكريمة خير لمبتدأ محذوف أى هذا الحكم لمن أراد أن يتم مدة الرضاعة.

وقوله: ﴿وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف﴾ بيان لما يجب على الآباء.

أى: وعلى الآباء أن يقدموا إلى الوالدات ما يلزمهن من نفقة وكسوة بالمعروف أى بالطريقة التى تعارف عليها العقلاء بدون إسراف أو تقتير.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت لم قيل ﴿المولود له﴾ دون الوالد؟ قلت: ليعلم أن الوالدات إنما ولدن لهم، لأن الأولاد للآباء، ولذلك ينسبون إليهم لا إلى الامهات، كما قال المأمون بن الرشيد:

فإنما أمهات الناس أوعية مستودعات وللآباء أبناء

فكان عليهم أن يرزقوهن ويكسوهن إذا أرضعن ولدهم كالأظفار ألا ترى أنه ذكره باسم الوالد حيث لم يكن هذا المعنى وهو قوله - تعالى - : ﴿يأياها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً...﴾ (١).

وقوله: ﴿لا تكلف نفس إلا وسعها﴾ تعليل لإيجاب المؤن بالمعروف. أو تفسير للمعروف ولهذا فصلت هذه الجملة عن سابقتها، وقوله ﴿وسعها﴾ منصوب على أنه مفعول ثان لتكلف، والاستثناء قبله مفرغ أى أن أبا الولد لا يكلف فى الإنفاق عليه وعلى أمه إلا بالقدر الذى تتسع له قدرته بدون إرهاق أو مشقة.

وتلك هى سنة الإسلام فى جميع تكاليفه، فالله - تعالى - ما كلف عباده إلا بما يستطيعونه ويطيعونه بدون عسر أو عنق قال - تعالى - : ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ وقال - تعالى - : ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾.

وقوله: ﴿لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده﴾ تعليل للأحكام السابقة الموزعة بين الأب والأم، والتى أساسها رعاية حق هذا الوليد الذى أتى عن طريقها.

والمضارة مفاعلة من الضرر، والمعنى: لا ينبغي أن يقع ضرر على الأم بسبب ولدها، بأن يستغل الأب حنوها على وليدها فيمنعها شيئاً من نفقتها، أو يأخذ منها طفلها وهى تريد

إرضاعه، أو يكلفها بما ليس في مقدورها أو ما يخالف وظيفتها، ولا ينبغي كذلك أن يقع ضرر على الأب بسبب ولده، بأن تكلفه الأم بما لا تتسع له قدرته مستغلة محبته لولده وعنايته بتنشئته تنشئة حسنة.

قال الجمل: و﴿لا﴾ في قوله: ﴿لا تضار﴾ يحتمل أن تكون نافية فيكون الفعل مرفوعاً، ويحتمل أن تكون ناهية فيكون الفعل مجزوماً، وقد قرئُ بهما في السبع، وعلى كل يحتمل أن يكون الفعل مبنياً للفاعل وللمفعول^(١).

والمعنى على الاحتمالين واحد وهو أنه لا يجوز أن يضر كل واحد منهما صاحبه أو يضر من صاحبه بسبب حنوه على ولده واهتمامه بشأنه.

وأضاف الولد إلى كل منهما في الموضعين للاستعطف، وللتنبية على أن هذا الولد الذي رزقها الله إياه جدير بأن يتفقا على رعايته وحمايته من كل ما يؤذيه، ولا يجوز مطلقاً أن يكون مصدر قلق لأى واحد منهما.

وقدمت الأم في الجملة الكريمة، لأن الشأن فيها أن يكون حنوها أشد، وعاطفتها أرق، ولأن مظنة إنزال العنف والأذى بها أقرب لضعفها عن الأب.

فالجملة الكريمة توجه سديد، وإرشاد حكيم، للأباء والأمهات إلى أن يقوم كل فريق منهم بواجبه نحو صاحبه ونحو الأولاد الذين هم ثمار لهم.

وقوله: ﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾ معطوف على قوله ﴿وعلى المولود له رزقهن﴾. الخ وما بينهما تعليل أو تفسير معترض.

أى: وعلى وارث الأب أو وارث الصبي - أى من سيرته بعد موته - عليه مثل ما على الأب من النفقة وترك الإضرار. فهذه الجملة الكريمة سبقت لبيان من تجب عليه نفقة الصبي إذا فقد أباه، أو كان أبوه موجوداً ولكنه عاجز عن الإنفاق عليه.

قال الألوسى ما ملخصه: والمراد بالوارث وارث الولد فإنه يجب عليه مثل ما يجب على الأب من الرزق والكسوة بالمعروف إن لم يكن للولد مال. وهو التفسير المأثور عن عمر وابن عباس وقتاده.. وخلق كثير. وخص الإمام أبو حنيفة هذا الوارث بمن كان ذا رحم محرم من

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ١٨٩.

الصبي . . . وقال الشافعي المراد وارث الأب - يجب عليه عند موت الأب كل ما كان واجباً على الأب - وقيل المراد بالوارث الباقي من الأبوين، وقد جاء الوارث بمعنى الباقي كما في قوله ﷺ اللهم متعني بسمعي وبصري واجعلهما الوارث مني^(١) وعلى آية حال فالجملة الكريمة تغرس معاني الإخاء والتراحم والتكافل بين أبناء الأسرة الواحدة، فالقادر ينفق على العاجز، والغنى يمد الفقير بحاجته، وبذلك تسعد الأسرة، وتسودها روح المحبة والمودة.

وقوله: ﴿فإن أرادا فصلا عن تراض منها وتشاور فلا جناح عليهما﴾ معطوف على قوله ﴿يرضعن أولادهن حولين كاملين﴾ لأنه متفرع عنه. والضمير في قوله ﴿فإن أرادا﴾ يعود على الوالدين.

قال القرطبي: والفصال والفصل. الفطام وأصله التفريق، فهو تفريق بين الصبي والثدي. ومنه سمي الفصيل - لولد الضأن - لأنه مفصول عن أمه. والتشاور: استخراج الرأي - بما فيه المصلحة - وكذلك المشاورة. من الشور وهو اجتناء العسل. يقال شرت العسل - إذا استخراجته من مواضعه - والشوار: متاع البيت لأنه يظهر للناظر. والشارة هيئة الرجل. والإشارة: إخراج ما في نفسك وإظهاره^(٢).

والمعنى: فإن أراد الأبوان فطاماً لولدهما قبل الحولين، وكانت هذه الإرادة عن تراض منها وتشاور في شأن الصبي وتفحص لأحواله، ورأيا أن هذا الفطام قبل بلوغه الحولين لن يضره فلا إثم عليهما في ذلك.

وقال بعضهم: وأيضاً لا إثم عليهما إذا فطماه بعد الحولين متى رأيا المصلحة في ذلك، وقد قيد - سبحانه - هذا الفطام للصبي بكونه عن تراض من الأبوين وتشاور منها، رعاية لمصلحة هذا الصبي، لأن رضا أحدهما فقط قد يضره، بأن تمل الأم الإرضاع أو يبخل الأب بالإفناق. ولأن إقدام أحدهما على الفطام بدون التشاور مع صاحبه قد يؤثر في صحة الصبي تأثيراً سيئاً. لذا أوجب - سبحانه - التراضي والتشاور فيما بينهما من أجل مصلحة صبيهما.

ثم قال - تعالى - : ﴿وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف﴾.

أى: وإن أردتم - أيها الآباء - أن تسترضعوا لولادكم، ورضى الأمهات بذلك، فلا إثم عليكم فيما تفعلون مادتم تقصدون مصلحة أولادكم، وعليكم أن تسلموا هؤلاء

(١) تفسير الألوسي ج ٢ ص ١٤٧

(٢) تفسير القرطبي ج ٣ ص ١٧٢

المرضع أجرهن بالطريقة التي يقرها الشرع، وتستحسنها العقول السليمة، والأخلاق القويمة. واسترضع - كما يقول الزمخشري - منقول من أرضع. يقال: أرضعت المرأة الصبي، واسترضعتها الصبي فهي متعدية إلى مفعولين، والمعنى: أن تسترضعوا المرضع أولادكم. فحذف أحد المفعولين للاستغناء عنه.

وقوله ﴿مَا آتَيْتُمْ﴾ حذف مفعولاه أى آتيتموهن إياه. و﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ متعلق بسلمتم أى بالقول الجميل، وبالوجه المتعارف المستحسن شرعاً. ويجوز أن يتعلق بآتيتم. وأن يكون حالا من فاعل سلمتم أو آتيتم والعامل فيه محذوف أى متلبسين بالمعروف.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. أى: اتقوا الله فى كل شئونكم والتزموا ما بينه لكم من أحكام، واعلموا أن الله - تعالى - لا تخفى عليه أعمالكم، فهو محصيها عليكم، وسيجزى المحسن إحساناً والمسيء سوءاً. ثم بين - سبحانه - عدة المرأة إذا توفى عنها زوجها، وما يجب عليها من آداب فقال - تعالى -

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ
أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ

وقوله: ﴿يُتَوَفَّوْنَ﴾ - بالبناء للمجهول - أى قبض أرواحهم فإن التوفى هو القبض. يقال: توفيت مالى من فلان واستوفيته منه أى قبضته وأخذته. قال - تعالى - ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ أى يقبض الأنفس ويأخذها إليه بالموت حين انتهاء آجالها.

والمعنى: والذين يتوفاهم الله - تعالى - منكم - أيها المسلمون - ويتركون من خلفهم أزواجاً. فعلى هؤلاء الأزواج اللاتي ارتبطن برجالهم ارتباطاً قوياً متيناً ثم فرق الموت بينهم وبينهن، عليهن أن يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً أى: عليهن أن ينتظرن انقضاء عدتهن فيحبسن أنفسهن عن الزواج وعن التزين وعن التعرض للخطاب مدة أربعة أشهر وعشر ليال، وفاء لحق الزوج المتوفى، واستبراء للرحم.

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : هذا أمر من الله - تعالى - للنساء اللاتي يتوفى عنهن أزواجهن أن يعتددن أربعة أشهر وعشر ليال. وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بالإجماع، ومستند هذا الإجماع في غير المدخول بها عموم الآية الكريمة، وهذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن وصححه الترمذى أن ابن مسعود سئل عن رجل تزوج امرأة فمات عنها ولم يدخل بها ولم يفرض لها فقال : أقول فيها برأى فإن يك صواباً فمن الله، وإن يك خطأ فمضى ومن الشيطان. والله - تعالى - ورسوله بريئان منه : لها الصداق كاملاً. وفي لفظ : لها صداق مثلها لا وكس ولا شطط وعليها العدة ولها الميراث. فقام معقل بن يسار فقال : سمعت رسول الله ﷺ قضى به في بَرَوَع بنت واشق. ففرح عبد الله بذلك فرحاً شديداً. ولا يخرج من ذلك إلا المتوفى عنها زوجها وهي حامل فإن عدتها بوضع الحمل لعموم قوله - تعالى - : ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾ وكان ابن عباس يرى أن عليها أن تربيص بأبعد الأجلين من الوضع أو أربعة أشهر وعشرة أيام للجمع بين الآيتين^(١).

وقوله : ﴿والذين﴾ اسم موصول مبتدأ. و﴿يتوفون﴾ صلته، و﴿منكم﴾ في موضع النصب على الحال من الواو في ﴿يتوفون﴾ و﴿يتربصن﴾ وما بعده خبر عن الذين والرباط محذوف والتقدير : يتربصن بعدهم أربعة أشهر وعشرا.

والتعبير بقوله : ﴿يتربصن بأنفسهن﴾ تعبير دقيق حكيم أى : عليهن أن يمنعن أنفسهن عن النكاح وعن التزين وعن الخروج من منزل الزوجية - إلا إذا كانت هناك ضرورة لهذا الخروج - مدة أربعة أشهر وعشرة أيام، وذلك لأن المرأة المؤمنة الوفية يأبى عليها دينها ووقاؤها لزوجها المتوفى عنها، أن تعرض نفسها على غيره بعد فترة قصيرة من وفاته، فإن هذا أمر مستهجن في شرع الله وفي عرف العقلاء من الناس. إذ هذه المدة التي جاءت في الآية التي حددها الله - تعالى - لمعرفة براءة الرحم من الحمل، وهي التي تحف فيها مرارة الفراق بين زوجين ربط الله بينهما برابطة المودة والرحمة.

ولقد ألغى الإسلام بهذا التشريع عادات جاهلية ظالمة للمرأة فقد كانت المرأة في الجاهلية إذا توفى عنها زوجها تغلق على نفسها مكاناً ضيقاً في بيتها وتقضى فيه عاماً كاملاً حداً على زوجها فأبطل الإسلام ذلك، ومن الأحاديث التي وردت في هذا المعنى ما ثبت في الصحيحين عن أم حبيبة وزينب بنت جحش - رضی الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً».

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٨٤.

والإحداد هو ترك الزينة، وعدم التعرض للخطاب، وعدم الخروج من منزل الزوجية إلا لضرورة. وفي الصحيحين أيضاً عن أم سلمة أن امرأة قالت يا رسول الله إن ابنتي توفى عنها زوجها وقد اشتكت عينها أفكتحل؟ فقال: لا - مرتين أو ثلاثاً - ثم قال: إنما هي أربعة أشهر وعشر وقد كانت إحداكن في الجاهلية تمكث سنة».

قال ابن كثير بعد أن ساق هذين الحديثين: قالت زينب بنت أم سلمة: كانت المرأة إذا توفى عنها زوجها دخلت حَفْشًا - أى مكاناً ضيقاً من البيت - وليست شر ثيابها ولم تمس طيباً ولا شيئاً حتى تمر سنة^(١).

وقال بعض العلماء: وقد حد الشارع للمتوفى عنها زوجها عدة هي في جملتها أكثر من عدة المطلقات، لأن تلك ثلاثة قروء تحيء عادة في نحو ثلاثة أشهر. وهنا يرد سؤالان:

أولهما: لماذا كانت العدة في المتوفى عنها زوجها بالأشهر دون الحيض فلم تجعل أربع حيضات بدل ثلاث؟ ولماذا كانت الزيادة؟ ولم نجد أحداً تصدى لبيان الحكمة في جعلها بالأشهر، ويبدو لنا أن الحكمة التي تدركها عقولنا - وإن كانت الحكمة السامية قد تعلو على مدار كنا - هي أن عدة الوفاة تكون للمدخول بها وغير المدخول بها وللصغيرة والكبيرة، والأساس فيها هو الحداد على الزواج السابق الذى انتهى بوفاة أحد ركنيه، فلزم أن يكون بأمر يشترك فيه الجميع مادام السبب واحداً في الجميع. وفوق ذلك أن العدة في الوفاة لو قدرت بالحيض وهو أمر لا يعلم إلا من جهة المرأة، فربما تدفعها الرغبة في الزواج إلى الكذب فتدعيه وهو لم يقع، وفي المطلقات العدة حق للمطلق فيستطيع أن ينكر عليها أما في حال الوفاة فصاحب الحق الأول قد مات وصار الحق لله خالصاً. فحد ذلك الحق بالأشهر والأيام حتى لا يكون مساعاً للكذب وإدعاء ما لم يحصل، لأن الأيام والأشهر تعرف بالكتاب والحساب وليست أمراً يعرف من جهتها فقط.

أما الجواب عن الأمر الثانى وهو لماذا كانت العدة بالوفاة أكثر في الجملة من العدة الناشئة عن الطلاق؟ فيبدو بآدى الرأى من الفرق بين حال الطلاق وحال الوفاة أن الطلاق نتيجة شقاق. فالحداد على الزوج الذى ينشئه ليس قوياً، ومعنى براءة الرحم وإعطاء الزوج فرصة للرجعة يكون أوضح في معنى العدة، ويكفى لذلك نحو ثلاثة أشهر. أما حال الموت فمرارة الفراق فيها أوضح وأشد، ومعنى الحداد فيها يغلب معنى براءة الرحم، ولذا تجب على المدخول بها وغير المدخول بها، وإن الشارع قد جعلها لذلك أطول من عدة الطلاق.

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٨٥.

وقد يرد سؤال ثالث وهو: لماذا حددت العدة بأربعة أشهر وعشر؟ وإن تقدير الأعداد كما يقرر الفقهاء أمر توقيفي خالص لا يجري فيه القياس ولكن ليس معنى ذلك أنه لا حكمة فيه، وأن الحكمة يقررها العلماء في أمرين:

أولهما: أن الأشهر الأربعة هي التي يظهر فيها الحمل ويستبين، وقد جعلت العشر بعدها للاحتياط.

وثانيهما: أن مدة أربعة الأشهر هي المدة التي قررها الشارع أقصى مدة للحرمان من الرجال. ولذلك جعل الإيلاء مدته أربعة أشهر. فكان من التنسيق بين الأحكام الشرعية أن تجعل مدة الإحداد على الزواج في حدود هذه المدة ومقاربة لها في الجملة^(١).

وقوله: ﴿فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف﴾ بيان لما يترتب على انتهاء المدة التي حددها الشرع للمرأة التي مات عنها زوجها. أي: فإذا انتهت المدة التي حددها الشرع للمرأة التي مات عنها زوجها لتجنب فيها التزين والتعرض للنكاح. فلا حرج عليكم بعد ذلك أيها المسلمون أو أيها الأولياء - في ترك هؤلاء الزوجات الأرامل يفعلن في أنفسهن ما تفعله المرأة الراغبة في الزواج من التزين والتجمل ولكن بالطريقة التي يقرها الشرع، وترضاها العقول السليمة، والأخلاق المستقيمة.

وقوله: ﴿بالمعروف﴾ متعلق بفعلن، أو حال من النون أي حالة كونهن متلبسات بالمعروف. ومفهومه أنهن لو خرجن عن المعروف شرعاً بأن تبرجن وأظهرن ما أمر الله بستره فإنه في هذه الحالة يجب على أوليائهن أن يمنوهن من ذلك.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿والله بما تعملون خبير﴾ أي أنه محيط بدقائق أعمالكم لا يخفى عليه منها شيء فإذا وقفتم أنتم ونساؤكم عند حدوده أسعدكم في الدنيا وأجزل مثوبتكم في الآخرة، وإن تجاوزتم حدوده عاقبكم بما تستحقون ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾.

وبذلك نرى الآية الكريمة قد رسمت للناس أفضل وسائل الحياة الشريفة، فأرشدت المرأة التي مات عنها زوجها إلى ما يحفظ لها كرامتها، ويدفع عنها ما يتنافى مع العفة والشرف والوفاء.

ثم بين - سبحانه - حكم الخطية للنساء المعتدات بيأناً يقوم على أدب النفس، وأدب الاجتماع، ورعاية المشاعر والعواطف مع رعاية المصالح والضرورات فقال - تعالى -:

(١) تفسير الآية الكريمة لفضية الأستاذ الجليل الشيخ محمد أبو زهرة مجلة لواء الإسلام العدد الثامن السنة

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ
 أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْتُمْ سَتَذَكُرُونَهُنَّ
 وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا
 وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ
 وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا
 أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾

وقوله - تعالى - : ﴿فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ﴾ أى : لو حتم وأشرتم به . من التعريض الذى هو ضد التصريح ومعناه أن يضمن كلامه ما يصلح للدلالة على مقصوده، ويصلح للدلالة على غير مقصوده، إلا أن إشعاره بجانب المقصود أتم وأرجح وأصله من عرض الشيء - بضم العين - أى جانبه ومن أمثلته أن يقول الفقير المحتاج للمحتاج إليه : جئتك لأسلم عليك . . وهو يقصد عطاءه .

﴿خطبة النساء﴾ مخاطبة المرأة أو أولياتها فى أمر زواجها . والخطبة - بكسر الخاء كالجلسة - مأخوذة من الخطب أى الشأن لأنها شأن من الشئون وقيل من الخطاب لأنها نوع - مخاطبة تجرى بين جانب الرجل وجانب المرأة . والمراد خطبة النساء اللاتى فارقهن أزواجهن . و﴿أكننتم فى أنفسكم﴾ أخفيتم وأسررتن من الإكتمان وهو الإضمار من غير إعلان . والمعنى : ولا حرج ولا إثم عليكم أيها الرجال المبتغون للزواج فى التعريض بخطبة المرأة أثناء عدتها لتزويجهن بعد انقضائها، كما أنه لا إثم عليكم كذلك فى الرغبة فى الزواج بهن، مع إخفاء ذلك وستره من غير كشف وإعلان لأن التصريح بالخطبة أثناء العدة عمل يتنافى مع آداب الإسلام، ومع تعاليم شريعته، ومع الأخلاق الكريمة، والعقول السليمة، والنفوس الشريفة .

قال القرطبى : قال ابن عطية : أجمعت الأمة على أن الكلام مع المعتدة بما هو نص فى تزويجها وتنبه عليه لا يجوز، وكذلك أجمعت على أن الكلام معها بما هو رفث وذكر جماع أو تحريض عليه لا يجوز وكذلك ما أشبهه وجوز ما عدا ذلك . ولا يجوز التعريض لخطبة المطلقة

طلاقاً رجعيًا إجماعًا لأنها كالزوجة. وأما من كانت في عدة البينة فالصحيح جواز التعريض لخطبتها»^(١).

والتعريض في خطبة النساء أساليبه مختلفة، وما ذكره العلماء في هذا الشأن أن يقول الرجل للمرأة: إني راغب في الزواج أو أن يقول لوليها: لا تسبقني بها إلى غيري.
ومن أساليب التعريض ما فعله النبي - ﷺ - مع السيدة أم سلمة، فقد دخل عليها وهي متأمة من زوجها أبي سلمة فقال لها: «لقد علمت أني رسول الله وخيرته وموضعي في قومي» فكان كلامه خطبة لها بأسلوب التعريض.

ومنها ما ذكره صاحب الكشاف عن عبد الله بن سليمان عن خالته - سكينه بنت حنظلة - قالت: دخل علي أبو جعفر محمد بن علي وأنا في عدتي فقال: قد علمت قرابتي من رسول الله - ﷺ - وقرابتي من جدي علي بن أبي طالب، وموضعي في العرب، وقدمي في الإسلام. قالت: فقلت: غفر الله لك يا أبا جعفر! أنخطبني في عدتي وأنت يؤخذ عنك؟ فقال: أو قد فعلت إنما أخبرتك بقرابتي من رسول الله ﷺ وموضعي»^(٢).

وقوله - تعالى - : ﴿ولا جناح عليكم فيما عرضتم﴾. إلخ معطوف على ما قبله في الآية السابقة لأن الكلام في الآيتين في الأحكام المتعلقة بعدة النساء.
و﴿ما﴾ في قوله: ﴿فما عرضتم﴾ موصولة. و﴿من خطبة النساء﴾ بيان لما، و﴿أل﴾ في النساء للعهد والمعهودات من الزوجات اللاتي سبق الحديث عنهن في الآيات التي قبل هذه.
و﴿أو﴾ في قوله: ﴿أو أكنتم﴾ للإباحة أو التخيير، ومفعول أكن محذوف يعود إلى ما الموصولة في قوله: ﴿فما عرضتم﴾ والتقدير: أو أكنتموه. و﴿في أنفسكم﴾ متعلق بأكنتم.
وقوله - تعالى - : ﴿علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سرًا إلا أن تقولوا قولا معروفًا﴾ كالتعليل لما قبله وهو قوله: ﴿ولا جناح عليكم فيما عرضتم﴾ إلخ. ونهى عما يردى ويفسد، وإباحة لما لا ضرر فيه.

أي: علم الله أنكم يا معشر الرجال ستذكرون هؤلاء النسوة المعتدات بماهن من جمال ومن حسن عشرة ومن غير ذلك من شئونهن وأن تفكروا فيهن وتمهقوا إليهن نفوسكم، والله - تعالى - فضلًا منه وكرمًا قد أباح لكم أن تذكروهن ولكنه ينهاكم عن أن تواعدوهن وعدًا سرًا بأن تقولوا لهم في السر ما تستحيون من قوله في العلن لقبحه ومنافاته للشرع.

(١) تفسير القرطبي ج ٣ صفحة ١٨٨.

(٢) تفسير الكشاف ج ١ صفحة ٢٨٢.

وقوله: ﴿إلا أن تقولوا قولاً معروفاً﴾ استثناء مما يدل عليه النهي لا تواعدوهن مواعدة ما إلا مواعدة معروفة غير منكرة شرعاً، وهي ما تكون بطريق التلويح والتعريض.

وفي قوله سبحانه: ﴿علم الله أنكم ستذكروهن﴾ بيان لما جبلت عليه النفس البشرية من ميل فطري بين الرجال والنساء، والإسلام لا ينكر هذا الميل وإنما يهذبه ويقومه ويصقله بأدابه الحميدة، وتعاليمه السامية.

وقوله: ﴿ولكن لا تواعدوهن سراً﴾ استدراك على محذوف دل عليه ﴿ستذكروهن﴾ أى: فاذكروهن ﴿ولكن لا تواعدوهن سراً﴾.

قال القرطبي ما ملخصه: واختلف العلماء في المراد بالسر في قوله - تعالى - : ﴿ولكن لا تواعدوهن سراً﴾ فقيل معناه نكاحاً، أى لا يقل الرجل لهذه المعتدة تزوجيني بل يعرض إن أراد، ولا يأخذ ميثاقها وعهداها ألا تنكح غيره في استسرار وخفية. هذا قول جمهور أهل العلم. و«سراً» على هذا التأويل نصب على الحال أى مسرين - وسمى النكاح سراً لأن مسيه الذى هو الوطاء مما يسر - وقيل السر الزنا، أى لا يكون منكم مواعدة على الزنا فى العدة ثم التزوج بعدها. أى لا تواعدوهن زنا. واختاره الطبرى. ومنه قول الأعشى:

فلا تقربن جارة إن سرها عليك حرام فانكحن أو تأبداً
أى: «فتزوجها أو ابتعد عنها. وقيل السر الجماع»^(١).

والذى تظمن إليه النفس أن كلمة (سرا) صفة لموصوف محذوف أى لا تواعدهن وعدا سرياً، وأن النهي هنا منصب على كل مواعدة سرية، يقال فيها كل ما ينهى عنه أو يستحيا منه فى العلن، لقبحه أو لأن أوانه لم يحن بعد، إذ السرية أو الخلوة بين الرجل والمرأة لا تؤمن مزالقتها. وفى الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال: «لا يخلون رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما»^(٢) وأن المراد بقوله: ﴿إلا أن تقولوا قولاً معروفاً﴾ هو التعريض بالخطبة، وإظهار المودة بطريقة لا تفضى إلى محرم.

قال صاحب الكشاف فى قوله: ﴿إلا أن تقولوا قولاً معروفاً﴾ وهو أن تعرضوا ولا تصرحوا. فإن قلت بم يتعلق حرف الاستثناء؟ قلت: بلا تواعدوهن. أى لا تواعدوهن مواعدة قط إلا مواعدة معروفة غير منكورة: أى لا تواعدوهن إلا بالتعريض^(٣).

ثم قال - تعالى - : ﴿ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله﴾.

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ١٩٠.

(٢) الترغيب والترهيب للمندرى ج ٢ ص ٣٨.

(٣) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٨٤.

العزم : القطع والتصميم، يقال عزم على الشيء إذا صمم وعقد القلب على فعله، وهو يتعدى بعلى وبنفسه فيقال : عزم الشيء وعزم عليه .

وعقدة النكاح : الارتباط الموثق به . وأصل العقد الشد، والعهود والأنكحة تسمى عقوداً لأنها تعقد وتوثق كما يوثق بالحبل .

والمراد بالكتاب هنا الأمر المكتوب المفروض وهو العدة التي حدد الله لها وقتاً معيناً .
والأجل : هو نهاية المدة التي قررها الشرع للعدة .

والمعنى : لا يسوغ لكم يا معشر الرجال الراغبين في الزواج من النساء اللائي فارقهن أزواجهن أن تعقدوا العزم نهائياً في أثناء العدة على أن تتموا الزواج بعدها، بأن تحول الخطبة من التعريض إلى التصريح، أو تبتوا في أمر الزواج بتاً قاطعاً بمواعدة أو نحوها، إذ العاقل لا يستعجل أمراً قبل حلول وقته، وإنما الذي يسوغ لكم أن تتموا عقد الزواج بعد انتهاء العدة وبعد أن يكون جو الأحزان قد فتر وجفت حدته .

والنهي عن العزم على عقد النكاح نهى بالأولى عن إبرامه وتنفيذه، لأن العزم على الفعل يتقدمه، فإذا نهى عنه كان الفعل أنهى، فهو كالنهي عن الاقتراب من حدود الله في قوله : ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾ .

وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد أباحت شيئين، ونهت عن شيئين : أباحت التعريض بالخطبة للمرأة أثناء عدتها، كما أباحت إخفاء هذه الرغبة في الأنفس وحديثها بها . ويشهد لذلك قوله - تعالى - : ﴿ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم﴾ ونهت عن المواعدة سرّاً إلا أن يقولوا قولاً معروفاً عن طريق التعريض، أو أن يسار الرجل المرأة بالقول المعروف الذي أباحه الشرع وارتضته العقول السليمة، والأخلاق الفاضلة، بأن يعدها في السر بالإحسان إليها والاهتمام بشأنها والتكفل بمصالحها حتى يصير ذكر هذه الأشياء الجميلة مؤكداً لذلك التعريض . أما الشيء الثاني الذي نهت عنه فهو العزم على عقدة النكاح قبل انقضاء العدة . ويشهد لهذا قوله - تعالى - : ﴿علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سرّاً إلا أن تقولوا قولاً معروفاً، ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله﴾ .

وبعد هذه الأوامر والنواهي ختم الله - تعالى - الآية بقوله : ﴿واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حلِيم﴾ .

أى : اعلّموا أيها الناس أن الله - تعالى - يعلم ما يجول في نفوسكم من خير أو شر، وما تهجس به خطرات قلوبكم من مقاصد واتجاهات، فاحذروا أن تقصدوا ما هو شر، أو تفعلوا ما هو منكر، واعلموا أنه - تعالى - غفور لمن تاب وعمل صالحاً، حلِيم لا يعاجل الناس بالعقوبة، ولا يؤاخذهم إلا بما كسبوا.

فالجملة الكريمة تحذير وتبشير، وترغيب وترهيب، لكي لا يتجاسر الناس على ارتكاب ما نهى الله عنه، ولا ييأسوا من رحمته متى تابوا وأنابوا.

هذا، وقد أجمع العلماء على تحريم نكاح المرأة في عدتها، وإذا حدث مثل هذا النكاح ودخل بها فرق بينهما وفسخ النكاح.

ويرى جمهور العلماء أنها تصير محرمة عليه تحريمًا مؤبداً، ولا يحل له نكاحها ركلك لأنه استحل ما لا يحل فعوقب بحرمانه، كالقاتل يعاقب بحرمانه من ميراث المقتول. وقيل : يفسخ النكاح ويفرق بينهما فإذا انتهت العدة حلت له ولم يتأبد التحريم. ولكل فريق أدلته المبسوطة في كتب الفقه.

وبلك تكون الآية الكريمة قد أرشدت الناس إلى ما يقره الشرع، ويرتضيه الخلق الكريم، ونهتهم عما يتنافى مع تعاليم الإسلام بأسلوب حكيم جمع بين الشدة واللين، والخوف والرجاء، حتى يثوب المخطئون إلى رشدهم ويقنعوا عن خطئهم.

ثم بين - سبحانه - في آيتين كريميتين بعض الأحكام التي تتعلق بالمطلقة قبل الدخول بها، سواء أذكر لها المهر أم لم يذكر، فقال - تعالى - :

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ
مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ
قَدْرَهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدْرَهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ
وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ
لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصِفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُوا أَوْ يَعْفُوا
الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى
وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

قوله - تعالى - : ﴿ما لم تمسوهن﴾ أى ما لم تجامعوهن ولم تدخلوا بهن والمس فى أصل معناه : اللمس، ويقال فيما معه إدراك بحاسة اللمس، ثم أطلق على سبيل الكناية على ما يكون بين المرء وزوجه من جماع ومباشرة وعلى غير ذلك مما يكون فيه إصابة حسية أو مغنوية . وهذه الكناية من ألطف الكنايات التى تربى فى الإنسان حسن الأدب، وسلامة التعبير، وتجنبه النطق بالألفاظ الفاحشة . وقد تكرر هذا التعبير المهدب فى القرآن الكريم ومن ذلك قوله - تعالى - حكاية عن مريم : ﴿قالت ربّ أنى يكون لى ولد ولم يمسنى بشر . .﴾ (١) .

والمراد بالفريضة هنا المهر الذى يفرضه الرجل على نفسه للمرأة قبل الدخول بها . والمعنى : لا إثم عليكم أيها الرجال إذا طلقتم النساء لأسباب مشروعة، وبطريقة مرضية، قبل الدخول بهن، وقبل أن تقدروا لهن مهراً معيناً .

ثم بين - سبحانه - ما للمرأة على الرجل فى هذه الحالة فقال : ﴿ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره، متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين﴾ . .

قوله - تعالى - : ﴿ومتعوهن﴾ أى ملكوهن ما ينتفعن به، ويدخل التسلية والسرور على نفوسهن . وأصل المتعة والمتاع ما ينتفع به الإنسان من مال أو كسوة أو غير ذلك، ثم أطلقت المتعة على ما يعطيه الرجل للمرأة من مال أو غيره عند طلاقها منه لتنتفع به، جبراً لخاطرها، وتعويضاً لما نالها بسبب هذا الفراق .

و﴿الموسع﴾ هو الغنى الذى يكون فى سعة من غناه . يقال : أوسع الرجل إذ كثر ماله، واتسعت حاله . و﴿المقتر﴾ هو الفقير الذى يكون فى ضيق من فقره . أقتر الرجل أى افتقر وقل ما فى يده .

والمعنى : لا حرج عليكم فى طلاقكم للنساء قبل أن تدخلوا بهن وقبل أن تقدروا لهن مهراً معيناً، وليس من حقهن عليكم فى هذه الحالة أن يطالبنكم بالصدّاق، وإنما من حقهن عليكم أن تمتعوهن بأن تدفعوا لهن ما ينتفعن به كل على حسب حاله وطاقته، فالأغنياء يدفعون ما يناسب غناهم وسعتهم، والفقراء يدفعون ما يناسب حالهم .

وقوله : ﴿متاعاً بالمعروف﴾ أى أعطوهن ما يتمتعن ويتنتفعن به بالقدر المتعارف عليه بين العقلاء، فلا يعطى الغنى ما لا يتناسب مع غناه ولا مع حال المرأة التى طلقها، ولا يعطى الفقير شيئاً تافهاً لا يسمى فى عرف العقلاء متاعاً كما أنه لا يكلف فوق استطاعته، لأن المتاع ما سمي بهذا الاسم إلا لأنه يتمتع به ويتنتفع به لفترة من الزمان .

وقوله : ﴿حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ تأكيد لهذا التمتع الذى هو من حق المرأة على الرجل الذى طلقها قبل أن يدخل بها وقيل أن يسمى لها مهراً.

أى : هذا التمتع حق ثابت على المحسنين الذين يحسنون إلى أنفسهم بامتثالهم لأوامر الله ، وبترضيتهم لنفوس هؤلاء المطلقات اللاتي تأثرن بسبب هذا الفراق . فالآية الكريمة ترفع الإثم عن الرجال الذين يطلقون النساء قبل الدخول بهن وقبل تسمية المهر لهن ، متى كانت المصلحة تستدعى ذلك ، وتبين الحقوق التى للمرأة على الرجل فى هذه الحالة .

قال القرطبي : قوله - تعالى - : ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ﴾ . إلخ هذا أيضاً من أحكام المطلقات ، وهو ابتداء إخبار برفع الحرج عن المطلق قبل البناء والجماع ، فرض مهراً أو لم يفرض . ولما نهى رسول الله ﷺ عن التزوج لمعنى الذوق وقضاء الشهوة ، وأمر بالتزوج لطلب العصمة والتماس ثواب الله وقصد دوام الصحبة وقع فى نفوس المؤمنين أن من طلق قبل البناء قد وقع جزءاً من هذا المكروه ، فنزلت الآية رافعة للجناح فى ذلك إذا كان أصل النكاح على المقصد الحسن^(١) .

وقوله : ﴿أَوْ تَفَرَّضُوا لَهَا فَرِيضَةً﴾ معطوف على ﴿تَمْسُوهُنَّ﴾ المنفى ، أى لا حرج عليكم فى تطليقكم النساء فى حالة عدم الدخول بهن وعدم تقدير مهر معين لهن .

وقوله : ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسَعِ قَدْرَهُ﴾ إلخ تشريع حكيم وتوجيه شديد ، لأن فراق المرأة قبل الدخول بها وقبل تقدير مهر لها ينشئ جفوة مضمرة بين المرأة وبين مطلقها ، وقد يسىء هذا الفراق إليها وإلى أسرتها ، فكان هذا الحق الذى جعله الله للمرأة على الرجل هو التمتع ، تسرية لنفسها ، وتعويضاً عما أصابها بسبب هذا الفراق ، وتلطيفاً لجو الطلاق وما يصاحبه من جفاء وبغضاء ، واستبقاء للمودة الإنسانية بين الطرفين ، وإزالة لما عسى أن يقوله البعض من أنه ما طلقها من طلقها إلا لشيء .

ولا شك أن إنهاء الحياة الزوجية قبل الدخول فيها ، لضرورات اقتضاها هذا الإنهاء ، أخف وأيسر من إنهاؤها بعد الدخول فيها .

قال الجمل ما ملخصه : وقوله : ﴿عَلَى الْمَوْسَعِ قَدْرَهُ﴾ جملة من مبتدأ وخبر وفيها قولان : أحدهما : أنها لا محل لها من الإعراب بل هى استثنائية بينت حال المطلق بالنسبة إلى يساره وإقناره .

والثانى : فى محل نصب على الحال وصاحب الحال فاعل متعوهن . والرباط بين جملة الحال

وصاحبها محذوف والتقدير: على الموسع منكم. و﴿متاعاً﴾ منصوب على المصدر. و﴿المعروف﴾ جار ومجرور صفة له. و﴿حقاً﴾ صفة ثانية لقوله: ﴿متاعاً﴾ أو مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله. وعامله محذوف وجوباً والتقدير: حق ذلك حقاً^(١).

هذا، ويرى بعض العلماء أن المتعة واجبة للمرأة على الرجل في حال مفارقتها قبل الدخول بها وقبل تسمية المهر، لأن الآية الكريمة قد أكدت ذلك وجعلته حقاً ثابتاً لا يجوز التحلل منه قال - تعالى - : ﴿متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين﴾.

ويرى بعضهم أنها مستحبة، لأن التعبير بالمحسنين يدل على أن المتعة غير واجبة وقد رجح المحققون من العلماء الرأي الأول وقالوا: إن الإحسان لا ينافي الوجوب الذي دل عليه الأمر يؤيد هذا قوله: ﴿على الموسع قدره وعلى المقتر قدره﴾، فقد جعل الله المتعة على الفريقين كل فريق على حسب طاقته وقدرته.

والمتعة تختلف باختلاف الأحوال من يسار وإعسار، يقدرها القاضي على الرجل على حسب حالته كما يقدر النفقة.

والصالحون من الناس هم الذين يبذلون المتعة للمطلقة بسخاء ومودة، ولقد أثر عن الحسن بن علي - رضى الله عنهما - أنه متع امرأة طلقها بعشرة آلاف درهم، فلما تسلمت هذا المال الوفير قالت: «متاع قليل من حبيب مفارق».

ثم بين - سبحانه - حق المرأة فيما لو طلقت قبل الدخول بها وبعد تسمية مهر لها فقال - تعالى - : ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة، فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح﴾.

أى: وإن طلقتم يا معشر الرجال النساء من قبل أن تدخلوا بهن وتباشروهن، ومن بعد أن قدرتم لهن صداقاً معلوماً، فالواجب عليكم في هذه الحالة أن تدفعا لهن نصف ما قدرتم لهن من صداق، إلا أن تتنازل المرأة عن حقها فتركه لمطلقها بسماحة نفس، بأن تكون هي الراغبة في الطلاق، أو يتنازل الذى بيده عقدة النكاح وهو الزوج عن حقه بأن يدفع لها المهر كاملاً أو ما هو أكثر من النصف لأنه هو الراغب في الطلاق. وجملة ﴿وقد فرضتم لهن فريضة﴾ في موضع نصب على الحال من الفاعل ﴿طلقتموهن﴾ أو من مفعوله. أى وإن طلقتموهن حالة كونكم فارضين لهن المهر أو حالة كونهن مفروضاً لهن المهر.

والفاء في قوله: ﴿فنصف ما فرضتم﴾ واقعة في جواب الشرط، والجملة في مجل جزم جواب

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ صفحة ١٩٣.

الشرط، و«نصف» مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى فالواجب نصف، أو هو مبتدأ محذوف الخبر أى فلهن نصف، وقد صرحنا الآية الكريمة بوجوب النصف، ولم تصرح بوجوب دفعه، لأنه قد يكون قدم لها المهر كله أو بعضه، فكان التعبير بالوجوب بياناً للحكم حتى يسترد المطلق ما دفعه زيادة عن النصف إن أراد ذلك، أو يكمل لها النصف إن كان قد دفع أقل منه.

وقوله: ﴿إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح﴾ استثناء مفرغ من عموم الأحوال. و﴿يعفون﴾ فعل مضارع الواو فيه لام الفعل، ونونه ضمير جماعة الإناث فهو هنا مبنى على السكون فى محل نصب بأن. ووزنه يفعلن أى: فلهن نصف المهر الذى فرضتموه لهن فى كل حال إلا فى حال عفو المطلقات أى إبرائهن لكم وتنازلهن عن هذا الحق، أو فى حال عفو الذى بيده عقدة النكاح، وهو الزوج المطلق - عند الأحناف والشافعية - لأنه هو المالك لعقد النكاح وحله، والمراد بعفوه أن يزيد على نصف المهر المقرر.

ويرى المالكية أن الذى بيده عقدة النكاح هو ولى المرأة، لأنه هو الذى بيده عقدة النكاح ثابتة، وأما الزوج فله ذلك حالة العقد المتقدم فقط.

ويكون المعنى على هذا الرأى: عليكم يا معشر الرجال أن تدفوا للنساء نصف المهر إذا طلقتموهن بعد أن قدرتم لهن مهراً وقبل أن تمسوهن إلا أن يتنازل النساء عن هذا الحق، إذا كن يملكن ذلك، أو يتنازل أولياؤهن إن كن لا يملكن حق التنازل، كأن تكون البنت صغيرة، أو غير جائزة التصرف.

وقد دل كل فريق على مذهبه بما هو مبسوط فى كتب الفقه.

ثم حجب - سبحانه - إلى الناس التسامح والتعاطف فقال: ﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير﴾.

أى: من حق المرأة المطلقة على مطلقها أن يدفع لها نصف المهر إذا كان الطلاق قبل المباشرة وبعد تحديد المهر، وإذا تنازل أحد الطرفين عن جزء من حقه لصاحبه كان هذا التنازل حسناً. لأن هذا التنازل والتسامح يضىء على جو الطلاق لونا من المودة والتقارب بين النفوس التى ألمها الفراق بتلك الصورة، فأحرصوا - أيها الناس - على هذا العفو بأن يتنازل كل فريق منكم لصاحبه عن شئ من حقه، ويتسامح معه، فإن ذلك أقرب إلى تقوى القلوب، وصفاء النفوس، ولا تتركوا أن يتفضل بعضكم على بعض بالإحسان، وحب الخير، وجميل الذكر، فالله - تعالى - بصير بأعمالكم وسيحاسبكم عليها، وسيجازى كل نفس بما عملت. فالجملة الكريمة توجيه حكيم للناس إلى ما يدفع عنهم التشاحن والتباغض والتخاصم

خصوصاً في حالات الطلاق التي هي من أشد الأحوال دفعاً إلى هذه الرذائل. ولقد حفظ لنا التاريخ الإسلامي صوراً مشرقة لهذا العفو والفضل من ذلك ما ذكره الإمام الزخشي من أن جبير بن مطعم دخل على سعد بن أبي وقاص فعرض عليه بنتاً له فتزوجها. ثم طلقها قبل أن يدخل بها وبعث لها المهر كاملاً. فقال له: لم تزوجتها؟ فقال: عرضها على فكرهت رده. فقيل له: فلم بعث بالصداق كاملاً؟ قال: فأين الفضل. وروى أن أحد الصحابة تزوج امرأة وطلقها قبل الدخول بها فأعطاها الصداق كاملاً، فقيل له في ذلك فقال: أنا أحق بالعفو منها^(١).

وهكذا نرى مبلغ استجابة السلف الصالح لتوجيهات القرآن ووصاياهم، فأين المسلمون اليوم من هذه الوصايا والأحكام؟

وبعد هذا الحديث المستفيض الذي لم ينته بعد عن الطلاق وأحكامه وآدابه، أورد القرآن آيتين كريمتين تأمران بالمحافظة على الصلاة وبالمداممة على طاعة الله، وبالملازمة لذكره - عز وجل - فقال - تعالى - :

حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَى وَقَوْمُوا لِلَّهِ
قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرَجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ
فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾

ولعل السر في توسط هاتين الآيتين بين آيات الأحكام التي تحدثت عن الطلاق، والعدة والرضاع والخطبة... إلخ، لعل السر في ذلك أن هذه الأمور كثيراً ما تكون مثار تنازع وتخاصم وتقاطع بين الناس، فأراد القرآن بطريقته الحكيمة، وبأسلوبه المؤثر أن يقول للناس: إن محافظتكم على الصلاة، ومدامتكم على طاعة الله وذكره كل ذلك سيعرض في نفوسكم المراقبة له - سبحانه -، والخشية من عقابه، وسيعينكم على أن تحلوا قضاياكم التي تتعلق بالطلاق وغيره بالعدل والإحسان والتسامح والتعاطف، لأن من حافظ على فرائض الله وأوامره، انصرفت نفسه عن ظلم الناس، وعاملهم معاملة كريمة حسنة. وقد بين القرآن في كثير من آياته أن المحافظة على الصلاة بخشوع وخضوع لله - تعالى - وأن المداومة على ذكره،

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٨٦ بتصرف يسير.

والملازمة لطاعته كل ذلك من شأنه أن يمنع الإنسان من الوقوع فيما نهى الله عنه، قال - تعالى - : ﴿اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر﴾ ..

وقال - تعالى - : ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾، وقال - تعالى - : ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين﴾.

فكأن الله - تعالى - يقول للناس : لقد أمرتكم بالمحافظة على الصلاة، وبالمداومة على طاعتي وذكرى خلال حديثي عن أحكام كثيراً ما تكون هذه الأحكام مثار تنازع بينكم، وذلك لكى تحلوا التسامح والتواصل والتقارب محل التشاحن والتدابير والتجافي، لأن من شأن المحافظة على هذه العبادات، أن تهدي الناس إلى أكمل الأخلاق والصفات.

فسبحان من هذا كلامه، ومن تلك إرشاداته وتوجيهاته ووصاياه.

وقوله - تعالى - : ﴿حافظوا﴾ من الحفظ بمعنى ضبط الشيء، وصيانته عن كل تضييع، وهو خلاف النسيان. والخطاب لجميع المكلفين من أفراد الأمة.

والمعنى : حافظوا يا معشر المسلمين والمسلمات على أداء الصلوات في أوقاتها بخشوع وخضوع وإخلاص لله رب العالمين، وحافظوا بصفة خاصة على الصلاة الوسطى، لما لها من منزلة سامية، ومكانة عالية.

فقد أمر الله - تعالى - عباده بالمحافظة على الصلوات بصفة عامة، وأفرد الصلاة الوسطى بالذكر تفخيماً لشأنها، وإعلاء لقدرها من بين أفراد جنسها. والمسلم يكون محافظاً على الصلاة إذا أداها في وقتها مستوفية لأدائها وسنتها وشرائعها وخشوعها وكل ما يتعلق بها، أما إذا قصر في شيء من ذلك فإنه لا يكون محافظاً عليها تلك المحافظة التامة التي أمر الله بها.

وفي قوله - تعالى - : ﴿حافظوا﴾ تنبيه إلى أن الصلاة في ذاتها شيء نفيس ثمين تجب المحافظة عليه، لأن هذه الكلمة تدل على الصيانة والضبط بجانب دلالتها على الأداء والإقامة والمداومة.

قال الإمام الرازي : وقوله : ﴿حافظوا﴾ بصيغة المفاعلة التي تكون بين اثنين. للدلالة على أن هذه المحافظة تكون بين العبد والرب. فكأنه قيل : احفظ الصلاة ليحفظك الإله الذي أمرك بها. وهذا كقوله : « فاذكروني أذكركم » وفي الحديث « احفظ الله يحفظك ». أو أن تكون المحافظة بين المصلي والصلاة. فكأنه قيل : احفظ الصلاة حتى تحفظك الصلاة بمعنى أنها

تحفظك من ارتكاب المعاصي، وتشفع لمصلحتها يوم القيامة»^(١).

وللعلماء أقوال في المراد بالصلاة الوسطى التي أفردها الله - تعالى - من بين الصلوات. فجمهور العلماء يرون أنها واحدة من بين الصلوات الخمس المفروضة، وأن الوسطى مؤنث الأوسط أى الشيء المتوسط بين شيئين، فالصلاة الوسطى هى الصلاة المتوسطة بين صلاتين، إلا أنهم اختلفوا في تعيينها.

فأكثر العلماء على أن الصلاة الوسطى هى صلاة العصر، لأنها تقع في وسط الصلوات الخمس، إذ قبلها اثنتان وبعدها اثنتان، ولأنها وسط بين صلاتي النهار، وصالاتي الليل، فمعنى التوسط فيها واضح، ولأنها مظنة التقصير لمجيئها بعد وقت الظهر الذي يكون في الغالب وقت كسل.

وفضلاً عن ذلك فقد صرحت بعض الأحاديث بأنها صلاة العصر، وقد ساق الإمام ابن كثير عدداً من هذه الأحاديث ومنها ما جاء في صحيح مسلم ومسند الإمام أحمد عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله قلوبهم وبيوتهم ناراً، ثم صلاها بين العشاءين المغرب والعشاء، وفي مسند الإمام أحمد عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال: «الصلاة الوسطى صلاة العصر».

وقد خصت صلاة العصر بمزيد من التأكيد، وبالأمر بالمحافظة عليها، وبالتحذير من التقصير فيها، مما يشهد بأنها هى الصلاة الوسطى، فقد روى البخارى ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «الذي تفوته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله» أى: سلب من أهله وماله فبقى وحيداً بدونها.

وقال بعضهم المراد بالصلاة الوسطى صلاة الصبح، وقيل صلاة الظهر، وقيل صلاة المغرب، وقيل العشاء، وقيل الجمعة، وقيل غير ذلك من الأقوال التي لا تبلغ في قوتها مبلغ قول القائلين بأنها صلاة العصر، ولذا قال ابن كثير وكل هذه الأقوال فيها ضعف بالنسبة إلى التي قبلها، ومعترك النزاع في الصبح والعصر، وقد أثبتت السنة أنها العصر فتعين المصير إليها - أى إلى أن المراد بالصلاة الوسطى صلاة العصر^(٢).

ومن العلماء من اتجه في بيان المراد من الصلاة الوسطى اتجاهاً آخر فهو يرى أن المراد بالصلاة الوسطى الصلوات كلها، وأن الوسطى ليست بمعنى المتوسطة بين صلاتين، وإنما هى بمعنى

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٦ ص ١٥٧. بتلخيص.

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٩١ وما بعدها.

الفضلى لأن وسط الشئ خياره وأعدله وأفضله فالمقصود بها فعلها أو أداؤها بطريقة سليمة كاملة. والمعنى على هذا رأى: حافظوا يا معشر المسلمين على الصلوات كلها، وحافظوا على أن يكون أداؤكم لها بطريقة وسطى أى فاضلة بأن تأدوها فى أوقاتها كاملة الأركان والسنن والآداب والخشوع.

قال ابن كثير: وقيل بل الصلاة الوسطى مجموع الصلوات الخمس رواه ابن أبي حاتم عن ابن عمر وفى صحته نظر. والعجب أن هذا القول قد اختاره الشيخ أبو عمر بن عبد البر إمام ما وراء البحر، وإنما لإحدى الكبرى، إذ اختار مع اطلاعه وحفظه ما لم يَقم عليه دليل من كتاب ولا سنة ولا أثر.

ومن العلماء المحدثين الذين استحسِنوا هذا الرأى الشيخ محمد عبده - رحمه الله - فقد قال: «ولولا أنهم اتفقوا على أنها - أى الصلاة الوسطى - إحدى الخمس لكان يتبادر إلى فهمى من قوله: «الصلاة الوسطى» أن المراد بالصلاة الفعل وبالوسطى الفضلى أى: حافظوا على أنواع الصلاة وهى الصلاة التى يحضر فيها القلب وتتوجه بها النفس إلى الله - تعالى - وتخشع لذكوره، وتدبر كلامه لا صلاة المرائين ولا الغافلين»^(١).

والذى نراه أن ما عليه الجمهور من أن الصلاة الوسطى هى واحدة من بين الصلوات الخمس، وأنها صلاة العصر هو أقوى الآراء، لأنه - أولاً - يتفق مع أصحاب الاتجاه الثانى الذين يقولون بأن أداء الصلاة يجب أن يكون بطريقة تامة الأركان والسنن والخشوع وما قال أحد منهم بأن تحديدها بصلاة العصر ينفى أداء بقية الفرائض بكمال واطمئنان. ولأنه - ثانياً - قد امتاز عن رأى أصحاب الاتجاه الثانى بأنه أعمل النص الصحيح الثابت عن رسول الله ﷺ بأن الصلاة الوسطى هى صلاة العصر، ولا شك أن إعمال النص أولى من إهماله أو من تأويله تأويلاً ضعيفاً.

وقوله: ﴿وقوموا لله قانتين﴾ مؤكداً لما قبله من المحافظة والمداومة على أداء الصلاة. والقنوت: لزوم الطاعة مع الخضوع والخشوع. أى قوموا فى الصلاة مطيعين لله - تعالى - مؤيدين لها على وجهها الكامل فى خشوع وخضوع واطمئنان.

والفاء فى قوله: ﴿فإن خفتم فرجالاً أو ركبانا﴾ للتفريع أى: حافظوا على الصلاة فى كل وقت، وأدوها بخشوع واطمئنان، فإن كان بكم خوف من عدو فى حال المقاتلة فى الحرب أو من غيره لسبب من الأسباب، فصلوا راجلين أى ماشين على الأقدام، أو راكبين على ركبكم بإيماء، سواء وليتم وجوهكم شطر القبلة أولاً.

(١) تفسير المنار ج ٢ ص ٤٣٨.

و(رجالا) جمع راجل . وهو القوى على المشى برجليه . يقال : رَجَلَ الإنسان يرجل رجلاً إذا لم يجد ما يركبه ومشى على قدميه، والركبان جمع راكب للجمل أو الفرس أو غيرها . وجواب الشرط محذوف والتقدير : فإن خفتم فصلوا راجلين أو راكبين، وهذان اللفظان أى - رجالا أو ركبائاً - حالان من الضمير فى «فصلوا» المحذوف .

والآية الكريمة تدل على شدة عناية الإسلام بشأن الصلاة، فقد أمر الله - تعالى - عباده بأن يحافظوا عليها فى حالتى الأمن والخوف، والصحة والمرض، والسفر والإقامة . .

وقد بسط هذا المعنى الأستاذ الإمام محمد عبده فقال ما ملخصه : وقوله - تعالى - : ﴿فإن خفتم فرجالاً أو ركبائاً﴾ هذا تأكيد للمحافظة على الصلاة، وبيان أنها لا تسقط بحال، لأن حال الخوف على النفس أو العرض أو المال هو مظنة العذر فى الترك كما يكون السفر عذراً فى ترك الصيام . . والسبب فى عدم سقوط الصلاة عن المكلف بحال أنها عمل قلبى، وإنما فرضت تلك الأعمال الظاهرة لأنها مساعداً على العمل القلبى المقصود بالذات، وهو تذكر سلطان الله - تعالى - المستولى علينا وعلى العالم كله، ومن شأن الإنسان إذا أراد عملاً قلبياً يجتمع فيه الذكر أن يستعين على ذلك ببعض ما يناسبه من قول وعمل .

ولا ريب أن هذه الهيئة التى اختارها الله - تعالى - للصلاة هى أفضل معين على استحضار سلطانه فإن قولك «الله أكبر» فى فاتحة الصلاة وعند الانتقال فيها من عمل إلى عمل يعطيك من الشعور بكون الله أكبر وأعظم من كل شىء ما يغمر روحك، ويستولى على إرادتك . . وكذلك الشأن فى سائر أعمال الصلاة .

فإذا تعذر عليك الإتيان ببعض تلك الأعمال البدنية؛ فإن ذلك لا يسقط عنك هذه العبادة القلبية التى هى روح الصلاة وغيرها، وهى الإقبال على الله - تعالى - واستحضار سلطانه، مع الإشارة إلى تلك الأعمال بقدر الإمكان الذى لا يمنع من مدافعة الخوف الطارئ من سبع مفترس، أو عدو مغتال، أو لص محتال . . فالآية تعلمنا أنه يجب أن لا يذهلنا عن الله شىء فى حال من الأحوال . .»^(١) .

وقال الإمام ابن العربى : قوله - تعالى - : ﴿فإن خفتم فرجالاً أو ركبائاً﴾ أمر الله - تعالى - بالمحافظة على الصلاة فى كل حال من صحة ومرض، وحضر وسفر، وقدرة وعجز، وخوف وأمن، لا تسقط عن المكلف بحال، ولا يتطرق إلى فرضيتها اختلال . وقد قال ﷺ : «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب» .

والمقصود من ذلك أن تفعل الصلاة كيفما أمكن، لا تسقط بحال حتى لو لم يتفق فعلها إلا بالإشارة بالعين للزم فعلها كذلك إذا لم يقدر على حركة سائر الجوارح، وبهذا المعنى تميزت عن سائر العبادات، فإن العبادات كلها تسقط بالأعذار، ولذلك قال علماؤنا: إن تارك الصلاة يقتل، لأنها أشبهت الإيمان الذي لا يسقط بحال، ولا تجوز النيابة فيها ببدن ولا مال^(١).

ثم قال - تعالى - : ﴿فَإِذَا أَمْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ أى فإذا زال خوفكم وصرتم آمنين مطمئنين، «فاذكروا الله» أى فادوا الصلاة تامة كاملة مثل ما علمكم إياها ربكم على لسان نبيكم ﷺ وقد من الله - تعالى - عليكم بهذا التعليم الذى كنتم تجهلونوه فضلا منه وكرماً.

وعبر - سبحانه - «بان» المفيدة للشك فى حالة الخوف، وبإذا المفيدة للتحقيق فى حالة الأمن، للإشعار بأن حالة الأمن هى الحالة الكثيرة الثابتة، وأن حالة الخوف هى الحالة القليلة الطارئة، وفى ذلك فضل جزيل من الله - تعالى - على عباده يحملهم على شكره وطاعته، حيث وهبهم الأمان والاطمئنان فى أغلب أوقات حياتهم.

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين الكريمتين قد أمرتا المسلم بأن يحافظ على الصلاة محافظة تامة، إذ فى هذه المحافظة سعادة للإنسان، ودافع له على أداء الحقوق لأربابها، وزاجر له عن اقتراف ما نهى الله عنه.

ثم ختمت السورة الكريمة حديثها عن أحكام الزواج وما يتعلق به من طلاق ووصية وعدة وغير ذلك من أحكام بقوله - تعالى - :

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً
لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ
مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَاعٌ
بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ
اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

(١) أحكام القرآن لابن العربي ج ١ صفحة ٢٢٧.

والآية الأولى من هذه الآيات تبين بعض الحقوق التي شرعها الله - تعالى - للمرأة التي توفي عنها زوجها.

والمعنى : لقد شرع الله لكم فيما شرع من أحكام، أن على المسلم قبل أن يحضره الموت أن يوصي لزوجته التي على قيد الحياة بما تنتفع به انتفاعاً مستمراً لمدة حول من وفاته، ولا يصح أن يخرجها أحد من مسكن الزوجية.

وقوله : ﴿وصية﴾ فيه قراءتان مشهورتان.

القراءة الأولى بالنصب، والتقدير : والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً فليوصوا وصية، أو كتب الله عليهم وصية لأزواجهم.

والقراءة الثانية بالرفع والتقدير : فعليهم وصية لأزواجهم.

وعلى قراءة النصب تكون كلمة ﴿وصية﴾ مفعولاً مطلقاً أو مفعولاً به، وعلى قراءة الرفع تكون مبتدأ محذوف الخبر. وقوله : ﴿لأزواجهم﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لكلمة ﴿وصية﴾ على القراءتين. أى : وصية كائنة لأزواجهم.

والمراد بقوله : ﴿متاعاً﴾ ما تتمتع به الزوجة من السكن والنفقة بعد وفاة زوجها بوصية منه. وهو منصوب على المصدر أى متعوهن متاعاً أو على المفعولية. أى جعل الله لهن ذلك متاعاً.

وقال - سبحانه - : ﴿متاعاً إلى الحول﴾ للتخصيص على أن هذه المدة تمتد حولاً كاملاً منذ وفاة زوجها، إذ كلمة حول تدل على التحول أى حتى تعود الأيام التي حدثت فيها الوفاة. وقوله : « غير إخراج » حال من أزواجهم أى غير مخرجات من مسكن الزوجية، فلا يصح لورثة الميت أن يخرجوهن من مسكن الزوجية بغير رضاهن، لأن بقاءهن في مسكن الزوجية حق شرعه الله لهن، فلا يجوز لأحد أن يسلبه منهن بغير رضاهن.

ثم قال - تعالى - : ﴿فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف﴾.

أى : ﴿فإن خرجن﴾ من منزل الزوجية برضاهن ورضبتهن ﴿فلا جناح عليكم﴾ أى فلا إثم عليكم أيها المسلمون ﴿فما فعلن في أنفسهن من معروف﴾ أى فيما فعلن في أنفسهن من أمور لا ينكرها الشرع كالترزين والتطيب والتزوج بعد انتهاء عدتها وهى أربعة أشهر وعشرة أيام.

هذا، وللعلماء في تفسير هذه الآية اتجاهان مشهوران :

أما الاتجاه الأول : فيرى أصحابه أن هذه الآية منسوخة لأنها توجب على الزوج حين مشاركة الموت أن يوصي لزوجته بالنفقة والسكنى حولاً، ويجب عليها الاعتداد حولاً، وهى مخيرة بين السكنى في بيته حولاً ولها النفقة، وبين أن تخرج منه ولا نفقة لها، ولم يكن لها ميراث من زوجها

قالوا: وكان هذا الحكم في ابتداء الإسلام. وقد نسخ وجوب الوصية بالنفقة والسكنى بأية المواريث وبحديث «ألا لا وصية لوارث» حيث جعل لها الربع أو الثمن عوضاً عن النفقة والسكنى ونسخ وجوب العدة حولاً بقوله - تعالى - قبل ذلك: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾ الآية.

قالوا: وما يشهد لذلك ما أخرجه أبو داود والنسائي عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: نسخت بأية الميراث بما فرض الله لهن من الربع والثمن «ونسخ أجل الحول بأن جعل أجلها أربعة أشهر وعشراً»^(١).

وقد حكى هذا الرأي صاحب الكشاف فقال: والمعنى: أن حق الذين يتوفون عن أزواجهم أن يوصوا قبل أن يحتضروا بأن تمتع أزواجهم بعدهم حولاً كاملاً، أى: ينفق عليهن من تركته ولا يخرجن من مساكنهن. وكان ذلك في أول الإسلام ثم نسخت المدة بقوله: ﴿أربعة أشهر وعشراً﴾ وقيل نسخ ما زاد منه على هذا المقدار. ونسخت النفقة بالإرث الذى هو الربع والثمن.

واختلف في السكنى فعند أبي حنيفة لا سكنى. ثم قال: فإن قلت كيف نسخت الآية المتقدمة المتأخرة؟ قلت: قد تكون الآية متقدمة في التلاوة وهى متأخرة في التنزيل. كقوله - تعالى - : ﴿سيقول السفهاء﴾ مع قوله ﴿قد نرى قلب وجهك في السماء﴾^(٢).

وعلى هذا الاتجاه سار جمهور المفسرين.

أما الاتجاه الثانى: فيرى أصحابه أن هذه الآية محكمة وليست منسوخة ومن ذهب إلى هذا الاتجاه مجاهد، فقد قال ما ملخصه: دلت الآية الأولى وهى ﴿يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾ على أن هذه عدتها المفروضة تعتدها عند أهل زوجها. ودلت هذه الآية بزيادة سبعة أشهر وعشرين ليلة على العدة السابقة تمام الحول، وأن ذلك من باب الوصية للزوجات أن يمكن من السكنى في بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولاً كاملاً ولا يمنع من ذلك لقوله: ﴿غير إخراج﴾ فإذا انقضت عدتهن بالأربعة أشهر والعشر - أو بوضع الحمل - واخترن الخروج والانتقال من ذلك المنزل فإنهن لا يمنع من ذلك لقوله: ﴿فإن خرجن﴾.

ومن المفسرين الذين أيدوا هذا الاتجاه الإمام ابن كثير فقد قال - بعد أن ساق قول مجاهد -

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الطلاق باب نسخ متاع التوفى عنها زوجها بما فرض لها من الميراث.

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٨٩.

وهذا القول له اتجاه وفي اللفظ مساعدة له وقد اختاره جماعة منهم الإمام أبو العباس بن تيمية^(١).

كما أيده أيضاً الإمام الفخر الرازى في تفسيره، فقد قال بعد أن ساق بعض الأدلة التي تثبت ضعف قول من قال بالنسخ: «فكان المصير إلى قول مجاهد أولى من التزام النسخ من غير دليل»^(٢).

والخلاصة أن أصحاب هذا الاتجاه الثانى لا يرون معارضة بين هذه الآية وبين آية ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾ لأن الآية التي معنا لا تتحدث عن عدة المتوفى عنها زوجها وإنما تتحدث عن حقها في البقاء في منزل الزوجية بعد وفاة زوجها، وأن هذا الحق ثابت لها فإن شاءت بقيت فيه، وإن شاءت خرجت منه على حسب ما نراه مصلحة لها، ولأنها لا يوجد في ألفاظها أو معانيها ما يلزم المرأة بالتربص والامتناع عن الأزواج مدة معينة.

أما الآية الثانية فتراها واضحة في الأمر بالتربص أربعة أشهر وعشراً، وهي العدة التي يجب أن تمتنع فيها المرأة التي مات عنها زوجها عن التزين والتعرض للزواج. إذن فلا تعارض بين الآيتين ومتى انتفى التعارض انتفى النسخ.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿والله عزيز حكيم﴾ أى: عزيز في انتقامه ممن تعدى حدوده، إذ هو القاهر فوق عباده، حكيم فيما شرع لهم من آداب وأحكام فينبغى أن يمثل الناس أوامره ويحتملوا ما نهاهم عنه.

ثم بين - سبحانه - حق المطلقات فقال: ﴿وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين﴾ أى وللمطلقات على أزواجهن الذين طلقوهن متاع بالمعروف أى شيء ينتفع به انتفاعاً ممتداً لمدة من الوقت مما تعارف العقلاء عليه وعلى فائدته للمرأة، وهذا المتاع جعله الله حقاً على المتقين الذين يصونون أنفسهم عن كل ما يبغضه الله - تعالى -.

وقد جعل الله هذا الحق للمطلقة على مطلقها جبراً لوحشة الفراق وإزالة لما قد يكون بين الزوجين من شقاق، وتخفيفاً لما قد يحيط بجو الطلاق من تنافر وتخاصم وعدم وفاق. قال ابن كثير: وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى وجوب المتعة لكل مطلقة سواء كانت مفوضة، أو مفروضاً لها، أو مطلقة قبل المسيس، أو مدخولاً بها. وإليه ذهب

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢٩٧ بتصرف يسير.

(٢) راجع تفسير الفخر الرازى ج ٦ ص ١٦٨.

سعيد بن جبير وغيره من السلف واختاره ابن جرير، وهو قول عن الشافعي^(١). وعلى هذا التفسير يكون المراد بالمتاع ما يعطيه الرجل لامرأته التي طلقها زيادة عن الحقوق المقررة لها شرعا ليكون التسريح بإحسان.

ومن العلماء من يرى أن المراد بالمتاع هنا النفقة التي تكون للمطلقة في العدة قال الفخر الرازي: واعلم أن المراد بالمتاع ههنا فيه قولان:

أنه هو المتعة فظاهر هذه الآية يقتضى وجوب هذه المتعة لكل المطلقات.. والقول الثانى أن المراد بهذه المتعة النفقة، والنفقة قد تسمى متاعا، وإذا حملنا هذا المتاع على النفقة اندفع التكرار فكان ذلك أولى^(٢).

ويظهر أن مراد الفخر الرازي بقوله: «اندفع التكرار» أى ما بين هذه الآية والآية التي سبقت وهى قوله - تعالى - : «ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين» ولك أن تقول: إنه لا تكرار مع إرادة المتعة التي ليست هى النفقة لأنه فى السابقة بين أنها حق للمرأة حين تطلق ولم يكن قد قدر لها مهر معين، وهنا ذكرت عقب آية الوفاة لدفع ما يتوهم من أن المتوفى عنها زوجها لها حق فى المتعة إذا لم يوص لها زوجها بالنفقة. ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات المتعلقة بأحكام الأسرة بقوله: «كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون».

أى: مثل هذا البيان الحكيم الواضح الذى بين الله لكم به الأحكام السابقة، يبين لكم جميع آياته وأحكامه التي أنتم فى حاجة إليها لكى تفهموا ما فيها وتعقلوه وتعملوا به فتنالوا السعادة فى الدنيا والآخرة.

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد بينت لنا فى أكثر من عشرين آية بعض الأحكام التي تتعلق بالأسرة وصيانتها وسعادتها بأسلوب مؤثر حكيم وبطريقة تهدى إلى أفضل الأخلاق، وأقوم العلاقات بين الأفراد والجماعات، وإن المتأمل فى هذه الآيات وما اشتملت عليه من توجيهات سامية ليوقن بأن هذا القرآن إنما هو من عند الله، الذى شرع لعباده ما فيه صلاحهم وسعادتهم.

وبعد هذا البيان الحكيم عن الأسرة وما يتعلق بها من زواج وطلاق وغير ذلك، ساق القرآن من القصص ما من شأنه أن يدعو إلى التذكر والاعتبار ومحرض على الجهاد فى سبيل الله،

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٩٧.

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ١ ص ١٧٢.

ويحمل المتأملين في توجيهاته على إقامة الأسرة على أقوى الدعائم، وأفضل المبادئ التي بها تنال الأمم عزتها وكرامتها وسعادتها. فقال - تعالى - :

﴿ أَلَمْ تَرَ

إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ

فَقَالَ لَهُمْ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى

النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾

وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾

مَنْ ذَا الَّذِي يُقرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ وَأَضعَافًا

كثيرةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصِطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

قال الألوسي : قوله - تعالى - : ﴿ ألم تر ﴾ هذه الكلمة قد تذكر لمن تقدم علمه فتكون للتعجب والتقرير والتذكير لمن علم بما يأتي - كالأخبار وأهل التواريخ - وقد تذكر لمن لا يكون كذلك فتكون لتعريفه وتعجيبه، وقد اشتهرت في ذلك حتى أجريت مجرى المثل في هذا الباب، بأن شبه من « لم ير » الشيء بحال من رآه في أنه لا ينبغي أن يخفى عليه وأنه ينبغي أن يتعجب منه، ثم أجرى الكلام معه كما يجري مع من رأى، قصدًا إلى المبالغة في شهرته وعراقته في التعجب. ثم قال : والرؤية إما بمعنى الإبصار مجازًا عن النظر، وفائدة التجوز الحث على الاعتبار، لأن النظر اختياري دون الإدراك الذي بعده. وإما بمعنى الإدراك القلبي متضمنًا معنى الوصول والانتهاء ولهذا تعدت - أي الرؤية - بلى في قوله : ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا... ﴾ (١).

والمعنى : قد علمت أيها الرسول الكريم أو أيها الإنسان العاقل - حال أولئك القوم الذين خرجوا من ديارهم التي ألفوها واستوطنوها، وهم أُلُوفٌ مؤلفة، وكثرة كاثرة، وما كان خروجهم إلا فرارًا وخوفًا من الموت الذي سيلاقونهم - إن عاجلاً أو آجلاً - .

ومن لم يعلم حالهم فيها نحن أولاء نعلمه بها ونحيطه بما جرى لهم عن طريق هذا الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

والمقصود من هذه الآية الكريمة حض الناس جميعاً على الاعتبار والاعتاظ وزجرهم عن الفرار من الموت هلعاً وجبناً، وتحريضهم على القتال في سبيل الله فقد قال - تعالى - بعد ذلك : ﴿وقاتلوا في سبيل الله . . ﴾ وإفهامهم أن الفرار من الموت لن يؤدي إلا إلى الوقوع فيه .

وقوله : ﴿وهم ألوف﴾ جملة حالية من الضمير في ﴿خرجوا﴾ و﴿ألوف﴾ جمع ألف . والتعبير بألوف يفيد أنهم كانوا كثيرى العدد، ومن شأن الكثرة أنها تدعو إلى الشجاعة ولكنهم مع هذه الكثرة قد استولى عليهم الجبن فخرجوا من ديارهم هرباً من الموت .

وقيل إن معنى ﴿وهم ألوف﴾ أنهم خرجوا مؤتلفى القلوب، ولم يخرجوا عن افتراق كان منهم، ولا عن تباغض حدث بينهم . وألوف على هذا القول جمع ألف مثل قاعد وقعود وشهود . قالوا : والوجه الأول أجدر بالاتباع لأن ورود الموت عليهم وهم كثرة عظيمه يفيد مزيد اعتبار بحالهم، ولأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة .

وقوله : ﴿حذر الموت﴾ أى خرجوا لحذر الموت وخشيته، فقوله : ﴿حذر﴾ منصوب على أنه مفعول لأجله . والجملة الكريمة تشير إلى أن خروجهم كان الباعث عليه الحرص على مطلق حياة ولو كانت حياة ذل ومهانة، وأنه لم يكن هناك سبب معقول يحملهم على هذا الخروج، ولذا كانت نتيجة ذلك أن عاقبهم الله - تعالى - بالموت الذى هربوا منه فقال :

﴿فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم﴾ أى : فقال لهم الله موتوا فماتوا ثم أحياهم بعد ذلك . فجملة ﴿ثم أحياهم﴾ معطوفة على مقدر يستدعيه المقام أى، فماتوا ثم أحياهم . وإنما حذف للدلالة على الاستغناء عن ذكره لاستحالة تخلف مراده - تعالى - عن إرادته .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى قوله : ﴿فقال لهم الله موتوا﴾ قلت : معناه فأماتهم وإنما جرى به على هذه الصورة للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحد بأمر الله ومشيئته، وتلك ميتة خارجة عن العادة، كأنهم أمروا بشيء فامتثلوه امتثالاً من غير إباء ولا توقف كقوله - تعالى - : ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ وهذا تشجيع للمسلمين على الجهاد والتعرض للشهادة، وأن الموت إذا لم يكن منه بد، ولم ينفع منه مفر، فأولى أن يكون في سبيل الله»^(١) .

وقال الجمل : «فإن قلت هذا يقتضى أن هؤلاء ماتوا مرتين وهو مناف للمعروف من أن

(١) تفسير الكشاف ج١ صفحة ٢٩٠ .

موت الخلق مرة واحدة؟ قلنا في الجواب: لا منافاة إذ الموت هنا عقوبة مع بقاء الأجل كما في قوله في قصة موسى: ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾ و ثم موت بانتهاء الأجل، وتلخيصه: أنه - سبحانه - أماتهم قبل آجالهم عقوبة لهم ثم بعثهم إلى بقية آجالهم، وميته العقوبة بعدها حياة - أى في الدنيا - بخلاف ميتة الأجل - فلا حياة بعدها في الدنيا - ..»^(١).

وبعد هذا البيان لمعنى الآية قد يقال: من هم أولئك القوم الذين خرجوا من ديارهم فراراً من الموت؟ وهل الإمامة والإحياء بالنسبة لهم كانا على سبيل الحقيقة؟

للإجابة على السؤال الأول نقول: لم يرد حديث صحيح عن رسول الله ﷺ يبين لنا فيه من هؤلاء القوم وفي أى زمن كانوا، وإنما أورد بعض المفسرين عن بعض الصحابة والتابعين روايات فيها مقال، وفيها تفصيلات نرى من الخير عدم ذكرها لضعفها. ومن هذه الروايات ما جاء عن ابن عباس أنه قال: كانوا أربعة آلاف خرجوا فراراً من الطاعون، حتى إذا كانوا بموضع كذا أو كذا ماتوا.. ثم أحياهم الله بدعوة دعاها نبيهم^(٢).

ومنها أنهم - قوم من بنى إسرائيل - فروا من الجهاد حين أمرهم الله به على لسان نبيهم «حزقيل» وخافوا من الموت في الجهاد فخرجوا من ديارهم فأماهم الله ليعرفهم أنه لا ينجيهم من الموت شيء، ثم أحياهم وأمرهم بالجهاد..».

قال القرطبي بعد أن ساق هذه الرواية: وقال ابن عطية: وهذا القصص كله لين الأسانيد، وإنما اللازم من الآية أن الله - تعالى - أخبر نبيه محمداً ﷺ إخباراً في عبارة التنبيه والتوقيف عن قوم من البشر خرجوا من ديارهم فراراً من الموت فأماهم الله ثم أحياهم ليرواهم وكل من جاء من بعدهم أن الإمامة إنما هي بيد الله لا بيد غيره، فلا معنى لخوف خائف ولا لاغترار مغتر. وجعل الله هذه الآية مقدمة بين يدي أمر المؤمنين من أمة محمد ﷺ بالجهاد. وهذا قول الطبري وهو ظاهر وصف الآية^(٣) والذي نراه أن الرواية الثانية التي تقول: إنهم قوم من بنى إسرائيل فروا من الجهاد حين أمرهم الله به.. معقولة المعنى، ويؤيدها سياق الآيات، لأن الآيات تحض الناس على القتال في سبيل الله، وتسوق لهم قصة هؤلاء القوم لكي يعتبروا ويتعظوا ولا يتخلفوا عن الجهاد الذي هو باب من أبواب الجنة - كما قال الإمام على بن أبي طالب - ولأن قوله - تعالى -: ﴿وهم ألوف﴾ يشعر بأنهم مع كثرة عددهم قد نكصوا على أعقابهم، وفروا من وجوه أعدائهم وهذا شأن بنى إسرائيل في كثير من أدوار تاريخهم وما قاله ابن عطية يشير إليها فهو

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ صفحة ١٩٧. بتصرف يسير.

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ صفحة ٢٩٨ بتلخيص.

(٣) تفسير القرطبي ج ٢ صفحة ٢٣٩.

يقول: وجعل الله هذه الآية مقدمة بين يدي أمر المؤمنين... بالجهاد. إلا أنه أثر وصفهم بأنهم قوم من البشر.

وللإجابة على السؤال الثاني وهو - هل الإمامة والإحياء بالنسبة لهم كانا على سبيل الحقيقة - نقول: مبلغ علمنا أن المفسرين السابقين مجمعون على أن الموت كان موتاً حقيقياً حسياً لهم، وأن إعادتهم إلى الحياة بعد ذلك كانت إعادة حقيقية حسية.

وقد خالف الأستاذ الإمام محمد عبده إجماع المفسرين هذا فرأى أن المراد بالموت في الآية الموت المعنوي بمعنى أن موت الأمم إنما هو في جنبها وذلتها وأن حياتها إنما تكون في عزتها وحريتها، فقد قال - رحمه الله - ما ملخصه.

«... والمتبادر من السياق أن أولئك القوم خرجوا من ديارهم بسائق الخوف من عدو مهاجم لا من قتلهم، فقد كانوا ألوفاً أى كثيرين، وإنما هو الحذر من الموت الذي يولده الجبن في أنفس الجبناء، فيريهم أن الفرار من القتال هو الواقى من الموت وما هو إلا سبب الموت بما يمكن الأعداء من رقاب أهله، قال أبو الطيب:

يرى الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللئيم

ثم قال: لقد خرجوا فارين ﴿فقال لهم الله موتوا﴾ أى أماتهم بإمكان العدو منهم... فمعنى أولئك القوم هو أن العدو نكل بهم فأفنى قوتهم وأزال استقلال أمتهم حتى صارت لا تعد أمة، بأن تفرق شملها، وذهبت جامعتها، فكل من بقى من أفرادها بقى خاضعاً للغالبين ضائعاً فيهم، لا وجود له في نفسه، وإنما وجوده تابع لوجود غيره.

ومعنى حياتهم هو عود الاستقلال إليهم، ذلك أن من رحمة الله في البلاء يصيب الناس أنه يكون تأديباً لهم، ومطهراً لنفوسهم مما عرض لها من دنس الأخلاق الذميمة. أشعر الله أولئك القوم بسوء عاقبة الخوف والجبن والفسل والتخاذل بما أذاقهم من مرارتها، فجمعوا كلمتهم، ووثقوا رابطتهم، حتى عادت لهم وحدتهم، فاعتزوا وكثروا حتى خرجوا من ذل العبودية التي كانوا فيها إلى عز الاستقلال فهذا معنى حياة الأمم وموتها^(١).

فأنت ترى أن الأستاذ الإمام يرى أن الموت والحياة في الآية معنويان، بمعنى أن موت الأمم في جنبها وذلتها، وحياتها في استقلالها وحريتها.

ولعله - رحمه الله - قد اتجه هذا الاتجاه لأن الحض على القتال في سبيل الله واضح في هذه الآيات، ولأنه يرى أن واقع العالم الإسلامي يومئذ وما أصابه من ظلم واستبداد واستلاب

(١) راجع تفسير المنار ج ٢ ص ٤٥٧ وما بعدها.

للحرية يدعوه إلى أن يجرّض المسلمين على القتال في سبيل حقهم المسلوب، وأن يجرّدهم من سوء عاقبة الجبن والخنوع.

ومع أننا لا نشك في الدوافع الطيبة والبواعث الكريمة التي جعلت الأستاذ الإمام يتجه هذا الاتجاه، إلا أننا لا نتردد في اختيار ما ذهب إليه المفسرون من أن الموت والحياة في الآية حسيان حقيقيان، لأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة، ولأنه يتجه اتجاهًا أعم من اتجاه الإمام محمد عبده، لأن المفسرين يرون أن الآية واضحة في إثبات قدرة الله وفي صحة البعث، وفي الحض على القتال في سبيل الله.

قال بعض العلماء: قوله - تعالى - : ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا﴾ الآية. كان المشركون يستفتون اليهود في كثير من الأمور وكانت هذه القصة معلومة لليهود في أسفارهم وتواريخهم، فنزل القرآن بالإشارة إليها ليرتدع المشركون عما هم فيه من الضلال وإنكار البعث، ويعلموا أن دلائل القدرة على البعث مشهورة، وأن عند اليهود منها ما لورجوا إليهم فيه لعلموا أنه حق لا ريب فيه. وفي ذكر هذه القصة مع ذلك تشجيع للمؤمنين على الجهاد والتعرض للشهادة، وتمهيد لما بعد هذه الآية^(١).

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ أي: إن الله - تعالى - لصاحب تفضل دائم على الناس حيث أوجدهم بهذه الصورة الحسنة، وخلق لهم عقولا ليهتدوا بها إلى طريق الخير، وسخر لهم الكثير مما في هذا الكون. فمن الواجب عليهم أن يشكروه وأن يطيعوه، ولكن الذي حدث منهم أن أكثرهم لا يشكرون الله - تعالى - على ما منحهم من نعم.

وفي قوله: ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ إنصاف للقلة الشاكرة منهم، ومدح لهم على استقامتهم وقوة إيمانهم.

ثم أمر الله - تعالى - عباده بالجهاد في سبيله فقال: ﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴾.

والسبيل: الطريق. وسميت المجاهدة سبيلا إلى الله لأن الإنسان يسلكها فيصل إلى ما يرضى الله، ويعلى كلمته. ويعز دينه.

أي، قاتلوا أيها المسلمون في سبيل إعلاء كلمة الله، والدفاع عن دينه، واعلموا أنه - سبحانه - عليم بكل أقوالكم صالحها وطالحها، عليم بكل ما يدور في نفوسكم وخواتمكم،

(١) صفوة البيان لمعان القرآن ص ٨٠ لفضيلة الشيخ حسين محمد مخلوف.

وسيجازى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

فالأية الكريمة تحريض للمؤمنين على القتال من أجل إظهار الدين الحق، وتحذير لهم من القعود عنه، وحث لهم على صدق النية وإخلاص العمل لله، فقد سئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاقل حمية، ويقاقل رياء، أى ذلك فى سبيل الله؟ فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله»^(١).

ثم أمر الله - تعالى - عباده بأن ينفقوا أموالهم فى الأعمال الصالحة التى من أعظمها الجهاد فى سبيله فقال - تعالى - : ﴿من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾ . قال القرطبى : «القرض : اسم لكل ما يلتمس عليه الجزاء . وأقرض فلان فلاناً أى أعطاه ما يتجزاه . واستقرضت من فلان أى طلبت منه القرض فأقرضنى . واقرضت منه أى أخذت القرض . وأصل الكلمة القطع ومنه المقرض . وأقرضته أى قطعت له من مالى قطعة يجازى عليها . . . ثم قال : والتعبير بالقرض فى هذه الآية إنما هو تأنيس وتقريب للناس بما يفهمونه ، والله هو الغنى الحميد ، لكنه - تعالى - شبه عطاء المؤمن فى الدنيا بما يرجو به ثوابه فى الآخرة بالقرض كما شبه إعطاء النفوس والأموال فى أخذ الجنة بالبيع والشراء . . .»^(٢).

والمعنى : من هذا المؤمن القوى الإيمان الذى يقدم ماله فى الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله ، وفى غير ذلك من وجوه الخير كعمارة المحتاجين ، وسد حاجة البائسين ، ومساعدة الأمة الإسلامية بما يفيدها ويعلى من شأنها ، ﴿فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾ أى : فيرد الله - تعالى - إلى هذا الباذل المعطى المقرض بدل ما أعطى وبذل وأقرض أمثالا كثيرة لا يعلم مقدارها إلا الله أكرم الأكرمين . إذ المضاعفة معناها إعطاء الشخص أضعاف أى أمثال ما أعطى وبذل . والاستفهام فى قوله : ﴿من ذا الذى يقرض الله . . .﴾ للحض على البذل والعطاء ، وللتهييج على الاتصاف بالصفات الكريمة ، حتى لكان المستفهم لا يدري من هو الأهل لهذه الصفات ويريد أن يعرف من هو أهل لها .

و﴿من﴾ اسم استفهام مبتدأ ، و﴿ذا﴾ اسم إشارة خبره ، والذى وصلته صفة لاسم الإشارة أو بدل منه .

وقوله : ﴿قرضاً حسناً﴾ حث للناس على إخلاص النية ، وتحرى الحلال فيما ينفقون ، لأن الإنسان إذا تصدق بمال حرام ، أو قصد بنفقته الرياء أو المباهاة لا يكون عمله متقبلاً عند الله ،

(١) تفسير القرطبى جـ ٣ ص ٢٣٩ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ٣ صفحة ٢٣٩ .

وإنما يتقبل الله العمل ويضاعفه لمن قصد به وجهه، وكان المتصدق به مالا حلالا خالصا من الشبهات. فالله - تعالى - طيب لا يقبل إلا ما كان طيبا.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾.

القبض: ضد البسط. يقال: قبضه بيده يقبضه أى تناوله. وقبض عليه بيده أى أمسكه. ويقال لإمساك اليد عن البذل قبض ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ويقبضون أيديهم﴾ أى يمتنعون عن الإنفاق.

والبسط معناه المد والتوسعة. يقال بسط يده أى: مدها. وبسط المكان القوم. وسعهم. والمعنى: والله - تعالى - بيده الإعطاء والمنع فهو يسلب تارة ويعطى أخرى، أو يسلب قوما ويعطى آخرين، أو يضيق على بعض ويوسع على بعض حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكمة والمصلحة، وما دام الأمر كذلك فلا تبخلوا بما وسع عليكم كيلا تتبدل أحوالكم من الغنى إلى الفقر، ومن السعة إلى الضيق. وأنتم جميعا سترجعون إليه وحده، وسيجازى - سبحانه - الأسخياء بما يستحقون من كريم الثواب والبخلاء بما هم أهلهم من شديد العقاب. فأنت ترى أن في هذه الآية الكريمة ألوان من الحظ على الإنفاق في وجوه الخير ومن ذلك التعبير بالاستفهام، لأنه للتنبية وبعث النفوس إلى التدبر والاستجابة.

ومن ذلك - أيضا - التعبير بقوله: ﴿من ذا الذى..﴾ فقد جمع هذا التعبير بين اسم الإشارة والاسم الموصول في الاستفهام، ولا يستفهم بتلك الطريقة إلا إذا كان المقام ذا شأن وخطر، وكان المخاطب لعظم قدره من شأنه أن يشار إليه وأن يتحدث عنه ومن ذلك تسميته ما يبذل الباذل قرضا، ولمن هذا القرض إنه لله الذى بيده خزائن السموات والأرض والذى سيرد للباذل أضعاف ما بذل، فكأنه - سبحانه - يقول لنا: إن ما تدفعونه لن يضيع عليكم بل هو قرض منكم لى، وسأرده لكم بأضعاف ما دفعتم وأعطيتم. ومن ذلك إخفاء مرات المضاعفة ووصفها بالكثرة في قوله: ﴿فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾ أى لا يعلم مقدارها إلا الله.

ومن ذلك التعبير بقوله ﴿والله يقبض ويبسط﴾ لأنه مادام العطاء والمنع من الله فلماذا يبخل البخلاء ويقترو المقترون؟ إن على الغنى أن يستشعر نعمة الله عليه وأن يتحدث بها بدون رياء وأن ينفق منها في وجوه الخير حتى يزيد الله من فضله، وإلا ففى قدرة الله أن يسلبها منه، ويحاسبه على بخله حسابا عسيراً.

هذه بعض وجوه المبالغة التى اشتملت عليها الآية لحض الناس على الإنفاق في الجهاد وفي

وجوه الخير، ولقد استجاب السلف الصالح لهذه التوجيهات، وحكى لنا التاريخ أمثلة كريمة من سخائهم وبذلهم.

ومن خير الأمثلة على ذلك ما جاء عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا﴾ قال أبو الدحداح: يارسول الله أو إن الله - تعالى - يريد منا القرض؟ «قال نعم يا أبا الدحداح» قال أرفى يدك. فنأوله النبي ﷺ يده. فقال أبو الدحداح: فإني أقرضت الله - تعالى - حائطًا فيه ستمائة نخلة. ثم جاء يمشى حتى أتى الحائط وأم الدحداح فيه وعياله، فناداها: يا أم الدحداح، قالت: لبيك قال: أخرجني قد أقرضت رب حائطًا فيه ستمائة نخلة»^(١).

وفي رواية لزيد بن اسلم أن أبا الدحداح قال للنبي ﷺ إن لي حديقتين إحداهما بالسافلة والأخرى بالعالية والله لا أملك غيرها قد جعلتها قرضًا لله - تعالى - فقال رسول الله ﷺ «اجعل إحداهما والأخرى دعها معيشة لك ولعيالك» قال: فأشهدك يارسول أنى قد جعلت خيرهما لله وهو حائط فيه ستمائة نخلة. قال: «إذا يجزيك الله به الجنة، ثم انطلق أبو الدحداح إلى زوجته وهى مع صبياتها فى الحديثة تدور تحت النخل فأخبرها بما فعل. فأقبلت على صبياتها تخرج ما فى أفواههم وتنفض ما فى أكمامهم حتى أفضت إلى الحائط الآخر»^(٢).

وبهذا نرى السلف الصالح قد أمثل ما أمره الله به من إنفاق فى سبيله ومن جهاد لإعلاء كلمته فهل أن الأوان للمسلمين أن ينهجوا نهجهم لكى يسعدوا كما سعدوا، وينالوا أشرف حياة وأعزها؟ اللهم خذ بيدنا إلى ما يرضيك.

ثم ساق القرآن قصة من قصص بنى إسرائيل مع أنبيائهم، فيها العظات والعبر، وملخص هذه القصة: أن قوما من بنى إسرائيل كانوا قد انهزموا أمام أعدائهم هزيمة منكرة جعلتهم يولون الأدبار تاركين ديارهم وأبناءهم، فقالوا لنبي لهم بعد أن ذاقوا مرارة الهزيمة: أبعث لنا ملكا يقودنا للقتال فى سبيل الله، فقال لهم نبيهم بعد أن حذرهم من عاقبة الجبن والكذب: ﴿إن الله قد بعث لكم طالوت ملكًا﴾ فاعترضوا على هذا الاختيار، ونقصوا من شأن من اختاره الله قائدا لهم، ولكن نبيهم ساق لهم من الحجج التى تدل على صلاحية طالوت لهذا المنصب ما أخرس ألسنتهم.. ثم سار طالوت بجنوده لقتال أعدائه، وفى الطريق قال لمن معه ﴿إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم﴾ ثم بعد هذه المخالفة جبن أكثرهم عن قتال أعدائهم وقالوا

(١) تفسير ابن كثير ج١ صفحة ٢٩٩.

(٢) تفسير القرطبي ج٣ صفحة ٢٣٧.

﴿لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾ ولكن الفئة القليلة المؤمنة منهم استطاعت أن تنتصر على كل عقبة في طريقها، وأن تقاتل أعداءها بشجاعة وصبر واعتماد على الله، فكانت النتيجة أن انتصرت الفئة القليلة المؤمنة بقيادة طالوت على الفئة الكثيرة الكافرة بقيادة جالوت. هذا تلخيص لتلك القصة العامرة بالعظات، ولعل من الخير قبل أن نبدأ في تفسير آياتها أن نقرأها بتدبر وتأمل كما صورها القرآن بأسلوبه البليغ المؤثر.

قال - تعالى - :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلِإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهْمُ أَرْبَعٌ لَنَا مَلِكٌ أَنْقُتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنْتَى يَكُونُ لَهُ الْمَلِكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمَلِكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾

وقوله - تعالى - : ﴿ألم تر إلى الملائ من بنى إسرائيل من بعد موسى﴾ إلخ استئناف ثان بعد قوله قبل ذلك : ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم﴾ وقد سبق هذا الاستئناف مساق الاستدلال لقوله - تعالى - : ﴿وقاتلوا في سبيل الله﴾ حتى تشجع النفوس على الجهاد، وتهون عليها المصاعب في سبيل حياة العزة والكرامة.

و﴿الملائ﴾ الأشراف من الناس. وهو اسم للجماعة لا واحد له من لفظه. وإنما سمي الأشراف بذلك لأن هيبتهم تملأ الصدور، أو لأنهم يتماثلون أى يتعاونون في شئونهم. وأصل الباب الاجتماع بما لا يحتمل المزيد.

والمعنى : كما سبق أن بينا في قوله : ﴿لم تر إلى الذين خرجوا﴾ . قد علمت أيها العاقل حال أولئك القوم من بنى إسرائيل الذين كانوا بعد وفاة موسى - عليه السلام - إذ قالوا لنبي لهم أقم لنا أميراً لكي نقاتل معه في سبيل الله . ومن لم يعلم فما نحن أولاء نعلمه بحاهم فعليه أن يعتبر ويتعظ .

فقوله : ﴿من بعد موسى﴾ بيان للزمن الذى كان يعيش فيه أولئك الملائ من بنى إسرائيل والمراد بالنبي الذى قالوا له ﴿ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله﴾ على الراجح - «شمويل بن حنة» وكان السبب في طلبهم هذا من نبيهم أن العمالقة أتباع جالوت كانوا قد أخرجوهم من ديارهم، وأنزلوا بهم هزائم شديدة، فطلبوا منه ذلك لكي يستردوا مجدهم الضائع، وعزهم المسلوب، على يد هذا القائد المختار من جهة نبيهم .

وفي الإتيان بلفظ هذا النبي بصيغة التذكير إشارة إلى أن محل العبرة ليس هو شخص النبي وإنما المقصود معرفة حال أولئك القوم، وما جرى لهم مع نبيهم من أحداث من شأنها أن تدعو إلى الاعتبار والاتعاظ . وهذه طريقة القرآن في سرد القصص لا يهتم بالأشخاص والأزمان إلا بالقدر الذى يستدعيه المقام . أما الاهتمام الأكبر فيجعله لما اشتملت عليه القصة من وجوه العظات والعبر .

ويبدو أنه كان يتوجس منهم خيفة لأنه أعرف بطبيعتهم، فنراه يقول لهم كما حكى القرآن عنه : ﴿قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا﴾ .

فلاستفهام للتقرير والتحذير . أى إني أتوقع عدم قتالكم إذا فرض عليكم القتال، فراجعوا أنفسكم وقوتكم قبل أن تطلبوا هذا الطلب، لأنه إذا فرض عليكم ثم نكصتم على أعقابكم فإن عاقبتكم ستكون شراً لا شك في ذلك .

وعسى هنا بمعنى التوقع والمقاربة، والجملة استئناف بياني .

قال صاحب الكشاف؛ والمعنى : هل قاربتم ألا تقاتلوا؟ يعنى هل الأمر كما أتوقعه أنكم لا تقاتلون؟ أراد أن يقول : عسيتم ألا تقاتلوا بمعنى أتوقع جبنكم عن القتال فأدخل ﴿هل﴾ مستفهما عما هو متوقع عنده ومظنون وأراد بالاستفهام التقرير وتثبيت أن المتوقع كائن وأنه

صائب في توقعه. وخبر ﴿عسيتم﴾: «ألا تقاتلوا» والشرط فاصل بينهما^(١).
ثم حكى القرآن ردهم على نبيهم فقال: ﴿قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾.

أى قال الملا من بنى إسرائيل على سبيل الإنكار والتعجب مما قاله نبيهم: وأى صارف يصرفنا عن القتال وحالنا كما ترى؟ إننا قد أخرجنا من ديارنا وحيل بيننا وبين أبنائنا وفلذات قلوبنا فكيف لا نقاتل مع أن الدواعى موجودة، والبواعث متوفرة، والأسباب مهيئة؟ فأنت تراهم في إجابتهم هذه يستنكرون ما توقعه نبيهم منهم، ويجزمون بأن الطريق الوحيد لعزتهم إنما هو القتال وأن هذا الأمر لا مراجعة فيه ولا جدال. وهكذا شأن الجبناء والمغرورين في كل زمان ومكان يرحبون بالمعارك قبل قدموها فإذا ما جد الجد كذبت أعمالهم أقوالهم، وأعطوا أدبارهم لأعدائهم!

ثم حكى القرآن أن نبيهم كان صادقاً فيما توقعه منهم من جبن وكذب، وأنهم قوم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم فقال - تعالى - : ﴿فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم﴾.
أى: فحين فرض عليهم القتال بعد أن الحوا في طلبه، أعرضوا عنه، ونفروا منه إلا عددًا قليلاً منهم فإنه ثبت على الحق، ووفى بعهده.

قال الألوسى: وقوله ﴿إلا قليلاً منهم﴾ وهم الذين جاوزوا النهر وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر عدة أهل بدر على ما أخرجه البخارى عن البراء - رضى الله عنه - والقلة إضافية فلا يرد وصف هذا العدد أحياناً بأنه جم غفير^(٢).

ثم ختم الله - تعالى - الآية بقوله: ﴿والله عليهم بالظالمين﴾ لإفادة الوعيد الشديد لهؤلاء الذين نقضوا عهودهم، ونكصوا عن القتال عندما فرض عليهم، ولكل من يفعل فعلهم، وسار على طريقهم.

أى: والله - تعالى - عليهم بالظالمين الذين يظلمون أنفسهم وأمتهم بترك الجهاد، وبترك ما أمرهم الله به بعد أن عاهدوه على عدم الترك.

ثم بين القرآن ما أخبرهم به نبيهم ليحملهم على الطاعة والامتثال فقال - تعالى - : ﴿وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً﴾.

أى وقال لهم بعد أن أوحى إليه بما يوحى: إن الله - تعالى - وهو العليم الخبير بأحوال عباده

(١) تفسير الكشاف ج ١ صفحة ٢٩١.

(٢) تفسير الألوسى ج ٢ صفحة ١٦٦.

قد بعث لكم ومن أجل مصلحتكم طالوت ليكون ملكاً عليكم، وقائداً لكم في قتالكم لأعدائكم، فأطيعوه واتبعوا ما يأمركم به.

و﴿طالوت﴾ اسم أعجمي قيل هو المسمى في التوراة باسم «شاول» وقيل إن هذا الاسم لقب له من الطول كملكوت من الملك، لأن طالوت كان طويلًا جسيماً.

ولقد كان الذي يقتضيه العقل أن يطيعوا أمر نبيهم، ولكنهم لجوا في جدالهم وطغيانهم وقالوا لنبيهم معترضين على من اختاره الله قائداً لهم. ﴿أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال﴾.

﴿أنى﴾ أداة استفهام بمعنى كيف، والاستفهام هنا للتعجب من جعل طالوت ملكاً عليهم. أى قالوا لنبيهم منكرين ومتعجبين من اختيار طالوت ملكاً عليهم: كيف يكون له الملك علينا والحال أننا أحق بالملك منه لأننا أشرف منه نسباً، إذ منا من هو نسل الملوك أما طالوت فليس من نسلهم، فضلاً عن ذلك فهو لا يملك من المال ما يملكه بعضنا فكيف يكون هذا الشخص ملكاً علينا؟

فأنت تراهم لانعدام المقاييس الصحيحة عندهم ظنوا أن المؤهلات الحقيقية لاستحقاق الملك والقيادة إنما تكون بالنسب وكثرة المال أما الكفاءة العقلية، والقوة البدنية، والقدرة الشخصية فلا قيمة لها عندهم لانطماس بصيرتهم، وسوء تفكيرهم.

قال بعضهم: «وسبب هذا الاستبعاد أن النبوة كانت مخصوصة بسبط معين من أسباط بني إسرائيل وهو سبط لاوى بن يعقوب، وسبط المملكة بسبط يهوذا، ولم يكن طالوت من أحد هذين السبطين بل من ولد بنيامين. والواو في قوله: ﴿ونحن أحق﴾ للحال، والواو الثانية في قوله: ﴿ولم يؤت﴾ عاطفة جامعة للجملتين في الحكم^(١).

ثم حكى القرآن مارد به نبيهم عليهم فقال: ﴿قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم، والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم﴾.

أى قال لهم نبيهم مدللاً على أحقية طالوت بالقيادة: إن الله - تعالى - ﴿اصطفاه عليكم﴾ أى اختاره وفضله عليكم واختياره يجب أن يقابل بالإذعان والتسليم. وثانياً: ﴿وزاده بسطة في العلم﴾ أى أن الله - تعالى - منحه سعة في العلم والمعرفة والعقل والإحكام في التفكير المستقيم لم يمنحها لكم، وثالثاً: في ﴿الجسم﴾ بأن أعطاه جسماً قوياً ضخماً مهيباً. وهذه الصفات ما وجدت في شخص إلا وكان أهلاً للقيادة والريادة وفضلاً عن كل ذلك فمالك الملك هو الذى

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ٢٠١.

اختاره فكيف تعترضون يامن تدعون أنكم تريدون القتال في سبيل الله؟ لذا نراه - سبحانه - يضيف الملك الحقيقي إليه فيقول: ﴿والله يؤق ملكه من يشاء﴾ أى: يعطى ملكه لمن يشاء من عباده لحكمة يعلمها. فلا يجوز لأحد أن يعترض على اختياره، والله واسع الفضل والعطاء. «عليم».

ثم حكى القرآن أن نبهم لم يكتف بهذه الدلائل الدالة على صلاحية طالوت للقيادة، وإنما ساق لهم بعد ذلك من العلامات التى تشهد بحقيقته بهذا المنصب ما ثبت قلوبهم، ويزيل شكهم ويشرح نفوسهم فقال - تعالى -:

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ
التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا
تَرَكَ آءَالُ مُوسَىٰ وَعَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾
فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ
بِنَهْرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ
مِنِّي إِلَّا مَنْ أَغْرَقَ عُرقَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا
مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا
لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ
يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلتَقُوا اللَّهَ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ
غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّٰدِقِينَ ﴿٢٤٩﴾

التابوت: يوزن فعلوت - من التوب وهو الرجوع، وتاؤه مزيدة لغير التائيت كجبروت، والمراد به صندوق التوراة وكانوا إذا حاربوا حمله جماعة منهم ويتقدمون به أمام الجيش فيكون

ذلك سبب نصرهم . وكان عهدهم به قد طال فذكرهم بمآثره ترغيباً فيه وحللاً على الانقياد لطالوت^(١) .

والسكينة : من السكون وهو ثبوت الشيء بعد التحرك : أو من السكن - بالتحريك - وهو كل شيء سكنت إليه النفس وهدأت .

والمعنى : وقال لهم نبيهم ليقنعهم بأن طالوت جدير بالملك ﴿إن آية ملكه﴾ أى علامة ملكه وأنه من الله - تعالى - ﴿أن يأتيكم التابوت﴾ أى أن يرد عليكم التابوت الذى سلب منكم ﴿فيه سكينة من ربكم﴾ أى فى إتيانه سكون لنفوسكم وطمأنينة لها أو مودع فيه ما تسكنون إليه وهو التوراة (وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون) من آثار تعتزون بها، وترون فيها صلة بين ماضيكم وحاضرهم وقوله ﴿تحمله الملائكة﴾ حال من التابوت .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون﴾ هى رضاض الألواح وعصا موسى وثيابه وشيء من التوراة . وكان رفعه الله - تعالى - بعد موسى - عليه السلام - فنزلت به الملائكة تحمله وهم ينظرون إليه ، فكان ذلك آية لاصطفائه لطالوت . فإن قلت : من هم (آل موسى وآل هارون) . قلت : الأنبياء من بنى يعقوب بعدهما ، ويجوز أن يراد مما تركه موسى وهارون والآل مقحم لتفخيم شأنها^(٢) .

وقال ابن كثير : قال ابن عباس : جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعت بين يدي طالوت والناس ينظرون^(٣) .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾ أى : إن فى ذلك الذى أتاكم به طالوت لآية عظيمة وعلامة ظاهرة لكم تدل على أحقية طالوت بالملك والقيادة إن كنتم مؤمنين بآيات الله وبالحق الذى جاء به أنبيأؤه .

وبذلك نرى أن القرآن الكريم قد حكى لنا أن هؤلاء القوم من بنى إسرائيل قد جاءهم نبيهم بأنضع الحجج ، وأوضح الأدلة ، وأثبت البراهين التى تؤيده فيما يدعوهم إليه . ثم بين - سبحانه - ما دار بين طالوت وجنوده فقال : ﴿فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر﴾ .

﴿فصل﴾ بمعنى الفصل . قال الزمخشري : فصل عن موضع كذا : إذا انفصل عنه وجاوزه .

(١) تفسير القاسمى ج ١ ص ٦٤٦ .

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٩٣ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٠١ .

وأصله فصل نفسه. ثم كثر: حذف المفعول حتى صار في حكم غير المتعدى كأنفصل. وقيل: فصل عن البلد فصولاً. ويجوز أن يكون فصله فصلاً، وفصل فصولاً كوقف وصد ونحوهما. والمعنى انفصل عن بلده»^(١).

و(النهر) بالفتح والسكون - : المجرى الواسع الذي يجري فيه الماء مأخوذ من نهر الأرض بمعنى شقها.

أى: فلما انفصل بهم عن المكان الذي كانوا يقيمون فيه، وتوجهوا معه لقتال جالوت وجنوده، قال لهم ﴿إن الله مبتليكم بنهر﴾ أى مختبركم وممتحنكم بنهر، وكان طالوت قد سار بهم في أرض قفرة فأصابهم عطش شديد. وفي هذا الابتلاء اختبار لعزيمتهم، وامتحان لصبرهم على المتاعب حتى يتميز من يصير على الحرب ممن لا يصير، ومن شأن القواد الأقوياء العقلاء أنهم يختبرون جنودهم قبل اقتحام المعارك حتى يكونوا على بينة من أمرهم. ثم بين لهم موضع الاختبار فقال: ﴿فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده﴾.

﴿يطعمه﴾ أى يذقه من طعام الشيء يطعمه إذا ذاقه مأكولاً أو مشروباً.

﴿الغرفة﴾ - بالضم - اسم للشيء المغترف وجمعه غراف. وأما الغرفة - بالفتح - فهى اسم للمرة الواحدة من الغرف وقيل: هما لغتان بمعنى واحد.

أى قال لهم طالوت: من شرب من هذا النهر فليس من شيعتى، فعليه أن يتركنى ولا يصاحبنى فى خوض هذه المعركة لأنه ثبت ضعفه وخوره، ومن لم يذقه أصلاً فإنه من شيعتى وحزبى الذى سيكون معى فى هذه المعركة الخطيرة. ثم أباح لهم أن يغترفوا من النهر غرفة يخففون بها من عطشهم فقال: ﴿إلا من اغترف غرفة بيده﴾ فإنه لا يخرج بذلك عن كونه منى.

وفى هذه الجملة الكريمة قدم - سبحانه - جواب الشرط على الاستثناء من الشرط فقد قال ﴿ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده﴾ والتأليف المعهود للناس أن يقال: (ومن لم يطعمه إلا من اغترف بيده فإنه منى) ولكن الآية الكريمة جاءت بتقديم الجواب على الاستثناء لحكمة بليغة، وهى المسارعة إلى بيان الحكم، وإثبات أن أساس الصلة التى تربطهم بنبيهم أن يمثلوا أمره وألا يشربوا من النهر، ثم رخص لهم بعد ذلك فى الاغتراف باليد غرفة واحدة.

وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذا المعنى فقال: فإن قلت: مم استثنى قوله ﴿إلا من اغترف﴾؟ قلت: من قوله: ﴿فمن شرب منه فليس منى﴾ والجملة الثانية فى حكم المتأخرة إلا

أنها قدمت للعناية.. ومعناه: الرخصة في اغتراف الغرفة باليد دون الكروع^(١).

ثم ختم - سبحانه - ما كان من بنى إسرائيل نتيجة لهذا الامتحان فقال: ﴿فشربوا منه إلا قليلاً منهم﴾.

أى: فشربوا من النهر حتى امتلأت بطونهم مخالفين بذلك أمر قائدهم في وقت تعظم فيه المخالفة لأنه وقت إقدام على الحرب، إلا عددًا قليلاً منهم فإنهم لم يشربوا إلا كما رخص لهم قائدهم. وعلى هذا التفسير - الذى قال به جمهور المفسرين - يكون جميع الذين مع طالوت قد شربوا من النهر إلا أن كثيراً منهم قد شربوا حتى امتلأت بطونهم مخالفين أمر قائدهم، وقلة منهم شربت غرفة واحدة وهى التى رخص لهم قائدهم فى شربها.

وبعض المفسرين يقسم اتباع طالوت ثلاثة أقسام:

قسم شرب كثيراً مخالفاً أمر طالوت.

وقسم شرب غرفة واحدة بيده كما رخص له قائده.

وقسم لم يشرب أصلاً لا قليلاً ولا كثيراً مؤثراً العزيمة على الرخصة وهذا القسم هو الذى اعتمد عليه طالوت اعتماداً كبيراً فى تناوله لأعدائه.

ومن ذكر هذا التقسيم من المفسرين الإمام القرطبى فقد قال: «قال ابن عباس: شربوا على قدر يقينهم، فشرّب الكفار شرب الهيم^(٢)، وبقي بعض المؤمنين لم يشرب شيئاً، وأخذ بعضهم الغرفة، فأما من شرب فلم يرو بل برح به العطش، وأما من ترك الماء فحسنت حاله وكان أجلد ممن أخذ الغرفة»^(٣).

ثم بين - سبحانه - ما كان من أتباع طالوت بعد اجتيازهم للنهر معه فقال: ﴿فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقه لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾.

أى: فلما جاوز طالوت ومن معه النهر ونخطوه، وشاهدوا كثرة جند جالوت، قال بعض الذين مع طالوت لبعض بقلق ووجل: لا قدرة لنا اليوم على محاربة أعدائنا ومقاومتهم فهم أكثر منا عددًا، وأوفر عددًا.

والضمير ﴿هو﴾ فى قوله: ﴿هو والذين آمنوا معه﴾ مؤكّد للضمير المستكن فى جاوز. والقائلون، هذا القول هم بعض المؤمنين الذين عبروا معه النهر، ولم يقولوا ذلك هروباً أو

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٩٥.

(٢) الهيم: الإبل التى يصيبها داء فلا تروى من الماء واحدها هيم والأنثى هيءاء.

(٣) تفسير القرطبى ج ٣ صفحة ٢٥٤.

نكوصًا عن القتال، وإنما قالوه كمظهر من مظاهر الوجل الذى يعترى بعض النفوس عند الاستعداد للقتال، لأن الذين عصوا الله وخالفوا طالوت بشرهم من النهر جبنوا عن لقاء العدو ولم يسيروا معه لقتالهم. أما المؤمنون الصادقون الذين اتصلت قلوبهم بالله، والذين أذعنوا أنه لا نصر إلا منه ولا اعتماد إلا عليه، فقد حكى القرآن موقفهم المشرف فقال: ﴿قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾.

أى: قال الذين يتيقنون أنهم ملاقوا الله يوم القيامة فيحاسبهم على أعمالهم. قالوا مشجعين لإخوانهم الذين تهيئوا قتال أعدائهم: كم من جماعة قليلة بإيمانها وصبرها تغلبت بإذن الله وتيسره على جماعة كثيرة بسبب كفرها وجبنها وتفككها، والله - تعالى - بعونه وتأييده مع الصابرين.

وعلى هذا التفسير يكون المراد بلقاء الله الحشر إليه بعد الموت، ومجازاة الناس على ما قدموا من عمل، ويكون المراد بالظن اليقين لأن كل مؤمن متيقن بأن البعث حق.

ويجوز أن يكون المراد بلقاء الله قربهم من رضاه يوم القيامة، وإثابتهم على جهادهم بالجنة، وعليه يكون الظن على معناه الحقيقى وهو الاعتقاد الراجح، لأن خواتيم الحياة لا يعلمها كيف تكون سوى علام الغيوب.

و﴿كم﴾ فى قولهم ﴿كم من فئة﴾ خبرية للتكثير، وفى هذا التعبير الذى حكاه القرآن عنهم دليل على قوة إيمانهم وصفاء نفوسهم وثقتهم فى نصر الله ثقة لا تحد، لأنهم أتوا بصيغة التكثير حتى لكأنما أن القاعدة العامة هى انتصار الفئة القليلة على الفئة الكثيرة الكافرة.

وفى تعليقهم النصر على إذن الله للإشعار بأنهم لم يعتمدوا على قوتهم وثباتهم وشجاعتهم فحسب وإنما جعلوا اعتمادهم الأكبر على تأييد الله لهم. وهذا شأن العقلاء يبذلون أقصى جهدهم فى بلوغ غايتهم مستعينين على ذلك بتأييد الله وتوفيقه.

ورحم الله الإمام القرطبى الذى عاصر دولة الإسلام فى الأندلس وهى تسير فى طريق الضعف والتدهور فقد قال فى ختام تفسيره لهذه الآية: قلت: هكذا يجب علينا أن نفعل؟ لكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة، منعت من ذلك حتى انكسر العدد الكبير منا أمام اليسير من العدو وكما شاهدناه غير مرة، وذلك بما كسبت أيدينا! وفى البخارى: وقال أبو الدرداء: إنما تقاتلون بأعمالكم. وفى البخارى - أيضًا - أن النبى ﷺ قال: «هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم» فالأعمال فاسدة والضعفاء مهملون والصبر قليل، والاعتماد ضعيف، والتقوى زائلة!! قال - تعالى - : ﴿اصبروا وصابروا وربطوا وثاقوا الله﴾ وقال: ﴿وعلى الله فتولكوا﴾ وقال: ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ وقال: ﴿ولينصرن

الله من ينصره ﴿ وقال : ﴿ إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ . فهذه أسباب النصر وشروطه وهي معدومة عندنا غير موجودة فينا، فإننا لله وإنا إليه راجعون على ما أصابنا وحل بنا» (١).

ثم حكى القرآن بعد ذلك ما قاله المؤمنون الصادقون عندما برزوا للقاء أعدائهم فقال :

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ
 عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
 الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ
 دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ
 وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ
 بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهُ ذُو
 فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ
 نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

وقوله : ﴿ برزوا ﴾ أى صاروا إلى براز الأرض وهو ما انكشف منها بحيث يصير كل فريق من المتقاتلين يرى صاحبه، ومنه سميت المبارزة في الحرب لظهور كل قرن إلى قرنه . أى : وحين برز طالوت ومن معه لقتال جالوت وجنوده، وأصبح الفريقان في مكان متسع من الأرض بحيث يرى كل فريق خصمه اتجه المؤمنون إلى الله - تعالى - بالدعاء قائلين بإخلاص وخشوع :

﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً ﴾ أى : أفض علينا صبراً يعمنا، ويملاً قلوبنا ثقة بنصرك، ويحبس نفوسنا على طاعتك .

قال الإمام الرازى ما ملخصه، الإفراغ : الصب . يقال أفرغت الإناء إذا صببت ما فيه . وقولهم هذا يدل على المبالغة في طلب الصبر من وجهين :

أحدهما : أنه إذا صب الشيء في الشيء فقد أثبت فيه بحيث لا يزول عنه وهذا يدل على التأكيد .

والثاني : أن افراغ الإناء هو إخلاؤه وذلك يكون بصب كل ما فيه ، فمعنى أفرغ علينا صبرا ، أى أصيب علينا أتم صب وأبلغه - حتى تتحقق فينا صفة الصبر كأحسن ما يكون التحقق»^(١).

أما الدعوة الثانية فقد قالوا فيها - كما حكى القرآن عنهم - ﴿وثبت أقدامنا﴾ أى هب لنا من كمال القوة والرسوخ عند القتال ما يجعلنا نثبت أمام أعدائنا ، ونتمكن من رقابهم دون أن يتمكنوا منا . فهذا الدعاء كناية عن أن يمنحهم - سبحانه - الثبات عند الزحف ، وعدم الفرار عند القتال .

وفي قوله : ﴿وثبت أقدامنا﴾ تعبير بالجزء عن الكل ، لأن الأقدام هي التي يكون بها الفرار ، فتثبيتها إبعاد عن الفرار ، ومتى حصل الثبات كان النصر متوقعا ، والصبر متحققا .

ثم ختموا دعاءهم بأن قالوا : ﴿وانصرونا على القوم الكافرين﴾ أى اجعل الغلبة لنا عليهم ، لأننا مؤمنون بأنك المعبود المستحق للعبادة وهم يكفرون بذلك .

والمأمل في هذه الدعوات الثلاث يراها قد جمعت أسمى ألوان الأدب وحسن الترتيب ، فهم قد صدروا دعاءهم بالتوسل بوصف الربوبية فقالوا ﴿ربنا﴾ أى يا خالقنا ويا منشئنا ويا مربينا ويا مميثنا ، وفي ذلك إشعار أنهم يلجأون إلى من بيده وحده النفع والضرر ، والنصر والهزيمة . ثم افتتحوا دعاءهم بطلب الصبر عند المخاوف لأنه هو عدة القتال الأولى ، وركنه الأعلى ، إذ به يكون ضبط النفس فلا تفرع ، وبه يسكن القلب فلا يجزع . ثم التمسوا منه - سبحانه - أن يثبت أقدامهم عند اللقاء لأن هذا الثبات هو مظهر الصبر ، ووسيلة النصر ، وعنوان القوة .

ثم ختموا دعاءهم بما هو ثمرة ونتيجة للصبر والثبات وهو النصر على الأعداء . فماذا كانت نتيجة هذا الدعاء الخاشع الخالص ؟ كانت نتيجته النصر المؤزر الذي حكاه القرآن في قوله : ﴿فهزموهم بإذن الله﴾ .

وأصل الهزم في اللغة الكسر . ومنه سقاء منهزم أى انثنى بعضه على بعض مع الجفاف . ويقال للسحاب هزيم ، لأنه يتشقق بالمطر . والفاء هنا فصيحة أوسببية أى أنهم بسبب دعائهم المخلص ، وإيمانهم القوي ، واستجابتهم لما أمرهم الله به ، استطاعوا أن يكسروا أعداءهم

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٦ صفحة ١٩٩ .

ويهزمهم، وقوله: ﴿يَا ذن الله﴾ أى بتوفيقه وتيسيره وتأييده. والباء إما للاستعانة والسببية وإما للمصاحبة.

ثم قال - تعالى - : ﴿وقتل داود جالوت﴾ أى : وقتل داود بن إيشا - وكان فى جيش طالوت - جالوت الذى كان يقود جيش الكفر، وبقتله مزق أتباعه شر ممزق، ورزق الله طالوت ومن معه النصر والغلبة.

ثم بين - سبحانه - ما منحه لداود من نعم فقال : ﴿وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء﴾ والحكمة المراد بها هنا النبوة، ولم يجتمع الملك والنبوة لأحد قبله فى بنى إسرائيل، وورثه فيها ابنه سليمان - عليه السلام - .

أى : وأعطى الله - تعالى - عبده داود ملك بنى إسرائيل وأعطاه النبوة التى هى أشرف من الملك زيادة فى ترقيته فى درجات الشرف والكمال، وعلمه - سبحانه - مما يشاء من فنون العلم، ومن أمور الدين والدنيا كمعرفته لغة الطيور، وكلام الدواب، وصناعة آلات الحرب وغير ذلك من ألوان العلوم المختلفة التى لا تحدها إلا مشيئة الله وإرادته.

وفى قوله - تعالى - : ﴿وعلمه مما يشاء﴾ بعد الإخبار بأنه - سبحانه - آتى داود الحكمة، إشعار بأن الإنسان لا يستغنى عن التعلم سواء أكان نبيا أم لم يكن، لأن داود - عليه السلام - مع حصوله على النبوة لم يستغن عن تعليم الله إياه، وقد أمر الله - تعالى - نبيه محمداً ﷺ أن يلتمس المزيد من العلم فقال : ﴿وقل رب زدنى علماً﴾.

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله على عباده فقال : ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾.

أى : ولولا أن الله - تعالى - يدفع أهل الباطل بأهل الحق، لفسدت الأرض، وعمها الخراب لأن أهل الفساد إذا تركوا من غير أن يقاوموا استطارت شرورهم، وتغلبوا على أهل الصلاح والاستقامة، وتعطلت مصالح الناس، وانتشر الفساد فى الأرض.

فلولا فى الجملة الكريمة حرف امتناع لوجود. أى : امتنع فساد الأرض لأجل وجود دفع الناس بعضهم ببعض.

فالجملة الكريمة تأمر الأخيار فى كل زمان ومكان أن يقفوا فى وجوه الأشرار، وأن يقاوموهم بكل وسيلة من شأنها أن تحول بينهم وبين الفساد والظغيان.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾. أى : ولكن الله - تعالى - صاحب فضل عظيم، وإنعام كبير على الناس أجمعين، لأنه وضع

لهم هذا التنظيم الحكيم الذى أوجب فيه على المصلحين أن يدافعوا المفسدين، وأن يقاوموهم بالطريقة التى تمنع فسادهم حتى ولو أدى ذلك إلى رفع السلاح فى وجوههم، لأن السكوت عن فساد المفسدين سيؤدى إلى العقاب الذى يعمهم ويصيب معهم المصلحين.

ثم ختم - سبحانه - قصة هؤلاء القوم من بنى إسرائيل بقوله: ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين﴾.

أى: تلك الآيات التى حدثناك فيها عن قصة أولئك القوم وما جرى لهم هى آيات الله التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، نتلوها عليك يا محمد عن طريق جبريل الأمين تلاوة ملتبسة بالحق الثابت الذى لا يحوم حوله الباطل، وإنك يا محمد ﴿لمن المرسلين﴾ الذين أرسلهم الله - تعالى - بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

فالإشارة فى قوله ﴿تلك آيات الله﴾ إلى الآيات المتلوة من قوله - تعالى - : ﴿ألم تر إلى الملاء من بنى إسرائيل﴾ إلى آخر القصة. وقيل لإيها وإلى القصة التى قبلها وهى قصة القوم ﴿الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت﴾.

وكانت الإشارة للبعيد، لما فى ذلك من معنى الاستقصاء للآيات، ولعلو شأنها، وكمال معانيها، والوفاء فى مقاصدها.

وأضيفت الآيات إلى الله لأنها جزء من هذا القرآن الذى أنزله - سبحانه - على نبيه محمد ﷺ ليكون هداية للناس، وليحملهم على تدبرها والاعتبار بها لأنها من عند الله الذى شرع لهم ما يسعدهم.

وجعل - سبحانه - تلاوة جبريل للقرآن تلاوة له فقال: ﴿نتلوها عليك بالحق﴾ للإشعار بشرف جبريل، وأنه ما خرج فى تلاوته عما أمره الله به، فهو رسوله الأمين إلى رسله المكرمين.

وجملة ﴿نتلوها عليك﴾ فى محل نصب حال من الآيات والعامل فيها معنى الإشارة.

وقوله: ﴿بالحق﴾ فى موضع نصب حال من مفعول نتلوها أى ملتبسة باليقين الذى لا يرتاب فيه عاقل. أو من فاعله أى: نتلوها عليك ملتبسين بالحق والصواب.

وأكد - سبحانه - قوله ﴿وإنك لمن المرسلين﴾ بحرف «إن» وباللام فى «لمن» وبالجملة الإسمية، للرد على من شكك فى صدق رسالته ﷺ وتسلية عما يقوله الجاحدون فى شأنه.

وبعد: فهذه قصة الملاء من بنى إسرائيل من بعد موسى، وإن فيها لعبرا متعددة، وعظات متنوعة لقوم يعقلون. من العبر التى تؤخذ منها:

١ - أن الشعور بالظلم والهوان، والابتلاء بالمحن والهزائم، والوقوع تحت أيدي المعتدي،

كل ذلك من شأنه أن يصهر النفوس الحرة الكريمة، وأن يدفعها بقوة إلى الذود عن كرامتها المسلوبة، وعزتها المغصوبة، حتى تنال حقها عن سلبه منها أو تموت دونه، لأن النفوس الأبية تشعر دائماً بأن الموت مع العزة خير من الحياة مع الذلة. يدل على ذلك قوله - تعالى - : ﴿قَالُوا: وَمَالَنَا أَلَا نَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾.

٢ - أن الناس في كل زمان ومكان، يلجأون - خصوصاً عندما تنزل بهم الشدائد إلى من يتوسمون فيهم الخير والصلاح، لكي يرشدوهم إلى ما يأخذ بيدهم إلى طريق السعادة، ولكي يهدوهم إلى أفضل السبل التي تنقذهم مما هم فيه من بلاء، ولكي يختاروا لهم من يقودهم إلى النصر والفلاح. ألا ترى إلى الملأ من بنى إسرائيل كيف لجأوا إلى نبي لهم ليقولوا له بعد أن أصابهم من الذل ما أصابهم: ﴿ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله﴾؟ إنهم لم يلجأوا إلى زعيم من زعمائهم، أو إلى أمير من امرائهم، وإنما لجأوا إلى نبيهم يشون إليه شكواهم، ويطلبون منه أن يختار لهم من يقودهم للقتال في سبيل الله، لأنهم يرون فيه الأمل المرتجى، والعقل السليم، والخلق القويم، والأسوة الحسنة.

٣ - أن القائد يجب أن تتوفر فيه صفتان: قوة العقل، وقوة الجسم لأنه متى توفرت فيه هاتان الصفتان استطاع أن يقود أتباعه بنجاح، وأنه قبل أن يلتقى بأعدائه يجب عليه أن يختبر جنده ليعرف مبلغ إيمانهم وقوتهم وطاعتهم وثباتهم وألا يكلفهم بما لا يستطيعونه حتى يجارب أعداءه وهو على بينة من أمره. انظر إلى طالوت كيف اختبر جنده قبل أن يخوض المعركة بأن قال لهم: ﴿إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده﴾ وهكذا القواد العقلاء يقدمون على حرب أعدائهم وهم على بصيرة من أمرهم.

٤ - ان الفئة القليلة المؤمنة كثيراً ما تنتصر على الفئة الكثيرة الكافرة؛ لأن المؤمنين الصادقين يحملهم إيمانهم على اليقين بقاء الله، وعلى التضحية من أجل إعلاء كلمته، وعلى الإقدام الذي يربع الكافرين، ويخيف الفاسقين، وصدق الله إذ يقول ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾.

٥ - أن هزائم الأمم يمكن إزالتها متى توفر لتلك الأمم القادة العقلاء الأقوياء، والجند الأشداء على أعدائهم، الرحماء فيما بينهم، وأن من شأن المؤمنين حقا أنهم مع مباشرتهم للأسباب، وإحكامهم لكل ما يحتاج إليه القتال، وإحسانهم لكل وسيلة تعينهم على النصر، مع كل ذلك لا يغترون ولا يتطاولون بل يعتمدون على الله - تعالى - اعتماداً تاماً، ويتجهون إليه بالضراعة والدعاء ويلتمسون منه النصر على أعدائه وأعدائهم انظر إلى الصفوة المؤمنة من جند

طالوت ماذا قالت عندما برزت لجالوت وجنوده، لقد قالت كما حكى القرآن عنها: ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين. فهزموهم بإذن الله﴾.

٦ - أن من سنن الله في خلقه أنه - سبحانه - جعل الحياة صراعاً دائماً بين الحق والباطل، ونزاعاً موصولاً بين الأخيار والأشرار، ولولا أن الله - تعالى - يدفع بعض الناس الفاسقين ببعض الناس الصالحين لفسدت الأرض، لأن الفاسقين لو تركوا من غير أن يدافعوا ويقاوموا لنشروا فسوقهم وفجورهم وطغيانهم في الأرض، ولكنه - سبحانه - أعطى لعباده الصالحين من القوة والثبات ما جعلهم يقاومون الظالمين ويعملون على نشر الخير والصلاح بين الناس.

٧ - أن القصة الكريمة تصور لنا ما جبل عليه بنو إسرائيل من نقض للعهد وكذب في القول ﴿فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم﴾ ومن تناول على أنبيائهم، وعصيان لأوامرهم، واعتراض على توجيهاتهم، وتفضيل للجاه والمال على العقل والعلم ﴿قالوا: أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه، ولم يؤت سعة من المال﴾ ومن خور عند الابتلاء والاختبار، وحماس في ساعة السلم ونكوص في ساعة الجِد، تأمل قوله - تعالى - ﴿فشربوا منه إلا قليلاً منهم. فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾.

وبعد هذا الحديث الحكيم عن الملا من بني إسرائيل من بعد موسى. وبعد أن شهد الله - تعالى - لنبيه محمد ﷺ بأنه من المرسلين الذين أرسلوا لينصروا الحق، وليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، بعد كل ذلك بين الله - تعالى - أن الرسل وإن كانوا قد بعثوا جميعاً هداية البشر إلا أنهم يتفاضلون فيما بينهم فقال - تعالى - :

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّن كَلَّمَ اللَّهُ
وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۗ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ
وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا الَّذِينَ
مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا
فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا
وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾

الإشارة بتلك في قوله: ﴿تلك الرسل﴾ إلى جماعة الرسل الذين تقدم ذكرهم في السورة والذين أرسلهم الله - تعالى - لهداية البشر، وأمرنا - سبحانه - بالإيمان بهم .
 أى أولئك الرسل الذين أرسلناهم لهداية الناس ﴿فضلنا بعضهم على بعض﴾ أى جعلنا لبعضهم مناقب وخصائص ومزايا لم تتوافر للبعض الآخر .

و ﴿تلك﴾ مبتدأ و ﴿الرسل﴾ عطف بيان لتلك . وجملة ﴿فضلنا بعضهم على بعضهم﴾ هى الخبر . وكانت الإشارة باللفظ الدال على البعيد، لبيان سمو مكانة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وأنهم هم المصطفون الأخيار .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر التفضيل فقال : ﴿منهم من كلم الله﴾ أى منهم من فضله الله بتكليمه إياه كموسى - عليه السلام - فقد وردت آيات صريحه فى ذلك، منها قوله - تعالى - : ﴿وكلم الله موسى تكليماً﴾ وقوله - تعالى - : ﴿قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي﴾ وقوله - تعالى - ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه﴾ .

ثم قال - سبحانه - : ﴿ورفع بعضهم درجات﴾ أى : ومنهم من رفعه الله على غيره من الرسل مراتب سامية ومنازل عالية .

قيل كإبراهيم الذى اتخذه الله خليلاً، وإدريس الذى رفعه الله مكاناً علياً، وداود الذى آتاه الله النبوة والملك .

والذى عليه المحققون من العلماء والمفسرين أن المقصود بقوله - تعالى - ﴿ورفع بعضهم درجات﴾ هو سيدنا محمد ﷺ لأنه هو صاحب الدرجات الرفيعة والمعجزة الخالدة الباقية إلى يوم القيامة والرسالة العامة الناسخة لكل الرسالات قبلها .

وقد صرح صاحب الكشاف بذلك فقال : قوله ﴿ورفع بعضهم درجات﴾ أى ومنهم من رفعه الله على سائر الأنبياء، فكان بعد تفاوتهم فى الفضل أفضل منهم درجات كثيرة . الظاهر أنه أراد محمداً ﷺ لأنه هو المفضل عليهم، حيث أوتى ما لم يؤته أحد من الآيات المتكاثرة المرتقية إلى ألف آية أو أكثر . لو لم يؤت إلا القرآن وحده لكفى به فضلاً منيفاً على سائر ما أوتى الأنبياء، لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر دون سائر المعجزات . وفى هذا الإبهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى، لما فيه من الشهادة على أنه العلم الذى لا يشبهه، والمتميز الذى لا يلبس . ويقال للرجل : من فعل هذا؟ فيقول : أحدكم أو بعضكم، يريد به الذى تعرفوا واشتهر بنحوه من الأفعال فيكون أفخم من التصريح، وسئل الخطيئة عن أشعر الناس، فذكر زهيراً والنابعة ثم قال : ولو شئت لذكرت الثالث، أراد نفسه، ولو قال : ولو شئت لذكرت

نفسى لم يفخم أمره (١).

ثم قال - تعالى - : ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَىٰ بْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾.

﴿البيّنات﴾ : هى المعجزات الظاهرة البينة . وروح القدس : هو جبريل - عليه السلام - والروح هنا بمعنى الملك الخاص . القدس أصل معناه الطهارة ، وهو يطلق على الطهارة المعنوية وعلى الخلوص والنزاهة . إضافة روح إلى القدس من إضافة الموصوف إلى الصفة . قيل القدس اسم الله كالقدوس إضافة روح إضافة للتشريف أى روح من ملائكة الله .

والمعنى : وأعطينا عيسى بن مريم الآيات الباهرات ، والمعجزات الواضحات كإبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الموتى ، وإخبار قومه بما يأكلونه ويدخرونه فى بيّتهم ، وفضلا عن هذا فقد قويناه بجبريل - عليه السلام - لأن عيسى - عليه السلام - قد عاش حياته محاربا من أعدائه الرومان ومن قومه الذين أرسل إليهم وهم بنو إسرائيل ولم يؤذن له بالقتال ليدافع عن نفسه بل تولى الله - تعالى - الدفاع عنه بجنده الذين من بينهم جبريل - عليه السلام - .

قال الزمخشري : فإن قلت لم خص موسى وعيسى من بين الأنبياء بالذكر ؟ قلت : لما أوتيا من الآيات العظيمة والمعجزات الباهرة ولقد بين الله وجه التفضيل حيث جعل التكليم من الفضل وهو آية من الآيات . لما كان هذان النبيان قد أوتيا ما أوتيا من عظام الآيات خصا بالذكر فى باب التفضيل . هذا دليل بين على أن من زيد تفضيلا بالآيات منهم فقد فضل على غيره . ولما كان نبينا محمد ﷺ هو الذى أوق منها ما لم يؤت أحد فى كثرتها وعظمتها كان هو المشهود له بإحراز قصبات الفضل غير مدافع .

وقال الإمام القرطبي ما ملخصه : هذه الآية نثبت التفاضل بين الأنبياء وهناك أحاديث تقول : « لا تخيرونى على موسى » و « لا تخيروا بين الأنبياء » و « لا تفضلوا بين الأنبياء » أى لا تقولوا فلان خير من فلان ، ولا فلان أفضل من فلان فكيف الجمع ؟ فالجواب أن هذا كان قبل أن يوحى إليه بالتفضيل وقبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم ، وأن القرآن ناسخ للمنع من التفضيل أو أن قوله هذا من باب الهضم والتواضع . أو المراد النهى عن الخوض فى ذلك لأن الخوض فى ذلك ذريعة إلى الجدال والجدال قد يؤدى إلى أن يذكر بعضهم بما لا ينبغى أن يذكر به ، وقد يؤدى إلى قلة احترامهم . ثم قال . وأحسن من هذا القول من قال : إن المنع من التفضيل إنما هو من جهة النبوة التى هى خصلة واحدة لا تفاضل فيها ، وإنما التفضيل فى زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والألطف والمعجزات ، وأما النبوة فى نفسها فلا تفاضل ، وإنما

تفاضل بأمور أخرى زائدة عليها، ولذلك فهم رسل، وأولو عزم، ومنهم من كلمه الله.. فالقول بتفضيل بعضهم على بعض إنما هو بما منح من الفضائل، وأعطى من الوسائل. وبذلك نكون قد جمعنا بين الآية والأحاديث من غير النسخ.

ثم قال - تعالى - : ﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعدما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر﴾.

أى : ولو شاء الله - تعالى - ألا يقتتل الذين جاؤا بعد كل رسول من الرسل وبعد أن جاءهم الرسل بالبيانات الدالة على الحق، لو شاء الله ذلك لفضل، ولكن الله - تعالى - لم يشأ ذلك، لأنه خلق الناس مختلفين في تقبلهم للحق، فترتب على هذا الاختلاف أن آمن بالحق الذى جاءت به الرسل من فتح له قلبه، واتجه إليه اختياره، وأن كفر به من آثر الضلالة على الهداية واستحب العمى على الهدى، وترتب عليه - أيضاً أن تقاتل الناس وتجاربوا. ومفعول المشيئة محذوف دل عليه جواب الشرط أى لو شاء الله ألا يقتتل الذين جاءوا من بعد الرسل ما اقتتلوا.

وقدم - سبحانه - المسبب وهو الاقتتال على السبب وهو الاختلاف كما يشهد له قوله : ﴿ولكن اختلفوا..﴾ للتنبية على سوء مغبة الاختلاف، وللتحذير من الوقوع فيه، لأن وقوعهم فيه سيؤدى إلى أن يقتل بعضهم بعضاً، وللإشارة إلى أنه - سبحانه - قادر على إزالة الاقتتال فى ذاته حتى مع وجود أسبابه، لأنه - تعالى - هو الخالق للأسباب والمسببات.

وفى قوله : ﴿من بعد ما جاءتهم البينات﴾ إشارة إلى ما جبلت عليه بعض النفوس من العناد الذى يؤدى إلى التنازع والاختلاف والتقاتل حتى بعد ظهور الحق، وانكشاف وجه الصواب، لأن هذه النفوس قد آثرت الهوى على الرشاد، واتخذت طريق الغى طريقاً لها.

وفى قوله : ﴿ولكن اختلفوا﴾ إشارة إلى أنه - سبحانه - لم يشأ أن يزيل القتال الذى حدث بين المقاتلين، لأن هذا القتال قد نشأ بينهم بسبب اختلافهم، وسوء اختيارهم، وعدم استجابتهم للهدايات والتوجيهات والبيانات التى جاءت بها الرسل - عليهم السلام -.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾ أى : لو شاء الله عدم اقتتالهم لأى سبب من الأسباب لما اقتتلوا، ولكنه - سبحانه - يفعل ما يريد حسب ما تقتضيه حكمته، وترتضيه مشيئته، فهو الكبير المتعال الذى كل شىء عنده بمقدار فالآية الكريمة تبين أن الرسل - عليهم السلام - يتفاضلون فيما بينهم، وتسمى الناس فى كل زمان ومكان عن الاختلاف والتنازع لأنها يؤديان إلى أوحم العواقب، وأسوأ النتائج.

ثم وجه القرآن نداء إلى المؤمنين أمرهم فيه ببذل أموالهم في سبيل الدفاع عن الحق، حتى يكونوا أهلاً لرضا الله ومثوبته.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا
مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا
شَفَعَةٌ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٥٤﴾

الخلَّة: الصداقة والمودة مأخوذة من تخلل الأسرار بين الصديقين، وسميت بذلك لأنها تتخلل النفس أى تتوسطها، أو لشدة الحاجة إليها. ومنه سمي الخليل خليلاً لاحتياج الإنسان إليه.

والشفاعة مأخوذة من الشفع بمعنى الضم، وتطلق على انضمام شخص إلى آخر لنفعه أو نصرته، وأكثر ما تستعمل في انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى ما هو دونه.

والمعنى: عليكم أيها المؤمنون أن تنفقوا في وجوه الخير كإعانة المجاهدين ومساعدة الفقراء والبائسين من أموالكم التي رزقكم الله إياها بفضلها وكرمها، ومن قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا يكون فيه تجارة ولا مبايعة حتى تقدموا عن طريقها ما تفتنون به أنفسكم، ولا يكون فيه صديق يدفع عنكم، ولا شفيع يشفع لكم فيحط من سيئاتكم إلا أن يأذن رب العالمين بالشفاعة تفضلاً منه وكرماً.

فالآية الكريمة تحض المؤمنين على الإنفاق في سبيل الله، لأنه أهم عناصر القوة في الأمة، وأفضل وسيلة لإقامة المجتمع الصالح المتكافل.

والمراد بالإنفاق هنا ما يشمل الفرض والنفل، والأمر لمطلق الطلب، إلا أن هذا الطلب قد يصل إلى درجة الوجوب إذا نزلت بالأمة شدة لم تكف الزكاة عن دفعها.

وقوله: ﴿مما رزقناكم﴾ إشعار بأن هذا المال الذي بين أيدي الأغنياء ما هو إلا رزق رزقهم الله إياه، ونعمة أنعم بها عليهم، فمن الواجب عليهم شكرها بالآل يبخلوا بجزء منه على الإنفاق في وجوه الخير، لأن هذا البخل سيعود عليهم بما يضرهم.

وفي قوله: ﴿من قبل أن يأتي يوم﴾.. إلخ حث آخر على التعجيل بالإنفاق، لأنه تذكير للناس بهذا الوقت الذي تنتهي فيه الأعمال، ولا يمكن فيه استدراك ما فاتهم، ولا تعويض

ما فقدوه من طاعات. فكأنه - سبحانه - يقول لهم : نجوا أنفسكم بالمسارعة إلى الإنفاق من قبل أن يأتي يوم لا منجاة فيه إلا بالعمل الصالح الذى قدمتموه.

و ﴿من﴾ فى قوله ﴿عما رزقناكم﴾ للتبعيض. وفى قوله ﴿من قبل﴾ لابتداء الغاية : ومفعول أنفقوا محذوف والتقدير أنفقوا شيئاً مما رزقناكم.

والشفاعة المنفية هنا هى التى لا يقبلها الله - تعالى - وهى التى لا يأذن بها، أما شفاعة النبى ﷺ فقد أذن الله له بها وقبلها منه، وقد وردت أحاديث صحيحة بلغت مبلغ التواتر المعنوى فى أن النبى ﷺ ستكون له شفاعة فى دفع العذاب عن أقوام من المؤمنين وتخفيفه عن أهل الكبائر من المسلمين، ومن ذلك ما أخرجه البخارى عن جابر بن عبد الله . أن رسول الله ﷺ قال : أعطيت خمساً لم يعطهن نبى قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر. وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً فأما رجل أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ أى والكافرون الجاحدون لنعمة هم الظالمون لأنفسهم، لأنهم حالوا بينها وبين الهداية بإيثارهم العاجلة على الآجلة، والغى على الرشد، والشر على الخير، والبخل على السخاء.

أما المؤمنون فليسوا كذلك لأنهم سلكوا الطريق المستقيم، وبذلوا الكثير من أموالهم فى سبيل إعلاء كلمة الله، وفى إعانة المحتاجين.

وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد حضت المؤمنين على المسارعة فى إنفاق أموالهم فى وجوه الخير من قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه ما كان نافعاً فى الدنيا من أقوال وأعمال وأنها قد توعدت من يبخل عن الإنفاق فى سبيل الله بسوء العاقبة، لأنه تشبه بالكافرين فى بخلهم وإمساكهم عن بذل أموالهم فى وجوه الخير.

وبعد أن أمر الله المؤمنين بالإنفاق فى وجوه الخير، وذكرهم بأهوال يوم القيامة، أتبع ذلك بآية كريمة اشتملت على تمجيده - سبحانه - فبينت كمال سلطانه، وشمول علمه. وسابغ نعمه على خلقه. استمع إلى القرآن الكريم وهو يصف لك الخالق - عز وجل - بأكمل الصفات وأعظمها فيقول :

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
 الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا
 فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ
 أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا
 شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا
 وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

قال بعضهم : هذه آية الكرسي أفضل آية في القرآن . ومعنى الفضل أن الثواب على قراءتها
 أكثر منه على غيرها من الآيات . هذا هو التحقيق في تفضيل بعض آيات القرآن على بعض .
 وإنما كانت أفضل لأنها جمعت من أحكام الألوهية وصفات الإله الثبوتية والسلبية ما لم تجمعه آية
 أخرى . جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : لكل شيء سنام وإن
 سنام القرآن البقرة ، وفيها آية هي سيدة القرآن - أى أفضله - وهي آية الكرسي ﴿١﴾ .
 وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر جمل فيها ما فيها من صفات الله الجليلة - ونعوته
 السامية . أما الجملة الأولى والثانية فتمثل في قوله - تعالى - : ﴿الله لا إله إلا هو الحي
 القيوم﴾ .

ولفظ الجلالة ﴿الله﴾ يقول العلماء : إن أصله إله دخلت عليه أداة التعريف «أل» وحذفت
 الهمزة فصارت الكلمة الله .

قال القرطبي : قوله : ﴿الله﴾ هذا الاسم أكبر أسمائه - تعالى - وأجمعها ، حتى قال
 بعضهم إنه اسم الله الأعظم ولم يتسم به غيره ، ولذلك لم يثن ولم يجمع ، فالله اسم الموجود الحق
 الجامع لصفات الألوهية ، المنعوت بنعوت الربوبية المنفرد بالوجود الحقيقي ، لا إله إلا هو
 - سبحانه - ﴿١﴾ .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ صفحة ٢٠٦ .

(٢) تفسير القرطبي ج ١ صفحة ١٠٢ .

ولفظ ﴿إله﴾ قالوا إنه من أله فلان يأله أى عبد. فالإله على هذا المعنى هو المعبود، وقيل هو من أله أى تحير.. وذلك أن العبد إذا تفكر فى صفاته - سبحانه - تحير فيها؛ ولذا قيل: «تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله»^(١).

و﴿الحى﴾ أى الباقي الذى له الحياة الدائمة التى لا فناء لها. لم تحدث له الحياة بعد موت، ولا يعتريه الموت بعد الحياة، وسائر الأحياء سواء يعترهم الموت والفناء.

و﴿القيوم﴾ أى: الدائم القيام بتدبير أمر الخلق وحفظهم، والمعطى لهم ما به قوامهم. وهو مبالغة فى القيام. وأصله قيوم - بوزن فيعول - من قام بالأمر إذا حفظه ودبره.

والمعنى: الله - عز وجل - هو الإله الحق المتفرد بالألوهية التى لا يشاركه فيها سواه، وهو المعبود بحق وكل معبود سواه فهو باطل، وهو ذو الحياة الكاملة، وهو الدائم القيام بتدبير شئون الخلق وحياتهم ورعايتهم وإحيائهم وإماتهم.

والجملة الثالثة قوله - تعالى - : ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ وهى جملة سلبية مؤكدة للوصف الإيجابى السابق، فإن قيامه على كل نفس بما كسبت، وعلى تدبير شئون خلقه يقتضى ألا تعرض له غفلة، ولأن السنة والنوم من صفات الحوادث وهو - سبحانه - مخالف لها.

والسنة: الفتور الذى يكون فى أول النوم مع بقاء الشعور والإدراك. ويقال له غفوة. يقال: وسن الرجل يوسن ووسناً وسنة فهو وسن ووسنان إذا نعس والمراد أنه - سبحانه - لا يغفل عن تدبير أمر خلقه أبداً، ولا يجنب علمه شئ حجباً قصيراً أو طويلاً، ولا يدركه ما يدرك الأجسام من الفتور أو النعاس، أو النوم.

وتقديم السنة على النوم يفيد المبالغة من حيث إن نفي السنة يدل على نفي النوم بالأولى، فنفيه ثانياً صريحاً يفيد المبالغة لأن عطف الخاص على العام يفيد المبالغة ولأن عطف الخاص على العام يفيد التوكيد أى لا تأخذه سنة فضلاً عن أن يأخذه نوم.

وفى قوله: ﴿لا تأخذه﴾ دلالة على أن للنوم قوة قاهرة تأخذ الحيوان أخذاً وتقهر الكثير من أجناس المخلوقات قهراً، ولكنه - سبحانه - وهو القاهر فوق عباده - منزّه عن ذلك، ومبرأ من أن يعتريه ما يعترى الحوادث.

وقوله - سبحانه - فى الجملة الرابعة: ﴿له ما فى السموات وما فى الأرض﴾ تقرير لانفراد

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني صفحة ٢١.

بالألوهية إذ جميع الموجودات مخلوقاته، وتعليل لا تصافه بالقيومية، لأن من كانت جميع الموجودات ملكا له فهو حقيق بأن يكون قائما بتدبير أمرها.

والمراد بما فيها ما هو أعم من أجزائها الداخلة فيها ومن الأمور الخارجة عنها المتمكنة فيها من العقلاء وغيرهم. فالجملة الكريمة تفيد الملكية المطلقة لرب العالمين لكل ما في هذا الوجود من شمس وقمر وحيوان ونبات وجماد وغير ذلك من المخلوقات. وصدرت الجملة بالجار والمجرور «له» لإفادة القصر أى ملك السموات والأرض له وحده ليس لأحد سواه شيء معه.

والاستفهام في قوله في الجملة الخامسة ﴿من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه﴾ للنفي والإنكار أى: لا أحد يستطيع أن يشفع عنده - سبحانه - إلا بإذنه ورضاه قال - تعالى - ﴿وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾.

والمقصود من هذه الجملة - كما يقول الألوسى - بيان كبرياء شأنه - تعالى - وأنه لا أحد يساويه أو يدانيه بحيث يستقل أن يدفع ما يريد دفعاً على وجه الشفاعة والاستكانة والخضوع فضلاً عن أن يستقل بدفعه عناداً أو مناصبة وعداوة. وفي ذلك تبييض للكفار حيث زعموا أن آلهتهم شفعاء لهم عند الله^(١).

وقوله - سبحانه - فى الجملة السادسة: ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ تأكيد لكمال سلطانه فى هذا الوجود، وبيان لشمول علمه على كل شيء.

والضمير فى (أيديهم) و(خلفهم) يعود إلى (ما) فى قوله قبل ذلك ﴿له ما فى السموات وما فى الأرض﴾ وعبر بضمير الذكور العقلاء، تغليياً لجانبهم على جانب غير العقلاء.

والعلم بما بين أيديهم وما خلفهم كناية عن إحاطة علمه - سبحانه - بماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم، وما يعرفونه من شؤونهم الدنيوية وما لا يعرفونه.

وقوله - تعالى - فى الجملة السابعة: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ معطوف على قوله ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ لأنه مكمل لمعناه. والمراد بالعلم المعلوم. والإحاطة بالشئ معناها العلم الكامل به.

أى: لا يعلمون شيئاً من معلوماته - سبحانه - إلا بالقدر الذى أراد أن يعلمهم إياه على ألسنة رسله. فهو كقوله - تعالى -: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً، إلا من ارتضى من رسول﴾.

(١) تفسير الألوسى ج- ٣ صفحة ٩.

فالجملة الكريمة بيان لكمال علم الله - تعالى - ، ولتقصان علم سواه، إذ أن البشر لم يعطوا من العلم إلا القليل، وهذا القليل ناقص لأنه ليس على إحاطة واستغراق لكل ما تشتمل عليه جزئيات الشيء ووجوده وجنسه وكيفيته وغرضه المقصود به وبإيجاده، إذ العلم الكامل بالشيء لا يكون إلا الله رب العالمين.

ثم قال - تعالى - في الجملة الثامنة: ﴿وسع كرسیه السموات والأرض﴾.

قال الراغب: الكرسي في تعارف العامة: اسم للشيء الذي يقعد عليه، وهو في الأصل منسوب إلى الكرسي أى الشيء المجتمع، ومنه الكراسية لأنها تجمع العلم.. وكل مجتمع من الشيء كرسى^(١).

وللعلماء اتجاهان مشهوران في تفسير معنى الكرسي في الجملة الكريمة. فالسلف يقولون: إن الله - تعالى - كرسيا علينا أن نؤمن بوجوده وإن كنا لا نعرف حقيقته، لأن ذلك ليس في مقدور البشر.

والخلف يقولون: الكرسي في الآية كناية عن عظم السلطان، ونفوذ القدرة، وسعة العلم، وكمال الإحاطة.

ولصاحب الكشف تلخيص حسن لأقوال العلماء في ذلك، فقد قال - رحمه الله - وفي قوله: ﴿وسع كرسیه﴾ أربعة أوجه:

أحدها: أن كرسیه لم يضق عن السماوات والأرض لبطنته وسعته وما هو إلا تصوير لعظمته ولا كرسی ثمة ولا قعود ولا قاعد.

والثاني: وسع علمه، وسمى العلم كرسيا تسمية بمكانه الذي هو كرسى العالم.

والثالث: وسع ملكه تسمية بمكانه الذي هو كرسى الملك.

والرابع: ماروى أنه خلق كرسيا هو بين يدي العرش دونه السموات والأرض وهو إلى العرش كأصغر شيء. وعن الحسن الكرسي هو العرش^(٢).

هذا وقد روى المفسرون عن ابن عباس أنه قال «كرسيه علمه»^(٣) ولعل تفسير الكرسي بالعلم كما قال حبر الأمة هو أقرب الأقوال إلى الصواب، لأنه هو المناسب لسياق الآية الكريمة.

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني صفحة ٤٢٨ بتلخيص.

(٢) تفسير الكشف ج ١ صفحة ٣٠١.

(٣) تفسير القرطبي ج ٣ صفحة ٢٧٦.

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالصفتين التاسعة والعاشرة فقال - تعالى - : ﴿ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم﴾ .

﴿يؤوده﴾ معناه يثقله ويشق عليه . يقال آدى الأمر بمعنى أثقلنى وتحملت منه المشقة . و﴿العلي﴾ هو المتعالى عن الأشياء، والأنداد، والأمثال، والأضداد وعن أمارات النقص ودلالات الحدوث . وقيل هو من العلو الذى هو بمعنى القدرة وعلو الشأن .

والمعنى : ولا يثقله ولا يتعبه حفظ السموات والأرض ورعايتها، وهو المتعالى عن الأشياء والنظائر، والمسيطر على خلقه، العظيم فى ذاته وصفاته، فى هاتين الجملتين بيان لعظيم قدرته، وعظيم رعايته لخلقه، وتنزيهه - سبحانه - عن مشابهة الحوادث .

وبعد، فهذه آية الكرسي التى اشتملت على عشر جمل، كل جملة منها تشتمل على وصف أو أكثر من صفات الله الجليلة، ونعوته المجيدة، وألوهيته الحق، وقدرته النافذة، وعلمه المحيط بكل شئ، قد أقامت الأدلة الساطعة على وحدانية الله - تعالى - ووجوب إفراجه بالعبادة .

وقد تكلم العلماء طويلا عن تناسق جملها، وبلاغة تراكيبها ووجوه فضلها ومن ذلك قول صاحب الكشاف : «فإن قلت : لم فضلت هذه الآية على غيرها حتى ورد فى فضلها ماورد؟ قلت : لما فضلت له سورة الإخلاص من اشتمالها على توحيد الله وتعظيمه وتمجيده وصفاته العظمى ولا مذكور أعظم من رب العزة . فما كان ذكراً له كان أفضل من سائر الأذكار»^(١) .

ومن الأحاديث التى ساقها الإمام ابن كثير فى فضلها ماجاء عن أبى بن كعب أن النبى ﷺ سألته : «أى آية فى كتاب الله أعظم؟ قال الله ورسوله أعلم . فرددها مرارا ثم قال : آية الكرسي . فقال له الرسول ﷺ «ليهنك العلم أبا المنذر» .

وأخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن رسول الله ﷺ أنه قال : إن أعظم آية فى القرآن هى آية الكرسي .

وروى أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - خرج ذات يوم على الناس فقال : أياكم يخبرنى بأعظم آية؟ فقال ابن مسعود على الخير سقطت سمعت رسول الله ﷺ يقول : أعظم آية فى القرآن ﴿الله لا إله إلا هو الحى القيوم﴾ . . الآية^(٢) .

وبعد أن ساق - سبحانه - فى آية الكرسي الأدلة الواضحة على وحدانيته وعظمته وتنزيهه

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٠٣ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٠٤ وما بعدها .

عن صفات الحوادث، عقب ذلك بيان أن الدين الحق قد ظهر وتجلي لكل ذى عقل سليم، وأنه لا يقسر أحد على الدخول فيه فقال - تعالى - :

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ
مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ
اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٥﴾

الإكراه معناه: حمل الغير على قول أو فعل لا يريده عن طريق التخويف أو التعذيب أو ما يشبه ذلك. والمراد بالدين دين الإسلام والألف واللام فيه للعهد. والرشد: الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه، مصدر رشد يرشد ويرشد أى اهتدى. والمراد هنا: الحق والهدى.

والغى ضد الرشد. مصدر من غوى يغوى إذا ضل في معتقد أو رأى، ويرى بعض العلماء أن نفي الإكراه هنا خبر في معنى النهى، أى: لا تكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام فإنه بين واضح في دلائله وبراهينه، فمن هداه الله له ونور بصيرته دخل فيه على بصيرة، ومن أضله وأعمى قلبه لا يفيد الإكراه على الدخول فيه.

وقال بعض العلماء إن الجملة هنا على حالها من الخبرية والمعنى: ليس في الدين - الذى هو تصديق بالقلب، وإذعان في النفس - إكراه وإجبار من الله - تعالى - لأحد، لأن مبنى هذا الدين على التمكين والاختيار، وهو مناط الثواب والعقاب، لولا ذلك لما حصل الابتلاء والاختبار، ولبطل الامتحان.

أو المعنى: كما يرى بعضهم - إن من الواجب على العاقل بعد ظهور الآيات البيّنات على أن الإيمان بدين الإسلام حق ورشد. وعلى أن الكفر به غى وضلال، أن يدخل عن طواعية واختيار في دين الإسلام الذى ارتضاه الله وألا يكره على ذلك بل يختاره بدون قسر أو تردد. فالجملة الأولى وهى قوله - تعالى - : ﴿لا إكراه في الدين﴾: تنفى الإجبار على الدخول في الدين، لأن هذا الإجبار لا فائدة من ورائه، إذ التدين إذعان قلبى، واتجاه بالنفس والجوارح إلى الله رب العالمين بإرادة حرة مختارة فإذا أكره عليه الإنسان إزداد كرهاً له ونفوراً منه. فالإكراه والتدين نقيضان لا يجتمعان، ولا يمكن أن يكون أحدهما ثمرة للآخر.

والجملة الثانية وهي قوله - تعالى - : ﴿قد تبين الرشيد من الغي﴾ بمثابة العلة لنفي هذا الإكراه على الدخول في الدين، أى قد ظهر الصبح لذى عينين، وانكشف الحق من الباطل، والهدى من الضلال وقامت الأدلة الساطعة على أن دين الإسلام هو الدين الحق وغيره من الأديان ضلال وكفران ومادام الأمر كذلك فقد توافرت الأسباب التي تدعو إلى الدخول في دين الإسلام، ومن كفر به بعد ذلك فليحتمل نتيجة كفره، وسوء عاقبة أمره.

ثم قال - تعالى - : ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها﴾.

الطاغوت: اسم لكل ما يطغى الإنسان، كالأصنام والأوثان والشيطان وكل رأس في الضلال وكل ما عبد من دون الله. وهو مأخوذ من طغا يطغى - كسعى يسعى - طغياً وطمغياً، أو من يطغو طغوا طغواناً، إذا جاوز الحد وغلا في الكفر وأسرف في المعاصي والفجور.

والعروة: في أصل معناها تطلق على ما يتعلق بالشئ من عراه أى من الجهة التي يجب تعليقه منها، وتجمع على عرى. والعروة من الدلو والكوز مقبضه، ومن الثوب مدخل زره. والوثقى: مؤنث الأوثق، وهو الشئ المحكم الموثق. يقال وثق - بالضم - وثاقة أى: قوى وثبت فهو وثيق أى ثابت محكم.

والانفصام. الانكسار، والفصم كسر الشئ وقطعة.

والمعنى: فمن خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة غير الله، وآمن بالله - تعالى - إيماناً حاصلاً صادقاً فقد ثبت أمره واستقام على الطريقة المثلى التي لا انقطاع لها وأمسك من الدين بأقوى سبب وأحكم رباط.

والفاء في قوله: ﴿فمن يكفر﴾ للتفريع. والسين والتاء في استمسك للتأكيد والطلب، وقوله: ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ فيه - كما يقول الزمخشري - تمثيل للمعلوم بالمنظور والاستدلال بالمشاهد المحسوس حتى بتصوره السامع كأنما ينظر إليه بعينه فيحكم باعتقاده والتيقن به، وجملة «لا انفصام لها» استئناف مقرر لما قبله أو حال من «العروة» والعامل «استمسك».

ثم ختم - سبحانه الآية بقوله: ﴿والله سميع عليم﴾ أى سميع للاقوال، وهمسات القلوب، وخلصات النفوس، عليم بما يسره الناس وما يعلنونه، وسيجازهم بما يستحقون من ثواب أو عقاب.

قال القرطبي ما ملخصه : قيل إن هذه الآية منسوخة بقوله - تعالى - : ﴿يأياها النبي جاهد الكفار والمنافقين﴾ لأن النبي ﷺ قد أكره العرب على دين الإسلام وقتلهم ولم يرض منهم إلا الإسلام . وقيل إنها ليست بمنسوخة وإنما نزلت في أهل الكتاب خاصة ، وأنهم لا يكرهون على الإسلام إذا أدوا الجزية . . والحجة لهذا القول ما رواه زيد بن أسلم عن أبيه قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول لعجوز نصرانية : أسلمي أيتها العجوز تسلمي ، إن الله بعث محمداً بالحق . قالت أنا عجوز كبيرة والموت إلى قريب . فقال عمر : اللهم اشهد وتلا : ﴿لا إكراه في الدين﴾^(١) .

والذي تسكن إليه النفس أن هذه الآية محكمة غير منسوخة ، لأن التدين لا يكون مع الإكراه - كما أشرنا من قبل - ولأن الجهاد ما شرع في الإسلام لإجبار الناس على الدخول في الإسلام إذ لا إسلام مع إجبار ، وإنما شرع الجهاد لدفع الظلم ورد العدوان وإعلاء كلمة الله ، والرسول ﷺ ما قاتل العرب ليكرههم على الدخول في الإسلام وإنما قاتلهم لأنهم بدأوه بالعداوة .

ولأن الروايات في سبب نزول هذه الآية تؤيد أنه لا إكراه في الدين ، ومن هذه الروايات ما جاء عن ابن عباس أنه قال : نزلت في رجل من الأنجر من بني سالم بن عوف يقال له الحصين كان له ابنان نصرانيان وكان هو مسلماً ، فقال للنبي ﷺ ألا استكرههما فإنها قد أبيا إلا النصرانية فأنزل الله هذه الآية^(٢) وفي رواية أخرى أنه حاول إكراههما على الدخول في الإسلام فاختصموا إلى النبي ﷺ فقال الأنصاري : يارسول الله أيدخل بعضى النار وأنا أنظر إليه فنزلت الآية .

ولأن النسخ لا يصار إليه إلا إذا لم يمكن التوفيق بين الآيتين وهنا يمكن التوفيق بأن نقول : إن الآية التي معنا تنفي إكراه الناس على اعتقاد ما لا يريدون وآية ﴿يأياها النبي جاهد الكفار والمنافقين﴾ جاءت لحض النبي ﷺ وحض أصحابه على قتال الكفار الذين وقفوا في طريق دعوته ، حتى يكفوا عن عدوانهم وتكون كلمة الله هي العليا .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة الكافرين فقال - تعالى - :

(١) تفسير القرطبي ج ٣ صفحة ٣٨٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ صفحة ٣١١ .

اللَّهُ وَآلِي الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ
النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

﴿الولى﴾ : الناصر والمعين والحليف. مأخوذ من الولاية بمعنى النصرة

والمعنى : الله الذى بيده ملكوت كل شىء ﴿ولى الذين آمنوا﴾ أى معينهم وناصرهم ومتولى أمورهم، فهو - سبحانه - الذى يخرجهم من ظلمات الكفر، ومن ضلالات الشرك والفسوق والعصيان إلى نور الحق والهداية والتحرر من الأوهام. أما الذين كفروا فأولياؤهم وناصرؤهم الطاغوت الذى يتمثل فى الشياطين والأصنام والأوهام الموروثة والكبرياء والمضلين، وهؤلاء يخرجونهم بسبب انطماس بصيرتهم وانتكاسهم فى المعاصى من نور الإيمان والهداية إلى ظلمات الكفر والضلالة. أولئك الموصوفون بتلك الصفات القبيحة أصحاب النار هم فيها خالدون خلودا مؤبداً.

وأفرد - سبحانه - النور وجمع الظلمات، لأن الحق واحد أما الظلمات فقد تعددت فنونها وألوانها وأسبابها. وفى تقديم ﴿الذين كفروا﴾ فى قوله :

﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت﴾ إشارة إلى أنهم هم الذين ارتضوا أن يكون الطغيان مسيطراً على قلوبهم لأن كفرهم بالله - تعالى - هو الذى جعل الشيطان ينفذ إلى أقطار نفوسهم بسهولة ويسر.

وقوله : ﴿والذين كفروا﴾ مبتدأ و﴿أولياؤهم﴾ مبتدأ ثان، و﴿الطاغوت﴾ خبره والجملة خبر المبتدأ الأول.

ولم يقل - سبحانه - والطاغوت ولى الذين كفروا للاحتراز عن وضع اسم الطاغوت فى مقابل لفظ الجلالة.

فإن قيل : وهل كان الكافرون فى نور ثم أخرجوا منه؟ فالجواب أن المراد يخرجونهم من النور الفطرى الذى جعل عليه الناس كافة أو من نور الحجج الواضحات التى من شأنها أن تحمّل كل عاقل على الدخول فى الإسلام. وقيل المراد بهؤلاء المخرجين من النور إلى الظلمات أولئك الذين آمنوا بالنبي ﷺ قبل بعثته ثم كفروا به بعدها والإشارة فى قوله : ﴿أولئك﴾ تعود

إلى الذين كفروا. وفي التعبير «بأصحاب النار» إشعار بأنهم ملازمون لها كما يلزم المالك ما يملكه والرفيق رفيقه. وقوله ﴿هم فيها خالدون﴾ تأكيد لبقائهم فيها واختصاصهم بها. وبذلك تكون الآية الكريمة قد ساقَت أحسن البشارات للمؤمنين، وأشد العقوبات للكافرين الذين استحبوا العمى على الهدى.

ثم ساق القرآن بعد ذلك بعض الأمثلة للمؤمنين المهتدين وللضالين المغرورين.

فقال - تعالى - :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ
 أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي
 وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي
 بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي
 كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

﴿حاج﴾ أى جادل وخاصم والمحاجة : المخاصمة والمغالبة بالقول يقال حاججته فحججته أى خاصمته بالقول فتغلبت عليه وتستعمل المحاجة كثيراً فى المخاصمة بالباطل ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن﴾ . . . وقوله - تعالى - : ﴿وحاجه قومه قال أتجاجون فى الله وقد هدان﴾ .

والمعنى : لقد علمت أى العاقل صفة ذلك الكافر المغرور الذى جادل إبراهيم - عليه السلام - فى شأن خالقه عز وجل - ومن لم يعلم قصته فهانحن أولاء نخبره بها عن طريق هذا الكتاب العزيز الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

والاستفهام للتعجب من شأن هذا الكافر وما صار إليه أمر غروره وبطره والمراد به - كما قال ابن كثير - نمرود بن كنعان بن كوس بن سام ابن نوح ملك بابل، وكان معاصراً لسيدنا إبراهيم - عليه السلام -

وأطلق القرآن على ما دار بين هذا الملك المغرور وبين سيدنا إبراهيم أنها محاجة مع أنها مجادلة بالباطل من هذا الملك، أطلق ذلك من باب المماثلة اللفظية أو هى محاجة فى نظره السقيم ورأيه الباطل.

والضمير في قوله : ﴿ في ربه ﴾ يعود إلى إبراهيم - عليه السلام - وقيل يعود إلى نمرود لأنه هو المتحدث عنه فالضمير يعود إليه والإضافة - على الرأى الأول - للتشريف، وللإيدان من أول الأمر بأن الله - تعالى - مؤيد وناصر لعبده إبراهيم. وقوله : ﴿ أن آتاه الله الملك ﴾ بيان لسبب إقدام هذا الملك على ما أقدم عليه من ضلال وطغيان. أى سبب هذه المحاجة لأنه أعطاه الله - تعالى - الملك فبطر وتكبر ولم يشكره - سبحانه - على هذه النعمة، بل استعملها في غير ما خلقت له فقوله : ﴿ أن آتاه ﴾ مفعول لأجله، والكلام على تقدير حذف لام الجر، وهو مطرد الحذف مع أن وأن.

وقوله : ﴿ إذ قال إبراهيم ربى الذى يحى ويميت ﴾ حكاية لما قاله إبراهيم عليه السلام لذلك الملك فى مقام التدليل على وحدانية الله وأنه - سبحانه - هو المستحق للعبادة أى قال له : ربى وحده هو الذى ينشئ الحياة ويوجدتها، ويميت الأرواح ويفقدتها حياتها، ولا يوجد أحد سواه يستطيع أن يفعل ذلك.

وقول إبراهيم - كما حكاها القرآن - : ﴿ ربى الذى يحى ويميت ﴾ مفيد للقصر عن طريق تعريف المبتدأ وهو ﴿ ربى ﴾ والخبر هو الموصول وصلته.

وعبر بالمضارع فى قوله : ﴿ يحى ويميت ﴾ لإفادة معنى التجدد والحدوث الذى يرى ويمس بين وقت وآخر.

أى ربى هو الذى يحى الناس ويميتهم كما ترى ذلك مشاهدًا فى كثير من الأوقات، فمن الواجب عليك أن تخصه بالعبادة والخضوع وأن تقلع عما أنت فيه من كفر وطغيان وضلال.

وقوله : ﴿ إذ قال إبراهيم ﴾ ظرف لقوله : ﴿ حاج ﴾ أو بدل اشتمال منه، وفى هذا القول الذى حكاها القرآن عن إبراهيم - عليه السلام - أوضح حجة وأقواها على وحدانية الله واستحقاقه للعبادة، لأن كل عاقل يدرك أن الحق هو الذى يملك الإحياء والإماتة ويملك بعث الناس يوم القيامة ليحاسبهم على أعمالهم وهو أمر ينكره ذلك الملك الكافر.

قال الإمام الرازى ما ملخصه : والظاهر أن قول إبراهيم ﴿ ربى الذى يحى ويميت ﴾ جواب لسؤال سابق غير مذكور. وذلك لأنه من المعلوم أن الأنبياء بعثوا للدعوة إلى الله، ومتى ادعى الرسول الرسالة فإن المنكر يطالبه بإثبات أن للعالم إلهًا. فالظاهر هنا أن إبراهيم ادعى الرسالة فقال له نمرود : من ربك؟ فقال إبراهيم : ربى الذى يحى ويميت، إلا أن تلك المقدمة حذفت لأن الواقعة تدل عليها، ودليل إبراهيم فى غاية الصحة لأن الخلق عاجزون عن الإحياء والإماتة وقدم ذكر الحياة على الموت هنا. لأن من شأن الدليل أن يكون فى غاية الوضوح والقوة، ولا شك أن عجائب الخلقة حال الحياة أكثر، وإطلاع الإنسان عليها أتم فلا جرم

وجب تقديم الحياة هاهنا في الذكر»^(١).

ثم حكى القرآن جواب ثمرود على إبراهيم فقال: ﴿قال أنا أحى وأميت﴾ أى قال ذلك الطاغية: إذا كنت يا إبراهيم تدعى أن ربك وحده الذى يحى ويميت فأنا أعارضك فى ذلك لأنى أنا - أيضاً أحى وأميت وما دام الأمر كذلك فأنا مستحق للربوبية. قالوا: ويقصد بقوله هذا أنه يستطيع أن يعفو عن من حكم بقتله، ويقتل من شاء أن يقتله.

ولقد كان فى استطاعة إبراهيم - عليه السلام - أن يبطل قوله، بأن يبين له بأن ما يدعيه ليس من الاحياء والإماتة المقصودين بالاحتجاج، لأن ما قصده إبراهيم هو إنشاء الحياة وإنشاء الموت، كان فى استطاعة الخليل - عليه السلام - أن يفعل ذلك، ولكنه آثر ترك فتح باب الجدال والمحاورة، وأتاه بحجة هى غاية فى الإفحام فقال له - كما حكى القرآن: ﴿فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب﴾.

أى قال إبراهيم لخصمه المغرور: لقد زعمت أنك تملك الإحياء والإماتة كما يملك الله - تعالى - ذلك، ومن شأن هذا الزعم أن يجعلك مشاركاً لله - تعالى - فى قدرته فإن كان ذلك صحيحاً فأنت ترى وغيرك يرى أن الله - تعالى - يأتى بالشمس من جهة المشرق عند شروقها فأت بها أنت من جهة المغرب فى هذا الوقت فماذا كانت نتيجة هذه الحجة الدامغة التى قذفها إبراهيم - عليه السلام - فى وجه خصمه؟ كانت نتيجتها - كما حكى القرآن - ﴿فبهت الذى كفر﴾ أى: غلب وقهر، وتحير وانقطع عن حجاجه، واضطرب ولم يستطع أن يتكلم، لأنه فوجيء بما لا يملك دفعه. و﴿بهت﴾ فعل ماض جاء على صورة الفعل المبني للمجهول - كزهى وزكم - والمعنى فيه على البناء للفاعل. وقوله: ﴿الذى كفر﴾ هو فاعله. والبهت: الانقطاع والحيرة، وقرىء بوزن - علم ونصر وكرم.

والفاء فى قوله: ﴿فإن الله يأتى بالشمس﴾. . . إلخ فصيحة لأنها أفصحت عن جواب لشرط مقدر أى إن كنت كما تزعم أنك تحى وتميت وأن قدرتك كقدرة الله فإن الله - تعالى - يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب.

وعبر عن هذا المبهوت بقوله: ﴿الذى كفر﴾ للإشعار بأن سبب حيرته واضطرابه هو كفره وعناده.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿والله لا يهدى القوم الظالمين﴾ أى لا يهديهم إلى طريق

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٧ ص ٢٥ طبعة عبد الرحمن محمد بتصرف وتلخيص.

الحق. ولا يلهمهم حجة ولا برهاناً. بسبب ظلمهم وطمعانهم وإيثارهم طريق الشيطان على طريق الرحمن.

وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد حكمت للناس لوناً من ألوان رعاية الله لأوليائه وخذلانه لأعدائه لكي يكون في ذلك عبرة وعظة لقوم يعقلون.

ثم سافت السورة الكريمة قصتين تدلان أبلغ دلالة على قدرة الله - تعالى - وعلى صحة البعث والنشور استمع إلى القرآن وهو يحكى هاتين القصتين بأسلوبه البليغ فيقول:

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ

عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ
بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ
قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ
فَأَنْظِرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَأَنْظِرْ إِلَى
حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَأَنْظِرْ إِلَى
الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا
تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ
تُؤْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمِئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ
الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا
ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

قال الألوسي ما ملخصه: قوله: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ معطوف على سابقه - وهو

قوله : ﴿ ألم تر إلى الذي حاج ﴾ والكاف اسمية بمعنى مثل معمولة لا رأيت محذوفاً. أى أو رأيت مثل الذى مر على قرية . . وحذف لدلالة ﴿ ألم تر ﴾ عليه . وقيل : إن الكاف زائدة والتقدير : ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم أو الذى مر على قرية . . وقيل : إن العطف هنا محمول على المعنى كأنه قيل : رأيت شيئاً عجبياً - كالذى حاج إبراهيم فى ربه ، أو كالذى مر على قرية^(١) .

والذى ﴿ مر على قرية ﴾ قيل هو عزيز بن شرحيا ، وقيل حزقيال بن بوزى وقيل غير ذلك ، والقرية قيل المراد بها بيت المقدس وكان قد خربها « بختنصر » البابلى . . والقرآن الكريم لم يهتم بتحديد الأشخاص والأماكن لأنه يقصد العبرة وبيان الحال والشأن . وجملة ﴿ وهى خاوية على عروشها ﴾ فى موضع الحال من الضمير المستتر فى ﴿ مر ﴾ والواو رابطة بين الجملة الحالية وبين صاحبها والإتيان بها واجب لخلو الجملة من ضمير يعود على صاحبها وقيل هى حال من قرية ، وسوغ إتيان الحال منها مع كونها نكرة وقوعها بعد الاستفهام المقدر وهو رأيت ومعنى ﴿ وهى خاوية على عروشها ﴾ أن جدرانها ساقطة على سقوفها ، أى أن الخراب قد عمها والدمار قد نزل بها ، فأصبحت خالية من أهلها وفارغة ممن كان يعمرها وأصل الخواء الخلو . يقال خوت الدار وخربت تخوى خواء إذا سقطت وخلت .

والعروش جمع عرش وهو سقف البيت ويسمى العريش ، وكل شئ يبها ليظل أو يكن فهو عريش وعرش .

وقوله - تعالى - : ﴿ قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها ﴾ حكاية لما قاله ذلك الذى مر على تلك القرية ورأى فيها ما رأى من مظاهر الخراب والدمار والمعنى : أو رأيت مثل الذى مر على قرية وهى ساقطة حيطانها على سقوفها ، وفارغة ممن كان يسكنها ، فهاله أمرها ، وراعه شأنها ، وقال على سبيل التعجب كيف يحيى الله هذه القرية بعد موتها ، بأن يعيد إليها العمران بعد الخراب ، ويجعلها عامرة بسكانها الذين خلت منهم . فقوله : ﴿ أنى يحيى هذه ﴾ بمعنى كيف فتكون منصوبة على الحالية من اسم الإشارة ويجوز أن تكون ﴿ أنى ﴾ هنا بمعنى متى أى : متى يحيى الله هذه القرية بعد موتها فتكون منصوبة على الظرفية .

وقال القرطبي : قوله : ﴿ أنى يحيى هذه الله بعد موتها ﴾ معناه من أى طريق وبأى سبب ، وظاهر اللفظ السؤال عن إحياء القرية بعمارة وسكان ، كما يقال الآن فى المدن الخربة يبعد أن تعمر وتسكن أى : أنى تعمر هذه بعد خرابها . فكأن هذا تلهف من الواقف المعبر على مدينته التى عهد فيها أهله وأحبته^(٢) .

(١) تفسير الألوسى ج ٣ ص ١٩ .

(٢) تفسير القرطبي ج ٣ صفحة ٢٩٩ .

وقوله هذا إنما هو تساؤل عن كيفية الإعادة لا عن أصل الإعادة لأنه كان مؤمنا بالبعث والنشور، إلا أنه لما رأى جبال القرية على تلك الصورة من الخراب تعجب من قدرة الله على إحيائها، وتشوق إلى عمارتها واعترف بالعجز عن معرفة طريق الإحياء. فماذا كانت نتيجة هذا التساؤل؟ كانت نتيجته كما حكاه القرآن: ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت؟ قال لبثت يوماً أو بعض يوم﴾.

أى: بعد أن قال هذا الذى مر على تلك القرية الخاوية على عروشها ما قال، ألبثه الله - تعالى - فى الموت مائة عام ﴿ثم بعثه﴾ أى أحياه ببعث روحه إلى بدنه ﴿قال كم لبثت﴾ أى كم مدة من الزمان لبثتها على هذه الحال؟ ﴿قال لبثت يوماً أو بعض يوم﴾.

وقال - سبحانه - : ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾ ولم يقل ثم أحياه، للدلالة على أنه عاد كهيئته يوم مات عاقلاً فاهماً مستعداً للنظر والاستدلال وكان ذلك بعد عمارة القرية وللإشهار بسرعه وسهولة تأتية على البارى - سبحانه - .

قال ابن كثير: كان أول شيء أحيأ الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه كيف يحيى بدنه فلما استقل سويّاً قال الله له بواسطة الملك ﴿كم لبثت﴾؟ ﴿قال لبثت يوماً أو بعض يوم﴾ وذلك أنه مات أول النهار ثم بعثه الله فى آخر النهار فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم فقال: ﴿أو بعض يوم﴾^(١).

وقوله: ﴿قال كم لبثت﴾ استئناف مبنى على سؤال كأنه قيل: فماذا قال له بعد بعثه؟ فقيل: قال كم لبثت ليظهر له العجز عن الإحاطة بشئون الله - تعالى - على أتم وجه وتحنس مادة استبعاده بالمرّة.

وكم منصوبة على الظرفية ومميزها محذوف والتقدير كم يوماً أو وقتاً والناصب لها قوله: ﴿لبثت﴾.

وفى هذه الجملة الكريمة بيان للناس بأن الموت يشبه النوم، وأن البعث يشبه اليقظة بعده وأنه لا شيء محال على الله - تعالى - فهو القائل: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾.

وفى الحديث الشريف: والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً، وإنما لجنة أبدأ، أو لنار أبدأ».

وقوله - تعالى - : ﴿قال بل لبثت مائة عام﴾ معطوف على مقدر، أى: ليس الأمر كما قلت إنك لبثت يوماً أو بعض يوم بل إنك لبثت مائة عام ثم أرشده - سبحانه - إلى التأمل فى أمور

فيها أبلغ دلالة على قدرة الله تعالى وعلى صحة البعث فقال - سبحانه - : ﴿فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه، وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً﴾ .

قوله : ﴿لم يتسنه﴾ أى لم يتغير بمرور السنين الطويلة ولم تذهب طراوته فكأنه لم تمر عليه السنون ولفظ يتسنه : مشتق من السنة، والهاء فيه أصلية إذا قدر لام سنة هاء، وأصلها سنة لتصغيرها على سنيها وجمعها على سنهات كسجدة وسجدات، ولقوهم : سانهته إذا عاملته سنة فسنة، وتسنه عند القوم إذا أقام فيهم سنة . أو الهاء للوقف نحو كتابيه وجزمه بحذف حرف العلة إذا قدر لام سنه واوا، وأصلها سنوه لتصغيرها على سنية وجمعها على سنوات .

وقوله : ﴿ننشزها﴾ أى نرفعها . يقال : أنشز الشيء إذا رفعه من مكانه . وأصله من النشز - بفتحين وبالسكون - وهو المكان المرتفع . وقرئ ﴿ننشزها﴾ - بضم النون والراء - أى نحيتها من أنشز الله الموتى أى أحياهم . والمعنى : قال الله - تعالى - لهذا الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها إنك لم تلبث يوماً أو بعض يوم فى الموت كما تظن بل لبثت مائة عام فإن كنت فى شك من ذلك فانظر إلى طعامك وشرابك لتشاهد أمراً آخر من دلائل قدرتنا فإن هذا الطعام والشراب كما ترى لم يتغير بمرور السنين وكر الأعوام بل بقى على حالته . وانظر إلى حمارك كيف نخرت عظامه، وتفرقت أوصاله مما يشهد بأنه قد مرت عليه السنوات الطويلة .

وقوله : ﴿ولنجعلك آية للناس﴾ معطوف على محذوف متعلق بفعل مقدر قبله بطريق الاستثناف مقرر لمضمون ما سبق، والتقدير : فعلنا ما فعلنا لترى وتشاهد بنفسك مظاهر قدرة الله، ولنجعلك آية معجزة ودليلاً على صحة البعث وقوله : ﴿وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً﴾ أى انظر وتأمل فى هذه العظام كيف نركب بعضها فى بعض بعد أن نوجدتها .

وقيل المعنى : وانظر إلى العظام أى عظام حمارك التى تفرقت وتناثرت لتشاهد كيف نرفعها من الأرض فنردها إلى أماكنها فى جسده .

قال ابن كثير : قال السدى وغيره : تفرقت عظام حمارة يمينا وشمالا حوله فنظر إليها وهى تلوح من بياضها، فبعث الله ريحا فجمعتها من كل موضع، ثم ركب كل عظم فى موضعه، وذلك كله بمرأى من العزيز^(١) .

وجاء الضمير فى قوله : ﴿لم يتسنه﴾ بالإفراد مع أن المتقدم طعام وشراب، لأنها متلازمان

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣١٤ .

بمعنى أن أحدهما لا يكتفى به عن الآخر فصارا بمنزلة شيء واحد، فكأنه قال: انظر إلى غذائك.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ أى: فلما تبين له بالأدلة الناصعة، وبالمشاهدة الحسية قدرة الله - تعالى - على الإحياء والإماتة، وعلى البعث والنشور قال أعلم أى أستيقن وأومن وأعتقد أن الله - تعالى - على كل شيء قدير، وأنه - سبحانه - لا يعجزه شيء. والفاء فى قوله: ﴿فلما تبين له...﴾ عاطفة على مقدر يستدعيه المقام فكأنه قيل: رفع الله العظام من أماكنها وأكساها لحما فلما تبين له ذلك، وتيقنه قال أعلم أن الله على كل شيء قدير. وفاعل ﴿تبين﴾ مضمرة يفسره سياق الكلام والتقدير: فلما تبين له كيفية الإحياء أو فلما تبين له ما أشكل عليه من أمر إحياء الموتى قال أعلم أن الله على كل شيء قدير.

تلك هى القصة الأولى التى ساقها الله - تعالى كدليل على قدرته وعلى صحة البعث والنشور. أما القصة الثانية التى تؤكد هذا المعنى فقد حكاها القرآن فى قوله: ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحمى الموتى﴾ أى: واذكر أيها العاقل لتعتبر وتتعضد وقت أن قال إبراهيم - عليه السلام - مخاطباً خالقه - سبحانه - : رب أرنى بعينى كيف تعيد الحياة إلى الموتى. وفى قوله: (رب) تصريح بكمال أدبه مع خالقه - عز وجل - فهو قبل أن يدعوه يستعطفه ويعترف له بالربوبية الحققة، والألوهية التامة، ويلتمس منه معرفة كيفية إحياء الموتى، فهو لا يشك فى قدرة الله ولا فى صحة البعث - وحاشاه أن يفعل ذلك - فهو رسول من أولى العزم من الرسل، وإنما هو يريد أن ينتقل من مرتبة علم اليقين إلى عين اليقين، ومن مرتبة البرهان إلى مرتبة العيان، فإن العيان يغرس فى القلب أسمى وأقوى ألوان المعرفة والاطمئنان.

وقد ذكر المفسرون لسؤال إبراهيم - عليه السلام - أسبابا منها: أنه لما قال للنمرود ﴿ربى الذى يحى ويميت﴾ أحب أن يترقى بأن يرى ذلك مشاهدة. وقد أجاب الخالق - عز وجل - على طلب إبراهيم بقوله: ﴿أولم تؤمن﴾ أى: أتقول ذلك وتطلبه ولم تؤمن بأنى قادر على الإحياء وعلى كل شيء؟

فالجملة الكريمة استئناف مبنى على السؤال، وهى معطوفة على مقدر، والاستفهام للتقرير. وهنا يحكى القرآن جواب إبراهيم على خالقه - عز وجل - فيقول: ﴿قال بلى ولكن ليطمئن قلبى﴾. أى قال إبراهيم فى الرد على سؤال ربه له ﴿أولم تؤمن﴾؟ بلى يارب آمنت بك وبقدرتك وبوحدانيتك إيمانا صادقا كاملا، ولكنى سألت هذا السؤال ليزداد قلبى سكونا واطمئنانا وإيمانا لأن من شأن المشاهدة أن تغرس فى القلب سكونا واطمئنانا أشد، وإيمانا

أقوى، وأنا في جميع أحوالي مؤمن كل الإيمان بقدرتك ووحدانيتك يارب العالمين.
قال القرطبي ما ملخصه: لم يكن إبراهيم شاكفاً إحياء الله الموقظ وإنما طلب المعانية، وذلك أن النفوس مستشرفة إلى رؤية ما أخبرت به، ولهذا جاء في الحديث (ليس الخبير كالمعانية)، قال الأخفش: لم يرد إبراهيم رؤية القلب وإنما أراد رؤية العين. وقال الحسين: سأل ليزداد يقينا إلى يقينه.

وأما قول الرسول ﷺ: نحن أحق بالشك من إبراهيم فمعناه أنه لو كان شاكاً لكننا نحن أحق بالشك منه، ونحن لا نشك في إبراهيم - عليه السلام - أخرى ألا يشك، فالحديث مبني على نفي الشك عن إبراهيم. . وإذا تأملت سؤاله - عليه السلام - وسائر الفاظه الآتية لم تعط شكاً، وذلك أن الاستفهام بكيف إنما هو سؤال عن حالة شيء موجود متقرر الوجود عند السائل والمسئول، وكيف هنا إنما هي استفهام عن هيئة الإحياء والإحياء متقرر، - فسؤال إبراهيم إنما هو عن الكيفية لا عن أصل القضية. .^(١)

وقال صاحب الكشاف: فإن قلت: كيف قال له ﴿أولم تؤمن﴾ وقد علم أنه أثبت الناس إيماناً؟ قلت: ليجيب بما أجاب به لما فيه من الفائدة الجلية للسامعين. و﴿بلى﴾ إيجاب لما بعد النفي معناه: بلى آمنت. وقوله: ﴿ولكن ليطمئن قلبي﴾ أي ليزداد سكونا وطمأنينة بمضامة علم الضرورة - أي علم المشاهدة - إلى علم الاستدلال الذي يجوز معه التشكيك بخلاف العلم الضروري، فأراد بطمأنينة القلب العلم الذي لا مجال فيه للتشكيك. فإن قلت: بم تعلقت اللام في قوله: ﴿ليطمئن﴾ قلت بمحذوف تقديره: ولكن سألت ذلك إرادة طمأنينة القلب^(٢).

ثم حكى القرآن بعد ذلك ما كان من جواب الخالق - عز وجل - على نبيه إبراهيم فقال: ﴿قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً﴾.

قوله: ﴿فصرهن إليك﴾ أي فاضمهن إليك - قرئ بضم الصاد وكسرهما وتخفيف الراء - يقال: صاره يصوره ويصيره، أي أماله وضمه إليه. ويقال - أيضاً صار الشيء بمعنى قطعه وفصله والمعنى: قال الله - تعالى - لإبراهيم: إذا أردت معرفة ما سألت عنه فخذ أربعة من الطير فاضمهن إليك لتأملهن وتعرف أشكالهن وهيئاتهن كيلا تلتبس عليك بعد الإحياء، ثم ادبحهن وجزئهن أجزاءً^(٣) ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً^(٤) أي ثم اجعل على كل مكان

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٩٧.

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٠٨.

مرتفع من الأرض جزءا من كل طائر من تلك الطيور ثم نادهن يأتينك مسرعات إليك . والفاء في قوله ﴿فخذ﴾ هي التي تسمى بالفاء الفصيحة لأنها تفصح عن شرط مقدر أي : إذا أردت ذلك فخذ . .

وقوله : ﴿من الطير﴾ متعلق بمحذوف صفة لأربعة أي فخذ أربعة كائنة من الطير، أو متعلق بقوله ﴿خذ﴾ أي خذ من الطير . والطير اسم جمع - كركب وسفر - وقيل هو جمع طائر مثل تاجر وتجرجر . قالوا : وهذه الطيور الأربعة هي الطاووس والنسر والغراب والديك .

ومما قالوه في اختيار الطير لهذه الحالة : أن الطير من صفاته الطيران، وأنه لا يستأنس بالإنسان بل يطير بمجرد رؤيته، ولسهولة تأق ما يفعل به من التجزئة والفرقة .

وقوله : ﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا﴾ معطوف على محذوف دل عليه قوله : ﴿جزءا﴾ لأن تجزئتهن إنما تقع بعد الذبح والتقدير : فاذبحهن ثم اجعل . . إلخ . وقوله : ﴿ثم ادعهن﴾ أي قل لهن تعالين بإذن الله .

وقوله ﴿يأتينك﴾ جواب الأمر فهو في محل جزم، ﴿سعيًا﴾ منصوب على المصدر النوعي، لأن السعى نوع من الإتيان فكأنه قيل : يأتينك إتيانًا سريعًا :

قال الفخر الرازي : أجمع أهل التفسير على أن المراد بالآية : قطعهن، وأن إبراهيم قطع أعضائها ولحومها وريشها ودماءها وخلط بعضها ببعض - وفعل كما أمره الله، ثم قال لهن تعالين بإذن الله فأقبلن مسرعات إليه بعد أن انضم بكل جزء إلى أصله - ثم قال : ولكن أبا مسلم أنكروا ذلك وقال : إن إبراهيم لما طلب إحياء الميت من الله - تعالى - أراه الله مثالا قرب به الأمر عليه، والمراد بصرهن إليك : الإمالة والتمرين على الإجابة . أي : فعود الطيور الأربعة أن تصير بحيث إذا دعوتها أجابتك وأتتك، فإذا صارت كذلك فاجعل على كل جبل واحدا حال حياته، ثم ادعهن يأتينك سعيًا، والغرض منه ذكر مثال محسوس في عود الأرواح إلى الأجساد على سبيل السهولة . . «(١)» .

والذي يطمئن إليه القلب هو رأى الجمهور لأن الآية مسوقة لتحقيق معجزة تجرى على يد إبراهيم وهي إحياء الموتى بالمشاهدة كما جرى إحياء الرجل الذي أماته الله مائة عام والذي جاء ذكره في الآية السابقة، ولأن ظاهر الآية صريح في أنه حصل تقطيع لأجزاء الطير ثم وضع كل جزء منها على مرتفع من الأرض، وما دام الأمر كذلك فلا يجوز حمل المعنى على غير هذا الظاهر، كما لا يجوز تحميل الألفاظ ما لا تحتمله . وما ذهب إليه أبو مسلم هو قول بلا دليل فضلا عن مخالفته لما عليه إجماع المفسرين .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ أى واعلم أن الله - تعالى - غالب على أمره، قاهر فوق عباده، حكيم فى كل شئونه وأفعاله وبذلك نرى أن الآيتين الكريمتين قد ساقتا بأبلغ الأدلة والشواهد على قدرة الله - تعالى - وعلى أنه هو المستحق للعبادة والخضوع، وعلى أن ما أخبر به من صحة البعث والنشور حق لا ريب فيه .
ثم حض الله - تعالى - عباده على الإنفاق فى سبيله، ووعدهم على ذلك بجزييل الثواب، فقال - تعالى - :

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ
 أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ
 لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣١١﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَىٰ لَهُمْ
 أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣١٢﴾

ذكر بعض المفسرين أن هاتين الآيتين نزلتا فى صدقة عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان، وذلك أن رسول الله ﷺ لما حث الناس حين أراد الخروج إلى غزوة تبوك، جاء عبد الرحمن بأربعة آلاف درهم فقال : يا رسول الله كانت لى ثمانية آلاف فأمسكت لنفسى ولعيالى أربعة آلاف، وأربعة آلاف أقرضتها لربى، فقال رسول الله ﷺ «بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت». وجاء عثمان بألف دينار فى جيش العسرة فصبتها فى حجر الرسول ﷺ قال عبد الرحمن بن سمرة - راوى الحديث - فرأيته ﷺ يدخل يده فيها ويقبلها ويقول : «ماض ابن عفان ما عمل بعد اليوم اللهم لا تنس هذا اليوم لعثمان». وقال أبو سعيد الخدرى : رأيت النبى ﷺ رافعا يديه يدعو لعثمان ويقول : «يارب عثمان إني رضيت عن عثمان فارض عنه». ونزول هاتين الآيتين فى شأن صدقة هذين الصحابين الجليلين لا يمنع من شمولهما لكل من شجع نهجها، وبذل من ماله فى سبيل الله .

و«المثل»، الشبه والنظير. ثم أطلق على القول السائر المعروف لمماثلة مضربه لمورده الذى ورد فيه أولا. ثم استعير للصفة أو الحال أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة، وعلى هذا المعنى يحمل المثل فى هذه الآية.

و «الحبة» كما يقول القرطبي - اسم جنس لكل ما يزرعه ابن آدم ويقتاته، وأشهر ذلك البر فكثيرا ما يراد بالحب.

وسنبلة - بوزن فعلة - من أسبل الزرع إذا صار فيه السنبل، أى استرسل بالسنبل كما يسترسل الستر بالاسبال. وقيل: معناه صار فيه حب مستور كما يستر الشيء بإسبال الستر عليه. والجمع سنابل^(١).

والمعنى: مثل صدقة الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، أى: فى طاعته، كمثل حبة ألقىت فى أرض طيبة، أصابها الغيث، فخرجت الحبة على هيئة زرع قوى جميل فأنبئت فى الوقت المناسب لإنباتها سبع سنابل فى كل سنبله مائة حبة.

فأنت ترى أن الخالق - عز وجل - قد شبه حال الصدقة التى يبذلها المؤمن فى سبيل الله فيكافئه الله - تعالى - عليها بالثواب العظيم، بحال الحبة التى تلقى فى الأرض النقية فتخرج عودا مستويا قائما قد تشعب إلى سبع شعب، فى كل شعبة سنبله، وفى كل سنبله مائة حبة. وفى هذا التشبيه ما فيه من الحظ على الإنفاق فى وجوه الخير، ومن الترغيب فى فعل البر ولا سيما النفقة فى الجهاد فى سبيل الله.

قال ابن كثير: وهذا المثل أبلغ فى النفوس من ذكر عدد السبعمائة. فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله - تعالى - لأصحابها كما ينمى الزرع لمن بذره فى الأرض الطيبة^(٢).

وقال - سبحانه - : ﴿ كمثل حبة أنبتت ﴾ فأسند الإنبات إلى الحبة، مع أن المنبت فى الحقيقة هو الله، وذلك لأنها سبب لوجود تلك السنابل المليئة بالحب، ولأنها هى الأصل لما تولد عنها.

ثم قال - تعالى - : ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾ أى والله - تعالى - يضاعف الثواب والجزاء أضعافا كثيرة لمن يشاء من عباده، فيعطى بعضهم سبعمائة ضعف، ويعطى بعضهم أكثر من ذلك، لأن الصدقة يختلف ثوابها باختلاف حال المتصدق، فمتى خرجت منه بنية خالصة، وقلب سليم، ونفس صافية، ومن مال حلال، ووضعت فى موضعها المناسب، متى كانت كذلك كان الجزاء عليها أوفر، والمضاعفة لها تزيد على سبعمائة ضعف. إذ عطاء الله لمن يشاء من عباده ليس له حدود، وثوابه ليس له حساب معدود.

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٣٠٢، ٣٠٦.

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣١٦.

ولذا ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿والله واسع عليم﴾ أى والله - تعالى - عطاؤه واسع ، وجوده عميم ، وفضله كبير ، وهو - تعالى - عليم بنيات عباده وبأقوالهم وبأفعالهم وبسائر شؤونهم ، فيجازى كل إنسان على حسب نيته وعمله .

وقوله - تعالى - : ﴿الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله﴾ استئناف جىء به لبيان كيفية الإنفاق الذى يحبه الله ، ويجازى عليه المنفقين بالجزاء العظيم .

وقوله : ﴿ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى﴾ تحذير للمتصدق من هاتين الصفتين الذميتين لأنها مبطلتان لثواب الصدقة .

والمن معناه : أن يتناول المحسن بإحسانه على من أحسن إليه ، ويتفاخر عليه بسبب ما أعطاه من عطايا . كأن يقول على سبيل التفاخر والتعبير : لقد أحسنت إليك وأنقذتك من الفقر وما يشبه ذلك .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : والمن فى اللغة على وجوه : فقد يأتى بمعنى الإنعام . يقال : قد من الله على فلان . إذا أنعم عليه بنعمه . وقد يأتى بمعنى النقص من الحق والبخس له . قال - تعالى - : ﴿وإن لك لأجرا غير ممنون﴾ أى غير مقطوع وغير ممنوع ومنه سُمى الموت ممنونا لأنه يقطع الأعمار ، ومن هذا الباب المنة المذمومة لأنها تنقص النعمة وتكدرها ، والعرب يمتدحون بترك المن بالنعمة .

والمراد بالمن فى الآية المذموم الذى هو بمعنى «إظهار الاصطناع إليهم»^(١) .

وقال صاحب الكشف : المن : أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه ، ويريد أنه اصطنعه وأوجب عليه حقاله ، وكانوا يقولون : إذا صنعت صنيعة فانسوها . ول بعضهم .

وإن أمرؤ أسدى إلى صنيعة وذكرنيها إنه للثيم

وفى نوابغ الكلم : صنوان : من منح سائله ومن ، ومن منح نائله وضم^(٢) والمراد بالأذى فى الآية : أن يقول المعطى لمن أعطاه قولا يؤذيه ، أو يفعل معه فعلا يسىء به إليه ، وهو أعم من المن ، إذ المن نوع من الأذى لكنه نص عليه لكثرة وقوعه .

وجاء العطف بـثم فى الجملة الكريمة ، لإظهار التفاوت الشديد فى الرتبة بين الإنفاق الذى يحبه الله ، وبين الإنفاق الذى يصاحبه المن والأذى ، وللإشعار بأن المن والأذى بغضبان عند

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٧ ص ٤٩ .

(٢) تفسير الكشف ج ١ ص ٣١١ .

الإفناق وبعده، فعلى المنفق أن يستمر في أدبه وإخلاصه وقت الإفناق وبعده حتى لا يذهب ثوابه، إذ المن والأذى مبطلان للثواب في أى وقت يحصلان فيه.

قال الشيخ ابن المنير مبيناً أن ﴿ثم﴾ هنا تفيد استمرار الفعل بجانب إفادتها للتفاوت في الرتبة: وعندى فيها - أى في ثم - وجه آخر محتمل في هذه الآية ونحوها. وهو الدلالة على دوام الفعل المعطوف بها وإرخاء الطول في استصحابه. فهى على هذا لم تخرج عن الإشعار ببعده الزمن، ولكن معناها الأصلى تراخى زمن وقوع الفعل وحدوثه، ومعناها المستعار إليه دوام وجود الفعل وتراخى زمن بقاءه. وعليه حمل قوله: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ أى: داوموا على هذه الاستقامة دواما متراخيا ممتد الأمد. . . وكذلك قوله هنا «ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى» أى يدومون على تناسى الإحسان وعلى ترك الاعتداد به والامتنان والأذى. . . (١).

وكرر - سبحانه - النفى في قوله: ﴿ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى﴾ لتأكيد شموله لأفراد كل واحد منها، أى يجب ألا يقع منهم أى نوع من أنواع المن ولا أى نوع من أنواع الأذى. حتى لقد قال بعض الصالحين: «لئن ظننت أن سلامك يثقل على من أنفقت عليه بنفقة تبتغى بها وجه الله، فلا تسلم عليه».

ثم ختم - سبحانه - الآية ببيان عاقبة المنفقين بلا من ولا أذى فقال: ﴿لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أى: لهم جزاؤهم العظيم مكافأة لهم على أديهم وإخلاصهم، عند مربيهم ومالك أمرهم، ولا خوف عليهم مما سيجدونه في مستقبلهم، ولا هم يحزنون على ماضيهم، وذلك لأن الله - تعالى - قد أحاطهم برعايته في دنياهم وأخراهم وعوضهم عما فارقوه خير عوض وأكرمه.

ثم كرر - سبحانه - التحذير من المن والأذى، مناديا المؤمنين بأن يجتنبوا في صدقاتهم هاتين الرذيلتين، مبينا أن الكلمة الطيبة للفقير خير من إعطائه مع إذائه، استمع إلى القرآن الكريم وهو يسوق هذه المعانى وغيرها بأسلوبه البليغ المؤثر فيقول:

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا
أَذَىٰ ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ (٢١٣)

صَدَقْتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ
وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ
تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى
شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٦٤﴾

والمعنى: ﴿قول معروف﴾ بأن تقول للسائل كلاما جميلا طيبا تجبر به خاطره، ويحفظ له كرامته «ومغفرة» لما وقع منه من إلحاف في السؤال، وستر لحاله وصفح عنه، ﴿خير من صدقة يتبعها أذى﴾ أى خير من صدقة يتبعها المتصدق أذى للمتصدق عليه.

لأن الكلمة الطيبة للسائل، والستر عليه، والعفو عنه فيما صدر منه، كل ذلك يؤدي إلى رفع الدرجات عند الله، وإلى تهذيب النفوس، وتأليف القلوب وحفظ كرامة أولئك الذين مدوا أيديهم بالسؤال. أما الصدقة التي يتبعها الأذى فإن إيتاءها بتلك الطريقة يؤدي إلى ذهاب ثوابها، وإلى زيادة الآلام عند السائلين ولا سيما الذين يحرصون على حفظ كرامتهم، وعلى صيانة ماء وجوههم، فإن ألم الحرمان عند بعض الناس أقل أثرا في نفوسهم من آلام الصدقة المصحوبة بالأذى، لأن ألم الحرمان يخففه الصبر الذي وراءه الفرج، أما آلام الصدقة المصحوبة بالأذى لهم فإنها تصيب النفوس الكريمة بالجراح التي من العسير التئامها وشفائها.

قال القرطبي: روى مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «الكلمة الطيبة صدقة، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق». فعلى المستؤل أن يتلقى السائل بالبشر والترحيب، ويقابله بالطلاقة والتقريب ليكون مشكورا إن أعطى ومعدورا إن منع. وقد قال بعض الحكماء: الق صاحب الحاجة بالبشر فإن عدت شكره لم تعدم عذره»^(١).

وقوله: ﴿قول معروف﴾ مبتدأ وساغ الابتداء بالكرة لوصفها وللعطف عليها. وقوله: ﴿ومغفرة﴾ عطف عليه وسوغ الابتداء بها العطف أو الصفة المقدرة إذ التقدير ومغفرة للسائل أو من الله وقوله: ﴿خير﴾ خبر عنهما وقوله ﴿يتبعها أذى﴾ في محل جر صفة لصدقة.

ثم ختم الله - تعالى - الآية بقوله: ﴿والله غنى حلیم﴾ أى والله - تعالى - غنى عن إنفاق المنفقين وصدقات المتصدقين. وإنما أمرهم بها لمصلحة تعود عليهم. أو غنى عن الصدقة

المصحوبة بالأذى فلا يقبلها. ﴿حليم﴾ فلا يعجل بالعقوبة على مستحقها، فهو - سبحانه - يهمل ولا يهمل.

والجملة الكريمة تذييل لما قبله مشتملة على الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب.
وقوله - تعالى - : ﴿يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾ نداء منه - سبحانه - للمؤمنين يكرر فيه نهيهم عن المن والأذى، لأنها يؤديان إلى ذهاب الأجر من الله - تعالى - وإلى عدم الشكر من الناس ولذا جاء في الحديث الشريف : «إياكم والامتان المعروف فإنه يبطل الشكر ويمحق الأجر».

ثم أكد - سبحانه - هذا النهى عن المن والأذى بذكر مثلين فقال في أولهما : ﴿كالذى ينفق ماله رثاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾.

والمعنى : يا من آمنتُم بالله - تعالى - لا تبطلوا صدقاتكم بأن تحبطوا أجرها، وتحققوا ثمارها، بسبب المن والأذى، فيكون مثلكم في هذا الإبطال لصدقاتكم بسبب ما ارتكبتم من آثام، كمثل المنافق الذى ينفق ماله من أجل أن يرى الناس منه ذلك ولا يبيغى به رضاء الله ولا ثواب الآخرة، لأنه كفر بالله، وكفر بحساب الآخرة.

وفي هذا التشبيه تنفير شديد من المن والأذى لأنه - سبحانه - شبه حال المتصدق المتصف بهما في إبطال عمله بسببها بحال هذا المنافق المرائى الذى لا يؤمن بالله واليوم الآخر.

وقوله : ﴿كالذى..﴾ الكاف في محل نصب على أنها نعت لمصدر محذوف أى : لا تبطلوها إبطالا كابطال الذى ينفق ماله رثاء الناس... أو في محل نصب على الحال من فاعل ﴿تبطلوا﴾ أى لا تبطلوها مشابهين الذى ينفق ماله رثاء الناس.

وقوله : ﴿رثاء﴾ منصوب على أنه مفعول لأجله أى : كالذى ينفق ماله من أجل رثاء الناس.

وأما المثال الثانى فقال - سبحانه - : ﴿فمثلته كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا﴾.

﴿الصفوان﴾ اسم جنس جمعى واحده صفوانة كشجر وشجرة وهو الحجر الكبير الأملس، مأخوذ من الصفاء وهو خلوص الشيء مما يشوبه. يقال : يوم صفوان أى صافى الشمس. وقيل هو مفرد كحجر. و﴿الوابل﴾ المطر الشديد. يقال : وبلت السماء تبل وبلا ووبولا. اشتد مطرها و﴿الصلد﴾ هو الشيء الأجرد النقى من التراب الذى كان عليه. ومنه رأس أصلد إذا كان لا ينبت شعراً، والأصلد الأجرد الذى لا ينبت شيئاً مأخوذ من صلد يصلد صلدا فهو صلد.

والمعنى : يأبى المؤمنون لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى فيكون مثلكم كمثل المنافق الذى ينفق ماله من أجل الرياء لا من أجل رضا الله، وإن مثل هذا المنافق فى انكشاف أمره وعدم انتفاعه بما ينفقه رياءً وحباً للظهور كمثل حجر أملس لا يثبت شيئاً ولكن عليه قليل من التراب الموهم للنظر إليه أنه منتج فنزل المطر الشديد فأزال ما عليه من تراب، فانكشف حقيقته وتبين للنظر إليه أنه حجر أملس صلد لا يصلح لإنبات أى شىء عليه.

فالتشبيه فى الجملة الكريمة بين الذى ينفق ماله رياءً وبين الحجر الكبير الأملس الذى عليه قدر رقيق من التراب ستر حاله، ثم ينزل المطر فيزيل التراب وتكشف حقيقته ويراه الرائي عارياً من أى شىء يستره. وكذلك المنافق المرائى فى إنفاقه يتظاهر بمظهر السخاء أمام الناس ثم لا يلبث أن ينكشف أمره لأن ثوب الرياء يشف دائماً عما تحته، وإن لم يكشفه فإن الله كاشفه.

ومن المفسرين من يرى أن التشبيه فى الجملة الكريمة بين المنفق الذى يبطل صدقته بالمن والأذى وبين الحجر الأملس، وأن الضمير فى قوله : ﴿فمثلته كمثل صفوان﴾ يعود إلى هذا المبطل لصدقته بالمن والأذى. فيكون المعنى : لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى فيكون مثلكم كمثل الحجر الأملس الذى عليه تراب كان يرجى أن يكون منبتاً للزرع فنزل المطر فأزال التراب فبطل إنتاجه، فالمن والأذى يبطلان الصدقات ويزيلان أثرها النافع، كما يزيل المطر التراب الذى يؤمل منه الإنبات من فوق الحجر الأملس.

والذى نراه أن عودة الضمير فى قوله : ﴿فمثلته﴾ على الذى ينفق ماله رثاء الناس أظهر لأنه أقرب مذكور، ولأن التشبيه فى قوله : ﴿فمثلته كمثل صفوان﴾ قد جاء بلفظ المفرد وهو المناسب للذى ينفق ماله رثاء الناس لأنه مفرد مثله، بخلاف قوله : ﴿لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾ فإن الضمير فيه بلفظ الجمع، فمن الأولى أن يعود الضمير فى قوله : ﴿فمثلته﴾ إلى المرائى لتوافقهما فى الأفراد.

ثم قال - تعالى - : ﴿لا يقدرُونَ على شىء مما كسبوا﴾ أى أن الذين يبطلون صدقاتهم بالمن والأذى، والذين يتصدقون رياءً ومفاخرة لا يقدرُونَ على تحصيل شىء من ثواب ما عملوا لأن ما صاحب أعمالهم من رياءً ومن أذى محق بركتها، وأذهب ثمرتها، وأزال ثوابها.

أو المعنى : أن أولئك المنانين والمرائين ليس عندهم قدرة على شىء من المال الذى بين أيديهم وإنما هذا المال ملك لله وهو - سبحانه - الذى أنعم به عليهم، فعليهم أن يشكروه على هذه النعمة، وأن ينفقوه بدون من أو أذى أو مراعاة، حتى يظفروا بحسن المثوبة منه - سبحانه - .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿والله لا يهدى القوم الكافرين﴾ أى لا يهديهم إلى ما ينفعهم لأنهم آثروا الكفر على الإيمان.

والجملة الكريمة تذييل مقرر لمضمون ما قبله، وفيها إشارة إلى أن الإنفاق المصحوب بالمن والأذى والرياء ليس من صفات المؤمنين وإنما هو من صفات الكافرين، فعلى المؤمنين أن يجتنبوا هذه الصفات التي لا تليق بهم.

والذى ينظر في هذه الآيات الكريمة يرى أن الله - تعالى - قد حذر المنفقين من المن والأذى في ثلاث آيات متواليات، كما حذرهم من الرياء، وساق أكثر من تشبيه لتقبيح الصدقات التي لا تكون خالصة لوجه الله فلماذا كل هذا التشديد في النهي؟

والجواب عن ذلك: أن المن والأذى في الإنفاق كثيراً ما يحصلان بسبب استعلاء كاذب، أو رغبة في إذلال المحتاج وإظهاره بمظهر الضعيف: وكلا الأمرين لا يليق بالنفس المؤمنة المخلصة، ولا يتلاقى مطلقاً مع الحكم التي من أجلها شرعت الصدقات بل إنه ليتنافر معها تنافراً تاماً لأن الصدقات شرعها الله لتهديب النفوس وتطهير القلوب ولتربط بين الأغنياء والفقراء برباط المحبة والمودة والإخاء، فإذا ما صاحبها المن والأذى أثمرت نقيض ما شرعت له، لأنها تثير في نفس المعطى بسبب ذلك الكبر والخيلاء وغير ذلك من الصفات الذميمة، وتثير في نفس الآخذ شعوراً بالحقد والانتقام ممن أعطاه ثم آذاه وبذلك تنقطع الروابط، ويتمزق المجتمع، وتتحول المحبة إلى عداوة.

ولقد تحدث الإمام الرازى عن الآثار السيئة للمن والأذى فقال ما ملخصه:

وإنما كان المن مذموماً لوجوه:

الأول: أن الفقير الآخذ للصدقة منكسر القلب لأجل حاجته إلى صدقة، فإذا أضاف المعطى إلى ذلك إظهار الإنعام زاد ذلك في انكسار قلبه فيكون في حكم المضرة بعد المنفعة، وفي حكم المسئء إليه بعد أن أحسن إليه.

والثاني: أن إظهار المن يبعد أهل الحاجة عن الرغبة في صدقته إذا اشتهر من طريق ذلك.

الثالث: أن المعطى يجب أن يعتقد أن هذه النعمة من الله - تعالى - عليه - وأن يعتقد أن الله عليه نعماً عظيمة حيث وفقه لهذا العمل ومتى كان الأمر كذلك امتنع عن أن يجعل ما ينفقه منة على الغير.

الرابع: أن المعطى في الحقيقة هو الله، ومتى اعتقد العبد ذلك استنار قلبه، أما إذا اعتقد غير ذلك فإنه يكون في درجة البهائم الذين لا يترقى نظرهم عن المحسوس إلى المعقول، وعن الآثار إلى المؤثر. . . وأما الأذى فيتناول كل ذلك وغيره مما يسيء إلى الفقير بأن يقول له: فرج الله عنى منك، وأنت أبداً تأتي إلى بما يؤلم. إلخ^(١).

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٧ ص ٤٩.

هذا، وقد ساق الإمام ابن كثير عددًا من الأحاديث الشريفة التي نهت عن المن والأذى ومن ذلك ما جاء في صحيح مسلم عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: المنان بما أعطى، والمسبل إزاره، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب» وروى النسائي عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يدخل الجنة مدمن خمر، ولا عاق لوالديه، ولا منان»^(١).

وبعد أن بين القرآن سوء عاقبة الذين يراءون في صدقتهم، ويفسدون ثمارها بالمن والأذى، أتبع ذلك بيان حسن عاقبة الذين ينفقون أموالهم ابتغاء رضا الله، فقال - تعالى:

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ
وَتَثْبِيْتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ
فَأَنْتَ أَكْلَهَا ضَعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾

التبثيت: تحقيق الشيء وترسيخه،

والجنة - كما يقول الراغب - كل بستان ذى شجر يستر بأشجاره الأرض. وأصل الجن ستر الشيء على الحاسة، يقال: جنه الليل وأجنه أى ستره. وسميت الجنة بذلك لأنها تظل ما تحتها وتستره. ﴿والربوة﴾ - بضم الراء وفتحها - المكان المرتفع من الأرض. وأصلها من قولهم: ربا الشيء يربو إذا ازداد وارتفع ومنه الربا للزيادة المأخوذة على أصل الشيء.

والمعنى: ومثل الذين ينفقون أموالهم طلباً لرضى الله - تعالى - ﴿وتثبيتاً من أنفسهم﴾ أى: وتوطينا لأنفسهم على حفظ هذه الطاعة وعلى ترك ما يفسدها كمثل جنة بموضع مرتفع من الأرض نزل بها مطر كثير فأخرجت ثمرها (ضعفين) أى ضعفاً بعد ضعف فتكون الثنية للتكثير، أو فأعطت صاحبها أو الناس مثل ما كانت تثمر في سائر الأوقات بسبب ما أصابها من المطر الغزير. أو فأخرجت ثمرها ضعفين بالنسبة إلى غيرها من الجنان.

والمقصود تشبيه نفقة هؤلاء المؤمنين المخلصين في زكاتها وغماتها عند الله بتلك الحديقة الياضعة المرتفعة التي تنزل عليها المطر الغزير فأنت أكلها مضاعفاً وأخرجت للناس من كل زوج بهيج.

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣١٨.

وقوله: ﴿ابتغاء﴾ مفعول لأجله أى يبدلون نفقتهم من أجل رضا الله - عز وجل - أو حال من فاعل ينفقون. أى ينفقون أموالهم طالبين رضا الله.

وقوله: ﴿وتثبينا من أنفسهم﴾ معطوف على سابقه، وقد ذكر صاحب الكشاف أوجها في معنى هذه الجملة الكريمة فقال: قوله: ﴿وتثبينا من أنفسهم﴾ أى وليثبتوا منها يبذل المال الذى هو شقيق الروح على سائر العبادات الشاقة وعلى الإيمان، لأن النفس إذا رىضت بالتحامل عليها وتكليفها، ما يصعب عليها ذلت خاضعة لصاحبها وقل طمعها فى اتباعه لشهواتها وبالعكس، فكان إنفاق المال تثبينا لها على الإيمان واليقين. و﴿من﴾ على هذا الوجه للتبعض، مثلها فى قولهم: هز من عطفه وحرك من نشاطه. ويجوز أن يراد من قوله - تعالى - : ﴿وتثبينا من أنفسهم﴾ أى: وتصديقا للإسلام وتحقيقا للجزاء من أصل أنفسهم لأنه إذا أنفق المسلم ماله فى سبيل الله، علم أن تصديقه وإيمانه بالثواب من أصل نفسه ومن إخلاص قلبه. و﴿من﴾ على هذا الوجه لابتداء الغاية، كقوله - تعالى - : ﴿حسدا من عند أنفسهم﴾ ويحتمل أن يكون المعنى: وتثبينا من أنفسهم عند المؤمنين أنها صادقة الإيمان مخلصه فيه، وتعضد هذا المعنى قراءة مجاهد: وتبيننا من أنفسهم: فإن قلت: فما معنى التبعض؟ قلت: معناه أن من يبذل ماله لوجه الله فقد ثبت بعض نفسه، ومن بذل ماله وروحه معاً فهو الذى ثبتها كلها كما فى قوله - تعالى - : ﴿وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم﴾^(١).

وخصص الجنة بأنها بربرة لأن الأشجار فى المكان المرتفع من الأرض تكون عادة أحسن منظرا، وأزكى ثمرا، للطاقة هوائها، فكان من فوائد هذا القيد إعطاء وجه الشبه - وهو تضعيف المنفعة وجمالها قوة ووضوحاً، كما أن من فوائده تحسين المشبه به تحسينا يعود أثره إلى المشبه عند السامع.

ثم قال - تعالى - : ﴿فإن لم يصبها وابل فطل﴾.

والطل: هو المطر القليل وجمعه طلال، وهو مبتدأ محذوف الخبر أى فطل قليل يصيبها يكفيها.

والمراد أن هذه الجنة لطيبها وكرم منبتها تزكو وتثمر كثر المطر النازل عليها أو قل فكذلك نفقة المؤمنين المخلصين تزكو عند الله وتطيب كثرت أو قلت، لأن إخلاصهم فيها جعلها عند الله - تعالى - مضاعفة نامية.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿والله بما تعلمون بصير﴾.

(١) تفسير الكشاف ج ١ صفحة ٣١٣ بتصرف يسير.

أى أنه - سبحانه - عليم بأحوال عباده لا تخفى عليه خافية، وسيجازى المخلصين بما يرضيهم كما سيجازى المنانين والمرائين بما يستحقون. ففي الجملة الكريمة ترغيب وترهيب ووعيد.

وبذلك نرى القرآن الكريم قد ساق في هذه الآية وسابقتها حالتين متقابلتين: حالة الذى يبطل صدقته بالمن والأذى والرياء، وكيف تكون عاقبته ونهايته. وحالة الذى ينفق ماله طلباً لرضا الله وتعويذاً لنفسه على فعل الطيبات وكيف يكون جزاؤه عند العليم الخبير ولقد صور القرآن هاتين الحالتين تصويراً مؤثراً بديعاً، من شأنه أن يهدى العقلاء إلى فعل الخيرات، وإخلاص النيات، واجتناب السيئات.

ثم ساق القرآن آية كريمة حذر فيها الناس من ارتكاب ما نهى الله عنه وبين فيها كيف أن المن والأذى والرياء وما يشبه ذلك من رذائل يؤدي إلى ذهاب الشيء النافع من بين يدي صاحبه وهو أحوج ما يكون إليه. استمع إلى القرآن وهو يصور نهاية هذا الإنسان البائس.

أَيُّودٌ أَحَدَكُمُ أَنْ تَكُونَ

لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ

فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضَعْفَاءٌ

فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ

لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٣٦﴾

قوله: ﴿أَيُّودٌ﴾ هو من الود بمعنى المحبة الكاملة للشيء وتمنى حصوله، والاستفهام فيه للإنكار و﴿الإعصار﴾ ريح عاصفة تنعكس من الأرض إلى السماء مستديرة كالعمود، وهى التى يسميها بعض الناس زوبعة. وسميت إعصاراً لأنها تعصر ما تمر به من الأجسام، أو تلتف كما يلتف الثوب المعصور. والريح مؤنثة وكذا سائر أسمائها إلا الإعصار فإنه مذكر ولذا قيل ﴿فيه نار﴾ أى سموم وصواعق.

والمعنى: يجب أحدكم - أيها المنانون المراءون - أن تكون له جنة. معظم شجرها ﴿من

نخيل وأعناب ﴿ تجرى من تحت أشجارها ﴿ الأنهار له فيها من كل الثمرات ﴾ النافعة، والحال أنه قد أصابه الكبر الذى أقعده عن الكسب من غير تلك الحديقة اليانعة، وله فضلا عن شيخوخته وعجزه ذرية ضعفاء لا يقدرّون على العمل، وبيننا هو على هذه الحالة إذا بالجنة ينزل عليها إعصار فيه نار فيحرقها ويدمرها ففقدتها صاحبها وهو أحوج ما يكون إليها وبقي هو وأولاده فى حالة شديدة من البؤس والحيرة والغم والحسرة لحرمانه من تلك الحديقة التى كانت محط آماله.

فالآية الكريمة قد اشتملت على مثل آخر لحالة الذين يبطلون أعمالهم وصدقاتهم بالمن والأذى والرياء، وغير ذلك من الأفعال القبيحة والصفات السيئة فقد شبه - سبحانه - حال من يعمل الأعمال الحسنة ثم يضم إليها ما يفسدها فإذا كان يوم القيامة واشتدت حاجته إليها وجدها محبطة ذاهبة، شبه هذا الإنسان فى حسرته وألمه وحزنه بحال ذلك الشيخ الكبير العاجز الذى له ذرية ضعفاء لا يملك سوى حديقة يانعة يعتمد عليها فى معاشه هو وأولاده فنزل عليها إعصار فيه نار فأحرقها ودمرها تدميراً.

وحذف - سبحانه - حالة المشبه وهو الذى يبطل صدقته بالمن والأذى والرياء وما يشبه ذلك، لظهورها من المقام.

وقد وصف - سبحانه - تلك الجنة بثلاث صفات :

وصفها أولاً : بأنها من نخيل وأعناب أى معظمها من هذين الجنسين النفيسين اللذين هما أنفع الفواكه وأجملها منظرًا.

ووصفها ثانيًا : بأنها تجرى من تحتها الأنهار، أى تجرى من تحت أشجارها الأنهار التى تسر النفس. وتبهج القلب، وتزيد فى حسن الجنة وبهائها.

ووصفها ثالثًا : بأنها زاخرة بكل أنواع الثمار التى تنفع صاحبها، وتغنيه عن الاحتياج إلى غيره، فهى جنة قد جمعت بين حسن المنظر، وكثرة النفع، وهذا نهاية ما يتمناه كل إنسان لما يملكه.

أما صاحبها فقد وصفه - سبحانه - بأنه إنسان قد أصابه الكبر وله ذرية ضعفاء أى أنه فى منتهى الاحتياج إليها لكبر سنه وعجزه عن الاكتساب من غيرها ولمسئوليته عن الإنفاق على أولاد صغار لا يعولهم أحد سواه.

تلك هى حالة الجنة وحالة صاحبها فى احتياجه إليها، فماذا حدث بعد ذلك ؟ لقد أصابها ﴿ إعصار فيه نار فاحترقت ﴾ فماذا يكون حال هذا الإنسان الذى أصابه الكبر وله ذرية ضعفاء وهو يرى جنته ومحط أمله قد احترقت وهو فى أشد الحاجة إلى ظلها وثمارها ومنافعها ؟

إن الكلمات لتعجز عن تصوير ما يصيب هذا البائس من غم وهم وحزن وحسرة، وهو يرى جنته قد احترقت وهو في أشد أوقاته حاجة إلى ظلها وثمارها ومنافعها؟! ولكأن الله - تعالى - يقول للناس بعد هذا التصوير البديع المؤثر: احذروا أن تبطلوا أعمالكم الصالحة بإرتكابكم لما نهى الله عنه، فلا تجدون لها نفعاً يوم القيامة وأنتم في أشد الحاجة إليها في هذا اليوم العصيب، لأنكم إذا فعلتم ذلك كان مثلكم في التحسر والحزن كمثل هذا الشيخ الكبير الذى احترقت جنته وهو في أشد الحاجة إليها.

وإنه لتصوير قرآني في أسمى درجات البلاغة والتأثير، وفي أعلى ألوان التأديب والتهذيب. قال القرطبي: روى البخارى عن عبيد بن عمير قال: قال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يوماً لأصحاب النبي ﷺ فيم ترون هذه الآية نزلت وهي قوله - تعالى - : ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة﴾ الآية. قالوا الله أعلم. فغضب عمر فقال: قولوا نعلم أو لا نعلم فقال ابن عباس: في نفسى منها شيء يا أمير المؤمنين. قال عمر: يا ابن أخى قل ولا تحقر نفسك. قال ابن عباس: ضربت مثلاً لرجل غنى عمل بطاعة الله. ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أحرق عمله. وروى ابن أبى مليكة أن عمر تلا هذه الآية وقال: هذا مثل ضربه الله للإنسان يعمل عملاً صالحاً حتى إذا كان عند آخر عمره أحوج ما يكون إليه عمل العمل السئ»^(١).

ثم ختم - سبحانه - هذه الآية بقوله: ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾ أى: كما يبين الله في هذه الآية ما يهديكم وينفعكم يبين لكم آياته وهداياته في سائر أمور دينكم لكي تتفكروا فيما يصلحكم، وتعملوا ما يرضى خالقكم.

ثم وجه القرآن بعد ذلك نداء إلى المؤمنين أمرهم فيه بأن يتحروا في نفقتهم الحلال الطيب، بعد أن حضهم على الإنفاق بسخاء وإخلاص.

فقال - تعالى - :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا

لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢١٨.

بِأَخْذِهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ
 ﴿٦٦٧﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ
 وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٦٨﴾
 يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ
 أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٦٦٩﴾

قال ابن كثير: عن البراء بن عازب - رضى الله عنه - في قول الله تعالى: ﴿يأياها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم﴾ .. الآية قال: نزلت في الأنصار كانت الأنصار إذا كانت أيام جذاذ النخل أخرجت من نخيلها البسر فعلقوه على جبل بين الاسطوانتين في مسجد رسول الله ﷺ فيأكل فقراء المهاجرين منه، فيعمد الرجل منهم إلى الحشف - أى التمر الرديء - فيدخله مع أفناء البسر يظن أن ذلك جائز فأنزل الله فيمن فعل ذلك الآية^(١).

والمعنى: يأياها الذين آمنوا اجعلوا نفقتكم التى تنفقونها فى سبيل الله من أطيب أموالكم التى اكتسبتموها عن طريق التجارة وغيرها.

قال ابن عباس: أمرهم الله - تعالى - بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه، ونهاهم عن التصدق بردالة المال ودينه وخبيثه، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً قال - تعالى - : ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾.

وقوله: ﴿وما أخرجنا لكم من الأرض﴾ معطوف على ما قبله أى أنفقوا من طيبات أموالكم التى اكتسبتموها ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الأرض من الحبوب والثمار والزرع وغيرها. وترك - سبحانه - ذكر كلمة الطيبات فى هذه الجملة لسبق ذكرها فى الجملة التى قبلها. فالآية الكريمة تأمر المؤمنين بأن يلتزموا فى نفقتهم المال الطيب فى كل وجه من وجوهه، بأن يكون جيداً نفيساً فى صنفه، وحلالاً مشروعاً فى أصله.

وقد أكد الله - تعالى - هذا الأمر بجملتين كريمتين فقال: ﴿ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخذه إلا أن تغمضوا فيه﴾.

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٢١.

قوله - تعالى - : ﴿ولا تيمموا﴾ أى ولا تقصدوا وتتعمدوا. يقال : تيممت الشيء ويممته إذا قصدته. ويقال : يممت جهة كذا إذا قصدته. ومنه الإمام لأنه المقصود المعتمد وأصل تيمموا تيمموا فحذفت إحداهما تخفيفاً.

والخبيث هو الردىء من كل شيء وخبيث الفضة والحديد ما نفاه الكير لأنه ينفي الردىء. ويطلق الخبيث على الشيء الحرام والمستقذر.

والإغماض فى اللغة - كما يقول الرازى - غض النظر وإطباق جفن على جفن، وأصله من الغموض وهو الخفاء، والمراد بالإغماض هاهنا المساهلة وذلك لأن الإنسان إذا رأى ما يكره أغمض عنه لئلا يرى ذلك. ثم كثر ذلك حتى جعل كل تجاوز ومساهلة فى البيع وغيره إغماضاً^(١).

والمعنى : أنفقوا أيها المؤمنون من أطيب أموالكم وأنفسها وأجودها، ولا تتحروا وتقصدوا أن يكون إنفاقكم من الخبيث الردىء، والحال أنكم لا تأخذونه إن أعطى لكم هبة أو شراء أو غير ذلك إلا أن تساهلوا فى قبوله، وتغضوا الطرف عن رداءته، وإذا كان هذا شأنكم فى قبول ما هو ردىء فكيف تقدمونه لغيركم؟ إن الله - ينهاكم عن ذلك لأن من شأن المؤمن الصادق فى إيمانه ألا يفعل لغيره إلا ما يجب أن يفعله لنفسه، ولا يعطى من شيء إلا ما يجب أن يعطى إليه، ففى الحديث الشريف : «عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به».

قال الألوسى : وقوله : ﴿منه تنفقون﴾ الضمير المجرور يعود للخبيث، وهو متعلق بتنفقون، والتقديم للتخصيص، والجملة حال مقدرة من فاعل ﴿تيمموا﴾ أى لا تقصدوا الخبيث قاصرين الإنفاق عليه، أو من الخبيث أى مختصاً به الإنفاق، وأيا ما كان لا يرد أنه يقتضى أن يكون النهى عن الخبيث الصرف فقط مع أن المخلوط أيضاً كذلك لأن التخصيص لتوبيخهم بما كانوا يتعاطون من إنفاق الخبيث خاصة.

وقوله : ﴿ولستم بأخذيه﴾ حال من ضمير ﴿تنفقون﴾ أى : والحال أنكم لستم بأخذيه فى وقت من الأوقات أو بوجه من الوجوه إلا وقت إغماضكم فيه^(٢).

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿واعلموا أن الله غنى حميد﴾ أى واعلموا أن الله - تعالى - غنى عن صدقاتكم وإنما أمركم بها لمنفعتكم، ﴿حميد﴾ يجازى المحسن أفضل الجزاء، وهو - سبحانه - المستحق للحمد الحقيقى دون سواه، فمن الواجب عليكم أن تبدلوا فى سبيله الجيد من أموالكم شكراً له على نعمه حتى يزيدكم من عطائه وآلائه.

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٧ ص ٦٨.

(٢) تفسير الألوسى ج ٣ ص ٣٩ بتلخيص.

ثم حذر الله - تعالى - المؤمنين من وساوس الشيطان وخطواته فقال: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾.

قوله: ﴿يعدكم﴾ من الوعد، وهو في أصل وضعه لغة شائع في الخير والشر، وأما في الاستعمال الشائع فالوعد في الخير والإيعاد في الشر. وقد استعمل هنا في الشر نظراً إلى أصل الوضع، لأن الفقر مما يراه الإنسان شراً ولذلك يخوف الشيطان به المنفقين فيقول لهم: لا تنفقوا الجيد من أموالكم لأن إنفاقكم هذا يؤدي إلى فقركم ونضوب ما بين أيديكم من أموال. والفقر هو ما يصيب الإنسان من سوء في الحال ومن ضعف بسبب قلة المال، وأصل الفقر في اللغة كسر فقار الظهر، ثم وصف الإنسان المحتاج الضعيف بأنه فقير تشبيهاً له بمن كسر فقار ظهره فأصبح عاجزاً عن الحركة لأن الظهر هو مجمع الحركات، ومنه تسميتهم المصيبة فاقرة، وقاصمة الظهر.

والفحشاء والفحش والفاحشة ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال، ويرى كثير من العلماء أن المراد بالفحشاء في الآية البخل الشديد فإن كلمة الفاحش تطلق في لغة العرب على البخل الشديد البخل، ومن ذلك قول طرفة بن العبد.

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد^(١)

والمعنى: الشيطان يوعدكم إذا أنفقتم بالفقر وضيع الأموال ويحذرکم من الصدقة بما يوسوس في نفوسكم من شرور وآثام، ويغريكم بارتكاب المعاصي التي من أقبحها البخل الشديد، والشح المهلك، فعليكم أن تحذروه وأن تنفقوا من أموالكم في سبيل الله ما يوصلكم إلى رضوانه ورحمته.

قال الجمل: وفي هذه الآية لطيفة وهي أن الشيطان يخوف الرجل أولاً بالفقر ثم يتوصل بهذا التخويف إلى أن يأمره بالفحشاء وهو البخل، وذلك لأن البخل صفة مذمومة عند كل أحد فلا يستطيع الشيطان أن يحسن له البخل إلا بتلك المقدمة وهي التخويف من الفقر فلماذا قال: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾^(٢).

وروى الترمذي عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: إن للشيطان لمة بابن آدم، وللملك لمة - أي همة وخطرة تقع في القلب - فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب

(١) يعتام: أي يختار. والعقيلة: أكرم المال. والفاحش: البخل والمعنى: أرى الموت يختار الكرام ويختار أفضل مال البخل ومادام الأمر كذلك فلا فائدة من البخل.

(٢) تفسير الجمل ج ١ صفحة ٢٢٣.

بالحق، وأما لمة الملك فيإبعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان ثم قرأ ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾^(١).

هذا ما يعده الشيطان للإنسان، فما الذى يعده الله - تعالى - لعباده؟ لقد بين - سبحانه - ذلك فقال: ﴿والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً، والله واسع عليم﴾.

أى: إذا كان الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء، فالله - تعالى - يعدكم مغفرة منه لذنوبكم على ما تنفقونه من أموالكم فى سبيله ففى الحديث الشريف «الصدقة تطفىء الخطيئة». ويعدكم - أيضاً - ﴿فضلاً﴾ أى ثناء وزيادة فى أموالكم، فإن الصدقات تزيد البركة فى الرزق فيصير القليل منه فى يد السخى كثيراً بتوفيق الله وتأييده. وصدر له سبحانه - الجملة بلفظ الجلالة، للإشارة إلى أن الوعد الذى وعد به المتفقين وعد حق لا يمكن أن يخالطه شك أو ريب، لأنه وعد من الله الذى لا يخلف وعده، وإذا كان الشيطان يهدد الناس بالفقر عند العطاء، ويأمرهم بالفحشاء، فالله - تعالى - يشر عباده بمغفرته ورضوانه، بسبب إتفاقهم فى السراء والضراء ويعدهم على ذلك بالرزق الوفير، والفضل الكبير فى الدنيا والآخرة.

وقد ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿والله واسع عليم﴾ تأكيداً لوعده الذى وعد به عباده المتقين المتصدقين بأن يزيدهم من فضله، أى والله - تعالى - واسع الجود والعطاء والرحمة، وسيحقق لكم ما وعدكم به من المغفرة وتضعيف ما تنفقونه، وهو مع ذلك عليم بأحوال عباده صغيرها وكبيرها، وسيجازى الذين اتبعوا أوامره يجزىل الثواب، كما سيجازى الذين اتبعوا وسوسة الشيطان بسوء العذاب.

ثم قال - تعالى - : ﴿يؤق الحكمة من يشاء، ومن يؤت الحكمة فقد أوق خيراً كثيراً﴾. قال الإمام الرازى: «اعلم أنه - تعالى - لما ذكر فى الآية المتقدمة أن الشيطان يعد بالفقر ويأمر بالفحشاء، وأن الرحمن يعد بالمغفرة والفضل نبه على أن الأمر الذى أوجب لأجله ترجيح وعد الرحمن على وعد الشيطان هو أن وعد الرحمن ترجحه الحكمة والعقل ووعد الشيطان ترجحه الشهوة والنفس من حيث إنها يأمران بتحصيل اللذة الحاضرة واتباع أحكام الخيال والوهم. ولاشك أن حكم الحكمة والعقل هو الحكم الصادق المبرأ عن الزيف والخلل، وحكم الشهوة والنفس يوقع الإنسان فى البلاء، فكان حكم الحكمة والعقل أولى بالقبول، فهذا هو وجه النظم»^(٢).

(١) تفسير القرطبي ج ٣ صفحة ٣٢٩. (٢) تفسير الفخر الرازى ج ٧ ص ٧٢.

﴿الحكمة﴾ مشتقة من حكم بمعنى منع، لأنها تمنع صاحبها من الوقوع في الخطأ والضلال ومنه سميت الحديدية التي في اللجام وتجعل في فم الفرس حكمة لأنها تمنعه من الجموح. أو هي في الأصل مصدر من الإحكام وهو الإتيان في علم أو عمل أو قول أو فيها كلها. والحكمة بالنسبة للإنسان صفة نفسية هي أساس المعرفة السليمة التي توافق الحق، وتوجه الإنسان نحو عمل الخير، وتمنعه من عمل الشر، فهي فيه مانعة ضابطة تسير به نحو الكمال والاستقامة

وللعلماء في المراد بها في الآية الكريمة أقوال كثيرة أرجحها أن المراد بها إصابة الحق في القول والعمل، أو هي العلم النافع الذي يكون معه العمل به.

والمعنى: أن الله - تعالى - الفاعل لكل شيء يؤت الحكمة لمن يشاء من عباده ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً﴾ لأن الإنسان إذا أوتى الحكمة يكون قد اهتدى إلى العلم النافع، وإلى العمل الصالح الموافق لما علمه، وإلى الإيمان بالحق وإلى الاستجابة لكل خير والابتعاد عن كل شر، وبذلك يكون سعيداً في دنياه وأخراه.

وفي الصحيحين عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: « لا حسد - أى لا غبطة - إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله - تعالى - الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها».

ثم قال - تعالى - : ﴿وما يذكر إلا أولو الألباب﴾.

والألباب جمع لب وهو في الأصل خلاصة الشيء وقلبه، وأطلق هنا على عقل الإنسان لأنه أنفع شيء فيه.

والمراد بأولى الألباب هنا أصحاب العقول السليمة التي تخلصت من شوائب الهوى، ودوافع الشر، فقد جرت عادة القرآن ألا يستعمل هذا التعبير إلا مع أصحاب العقول المستقيمة.

أى: وما يتعظ بهذه التوجيهات القرآنية، ويتنفع بشمارها إلا أصحاب العقول الراجحة والنفوس الصافية التي اهتدت إلى الحق وعملت به، والتي أنفقت في سبيل الله أجود الأموال وأطيبها لا أصحاب العقول الفاسدة التي استحوذ عليها الشيطان فأنساها ذكر الله، والتي ترى أن البخل بالمال هو الحكمة، وأن الإنفاق في سبيل الله هو نوع من الإسراف والتبذير.

فالجملة الكريمة تذييل قصد به مدح أولئك المؤمنين الصادقين، الذين استجابوا لتوجيهات دينهم، فأصابوا الحق في أقوالهم وأعمالهم.

ثم بين - سبحانه - أنه عليم بما ينفقه المتفقون من صدقات سواء أكانت سرًا أو جهراً وسيجازيهم عليها بما يستحقون من ثواب فقال - تعالى - :

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ
يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٧﴾ إِنْ تَبَدُّوا
الْصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ
فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧﴾

النفقة : هي العطاء العاجل في باب من أبواب الخير. أما النذر : فهو التزام قرينة من القربات أو صدقة من الصدقات بأن يقول : لله على نذر أن أفعل كذا من أنواع البر. أو إن شفى الله مريضى فسأفعل كذا.

والمعنى : وما أنفقتم - أيها المؤمنون - من نفقة عاجلة قليلة أو كثيرة، أو التزمتم بنفقة مستقبلية وعاهدتم الله - تعالى - على القيام بها، فإنه - سبحانه - يعلم كل شيء، ويعلم ما صاحب نياتكم من إخلاص أو رياء، ويعلم ما أنفقتموه أهو من جيد أموالكم أم من رديئها، وسيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. فالآية الكريمة بيان لحكم كل شامل لجميع أفراد النفقات إثر بيان حكم ما كان منها في سبيل الله - تعالى -

و ﴿ما﴾ في قوله : ﴿وما أنفقتم﴾ شرطية أو موصولة والفاء في قوله : ﴿فإن الله يعلمه﴾ رابطة لجواب الشرط إذا اعتبرنا ما شرطية، ومزيدة في الخير إذا اعتبرناها موصولة و ﴿من﴾ في قوله : ﴿من نفقة﴾ بيانية أو زائدة.

وقوله : ﴿فإن الله يعلمه﴾ كناية عن الجزاء عليه، لأن علم الله - تعالى - بالكائنات لا يشك فيه السامعون، فأريد لازم معناه وهو الجزاء. وإنما كان لازماً له لأن القادر لا يصدده عن الجزاء إلا عدم العلم بما يفعله المحسن أو المسيء.

وهذه الجملة الكريمة مع إيجازها قد أفادت الوعد العظيم للمطيعين والوعيد الشديد للمتمردين، لأن الإنسان إذا أيقن أن الله تعالى لا تخفى عليه خافية من شئون خلقه، فإن هذا اليقين سيجمله على الطاعة والإخلاص، وسيحضه على المسارعة في الخيرات، خصوصاً وإن

الجملة قد صدرت بإن المؤكدة، وتليت بلفظ الجلالة الدال على الاستحقاق الكامل للألوهية .
قال بعضهم : وإنما قال - سبحانه - : ﴿فإن الله يعلمه﴾ ولم يقل يعلمها لوجهين :
الأول : أن الضمير عائد إلى الأخير - وهو النذر - ، كما في قوله - تعالى - : ﴿ومن يكسب
خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً﴾ .

والثاني : أن الكتابة عادت إلى ما في قوله : ﴿وما أنفقتم من نفقة﴾ لأنها اسم كقوله :
﴿وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به﴾^(١) .

وقوله : ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ وعيد شديد للخارجين على طاعة الله أى : ليس للظالمين
أى نصير أو مغيث يمنع عقوبة الله عنهم .

والمراد بالظالمين : الواضعون للأشياء في غير موضعها التى يجب أن توضع فيها، والتاركون لما
أمرهم الله به، فيندرج فيهم الذين يبطلون صدقاتهم بالمن والأذى والرياء والذين يتصدقون
بالردىء من أموالهم، والذين يتفقون أموالهم في الوجوه التى نهى الله عنها، والذين لم يوفوا
بندورهم التى عاهدوا الله على الوفاء بها كما يندرج فيهم كل من ارتكب ما نهى الله عنه أو أهمل
فيما كلفه الله به .

ثم بين - سبحانه - أن الصدقة متى صدرت عن المسلم بالطريقة التى دعت إليها تعاليم
الإسلام فإنها تكون مرجوة القبول عند الله - تعالى - سواء أفعالها المسلم فى السر أم فى العلن،
فقال - تعالى - : ﴿إن تبدوا الصدقات فنعماً هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم
ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير﴾ .

الصدقات : جمع صدقة وهى ما يخرج به المسلم من ماله على جهة القرية، وتشمل الفرض
والتطوع، وهى مأخوذة من الصدق بمعنى صدق النية وتحليصها من كل ما نهى الله عنه،
وسمى - سبحانه - ما يخرج به المسلم من ماله صدقة لأن المال بها يزكو وينمو ويظهر .
والفاء فى قوله : ﴿فنعماً هى﴾ واقعة فى جواب الشرط، و﴿نعماً﴾ أصلها نعم ما، فأدغمت
إحدى الميمين فى الأخرى، ونعم فعل ماض، وما نكرة تامة بمعنى شىء، وهى منصوبة على أنها
تمييز، والفاعل ضمير مستتر فى نعم .

والمعنى : إن تبدوا صدقاتكم - أيها المؤمنون - وتظهروها فنعم شيئاً إيداًؤها وإعلانها، لأنه
يرفع التهمة ويدعو أهل الخير إلى الاقتداء بهذا الفعل الحسن .

وجاء التعبير بمدح المعلنين صدقتهم بقوله «فنعما هي» للإشارة إلى أن المسلم متى دفع صدقته لمستحقيها بنية خالصة، فإنه يكون ممدوحًا من الله - تعالى - وممدوحًا من الناس الذين شاهدوا عمله الصالح.

هذه صدقة الجهر إذا خلصت من الرياء أما صدقة السر فقد أثنى الله على فاعلها بقوله: ﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ أى: وإن تحفوا الصدقات وتعطوها للفقراء سرًا، دون أن يراكم أحد من الناس، فعملكم هذا خير لكم عند الله لأنكم بإخفائكم للصدقة ودفعتها للفقير سرًا تكونون قد ابتعدتم عن الرياء، وسترتم حال هذا الفقير المحتاج.

وقوله: ﴿ويكفر عنكم من سيئاتكم﴾ أى أنه - سبحانه - يستر السيئات التي يرتكبها الشخص، ويخفيها ولا يظهرها عند إثابته إياه على فعله الحسن لأن ما فعله من حسنات مسح ما فعله من سيئات فهو كقوله - تعالى -: ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين﴾ و﴿من﴾ فى قوله: ﴿من سيئاتكم﴾ بيانية بمعنى أن الصدقات تكفر السيئات لأن المسلم إذا بذل ماله فى سبيل الله بصدق وإخلاص، كان أهلا لمثوبة الله ومغفرته، ويجوز أن تكون للنبعوض أى يكفر عنكم بعض سيئاتكم بمقدار ما قدمتم من صدقات لأن الصدقات لا تكفر جميع السيئات.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: ﴿والله بما تعملون خبير﴾ أى أن الله - تعالى - عليم علما دقيقا بكل ما تعملونه أيها المؤمنون، فعليكم أن تخلصوا له أعمالكم، وأن تراقبوه فى سرهم وجهرهم، وأن تسارعوا فى عمل الخيرات التي ترفع درجاتكم عند خالقكم.

وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد مدحت صدقتى الجهر والسر متى كان المتصدق متبعا آداب الإسلام وتوجيهاته، ومبتعدا عن كل ما يبطل الصدقات، ويحبط الأعمال.

ثم ختمت السورة حديثها عن النفقة والمنفقين ببيان حسن عاقبة من يبذل ماله فى سبيل الله، وبيان صفات بعض المستحقين للصدقة، وبيان أن هداية البشر إنما هى بيد الله - تعالى - وحده، فقال - تعالى -:

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ

وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ

فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ

وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤْتِ الْيَتِيمَ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٧﴾

لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ
الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ
لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ
فَأِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ
بِالْئِيلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ
رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

قال القرطبي ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ليس عليك هداهم﴾ هذا الكلام متصل بذكر الصدقات، فكانه بين فيه جواز الصدقة على المشركين. روى سعيد بن جبير مرسلًا عن النبي ﷺ في سبب نزول هذه الآية أن المسلمين كانوا يتصدقون على فقراء أهل الذمة، فلما كثر فقراء المسلمين قال رسول الله ﷺ لا تتصدقوا إلا على أهل دينكم. فتزلت هذه الآية مبيحة للصدقة على من ليس من دين الإسلام. وروى عن ابن عباس أنه قال : كان ناس من الأنصار لهم قرابات من بنى قريظة والنضير كانوا لا يتصدقون عليهم رغبة منهم في أن يسلموا إذا احتاجوا فنزلت الآية بسبب أولئك. ثم قال : قال علماءنا : هذه الصدقة التي أبيحت لهم حسب ما تضمنته هذه الآثار هي صدقة التطوع، وأما المفروضة فلا يجزى دفعها لكافر، لقوله ﷺ : «أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردها في فقرائكم»^(١).

والمعنى : ليس عليك يا محمد هداية من خالفك في دينك. ولكن الله - تعالى - يهدي من يشاء هدايته إلى نور الإيمان، وطريق الحق. وما دام الأمر كذلك فعليك وعلى أتباعك أن تعاملوا غيركم بما يوجبه عليكم إيمانكم من سماحة في الخلق، وعطف على المحتاجين حتى ولو كانوا من المخالفين لكم في الدين.

وعلى هذا المعنى الذي يؤيد به سبب النزول يكون الضمير في قوله : ﴿هداهم﴾ يعود على غير المسلمين.

ومن المفسرين من يرى أن الضمير في قوله: ﴿هداهم﴾ يعود إلى المسلمين المخاطبين في الآيات السابقة، فيكون المعنى: لا يجب عليك أيها الرسول الكريم أن تجعل المسلمين جميعاً مهديين إلى الإتيان بما أمروا به ومنتهم عما نهوا عنه من ترك المن والأذى والرياء في صدقتهم، ولكن الله وحده هو الذي يهدي من يشاء هدايته إلى الاستجابة لتوجيهات هذا الدين الحنيف.

قال الألوسي: وعلى هذا الرأي تكون الجملة معترضة جىء بها على طريق تلوين الخطاب وتوجيهه إلى سيد المخاطبين ﷺ مع الالتفات إلى الغيبة فيما بين الخطابات المتعلقة بأولئك المكلفين مبالغة في حملهم على الامتثال. ثم قال: «والذي يستدعيه سبب النزول رجوع ضمير ﴿هداهم﴾ إلى الكفار، وحينئذ لا التفات، وإنما هناك تلوين الخطاب فقط...»^(١).

ثم حض - سبحانه - المؤمنين على الإنفاق في وجوه الخير فقال: ﴿وما تنفقوا من خير فلا أنفسكم﴾ أى: ما تقدمونه من مال في وجوه البر - أيها المؤمنون - فإن نفعه سيعود عليكم بالسعادة في الدنيا، وبالثواب الجزيل في الآخرة، فكونوا أسخياء في الإحسان إلى الفقراء، وابتعدوا عن وسوسة الشيطان الذي ﴿يعدمكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾.

و«ما» شرطية جازمة لتنفقوا، وهى منتصبة به على المفعوليه، و«من» للتبعض وهى متعلقة بمحذوف وقع صفة لفعل الشرط والتقدير: أى شيء تنفقوا كائنا من المال فهو لأنفسكم لا ينتفع به في الآخرة غيرها.

قال الفخر الرازى ما ملخصه: وقوله - تعالى - : ﴿وما تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله﴾ يحتمل وجوها.

الأول: أن يكون المعنى: ولستم في صدقتكم على أقاربكم من المشركين تقصدون إلا وجه الله، فقد علم الله هذا من قلوبكم، فأنفقوا عليهم إذا كنتم إنما تبغون بذلك وجه الله في صلة رحم وسد خلة مضطر، وليس عليكم اهتداؤهم حتى يمنعكم ذلك من الإنفاق عليهم.

الثانى: أن هذا وإن كان ظاهره خبراً إلا أن معناه نهى أى: ولا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله.

الثالث: أن قوله: ﴿وما تنفقون﴾ أى ولا تكونوا منفقين مستحقين الاسم الذى يفيد المدح حتى تبتغوا بذلك وجه الله. وفي ذكر الوجه تشریف عظيم لأنك إذا قلت: فعلت هذا الشيء لوجه زيد فهو أشرف في الذكر من قولك: فعلته له لأن وجه الشيء أشرف ما فيه، ثم كثر حتى

صار يعبر عن الشرف بهذا اللفظ، وأيضاً فإن قولك : فعلت هذا الفعل لوجهه يدل على أنك فعلت الفعل له فقط وليس لغيره فيه شركة^(١).

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ أى : أن ما تنفقونه من خير - أيها المؤمنون ستعود عليكم ثماره ومنافعه في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فإنكم بسبب هذا الإنفاق تزكو أموالكم، وتحسن سيرتكم بين الناس، وأما في الآخرة فإنكم تنالون من خالقكم ورازقكم أجزل الثواب، وأفضل الدرجات.

وقوله : ﴿وأنتم لا تظلمون﴾ أى لا تنقصون شيئاً مما وعدكم الله به على نفقتكم في سبيله.

قال الجمل. وهاتان الجملتان أى قوله - تعالى - ﴿وما تنفقوا من خير يوف إليكم﴾ وقوله : ﴿وأنتم لا تظلمون﴾ تأكيد للجملتين الشرطية الأولى وهى قوله : ﴿وما تنفقوا من خير فلا أنفسكم﴾. وقوله : ﴿وأنتم لا تظلمون﴾ جملة من مبتدأ وخبر فى محل نصب على الحال من الضمير فى ﴿إليكم﴾ فالعامل فيها ﴿يوف﴾ وهى تشبه الحال المؤكدة لأن معناها مفهوم من قوله : ﴿يوف إليكم﴾ لأنهم إذا وفوا حقوقهم لم يظلموا. ويجوز أن تكون مستأنفة لا محل لها من الإعراب أخبرهم فيها أنه لا يقع لهم ظلم فيندرج فيه توفية أجورهم بسبب إنفاقهم فى طاعة الله - تعالى - اندراجاً أولياً^(٢).

هذا، والذي يتدبر هذه الآية الكريمة يراها من أجمع الآيات التى وردت فى الحض على بذل المال فى وجوه الخير، فقد كرر فيها فعل ﴿تنفقون﴾ ثلاث مرات لمزيد الاهتمام بمدلوله، وجرى به مرتين بصيغة الشرط عند قصد بيان الملازمة بين الإنفاق والثواب، وجاءت كل جملة منها مستقلة ببعض الأحكام لكى يسهل حفظها وتأملها فتجرى على الألسنة مجرى الأمثال وتتناقلها الأمم والأجيال.

ثم بعد هذا التحريض الحكيم على بذل الأموال فى وجوه الخير، خص - سبحانه - بالذكر طائفة من المؤمنين هى أولى الناس بالعون والمساعدة، ووصف هذه الطائفة بست صفات من شأنها أن تحمل العقلاء على المسارعة فى إكرام أفرادها وسد حاجتهم.

استمع إلى القرآن الكريم وهو يصور حالة هذه الطائفة من المؤمنين تصويراً كريماً نبيلاً يستجيش المشاعر، ويحرك القلوب لمساعدة هذه الطائفة المتعففة فيقول : ﴿للفقراء، الذين احصروا فى سبيل الله، لا يستطيعون ضرباً فى الأرض، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، تعرفهم بسيماهم، لا يسألون الناس إلحافاً﴾.

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٧ ص ٨٣.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ٢٥٥. بتصرف يسير.

لقد وصفهم الله - تعالى - أولاً بالفقراء، أى الذين هم فى حاجة إلى العون والمساعدة لفقرتهم واحتياجهم إلى ضرورات الحياة.

وقوله: ﴿للفقراء﴾ متعلق بمحذوف يفهم من الكلام السابق والتقدير: اجعلوا نفقتكم وصدقتم للفقراء لأن الكلام السابق موضوعه للإِنفاق فى سبيل الله، وما يتعلق بذلك من آداب وفوائد.

والجملة استئناف بيان، فكأنهم لما أمروا بالصدقات سألوا لمن هى ؟ فأجيبوا بأنها هؤلاء الذين ذكرت الآية صفاتهم.

ومن فوائد الحذف هنا للمتعلق: تعليم المؤمنين الأدب فى عطائهم للفقراء بأن لا يصرحوا لهم بأن ما يعطونه إياهم هو صدقة حتى لا يشعروهم بالمذلة والضعف، وأيضاً فى هذا الحذف لون من الإيجاز البليغ الذى قل فيه اللفظ مع الوفاء بحق المعنى.

قال القرطبي: والمراد هؤلاء الفقراء، فقراء المهاجرين من قريش وغيرهم ثم تناول الآية كل من دخل تحت صفتهم غابر الدهر. وإنما خص فقراء المهاجرين بالذكر، لأنه لم يكن هناك سواهم، وهم أهل الصفة^(١) وكانوا نحواً من أربعمئة رجل، وذلك أنهم كانوا يأتون فقراء وما لهم أهل ولأمال فبنيت لهم صفة فى المسجد النبوى بالمدينة فقبل لهم: «أهل الصفة»^(٢). أما الصفة الثانية من صفات هؤلاء الذين هم أولى الناس بالعون والمساعدة فهى قوله - تعالى -: ﴿الذين أحصروا فى سبيل الله﴾.

والإحصار فى اللغة هو أن يعرض للرجل ما يحول بينه وبين ما يريد به بسبب مرض أو شيخوخة أو عدو أو ذهاب نفقة أو ما يجرى مجرى هذه الأشياء.

والمعنى: اجعلوا الكثير مما تنفقونه - أيها المؤمنون - هؤلاء الفقراء الذين حصروا أنفسهم ووقفوها على الطاعات المتنوعة التى من أعظمها الجهاد فى سبيل الله، أو الذين منعوا من الكسب بسبب مرضهم أو شيخوختهم، أو غير ذلك من الأسباب التى جعلتهم فى حالة شديدة من الفاقة والاحتياج.

وعبر فى الجملة الكريمة «بأحصروا» بالبناء للمجهول، للإشعار بأن فقرهم لم يكن بسبب تكاسلهم وإهمالهم فى مباشرة الأسباب، وإنما كان لأسباب خارجة عن إرادتهم.

(١) الصفة - بضم الصاد وتشديد الفاء - اسم لموضع بناه النبى ﷺ فى المسجد النبوى بالمدينة ليأوى إليه فقراء المهاجرين الذين تركوا أموالهم بمكة وهاجروا إلى المدينة لإعلاء كلمة الله.

(٢) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٣٣٩.

وقوله: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ تكريم وتشريف لهم، أى أن ما نزل بهم من فقر واحتياج كان بسبب إيثارهم إعلاء كلمة الله على أى شىء آخر، ففى سبيل الله هاجروا، وفى سبيل الله تركوا أموالهم فصاروا فقراء، وفى سبيل الله وقفوا أنفسهم على الجهاد، وفى سبيل الله أصابهم ما أصابهم وهم يطلبون أداء ما كلفهم - سبحانه - بأدائه.

أما الصفة الثالثة من صفاتهم فقال فيها ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ والضرب فى الأرض هو السير فيها للتكسب والتجارة وغيرهما.

أى أنهم عاجزون عن السير فى الأرض لتحصيل رزقهم بسبب اشتغالهم بالجهاد، أو بسبب ضعفهم وفلة ذات يدهم.

والصفة الرابعة من صفاتهم هى قوله - تعالى - : ﴿يَحْسِبُ الْجَاهِلُ الْأَغْنِيَاءُ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾. والتعفف: ترك الشىء والتنزه عن طلبه، بقهر النفس والتغلب عليها. يقال عف عن الشىء يعف إذا كف عنه. والحسبان بمعنى الظن.

أى يظنهم الجاهل بحالهم؛ أو الذى لا فراسة عنده، يظنهم أغنياء من أجل تجملهم وتعففهم عن السؤال، أما صاحب الفراسة الصادقة، والبصيرة النافذة؛ فإنه يرحمهم ويعطف عليهم لأنه يعرف ما لا يعرفه غيره.

و﴿مَنْ﴾ فى قوله: ﴿مَنْ التَّعَفُّفِ﴾ للتعليل، أو لابتداء الغاية لأن التعفف مبدأ هذا الحسبان.

أما الصفة الخامسة من صفاتهم فهى قوله - تعالى - : ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ والسيما والسياء: العلامة التى يعرف بها الشىء، وأصلها من الوسم بمعنى العلامة.

والمعنى: تعرف فقرهم وحاجتهم - أيها الرسول الكريم أو أيها المؤمن العاقل - بما ترى فى هيئتهم من آثار تشهد بقله ذات يدهم.

قال الإمام الرازى ما ملخصه: قال مجاهد: «سيماهم» التخشع والتواضع. أى - تعرفهم بتخشعهم وتواضعهم - وقال السدى: - تعرفهم بسيماهم - أى بأثر الجهد من الفقر والحاجة. وقال الضحاك: أى بصفرة ألوانهم ورتانة ثيابهم... ثم قال - رحمه الله - : وعندى أن كل ذلك فيه نظر والمراد شىء آخر هو أن لعباد الله المخلصين هيبة ووقعاً فى قلوب الخلق، وكل من رآهم تأثر منهم وتواضع لهم، وذلك له إدراكات روحانية، لا علامات جسمانية. ألا ترى أن الأسد إذا مر هابته سائر السباع بطباعها لا بالتجربة، لأن الظاهر أن تلك التجربة

ما وقعت، والبازي إذا طار تهرب منه الطيور الضعيفة وكل ذلك إدراكات روحانية لا جسمانية فكذا هنا...»^(١).

وقد ذكر - سبحانه - في الجملة السابقة أن الجاهل بحالهم يظنهم أغنياء من أجل تعففيهم عن السؤال، وذكر هنا أنهم يعرفون بسيماهم، وذلك للإشعار بأن أنظار الناس تختلف باختلاف فراستهم ونفاذ بصيرتهم. فأصحاب الأنظار التي تأخذ الأمور بمظاهرها يظنونهم أغنياء، أما أصحاب البصيرة المستنيرة، والحس المرهف، والفراصة الصائبة، فإنهم يدركون ما عليه أولئك القوم من احتياج، بسبب ما منحهم الله من فكر صائب ونظر نافذ، وفي الحديث الشريف: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»^(٢).

أما الصفة السادسة من صفاتهم فهي قوله - تعالى - : ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِخْلَافًا﴾ والإخلاف - كما يقول صاحب الكشاف: هو الإلحاح بأن لا يفارق - السائل المسئول - إلا بشيء يعطاه. من قولهم: لحفني من فضل لحافه أى أعطاني من فضل ما عنده. ومعناه: أنهم إن سألوا سألوا بتلطف ولم يلحفوا. وقيل هو نفى للسؤال والإخلاف^(٣).

والذي عليه المحققون من العلماء أن النفي منصب على السؤال وعلى الإخلاف أى أنهم لا يسألون أصلاً تعففاً منهم، لأنهم لو كانوا يسألون ما ظنهم الجاهل أغنياء من التعفف، ولو كانوا يسألون ما كانوا متعفين، ولو كانوا يسألون ما احتاج صاحب البصيرة النافذة إلى معرفة حالهم. عن طريق التفرس في سماتهم لأن سؤاها كان يغنيه عن ذلك.

وإنما جاء النفي بهذه الطريقة التي يوهم ظاهرها أن النفي متجه إلى الإخلاف وحده، للموازنة بينهم وبين غيرهم، فإن غيرهم إذا كان يسأل الناس إخلافاً فهم لا يسألون مطلقاً لا بإلحاف ولا بدونه، والنفي بهذه الطريقة فيه تعريض للملحفين وثناء على المتعفين. ولذا قال بعضهم: وإذا علم أنهم لا يسألون البتة فقد علم أنهم لا يسألون الناس إخلافاً والمراد التنبيه على سوء طريقة من يسأل الناس إخلافاً، ومثاله إذا حضر عندك رجلان أحدهما عاقل وقور قليل الكلام، والآخر طياش مهذار سفيه، فإذا أردت أن تمدح أحدهما وتعرض بدم الآخر قلت: فلان رجل عاقل وقور لا يخوض في الترهات ولا يشرع في السفاهات، ولم يكن غرضك من قولك لا يخوض في الترهات وصفه بذلك لأن ما تقدم من الأوصاف الحسنة يغني عن ذلك، بل

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ٨٦.

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٢٤.

(٣) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٢٨.

غرضك التنبيه على مذمة الثاني. فالأمر هنا كذلك لأن قوله: ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾ بعد قوله: ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾ الغرض منه بيان مباينة أحد الجنسين عن الآخر في استيجاب المدح والتعظيم^(١).

هذا وقد وردت أحاديث متعددة تمدح المتعففين عن السؤال، وتذم الملحفين فيه ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ليس المسكين الذي ترده اللقمة واللقمتان ولا التمرة والتمرتان إنما المسكين الذي يتعفف. اقرؤا إن شئتم: ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾.

وروى مسلم في صحيحه عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قال: «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقي الله وليس في وجهه مزعة لحم».

وروى مسلم - أيضاً - في صحيحه عن عوف بن مالك قال: كنا تسعة أو ثمانية أو سبعة عند رسول الله فقال: «ألا تبايعون رسول الله؟ فقلنا علام نبايعك؟ قال: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً. والصلوات الخمس، وتطيعوا ولا تسألوا الناس. فلقد رأيت بعض أولئك نفر يسقط سوط أحدهم فلا يسأل أحداً يناوله إياه».

والخلاصة أن السؤال إنما يجوز عند الضرورة، وأنه لا يصح لمؤمن أن يسأل الناس وعنده ما يكفيه، لأن السؤال ذل يربأ بنفسه عنه كل من يحافظ على مروءته وكرامته وشرفه. وقوله: ﴿وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾ تحريض للمؤمن على البذل والسخاء، وترقية لنفسه على الشعور بمراقبة الله - تعالى - وعلى محبة فعل الخير. أى: وما تنفقوا من خير سواء أكان المنفق قليلاً أم كثيراً سرّاً أم علناً فإن الله يعلمه وسيجازيكم عليه بأجزل الثواب، وأعظم العطاء.

ثم ختم - سبحانه - الحديث عن النفقة والمنفقين بقوله: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

وقوله: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية﴾ استئناف المقصود منه مدح أولئك الذين يعممون صدقاتهم في كل الأزمان وفي كل الأحوال فهم يتصدقون على المحتاجين في الليل وفي النهار، في الغدو وفي الأصال، في السر وفي العلن، في كل وقت وفي كل حال، لأنهم لقوة إيمانهم، وصفاء نفوسهم يحرصون كل الحرص على كل ما يرضى الله تعالى.

وقد بين الله - تعالى - في ثلاث جمل حسن عاقبتهم، وعظيم ثوابهم فقال في الجملة الأولى ﴿فلهم أجرهم عند ربهم﴾ أى فلهم أجرهم الجزيل عند خالقهم ومربيهم ورازقهم. والجملة الكريمة خير لقوله: ﴿الذين ينفقون...﴾ ودخلت الفاء في الخبر لأن الموصول في معنى الشرط فتدخل الفاء في خبره جوازاً، وللدلالة على سببية ما قبلها لما بعدها أى أن استحقاق الأجر متسبب عن الإنفاق في سبيل الله.

وقال في الجملة الثانية ﴿ولا خوف عليهم﴾ أى: لا خوف عليهم من أى عذاب لأنهم في مأمن من عذاب الله بسبب ما قدموا من عمل صالح.

وقال في الجملة الثالثة: ﴿ولا هم يحزنون﴾ أى لا يصيبهم ما يؤدى بهم إلى الحزن وهم والغم، لأنهم دائماً في اطمئنان يدفع عنهم الهموم والأحزان وقد روى المفسرون في سبب نزول هذه الآية روايات منها أن على بن أبى طالب كان يملك أربعة دراهم فتصدق بدرهم ليلاً، وبدرهم نهاراً وبدرهم سراً، وبدرهم علانية فقال له النبى ﷺ: «ما حملك على ذلك؟ فقال: أريد أن أكون أهلاً لما وعدنى ربى. فقال ﷺ: لك ذلك» فأنزل الله هذه الآية^(١).

والحق أن هذه الرواية وغيرها لا تمنع عمومها، فهى تنطبق على كل من بذل ماله في سبيل الله في عموم الأوقات والأحوال.

أما بعد: فهذه أربع عشرة آية بدأت من قوله - تعالى - ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل...﴾ وانتهت بقوله - تعالى -: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم...﴾.

والذى يقرأ هذه الآيات الكريمة بتدبر وتعقل يراها قد حضت الناس على الإنفاق في سبيل الله بأبلغ الأساليب، وأحكم التوجيهات، وأفضل الوسائل، كما يراها بينت أحكام الصدقة وآدابها، والآفات التى تذهب بخيرها وضربت الأمثال لذلك، كما يراها قد بينت أنواعها، وطريقة أدائها، وأولى الناس بها ورسمت صورة كريمة للفقراء المتعفين، وكما بدأت الآيات حديثها بالثناء الجميل على المنفقين فقد ختمته أيضاً بالثناء عليهم وبالعاقبة الحسنى التى أعدها الله لهم.

ولو أن المسلمين أخذوا بتوجيهات هذه الآيات لعمتهم السعادة فى دنياهم، ولنالوا رضا الله ومثوبته فى آخرهم.

وبعد هذه الصورة المشرقة التى ساقها القرآن عن النفقة والمنفقين أتبعها بصورة مضادة لها

وهي صورة الربا والمرابين. ومن مظاهر التضاد والتباين بين الصورتين أن الصدقة بذل للمال في وجوه الخير بدون عوض ينتظره المتصدق، أما الربا فهو إخراج المال في وجوه الاستغلال لحاجة المحتاج مع ضمان استرداده ومعه زيادة محرمة. وأن الصدقة نتیجتها الرخاء والنهائ والطهارة للمال، وشيوع روح المحبة والتعامل والتكامل والاطمئنان بين أفراد المجتمع، أما الربا فنتیجته محق البركة من المال، وشيوع روح التقاطع والتحاسد والتباغض والخوف بين الناس. ولقد نفر القرآن الناس من تعاطى الربا تنفيراً شديداً وحذرهم من سوء عاقبته تحذيراً مؤكداً فقال - تعالى - :

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي
يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ
مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ
مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ
فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ
اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾
إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا
فَأَذْنُوبًا يَحْرِبُ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ؕ وَإِن تَبَتُّمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ
أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ
ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ

إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

وقوله - تعالى - : ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس...﴾ استئناف قصد به الترهيب من تعاطى الربا، بعد الترغيب في بذل الصدقة لمستحقيها.

ولم يعطف على ما قبله لما بينها من تضاد، لأن الصدقة - كما يقول الفخر الرازي - عبارة عن تنقيص المال - في الظاهر - بسبب أمر الله بذلك، والربا عبارة عن طلب الزيادة على المال مع نهي الله عنه فكانا متضادين.

والأكل في الحقيقة. ابتلاع الطعام، ثم أطلق على الانتفاع بالشيء وأخذه بحرص وهو المراد هنا. وعبر عن التعامل بالربا بالأكل، لأن معظم مكاسب الناس تنفق في الأكل.

والربا في اللغة : الزيادة مطلقاً، يقال : ربا الشيء يربو إذا زاد ونما، ومنه قوله - تعالى - : ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت...﴾ أي : زادت.

وهو في الشرع : - كما قال الألوسي - عبارة عن فضل مال لا يقابله عوض في معاوضة مال بمال.

وقوله : ﴿يتخبطه﴾ : من التخبط بمعنى الخبط وهو الضرب على غير استواء واتساق. يقال : خبطته أخبطه خبطاً أى ضربته ضرباً متوالياً على أنحاء مختلفة. ويقال : تخبط البعير الأرض إذا ضربها بقوائمه ويقال للذي يتصرف في أمر ولا يهتدى فيه يخبط خبط عشواء. قال زهير بن أبي سلمى في معلقته :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصبب تمته ومن تحطى يعمر فيهم

والمس : الخبل والجنون يقال : مس الرجل فهو ممسوس إذا أصابه الجنون. وأصل المس اللمس باليد، ثم استعير للجنون، لأن الشيطان يمس الإنسان فيجنه.

والمعنى : ﴿الذين يأكلون الربا﴾ أى يتعاملون به أخذاً وإعطاءً ﴿لا يقومون﴾ يوم القيامة للقاء الله إلا قياماً كقيام المتخبط المصروع المجنون حال صرعه وجنونه، وتخبط الشيطان له، وذلك لأنه يقوم قياماً منكراً مفرعاً بسبب أخذه الربا الذي حرم الله أخذه.

فالآية الكريمة تصور المرابي بتلك الصورة المرعبة المفزعة، التي تحمل كل عاقل على الابتعاد عن كل معاملة يشم منها رائحة الربا. وهنا نحب أن نوضح أمرين:

أما الأمر الأول: فهو أن جمهور المفسرين يرون أن هذا القيام المفزع للمرابين يكون يوم القيامة حين يبعثون من قبورهم كما أشرنا إلى ذلك.

قال الألوسي: وقيام المرابي يوم القيامة كذلك مما نطقت به الآثار، فقد أخرج الطبراني عن عوف بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إياك والذنوب التي لا تغفر. الغلول فمن غل شيئاً أتى به يوم القيامة، وأكل الربا فمن أكل الربا بعث يوم القيامة مجنوناً يتخبط» ثم قرأ الآية، وهو مما لا يحيله العقل ولا يمنعه، ولعل الله - تعالى - جعل ذلك علامة له يعرف بها يوم الجمع الأعظم عقوبة له... ثم قال. وقال ابن عطية: المراد تشبيه المرابي في حرصه وتحركه في اكتسابه في الدنيا بالمتخبط المصروع كما يقال لمن يسرع بحركات مختلفة: قد جن، ولا يخفى أنه مصادمة لما عليه سلف الأمة ولما روى عن رسول ﷺ من غير داع سوى الاستبعاد الذي لا يعتبر في مثل هذه المقامات^(١).

والذي نراه أنه لا مانع من أن تكون الآية تصور حال المرابين في الدنيا والآخرة، فهم في الدنيا في قلق مستمر، وانزعاج دائم، واضطراب ظاهر بسبب جشعهم وشهرهم في جمع المال، ووساوسهم التي لا تكاد تفارقهم وهم يفكرون في مصير أموالهم... ومن يتتبع أحوال بعض المتعاملين بالربا يراهم أشبه بالمجانين في أقوالهم وحركاتهم. أما في الآخرة فقد توعدهم الله - تعالى - بالعقاب الشديد، والعذاب الأليم.

وقد رجح الإمام الرازي أن الآية الكريمة تصور حال المرابي في الدنيا والآخرة فقال ما ملخصه: «إن الشيطان يدعو إلى طلب اللذات والشهوات والاشتغال بغير الله، ومن كان كذلك كان في أمر الدنيا متخبطاً... وأكل الربا بلا شك أنه يكون مفرطاً في حب الدنيا متهاكاً فيها، فإذا مات على ذلك الحب صار ذلك حجاباً بينه وبين الله - تعالى -، فالخبط الذي كان حاصلًا له في الدنيا بسبب حب المال أورثه الخبط في الآخرة وأوقعه في ذل الحجاب، وهذا التأويل أقرب عندي من غيره»^(٢).

وأما الأمر الثاني: فهو أن جمهور المفسرين يرون أيضاً أن التشبيه في الآية الكريمة على

(١) تفسير الألوسي ج ٣ ص ٤٩.

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ٩٦.

الحقيقة، بمعنى أن الآية تشبه حال المرابين بحال المجنون الذى مسه الشيطان، لأن الشيطان قد يمس الإنسان فيصيبه بالصرع والجنون.

ولكن الزمخشري ومن تابعه ينكرون ذلك، ويرون أن كون الصرع أو الجنون من الشيطان باطل لأنه لا يقدر على ذلك، فقد قال الزمخشري في تفسيره: وتخطب الشيطان من زعمات العرب، يزعمون أن الشيطان يخطب الإنسان فيصرع. والمس الجنون، ورجل ممسوس - أى مجنون - . وهذا أيضاً من زعماتهم، وأن الجنى يمسّه فيختلط عقله، وكذلك جن الرجل معناه ضربته الجن، ورأيتهم لهم في الجن قصص وأخبار وعجائب، وإنكار ذلك عندهم كإنكار المشاهدات»^(١).

ومن العلماء الذين تصدوا للرد على الزمخشري ومن تابعه الإمام القرطبي فقد قال: «وفى هذه الآية دليل على فساد إنكار من أنكر الصرع من جهة الجن وزعم أنه من فعل الطباع، وأن الشيطان لا يسلك في الإنسان ولا يكون منه مس. وقد روى النسائي عن أبي اليسر قال: كان رسول الله ﷺ يدعو فيقول: اللهم إني أعوذ بك من التردى والغرق والهدم والحريق، وأعوذ بك من أن يتخطنى الشيطان عند الموت، وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مدبراً وأعوذ بك أن أموت لديغاً»^(٢).

وقال الشيخ أحمد بن المنير: ومعنى قول الزمخشري أن تخطب الشيطان من زعمات العرب، أى من كذباتهم وزخارفهم التى لا حقيقة لها، كما يقال فى الغول والعنقاء ونحو ذلك. وهذا القول من تخطب - الشيطان بالقدريّة - أى المعتزلة - فى زعماتهم المردودة بقواطع الشرع، ثم قال: واعتقاد السلف وأهل السنة أن هذه أمور على حقائقها واقعة كما أخبر الشارع عنها، والقدريّة ينكرون كثيراً مما يزعمونه مخالفاً لقواعدهم. . من ذلك السحر، وخبطة الشيطان، ومعظم أحوال الجن. وإن اعترفوا بشيء من ذلك فعلى غير الوجه الذى يعترف به أهل السنة وينبىء عنه ظاهر الشرع فى خيط طويل لهم،^(٣) والذى نراه أن ما عليه جمهور العلماء من أن التشبيه على الحقيقة هو الحق، لأن الشيطان قد يمس الإنسان فيصيبه بالجنون، ولأنه لا يسوغ لنا أن تؤول القرآن بغير ظاهره بسبب اتجاه دليل عليه.

وقوله: ﴿من المس﴾ متعلق بيقومون أى لا يقومون من المس الذى حل بهم بسبب أكلهم الربا إلا كما يقوم المصروع من جنونه.

(١) تفسير الكشاف للزمخشري ج ١ ص ٣٢٠.

(٢) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٣٥٥.

(٣) الانتصاف على الكشاف لابن المنير ج ١ ص ٣٢٠ من الكشاف.

وقوله - تعالى - : ﴿ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا، وأحل الله البيع وحرم الربا﴾ بيان لزعمهم الباطل الذي سوغ لهم التعامل بالربا، ورد عليه بما يهدمه .

واسم الإشارة «ذلك» يعود إلى الأكل أو إلى العقاب الذي نزل بهم . والمعنى : ذلك الأكل الذي استحلوه عن طريق الربا، أو ذلك العذاب الذي حل بهم والذي من مظاهره قيامهم المتخبط، سببه قولهم إن البيع الذي أحله الله يشابه الربا الذي نتعامل به في أن كلا منها معاوضة .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : هلا قيل إنما الربا مثل البيع لأن الكلام في الربا لا في البيع، فوجب أن يقال إنهم شبهوا الربا بالبيع فاستحلوه وكانت شبهتهم أنهم قالوا : لو اشترى الرجل الشيء الذي لا يساوي إلا درهما بدرهمين جاز، فكذلك إذا باع درهما بدرهمين ؟ قلت : جيء به على طريق المبالغة . وهو أنه قد بلغ من اعتقادهم في حل الربا أنهم جعلوه أصلاً وقانوناً في الحل حتى شبهوا به البيع^(١) .

وقوله : ﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾ جملة مستأنفة، وهي رد من الله - تعالى - عليهم، وإنكار لتسويتهم الربا بالبيع .

قال الألوسي : وحاصل هذا الرد من الله - تعالى - عليهم : أن ما ذكرتم - من أن الربا مثل البيع - قياس فاسد الوضع لأنه معارض للنص فهو من عمل الشيطان، على أن بين البابين فرقاً، وهو أن من باع ثوباً يساوي درهما بدرهمين فقد جعل الثوب مقابلاً لدرهمين فلا شيء منها إلا وهو في مقابلة شيء من الثوب . وأما إذا باع درهما بدرهمين فقد أخذ الدرهم الزائد بدون عوض، ولا يمكن جعل الإمهال عوضاً إذ الإمهال ليس بمال في مقابلة المال^(٢) .

وقوله : ﴿فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله﴾ . تفريع على الوعيد السابق في قوله : ﴿الذين يأكلون الربا﴾ . الخ .

والمجىء بمعنى العلم والبلاغ، والموعظة : ما يعظ الله - تعالى - به عباده عن طريق زجرهم وتخويفهم وتذكيرهم بسوء عاقبة المخالفين لأوامره .

أى : فمن بلغه نهي الله - تعالى - عن الربا، فامتثل وأطاع وابتعد عما نهاه الله عنه، ﴿فله ما سلف﴾ أى فله ما تقدم قبضه من مال الربا قبل التحريم وليس له ما تقدم الاتفاق عليه ولم يقبضه . . لأن الله - تعالى - يقول بعد ذلك ﴿وإن تبتم فلکم رءوس أموالکم﴾ .

(١) تفسير الكشف ج ١ ص ٣٢١ .

(٢) تفسير الألوسي ج ٣ ص ٥٠ .

وقوله: ﴿وأمره إلى الله﴾ أى أمر هذا المرابي الذى تعامل بالربا قبل التحريم واجتنبه بعده، أمره مفوض إلى الله - تعالى - فهو الذى يعامله بما يقتضيه فضله وبعفوهِ وكرمه.

قال ابن كثير: قوله ﴿فمن جاءه موعظة من ربه﴾.. إلخ أى من بلغه نهي الله عن الربا فانتهى حال وصول الشرع إليه فله ما سلف من المعاملة لقوله: ﴿عفا الله عما سلف﴾ وكما قال النبي ﷺ يوم فتح مكة: «وكل ربا فى الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين وأول ربا أضع ربا عمى العباس، ولم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة فى حال الجاهلية بل عفا عما سلف كما قال - تعالى - : ﴿فله ما سلف وأمره إلى الله﴾ أى فله ما كان قد أكل من الربا قبل التحريم»^(١).

و«من» فى قوله: ﴿فمن جاءه موعظة﴾ شرطية وهو الظاهر، ويحتمل أن تكون موصولة. وعلى التقديرين فهى فى محل رفع بالابتداء، وقوله: ﴿فله ما سلف﴾ هو الجزء أو الخبر، و﴿موعظة﴾ فاعل جاء، وسقطت التاء من الفعل للفصل بينه وبين الفاعل أو تكون الموعظة هنا بمعنى الوعظ فهى فى معنى المذكور

وقوله: ﴿من ربه﴾ جار ومجرور متعلق بجاءه، أو بمحذوف وقع صفة لموعظة. وفى قوله: ﴿من ربه﴾ تفخيم لشأن الموعظة، وإغراء بالامتثال والطاعة لأنها صادرة من الله - تعالى - المرابي لعباده.

وفى هذه الجملة الكريمة بيان لمظهر من مظاهر السماحة فيما شرعه الله لعباده، لأنه - سبحانه - لم يعاقب المرابين على ما مضى من أمرهم قبل وجود الأمر والنهي، ولم يجعل تشريعه بأثر رجعى بل جعله للمستقبل، إذ الإسلام يجب ما قبله. فما أكله المرابي قبل تحريم الربا فلا عقاب عليه فيه وهو ملك له، إلا أنه ليس له أن يتعامل به بعد التحريم، وإذا تعامل به فلن تقبل توبته حتى يتخلص من هذا المال الناتج عنه الربا.

ولقد توعد الله - تعالى - من يعود إلى التعامل بالربا بعد أن حرمه الله - تعالى - فقال ﴿ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

أى ومن عاد إلى التعامل بالربا بعد أن نهي الله عنه فأولئك العائدون هم أصحاب النار الملازمون لها، والمالكون فيها بسبب تعديهم لما نهي الله عنه.

وفى هذه الجملة الكريمة تأكيد للعقاب النازل بأولئك العائدين بوجوه من المؤكدات منها: التعبير فيها بأولئك التى تدل على البعيد فهم بعيدون عن رحمة الله، والتعبير بالجملة الاسمية التى تفيد الدوام والاستمرار والتعبير، بكلمة أصحاب الدالة على الملازمة والمصاحبة، وبكلمة

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٢٧.

﴿خالدون﴾ التي تدل على طول المكث.

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المرابين، وحسن عاقبة المتصدقين فقال: ﴿يحق الله الربا ويرى الصدقات.

والمحق: النقصان والإزالة للشيء حالاً بعد حال، ومنه محاق القمر، أى انتقاصه فى الرؤية شيئاً فشيئاً حتى لا يرى، فكأنه زال وذهب ولم يبق منه شيء.

أى: أن المال الذى يدخله الربا يحقه الله، ويذهب بركته، أما المال الذى يبذل منه صاحبه فى سبيل الله فإنه - سبحانه - يباركه وينميه ويزيده لصاحبه.

قال الإمام الرازى عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه: اعلم أنه لما كان الداعى إلى التعامل بالربا تحصيل المزيد من الخيرات، والصارف عن الصدقات الاحتراز عن نقصان المال، لما كان الأمر كذلك بين - سبحانه - أن الربا، وإن كان زيادة فى الحال إلا أنه نقصان فى الحقيقة، وأن الصدقة وإن كانت نقصاناً فى الصورة إلا أنها زيادة فى المعنى، واللائق بالعاقل أن لا يلتفت إلى ما يقضى به الطبع والحس والدواعى والصوراف، بل يعول على ما أمر به الشرع.

ثم قال: واعلم أن محق الربا وإرباء الصدقات يحتمل أن يكون فى الدنيا وأن يكون فى الآخرة. أما محق الربا فى الدنيا فمن وجوه:

أحدها: أن الغالب فى المرابى وإن كثر ماله أن تؤول عاقبته إلى الفقر، وتزول البركة عنه، ففى الحديث: الربا وإن كثر فإلى قتل.

وثانيها: إن لم ينقص ماله فإن عاقبته الظم والنقص وسقوط العدالة وزوال الأمانة.

وثالثها: إن الفقراء يلعنونه ويغضونه بسبب أخذه لأموالهم...

ورابعها: أن الأطماع تتوجه إليه من كل ظالم وطماع بسبب اشتهاه أنه قد جمع ماله من الربا ويقولون: إن ذلك المال ليس له فى الحقيقة فلا يترك فى يده.

وأما أن الربا مسبب للمحق فى الآخرة فلوجوه منها أن الله - تعالى - لا يقبل منه صدقة ولا جهاداً ولا صلة رحم - كما قال ابن عباس -، ومنها أن مال الدنيا لا يبقى عند الموت بل الباقى هو العقاب وذلك هو الخسران الأكبر.

وأما إرباء الصدقات فى الدنيا فمن وجوه: منها: أن من كان لله كان الله له، ومن أحسن إلى عباد الله أحسن الله إليه وزاده من فضله، ومنها أن يزداد كل يوم فى ذكره الجميل وميل القلوب إليه، ومنها أن الفقراء يدعون له بالدعوات الصالحة وتنقطع عنه الأطماع.

وأما إرباؤها في الآخرة فقد روى مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله تعالى - يقبل الصدقات ويأخذها بيمينه فيرببها كما يربي أحدكم مهره، أو فلوله حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد»^(١).

ففي هذه الجملة الكريمة بشارة عظيمة للمتصدقين، وتهديد شديد للمرايين ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿والله لا يحب كل كفار أثيم﴾.

و ﴿كفار﴾ فعيل بمعنى فاعل فهي صيغة مبالغة من آثم، والأثيم هو المكثّر من ارتكاب الآثام المبطن، عن فعل الخيرات.

أى : أن الله - تعالى - لا يرضى عن كل من كان شأنه الستر لنعمه والجحود لها، والتمادى في ارتكاب المنكرات، والابتعاد عن فعل الخيرات.

وقد جمع - سبحانه - بين الوصفين للإشارة إلى أن إيمان المرابين ناقص إن لم يستحلوه وهم كفار إن استحلوه، وهم في الحالتين آثمون معاقبون، يعيدون عن محبة الله ورضاه. وسيعاقب - سبحانه - الناقصين في إيمانهم، والكافرين به بما يستحقون من عقوبات.

فالجملة الكريمة تهديد شديد لمن استحلوا الربا، أو فعلوه مع عدم استحلّهم له. وبعد هذا التهديد الشديد للمتعاملين بالربا، ساق - سبحانه - آية فيها أحسن البشارات للمؤمنين الصادقين فقال - تعالى - :

﴿إن الذين آمنوا﴾ أى إيمانًا كاملاً بكل ما أمر الله به ﴿وعملوا الصالحات﴾ أى الأعمال الصالحة التي تصلح بها نفوسهم والتي من جملتها الإحسان إلى المحتاجين، والابتعاد عن الربا والمرابين ﴿وأقاموا الصلاة﴾ بالطريقة التي أمر الله بها، بأن يؤدوها في أوقاتها بخشوع واطمئنان ﴿وآتوا الزكاة﴾ أى أعطوها لمستحقيها بإخلاص وطيب نفس.

هؤلاء الذين اتصفوا بكل هذه الصفات الفاضلة ﴿لهم أجرهم عند ربهم﴾ أى لهم ثوابهم الكامل عند خالقهم ورازقهم ومربيهم.

﴿ولا خوف عليهم﴾ يوم الفرع الأكبر ﴿ولا هم يحزنون﴾ لأى سبب من الأسباب، لأن ما هم فيه من أمان واطمئنان ورضوان من الله - تعالى - يجعلهم في فرح دائم، وفي سرور مقيم.

ثم ينتقل القرآن إلى أسلوب الخطاب المباشر للمؤمنين فيأمرهم بتقوى الله، وبنهاهم عن التعامل بالربا فيقول : ﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾ أى اخشوه ووصونوا أنفسكم عن الأعمال

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ١٠٢.

والأقوال التي تفضى بكم إلى عقابه.

وقوله: ﴿وذروا ما بقى من الربا﴾ أى: اتركوا ما بقى في ذمم الذين عاملتموهم بالربا ولا تأخذوا منهم إلا رءوس أموالكم فحسب، فهذا مقابل لقوله - تعالى - قبل ذلك: ﴿فله ما سلف﴾ أى ما سلف قبضه من الربا قبل نزول الآية فهو لكم، وما لم تقبضوه فأنتم مأمورون بتركه.

وقوله: ﴿من الربا﴾ متعلق بمحذوف على أنه حال من فاعل ﴿بقى﴾ أى اتركوا الذى بقى حال كونه بعض الربا، ومن للتعويض. أو متعلق ببقى.

و﴿ذروا﴾ فعل أمر - بوزن علوا - مبنى على حذف النون والواو فاعل، وأصله «وذروا» فحذفت فاءه، والماضى منه «وذر».

وقوله: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ حض لهم على ترك الربا أى إن كنتم مؤمنين حق الإيمان فامتثلوا أمر الله وذروا ما بقى من الربا مما زاد على رءوس أموالكم.

قال ابن كثير: نزل هذا السياق في بنى عمرو بن عمير بن ثقيف، وبنى المغيرة من بنى مخزوم كان بينهم ربا في الجاهلية فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه، طلبت ثقيف أن تأخذه منهم فتشاوروا. وقالت بنو المغيرة: لا نؤدى في الإسلام، فكتب في ذلك عتاب بن أسيد نائب مكة إلى رسول الله - ﷺ - فنزلت هذه الآية، فكتب بها رسول الله ﷺ إليه. فقالوا نتوب إلى الله ونذر ما بقى من الربا فتركوه كلهم. وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لكل من استمر على تعاطى الربا بعد الإنذار^(١) ثم هدد الله - تعالى كل من يتعامل بالربا تهديداً عنيفاً فقال: ﴿فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾.

أى: فإن لم تتركوا الربا وأخذتم منه شيئاً بعد نهيكم عن ذلك، فكونوا على علم ويقين بحرب كائنة من الله - تعالى - ورسوله، ومن حاربه الله ورسوله لا يفلح أبداً.

وقوله: ﴿فأذنوا﴾ من أذن بالشئ يأذن إذا علمه. وقرئ ﴿فأذنوا﴾ من أذنه الأمر وأذنه به: أعلمه إياه: أى أعلموا من لم ينته عن الربا بحرب من الله ورسوله.

وتنكير «حرب» للتهويل والتعظيم أى فكونوا على علم ويقين من أن حرباً عظيمة ستنزل عليكم من الله ورسوله.

قال بعضهم: والمراد المبالغة في التهديد دون نفس الحرب. وقال آخرون: المراد نفس الحرب بمعنى أن الإصرار على عمل الربا إن كان من شخص وقدر عليه الإمام قبض عليه

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٣٠ بتصرف يسير.

وأجرى فيه حكم الله من الحبس والتعزير إلى أن تظهر منه التوبة. وإن وقع ممن يكون له عسكر وشوكة، حاربه الإمام كما يحارب الفئة الباغية، وكما حارب أبو بكر الصديق ما نعى الزكاة. وقال ابن عباس: من تعامل بالربا يستتاب فإن تاب فيها وإلا ضرب عنقه^(١).

ثم بين - سبحانه - ما يجب عليهم عند توبتهم عن التعامل بالربا فقال: ﴿وإن تبتم فلکم رعوس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون﴾.

أى: وإن تبتم عن التعامل بالربا الذى يوجب الحرب عليكم من الله ورسوله، فلکم رعوس أموالکم أى أصولها بأن تأخذوها ولا تأخذوا سواها، وبذلك لا تكونون ظالمين لغرمائكم، ولا يكونون ظالمين لكم، لأن من أخذ رأس ماله بدون زيادة كان مقسطاً ومفضلاً، ومن دفع ما عليه بدون إنقاص منه كان صادقاً فى معاملته.

ثم أمر الله - تعالى - الدائنين أن يصبروا على المدينين الذين لا يجدون ما يؤدون منه ديونهم فقال - تعالى - : ﴿وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة﴾.

والعسرة: اسم من الإعسار وهو تعذر الموجود من المال يقال: أعسر الرجل إذا صار إلى حالة العسرة وهى الحالة التى يتعسر فيها وجود المال.

والنظرة: اسم من الإنظار بمعنى الإمهال. يقال: نظره وانتظره وتنظره، تأنى عليه وأمهله فى الطلب.

والميسرة: مفعلة من اليسر الذى هو ضد الإعسار. يقال: أيسر الرجل فهو موسر إذا اغتنى وكثر ماله وحسنت حاله.

والمعنى: وإن وجد مدين معسر فأمهله فى أداء دينه إلى الوقت الذى يتمكن فيه من سداد ما عليه من ديون، ولا تكونوا كأهل الجاهلية الذين كان الواحد منهم إذا كان له دين على شخص وحل موعد الدين طالبه بشدة وقال له: إما أن تقضى وإما أن تبرى أى تدفع زيادة على أصل الدين.

و﴿كان﴾ هنا الظاهر أنها تامة بمعنى وجد أو حدث، فتكتفى بفاعلها كسائر الأفعال. وقيل يجوز أن تكون ناقصة واسمها ضمير مستكن فيها يعود إلى المدين وإن لم يذكر وذلك على قراءة ﴿ذا عسرة﴾ بالنصب وقوله: ﴿فنظرة﴾ الفاء جواب الشرط. ونظرة خبر لمبتدأ محذوف أى فالأمر أو فالواجب أو مبتدأ محذوف الخبر أى فعليكم نظرة.

ثم حبب - سبحانه - إلى عباده التصديق بكل أو ببعض ما لهم من ديون على المدينين

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٧ ص ١٠٦.

المعسرين فقال - تعالى - : ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ .
 أى : وأن تتركوا للمعسر كل أو بعض ما لكم عليه من ديون وتتصدقوا بها عليه، فإن فعلكم هذا يكون أكثر ثوابا لكم من الإِنظار.

وجواب الشرط في قوله : ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ محذوف . أى إن كنتم تعلمون أن هذا النصدق خير لكم فلا تتباطؤا في فعله، بل سارعوا إلى تنفيذه فإن التصديق بالدين على المعسر ثوابه جزيل عند الله - تعالى - .

وقد أورد بعض المفسرين جملة من الأحاديث النبوية التي تحض على إهمال المعسر، والتجاوز عما عليه من ديون .

ومن ذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي قتادة أن رسول الله ﷺ قال : « من نفس عن غريمه أو محأ عنه كان في ظل العرش يوم القيامة » .

وروى الطبراني عن أسعد بن زرارة أن رسول الله ﷺ قال : « من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله فلييسر على معسر أو ليضع عنه » .

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : من أراد أن تستجاب دعوته وأن تكشف كربته فليفرج عن معسر^(١) .

ثم ساق - سبحانه - في ختام حديثه على الربا آية كريمة ذكر الناس فيها بزوال الدنيا وفناء ما فيها من أموال، وبالإستعداد للأخرة وما فيها من حساب فقال - تعالى - : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ .

أى : واحذروا أيها المؤمنون يوما عظيما في أهواله وشدائده، وهو يوم القيامة الذى تعودون فيه إلى خالقكم فيحاسبكم على أعمالكم، ثم يجازى - سبحانه - كل نفس بما كسبت من خير أو شر بمقتضى عدله وفضله، ولا يظلم ربك أحدا .

فالآية الكريمة تعقيب حكيم يتناسب كل التناسب مع جو المعاملات والأخذ والعطاء، حتى يتعد الناس عن كل معاملة لم يأذن بها الله - تعالى - .

قال الألوسى : أخرج غير واحد عن ابن عباس أن هذه الآية هي آخر ما نزل على رسول الله ﷺ من القرآن . واختلف في مدة بقائه بعدها . فقيل : تسع ليال . وقيل : سبعة أيام . وقيل : واحدا وعشرين يوماً . وروى أنه قال : اجعلوها بين آيات الربا وآية الدين . . .^(٢) .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٣١ .

(٢) تفسير الألوسى ج ٣ صفحة ٥٤ .

هذا، والمتدبر في هذه الآيات التي وردت في موضع الربا، يراها قد نفرت منه تنفيراً شديداً، وتوعدت متعاطيه بأشد العقوبات، وشبهت الذين يأكلونه بتشبهات تفرغ منها النفوس، وتشمئز منها القلوب، وحضت المؤمنين على أن يلتزموا في معاملاتهم ما شرعه الله لهم، وأن يتساحوا مع المعسرين ويتصدقوا عليهم بما يستطيعون التصديق به.

وقد تكلم الفقهاء^(١) وبعض المفسرين عن الربا وأقسامه وحكمة تحريمه كلاماً مستفيضاً، قال بعضهم: الربا قسمان: ربا النسئة، وربا الفضل.

ربا النسئة: هو الذي كان معروفًا بين العرب في الجاهلية، وهو أنهم كانوا يدفعون المال على أن يأخذه في موعد معين، فإذا حل الأجل طولب المدين برأس المال كاملاً، فإن تعذر الأداء زادوا في الحق وفي الأجل.

وربا الفضل: أن يباع درهم بدرهين، أو دينار بدينارين، أو رطل من العسل برطلين، أو كيلة من الشعير بكيلتين.

وكان ابن عباس في أول الأمر لا يحرم إلا ربا النسئة وكان يجوز ربا الفضل اعتماداً على ما روى من أن النبي ﷺ قال: «إنما الربا في النسئة» ولكن لما تواتر عنده الخبر بأن النبي ﷺ قال: الحنطة بالحنطة مثلاً بمثل يدا بيد» رجع عن قوله. لأن قوله ﷺ: «إنما الربا في النسئة» محمول على اختلاف الجنس فإن النسئة حينئذ تحرم وبياح التفاضل كبيع الحنطة بالشعير. تحرم فيه النسئة وبياح التفاضل.

ولذلك وقع الاتفاق على تحريم الربا في القسمين: أما ربا النسئة فقد ثبت تحريمه بالقرآن كما في قوله - تعالى - : ﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾.

وأما ربا الفضل فقد ثبت تحريمه بالحديث الصحيح الذي رواه عبادة ابن الصامت أن النبي ﷺ قال: «الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والشعير بالشعير والتمر بالتمر. والملح بالملح. مثلاً بمثل، سواء بسواء، يداً بيد، فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كانت يداً بيد».

وقد اشتهرت رواية هذا الحديث حتى صارت مسلمة عند الجميع. وجهور العلماء على أن الحرمة ليست مقصورة على هذه الأشياء الستة، بل تتعداها إلى غيرها مما يتحد معها في العلة. وقد فسر بعضهم هذه العلة باتحاد الجنس والقدر. .»^(٢).

(١) راجع على سبيل المثال تفسير القرطبي ج٣ صفحة ٣٤٧. وتفسير المنار ج٣ صفحة ١٠٦.

(٢) تفسير آيات الأحكام - بتصرف وتلخيص - للشيخ محمد علي السائس ج١ صفحة ١٦١.

ومن الحكم التي ذكرت في أسباب تحريم الربا : أنه يقتضى أخذ مال الغير بدون عوض ، ويؤدى إلى امتناع أصحاب الأموال عن تحمل المشاق في الكسب والتجارة والصناعة ، وإلى استغلال حاجة المحتاج أسوأ استغلال وكل ذلك يفضى إلى إشاعة روح التباغض والتخاصم والتحاسد بين أفراد المجتمع - كما سبق أن أشرنا - .

ومن الأحاديث الشريفة التي وردت في التحذير من تعاطى الربا ما رواه الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : اجتنبوا السبع الموبقات - أى المهلكات - قالوا : يا رسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات .

وأخرج مسلم في صحيحه عن جابر بن عبيد الله قال : لعن رسول الله ﷺ أكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه .

وبعد أن أمر - سبحانه - المؤمنين أن يسارعوا في التصديق على المحتاجين ، وأن يجتنبوا الربا والمرايين ، وبين لهم أن أموالهم تزكو وتنمو بالإنفاق في وجوه الخير ، وتمحق وتذهب بتعاطى الربا ، بعد أن وضع كل ذلك ساق لهم آية جامعة ، متى اتبعوا توجيهاتها استطاعوا أن يحفظوا أموالهم بأفضل طريق ، وأشرف وسيلة ، وأن يصونها عن الهلاك والضياع عندما يعطى أحدهم أخاه شيئاً من المال على سبيل الدين أو القرض الحسن المنزه عن الربا . استمع إلى القرآن وهو يتكلم عن أحكام الدين وعن أحكام بعض المعاملات التجارية الحاضرة فيقول :

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى
فَأَكْتُوبُهُ ۗ وَلِيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ
كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۗ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ
الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا
فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ
أَنْ يُمْلَلَ هُوَ فليُمْلَلْ لِيَهٗ بِالْعَدْلِ وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ
مِنْ رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِنْ لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ

مَعَن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ
 إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا
 أَنْ تَكْتُوبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ
 عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ
 تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
 أَلَّا تَكْتُوبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ
 وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا
 اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٣٤﴾

قال ابن كثير: قوله - تعالى - : ﴿يأيا الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه﴾ هذا إرشاد منه - تعالى - لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها وأضبط للشاهد فيها، وقد نبه على ذلك في آخر الآية حيث قال: ﴿ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا﴾ وروى البخارى عن ابن عباس أنه قال: أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى قد أحله الله وأذن فيه ثم قرأ ﴿يأيا الذين آمنوا إذا تداينتم﴾. الآية. وثبت في الصحيحين عن ابن عباس قال: قدم النبي ﷺ المدينة وهم يسلفون في الثمار السنة والستين والثلاث فقال رسول الله ﷺ «من أسلف فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم»^(١).

ومعنى ﴿تداينتم﴾: تعاملتم بالدين وداين بعضهم بعضا. وحقيقة الدين - كما يقول القرطبي - «عبرة عن كل معاملة كان أحد العوضين فيها نقداً والآخر في الذمة نسيئة، فإن العين عند العرب ما كان حاضرا، والدين ما كان غائبا»^(٢).

(١) تفسير ابن كثير ج١ - صفحة ٣٣٤.

(٢) تفسير القرطبي ج٣ - صفحة ٣٧٧.

والأجل في اللغة هو الوقت المضروب لانقضاء الأمد، وأجل الإنسان هو الوقت المحدد لانقضاء عمره. وأجل الدين هو الوقت المعين لأدائه في المستقبل. وأصله من التأخير، يقال: أجل الشيء يأجل إذا تأخر والأجل نقيض العاجل.

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا إذا عامل بعضكم بعضاً بالدين إلى وقت معين فاكتبوا هذا الدين، لأن في هذه الكتابة حفظاً له، وضبطاً لمقداره، ومنعاً للتنازع من أن يقع بينكم. قال صاحب الكشاف: فإن قلت: هلا قيل: إذا تداينتم إلى أجل مسمى، وأي حاجة إلى ذكر الدين؟ قلت: ذكر - لفظ الدين - ليرجع الضمير إليه في قوله: ﴿فاكتبوه﴾ إذ لو لم يذكر لوجب أن يقال: فاكتبوا الدين، فلم يكن النظم بذلك الحسن، ولأنه أبين لتنويع الدين إلى مؤجل وحال. فإن قلت: ما فائدة قوله: ﴿مسمى﴾ قلت: ليعلم أن من حق الأجل أن يكون معلوماً كالتوقيت بالسنة والأشهر والأيام. ولو قال: إلى الحصاد أو الدياس أو رجوع الحاج لم يميز لعدم التسمية^(١).

وجهور العلماء على أن الأمر في قوله «فاكتبوه» للندب، ولأن الله - تعالى - قد قال بعد ذلك ﴿فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أوتى من أمانته﴾ ولأن النبي ﷺ لم يلزم الدائنين بكتابة ديونهم، ولا المدينين بأن يكتبوها.

وقال الظاهرية: إن الأمر هنا للوجوب، ومن لم يفعل ذلك كان آثماً، لأن الأصل في الأمر أنه للوجوب..

وقوله: ﴿وليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾ بيان لكيفية الكتابة المأمور بها وتعيين من يتولاها عقب الأمر بها على سبيل الإجمال.

أى: عليكم أيها المؤمنون إذا تعاملتم بالدين إلى أجل معين أن تكتبوا هذا الدين، وليتول الكتابة بينكم شخص يجيدها وعنده فقهها وعلمها، بأن يكون على معرفة بشروط العقود وتوثيقها، وما يكون من الشروط موافقاً لشرعة الإسلام وما يكون منها غير موافق، وعلى هذا الكاتب أن يلتزم الحق مع الدائن والمدين في كتابته، لأن الله - تعالى - يقول: ﴿ولا يجرمكم شأن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾. فالجملة الكريمة تحض المتعاملين بالدين أن يختاروا لكتابته شخصاً تتوفر فيه إجادة الكتابة، والخبرة بشروط العقود وتوثيقها، كما تتوفر فيه الاستقامة وتحري الحق. ومفعول ﴿يكتب﴾ محذوف ثقة بانفهامه أى وليكتب بينكم الكتابة كاتب بالعدل. والتقييد بالظرف بينكم للإيدان بأنه ينبغي للكاتب ألا يسمح لنفسه بأن يفرد به أحد المتعاقدين، لأن في هذا الانفراد تهمة يجب أن يربأ بنفسه عنها.

والجار والمجرور وهو ﴿بالعدل﴾ متعلق بمحذوف صفة لكاتب أى : وليكن المتصدى للكتابة من شأنه أن يكتب بالسوية من غير ميل إلى أحد الجانبين . أو متعلق بالفعل يكتب . أى : وليكتب بالحق .

ثم نهي الله - تعالى - من كان قادرًا على الكتابة عن الامتناع عنها متى دعى إليها فقال : ﴿ولا ياب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب﴾ .

أى : ولا يمتنع كاتب من أن يكتب للمتدابين ديونها بالطريقة التي علمه الله إياها أن يتحرى العدل والحق في كتابته، وأن يلتزم فيها ما تقتضيه أحكام الشريعة الإسلامية . فالكاف في قوله - تعالى - : ﴿كما علمه الله﴾ نعت لمصدر محذوف والتقدير : فليكتب كتابة مثل ما علمه الله - تعالى - بمعنى أن يلتزم الحق والعدل فيها .

ويجوز أن تكون الكاف للتعليل فيكون المعنى : لا يمتنع عن الكتابة لأنه كما علمه الله إياها ويسرها له ونفعه بها، فعليه أن ينفع غيره بها، فهو كقوله - تعالى - : ﴿وأحسن كما أحسن الله إليك﴾ وفي الحديث الشريف «إن من الصدقة أن تعين صانعًا أو تصنع لأخرق» وفي حديث آخر : «من كتم علمًا يعلمه أجمه الله بلجام من نار يوم القيامة»^(١) . وقوله : ﴿فليكتب﴾ تفريع على قوله «ولا ياب كاتب» أى : فليكتب الكتابة التي علمه الله إياها فهو توكيد للأمر المستفاد من قوله : ﴿ولا ياب كاتب﴾ . ويجوز أن يكون توكيدًا للأمر الصريح في قوله : ﴿وليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾ .

قال القرطبي : واختلف الناس في وجوب الكتابة على الكاتب والشهادة على الشاهد . فقال الطبري : واجب على الكاتب إذا أمر أن يكتب . وقال الحسن : ذلك واجب عليه في الموضع الذي لا يقدر فيه على كاتب غيره فيض صاحب الدين إن امتنع ، فإن كان كذلك فهو فريضة ، وإن قدر على كاتب غيره فهو في سعة إذا قام بها غيره»^(٢) .

وإلى هنا تكون الآية الكريمة قد قررت مبدأ الكتابة في الدين، وبينت كيفية الكتابة، وأشارت إلى إجداد الكاتب لها، ونهته عن الامتناع عنها إذا دعى إليها. ثم انتقلت الآية بعد ذلك إلى بيان من يتولى الإملاء فقال - تعالى - : ﴿وليمل الذي عليه الحق، وليتق الله ربه، ولا يبخس منه شيئاً﴾ .

والإملاء معناه الإملاء . فهما لغتان معناهما واحد . وقد جاء القرآن باللغتين قال - تعالى - : ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً﴾ .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٣٥ . (٢) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٣٨٥ .

أى : وعلى المدين الذى عليه الدين وقد التزم بأدائه أن يمل على الكاتب هذا الدين، وذلك ليكون إملاؤه إقراراً به وبال حقوق التى عليه الوفاء بها. وعليه كذلك أن يراقب الله - تعالى - فى إملائه فلا ينقص من الدين الذى عليه شيئاً، لأن هذا الإنقاص ظلم حرمه الله - تعالى - .

وقد أمر الله - تعالى - بأن يكون الذى يمل على الكاتب هو المدين لأنه هو المكلف بأداء مضمون الكتابة، ولأنه بإملائه يكون قد أقر على نفسه بما عليه، ولأنه لو أفلس الدائن فربما يزيد فى الدين، أو يمل شيئاً ليس محل اتفاق بينه وبين المدين، ولأن المدين فى الغالب فى موقف ضعيف فأعطاه الله - تعالى - حق الإملاء على الكاتب حتى لا يغبن من الدائن .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد مكن المدين من الإملاء على الكاتب حتى تكون الكتابة تحت سمعه وبصره وباختياره، ولكنه فى الوقت نفسه أوجب عليه أمرين : تقوى الله وعدم الانقاص من الدين الذى عليه، وإن ذلك لتشريع عادل حكيم لا ظلم فيه لا للدائن ولا للمدين .

ثم بين - سبحانه - الحكم فيما إذا كان الذى عليه الدين لا يحسن الإملاء فقال - تعالى - : ﴿فإن كان الذى عليه الحق﴾ وهو المدين ﴿سفيهاً﴾ أى جاهلاً بالإملاء أو ناقص العقل، أو متلاًفاً مبدراً لا يحسن تدبير أمره .

﴿أو ضعيفاً﴾ بأن يكون صبيهاً أو شيخاً تقدمت به الشيخوخة .

﴿أو لا يستطيع أن يمل هو﴾ بأن يكون عيباً أو أخرس أو لا خبرة له بإملاء أمثال هذه المكاتبات .

﴿فليملل وليه بالعدل﴾ أى فعلى ولى أمره أو من يهيم شأنه ولا يرضى له أن يضيع حقه أن يتولى الإملاء متحريراً الحق والعدل فيما يكلف به .

وبعد هذا البيان الحكيم عن الكتابة وأحكامها فى شأن الديون، انتقل القرآن إلى الحديث عن الإشهاد فقال - تعالى - : ﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم﴾ أى : اطلبوا شاهدين عدلين من الرجال ليشهدوا على ما يجرى بينكم من معاملات مؤجلة، لأن هذا الإشهاد يعطى الديون والكتابة توثيقاً وتثبيتاً. والسين والتاء فى قوله : «واستشهدوا» للطلب .

قال الألوسى : «وفى اختيار صيغة المبالغة فى «شهيدين» للإيماء إلى من تكررت منه قال الألوسى : «وفى اختيار صيغة المبالغة فى «شهيدين» للإيماء إلى من تكررت منه الشهادة، فهو عالم بها مقتدر على أدائها وكأن فيه رمزاً إلى العدالة، لأنه لا يتكرر ذلك من الشخص عند الحكام إلا وهو مقبول عندهم ولعله لم يقل رجلين لذلك . والأمر للندب أو للوجوب على الخلاف على ذلك»^(١) .

وقوله : ﴿من رجالكم﴾ متعلق بقوله : ﴿واستشهدوا﴾ ومن لا ابتداء الغاية ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف صفة لشهيدين ومن للتبعية، أى من رجالكم المسلمين الأحرار فإن الكلام فى معاملتهم.

ثم بين - سبحانه - الحكم إذا لم يتيسر شاهدان من الرجال فقال : ﴿فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء﴾.

وقوله : ﴿ممن ترضون﴾ متعلق بمحذوف على أنه صفة لرجل وامرأتان. أى فإن لم يتيسر رجلان للشهادة فليشهد رجل وامرأتان كائون مرضيون عندكم بعدالتهم. وهذا الوصف وإن كان فى جميع الشهود إلا أنه ذكر هنا للتشديد فى اعتباره، لأن اتصاف النساء به قد لا يتوفر كثيراً.

وقوله : ﴿من الشهداء﴾ متعلق بمحذوف حال من الضمير المفعول المقدر فى ﴿ترضون﴾ العائد إلى الموصول : أى فليشهد رجل وامرأتان ممن ترضونهم حال كونهم من بعض الشهداء لعلمكم بعدالتهم، وثقتكم بهم.

وقوله - تعالى - : ﴿ممن ترضون من الشهداء﴾ أدق فى الدلالة على صدق الشهادة من العدالة، لأن الإنسان العدل قد يكون مرضياً فى دينه وخلقه ولكنه قد يتأثر بالمشاهد المؤثرة فتخونه ذاكرته فى وقت الحاجة إليها، أو قد يكون ممن يمنعه منصبه وجاهه ومقامه فى الناس من الكذب إلا أنه قد يرتكب بعض المعاصى، فجاء - سبحانه - بهذه الجملة الحكيمة لكى يقول للناس. اختاروا الشهداء من الذين يرتضى قولهم، ويقيمون الشهادة على وجهها الحق بدون التأثير بأى نوع من أنواع المؤثرات.

هذا، وشهادة النساء مع الرجال تجوز عند الحنفية فى الأموال والطلاق والنكاح والرجعة وكل شىء إلا الحدود والقصاص. وعند المالكية تجوز فى الأموال وتوابعها خاصة، ولا تقبل فى أحكام الأبدان مثل الحدود والقصاص والنكاح والطلاق والرجعة.

ثم بين - سبحانه - العلة فى أن المرأتين تقومان مقام الرجل فى الشهادة فقال : ﴿أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى﴾.

قال القرطبي : معنى تضل تنسى، والضلال عن الشهادة إنما هو نسيان جزء منها وذكر جزء، ويبقى المرء حيران بين ذلك ضالاً^(١).

والمعنى : جعلنا المرأتين بدل رجل واحد فى الشهادة، خشية أن تنسى إحداهما فتذكر كل

واحدة منها الأخرى: إذ المرأة لقوة عاطفتها، وشدة انفعالها بالحوادث، قد تتوهم ما لم تر، فكان من الحكمة أن يكون مع المرأة أخرى في الشهادة بحيث يتذكران الحق فيما بينهما. والعلة في الحقيقة هي التذكير، ولكن الضلال لما كان سبباً في التذكير، نزل منزلة العلة. وذلك كأن تقول: أعددت السلاح خشية أن يجيء العدو فأدفعه، فإن العلة هي الدفاع عن النفس، ولكن لما كان مجيء العدو سبباً فيه نزل منزلته.

وكما أمر الله - تعالى - الكتاب في أول الآية بعدم الامتناع عن الكتابة أمر الشهود أيضاً بعدم الامتناع عن الشهادة فقال - تعالى - : ﴿ولا ياب الشهداء إذا ما دعوا﴾ أى : ولا يتمتع الشهود عن أداء الشهادة وتحملها متى دعوا إليها، لأن الامتناع عن تحمل الشهادة وأدائها قد يؤدي إلى ضياع الحقوق. والله - تعالى - قد شرع الشهادة لإحقاق الحق، ونشر العدل بين الناس، فعلى من اشتهروا بالعدالة ووثق الناس بهم أن يؤديوا الشهادة كما أمرهم الله - تعالى - .

ثم أمر - سبحانه - بكتابة الدين سواء أكبر الدين أم صغر فقال : ﴿ولا تساموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله﴾ .

السأم : الضجر والملل. يقال : سئمت الشيء أسامه سأمًا وسامة أى مللته وضجرته. والمعنى : وعليكم أيها المؤمنون أن لا تملوا من كتابة الدين إلى الوقت المحدد له سواء أكان هذا الدين كبيراً أم صغيراً، لأن الكتابة في الحالتين أدعى إلى حفظ الحقوق وصيانتها، وإلى عدم نشوب التنازع أو التخاصم بينكم، ولأن الدين قد يكون صغيراً في نظر الغنى الملىء، إلا أنه كبير في نظر الفقير المعسر، ولأن التهاون في شأن الدين الصغير قد يؤدي إلى التهاون في شأن الدين الكبير، لذا وجب عليكم أن تنقادوا لشرع الله وأن تكتبوا ما بينكم من ديون. والضمير في قوله : ﴿أن تكتبوه﴾ يعود إلى الدين أو إلى الحق، وقوله : ﴿صغيراً أو كبيراً﴾ حالان من الضمير. أى لا تساموا أن تكتبوه على كل حال قليلاً أو كثيراً، وقدم الصغير على الكبير اهتماماً به وانتقالاً من الأدنى إلى الأعلى.

ثم بين - سبحانه - ثلاث فوائد تعود عليهم إذا ما امتثلوا ما أمرهم الله - تعالى - به، فقال : ﴿ذلكم أقسط عند الله﴾ .

واسم الإشارة ﴿ذلكم﴾ يعود إلى كل ما سبق ذكره في الآية من الكتابة والإشهاد ومن عدم الامتناع عنها، ومن تحرى الحق والعدل.

و ﴿أقسط﴾ بمعنى أعدل. يقال : أقسط فلان في الحكم يقسط إقسطاً إذا عدل فهو مقسط.

قال - تعالى - : ﴿إن الله يحب المقسطين﴾. ويقال : هو قاسط إذا جار وظلم. قال - تعالى - : ﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا﴾.

أى : ذلكم الذى شرعناه لكم فى أمر الديون من الكتابة والإشهاد وغيرهما أعدل فى علم الله - تعالى - ، وكل ما كان كذلك فهو الأعدل والأفضل والأحكم فى ذاته ، لأنه - سبحانه - هو الأعلم بما فيه مصلحتكم فاستجيبوا له ، وتلك هى الفائدة الأولى .

أما الفائدة الثانية فهى قوله - سبحانه - : ﴿وأقوم للشهادة﴾ ومعنى ﴿أقوم﴾ أبلغ فى الاستقامة التى هى ضد الاعوجاج . أى : أثبت لها وأعون على إقامتها وأدائها .

وأما الفائدة الثالثة فهى قوله : ﴿وأدنى أن لا ترتابوا﴾ أى : أقرب إلى زوال الشك والريبة . أى أن الأوامر والنواهي السابقة إذا نفذت على وجهها كان تنفيذها أعدل فى علم الله - تعالى - وأعون على إقامة الشهادة إذ بها يتم الاعتماد على الحفظ ، وأقرب إلى عدم الشك فى جنس الدين وقدره وأجله ، وإذا توفرت هذه الفوائد الثلاث فى المعاملات ساد الوفاق والتعاون بين الناس ، أما إذا فقدت فإن الثقة تزول من بينهم ، ويحل محلها النزاع والشقاق .

ثم أباح - سبحانه - فى التجارة الحاضرة عدم الكتابة فقال : ﴿إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها﴾ .

والتجارة الحاضرة التى تدور بين التجار : هى التى يجرى فيها التقابض فى المجلس أو التى يتأخر فيها الأداء زمنًا يسيرًا . وسميت حاضرة ، لأن المبيع والتمن كلاهما حاضر .

والمعنى : أن الله - تعالى - يأمركم بكتابة الديون وبالإشهاد عليها إلا أنه - سبحانه - رحمة بكم أباح لكم عدم الكتابة فى التجارة الحاضرة التى تكثرون إدارتها والتعامل فيها ، لأنه لو كلفكم بذلك لشق الأمر عليكم ، وهو - سبحانه - ﴿ما جعل عليكم فى الدين من حرج﴾ . ولأن أمثال هذه التجارات التى يحصل فيها التقابض ويكثر تكرارها ، لا يتوقع فيها التنازع أو النسيان .

والاستثناء هنا منقطع لأنه ليس هناك دين حتى يكتب ، وليست التجارة الحاضرة من جنس التعامل بالديون فكأنه قيل : إذا تداينتم فتكاتبوا وأشهدوا لكن التجارة الحاضرة التى يجرى فيها التقابض لا جناح عليكم فى عدم كتابتها .

وقيل : الاستثناء متصل والجملة المستثناة فى موضع نصب لأنه استثناء من الجنس ، لأنه أمر بالكتابة فى كل معاملة واستثنى منها التجارة الحاضرة والتقدير : أمركم بالكتابة والإشهاد فى كل معاملة إلا فى حال حضور التجارة فلا بأس من ترك الكتابة . و﴿تجارة﴾ قرأها الجمهور بالرفع

على أنها اسم تكون، والخبر جملة ﴿تديرونها بينكم﴾. أو على أنها فاعل تكون إذا اعتبرناها تامة.

وقرأها عاصم بالنصب على أنها خبر تكون واسمها ضمير مستتر فيها يعود على التجارة. أى. إلا أن تكون التجارة تجارة حاضرة.

وقوله - تعالى - : ﴿وأشهدوا إذا تباعتم﴾ أمر منه - سبحانه - بالإشهاد عند البيع، وهذا الأمر للإرشاد والتعليم عند جمهور العلماء. ويرى الظاهرية أنه للوجوب.

قال صاحب الكشاف: هذا أمر بالإشهاد على التبايع مطلقا ناجزا أو كائنا - أى مؤجلا - لأنه أحوط وأبعد مما عسى يقع من الاختلاف. ويجوز أن يراد: وأشهدوا إذا تباعتم هذا التبايع. يعنى التجارة الحاضرة على أن الإشهاد كاف فيه دون الكتابة، وعن الضحاك: هى عزيمة من الله ولو على باقة بقل^(١).

ثم نهي - سبحانه - عن المضارة فقال: ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾. والمضارة: إدخال الضرر. والفعل ﴿يضار﴾ يحتمل أن يكون مبنيًا للفاعل، وأن أصله ﴿لا يضارر - بكسر الراء - ويحتمل أن يكون مبنيًا للمفعول. وأن أصله لا يضارر بفتح الراء الأولى.

والمعنى على الأول: نهي الكاتب والشاهد عن أن ينزلا ضرراً بأحد المتعاقدين، بأن يبغض الكاتب أحدهما، أو يشهد بغير الحق.

والمعنى على الثانى: وهو الظاهر - نهي الدائن والمدين عن أن ينزل أحدهما ضرراً بالكاتب أو الشاهد لحملهما على كتابة غير الحق أو قول غير الحق، فإنها أمينان، والإضرار بهما قد يحملهما على الخيانة وفى ذلك ضياع للأمانة وذهاب للثقة. ولذا قال - تعالى - بعد ذلك ﴿وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم﴾.

أى: وإن تفعلوا ما نهيتم عنه أو تخالفوا ما أمرتم به، فإنكم بذلك تكونون قد خرجتم عن طاعة الله، وتلبستم بمعصيته، وصرتم أهلا لعقوبته، فعليكم أن تقفوا عند حدود الله حتى تتحقق لكم السعادة فى دينكم ودنياكم.

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالأمر بخشيته. وتذكيرهم بنعمه فقال: ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله، والله بكل شىء عليم﴾.

أى: واتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، فهو - سبحانه - الذى يعلمكم ما يصلح لكم

أمر دنياكم وما يصلح لكم أمر دينكم متى اتقيتموه واستجبتم له، وهو - سبحانه - بكل شيء عليم لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

وبعد: فهذه هي آية الدين التي هي أطول آية في القرآن، تقرؤها فتراها قد اشتملت على أدق التشريعات، وأحكم التوجيهات، وأنجع الإرشادات التي تهدي إلى حفظ الحقوق وضبطها وتوثيقها بمختلف الوسائل.

تقرؤها فترى الدقة العجيبة في الصياغة بأن وضع كل لفظ في مكانه المناسب، وترى الطلاوة في التعبير، والعذوبة في الألفاظ بحيث لا تطغى دقة الصياغة على جمال العرض.

وترى الوفاء الكامل، لكل الجوانب التشريعية والاحتراس التام من كل المؤثرات التي قد تؤثر على سلامة التعاقد، والإرشاد الجامع إلى كل ما يضمن وصول الحق والعدل إلى جميع الأطراف بدون محاباة أو غبن.

وترى قبل ذلك وبعد ذلك كيف يسوق القرآن تشريعاته بطريقة تغرس في النفوس الخوف من الله - تعالى - والمراقبة له، والاستجابة لأوامره، لا كطريقة البشر في قوانينهم التي صاغوها في قوالب صماء من الألفاظ لا تشعر معها بتأثير في النفس، ولا باهتزاز في القلب.

ولولم يكن في شريعة الله سوى هذا التأثير الذي تشعر به النفوس النقية الصافية عند تدبرها لكفأها ذلك دليلاً على سموها وفضلها وعلى أنها من صنع الله - تعالى - ولو أن المسلمين أخذوا بها وتوجهاتها في سائر شؤونهم لظفروا بالسعادتين: الدنية والدنيوية.

ثم بين - سبحانه - ما يجب على المسلمين فعله إذا لم يتمكنوا من كتابة ديونهم بأن كانوا مسافرين وليس معهم كاتب فقال - تعالى -:

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنْ مَّقْبُوضَةً ۖ

فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ ۚ وَلْيَسِقْ

اللَّهُ رَبَّهُ ۚ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ

عَاشِمٌ قَلْبُهُ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۗ ﴿٦٥٢﴾

الرهان: جمع رهن بمعنى مرهون من باب إطلاق المصدر على اسم المفعول وقرأ ابن كثير وأبو عمر ﴿فرهن مقبوضة﴾ وأصل الرهن في كلام العرب يدل على الحبس قال - تعالى -:

﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾. ومعنى الرهن: أن يوضع شيء يناسب قيمة الدين من متاع المدين بيد الدائن توثقة له في دينه، ليستطيع أن يستوفي حقه من هذا الشيء المرهون عند تعذر الدفع.

والعنى: وإن كنتم. أيها المؤمنون - مسافرين وتداينتم بدين إلى أجل مسمى، ولم تجدوا كاتباً يكتب لكم ديونكم، أو لم تيسر لكم أسباب الكتابة لأى سبب من الأسباب، فإنه في هذه الحالة يقوم مقام الكتابة رهان مقبوضة يقبضها صاحب الدين ضماناً لحقه عند تعذر أخذه من الغريم.

وفي التعبير بقوله: ﴿على سفر﴾ استعارة تبعية حيث شبه تمكنهم في السفر بتمكن الراكب من مركوبه. وفيه كذلك إشارة إلى اضطراب الحال، لأن حال المسافر يغلب عليها التنقل وعدم الاستقرار.

وجملة ﴿ولم تجدوا كاتباً﴾ معطوفة على فعل الشرط، أى: وإن كنتم مسافرين ولم تجدوا، كاتباً فتكون في محل جزم تقديراً. ويجوز أن تكون الواو للحال والجملة بعدها في محل نصب على الحال.

وقوله: ﴿فرهان مقبوضة﴾ خبر لمبتدأ محذوف والتقدير: فالذى يستوثق به رهان مقبوضة. أو مبتدأ محذوف والخبر والتقدير: فعليكم رهان مقبوضة.

ومن الأحكام التي أخذها الفقهاء من هذه الآية الكريمة: أن تعليق الرهان على السفر ليس لكون السفر شرطاً في صحة الرهان، فإن التعامل بالرهان مشروع في حالتي السفر والحضر، وإنما علق هنا على السفر لأنه مظنة تسر الكتابة لما فيه من التنقل وعدم الاستقرار. وقد ثبت في الصحيحين عن أنس أن رسول الله ﷺ توفي ودرعه مرهونة عند يهودى على ثلاثين وسقاً من شعر رهنها قوتاً لأهله^(١).

ومن الواضح أن رسول الله ﷺ عند ما رهن درعه لليهودى كان مقيماً ولم يكن مسافراً. قال القرطبي: ولم يرو عن أحد منع الرهن في الحضر سوى مجاهد والضحاك وداود متمسكين بالآية، ولا حجة فيها لهم، لأن هذا الكلام وإن خرج مخرج الشرط فالمراد به غالب الأحوال. وليس كون الرهن في الآية في السفر مما يحظر في غيره^(٢).

كذلك أخذ بعض الفقهاء من قوله: ﴿فرهان مقبوضة﴾ أن الرهن لا يتم إلا بالقبض، فإذا افرق المتعاقدان من غير قبض كان الرهن غير صحيح بنص الآية وهذا مذهب الأحناف

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٣٧.

(٢) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٤٠٧.

والشافعية، ويرى المالكية والحنابلة أن الرهن يتم من غير القبض، لأن القبض حكم من أحكامه، فمن حق الدائن بعد تمام عقد الرهن أن يطالب بقبض العين المرهونة، فالقبض حكم من أحكام العقد، وليس ركنا من أركانه ولا شرطا لتمامه.

وقوله: ﴿فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله ربه﴾ تفريع على أحكام الديون السابقة، وحض على أداء الأمانة وعلى حسن المعاملة.

أى: فإن أمن الدائن المدين واعتمد على ذمته ووفائه ولم يوثق الدين بالكتابة والشهود والرهن، فعلى المدين أن يكون عند حسن ظن الدائن به بأن يؤدي ما عليه من ديون في الموعد المحدد بدون تسويق أو ماطلة، وعليه كذلك أن يتقى الله ربه في رعاية حقوق غيره فلا يجحدها ولا يتأخر في أدائها لأن الله العليم بكل شيء سيحاسب كل إنسان بما قدمت يداه.

وعبر - سبحانه - بقوله: ﴿فإن أمن﴾ دون أو أودع، للإشارة إلى الجانب الذى اعتمد عليه الدائن فى المدين وهو خلق الأمانة، فهو لا يرى فيه إلا جانباً مأموناً لا يتوقع منه شراً أو خيانة، وللتنبية إلى أن صفة الأمانة والوفاء من الصفات التى يجب أن يتحلّى بها المؤمنون جميعاً حتى ينالوا السعادة فى دينهم ودنياهم، عبر بقوله: ﴿فليؤد الذى أؤتمن﴾ ولم يقل فليؤد المدين لحضه: على الأداء بأحسن أسلوب، لأنه مادام الدائن قد ائتمنه على ما أعطاه من ديون، فعلى هذا الذى أؤتمن وهو المدين أن يكون عند حسن الظن به وأن يرد إليه حقه فى مواعده مع شكره على حسن ظنه به.

وقوله: ﴿أمانته﴾ أى دينه. والضمير يصح أن يعود إلى الدائن باعتباره مالك الدين، وإلى المدين باعتبار أن الدين عليه، وفى إضافتها - أى الأمانة - إلى المدين إشعار له بأنها عبء فى ذمته يجب أن يؤديه حتى يتخلص من تكاليفه، إذ الأمانة عبء ثقيل عند العقلاء الذين يشعرون بالمسئولية نحو أنفسهم ونحو غيرهم.

وجمع - سبحانه - بين صفتى الألوهية والربوبية فى قوله: ﴿وليتق الله ربه﴾ للمبالغة فى التحذير من الخيانة والماطلة فإنها يغضبان الله - تعالى - الذى خلق الإنسان ورباه وأسبغ عليه نعمه الظاهرة والباطنة، وإشعار هذا المدين بأن التقوى هى الوثيقة الكبرى التى لا تعدلها وثيقة أخرى من كتابة أو شهادة أو رهان.

وبذلك نرى لونا من ألوان التدرج الحكيم فى شريعة الله - تعالى - فانت ترى أن الله - تعالى - قد بين قبل ذلك أن الكتابة فى الديون والإشهاد عليها مطلوبان، فإن تعذرت الكتابة والشهادة لسبب من الأسباب فإنه يترخص حينئذ بالرهن المقبوض.

فإن تعذر على المدين المحتاج أن يدفع للدائن رهنا يكون الاعتماد على الأمانة التي هي صفة من صفات الصادقين.

فياله من تشريع حكيم، بين للناس ما يصلح شأنهم في دينهم وفي دنياهم.
ثم أمر الله تعالى - عباده بأن يؤدوا الشهادة على وجهها وألا يكتموها فقال - تعالى - :
﴿ولا تكتموا الشهادة ومن يكتتمها فإنه آثم قلبه﴾. أى : وعليكم - أيها المؤمنون - ألا تمتنعوا
عن أدائها إذا دعيتم إليها وألا تخفوها فإن الذى يخفيها ويمتنع عن أدائها يكون معاقباً من الله
- تعالى - بسبب ارتكابه لما نهى عنه.

وقد أسند - سبحانه - الإثم إلى القلب خاصة مع أن الإثم يسند إلى الشخص، لأن الإثم
في كتمان الشهادة عمل القلب لا عمل الجوارح، ولأن القلب أساس كل خير وكل شر، ففي
الحديث الشريف : ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد
الجسد كله ألا وهي القلب».

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا اقتصر على قوله ﴿فإنه آثم﴾ وما فائدة ذكر القلب
والجملة هي الأثمة لا القلب وحده؟ قلت : كتمان الشهادة هو أن يضمها ولا يتكلم بها. فلما
كان إثماً مقترناً بالقلب أسند إليه لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التي يعمل بها أبلغ، ألا تراك
تقول إذا أردت التوكيد : هذا مما أبصرته عيني، ووعاه قلبي . ولأن القلب هو رئيس الأعضاء
فكأنه قيل : ومن يكتتمها فقد تمكن الإثم من أصل نفسه، وملك أشرف مكان فيه : وثلاثاً يظن
أن كتمان الشهادة من الأثام التي تتعلق باللسان فقط. وليعلم أن القلب أصل متعلقه ومعدهن
اقترافه، واللسان ترجمان عنه. ولأن أفعال القلوب أعظم من أفعال سائر الجوارح، وهي لها
كالأصول التي تتشعب عنها. ألا ترى أن أصل الحسنات والسيئات الإيمان والكفر. وهما من
أفعال القلوب فإذا جعل كتمان الشهادة من آثام القلوب فقد شهد له بأنه من معاصم الذنوب.

وقوله : ﴿آثم﴾ خبر إن و﴿قلبه﴾ رفع بأثم على الفاعلية كأنه قيل : فإنه يآثم قلبه. ويجوز
أن يرتفع قلبه بالابتداء. وآثم خبر مقدم. والجملة خبر إن والضمير للشأن^(١).

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿والله بما تعملون عليم﴾ أى : والله - تعالى - عليم
بكل أعمالكم وأقوالكم وسائر شئونكم وسيجازى المحسنين إحساناً، والمسيئين سوءاً فعليكم
أيها المؤمنون أن تستجيبوا لأوامر الله، وأن تجتنبوا ما نهاكم عنه حتى تكونوا من السعداء.

فالجملة الكريمة تذييل قصد به الوعد الحسن للمؤمنين الصادقين، والوعيد الشديد للعصاة

المسيئين، حتى يزداد المؤمنون إيماناً، ويقلع العصاة عن عصيانهم وسيئاتهم.
وبعد هذا البيان الجامع الحكيم لطرق التعامل التي أباحها الله - تعالى - لعباده والتي حرّمها
عليهم، بين سبحانه - أن ما في السموات والأرض ملك له، وأنه سيحاسب عباده بما يقتضيه
علمه الشامل، وإرادته النافذة فقال - تعالى - .

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ

وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ

يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ

وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾

وما دام الأمر كذلك فعليكم - أيها المؤمنون - أن تبدلوا نهاية جهدكم في العمل الصالح
الذي بين أيديكم إنما هو عارية مستردة، وأن المالك الحقيقي له إنما هو الله رب العالمين، فأنفقوا
من هذا المال - الذي هو أمانة بين أيديكم - في وجوه الخير واجمعوه من طريق حلال، وكونوا
من القوم العقلاء الصالحين الذين لم تشغلهم دنياهم عن آخرهم، بل كانوا كما قالوا: ﴿ربنا
آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾.

وقوله - سبحانه - : ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ بيان لشمول علم
الله - تعالى - لما أظهره الإنسان أو أخفاه من أقوال وأعمال، وأنه سيحاسبه على ذلك بما
يستحقه من خير أو شر.

والجملة الكريمة صريحة في أن الله - تعالى - يحاسب العباد على نياتهم وما تكسبه قلوبهم
سواء أخفوه أم أظهروه.

وقد بين المحققون من العلماء أن هذه المحاسبة إنما تكون على ما يعزم عليه الإنسان ونيوه
ويصر على فعله، سواء أنفذ ما اعتزم عليه أم حالت دونه حوائل خارجة عن إرادته : كمن عزم
على السرقة واتخذ الوسائل لذلك ولكن لم يستطع التنفيذ لأسباب لم يتمكن معها من السرقة التي
أصر عليها.

أما الخواطر النفسية التي تجول في النفس، وتعرض للإنسان دون أن يعزم على تنفيذها، فإنها
ليست موضع مواخذة، بل إن التغلب عليها، وكفها بعد مكافحتها يجعله أهلاً للثواب.

ففى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله - تعالى - : إذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها عليه فإن عملها فكتبوها سيئة ، وإذا هم بحسنة فلم يعملها فكتبوها حسنة ، فإن عملها فكتبوها عشرًا^(١) .

وروى الجماعة فى كتبهم عن أبى هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ إن الله تجاوز لى عن أمتى ما وسوست به صدورها ما لم تعمل أو تتكلم^(٢) .

قال الفخر الرازى : الخواطر الحاصلة فى القلب على قسمين : فمنها ما يوطن الإنسان نفسه عليه ويعزم على إدخاله فى الوجود ، ومنها ما لا يكون كذلك ، بل تكون أمورًا خاطرة بالبال مع أن الإنسان يكرهها ولكنه لا يمكنه دفعها عن النفس .
فالقسم الأول يكون مؤاخذًا به .

والثانى لا يكون مؤاخذًا به ، ألا ترى إلى قوله - تعالى - : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى إيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ﴾^(٣) .

وقال الألوسى : المؤاخذة على تصميم العزم على إيقاع المعصية فى الأعيان وهو من الكيفيات النفسانية التى تلحق بالملكات ، وليس كذلك سائر ما يحدث فى النفس - أى من خواطر لا تصميم ولا عزم معها - قال بعضهم :

مراتب القصد خمس هاجس ذكروا فخواطر فحديث النفس فاستمعوا
يليه هم فعزم كلها رفعت سوى الأخير ففيه الأخذ قد وقعا^(٤)

وقوله - تعالى - : فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء « بيان لنتيجة المحاسبة التى تكون من الخالق - عز وجل - لعباده .

أى : أنه - سبحانه - بمقتضى علمه الشامل ، وإرادته النافذة ، يحاسب عباده على ما أسروه وما أعلنوه من أقوال وأعمال ، فيغفر بفضله لمن يشاء أن يغفر له ، ويعذب بعدله من يشاء أن يعذبه ، لا راد لمشيئته ولا معقب لحكمه .

وقوله : ﴿ فيغفر ﴾ ويعذب ، قرأه عاصم وابن عامر ويعقوب وأبو جعفر برفع الراء والباء على

(١) ، (٢) تفسير ابن كثير ج ١ صفحة ٢٣٩ .

(٣) تفسير الفخر الرازى ج ٧ صفحة ١٣٤ .

(٤) تفسير الألوسى ج ٣ صفحة ٦٤ .

الاستئناف أى فهو يغفر. وقرأ الباقون بإسكانها عطفًا على جواب الشرط وهو قوله: ﴿يَحَاسِبُكُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله فإن كمال قدرته - سبحانه - على جميع الأشياء موجب لقدرته على ما سبق ذكره من المحاسبة لعباده، وإثابة من يشاء إثابته وتعذيب من يشاء تعذيبه، فهو القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير. ثم ختم - سبحانه - سورة البقرة بآيتين كريمتين في أولهما أن رسالة النبي ﷺ امتداد للرسالات السماوية السابقة وخاتمة لها ومهيمنة عليها، وبين في الثانية أنه - سبحانه - لم يكلف الناس إلا بما في قدرتهم، وأنهم سيحاسبون على أعمالهم، وأن من شأن الأخيار أن يكثرُوا من التضرع إليه بخالص الدعاء. قال - تعالى -:

ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ
إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ
وَرُسُلِهِ لَأَنْفُرُقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ
اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ
رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ
عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا
تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا
أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

وقوله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ استئناف قصد به الإخبار عن الرسول ﷺ والمؤمنين بما يشرفهم ويعلى من أقدارهم ومنازلهم.

أى: صدق الرسول ﷺ بما أنزل إليه من ربه في هذه السورة وغيرها من العقائد والأحكام

والسنن والبيئات والهدايا تصديق إذعان وإقرار وإطمئنان، وكذلك المؤمنون الذين صدقوه واتبعوه آمنوا بما آمن به رسولهم وداعيتهم إلى الحق ﷺ.

وقد قرن - سبحانه - إيمان المؤمنين بإيمان رسولهم ﷺ تشریفًا لهم وللإشارة إلى أنهم متى صدقوا في إيمانهم كانت منزلتهم عند الله - تعالى - قريبة من منازل الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - .

وفي تأخيرهم في الذكر إشارة إلى تأخر التابع عن المتبوع، وإشارة إلى أن النبي ﷺ هو أول من آمن بما أوحى إليه من ربه، وهو أقوى الناس إيمانًا، وأصدقهم يقينًا. وأكثرهم استجابته لأوامر الله .

وقوله : ﴿كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾ بيان للإيمان الكامل الذي اعتقدوه وصدقوا به .

أى : كل فريق من هذين الفريقين وهما الرسول والمؤمنون آمن إيمانًا تامًا بوجود الله - تعالى - ووحدانيته، وكمال صفاته، ووجوب الخضوع والعبادة له، وبوجود الملائكة وأنهم عباد مكرمون ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ كما آمنوا بكتب الله التي أنزلها لسعادة البشر، وبرسله الذين أرسلهم لإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

ثم بين - سبحانه - أن من صفات هؤلاء الأخيار أنهم لا يفرقون بين رسل الله - تعالى - فقال : ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ أى يقولون لا نفرق في الإيمان بين رسل الله - تعالى - وإنما نؤمن بهم جميعًا، ونصدق برسالة كل رسول أرسله الله - تعالى - ولا نقول كما قال الضالون ﴿نؤمن ببعض ونكفر ببعض﴾ .

ثم حكى - سبحانه - ما قالوه مما يدل على صدق إيمانهم، ونقاء نفوسهم وطهارة قلوبهم فقال : «وقالوا سمعنا وأطعنا» أى : وقالوا سمعنا قولك وفهمناه، وامثلنا أمرك - يا هنا - واستقمنا عليه، وصبرنا على تكاليفه بكل رضا واستسلام. «غفرانك ربنا» أى اغفر لنا غفرانك الذى هو من فضل رحمتك ونعمك فأنت ربنا وخالقنا والعليم بأحوالنا وبضعفنا.

فقوله : ﴿غفرانك﴾ مصدر منصوب على المفعول المطلق والعامل فيه مقدر أى : اغفر غفرانك. وقوله : ﴿وإليك المصير﴾ أى : وإليك وحدك المرجع والمآب، ومنك وحدك يكون الحساب والثواب والعقاب، ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ .

وبذلك نرى أن هذه الآية الكريمة قد مدحت الرسول ﷺ مدحًا عظيمًا، ومدحت أتباعه المؤمنين الصادقين لاستجابتهم لأوامر الله ونواهيه، وتضرعهم إليه بخالص الدعاء أن يغفر لهم ما فرط منهم .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر رحمته بعباده فقال : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ والوسع - كما يقول الزمخشري - : ما يسع الإنسان ، ولا يضيق عليه ، ولا يخرج فيه ، أى لا يكلفها إلا ما يتسع فيه طوقه ، ويتيسر عليه دون مدى الطاقة والمجهود . وهذا إخبار عن عدله . ورحمته كقوله - تعالى - : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ لأنه كان فى إمكان الإنسان وطاقته أن يصلى أكثر من الخمس ، ويصوم أكثر من الشهر ، ويجمع أكثر من حجة^(١) .

فالجملـة الكريمة تحكى لنا بعض مظاهر فضل الله علينا ورحمته بنا ، حيث كلفنا بما تسعه قدرتنا ، وتستطيعه نفوسنا ، وقد حكى القرآن هذا المعنى فى آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ ما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾ وقوله - تعالى - : ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ .

وإذا كانت بعض التكاليف التى كلفنا الله بها فيها مشقة ، فإن هذه المشقة محتملة وفى وسع الإنسان وقدرته وطاقته ، وسيثينا الله - تعالى - عليها ثواباً جزيلاً ، فهو القائل : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ .

ثم بين - سبحانه - أن كل نفس ستجازى بما عملت فقال : ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ أى لها وحدها ثواب ما كسبت من حسنات بسبب أعمالها الصالحة ، وعليها وحدها عقاب ما اكتسبت من سيئات بسبب أعمالها القبيحة .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم خص الخير بالكسب ، والشر بالاكْتساب ؟ قلت . فى الاكْتساب اِعْتِمَال ، فلما كان الشر مما تشتهيه النفس وهى منجذبة إليه وأمارة به ، كانت فى تحصيله أعمل وأجد ، فجعلت لذلك مكتسبة فيه ، ولما لم تكن كذلك فى باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال^(٢) .

وقال الأستاذ الإمام محمد عبده : « لا شك أن الميل إلى الخير مما أودع فى نفس الإنسان ، والإنسان يفعل الخير بطبعه وتكون فيه لذته . ولا يحتاج إلى تكلف فى فعل الخير ، لأنه يعلم أن كل أحد يرتاح إليه ويراه بعين الرضا وأما الشر فإنه يعرض للنفس بأسباب ليست من طبيعتها ولا من مقتضى فطرتها ومهما كان الإنسان شريراً فإنه لا يخفى عليه أن الشر ممقوت عند الناس وصاحبه مهين عندهم . . وهكذا شأن الإنسان عند اِقْتِرَاف كل شر يشعر فى نفسه بقبحه ، ويجد

(١) تفسير الكشاف ج ١ صفحة ٣٣٢ .

(٢) تفسير الكشاف ج ١ صفحة ٣٣٢ .

من أعماق سريره هاتفا يقول له : لا تفعل ، ومحاسبه بعد الفعل ويوبخه إلا في النادر . . . ﴿١﴾ .
وبعد بيان سنة الله - تعالى - في التكليف وفي الجزاء عليه ، ختم - سبحانه - السورة
الكريمة بتلك الدعوات الجامعات للسعادة حتى يكثر المؤمنون من التضرع بها فقال - تعالى - :
﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ أى : ربنا يا واسع العفو والمغفرة لا تؤاخذنا أى لا تعاقبنا
﴿إن نسينا﴾ أمرك ونهيك ﴿أو أخطأنا﴾ ففعلنا خلاف الصواب جهلا منا بوجهه الشرعى .

فأنت ترى أن هؤلاء الذين اتقوا ربهم ، فصفت نفوسهم ، وطهرت قلوبهم ، وخشعت
جوارحهم ، يتضرعون إلى الله أن يغفر لهم ما فرط منهم نسيانا أو خطأ ، وذلك لأن المؤمن عندما
يصل إلى هذه الدرجة من التقوى والصفاء يشعر بأن الله - تعالى - يحاسبه على مالا حساب
عليه ، ويشعر بأن حسناته - مهما كثرت - فهي قليلة بجانب هفواته وسيئاته ، فهو لشدة خشيته
من الله يرجع جانب المؤاخذة على جانب العفو فيكثر من الضراعة والدعاء .

وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذا المعنى بقوله : فإن قلت : النسيان والخطأ متجاوز عنها
فما معنى الدعاء بترك المؤاخذة بهما ؟ قلت : . . . لأنهم كانوا متقين الله حق تقاته ، فما كانت
تفرط منهم فرطة إلا على وجه النسيان والخطأ . فكان وصفهم بالدعاء بذلك إيذاناً ببراءة
ساحتهم عما يؤاخذون به . كأنه قيل : إن كان النسيان والخطأ مما يؤاخذ به ، فما فيهم سبب
مؤاخذة إلا الخطأ والنسيان . ويجوز أن يدعو الإنسان بما علم أنه حاصل له قبل الدعاء من
فضل الله لاستدامته والاعتداد بالنعمة فيه ﴿٢﴾ .

هذا هو الدعاء الأول الذى حكاه القرآن عن المؤمنين الصادقين .

أما الدعاء الثانى فهو قوله - سبحانه - : ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين
من قبلنا﴾ .

والإصر فى اللغة : الثقل والشدة . مأخوذ من أصر بمعنى حبس ، فكأنه يجبس صاحبه فى
مكانه فيمنعه من الحركة .

والمعنى : أن أولئك يضرعون إلى الله - تعالى - ألا يلقى تكاليف وأعباء شديدة ، يثقل
عليهم حملها ويعجزون عن أدائها ، كما كان الحال بالنسبة للذين سبقوهم ؛ فقد كلف الله
- تعالى - بنى إسرائيل بتكاليف شاقة ثقيلة بسبب تعنتهم وفسوقهم عن أمره ، ومن ذلك

(١) تفسير المنار ج ٣ صفحة ١٤٦ .

(٢) تفسير الكشاف ج ١ صفحة ٣٣٢ .

تكليفهم بقتل أنفسهم إذا أرادوا أن يتوبوا توبة صادقة، وتحريم بعض الطيبات عليهم بسبب ظلمهم قال - تعالى - : ﴿بِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِم طيبات أحلت لهم . . .﴾ .
قال الرازى : والمؤمنون إنما طلبوا هذا التخفيف لأن التشديد مظنة التقصير . والتقصير موجب للعقوبة ، ولا طاقة لهم بعذاب الله - تعالى - فلا جرم التمسوا السهولة في التكليف^(١) .

أما الدعاء الثالث فهو قوله - تعالى - : ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾ .
الطاقة - كما يقول الراغب - : اسم لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقة ، وذلك تشبيه بالطوق المحيط ، فقوله - تعالى - : ﴿لا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾ أى ما يصعب علينا مزاولته ، وليس معناه لا تحملنا ما لا قدرة لنا به^(٢) .

فالطاقة على هذا تكون فيما فعله بأقصى القدرة والقوة .

أى : ونسألك يا ربنا ألا تحملنا ما هو فوق طاقتنا وقدرتنا من المصائب والعقوبات وغير ذلك من الأمور التى لا نستطيعها .

وهذا الدعاء هو تدرج مترتب على الدعاء السابق ، فهم هنا يلتمسون منه - سبحانه - ألا ينزل بهم ما هو فوق قدرتهم وطاقاتهم من بلايا ومحن ، بعد أن التمسوا منه ألا يكلفهم بتكاليف شاقة ثقيلة كما كلف الذين من قبلهم .

ثم حكى القرآن دعاءهم الرابع والخامس والسادس فقال : ﴿واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا﴾ أى نسألك يا ربنا أن تعفو عنا بأن تمحو عنا ما ألمنا به من ذنوب وتجاوز عنها ، وأن تغفر لنا سيئاتنا بأن تسترها ولا تفضحنا بإظهارها فأنت وحدك الغفار الستار . وأن ترحمنا برحمتك السابعة التى شملت كل شيء ، فإننا مع تقصيرنا فى طاعتك نأمل ألا تحرمنا من رحمتك فأنت تراهم قد تضرعوا إلى ربهم أن يعفو عنهم بأن يسقط عنهم العقاب وأن يغفر لهم بأن يستر عليهم ذنوبهم فلا يفضحهم بها ، وأن يشملهم بعطفه ورحمته .

وهى دعوات تدل على رقة إحساسهم ، ونقاء نفوسهم ، وشدة خشيتهم من ربهم ، وشعورهم نحوه بالتقصير مهما قدموا من أعمال صالحة .

ثم ختموا دعاءهم بقوله - تعالى - : ﴿أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ أى : أنت مولانا وانصرنا وحافظنا ومعيننا ومدنا بالخير والهدى فانصرنا يا ربنا على القوم الكافرين لكى تكون

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٧ - صفحة ١٥٧ .

(٢) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني صفحة ٣١٢ .

كلمتك هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى.

وقولهم: ﴿أنت مولانا﴾ يدل على نهاية خضوعهم وتذللهم وطاعتهم لله رب العالمين، لأنهم قد اعترفوا بأنه - سبحانه - هو المتولى لكل نعمه يصلون إليها.

قال ابن كثير: وقد ورد في صحيح مسلم عن النبي ﷺ: - أن الله - تعالى - قال عقب كل دعوة من هذه الدعوات: قد فعلت.

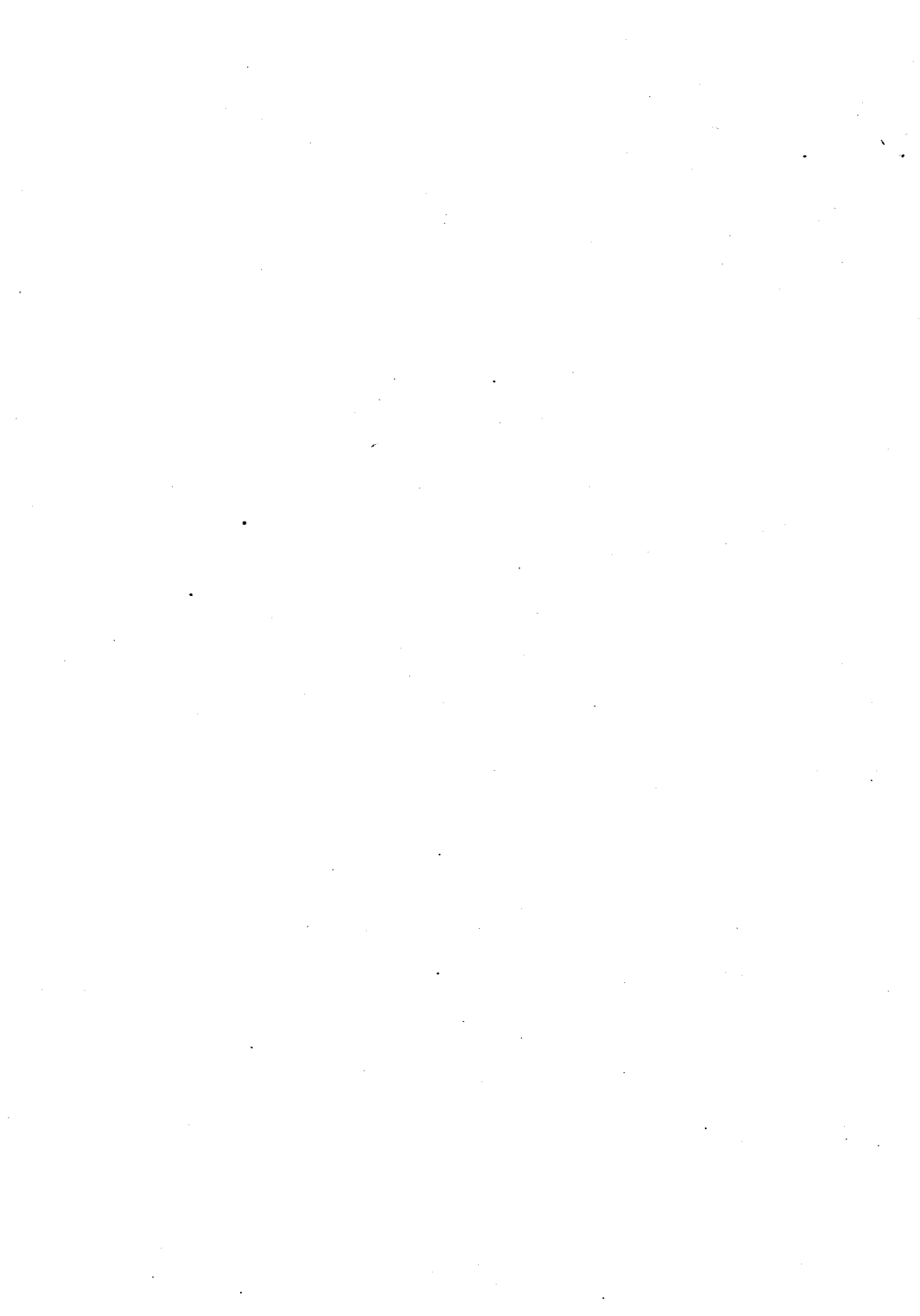
وروى البخارى والجماعة عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: - من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه».

وروى الإمام أحمد عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: أعطيت خوانيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطهن نبي قبلى».

وبعد فهذه هي سورة البقرة التي اشتملت على ما يشفى الصدور، ويهدى القلوب، ويصلح النفوس: من توجيهات سامية، وأداب حميدة، وعقائد سليمة، وتشريعات حكيمة، وأمثال هادبة، وقصص من شأنه أن يغرس في النفوس الخلق القويم، وأن يغريها بالاعتناظ والاعتبار حتى تكون ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه.

ولقد سبق لنا أن تكلمنا قبل البدء في تفسيرها عن وقت نزولها، وعن فضلها وعن مقاصدها الإجمالية...

والله نسأل أن ينفعنا بها وبكتابه الكريم، وأن يجعل أقوالنا وأعمالنا خالصة لوجهه، ونافعة لعباده. اللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور أبصارنا وبصائرنا، وجلاء همنا وحزننا، وأعنا على إتمام ما قصدناه بفضلك ورعايتك يا أكرم الأكرمين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن سار على طريقته إلى يوم الدين.



الفهرس

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
سورة الفاتحة		
١	بسم الله الرحمن الرحيم	١١
٢	الحمد لله رب العالمين	١٥
٣	الرحمن الرحيم	١٧
٤	مالك يوم الدين	٢٠
٥	إياك نعبد وإياك نستعين	٢١
٦	إهدنا الصراط المستقيم	٢٢
٧	صراط الذين أنعمت عليهم	٢٤
سورة البقرة		
١	الم	٢٧
٢	ذلك الكتاب لا ريب فيه	٣٧
٣	الذين يؤمنون بالغيب	٣٩
٤	والذين يؤمنون بما أنزل إليك	٤٢
٥	أولئك على هدى من ربهم	٤٥
٦	إن الذين كفروا سواء عليهم	٤٦
٧	ختم الله على قلوبهم	٤٨
٨	ومن الناس من يقول آمنا	٥٠
٩	يخادعون الله والذين آمنوا	٥٣
١٠	في قلوبهم مرض فزادهم	٥٥
١١	وإذا قيل لهم لا تفسدوا	٥٦
١٢	ألا إنهم هم المفسدون	٥٧
١٣	وإذا قيل لهم آمنوا	٥٨
١٤	وإذا لقوا الذين آمنوا	٥٩
١٥	الله يستهزئ بهم	٦٠

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
١٦	أولئك الذين اشتروا	٦٢
١٧	مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً	٦٣
١٨	صم بكم عمى فهم لا يرجعون	٦٥
١٩	أو كصيب من السماء	٦٦
٢٠	يكاد البرق يخطف أبصارهم	٦٧
٢١	يأبىها الناس اعبدوا ربكم	٧٠
٢٢	الذى جعل لكم الأرض	٧٢
٢٣	وإن كنتم فى ريب مما نزلنا	٧٤
٢٤	فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا	٧٧
٢٥	وبشر الذين آمنوا	٨٠
٢٦	إن الله لا يستحي أن يضرب	٨٢
٢٧	الذين ينقضون عهد الله	٨٦
٢٨	كيف تكفرون بالله	٨٨
٢٩	هو الذى خلق لكم ما فى الأرض	٨٩
٣٠	وإذ قال ربك للملائكة	٩٠
٣١	وعلم آدم الأسماء كلها	٩٤
٣٢	قالوا سبحانك لا علم لنا	٩٥
٣٣	قال يا آدم أنبئهم	٩٦
٣٤	وإذ قلنا للملائكة اسجدوا	٩٧
٣٥	وقلنا يا آدم اسكن أنت	٩٩
٣٦	فأزلهما الشيطان عنها	١٠١
٣٧	فتلقى آدم من ربه كلمات	١٠٢
٣٨	قلنا اهبطوا منها جميعاً	١٠٣
٣٩	والذين كفروا وكذبوا	١٠٤
٤٠	يا بنى إسرائيل اذكروا	١٠٥
٤١	وآمنوا بما أنزلت مصداقاً	١٠٧
٤٢	ولا تلبسوا الحق بالباطل	١٠٩
٤٣	وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة	١١٠
٤٤	أتأمرون الناس بالبر	١١١

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
٤٥	واستعينوا بالصبر والصلاة	١١٢
٤٦	الذين يظنون أنهم ملاقور بهم	١١٣
٤٧	يا بني إسرائيل اذكروا	١١٥
٤٨	واتقوا يوما لا تجزى	١١٨
٤٩	وإذ نجيناكم من آل فرعون	١٢١
٥٠	وإذ فرقنا بكم البحر	١٢٤
٥١	وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة	١٢٧
٥٢	ثم عفونا عنكم من بعد ذلك	١٢٨
٥٣	وإذ آتينا موسى	١٢٩
٥٤	وإذ قال موسى لقومه	١٣١
٥٥	وإذ قتلتم يا موسى	١٣٤
٥٦	ثم بعثناكم من بعد موتكم	١٣٧
٥٧	وظللنا عليكم الغمام	١٣٨
٥٨	وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية	١٤٠
٥٩	فبدل الذين ظلموا قولا	١٤٢
٦٠	وإذ استسقى موسى	١٤٣
٦١	وإذ قتلتم يا موسى	١٤٦
٦٢	إن الذين آمنوا والذين هادوا	١٥٦
٦٣	وإذ أخذنا ميثاقكم	١٥٨
٦٤	ثم توليتم من بعد ذلك	١٦٠
٦٥	ولقد علمتم الذين اعتدوا	١٦٠
٦٦	فجعلناها نكالا	١٦٢
٦٧	وإذ قال موسى لقومه	١٦٢
٦٨	قالوا ادع لنا ربك	١٦٥
٦٩	قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها	١٦٦
٧٠	قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي	١٦٧
٧١	قال إنه يقول إنها بقرة	١٦٨
٧٢	وإذ قتلتم نفسا	١٦٩
٧٣	فقلنا اضربوه ببعضها	١٧١

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
٧٤	ثم قست قلوبكم	١٧٣
٧٥	أفتطمعون أن يؤمنوا لكم	١٧٨
٧٦	وإذا لقوا الذين آمنوا	١٨٠
٧٧	أولا يعلمون أن الله يعلم	١٨١
٧٨	ومنهم أميون لا يعلمون	١٨٢
٧٩	فويل للذين يكتبون	١٨٣
٨٠	وقالوا لن نمسنا النار	١٨٤
٨١	بلى من كسب سيئة	١٨٧
٨٢	والذين آمنوا وعملوا	١٨٧
٨٣	وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل	١٨٨
٨٤	وإذ أخذنا ميثاقكم	١٩٠
٨٥	ثم أنتم هؤلاء تقتلون	١٩٢
٨٦	أولئك الذين اشتروا	١٩٤
٨٧	ولقد آتينا موسى	١٩٤
٨٨	وقالوا قلوبنا غلف	١٩٦
٨٩	ولما جاءهم كتاب	١٩٧
٩٠	بشما اشتروا به	١٩٩
٩١	وإذا قيل لهم آمنوا	٢٠١
٩٢	ولقد جاءكم موسى	٢٠٤
٩٣	وإذ أخذنا ميثاقكم	٢٠٥
٩٤	قل إن كانت لكم الدار	٢١٠
٩٥	ولن يتمنوه أبداً	٢١٣
٩٦	ولتجدنهم أحرص الناس	٢١٤
٩٧	قل من كان عدوا لجبريل	٢١٦
٩٨	من كان عدوا لله وملائكته	٢١٩
٩٩	ولقد أنزلنا إليك آيات	٢٢١
١٠٠	أو كلها عاهدوا عهدا	٢٢١
١٠١	ولما جاءهم رسول	٢٢٢
١٠٢	واتبعوا ما تتلو الشياطين	٢٢٦

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
١٠٣	ولو أنهم آمنوا واتقوا	٢٣١
١٠٤	يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا	٢٣٦
١٠٥	ما يود الذين كفروا	٢٣٩
١٠٦	ما ننسخ من آية أو ننسها	٢٤١
١٠٧	ألم تعلم أن الله له ملك	٢٤٢
١٠٨	أم تريدون أن تسألوا	٢٤٣
١٠٩	ود كثير من أهل الكتاب	٢٤٣
١١٠	وأقيموا الصلاة	٢٤٦
١١١	وقالوا لن يدخل الجنة	٢٤٧
١١٢	بلى من أسلم وجهه	٢٥٠
١١٣	وقالت اليهود ليست النصارى	٢٥١
١١٤	ومن أظلم ممن منع مساجد الله	٢٥٣
١١٥	ولله المشرق والمغرب	٢٥٥
١١٦	وقالوا اتخذ الله ولدا	٢٥٥
١١٧	بديع السموات والأرض	٢٥٧
١١٨	وقال الذين لا يعلمون	٢٥٨
١١٩	إنا أرسلناك بالحق	٢٦١
١٢٠	ولن ترضى عنك اليهود	٢٦٢
١٢١	الذين آتيناهم الكتاب	٢٦٣
١٢٢	يا بني إسرائيل اذكروا	٢٦٤
١٢٣	واتقوا يوما لا تجزى	٢٦٤
١٢٤	وإذ ابتلى إبراهيم ربه	٢٦٥
١٢٥	وإذ جعلنا البيت	٢٦٧
١٢٦	وإذ قال إبراهيم رب اجعل	٢٧٠
١٢٧	وإذ يرفع إبراهيم القواعد	٢٧٢
١٢٨	ربنا واجعلنا مسلمين لك	٢٧٣
١٢٩	ربنا وابعث فيهم رسولا منهم	٢٧٤
١٣٠	ومن يرغب عن ملة إبراهيم	٢٧٥
١٣١	إذ قال له ربه أسلم	٢٧٦

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
١٣٢	ووصى بها إبراهيم بنيه	٢٧٦
١٣٣	أم كنتم شهداء	٢٧٧
١٣٤	تلك أمة قد خلت	٢٧٧
١٣٥	وقالوا كونوا هودا	٢٨٠
١٣٦	قولوا آمنا بالله	٢٨٣
١٣٧	فإن آمنوا بمثل ما آمنتم	٢٨٤
١٣٨	صبغة الله ومن أحسن	٢٨٦
١٣٩	قل أتحتاجوننا في الله	٢٨٧
١٤٠	أم تقولون إن إبراهيم	٢٨٨
١٤١	تلك أمة قد خلت	٢٩٠
١٤٢	سيقول السفهاء	٢٩٤
١٤٣	وكذلك جعلناكم أمة وسطا	٢٩٦
١٤٤	قد نرى تقلب وجهك	٢٩٨
١٤٥	ولئن أتيت الذين	٣٠٠
١٤٦	الذين آتيناهم الكتاب	٣٠٢
١٤٧	الحق من ربك	٣٠٢
١٤٨	ولكل وجهة هو موليها	٣٠٣
١٤٩	ومن حيث خرجت	٣٠٣
١٥٠	ومن حيث خرجت	٣٠٣
١٥١	كما أرسلنا فيكم	٣٠٦
١٥٢	فاذكروني أذكركم	٣٠٩
١٥٣	يأياها الذين آمنوا استعينوا	٣١١
١٥٤	ولا تقولوا لمن يقتل	٣١٢
١٥٥	ولنبلونكم بشيء من	٣١٤
١٥٦	الذين إذا أصابتهم	٣١٦
١٥٧	أولئك عليهم صلوات	٣١٧
١٥٨	إن الصفا والمروة	٣١٩
١٥٩	إن الذين يكتُمون	٣٢٣
١٦٠	إلا الذين تابوا	٣٢٦

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
١٦١	إن الذين كفروا	٣٢٦
١٦٢	خالدين فيها لا يخفف	٣٢٧
١٦٣	والهكم إله واحد	٣٢٨
١٦٤	إن في خلق السموات	٣٢٩
١٦٥	ومن الناس من يتخذ	٣٣٦
١٦٦	إذ تبرأ الذين اتبعوا	٣٣٨
١٦٧	وقال الذين اتبعوا	٣٤٠
١٦٨	يأبها الناس كلوا مما	٣٤١
١٦٩	إنما يأمركم بالسوء	٣٤٤
١٧٠	وإذا قيل لهم اتبعوا	٣٤٦
١٧١	ومثل الذين كفروا	٣٤٧
١٧٢	يأبها الذين آمنوا	٣٤٩
١٧٣	إنما حرم عليكم الميتة	٣٥٠
١٧٤	إن الذين يكتُمون ما أنزل الله	٣٥٤
١٧٥	أولئك الذين اشتروا	٣٥٧
١٧٦	ذلك بأن الله نزل الكتاب	٣٥٨
١٧٧	ليس البر أن تولوا	٣٥٩
١٧٨	يأبها الذين آمنوا كتب	٣٦٧
١٧٩	ولكم في القصاص حياة	٣٧٢
١٨٠	كتب عليكم إذا حضر	٣٧٤
١٨١	فمن بدله بعدما سمعه	٣٧٧
١٨٢	فمن خاف من موص جثفا	٣٧٧
١٨٣	يأبها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام	٣٧٩
١٨٤	أياما معدودات	٣٨١
١٨٥	شهر رمضان	٣٨١
١٨٦	وإذا سألك عبادى	٣٩٠
١٨٧	أحل لكم ليلة الصيام	٣٩٢
١٨٨	ولا تأكلوا أموالكم	٤٠٠
١٨٩	يسألونك عن الأهلة	٤٠٣

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
١٩٠	وقاتلوا في سبيل الله	٤٠٦
١٩١	واقتلوهم حيث ثقتموهم	٤٠٩
١٩٢	فإن انتهوا فإن الله	٤١١
١٩٣	واقتلوهم حتى لا تكون	٤١٢
١٩٤	الشهر الحرام بالشهر الحرام	٤١٣
١٩٥	وأنفقوا في سبيل الله	٤١٦
١٩٦	وأتموا الحج والعمرة	٤١٧
١٩٧	الحج أشهر معلومات	٤٢٥
١٩٨	ليس عليكم جناح	٤٣٠
١٩٩	ثم أفيضوا من حيث	٤٣٣
٢٠٠	فيذا قضيتم	٤٣٤
٢٠١	ومن الناس من يقول	٤٣٥
٢٠٢	أولئك لهم نصيب مما كسبوا	٤٣٦
٢٠٣	واذكروا الله في أيام	٤٣٧
٢٠٤	ومن الناس من يعجبك	٤٣٩
٢٠٥	وإذا تولى سعى في الأرض	٤٤١
٢٠٦	وإذا قيل له اتق الله	٤٤٢
٢٠٧	ومن الناس من يشرى	٤٤٥
٢٠٨	بأيها الذين آمنوا ادخلوا	٤٤٧
٢٠٩	فإن زلتم من بعد ما جاءتكم البينات	٤٤٩
٢١٠	هل ينظرون إلا أن يأتيهم	٤٥٠
٢١١	سل بني إسرائيل	٤٥٢
٢١٢	زين للذين كفروا	٤٥٣
٢١٣	كان الناس أمة واحدة	٤٥٦
٢١٤	أم حسبتم أن تدخلوا الجنة	٤٦٢
٢١٥	يسألونك ماذا ينفقون	٤٦٦
٢١٦	كتب عليكم القتال	٤٦٨
٢١٧	يسألونك عن الشهر الحرام	٤٧١
٢١٨	إن الذين آمنوا والذين هاجروا	٤٧٧

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
٢١٩	يسألونك عن الخمر	٤٧٩
٢٢٠	ويسألونك عن اليتامى	٤٨٥
٢٢١	ولا تنكحوا المشركات	٤٨٨
٢٢٢	ويسألونك عن المحيض	٤٩٣
٢٢٣	نساؤكم حرث لكم	٤٩٧
٢٢٤	ولا تجعلوا الله عرضة	٤٩٩
٢٢٥	لا يؤاخذكم الله باللغو	٥٠١
٢٢٦	للذين يؤلون من نسائهم	٥٠٢
٢٢٧	وإن عزموا الطلاق	٥٠٤
٢٢٨	والمطلقات يتربصن	٥٠٥
٢٢٩	الطلاق مرتان	٥١٣
٢٣٠	فإن طلقها فلا تحل له	٥١٨
٢٣١	وإذا طلقتم النساء	٥٢٠
٢٣٢	وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن	٥٢٣
٢٣٣	والوالدات يرضعن	٥٢٧
٢٣٤	والذين يتوفون منكم	٥٣٢
٢٣٥	ولا جناح عليكم فيما عرضتم	٥٣٦
٢٣٦	لا جناح عليكم إن طلقتم	٥٤٠
٢٣٧	وإن طلقتموهن من قبل أن	٥٤٣
٢٣٨	حافظوا على الصلوات	٥٤٥
٢٣٩	فإن خفتن فرجالا	٥٤٨
٢٤٠	والذين يتوفون منكم ويذرون	٥٥٠
٢٤١	وللمطلقات متاع	٥٥٣
٢٤٢	كذلك بين الله لكم آياته	٥٥٤
٢٤٣	ألم تر إلى الذين خرجوا	٥٥٥
٢٤٤	وقاتلوا في سبيل الله	٥٥٩
٢٤٥	من ذا الذي يقرض الله	٥٦٠
٢٤٦	ألم تر إلى الملا من بني إسرائيل	٥٦٣
٢٤٧	وقال لهم نبههم إن الله قد	٥٦٥

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
٢٤٨	وقال لهم نبيهم إن آية ملكه	٥٦٧
٢٤٩	فلما فصل طالوت	٥٦٨
٢٥٠	ولما برزوا لجالوت	٥٧٢
٢٥١	فهزموهم بإذن الله	٥٧٣
٢٥٢	تلك آيات الله نتلوها	٥٧٥
٢٥٣	تلك الرسل فضلنا	٥٧٧
٢٥٤	يأياها الذين آمنوا أنفقوا	٥٨١
٢٥٥	الله لا إله إلا هو الحي	٥٨٣
٢٥٦	لا إكراه في الدين	٥٨٨
٢٥٧	الله ولى الذين آمنوا	٥٩١
٢٥٨	ألم تر إلى الذى حاج	٥٩٢
٢٥٩	أو كالذى مر على قرية	٥٩٥
٢٦٠	وإذ قال إبراهيم رب	٥٩٩
٢٦١	مثل الذين ينفقون	٦٠٢
٢٦٢	الذين ينفقون أموالهم	٦٠٤
٢٦٣	قول معروف ومغفرة	٦٠٥
٢٦٤	يأياها الذين آمنوا لا تبطلوا	٦٠٧
٢٦٥	ومثل الذين ينفقون	٦١٠
٢٦٦	أيود أحدكم أن تكون	٦١٢
٢٦٧	يأياها الذين آمنوا أنفقوا	٦١٤
٢٦٨	الشيطان يعدكم الفقر	٦١٧
٢٦٩	يؤتى الحكمة من يشاء	٦١٨
٢٧٠	وما أنفقتم من نفقة	٦٢٠
٢٧١	إن تبدوا الصدقات	٦٢١
٢٧٢	ليس عليك هداهم	٦٢٢
٢٧٣	للفقراء الذين أحصروا	٦٢٥
٢٧٤	الذين ينفقون أموالهم	٦٢٩
٢٧٥	الذين يأكلون الربا	٦٣١
٢٧٦	يمحق الله الربا	٦٣٧

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
٢٧٧	إن الذين آمنوا وعملوا	٦٣٨
٢٧٨	يأبها الذين آمنوا اتقوا الله	٦٣٨
٢٧٩	فإن لم تفعلوا	٦٣٩
٢٨٠	وإن كان ذو عسرة	٦٤٠
٢٨١	واتقوا يوما ترجعون	٦٤١
٢٨٢	يأبها الذين آمنوا إذا تدايتم	٦٤٣
٢٨٣	وإن كنتم على سفر	٦٥٢
٢٨٤	لله ما في السموات	٦٥٦
٢٨٥	آمن الرسول بما أنزل إليه	٦٥٨
٢٨٦	لا يكلف الله نفساً إلا وسعها	٦٦٠